

مؤلف رواية «شيفرة دافنتشي»

دان براون



INFERNO



علي مولا

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

الجحيم

INFERNO

رواية

تأليف

دان براون

Dan Brown

ترجمة

زينة إدريس

مراجعة وتحريـر

مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc. s.a.l

الجنة INFERNO

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي

Inferno

حقوق الترجمة العربية مخصص بها قانونياً من المؤلف
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

Copyright © 2013 by Dan Brown

All rights reserved

Arabic Copyright © 2013 by Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

الطبعة الأولى

1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0899-8

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: <http://www.asp.com.lb>

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو بآلة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل.

التتصيد وفرز الألوان: أيجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

أهلك الأماكن في الجحيم هي لأولئك الذين
يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية.

جميع الأعمال الفنية، والأدبية، والعلمية، والمراجع التاريخية المذكورة في هذه الرواية حقيقية.

"الكونسورتيوم" منظمة خاصة تملك مكاتب في سبع دول. وقد تم تغيير اسمها لاعتبارات الأمن والخصوصية.

الجحيم هو العالم السفلي كما وصفه دانتي أليغييري في ملحمة الكوميديا الإلهية، التي تصوّر الجحيم كعالم منظم بشكل متقن، تسكنه كيانات معروفة باسم "الظلال"، وهي أرواح بلا أجساد، عالقة بين الحياة والموت.

مقدمة

أنا الظل.

عبر المدينة الكنيية، أهرب.

عبر الولايات الأبدية، أطيّر.

على ضفتي نهر آرنو، أندفع لاهثاً... أنعطف يساراً إلى فيا داي كاستيلاني، وأشقّ طريقي شمالاً؛ محتتماً بظلال معرض أوفيزي.
لكنهم ما زالوا خلفي.

صدى خطاهم يعلو وهم يطاردونني بلا هوادة.

لاحقوني لسنوات. وإصرارهم أبقاني تحت الأرض... أجبرني على العيش في المطهر...
أكدح مختبئاً مثل وحش قابع تحت الأرض.
أنا الظل.

هنا فوق الأرض، أنظر إلى الشمال، لكنني أعجز عن إيجاد طريق مباشر إلى
الخلاص... فجبال الأبينين تحجب أولى أشعة الفجر.

أمرّ خلف القصر، بيرجه ذي الفُرجات وساعته ذات العقرب الواحد... أسير بين الباعة
في الصباح الباكر في بياتزا دي سان فيرينتسي التي تصدح بأصواتهم الخشنة وتقوح فيها رائحة
اللامبريوتو والزيتون المشوي. مررت أمام متحف بارغيلو، ثم اتجهت غرباً نحو برج باديا، لأجد
نفسى أمام البوابة الحديدية عند أسفل الدّرج.
الآن، عليّ أن أترك كلّ التّردّد خلفي.

أدّرت المقبض، وخطوت في الممرّ الذي أعرف أنّه لا عودة لي منه. حثّثت ساقيّ
الثقلتين على صعود الدّرج الضيق... ثمّ رحت أصدع إلى الأعلى بشكل لولبي على درجات
الرخام الملساء البالية.

تعالّت الأصوات من الأسفل متوسّلة.

كانوا خلفي، لا يتراجعون، بل يزدادون قرباً.

لا يفهمون ما هو آتٍ... ولا ما فعلته من أجلهم!

أرض ناكرة للجميل!

بينما أنا أصدع، تراودني الرؤى بكثافة... الأجساد الفاسقة تتلوّى في مطر من نار،
والأرواح الشرهة تعوم في الغدازة، والأشرار الخونة مجمّدون في قبضة الشيطان الجليدية.

أرتقي الدرجات الأخيرة، وأصل إلى الأعلى وأنا أترنح على شفير الموت في هواء الصباح الرطب. أندفع إلى جدار بطول قامتي، وأسترق النظر من خلال الشقوق. أرى في الأسفل المدينة المباركة التي جعلتها ملجأً لي ممن أبعدونني.

تنادي الأصوات وهي تقترب خلفي. "ما قمتَ به هو الجنون عينه!".
الجنون يؤكد الجنون.

يصيحون: "حباً بالله، أخبرنا أين خبأته!".

حباً بالله، لن أفعل.

أقف الآن محاصراً، وظهري مستند على الحجر البارد. يحقّقون في أعماق عيني الخضراوين الصافيتين، وتتجهّ تعابيرهم التي لم تعد تتملّقي، بل تتوعّد بالشرّ. "أنت تعرف أننا نملك أساليبنا الخاصة. يمكننا إجبارك على إخبارنا بمكانه".

لهذا السبب، صعدت نصف الطريق إلى السماء.

من دون سابق إنذار، استدرت ومددت يديّ إلى الأعلى، ثم كوّرت أصابعي حول الحافة العالية، ودفعت جسدي إلى الأعلى بركبتي، ووقفت... أترنح على حافة الهاوية. /رشدني، يا فيرجيل الحبيب، عبر الفراغ.

اندفعوا إلى الأمام بذهول ليمسكوا بقدمي، لكنهم خافوا أن أفقد توازني وأسقط. أخذوا يتوسّلون إليّ الآن بيأس صامت، لكنني كنت قد أدّرت ظهري. /عرف ما عليّ فعله.

تحتي، على مسافة بعيدة جداً، انتشرت أسطح القرميد الأحمر مثل بحر من نار فوق الحقول، منيرة الأرض الجميلة التي عاش عليها العمالقة في ما مضى... جيوتو، دوناتيلو، برونيليسكي، مايكل أنجلو، بوتيتشيلي.

دفعت أصابع قدمي فوق الحافة.

صرخوا: "انزل! لم يفت الأوان بعد!".

أيها الجهلة العنيدون! ألا ترون المستقبل؟ ألا تذكرون جمال ما فعلته وضروريته؟

سأقوم بكلّ سرور بهذه التضحية الأخيرة... ومعها سأقضي على آخر آمالكم بإيجاد ما تبحثون عنه.

لن تشعرُوا عليه أبداً في الوقت المناسب.

على بعد مئات الأقدام في الأسفل، أخذت الساحة المرصوفة بالحصى تتلأأ مثل واحة هائلة. كم أتوق إلى مزيد من الوقت... لكنّ الوقت هو السلعة الوحيدة التي لا يمكنني شراؤها؛ حتّى بثروتي الفاحشة.

في هذه الثواني الأخيرة، حققت إلى الساحة، ولمحت صورة أجفّلتني.

رأيت وجهك.

كنت تحدّقين إليّ عبر الظلال، بعينين حزينتين، لكنني رأيت فيهما احتراماً لما حقّفته. أنت تفهمين أنّه ليس لديّ الخيار. حباً بالجنس البشري، عليّ حماية تحفتي.

أخذ وجهك يكبر الآن... منتظراً... يلمع تحت مياه البحيرة الحمراء بلون الدم، التي لا
تعكس النجوم.

هكذا، أشحت بنظري عن عينيك وحتقت إلى الأفق. فوق هذا العالم المتقل بالهموم،
تضرعت للمرة الأخيرة.

إلهي الحبيب، أرجو أن يتذكر العالم اسمي ليس كخاطئ، بل على أنني المنقذ الذي تعرف
حقيقته. وأرجو أن يفهم البشر الهدية التي تركتها لهم.

هديتي هي المستقبل.

هديتي هي الخلاص.

هديتي هي الجحيم.

ثم همست: آمين... وخطوت خطوتي الأخيرة، إلى الهاوية.

الفصل 1

تجسدت الذكريات ببطء، مثل فقاعات تطفو على سطح بئر مظلمة بلا قرار.
امرأة ذات وشاح.

حدّق روبرت لانغدون إليها من الضفة الأخرى لنهر تتدفّق مياهه المتموجة ممزوجة بالدم.
على الضفة المقابلة، وقفت المرأة بمواجهته، بلا حراك، ووجهها الوقور مخبأً بوشاح. أمسكت
بيدها قطعة قماش تينيا زرقاء، ثم رفعتها تكريماً لبحر الجثث والأجساد الملقاة عند قدميها. كانت
رائحة الموت تفوح في كلّ مكان.
همست المرأة: من يبحث يجد.

سمع لانغدون كلماتها وكأنها تطفّت بها داخل رأسه. ناداه: "من أنت؟". لكن، لم يصدر
عنه أي صوت.

همست: الوقت يمضي. من يبحث يجد.

تقدّم لانغدون خطوة باتجاه النهر، لكنه رأى مياهه بلون الدم، وكانت عميقة جداً؛ حيث إنه
يتعذّر عليه اجتيازها. عندما نظر مجدداً إلى المرأة ذات الوشاح، كانت الجثث والأجساد عند
قدميها قد تضاعفت. أصبحت الآن بالمئات، لا بل بالآلاف. بعضها ما زال حياً؛ يتلوى وهو
يُحتضر، ويموت بأشكال لا يمكن تصوّرها... يحترق بالنار، أو يُدفن في البراز، أو يلتهم بعضه
بعضاً. كان بمقدوره سماع أصداء الصرخات الحزينة للبشر المعذبين وهي تتردّد عبر المياه.
اقتربت منه المرأة، مائة يديها النحيلتين، وكأنها تطلب المساعدة. صرخ لانغدون مجدداً:
"من أنت؟".

لم تجبه المرأة، بل مدّت يدها ونزعت الوشاح ببطء عن وجهها. كانت رائعة الجمال، لكنها
أكبر سناً ممّا تخيل؛ ربّما في العقد السادس من عمرها، جليلة وقوية، مثل تمثال. كان لديها فكّ
صارم وقويّ، وعينان عميقتان وحنونان، وشعر أجعد طويل فضّي اللون؛ يتموّج على كتفيها.
تدلّت من عنقها تميمة من اللازورد على شكل ثعبان ملتفّ حول صولجان. شعر لانغدون أنّه
يعرفها... ويتّقّ بها. لكن كيف؟ ولماذا؟

أشارت إلى ساقين بارزتين من الأرض تتلويان في الهواء. كانتا تنتميان على ما يبدو إلى
روح مسكينة دفنت رأساً على عقب حتّى وسطها. رأى على فخذ الرجل حرفاً واحداً مكتوباً
بالوحد: R.

فكر لانغدون: R؟ أي... روبرت؟ "أهذا... أنا؟".

لم يكشف له وجه المرأة شيئاً. كزرت هامسة: من يبحث يجد.
فجأة، بدأ يشع منها ضوء أبيض... ويزداد إشراقاً. ثم أخذ جسدها بأكمله يهتز بشدة، قبل
أن يصدر صوت صاخب كالرعد، وتتفجر متحوّلة إلى آلاف الشظايا المنيرة.
استيقظ لانغدون وهو يصرخ.

وجد نفسه بمفرده في غرفة مغمورة بالضوء. كان الهواء عابقاً برائحة الكحول الطيبة
الحادة، فيما تنأى إليه صوت آلة يرافق إيقاع قلبه. حاول تحريك ذراعه اليمنى، لكنّ ألماً حاداً
منعه من ذلك. نظر إليها ورأى إبرة مصل معلقة بساعده.
تسارع نبضه، فزادت الآلات من سرعتها، وراح طنينها يتسارع هو أيضاً.
أين أنا؟ ماذا حدث؟

شعر لانغدون بألم حاد في رأسه، فمدّ يده الأخرى بحذر، ولمس فروة رأسه، محاولاً تحديد
موقع الألم. تحت شعره الأجدع، عثر على الخيوط الصلبة لعشر قطب تقريباً مكسوة بالدم
الجاف.

أغمض عينيه محاولاً تذكر حادثة تعرّض لها.
لا شيء. مجرد فراغ تام.
فكر.

ظلام وحسب.

اندفع رجل بملابس طبية إلى الغرفة، وقد أثار قلقه على ما يبدو الصوت المتسارع
الصادر عن آلة مراقبة القلب. كان يمتاز بلحية مشعثّة، وشارب كث، وعينين لطيفتين يطغى
عليهما الهدوء، تحت حاجبيه العريضين.

قال لانغدون: "ماذا... جرى؟ هل تعرّضت لحادث؟".

وضع الرجل الملتحي إصبعه على شفتيه، ثم اننفع إلى الخارج، ونادى أحدهم.
التفت لانغدون، لكنّ تلك الحركة سبّبت له ألماً حاداً في جمجمته. أخذ أنفاساً عميقة،
وترك الألم يمضي. بعد ذلك، راح يعاين محيطه بتأنٍ ومنهجية.

كانت غرفة المستشفى تحتوي على سرير واحد. لا أزهار، ولا بطاقات. رأى
لانغدون ملابسه على طاولة قريبة، مطوية وموضوعة داخل كيس شفاف. وكانت مغطاة
بالدماء.

يا إلهي. لا بدّ أنّه كان حادثاً مروّعاً.

التفت ببطء شديد إلى النافذة القريبة من سريره. كان الظلام مخيماً في الخارج، ما يعني
أنّه الليل. لم يستطع لانغدون أن يرى سوى انعكاس صورته على الزجاج؛ كان يبدو غريباً
وشاحباً ومنهكاً، وموصولاً بالأنابيب والأسلاك، ومحاطاً بالمعدّات الطبية.

سمع أصواتاً في الممرّ، فحوّل نظره إلى داخل الغرفة مجدداً. عاد الطبيب برفقة امرأة هذه
المرّة.

بدأت المرأة في أوائل العقد الثالث من عمرها. كانت ترتدي ملابس طيبة زرقاء، وقد عقدت شعرها الأشقر الكثيف على شكل ذيل حصان، فراح يتأرجح خلفها وهي تمشي. ابتسمت في وجه لانغدون وهي تدخل، وقالت: "أنا د. سيبينا بروكس. ساعمل مع د. ماركوني الليلة".

هز لانغدون رأسه بضعف.

تقلت د. بروكس بقامتها الطويلة والرشيقة بمشية رياضي واثق. بدأت امرأة أنيقة؛ حتى بملابسها الطبية. وعلى الرغم من غياب أي أثر لمساحيق التجميل عن وجهها، لاحظ لانغدون أن بشرتها تبدو ناعمة على نحو غير عادي، ولا تشوبها شائبة؛ سوى شامة صغيرة فوق شفتيها. نظر عينيها البتيتين بدا خارقاً على نحو غير اعتيادي، وكأنه ينم عن عمق تجربة نادر ما يكتسبها شخص في مثل سنّها.

قالت وهي تجلس بجانبه: "لا يتقن د. ماركوني الإنكليزية، لذلك طلب مني أن أملاً استمارة دخولك". ابتسمت له مجدداً.

أجاب لانغدون بصوت خشن: "شكراً".

"حسناً". بدأت تطرح عليه أسئلتها بنبرة عملية: "ما اسمك؟".

فكر للحظة، ثم أجاب: "روبرت... لانغدون".

وجّهت مصباحاً صغيراً إلى عينيه وتابعَت تسأل. "ما مهنتك؟".

عادت إليه هذه المعلومة ببطء أكبر. "بروفيسور. تاريخ الفن... والرموز. جامعة هارفرد".

خفّضت د. بروكس الضوء، وبدأت عليها الدهشة، كما فوجئ الطبيب ذو الحاجبين الكَثِين.

"هل أنت... أميركي؟".

نظر إليها لانغدون بارتباك.

تردّدت ثم قالت: "في الواقع... لم تكن تملك بطاقة هوية عندما وصلت الليلة. كنت ترتدي سترة من ماركة هاريس نويد، وتتعل حذاء سوميرست، لذلك اعتقدنا أنك بريطاني".

أكد لها لانغدون قانلاً: "أنا أميركي". لكنّه كان مرهقاً جداً ليشرح لها أنّه يفضل الملابس التي تمتاز بجودة الخياطة.

"هل تشعر بأي ألم؟".

أجاب لانغدون: "رأسي"، وكان ألم رأسه قد تفاقم بسبب ضوء المصباح. لحسن الحظ، وضعته الطبيبة في جيبها قبل أن تمسك بيد لانغدون وتتحقّق من نبضه.

قالت: "استيقظت وأنت تصرخ، هل تذكر لماذا؟".

تذكّر لانغدون مجدداً الحلم الغريب وتلك المرأة المحاطة بالجنث. من يبحث يجد. "رأيت كابوساً".

"ماذا كان؟"

روى لها لانغدون الحلم.

لم يظهر أيّ تعبير على وجه د. بروكس، بل اكتفت بتدوين ملاحظات على ورقة. "هل لديك أيّ فكرة عن سبب هذا الكابوس المخيف؟"

فكر لانغدون، ثم هزّ رأسه نافياً فعاوده الشعور بالألم مجدداً.

قالت وهي تكتب: "حسناً، سيد لانغدون. أودّ أن أطرح عليك عدداً من الأسئلة الروتينية. أيّ يوم من أيام الأسبوع هو اليوم؟"

فكر لانغدون للحظة ثم أجاب: "إنه يوم السبت. أذكر أنني كنت أسير اليوم في حرم الجامعة... متوجّهاً لإلقاء سلسلة من المحاضرات بعض الظهيرة ثم... هذا آخر ما أذكره. هل سقطت؟"

"سنحدّث عن ذلك لاحقاً. هل تعرف أين أنت؟"

حاول لانغدون أن يخمن. "هل أنا في مستشفى ماساتشوستس العام؟"

دوّنت د. بروكس ملاحظة أخرى. "هل ثمة من علينا الاتصال به؟ زوجة؟ أولاد؟"

أجاب لانغدون تلقائياً: "لا أحد". لطالما استمتع بالوحدة والاستقلالية اللتين توفّرهما له حياة العزوبية التي اختارها، مع أنّه يقرّ الآن أنّه يفضل وجود وجه مألوف إلى جانبه في هذا الظرف. "لدي بعض الزملاء الذين يمكنني الاتصال بهم، لكنني بخير".

أنهت د. بروكس الكتابة، ثم اقترب الطبيب الأكبر سناً. سوى حاجبيه المشعّنين، وأخرج من جيبه آلة تسجيل صوتي صغيرة، ثم عرضها على د. بروكس. فأومأت له والتفتت مجدداً إلى مريضها.

"سيد لانغدون، عندما وصلت الليلة، كنت تتّم بكلام ما مراراً وتكراراً. ثم التفتت إلى د. مالكوني، الذي حمل آلة التسجيل وضغط على أحد الأزرار.

بدأ الشريط يتحرّك، وسمع لانغدون صوته المرتجف، وهو يتمّم تكراراً بالجملة نفسها: "Ve... sorry. Ve... sorry"

قالت المرأة: "يبدو لي وكأنك تقول: آسف جداً. آسف جداً".

وافقها لانغدون، إلّا أنّه لم يتذكّر.

رمقته د. بروكس بنظرة حادة. "هل لديك أيّ فكرة عن سبب قولك ذلك؟ هل كنت تتأسّف على شيء معيّن؟"

بحث لانغدون في ظلام ذاكرته، ولم ير سوى المرأة ذات الوشاح. كانت تقف على ضفة نهر أحمر بلون الدم محاطة بالجثث والأجساد التي تلفظ أنفاسها الأخيرة. عادت إليه رائحة الموت، وداهمه إحساس مفاجئ بالخطر... ليس عليه فحسب... بل على جميع الناس. تسارع طنين الآلات، فتصلّبت عضلاته، وحاول الجلوس.

وضعت د. بروكس يدًا حازمة على صدره، وأجبرته على الاستلقاء مجددًا. ثم ألقت نظرة على الطبيب الملحي الذي توجه إلى طاولة مجاورة، وبدأ يحضر شيئًا.

انحنيت د. بروكس فوق لانغدون وهمست قائلة: "سيد لانغدون، القلق حالة شائعة مع إصابات الدماغ، لكن عليك أن تبقى نبض قلبك بطيئًا. لا تتحرك، ولا تعرض نفسك لأي إثارة، بل تمدد واسترخ. ستكون بخير، وستسترجع ذاكرتك ببطء".

عاد الطبيب الآن حاملاً حقنة، أعطاها لبروكس التي ضخت محتوياتها في أنبوب المصل الموصول بذراع لانغدون.

شرحت له قائلة: "هذا مجرد مهدئ خفيف لتهنئة أعصابك ومساعدتك على تحمل الألم". ثم وقفت لتخرج مضيفة: "ستكون بخير، سيد لانغدون. خذ قسطاً من النوم. وإن احتجت إلى أي شيء، فاضغط على الزر المجاور لسريرك".

أطفأت المصباح، ثم خرجت مع الطبيب الملحي.

في الظلام، شعر لانغدون بالدواء المخدر يسري في جسده على الفور تقريباً، ويعيده إلى تلك البئر العميقة التي خرج منها. قاوم هذا الإحساس، وحاول أن يجبر عينيه على البقاء مفتوحتين في ظلام غرفته. حاول الجلوس، لكنه شعر أن جسده ثقيل كالإسمنت.

بينما كان لانغدون يتقلب، وجد نفسه مجددًا في مواجهة النافذة. بعدما انطفأ مصباح الغرفة، اختفى انعكاس صورته عن الزجاج الداكن، لتحل مكانه سماء مرصعة بالنجوم في البعيد.

وسط محيط من الأبراج والقبب، هيمنت واجهة ملكية واحدة على حقل لانغدون البصري. كان المبنى عبارة عن قلعة حجرية مهيبه، مع سور متلّم وبرج يعلو ثلاثمائة قدم، ثم ينتفخ عند قمته، ويبرز إلى الخارج على شكل شرفة ضخمة ذات فرجات.

هَبَ لانغدون جالساً على سريره، فيما غزت الأوجاع رأسه. قاوم الألم المبرح وثبت نظره على الريح.

كان لانغدون يعرف جيداً هذا البناء العائد إلى القرون الوسطى.

إنه فريد من نوعه في العالم.

مع الأسف، كان يقع أيضاً على بعد أربعة آلاف ميل من ماساتشوستس.

خارج النافذة، وخلف ظلال فيا توريجالي، ترجلت امرأة قوية البنية عن دراجتها النارية من طراز بي إم دبليو من دون أي مجهود، وتقدمت بخطى سريعة مثل نمر يطارد فريسته. كانت نظراتها حادة. برز شعرها القصير بتسريحة السبايكي من ياقة سترتها الجلدية السوداء المقلوبة

إلى الأعلى. تحققت من سلاحها المزود بكاتم للصوت، وحدقت إلى نافذة غرفة لانغدون التي انطفأت أنوارها للتو.

في وقت سابق من هذه الليلة، منيت مهمتها الأصلية بفشل ذريع.

هنيل حمامة واحدة غير كل شيء.

والآن عليها تصحيح الخطأ.

الفصل 2

أنا في فلورنسا!!

راح رأس روبرت لانغدون ينبض ألماً. جلس على سريره في المستشفى، وراح يضغط تكررًا على زرّ الاتصال. وعلى الرغم من المهدئات التي دخلت جسده، إلّا أنّ قلبه كان ينبض بعنف. أسرع د. بروكس عائدة، وشعرها يتمايل على ظهرها. "هل أنت بخير؟". هزّ لانغدون رأسه بحيرة. "هل أنا في... إيطاليا؟!". قالت: "هذا جيد، أنت تتذكّر".

"كلّا!". وأشار عبر النافذة إلى المبنى الضخم البعيد. "بل عرفت قصر فيكيو". أصابت د. بروكس المصباح مجدداً، فاخفتت سماء فلورنسا. اقتربت من سريره، وهمست بصوت منخفض: "سيد لانغدون، لا داعي للقلق. أنت تعاني من فقدان طفيف للذاكرة، لكنّ د. ماركوني أكّد أنّ دماغك بحالة جيّدة".

دخل الطبيب الملّحي مسرعاً هو الآخر؛ على الأرجح بعدما سمع الرنين. تحقّق من آلة مراقبة القلب، في حين تحدّثت معه الطبيبة الشابة بلغة إيطالية سريعة، وذكرت شيئاً عن أنّ لانغدون كان "أجيتاً" عندما علم أنّه في إيطاليا.

فكر لانغدون غاضباً: *اهتاجت أعصابي؟ بالأحرى ذهلت!* راح الأرنيتالين الذي غزا جسده يتصارع مع المهدئات. سألتها: "ماذا جرى لي؟ في أيّ يوم نحن؟!".

قالت: "كلّ شيء على ما يرام. نحن في صباح يوم الاثنين، الثامن عشر من مارس". *الاثنين! أجبر لانغدون عقله على استعادة الصور الأخيرة التي استطاع تذكرها؛ كان يمشي وحده في حرم جامعة هارفرد، في البرد والظلام، لإلقاء سلسلة من المحاضرات مساء يوم السبت. هل كان ذلك قبل يومين؟! تملّكه دعر أكبر الآن عندما حاول أن يتذكّر أيّ شيء عن المحاضرة أو ما بعدها. لا شيء. عندئذ تسارع طنين الآلات.*

مزرّ الطبيب يده على لحيته وواصل تعديل الآلات، في حين جلست د. بروكس بالقرب من لانغدون مجدداً.

طمأنته بصوت لطيف: "ستكون بخير. لقد بيّن التشخيص أنّك مصاب بفقدان انتكاسي للذاكرة، وهو أمر شائع جدّاً مع صدمات الرأس. قد تكون ذكريات الأيام القليلة الماضية مشوّشة أو مفقودة، لكنك لن تعاني من أيّ ضرر دائم". توقّفت قليلاً ثم تابعت: "هل تذكر اسمي الأول؟ ذكرته عندما دخلت".

فَكَرَ لَانْغِدُونِ لِلْحِظَةِ ثُمَّ أَجَابَ: "سَيِّئًا، د. سَيِّئًا بَرُوكْسَ".

ابْتَسَمَتْ. "أَرَأَيْتَ؟ بَدَأْتَ بِالْفِعْلِ تَكُونُ بَعْضَ الذِّكْرِيَّاتِ".

كَانَ الْأَكْمُ الَّذِي اسْتَبَدَّ بِرَأْسِ لَانْغِدُونِ يَكَادُ لَا يَطَاقُ، وَبَصَرُهُ عَلَى الْمَدَى الْقَرِيبِ ظَلَمَ

ضِيَابِيًّا. "مَاذَا... حَدِثْ؟ كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟".

"أَعْتَقَدُ أَنَّهُ عَلَيْكَ أَنْ تَسْتَرِيحَ، وَرَبِّمًا -".

سَأَلَهَا وَقَدْ بَدَأَ طَنْيْنِ الْأَلَاتِ يَتَسَارِعُ مَجْدَدًا: "كَيْفَ وَصَلْتَ إِلَى هُنَا؟!".

أَجَابَتْ د. بَرُوكْسَ، بَعْدَ أَنْ تَبَادَلَتِ نَظْرَةُ عَصَبِيَّةٍ مَعَ زَمِيلِهَا: "حَسَنًا، لَا تَضْطَرِبْ،

سَاحِرُكَ". أَصْبَحَ صَوْتُهَا أَكْثَرَ جَدِّيَّةً. "سَيِّدَ لَانْغِدُونِ، مِنْذُ ثَلَاثِ سَاعَاتٍ، دَخَلْتَ غُرَّةَ الطَّوَارِي

عِنْدَنَا مَتَرْتَحًا، وَكَانَ رَأْسُكَ يَنْزِفُ، ثُمَّ سَقَطْتَ أَرْضًا عَلَى الْفُورِ. لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ مِنْ أَنْتَ، وَلَا كَيْفَ

وَصَلْتَ إِلَى هُنَا. كُنْتَ تَتَمَتَّعُ بِالْإِنْكِلِيزِيَّةِ، فَطَلَبَ مِنِّي د. مَارْكُونِي الْمُسَاعَدَةَ. أَنَا هُنَا فِي إِجَازَةٍ،

وَقَدْ أَتَيْتُ مِنْ بَرِيطَانِيَا".

شَعَرَ لَانْغِدُونِ وَكَأَنَّهُ قَدْ اسْتَيْقِظَ فِي لَوْحَةٍ لِمَاكْسِ إِرِنِسْت. مَا الَّذِي أَفْعَلُهُ فِي إِيطَالِيَا؟ عَادَةً،

يَأْتِي لَانْغِدُونِ إِلَى هُنَا أحيانًا فِي شَهْرِ يُونِيُو لِإِلْقَاءِ مُحَاضَرَةٍ عَنِ الْفَنُونِ، لَكِنَّهُمْ الْآنَ فِي شَهْرِ مَارْسَ.

بَدَأَ مَفْعُولُ الْمِهْنَتَاتِ يَزْدَادُ قُوَّةً، وَشَعَرَ وَكَأَنَ جَانِبِيَّةَ الْأَرْضِ تَتَضَاعَفُ فِي كُلِّ ثَانِيَةٍ تَمَرُّ،

وَتَحَاوِلُ جِزَّهُ إِلَى بَاطِنِ الْأَرْضِ عِبْرَ فَرَاشِهِ. قَاوَمَ، وَحَاوَلَ رَفْعَ رَأْسِهِ وَالبَقَاءَ مُسْتَقْبَظًا.

انْحَنَتْ د. بَرُوكْسَ فَوْقَهُ مِثْلَ الْمَلَاكِ، وَهَمَسَتْ: "أَرْجُوكَ سَيِّدَ لَانْغِدُونِ، صَدَمَاتُ الرَّأْسِ

إِصَابَاتٌ حَسَّاسَةٌ فِي السَّاعَاتِ الْأَرْبَعِ وَالْعَشْرِينَ الْأُولَى. عَلَيْكَ أَنْ تَرْتَاحَ، وَإِلَّا تَسَبَّبَتْ لِنَفْسِكَ

بِضَرَرٍ بِالْغَ".

فَجَاءَتْ، تَعَالَى صَوْتُ مِنْ هَاتِفِ الْغُرَّةِ الدَّاخِلِي. "د. مَارْكُونِي؟".

لَمَسَ الطَّبِيبُ الْمَلْتَحِي زُرًّا عَلَى الْجِدَارِ وَأَجَابَ: "سَيِّ؟".

تَحَدَّثَ الصَّوْتُ بِلُغَةٍ إِيطَالِيَّةٍ سَرِيعَةٍ. لَمْ يَفْهَمْ لَانْغِدُونِ مَا قِيلَ، لَكِنَّهُ رَأَى الطَّبِيبِينَ يَتَبَادَلَانِ

نَظْرَةً اسْتَعْرَابَ. أَمْ إِنَّهُ الْخَوْفُ؟

أَجَابَ مَارْكُونِي مِنْهَيًّا الْمَحَادَثَةَ: "مُومِينْتُو".

سَأَلَ لَانْغِدُونِ: "مَاذَا يَجْرِي؟".

ضَاقَتْ عَيْنَا د. بَرُوكْسَ بَعْضَ الشَّيْءِ. "هَذَا مُوَظَّفُ الْاسْتِقْبَالِ فِي وَحْدَةِ الْعَنَابَةِ الْمُرَكَّزَةِ.

ثَمَّةُ شَخْصٍ يَرْغَبُ فِي زِيَارَتِكَ".

رَأَى لَانْغِدُونِ فِي ذَلِكَ بِصِيصًا مِنَ الْأَمَلِ. "هَذَا خَبَرٌ سَارٌّ! رَبِّمًا كَانَ هَذَا الشَّخْصُ يَعْرِفُ

مَا جَرَى لِي".

بَدَتْ غَيْرَ وَائِقَةٍ. لَكِنَّ هَذَا غَرِيبٌ. فَنَحْنُ لَمْ نَكُنْ نَعْرِفُ اسْمَكَ، حَتَّى إِنَّكَ لَسْتَ مُسَجَّلًا بَعْدَ

فِي نِظَامِ الْمُسْتَشْفَى".

قَاوَمَ لَانْغِدُونِ الْمُسْكَنَاتِ، وَرَفَعَ نَفْسَهُ عَلَى نَحْوِ أَخْرَقٍ لِلْجُلُوسِ عَلَى سَرِيرِهِ. "إِنْ كَانَ ثَمَّةُ

شَخْصٍ مَا هُنَا، فَلَا يَدَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ مَا حَدِثَ".

نظرت د. بروكس إلى د. ماركوني الذي هز رأسه على الفور وأشار إلى ساعته. فالتفتت إلى لانغدون، وشرحت قائلة: "هذه وحدة العناية المركزة. لا يُسمح لأحد بالدخول قبل الساعة التاسعة صباحاً على الأقل. سيخرج د. ماركوني ليرى من الزائر وماذا يريد".
سألها لانغدون: "وماذا عما أريده أنا؟".

ابتسمت د. بروكس بصبر، وأخفضت صوتها، ثم انحنيت أكثر وقالت: "سيد لانغدون، ثمة بعض الأمور التي تجهلها عن الليلة الماضية... وعما حدث لك. قبل أن نتحدث مع أي كان، من الإنصاف أن تعرف جميع الوقائع. لكن للأسف، لا أظن أنك قوي بما فيه الكفاية بعد -".

سألها لانغدون وهو يكافح لدفع نفسه إلى الجلوس: "أي وقائع؟". وخزته إبرة المصل في ذراعه، وشعر وكأن جسده يزن عدة مئات من الباوندات. "كل ما أعرفه هو أنني في مستشفى في فلورنسا، وأنتي وصلت وأنا أكرر عبارة آسف جداً...".
خطرت له الآن فكرة مخيفة.

سألها: "هل كنت مسؤولاً عن حادث سيارة؟ هل آذيت أحداً؟".
أجابته: "كلاً، كلاً، لا أظن ذلك".

ألح عليها لانغدون وهو يرمق الطبيبين بغضب: "ماذا إذا؟ لدي الحق بمعرفة ما يجري!".

مرت فترة صمت طويلة. أخيراً، أعطى د. ماركوني زميلته الشابة الجميلة الإذن بإيماءة من رأسه. تنهدت د. بروكس واقتربت من سريره أكثر. "حسناً، سأخبرك بما أعرفه... وستصغي إليّ بهدوء، أعتقدنا؟".

هز لانغدون رأسه، وسببت له تلك الحركة ألماً في جمجمته بأكلها. تجاهل الألم، وانتظر سماع الإجابة.

"أولاً... إصابة رأسك ليست ناجمة عن حادث".
"حسناً، هذا جيد".

"كلاً، ليس بالضبط. فإصابتك في الواقع نتيجة عيار ناري".
تسارع نبض لانغدون. "أستمحك عذراً؟".

تكلّمت د. بروكس بشكل مضطرب ولكن بسرعة. "مرت رصاصة على سطح رأسك، وسببت لك على الأرجح ارتجاجاً. أنت محظوظ لأنك ما زلت على قيد الحياة. لو أنها كانت أقل انخفاضاً بإنش واحد... وهزت رأسها متأسفة.

حقق إليها لانغدون غير مصدق. /أحدهم أطلق عليّ النار؟

تعالّت أصوات غاضبة في الممر إثر جدال اندلع في الخارج. يبدو أن من أتى لزيارة لانغدون يرفض الانتظار. سمع لانغدون على الفور باباً ثقيلاً في آخر البهو يفتح فجأة. ثم ما لبث أن رأى شخصاً يسير في الرواق.

كانت المرأة ترتدي زياً كاملاً من الجلد الأسود. كان جسدها مرناً وقوياً، وشعرها الأسود مسرّحاً على شكل سبايكي. تقدّمت من دون مجهود، وكأنّ قدميها لا تلامسان الأرض، واتّجهت مباشرة إلى غرفة لانغدون.

من دون تردّد، وقف د. ماركوني عند الباب لمنع الزائرة من المرور. رفع يده كما يفعل الشرطي، وأمرها قائلاً: "فيروما!".

لم تتوقّف الغريبة خطوة واحدة، بل أخرجت مسدّسها الكاتم للصوت، ووجّهته مباشرة إلى صدر د. ماركوني، وأطلقت النار.

لم يُسمع أي صوت سوى هسهسة مكتومة.

شاهد لانغدون مرعوباً كيف ترتجّح د. ماركوني نحو الخلف، وانهار على أرض الغرفة، ممسكاً بصدره، وقد تلوّث معطفه الأبيض بالدماء.

الفصل 3

على بعد خمسة أميال من الساحل الإيطالي، أبحر يخت فخم بطول 237 قدماً يدعى مينداسيوم عبر الضباب الذي خيم قبيل الفجر فوق أمواج البحر الأديراتيكي. كان اليخت ذو الهيكل الشبحي مطلقاً باللون الرمادي المعدني الذي أضفى عليه هالة سفينة عسكرية. كان اليخت الذي يتجاوز ثمنه 300 مليون دولار أميركي يحتوي على وسائل الراحة المعتادة كافة؛ منتجع، حوض سباحة، قاعة سينما، غوّاصة شخصية، ومنصة طائرة مروحية. غير أن تلك التسهيلات لم تكن ذات أهمية بالنسبة إلى مالكها الذي استلم اليخت قبل خمس سنوات، وأزال على الفور كل وسائل الترفيه تلك، ليقم عوضاً عنها مركز قيادة إلكترونيًا عسكرياً مصفحاً.

كانت غرفة التحكم التي تتغذى بثلاثة روابط خاصة بالأقمار الاصطناعية، ومجموعة إضافية من محطات التقوية الأرضية تضم مجموعة من حوالي خمسة وعشرين تقنياً، ومحللاً، ومنسق عمليات؛ يعيشون على متنها، ويبقون على اتصال مستمر مع مختلف مراكز العمليات الأرضية التابعة للمنظمة.

تضمن جهاز أمن اليخت وحدة صغيرة من الجنود الخاضعين لتدريب عسكري، ونظامين لكشف الصواريخ، وترسانة من أحدث الأسلحة المتوقّرة. ومع بقية العاملين على متنه - من طبّاحين، وعمال نظافة وخدمة - يرتفع عدد طاقمه الإجمالي إلى أكثر من أربعين شخصاً. كان مينداسيوم، في الواقع، مبنى المكاتب المتنقل الذي يدير مالكة إمبراطوريته من على متنه.

عرف بين موظفيه بلقب "العميد" وحسب. وكان رجلاً ممثلاً، قصير القامة، ذا بشرة سمراء وعينين غائرتين. وكان مظهره غير المهيّب وأسلوبه المباشر مناسبين لشخص جنى ثروة كبيرة من خلال تقديم مجموعة خاصة من الخدمات السرية على هوامش المجتمع المظلمة.

أطلقت عليه ألقاب كثيرة: مرتزق بلا رحمة، أداة الخطيئة، عميل الشيطان، لكنّه لم يكن أيّاً من ذلك. كان العميد ببساطة يقدم لزيائته فرصة لتحقيق طموحاتهم ورغباتهم من دون عواقب. أما كون الجنس البشري خطأً بطبيعته، فهذه ليست مشكلته.

على الرغم من المناوئين له واعتراضاتهم الأخلاقية، كانت مبادئ العميد ثابتة. فقد بنى سمعته، والكونسورتيوم نفسه، على قاعدتين ذهبيتين.

لا تقطع أبداً وعداً لا تستطيع الوفاء به.

ولا تكذب أبداً على العميل.

بَيِّنَاتٌ.

لم يسبق للعميد في حياته المهنية أن حثت بوعده أو تراجع عن تنفيذ اتفاق مطلقاً. كانت كلمته ثابتة، لا بل ضماناً حقيقية. ومع أنه عقد صفقات ندم عليها لاحقاً، إلا أن التراجع عنها لم يكن مطروحاً على الإطلاق.

هذا الصباح، عندما خرج العميد إلى شرفة حجرته الخاصة، تأمل البحر وحاول تهدئة الاضطراب الذي ينهش أحشاءه.

قرارات الأمس تحدد مستقبلنا.

القرارات التي اتخذها العميد في الماضي جعلته يدخل أي حقل الغام تقريباً ويخرج منه سالماً. لكنه اليوم، وهو يتأمل من النافذة أضواء البر الإيطالي في البعيد، شعر بالانفعال على نحو غير معهود.

منذ عام خلا، وعلى متن هذا اليخت بالذات، اتخذ قراراً بدأت مضاعفاته الآن تهدد بتدمير كل ما بناه. لقد وافقت على تقديم خدمات للرجل غير المناسب. لم يكن ممكناً بالنسبة للعميد أن يدرك هذا الأمر في ذلك الوقت. إلا أن خطأه طرح أمامه اليوم تحديات غير متوقعة، وأجبره على إرسال بعض من أفضل عملائه إلى الميدان، مع أوامر تقيد بمنع سفينته المترنحة من الغرق "مهما كان الثمن".

في تلك اللحظة، كان ينتظر سماع خبر من عميل ميداني معين. فكر بفابينتا وهو يتخيل الأخصائية القوية بتسريحة سبايكي التي تميزها. فابينتا التي خدمته بشكل ممتاز حتى هذه المهمة، ارتكبت خطأ في الليلة الماضية كانت له عواقب وخيمة. كانت الساعات الست الماضية عبارة عن فوضى، ومحاولة بائسة لاستعادة السيطرة على الوضع.

زعمت فابينتا أن خطأها نتج عن سوء الحظ؛ هدبل حمامة غير متوقع.

غير أن العميد لا يعتقد بالحظ. كل أفعاله كانت منسقة لتجنب العشوائية واستبعاد عامل الحظ. فالقدرة على التحكم هي مجال اختصاصه؛ يجب توقع كل الاحتمالات، واستباق كل ردود الفعل، وصياغة الوضع بحسب النتيجة المرغوبة. كان لديه سجل نظيف من النجاح والسرية، ويفضله امتلاك مجموعة مذهلة من الزبائن؛ مليارديرات، رجال سياسة، مشايخ، وحتى حكومات بأكملها.

من جهة الشرق، بدأت خيوط الصباح الأولى تطفئ النجوم المنخفضة في الأفق. وقف العميد على سطح اليخت، وانتظر بصبر خيراً من فابينتا يفيد أن مهمتها قد نُفذت على أكمل وجه.

الفصل 4

للحظة، شعر لانغدون أن الزمن قد توقّف.

تمدّد د. ماركوني على الأرض بلا حراك، والدم يسيل من صدره. قاوم لانغدون المهدّنات التي تجري في دمه، ونظر إلى القاتلة بشعرها المسماري، التي ما زالت تتقدّم بخطى كبيرة عبر الرواق، لتقطع الأمتار الأخيرة التي تفصلها عن باب غرفته المفتوح. عندما اقتربت من عتبة الباب، نظرت إلى لانغدون ورفعت مسدّسها باتجاهه... مستهدفة رأسه.
أنا ميت بلا ريب.

كان الصوت الذي دوى في غرفة المستشفى الصغيرة يصمّ الأذان. انهار لانغدون على وسادته، وانقأ أنه أصيب، لكنّ الصوت لم يكن صادراً عن مسدّس المهاجمة. في الواقع، صدرت تلك الضوضاء عن انغلاق باب الغرفة المعدني الثقيل بعنف بعدما رمت د. بروكس نفسها عليه وأقفلته.
هُرعت د. بروكس على الفور بنظرات مذعورة وانحنّت قرب زميلها النازف، محاولة إيجاد نبضه. سعل د. ماركوني، فتدفّقت الدماء من فمه وسالت على خدّه ولحيته الكثيفة، ثم فارق الحياة.

صاحت: "إنريكو، نو! تي بريغو!"

في الخارج، انصبّ وأبل من الرصاص على الباب المعدني، وملأت صيحات الذعر القاعة.

بطريقة ما، عادت الحركة إلى جسد لانغدون. فقد تغلّب خوفه وحده على المهدّنات. وحين حاول النزول من السرير على نحو أخرق، شعر بألم حارق في ساعده الأيمن. ظلّ للحظة أنّ رصاصة قد اخترقت الباب وأصابته، لكن عندما نظر إلى ساعده، أدرك أنّ إبرة المصل ما زالت فيه. كان الأنبوب البلاستيكي مغروّزاً في ساعده، والدم الحارّ بدأ بالفعل يتدفّق منه. استيقظ لانغدون تماماً الآن.

كانت د. بروكس لا تزال منحنية فوق جثة ماركوني وهي تبحث عن نبض، والدموع تتجمّع في عينيها. فجأة، وكأنّ زراً قد ضُغَط في داخلها، وقفت ونظرت إلى لانغدون، وتغيّرت تعابيرها أمام عينيها، وتصلّبت ملامحها الشابة لترتدي قناع طبيبة الطوارئ المتمرّسة التي تتقن التعامل مع الأزمات.

أمرته قائلة: "اتبعني".

أمسكت بذراعه وجذبتة عبر الغرفة. كانت أصوات الرصاص والفوضى ما زالت تتردد في الردهة، بينما حاول لانغدون التقدّم بخطى مترنحة. شعر أنّ عقله متنبّه لكنّ جسده المخدّر تجاوب ببطء. تحرّك! كانت الأرض باردة تحت قدميه، ولم يكن رداء المستشفى الرقيق كافياً لتغطية قامته بطوله البالغ ستّ أقدام. شعر بالدم يسيل على ساعده ويتجمّع في كفّه.

تواصل انهمار الرصاص على مقبض الباب الثقيل، في حين دفعت د. بروكس لانغدون بقوة إلى الحمام الصغير. كانت على وشك أن تتبّعه عندما توقّفت، ثم استدارت واندفعت إلى الطاولة لإحضار سترته الملوّثة بالدماء.

دعي سترتي للعينة!

عادت حاملة سترته، وأقفلت باب الحمام بسرعة. في تلك اللحظة بالضبط، فُتح باب الغرفة.

أمسكت الطبيبة الشابة بزمّام الأمور. فاجتازت الحمام الصغير متوجّهة إلى باب ثانٍ، وفتحتّه، ثم أدخلت لانغدون إلى غرفة إنعاش مجاورة. تردّدت أصوات الرصاص في الخلف، بينما أطلّت د. بروكس برأسها إلى الممرّ، وأمسكت بسرعة بذراع لانغدون، وسحبته عبر الرواق باتجاه أحد السلاّم. سبّبت الحركة المفاجئة بعض الدوار للانغدون الذي شعر أنّه سيغمى عليه في أيّ لحظة.

كانت الثواني الخمس عشرة التالية ضبابية... نزول سلاّم... تعثّر... سقوط. أمّا الألم الذي استبّد برأس لانغدون، فكان لا يطاق. شعر أنّ بصره أصبح أكثر ضبابية، وكانت عضلاته ثقيلة، وكلّ حركة من حركاته أشبه بردّ فعل متأخّر.

فجأة، أصبح الهواء بارداً.

أنا في الخارج.

بينما كانت د. بروكس تقوده عبر زقاق مظلم بعيداً عن المبنى، داس لانغدون على شيء حادّ وسقط، مرتبطاً بالرصيف بقوة. جاهدت لمساعدته على الوقوف مجدّداً على قدميه وهي تحتجّ بصوت عال على إعطائه مخدّراً.

عندما اقتربا من نهاية الزقاق، تعثّر لانغدون مجدّداً. هذه المرّة، تركّته على الأرض وركضت إلى الشارع وهي تصيح لشخص ما من بعيد. لمح لانغدون المصابيح الخضراء الباهتة لسيارة أجرة مركونة أمام المستشفى. غير أنّ السيارة لم تتحرّك، لا بدّ أنّ سائقها كان نائماً. صاحبت د. بروكس ولوّحت بذراعيها بعنف. أخيراً، أضيئت المصابيح الأمامية، وتحركت السيارة ببطء نحوها.

خلف لانغدون، فُتح باب في الزقاق، تبعه صوت خطى سريعة تقترب. التفت فرأى المرأة ذات الملابس السوداء تتجّه بسرعة نحوه. حاول الوقوف، لكنّ الطبيبة أمسكت به، وأجبرته على الصعود إلى المقعد الخلفي لسيارة الفيات. فتمدّد نصفه على المقعد ونصفه على أرض السيارة، في حين أسرع د. بروكس خلفه وأغلقت الباب.

التفت السائق النعسان وحتق إلى الثنائي غريب الأطوار الذي هبط في سيارته؛ شابة
بملايس طينية ورجل برداء مستشفى شبه ممزق وذراع نازفة. من الواضح أنه كان على وشك
طردهما من سيارته عندما انفجرت امرأة السيارة الجانبية. في تلك اللحظة، خرجت المرأة
بملايسها الجلدية السوداء من الزقاق شاهرة مسدسها. أطلق الرصاص مجدداً مصدراً صوت
هسهسة، وفي اللحظة نفسها أمسكت د. بروكس برأس لانغدون ودفعته إلى الأسفل. تحطمت
نافذة السيارة الخلفية، وأمطرتهما بالزجاج.
لم يكن السائق بحاجة إلى المزيد من التشجيع، فضغط على دواسة السرعة، وانطلق
بسيارته.

ترجح لانغدون على شفير الوعي. ثمة من يحاول قتلي؟
عندما انعطفوا في أحد الشوارع، جلست د. بروكس وأمسكت بذراع لانغدون النازفة. كان
الأنبوب البلاستيكي بارزاً من ثقب في جلده.
أمرته قائلة: "انظر إلى النافذة".
أطاعها لانغدون. في الخارج، تلاحت أمام عينيه قبور مهجورة في الظلام. بدا ملائماً أن
يمرّوا في تلك اللحظة من أمام مقبرة. شعر لانغدون بأصابع الطبيبة تتحسّس الأنبوب برفق، قبل
أن تنزعها من دون سابق إنذار.
شعر بالم صاعق يبلغ رأسه مباشرة، قبل أن يفقد وعيه تماماً.

الفصل 5

حوّل رنين الهاتف نظر العميد عن حساب البحر الأديرياتيكي، فعاد بسرعة إلى مكتبه.

كان متلهّفاً لسماع خبر جديد، لقد حان الوقت.

أضاءت شاشة الكمبيوتر على مكتبه، مبلغة إيّاه بورود اتّصال من هاتف شخصي مشفّر للصوت يحمل اسم Swedish Sectra Tiger XS، وكانت قد تمّت إعادة توجيه المكالمات عبر أربعة أجهزة توجيه (راوتر) لا يمكن تعقبها، قبل وصلها باليخت. وضع السمّاعتين، ثم أجاب بكلمات بطيئة ودقيقة: "معك العميد، تفضّل". أجاب الصوت: "أنا فايينثا".

شعر العميد بنبرة عصبية غير معتادة في صوتها. نادراً ما كان العملاء الميدانيون يتحدّثون مع العميد مباشرة، ومن النادر أكثر أن يبقوا في وظيفتهم بعد كارثة كتلك التي وقعت في الليلة الماضية.

مع ذلك، طلب العميد أن يقوم عميل في الموقع بالمساعدة على معالجة الأزمة، وكانت فايينثا الشخص الأنسب لهذه المهمة.

قالت فايينثا: "لديّ خبر جديد".

صمت العميد معطياً إيّاها الإذن للمتابعة.

عندما تكلمت، كان صوتها مجرداً من العاطفة؛ في محاولة واضحة للتصرّف باحتراف.

قالت: "لقد فرّ لائغدون ومعه الغرض".

جلس العميد أمام مكتبه ولزم الصمت طويلاً. قال أخيراً: "مفهوم. أتصوّر أنّه سيفصد

السلطات في أسرع وقت ممكن".

تحت العميد بطابقين يقع مركز التحكّم الأمن لليخت، هناك جلس المنسق لاورنس نولتون في حجرته الخاصة، ولاحظ أنّ اتصال العميد المشفّر قد انتهى. أمل أن تكون الأخبار سارة. فقد كان توتر العميد ملموساً في اليومين الأخيرين، حيث شعر كلّ عامل على متن اليخت أنّ عملية هامة تجري.

المخاطر عالية على نحو لا يصدق، ويستحسن أن تتخذ فابينا العملية كما ينبغي هذه المرة.

كان نولتون معتاداً على تنسيق خطط اللعب الموضوعية بعناية. إلا أن هذا السيناريو بالذات انهار وتحول إلى فوضى، فتولى العميد الأمور شخصياً. لقد انتقلنا إلى منطقة مجهولة.

مع أن عدداً من المهام الأخرى يجري حالياً حول العالم، إلا أن معظمها تحت إدارة مختلف مكاتب الكونسورتيوم الميدانية التابعة للميند/سيوم؛ الأمر الذي أتاح المجال للعميد وموظفيه على متن اليخت بحصر تركيزهم في هذه العملية.

كان زبونهم قد أقدم على الانتحار منذ بضعة أيام في فلورنسا، لكن الكونسورتيوم ما زال لديه عدد كبير من الخدمات العالقة، وهي عبارة عن مهام خاصة عهد بها الرجل إلى هذه المنظمة بغض النظر عن الظروف. وكما هي العادة دائماً، ينوي الكونسورتيوم تنفيذها من دون تردد. لدى أوامر علي أن أطيعها. هذا ما فكر به نولتون، وهو ينوي الامتثال لها تماماً. خرج من حجرته الزجاجية العازلة للصوت، وعبر عدداً من الحجرات الأخرى؛ بعضها شفاف والبعض الآخر محجوب، وفيها كان عدد من الموظفين يعملون على جوانب أخرى من المهمة نفسها.

عبر نولتون غرفة التحكم الرئيسة بهوائها الخفيف المعالج، وأوماً بنحية للفريق التقني، ثم دخل قوفاً صغيراً يحتوي على حوالى عشر خزانات حديدية. فتح إحداها، وأخرج محتوياتها التي كانت عبارة عن شريحة ذاكرة حمراء براقية. بحسب البطاقة المرفقة بها، تحتوي الذاكرة على ملف فيديو كبير، كان الزبون قد أمر بتحميله لوسائل الإعلام الكبرى في وقت محدد صباح الغد.

سيكون التحميل المجهول المصدر غداً أمراً بسيطاً، لكن تطبيقاً لبروتوكول الملفات الرقمية كافة، كان المخطط الانسيابي قد أشار إلى ضرورة مراجعة هذا الملف اليوم؛ أي قبل أربع وعشرين ساعة من تسليمه، للتأكد من أن الكونسورتيوم قد حصل على الوقت الكافي للقيام بكل ما يلزم من تشفير أو تجميع أو استعدادات أخرى قد تكون مطلوبة قبل تحميله في الوقت المحدد.

لا شيء يُترك للصدفة.

عاد نولتون إلى حجرته الشفافة وأغلق الباب الزجاجي الثقيل، فعزل نفسه عن العالم الخارجي.

قلب بذالة في الجدار، فتحوّلت حجرته على الفور إلى حجرة محجوبة. حفاظاً على الخصوصية، كانت جميع المكاتب الزجاجية على متن الميند/سيوم مبنية من زجاج "الجسيمات المعلقة". فمن الممكن التحكم بسهولة بشفافية هذا النوع من الزجاج من خلال تطبيق أو إزالة تيار كهربائي يقوم إما برصف أو بعترة ملايين الجسيمات الدقيقة الشبيهة بالعصي، والمعلقة داخل اللوح الزجاجي.

كان التقسيم حجر الزاوية لنجاح الكونسورتيوم.

لا تعرف شيئاً سوى عن المهمة الخاصة بك، ولا تُطلع أحداً على أي شيء.
اختفى نولتون في عزلة حجرته الخاصة، وأدخل شريحة الذاكرة في الكمبيوتر، ثم ضغط على الملف ليبدأ بتقييمه.

سرعان ما طغى اللون الأسود على شاشته... وبدأت مكبرات الصوت تصدر صوت خرير مياه. ظهرت ببطء صورة على الشاشة... وكانت باهتة وغامضة. ثم بدأ مشهد يتبلور من الظلام... داخل كهف... أو غرفة ضخمة. كانت أرضية الكهف غارقة تحت المياه، وكأنها بحيرة تحت الأرض. لكن الغريب هو أن المياه بدت مضيئة... كما لو أن الضوء صادر من داخلها.

لم يسبق لنولتون أن رأى شيئاً كهذا. كانت المغارة بأكملها مضاءة بلون غريب مائل إلى الاحمرار، وجدرانها الشاحبة مكسوة بانعكاسات لولبية للمياه المترققة. ما هذا المكان؟
مع استمرار عرض الشريط، بدأت الكاميرا تميل إلى الأسفل وتهبط بشكل عمودي، نحو المياه مباشرة، إلى أن اخترقت السطح المضيء. اختفت أصوات خرير المياه، وحلّ مكانها صمت مخيف تحت الماء. واصلت الكاميرا هبوطها، لمسافة عدة أقدام تحت الماء، إلى أن توقفت وركّزت على أرض الكهف المغطاة بالطمي.
كانت نمة لوحة مستطيلة من التيتانيوم اللامع مثبتة على الأرض.
وكانت اللوحة تحمل نقشاً.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغير العالم إلى الأبد.

عند أسفل اللوحة، نُقش اسم وتاريخ.
أما الاسم، فكان اسم الزبون.
وأما التاريخ... فهو الغد.

الفصل 6

شعر لانغدون بيدين قويين ترفعانه الآن... وتحتأنه على الخروج من حالة الهذيان، وتساعدانه على النزول من سيارّة الأجرة. شعر ببرودة الرصيف تحت قدميه الحافيتين. استند إلى جسد د. بروكس النحيل، واجتاز وهو يترنح ممراً خالياً بين مبنيين سكنيين. هبّ هواء الفجر ملوحاً برداء المستشفى، وشعر لانغدون بالهواء البارد يلامس جسده في أماكن غير معهودة.

ترك المهدئ أثره على عقله الذي لم يكن أقلّ ضبابية من بصره. شعر لانغدون وكأنّه تحت الماء، يحاول شقّ طريقه عبر عالم لزج ومعتم. دفعته سيبباً بروكس إلى الأمام وهي تدعمه بقوة مثيرة للاستغراب.

قالت: "انتبه للدرج". فأدرك لانغدون أنّهما وصلا إلى مدخل جانبي للمبنى. تمسّك لانغدون بالدرابزين، وأخذ يدفع نفسه إلى الأعلى متعثراً؛ درجة درجة. كان جسده ثقيلًا جدًّا، حيث اضطرت د. بروكس إلى دفعه بجسدها. عندما وصلا أمام أحد الأبواب، ضغطت على بعض الأرقام على لوحة قديمة صدئة، وفُتح الباب.

لم يكن الجوّ في الداخل أكثر دفئاً، لكنّ بلاط الأرض بدا مثل سجادة ناعمة مقارنة بالرصيف الخشن في الخارج. قادت د. بروكس لانغدون إلى مصعد ضيق، وفتحت باباً قابلاً للطّي، ثم أدخلت لانغدون إلى حجرة بحجم حجرة الهاتف العام. شَمّ في الداخل رائحة سجائر إم إس التي تمتاز برائحة مرّة وحلوة شائعة في إيطاليا مثل رائحة قهوة الإسبريسو الطازجة. فسأدته الرائحة على تصفية ذهنه بعض الشيء. ضغطت د. بروكس على أحد الأزرار، وراحت سلسلة من التروس المتعبة تدور وتصلصل فوق رأسيهما.

كانا يتجهان إلى الأعلى...

ما إن بدأ المصعد الصدئ صعوده حتّى أخذ يهتزّ ويصدر صريراً. وبما أنّ الجدران لم تكن سوى سواتر معدنية، أخذ لانغدون يراقب جدار المصعد الداخلي وهو يمرّ أمام عينيه. حتّى وهو شبه غائب عن الوعي، كان خوفه من الأماكن الضيقة حيّاً وواعياً. لا تنظر.

انكأ على الجدار محاولاً التقاط أنفاسه. آلمته ذراعه، وعندما نظر إليها، رأى كمّ سترته مربوطاً بشكل فوضوي حول ذراعه مثل ضمادة. أمّا بقية السترة فكان يجزّها خلفه على الأرض؛ بالية وقذرة.

أغمض عينيهِ من شدة الألم الذي يشعر به في رأسه، لكنّ الظلام ابتلعه مجدداً.

عادت إليه رؤيا مألوفة؛ المرأة ذات الوشاح، والتميمة، والشعر الفضّي المجعد. كما في الحلم السابق، كانت تقف على ضفة نهر من الدماء، ومحاطة بجثث وأجساد تتلوى. تحدثت مع لانغدون بصوت متوسل: من يبحث يجد!

سيطر على لانغدون إحساس بأنّ عليه إنقاذها... إنقاذهم جميعاً. فالسيقان شبه المدفونة رأساً على عقب كانت ترتخي... واحدة تلو الأخرى.

نادى بصمت: من أنت؟! ماذا تريد؟!؟

هبت على شعرها الفضّي الجميل رياح حارة. همست وهي تلمس تميمتها: الوقت يمر. فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجرت في عمود من النار يعمي الأبصار تصاعد عبر النهر، واجتاحهما هما الاثنان.

صرخ لانغدون، وفتح عينيهِ.

نظرت إليه د. بروكس بقلق. "ما بك؟".

قال لانغدون: "أنا أهذي! رأيت الكابوس نفسه".

"أتقصد المرأة ذات الشعر الفضّي المحاطة بالجثث؟".

هزّ لانغدون رأسه، والعرق يسيل من جبينه.

أكدت له قائلة: "ستكون بخير". مع أنّها شعرت هي نفسها بالخوف. "الأحلام المتكررة أمر شائع مع فقدان الذاكرة. فقد اضطربت وظيفة الدماغ التي تصنّف الذكريات وترتّبها، حيث تلقى كلّ شيء في صورة واحدة".

أجابها: "غير أنّها ليست صورة جميلة".

"أعرف. لكن إلى أن تشفى، ستكون ذكرياتك مشوشة ومبعثرة؛ حيث يخلط الماضي، والحاضر، والخيال. وهذا ما يحدث في الأحلام".

توقّف المصعد، وفتحت د. بروكس الباب. عادا يمشيان مجدداً، هذه المرة في رواق ضيق ومظلم. مرّا من أمام نافذة، بدت منها أسطح منازل فلورنسا في ضوء الفجر. عند آخر الممر، انحنت وأخرجت مفتاحاً من تحت نبتة بدت متعطشة إلى الماء، وفتحت أحد الأبواب.

كانت الشقة صغيرة، ويشير هواؤها إلى معركة مستمرة بين شمعة برائحة الفانيлия وموكيت قديم. كان الأثاث والأعمال الفنية قليلة، وكان الشقة قد فرشت بأثاث مستعمل. عدلت د. بروكس جهازاً لتنظيم الحرارة، وشغلت نظام التدفئة.

وقفت للحظة وأغمضت عينيها، ثم تنفّست بعمق وكأنّها تسيطر على نفسها. استدارت، وساعدت لانغدون على دخول مطبخ صغير متواضع يحتوي على طاولة من الفورميكا وكريسين قديمين.

اقترب لانغدون من أحدهما على أمل الجلوس، لكن د. بروكس أمسكت بذراعه وفتحت باليد الأخرى إحدى الخزائن. كانت الخزانة خالية تقريباً إلا من بعض الكعك، وبضعة أكياس من المعكرونة، وعلبة مشروبات غازية، وعلبة منبهات. أخرجت العلبة وأفرغت ست كبسولات بيد لانغدون قائلة: "هذا كافيين، أتناوله عندما أعمل في نوبات ليلية، كهذه الليلة".

وضع لانغدون الأقراص في فمه وجال بنظره بحثاً عن بعض الماء. قالت له: "امضغها. بهذه الطريقة ستدخل جسدك على نحو أسرع وتساعد على إبطال مفعول المهدئات".

بدأ لانغدون بمضغ الأقراص، فتقلص وجهه على الفور. كانت الأقراص مرّة الطعم؛ فهي معذّة كما هو واضح لثبّلت كما هي. فتحت د. بروكس البراد وأعطت لانغدون نصف زجاجة من الشراب. فأخذها شاكراً وتناول منها جرعة كبيرة.

أمسكت الطبيبة ذراعه اليمنى، ونزعت عنها ضمادة القماش التي استحدثتها من سترته، ووضعتها على الطاولة، ثم بدأت تتفحص جرحه. عندما أمسكت بذراعه، شعر لانغدون بيديها ترتجفان.

قالت: "ستعيش".

نمى لانغدون أن تكون بخير. فقد مرّاً بتجربة صعبة جداً للتوّ. قال لها: "د. بروكس، علينا الاتصال بشخص ما. القنصلية... الشرطة... أحد ما".

هزّت رأسها موافقة. "يمكنك أيضاً التوقّف عن مناداتي د. بروكس، فاسمي هو سيينا".
هرّ لانغدون رأسه موافقاً. "شكراً، وأنا روبرت". يبدو أن العلاقة التي نشأت بينهما خلال هربهما للنجاة تسمح لهما باستخدام اسميهما الأولين. "هل قلت إنك بريطانية؟".
"أجل، بريطانية المولد".

"لكنك لا تملكين اللكنة".

أجابت: "جيد، فقد بذلت جهدي لأخسرها".

كان لانغدون على وشك أن يسأل عن السبب، لكن سيينا أشارت إليه ليتبعها. قادته عبر ممر ضيق إلى حمام صغير ومعتّم. لمح لانغدون انعكاس صورته على المرأة فوق المفصلة للمرة الأولى منذ أن رأى صورته على نافذة غرفة المستشفى.

لست بخير. كان شعره الأسود الكثيف مشعثاً، وعيناه محترقتين بالدماء ومتعبتين. في حين بدأت لحيته تنمو.

فتحت سيينا الحنفية، ووضعت يد لانغدون المصابة تحت الماء البارد. شعر بالم حادّ، لكنّه أبقاها في مكانها.

أخرجت سيينا منشفة نظيفة، ووضعت عليها بعض الصابون المضاد للبكتيريا. "يُستحسن ألا تنظر".

"لا بأس، لا يزعجني -".

بدأت سيبينا تفرك جرحه بعنف؛ حيث شعر بألم مبرح في ذراعه، فضغط على فكه ليمنع نفسه من الصراخ احتجاجاً.

قالت وهي تشد أكثر: "أنت لا تريد أن تصاب بعدوى. بالإضافة إلى ذلك، إن كنت تنوي إبلاغ السلطات، فعليك أن تكون أكثر تنبهاً. ولا شيء ينشط إفراس الأرينالين مثل الألم".

تحمل لانغدون عشر ثوانٍ كاملة قبل أن يبعد يده أخيراً. كفى! بالفعل شعر أنه أقوى وأكثر يقظة. لقد طغى ألم ذراعه على ألم رأسه تماماً.

قالت: "هذا جيد". ثم أغلقت حنفية الماء وجففت ذراعه بمنشفة نظيفة. بعد ذلك، وضعت ضمادة صغيرة على الجرح، لكن في أثناء ذلك، انشغل ذهن لانغدون بأمر لاحظته للتو، أمر سبب له إزعاجاً عميقاً.

منذ ما يقرب أربعة عقود، يضع لانغدون ساعة ميكى ماوس قديمة، هي هدية من والديه. كان وجه ميكى الباسم الذي يلوح بذراعيه يذكره دائماً بالابتسام أكثر وأخذ الأمور بجدية أقل.

قال لانغدون: "ساعتي... لقد اختفت!". شعر من دونها بالنقص فجأة. "هل كانت معي عندما وصلت إلى المستشفى؟".

نظرت إليه سيبينا غير مصدقة، وقد ذهبت لقلقه على أمر كهذا. "لا أذكر أنني رأيته. نظف نفسك. سأعود بعد بضع دقائق، وسنحاول إيجاد طريقة لمساعدتك". استدارت للذهاب، ثم توقفت عند الباب ونظرت إلى عينيهِ المنعكستين على صفحة المرأة. "في هذا الوقت، أقترح عليك أن تفكر جيداً بسبب رغبة أحدهم في قتلك. أتصور أنه السؤال الأول الذي ستطرحه عليك السلطات". "انتظري، إلى أين أنت ذاهبة؟".

"لا يمكنك التحدث مع الشرطة وأنت شبه عارٍ. سأذهب لأحضر لك بعض الملابس. مقاسك من مقاس جاري تقريباً. وبما أنه كلّفني بإطعام قطّته في أثناء سفره، فهو مدين لي". بعد ذلك، خرجت سيبينا.

التفت لانغدون إلى المرأة الصغيرة فوق المغسلة، وكاد ألا يتعرّف على صورته فيها. أحدهم يريد قتلي. عادت إلى ذهنه الكلمات التي كان يهذي بها عند دخوله المستشفى، والتي سمعها على آلة التسجيل.

آسف جداً. آسف جداً.

حاول أن يتذكر... لكن عبثاً. لم يجد في عقله سوى الفراغ. كل ما يعرفه لانغدون هو أنه في فلورنسا، وأنه مصاب بجرح في رأسه خلّفته رصاصة.

فيما راح يحقّق إلى عينيهِ المتعبتين، تساءل عما إذا كان من الممكن أن يستيقظ في أي لحظة ليجد نفسه جالساً على كرسيه المخصّص للقراءة في منزله، حاملاً كأساً فارغة، ونسخة عن الأرواح الميتة، ليزكر نفسه أنه لا ينبغي أبداً الجمع بين الشراب وغوغول¹.

1 نيكولاي فاسيليفيتش غوغول، كاتب روسي يعدّ من آباء الأدب الروسي.

الفصل 7

خلع لانغدون رداء المستشفى الملوّث بالدماء، ولفّ منشفة حول خصره. وبعدما غسل وجهه بالماء، لمس بحذر شديد القطب في الجزء الخلفي من رأسه. كانت ملازمة الجلد مؤلمة، غير أنّه عندما سوى شعره المشعث فوق الإصابة، اختفت تماماً. بدأت أقراص الكافيين تأخذ مفعولها، وأحسّ أخيراً أنّ الضباب ينجلي عن ذهنه.

فكر يا روبرت. حاول أن تتذكّر.

فجأة، بدأ يشعر بالاختناق في الحمام الخالي من النوافذ، فخرج إلى الردهة، وتوجّه تلقائياً إلى بقعة من الضوء الطبيعي الذي دخل عبر باب مفتوح جزئياً في الممرّ. كانت الغرفة عبارة عن مكتب مؤقت؛ مؤثث بطاولة مكتب رخيصة، وكُرسيّ دوارٍ بَالٍ، وصفّ من الكتب الموضوعّة على الأرض، وحمداً لله... نافذة.

اقترب لانغدون من ضوء النهار.

في البعيد، بدأت الشمس التوسكانية تلامس بأشعتها برجي المدينة العالين - برج الأجراس، برج باديا - ومتحف بارغيلو. ضغط لانغدون جبينه على الزجاج البارد. كان هواء شهر مارس قارساً، لذلك سرّته رؤية الطيف الكامل لأشعة الشمس التي بدأت ترتفع الآن فوق السفوح.

يسمّونه ضوء الرسّام.

في قلب الأفق، بدأت تظهر قبة جبلية من القرميد الأحمر، قمّتها مزينة بكرة نحاسية مذهبة تلمع مثل منارة. إيل دوومو. لقد صنع برونيليسكي التاريخ المعماري عندما صمّم تلك القبة الضخمة. والآن، بعد أكثر من خمسمائة عام، ما زال البناء الشامخ الذي يبلغ ارتفاعه 375 قدماً في مكانه، وكأنّه عملاق لا يبارح بياتزا ديل دوومو.

ماذا أفعل في فلورنسا؟

بالنسبة إلى لانغدون الذي كان طوال حياته هاوياً للفنّ الإيطالي، أصبحت فلورنسا إحدى وجهاته السياحية المفضّلة في أنحاء أوروبا كافة. فهذه هي المدينة التي لعب مايكل أنجلو في شوارعها حين كان طفلاً، والتي ألهمت النهضة الإيطالية استديوهات. هذه فلورنسا التي جذبت صالاتها ملايين المسافرين المعجبين بلوحة بوتيتشيلي؛ ولادة فينوس، ولوحة ليوناردو؛ البشارة، وفخر المدينة ومصدر فخرتها، إيل دافيدي، أو تمثال داوود.

كان لانغدون قد افتتن بتمثال مايكل أنجلو داوود عندما رآه للمرّة الأولى في سنّ المراهقة... حين دخل أكاديمية الفنون الجميلة... وتنقّل ببطء بين تماثيل كتّبة مايكل أنجلو

الحزينة، بريديوني... ثم شعر ببصره ينجذب إلى الأعلى، رغباً عنه، إلى تحفة فنية بطول سبع عشرة قدماً. أثار تمثال داوود الضخم، بجسده العضلي اللافق، دهول معظم زوار المتحف للمرة الأولى، إلا أنه بالنسبة إلى لانغدون، كانت وضعية داوود العبقريّة هي التي أسرت اهتمامه. فقد استخدم مايكل أنجلو تقليد كوتنر/بوستو الكلاسيكي للإيحاء بأن داوود مائل إلى اليمين، وأن ساقه اليسرى لا تحمل أي وزن تقريباً؛ في حين أنها كانت في الواقع تحمل أطناناً من الرخام.

كان تمثال داوود هو الذي ولّد لدى لانغدون التقدير الحقيقي لعظمة النحت. تساءل الآن عما إذا كان قد زار تلك التحفة خلال الأيام الأخيرة، إلا أنه لم يتذكّر سوى استيقاظه في المستشفى ورويته طبيباً بريئاً يُقتل أمام عينيه. *آسف جداً. آسف جداً.*

كان الإحساس بالذنب الذي استبدّ به مثيراً للاشمئزاز تقريباً. *ماذا فعلت؟*

بينما كان واقفاً عند النافذة، لمح بطرف عينه جهاز كمبيوتر محمول على المكتب قربه. أدرك لانغدون فجأة أنّ ما حدث له في الليلة الفائتة لا بدّ أن يكون قد نُشر في الصحف. *إن تمكّنت من الوصول إلى الإنترنت، فقد أجد أجوبة.*

التفت إلى الردهة ونادى الطبيبة: "سيينا؟!".

لم يجبه أحد. لا بدّ أنّها ما زالت في شقّة جاراها تبحث عن ملابس.

لا شك أنّ سيينا ستقفهم تطفله، لذلك فتح الكمبيوتر وشغله.

أضاءت شاشة سيينا، لتظهر في الخلفية صورة "الغيمة الزرقاء" القياسية في نظام ويندوز.

ففتح لانغدون على الفور صفحة غوغل إيطاليا، وطبع فيها روبرت لانغدون.

فكّر لانغدون عندما بدأ بحثه: *أه لو رأيي طلابي الآن، لطالما عاتب طلابه على إجراء أبحاث حول أنفسهم، وهي ظاهرة تحوّلت إلى هواية جديدة وغريبة تعكس الهوس بالشهرة الشخصية الذي أصبح يملك الشباب الأميركيين اليوم.*

ظهرت صفحة من نتائج البحث أمامه؛ المئات من المقالات المتعلقة بلانغدون، من كتب ومحاضرات. *ليس هذا ما أبحث عنه.*

حصر لانغدون بحثه عبر الضغط على الصفحة المتعلقة بالأخبار.

عندئذ ظهرت أمامه صفحة جديدة: نتائج الأخبار عن "روبرت لانغدون".

توقيع كتب: *أقام روبرت لانغدون...*

خطاب التخرج لروبرت لانغدون...

روبرت لانغدون ينشر كتاب تمهيدي عن الرموز...

امتدّت اللائحة على عدّة صفحات، غير أنّ لانغدون لم يجد شيئاً جديداً، وبالتأكيد لا شيء يفسّر مآزقه الحالي. *ماذا حدث في الليلة الماضية؟* واصل لانغدون بحثه، ودخل موقع فلورنتين؛ وهي صحيفة إنكليزية تُنشر في فلورنسا. قرأ العناوين، والأقسام المتعلقة بالأخبار العاجلة، وصفحة الشرطة، وصادف مقالات عن حريق في إحدى الشقق، وفضيحة اختلاس حكومية، وأخباراً عن جرائم متنوعة.

لا شيء على الإطلاق!!

توقّف عند خبر عاجل ومبالغ فيه عن أحد مسؤولي المدينة الذي توفي في الليلة الفائتة في الساحة خارج الكاتدرائية من جراء نوبة قلبية. لم يُذكر اسم المسؤول بعد، كما أنّه لم يُستبّه بحادث مذبّر.

أخيراً، لم يعرف لانغدون ما عليه فعله، فدخل حساب بريده الإلكتروني التابع لجامعة هارفرد، وتحقّق من الرسائل؛ متسائلاً عما إذا كان سيجد أجوبة هناك. لم يجد سوى الرسائل المعتادة من زملائه، وطلّابه، وأصدقائه، ومعظمها يشير إلى مواعيد في الأسبوع القادم. وكان لا أحد يعرف برجيلي.

تصاعدت شكوك لانغدون، فأطفأ الكمبيوتر وأغلقه. كان على وشك أن يغادر الغرفة عندما لمح شيئاً. على زاوية مكتب سيبينا، وفوق مجموعة من المجلّات الطبية القديمة والأوراق، رأى صورة بولارويد. كانت الصورة عبارة عن لقطة لسيبينا بروكس وزميلها الطبيب الملتحي، وهما يضحكان في رواق المستشفى.

فكر لانغدون، إنّه د. ماركوني. وشعر بالذنب وهو يتناول الصورة ويتفحصها. عندما أرجع لانغدون الصورة إلى مكانها، فوجئ بكتيّب أصفر اللون فوق مجموعة المجلّات، هو عبارة عن إعلان لحفلة من مسرح لندن غلوب. بحسب الغلاف، يتناول الإعلان إنتاجاً لمسرحية شكسبير حلم ليلة صيف... التي نُظّمت منذ حوالي 25 سنة تقريباً. كُتبت على الجزء العلوي من الكتيّب جملة بخط اليد: حبيبتي، لا تنسي أبداً أنّك معجزة. تناول لانغدون الكتيّب، فتأثرت كومة من قصاصات الصحف على المكتب. حاول إرجاعها إلى مكانها بسرعة، لكن عندما فتح الكتيّب - عند الصفحة التي كانت القصاصات فيها - جمد في مكانه. كانت الصورة لمميّة طفلة تمثل دور عفریت شكسبير. لا يمكن أن تكون الفتاة الصغيرة قد تجاوزت الخامسة، وشعرها الأشقر معقود في شكل ذيل حصان. كُتب تحت الصورة: ولادة نجمة.

كانت النبذة تروي باستفاضة مآثر تلك الطفلة المعجزة، سيبينا بروكس، التي تتمتع بنكاه غير اعتيادي، والتي حفظت في ليلة واحدة أدوار كلّ الشخصيات، وغالباً ما لقنت زملاءها أثناء البروفات الأولى. من هوايات تلك الطفلة التي لم تتجاوز الخامسة العزف على الكمان، والشطرنج، والبيولوجيا، والكيمياء. الفتاة ابنة لزوجين ثريين من بلاكهيث، إحدى ضواحي لندن. وقد تحوّلت منذ تلك السنّ إلى شخصية شهيرة في الأوساط العلمية. إذ قامت وهي في الرابعة من عمرها بالتغلّب على بطل في الشطرنج، وكانت تقرأ بثلاث لغات.

فكر لانغدون: يا إلهي، سيبينا. هذا يفسّر بعض الأشياء.

تذكّر لانغدون واحداً من أشهر خريجي هارفرد، وكان طفلاً معجزة يدعى شاو كريكي تعلم في السادسة من عمره العبرية، وقرأ جميع أعمال ديكارت قبل أن يبلغ الثانية عشرة. مؤخراً، قرأ لانغدون عن ظاهرة تدعى موشي كاي كافالين الذي مُنح في سنّ الحادية عشرة شهادة جامعية

بمعدل 4.0، وفاز بلقب البطولة الوطنية في الفنون الحربية، وفي سنّ الرابعة عشرة، نشر كتاباً بعنوان *يمكننا أن ننجح*.

تناول لانغدون قصاصة صحيفة أخرى، تظهر فيها صورة لسيينا وهي بسنّ السابعة: طفلة معجزة بمعدل نكاه 208.

لم يكن لانغدون يعرف أنّ معدل الذكاء يصل إلى هذا الارتفاع. بحسب المقال، كانت سيينا بروكس عازفة كمان موهوبة، وتستطيع إتقان لغة جديدة في غضون شهر واحد، وتعلم نفسها علم التشريح والفيزيولوجيا.

نظر إلى قصاصة أخرى من مجلة طبيّة: مستقبل الفكر: لم تُخلق كلّ العقول متساوية. في هذا المقال، ظهرت صورة سيينا التي بلغت ربّما العاشرة من عمرها وهي تقف بشعرها المعقود إلى الخلف بجانب جهاز طبيّ كبير. ويتضمّن المقال مقابلة مع طبيب يشرح أنّ الفحوصات التي أجريت على مخّ سيينا كشفت أنّه مختلف فيزيائياً عن المخّ الطبيعي. فهو أكبر حجماً في حالتها، وأكثر انسيابية؛ حيث يستطيع معالجة المحتوى البصري والمكاني بطرق لا يمكن لمعظم الكائنات البشرية أن تبدأ حتّى بفهمها. وشبه الطبيب الميزة الفيزيولوجية التي تتمتع بها سيينا بنموّ خلوي سريع على نحو غير عادي في دماغها، شبيه بالسرطان، غير أنّه نموّ سريع لأنسجة الدماغ المفيدة عوضاً عن الخلايا السرطانية القاتلة. وجد لانغدون قصاصة من صحيفة محلّية.

لعنة التفوق.

لم يكن المقال يحتوي هذه المرّة على صورة، بل يروي قصّة عبقرية صغيرة تدعى سيينا بروكس حاولت الالتحاق بالمدارس العادية، لكنّها تعرّضت للمضايقة بسبب اختلافها. تحدّث المقال عن العزلة التي يعاني منها الأشخاص الموهوبون الذين لا تستطيع مهاراتهم الاجتماعية مواكبة ذكائهم، فيتعرّضون في كثير من الأحيان للنّبذ.

استناداً إلى المقال، هربت سيينا من منزلها في سنّ الثامنة، وتمكّنت بفضل ذكائها من الاختفاء والعيش بمفردها لعشرة أيّام. عُثر عليها في أحد فنادق لندن الراقية، حيث تظاهرت أنّها ابنة أحد النزلاء، فسرقت مفتاحاً، وكانت تطلب خدمة الفنادق على حساب شخص آخر. على ما يبدو، أمضت الأسبوع في قراءة 1600 صفحة من كتاب *غرايزر أناتومي*. وعندما سألتها السلطات عن سبب قراءتها كتباً طبيّة، أخبرتهم أنّها تريد أن تعرف عن مشكلة دماغها.

ذاب قلب لانغدون حزناً على الفتاة الصغيرة. لم يستطع أن يتخيّل مدى الوحدة التي يعاني منها طفل بهذا الاختلاف. أعاد طيّ المقالات، وتوقّف ليلقي نظرة أخيرة على صورة سيينا حين كانت في الخامسة من عمرها وهي تؤدّي دور العفريت. عليه أن يعترف، نظراً إلى طريقة لقائه السريالية بسيينا هذا الصباح، أنّ تقمصها دور العفريت الشرير المحفّز للأحلام بدا ذكياً بشكل غريب. وتمنّى لو يستطيع - على غرار الشخصيات المسرحية - أن يستيقظ الآن ببساطة ويدّعي أنّ تجاربه الأخيرة كانت مجرد حلم.

أعاد لانغدون القصاصات إلى مكانها بحذر وأغلق الكتّيب، وشعر بكآبة غير متوقّعة وهو يقرأ الملاحظة على المغلف: حبيبتي، لا تنسي أبداً أنك معجزة.
نظر إلى الرمز المألوف الذي يزّين غلاف الكتّيب. كان عبارة عن الرسم اليوناني القديم نفسه الذي يُستخدم لتزيين معظم إعلانات المسرحيات حول العالم؛ رمز يرجع إلى 2500 عام أصبح مرادفاً للمسرح الدرامي.
لي ماسكيرى. القناعان.



نظر لانغدون إلى الوجهين اللذين يحفّان إليه؛ واحد كوميدى والآخر تراجيدى، وسمع فجأة مهمة غريبة في أذنيه، وكأنّ سلكاً يُشدّ في عقله ببطء. أحسّ بألم حادّ في جمجمته، وتراءت له صور قناع أمام عينيه. شفق لانغدون، ورفع يديه وهو يجلس على كرسيّ المكتب ويغمض عينيه بقوة، ويمسك برأسه.

في ظلام عقله، عادت الصور الغريبة غاضبة... صارخة وحيّة.
كانت المرأة ذات الشعر الفضي والتميمة تتأدّب مجدداً من الضفّة المقابلة لنهر الدماء. اخترق صراخها اليائس الهواء الأسن، وسمع بوضوح على الرغم من أصوات المعدّنين والمحتضرين الذين كانوا يتلوون أمامه على مدّ النظر. رأى لانغدون مجدداً الساقين المقلوبتين اللتين تحملان الحرف R، والجسد شبه المدفون الذي يحرك ساقيه يائساً في الهواء.

قالت المرأة للانغدون: من يبحث يجد! الوقت ينقذ!
شعر لانغدون برغبة عارمة لمساعدتها... ومساعدة الجميع. ناداها بذعر عبر نهر الدماء،
من أنت؟!

مجدداً، مدّت المرأة يديها ونزعت الوشاح ليظهر وجهها الجميل الذي رآه لانغدون سابقاً.
قالت: أنا الحياة.
فجأة، ظهرت صورة هائلة فوقها في السماء، عبارة عن قناع مخيف، ذي أنف طويل معقوف، وعينين خضراوين ناريتين، أخذتا تحفّان إلى لانغدون.
قال الصوت: وأنا... الموت.

الفصل 8

فتح لانغدون عينيه، وأخذ نفساً عميقاً. كان لا يزال جالساً إلى مكتب سيبينا، ورأسه بين يديه، وقلبه ينبض بعنف.

ما الذي يحدث لي؟

بقيت صورة المرأة ذات الشعر الفضّي والقناع ذي الأنف المعقوف في ذهنه. أنا الحياة، أنا الموت. حاول أن يبعد الصورة عن عقله، لكنها ترسّخت فيه بشكل دائم. على المكتب أمامه، حدّق إليه قناعا الإعلان.

كانت سيبينا قد قالت له: ستكون ذكرياتك مشوّشة ومبعثرة؛ حيث يختلط الماضي، والحاضر، والخيال.

شعر لانغدون بالدوار.

في مكان ما في الشّقة، بدأ الهاتف يرنّ. كانت الرّنة الثاقبة وقديمة الطراز آتية من المطبخ.

وقف لانغدون ينادي: "سيبينا".

لكن، ما من مجيب. لم تعد بعد. بعد رتّنين فقط، ردّ المجيب الآلي.

أعلن صوت سيبينا بمرح في الرسالة الصوتية المسجّلة باللغة الإيطالية: "ألو، هذه أنا، الرجاء ترك رسالة وسأقوم بالاتصال مجدّداً".

صدرت رنة، أعقبها صوت امرأة مدعورة تركت رسالة بلكنة أوروبية شرقية ثقيلة. وتردّد صدى صوتها في القاعة.

"سيبينا، أنا دانيكوبا. أين أنت؟! هذا فظيع! صديقك د. ماركوني قد مات! المستشفى مصاب بالجنون! الشرطة هنا! والناس يقولون إنك هربت لإنقاذ مريض؟! لماذا؟! أنت لا تعرفينه! الآن تريد الشرطة التحقيق معك! وقد أخذوا ملفّ التوظيف! أعرف أنّ المعلومات خاطئة؛ عنوان مزيف، لا أرقام، تأشيرة عمل مزيفة. لذلك لن يعثروا عليك اليوم، لكنهم سيجدونك قريباً! أنا أحاول تحذيرك. أسفة جدّاً سيبينا".

انتهت المكالمة.

تملّك لانغدون إحساس بالذنب. إذ يبدو من الرسالة أنّ د. ماركوني كان يسمح لسيبينا بالعمل في المستشفى. غير أنّ وجود لانغدون هناك كلّف د. ماركوني حياته. ومحاولة سيبينا إنقاذ غريب ستكون لها عواقب وخيمة على مستقبلها.

في تلك اللحظة، صُفّق باب بقوة في الطرف الآخر من الشقة.
لقد عادت.

بعد قليل، صدح المجيب الآلي: "سيينا، أنا دانيكوبا. أين أنت؟".
أجفل لانغدون لعلمه بما ستسمعه سيينا. في تلك الأثناء، أعاد الإعلان إلى مكانه، ورتّب
المكتب، ثم تسلّل عائداً عبر الرواق إلى الحمام، وقد شعر بعدم الارتياح لتطفله على ماضي
سيينا.

بعد عشر ثوان، سمع طريقة على باب الحمام.
قالت سيينا بصوت مضطرب: "سأترك الملابس على مقبض الباب".
أجاب لانغدون: "شكراً جزيلاً".
أضافت: "عندما تنتهي، تعال إلى المطبخ. أريدك أن ترى شيئاً هاماً قبل الاتصال بأحد".

توجّهت سيينا متعبة عبر الرواق إلى غرفة النوم المتواضعة. أخرجت من الخزانة سروال
جينز أزرق وقميصاً، وأخذتهما معها إلى حمامها.
نظرت إلى نفسها في المرأة، ثم مدّت يدها، وأمسكت بذيل الحصان الأشقر الكثيف،
وشدّته بقوة إلى أن نزعَت الشعر المستعار عن رأسها الأصلع.
حدّقت إليها في المرأة امرأة صلعاء في الثانية والثلاثين من عمرها.
لم تنقص سيينا التحذيرات في حياتها. ومع أنّها درّبت نفسها على الاعتماد على العقل
للتغلب على المصاعب، إلّا أنّ مازقها الحالي سبّب لها اضطراباً عميقاً.
وضعت الشعر المستعار جانباً، وغسلت وجهها ويديها. وعندما جفّفت بشرتها، بدّلت
ملابسها وأعدت الشعر المستعار وثبّته بعناية. لم يكن الإحساس بالشفقة على النفس من
الأمر التي تسمح بها سيينا، لكن الآن، عندما تجمّعت الدموع في عينيها، أدركت أنّها لن
تتمكّن من كبحها.
وهكذا بكت.

بكت على الحياة التي لم تتمكّن من التحكم بها.
بكت على الرجل الطيّب الذي مات أمام عينيها.
بكت على الوحدة العميقة التي ملأت قلبها.
وقبل كلّ شيء، بكت على المستقبل... الذي بدا فجأة مبهماً.

الفصل 9

على متن اليخت المترف، مينداسيوم، جلس المنسق لاورنس نولتون في حجرته الزجاجية المغلقة وحقّق غير مصنّق إلى شاشة حاسوبه، بعدما شاهد للتوّ شريط الفيديو الذي تركه الزبون.

أيفترض بي تحميل هذا الفيلم إلى وسائل الإعلام صباح غد؟

خلال السنوات العشر التي أمضاها نولتون في الكونسورتيوم، نفّذ مهمّات غريبة متنوّعة عرف أنّها غير شرعية. فالتحقّى بالأخلاق الرمادية كان أمراً شائعاً في الكونسورتيوم، لكونه منظّمة مبدؤها الوحيد فعلُ أيّ شيء للحفاظ على وعد قطع لعمل.

نتابع حتّى النهاية، من دون طرح أسئلة، ومهما كان الثمن.

غير أنّ إمكانية تحميل هذا الفيديو سبّبت لنولتون الاضطراب. في الماضي، مهما تكن المهام الغريبة التي تؤدّيها، كنّا نفهم دائماً منطق العملية... ونستوعب دوافعها... ونفهم النتيجة المرغوبة. غير أنّ هذا الفيديو محير.

شيء ما فيه يبدو مختلفاً؛ مختلفاً جداً.

استند نولتون إلى ظهر كرسيّه، وأعاد تشغيل الشريط، على أمل أن يلقي العرض الثاني مزيداً من الضوء على المشهد. رفع الصوت، واستعدّ لمشاهدة العرض الممتدّ على تسع دقائق. كما في المرّة السابقة، بدأ الشريط بصوت خرير مياه في الكهف الغريب المليء بالمياه، والمغمور بضوء أحمر مخيف. مرّة أخرى، غاصت الكاميرا تحت سطح الماء المضيء، لتكشف أرض الكهف المغطّاة بالطيني. وللمرّة الثانية، قرأ نولتون النصّ المنقوش على اللوحة المغمورة بالمياه:

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،

تغيّر العالم إلى الأبد.

رؤية توقيع زبون الكونسورتيوم على اللوحة المصقولة سبّبت له الاضطراب. ذاك التاريخ هو الغد... وهذا الأمر أقلق نولتون كثيراً. غير أنّ ما أعقب ذلك هو الذي أثار أعصابه فعلاً. مالّت الكاميرا الآن إلى اليسار لتكشف شيئاً مذهلاً يعوم تحت الماء، بالقرب من اللوحة تماماً. هنا، كان ثمة جسم كروي من البلاستيك الرقيق يتموّج في المياه وقد تُبِت إلى الأرض بسلك قصير. كان الجسم الشفاف الرقيق مثل فقاعة صابون ضخمة، يعوم وكأنّه بالون تحت الماء... لم يكن منفوخاً بالهيليوم، بل بسائل هلامي بّني مائل إلى الاصفرار. كان الكيس منتفخاً، وبدأ أنّه بقطر قدم تقريباً، كما بدا أنّ السائل الغامض يدور ببطء داخله، وكأنّه عين عاصفة تكبر بصمت.

شعر نولتون بالعرق يتصبّب منه، ربّاه! فقد بدا الكيس مخيفاً أكثر في المرّة الثانية التي رآه فيها.
بهتت الصورة ببطء وخيم السواد.

بعد ذلك، ظهرت صورة جديدة؛ جدار الكهف الرطب يتفرّق بانعكاس مياه البحيرة
المضيئة عليه. على الجدار، ظهر ظلّ... ظلّ رجل... واقف في الكهف.
لكنّ رأس الرجل كان مشوّهاً... على نحو كبير.
فغوضاً عن الأنف، كان لديه منقار طويل... وكأنّه نصف طائر.
عندما تكلم، كان صوته مكتوماً... وتحدّث ببلاغة غريبة... وبإيقاع مدروس... وكأنّه راوٍ
في جوفّة كلاسيكية.

جلس نولتون بلا حراك، حابساً أنفاسه، وهو يستمع إلى الظلّ.

أنا الظلّ.

إن كنت تشاهد هذا، فذلك يعني أنّ روحي قد ارتاحت أخيراً.
بعدما أصبحت تحت التراب، عليّ أن أتحدّث إلى العالم من أعماق
الأرض، منفياً في هذا الكهف المعتم الذي تتجمّع فيه مياه حمراء بلون الدم
في بحيرة لا تعكس النجوم.
لكن، هذه جنّتي... الرحم المثالي لطفلي الضعيف.
الجحيم.

قريباً ستعرفون ما تركته ورائي.
لكن، حتّى في هذا المكان، أشعر بوقع أقدام النفوس الجاهلة التي
تلاحقني... والتي لم يكن ليردعها رادع عن إحباط أفعالي.
قد تقولون، سامحهم، فهم لا يدرون ماذا يفعلون. لكن، تأتي لحظة في
التاريخ لا يعود الجهل معها أمراً مغفوراً... لحظة وحدها الحكمة تملك فيها
القدرة على الغفران.

بضمير مرتاح، تركت لكم هدية الأمل والخلص والغد.
مع ذلك، ما زال ثمة من يطاردونني وكأنني كلب؛ يغذّيهم اعتقاد راسخ
بأنّني مجنون. ها هي الجميلة ذات الشعر الفضي تجرّو على وصفي
بالوحش! شأنها شأن رجال الدين العميان الذين ناضلوا من أجل موت
كوبيرنيكوس، تنعتني بالشیطان، ويتمكّنها الذعر لأنّني استرقت نظرة إلى
الحقيقة.

غير أنّني لست نبياً.

أنا خلاصكم.

أنا الظلّ.

الفصل 10

قالت سيبينا: "اجلس، أودّ أن أطرح عليك بعض الأسئلة".

عندما دخل لانغدون المطبخ، شعر أنّه أكثر ثباتاً. كان يرتدي سترة بربوني الخاصة بجار سيبينا، وكانت مناسبة له تماماً. حتّى إنّ الحذاء كان مريحاً، حيث قرّر شراء حذاء إيطالي عندما يعود إلى بلاده.

فكّر، هذا ابن عدت.

سيبينا كذلك، بجمالها الطبيعي، تغيّرت بعدما بدّلت ملابسها، وارتدت سروال جينز ضيقاً وسترة قشدية اللون، وكلاهما كانا مناسبين لقامتها الرشيقة. ما زال شعرها معقوداً إلى الخلف على شكل ذيل حصان، غير أنّها بدت أكثر رقة بعدما نزعت الملابس الطيبة الجادة. لاحظ لانغدون أنّ عينيها حمراوان، وكأنّها كانت تبكي، فتملّكه إحساس عارم بالذنب.

"سيبينا، أنا آسف. سمعت الرسالة الهاتفية. لا أعرف ماذا أقول".

أجابت: "شكراً، لكن علينا التركيز عليك حالياً. اجلس من فضلك".

أصبحت نبرتها أكثر حزمًا، معيدة إلى ذاكرته المقالات التي قرأها للتوّ عن ذكائها ونضوجها السابق لأوانه.

قالت وهي تشير إليه للجلوس: "أريدك أن تفكّر. هل تذكر كيف وصلنا إلى هذه الشقّة؟".

لم يكن لانغدون واثقاً من أهميّة هذا السؤال، غير أنّه أجاب وهو يجلس أمام الطاولة: "سيارة أجرة. كان أحدهم يطلق النار علينا".

"كان يطلق النار عليك/نت، بروفييسور. لنكن واضحين".

"أجل، أنا آسف".

"وهل تذكر عدد الأعيرة النارية التي أطلقت عندما كنت في السيارة؟".

سؤال غريب. "أجل، اثنان. أحدهما أصاب المرأة الجانبيّة، والآخر كسر زجاج السيارة الخلفي".

"جيد، والآن أغمض عينيك".

أدرك لانغدون أنّها تختبر ذاكرته، فأغمض عينيه.

"ماذا أرّدي؟".

كان لانغدون قادراً على التذكّر تماماً. "أنت تتنعلين حذاء منخفضاً أسود، وترتدين جينزاً أزرق وسترة بلون القشدة ياقتها على شكل V. شعرك أشقر، بطول الكتفين، ومربوط إلى الخلف. وعيناك بنيّتان".

فتح لانغدون عينيه وتفحصها، وسرَّ لأنَّ ذاكرته التخيلية تعمل بشكل طبيعي.
"هذا جيد. فذاكرتك البصرية المعرفية ممتازة؛ الأمر الذي يؤكد أنَّ حالة فقدان الذاكرة لديك انتكاسية، وأنت لا تعاني من ضرر دائم في عملية التذكُّر. هل تذكرت شيئاً جديداً عن الأيام القليلة الماضية؟".

"كلاً، مع الأسف. غير أنَّ موجة أخرى من الروى راودتني في غيابك".
روى لها لانغدون حالة الهلوسة المتكررة التي يرى فيها المرأة ذات الوشاح، وأكوام الجثث والأجساد المحتضرة، والساقين نصف المدفونتين اللتين تحملان الحرف R. ثم أخبرها عن القناع الغريب ذي المنقار الذي رآه يحوم في السماء.
سألته سيبينا مضطربة: "أنا الموت؟".
"أجل، هذا ما قاله".

"حسناً... أعتقد أنَّ هذا يضاهي: أنا فيشنو، مدمر العالم".
هذه الجملة قالها روبرت أوبنهايمر عندما اختبر أول قنبلة ذرية.
سألته سيبينا محتارة: "هذا القناع ذو الأنف المعقوف... والعينين الخضراوين... هل لديك أي فكرة عن سبب استحضار ذهنك تلك الصورة؟".
"إطلاقاً. لكنَّ هذا النمط من الأقنعة كان شائعاً جداً في العصور الوسطى". صمت قليلاً
ثم أضاف: "إنَّه يدعى قناع الطاعون".

نظرت إليه سيبينا بتوتّر غريب: "قناع الطاعون؟".
شرح لها لانغدون باختصار أنَّه في عالم الرموز، كان القناع ذو المنقار الطويل، بشكله الفريد، مرادفاً للموت الأسود؛ أي الطاعون القاتل الذي اجتاح أوروبا عام 1300 تقريباً، موبياً بحياة ثلث السكَّان في بعض المناطق. اعتقد كثيرون أنَّ صفة "الأسود" إشارة إلى أسوداد بشرة الضحايا بسبب الغرغرينا والنزيف الذي يحدث تحت الجلد. لكنَّ في الواقع، تشير هذه الصفة إلى الخوف العميق من انتشار الوباء بين السكَّان.

أضاف لانغدون: "أما بالنسبة إلى القناع ذي المنقار الطويل، فكان الأطباء في القرون الوسطى يضعونه جنباً لانتقال الوباء إليهم في أثناء معالجتهم المصابين. واليوم، لا نراه سوى في كرنفال البندقية، لندكرنا بحقبة كنيية من تاريخ إيطاليا".

سألته سيبينا بصوت مرتجف الآن: "وهل أنت واثق أنك رأيت أحد هذه الأقنعة في هذيانك؟ قناع طبيب يعالج من مرض الطاعون من القرون الوسطى؟".

هزَّ لانغدون رأسه. من الصعب ألاَّ تعرّف على قناع ذي منقار.
كانت سيبينا عابسة بطريقة أوحى للانغدون أنَّها تحاول إيجاد أفضل السبل لإخباره بنياً سيئاً. "والمرأة تقول لك باستمرار: من يبحث بجد؟".
"أجل، تماماً كما قالت من قبل. لكنَّ المشكلة هي أنني لا أعرف عمّا يجب أن أبحث".

تهدت سييئا، وبدأ على وجهها تعبير جدّي. "أظنّ أنني أعرف. لا، بل... أظنّ أنّك وجدت ضالّتك".

حملق بها لانغدون. "عمّ تتحدّثين؟!"

"روبرت، عندما وصلت في الليلة الماضية إلى المستشفى، كنت تحمل شيئاً غريباً في جيبك. هل تذكره؟"

هزّ لانغدون رأسه نافياً.

"كنت تحمل شيئاً... مثيراً للاستغراب. وجدته صدفة عندما كنّا ننظّفك". أشارت إلى سترّة لانغدون الملوّثة بالدماء، والتي كانت موضوعة على الطاولة. "ما زال في جيبك، يمكنك إلقاء نظرة عليه".

نظر لانغدون إلى سترته بريية. على الأقلّ، هذا يفسّر السبب الذي جعلها تعود لإحضار سترتي. أمسك بالسترّة الملوّثة بالدماء، وبحث في كلّ جيوبها، الواحد تلو الآخر. لكنّه لم يجد شيئاً. فأعاد الكرة. أخيراً، التفت إليها وهزّ كتفيه قائلاً: "لا يوجد شيء هنا".

"وماذا عن الجيب السريّ؟"

"ماذا؟ ليس لديّ جيب سريّ في سترتي".

"حقّاً؟!" بدا عليها الاستغراب. "إذا، هل هذه سترّة... شخص آخر؟"

شعر لانغدون أنّه مشبّه من جديد. "كلّاً، هذه سترتي أنا".

"هل أنت واثق؟"

فكر، واثق تماماً. في الواقع، هذه سترّة كامبرلي المفضّلة لديه.

قلبها على الجهة الأخرى، وأظهر لسييئا العلامة التي تحمل رمزه المفضّل في عالم الموضة، كرة مزينة بثلاث عشرة جوهرة على شكل أزهار يعلوها صليب مالطي.

دع الأمر للاسكوتلنديين لاستحضار المحاربين المسيحيين على قطعة قمّاش صغيرة.

قال لانغدون مشيراً إلى الحرفين الأولين من اسمه المطرّزين باليد: "انظري". وكانا قد أضيفا إلى قطعة القمّاش التي تحمل العلامة. كان يحبّ دائماً ملابس هاريس تويد يدوية الصنع. ولهذا السبب، يدفع دائماً مبلغاً إضافياً لتطريز الحرفين الأولين من اسمه بالقرب من العلامة. ففي حرم الجامعة، ثمة مئات سترات التويد التي يتمّ خلّعها وارتداؤها دائماً في قاعات العشاء وصفوف الدراسة، ولا يعتزم لانغدون أبداً أن يدخل في تبادل خاسر على نحو غير مقصود.

قالت وهي تأخذ منه السترّة: "أنا أصدّقك. والآن، أنت انظر".

فتحت سييئا السترّة أكثر لتكشف البطانة عند أسفل الظهر. هناك، وفي مكان خفيّ، بدا له جيب كبير ومرتب.

ما هذا؟!

كان لانغدون واثقاً أنّه لم يسبق له رؤية هذا الجيب الذي تمّ إخفاؤه بطريقة ناجحة تماماً.

أَصْرَ لانغدون قائلاً: "لم يسبق لي أن رأيته من قبل!".
"إذا، أعتقد أنه لم يسبق لك رؤية... هذا؟". مدت سيبينا يدها إلى داخل الجيب، وأخرجت
عرضاً معدنياً مصقولاً، ووضعتَه بلطف بين يدي لانغدون.
حدّق إليه لانغدون في حيرة تامة.
سألته سيبينا: "هل تعرف ما هذا؟".
أجاب متلعثماً: "كلاً... لم يسبق لي أن رأيته قط".
"حسناً، مع الأسف، أنا أعرف ما هذا. وأنا واثقة تماماً أنه السبب الذي يدفع أحدهم
لمحاولة قتلك".

أخذ نولتون يمشي في حجرته الخاصة على متن *العميد/سيوم*، وهو يشعر بقلق متزايد كلما
فكّر أن عليه تحميل هذا الفيلم للعالم صباح الغد.
أنا الظل؟

سرت شائعات عن أنّ هذا العميل تحديداً أصيب باضطراب نفسي خلال الأشهر الأخيرة،
غير أنّ هذا الفيلم يؤكد الشائعات من دون أدنى شك.
أدرك نولتون أنه لا يملك سوى خيارين؛ إمّا أن يجهّز الشريط من أجل تسليمه غداً كما
وعد الكونسورتيوم، أو أن يأخذه إلى الطابق العلوي ليراه العميد ويعطي رأيه بهذا الشأن.
فكّر نولتون، غير لائقي أعرف رأيه. إذ لم يسبق له أن رأى العميد يتخذ أي إجراء غير
الذي وعد به. سيقول لي حمل هذا الشريط للعالم، من دون طرح أسئلة... وسيثور غضبه عليّ
لأنني سألت.

أعاد انتباهه إلى الفيلم، وأرجعه إلى نقطة مقلقة على نحو خاص. شغله مجدداً، ليظهر
أمامه الكهف بإضاءته الغريبة، يرافقه خرير المياه. لاح الظل بشكله البشري فوق الجدار
الرطب، رجل طويل القامة ذو منقار طويل مثل طائر.
بصوت مكتوم، تحدّث الظل المشوّه مجدداً:

هذا عصر الظلمات الجديد.

منذ قرون خلت، كانت أوروبا تتخبط في بؤسها: سكّان فقراء يتضورون
جوعاً، وغارقون في الخطيئة واليأس. كانوا عبارة عن غابة مكتظة، محاطين
بالأغصان الميتة، ينتظرون النور، ينتظرون الشرارة التي ستشعل النار وتحرق
الأغصان الميتة، وتسمح لأشعة الشمس بالوصول مجدداً إلى الجذور السليمة.
الغريلة هي نظام الطبيعة.

اسألوا أنفسكم: ماذا أتى بعد الموت الأسود؟
كلنا نعرف الجواب.
عصر النهضة.
ولادة جديدة.
لطالما كانت الأمور على هذا النحو. الموت تتبعه ولادة.
لبلوغ الجنة، على المرء أن يعبر الجحيم.
هذا ما علمنا إياه السيد.
ومع ذلك، تتجراً الجاهلة ذات الشعر الفضّي على نعتي بالوحش؟ أما
زالت تجهل رياضيات المستقبل؟ والأهوال التي سيجلبها؟
أنا الظلّ.
أنا خلاصكم.
وها أنا أقف في أعماق هذا الكهف، وأحدّق عبر البحيرة التي لا تعكس
النجوم. هنا في هذا المكان الغارق، يكمن الجحيم تحت المياه.
قريباً سنشعل فيه النيران.
وعندئذ، لا شيء على وجه الأرض سيتمكّن من إيقافها.

الفصل 11

شعر لانغدون أنَّ القطعة الموجودة في يده ثقيلة بالنسبة إلى حجمها. كانت الأسطوانة المعدنية المصقولة ناعمة، يبلغ طولها حوالي سَنَة إنشات، وهي مستديرة من الطرفين، مثل طوربيد صغير.

قالت له سينيّا: "قبل أن تتعامل مع هذا الشيء بخشونة، ربّما يستحسن أن تنتظر إلى الطرف الآخر." ثمّ ابتسمت وأضافت: "قلت لي إنك أستاذ في علم الرموز، أليس كذلك؟".

أعاد لانغدون تركيزه إلى الأنبوب، وراح يقلّبه بيديه إلى أن وقع نظره على رمز أحمر زاهٍ يظهر على جانبه.

على الفور، توتّر جسده.

بصفته طالباً في علم الأيقونات، كان يعرف أنَّ عدداً قليلاً من الصور الثمينة لديه القدرة على زرع الخوف في العقل البشري فوراً... غير أنَّ الرمز الذي رآه يأتي حتماً على رأس اللانحة. كانت ردّة فعله عميقة ومباشرة؛ حيث وضع الأنبوب على الطاولة، واستند إلى ظهر كرسيه.

هزّت سينيّا رأسها. "أجل، ذاك كان ردّ فعلي أيضاً".

كان الرسم الظاهر على الأنبوب عبارة عن أيقونة ثلاثية بسيطة.



كان لانغدون قد قرأ مرّة أنّ هذا الرمز سيئ السمعة صمّمته شركة داو للكيماويات في ستينيات القرن المنصرم ليحلّ محلّ مجموعة من الرسومات التحذيرية التي كانت مستخدمة في السابق. وعلى غرار جميع الرموز الناجحة، كان بسيطاً ومميّزاً ويسهل نسخه. هذا الرمز الحديث الذي يشير إلى "الخطر البيولوجي"، ويستحضر كلّ أنواع المخاطر من كمّاشات سرطان البحر إلى خناجر النينجا، قد أصبح رمزاً عالمياً يشير إلى الخطر في جميع اللغات.

قالت سينيّا: "هذه الأسطوانة الصغيرة أنبوب بيولوجي. وهي تُستخدم لنقل مواد خطيرة. نراها أحياناً في المجال الطيّ. يوجد داخلها أنبوب إسفنجي يمكن إدخال أنبوب عيّات فيه من أجل النقل الآمن. في هذه الحالة...". وأشارت إلى رمز الخطر البيولوجي، "أظنّ أنّه عامل كيميائي قاتل... أو ربّما... فيروس؟". صمّمت قليلاً ثمّ أضافت: "أحضرت أولى عيّات فيروس الإيبولا من أفريقيا في أنبوب مشابه".

لم يكن هذا ما أراد لانغدون سماعه. "لكن، ماذا يفعل هذا الشيء في سترتي! أنا أستاذ في تاريخ الفن، لماذا أحمل شيئاً كهذا؟".

ومضت في ذهنه صور عذيفة لجثث تتلوى... يحوم فوقها قناع الطاعون.
آسف جداً... آسف جداً.

قالت سيبينا: "أياً يكن مصدره، فهو أنبوب على درجة عالية من الجودة، مصفّح بالتيتانيوم، ولا يمكن اختراقه حتى بالأشعة. أظن أنها قضية حكومية". ثم أشارت إلى رقعة سوداء بحجم الطابع البريدي تظهر إلى جانب رمز الخطر البيولوجي. "هذه للتعرف على البصمات، إنها تدبير أمني في حال ضياع الأنبوب أو تعرضه للسرقة. فهذه الأنابيب لا يمكن أن تُفتح سوى من قبل شخص محدد".

ومع أن لانغدون شعر الآن أن عقله يعمل بالسرعة الطبيعية، إلا أنه ما زال يحتاج إلى بعض الوقت للاستيعاب. كنت أحمل عبوة مختومة تحتوي على سلاح بيولوجي.

"عندما وجدت هذه العبوة في سترتك، أردت أن أريها للدكتور ماركوني على انفراد، لكنني لم أتمكن من ذلك قبل أن تستيقظ. فكّرت أن أجرب إيهامك على المنطقة المختصة للبصمات خلال غيابك عن الوعي، لكنني لم أكن أملك أي فكرة عما يوجد في الأنبوب، و...".

"إيهامي؟!". هزّ لانغدون رأسه، "من المستحيل أن يكون هذا الشيء مبرمجاً لكي أفتحه أنا. فأنا لا أعرف شيئاً عن الكيمياء البيولوجية. ولم يسبق لي أن رأيت شيئاً مثله من قبل".

"هل أنت متأكد؟".

كان لانغدون متأكداً تماماً. لذا، مدّ يده ووضع إيهامه على منطقة التعرف على البصمات. لم يحدث شيء. "أرأيت؟ قلت -".

فجأة، صدرت طقطقة عالية من أنبوب التيتانيوم، فأرجع لانغدون يده وكأنها احترقت. سحفاً. حنق إلى العبوة التي بدت وكأنها على وشك أن تُفتح من تلقاء نفسها وتبدأ بإطلاق غاز قاتل. بعد ثلاث ثوان، صدرت طقطقة أخرى، وكأنها ثققل مجدداً.
التفت لانغدون إلى سيبينا مذهولاً.

تهدّدت الطبيبة الشابة، ويذا عليها التوتر. "حسناً، من الواضح أنك الحامل المقصود للأنبوب".

بالنسبة إلى لانغدون، بدا السيناريو بأكمله غير منطقي. "هذا مستحيل. أولاً، كيف تمكنت من إدخال هذا الأنبوب المعدني عبر أمن المطار؟".

"ربما أتيت على متن طائرة خاصة؟ أو تم إعطاؤك الأنبوب عندما وصلت إلى إيطاليا؟".

"سيبينا، عليّ الاتصال بالقنصلية حالاً".

"ألا تظن أن علينا فتحه أولاً؟".

سيق أن اتخذ لانغدون بعض القرارات الطائشة في حياته. لكن فتح هذه العبوة الخطرة في مطبخ هذه المرأة لن يكون واحداً منها. "سأسلم هذا الشيء للسلطات حالاً".

شدت سينيًا شفتيها وهي تدرس الخيارات المتاحة. "حسناً، لكن بمجرد أن تجري ذلك الاتصال، ستصبح بمفردك. إذ لا يمكنني التورط في الأمر. حتماً، لا يمكنك الالتقاء بهم هنا. فوضعي في إيطاليا ... معقد".

نظر لانغدون إلى عيني سينيًا. "كل ما أعرفه سينيًا هو أنك أنقذت حياتي. لذلك، سأعالج هذه المسألة كما تريد".

هزت رأسها بامتنان واقتربت من النافذة، ووقفت تحقّق إلى الشارع في الأسفل. "حسناً، هذا ما يجب علينا فعله".

وضعت سينيًا خطة سريعة. كانت بسيطة، وذكية، وآمنة.

انتظر لانغدون إلى أن قامت بتشغيل خدمة حجب رقم المتصل على هاتفها الخليوي، وأجرت اتصالاً. كانت أصابعها نحيلة، لكنها تحركت بثبات.

تكلّمت بلكنة إيطالية ممتازة: "قسم الاستعلامات؟ من فضلك أود الحصول على رقم القنصلية الأميركية في فلورنسا".

انتظرت قليلاً، ثم دوت بسرعة رقم هاتف.

شكرت المتكلّم ثم أنهت الاتصال.

أعطت لانغدون رقم الهاتف مع هاتفها الخليوي. "تفضّل. هل تذكر ما عليك قوله؟".

أجاب مبتسماً: "ذاكرتي ممتازة". وطلب الرقم المدوّن على قصاصة الورق. بدأ الهاتف يرنّ. لا / حد يجيب.

حوّل المكالمة إلى مكبر الصوت، ووضع الهاتف على الطاولة لكي تسمع سينيًا. أجابت رسالة صوتية مسجلة تقدّم معلومات عامة عن خدمات القنصلية، وساعات العمل التي لا تبدأ قبل الساعة 8:30 صباحاً.

نظر لانغدون إلى الساعة المعلقة على الجدار. كانت تشير إلى السادسة صباحاً.

تابع التسجيل الآلي: "في الحالات الطارئة، يمكنكم طلب الرقم 77 للتحدّث مع الموظف الليلي".

طلب لانغدون الرقم فوراً.

رنّ الهاتف مجدداً على الطرف الآخر.

أجاب صوت متعب باللغة الإيطالية: "هنا القنصلية الأميركية، معكم الموظف الليلي".

سأله لانغدون بالإيطالية: "هل تتحدّث الإنكليزية".

أجاب الرجل بإنكليزية أميركية اللكنة: "بالطبع". وبدأ عليه بعض الانزعاج بسبب اضطرابه إلى الاستيقاظ. "كيف يمكنني مساعدتك؟".

"أنا أميركي في زيارة إلى فلورنسا، وقد تعرّضت للاعتداء. اسمي روبرت لانغدون."
"هلاً أعطيتني رقم جواز سفرك من فضلك؟". وتتأعب الرجل بصوت مسموع.
"جواز سفري مفقود، أظنّ أنّه سُرق مِنّي. لقد تعرّضت لطلق نارٍ في الرأس، وكنت في
المستشفى. أنا بحاجة إلى المساعدة".
فجأة، استيقظ الموظف تماماً. "سيدي، هل قلت إنّك تعرّضت لطلق نارٍ؟ ما اسمك
الكامل من فضلك؟".

"روبرت لانغدون".
سُمع حفيف، تلاه صوت أصابع الرجل وهي تطبع على لوح مفاتيح. صدرت طنّة عن
جهاز الكمبيوتر، ثمّ ساد الصمت، قبل أن تعود الأصابع للطباعة مجدّداً. صدرت طنّة أخرى،
تبعتها ثلاث طنّات عالية.
ساد الصمت لمدّة أطول.
قال الرجل: "سيدي، اسمك هو روبرت لانغدون؟".
"أجل، وأنا في ورطة".
"حسناً سيدي، اسمك مرفق بإشارة تأمرني بتحويلك فوراً إلى مدير القنصل العام". وصمت
الرجل، وكأنّه هو نفسه لم يصدّق. "ابقَ على الخطّ".
"انتظر، هل يمكنك إخباري -".

راح الهاتف برنّ مجدّداً.
رنّ أربع مرّات قبل أن يجيب أحد ما.
ردّ عليه صوت خشن: "معك كولينز".
أخذ لانغدون نفساً عميقاً، وتحدّث بهدوء ووضوح قدر الإمكان. "سيد كولينز، اسمي
روبرت لانغدون. أنا أميركي في زيارة إلى فلورنسا وقد تعرّضت لإطلاق نار. أحتاج إلى
المساعدة. أودّ المجيء إلى القنصلية الأميركية حالياً، هل يمكنك مساعدتي؟".
من دون تردّد، أجاب الصوت العميق: "الحمد لله أنّك على قيد الحياة سيد لانغدون. كنّا
نبحث عنك".

الفصل 12

القنصلية تعرف بوجودي هنا؟؟

بالنسبة إلى لانغدون، جلب له هذا الخبر قدراً كبيراً من الراحة على الفور. تحدثت معه السيد كولينز الذي قدّم نفسه على أنّه مدير القنصل العام بنبرة حازمة ومهنية، إلا أنّه لمس شيئاً من الإلحاح في صوته. "سيد لانغدون، علينا التحدّث فوراً، وبالطبع ليس هاتفيّاً".

لم يفهم لانغدون شيئاً، لكنّه لم يقاطعه.

قال كولينز: "أرسل شخصاً لإحضارك على الفور. أين أنت؟".

بدا التوتر على سيبينا وهي تصغي إلى الكلام المتبادل على الهاتف. طمأنها لانغدون بهزّة من رأسه مؤكداً أنّه سيَتبع خطتها حرفياً.

قال لانغدون وهو ينظر عبر النافذة إلى الفندق الصغير الذي أشارت إليه سيبينا منذ لحظات: "أنا في فندق صغير يدعى بينسيوني لا فيورينتينا". وأعطى كولينز عنوان الشارع.

أجاب الرجل: "ممتاز. لا تتحرّك من مكانك، وابقِ في غرفتك. سيأتي شخص ما فوراً لإحضارك. ما هو رقم الغرفة؟".

ارتجل لانغدون رقماً. "تسعة وثلاثون".

"حسناً. انتظر عشرين دقيقة". ثمّ أخفض كولينز صوته وقال: "سيد لانغدون، يبدو أنّك مصاب ومربّك، لكن عليّ أن أعرف... أما زالت بحوزتك؟".

بحوزتي! شعر لانغدون أنّ السؤال المموّه ليس له سوى معنى واحد. نظر إلى الأنبوب البيولوجي الموضوع على طاولة المطبخ وأجاب: "أجل، سيدي. ما زالت بحوزتي".

تنهّد كولينز بصوت مسموع. "عندما لم نسمع منك شيئاً، افترضنا... في الواقع، بصراحة، افترضنا الأسوأ. أشعر بالارتياح الآن. ابقِ مكانك، ولا تتحرّك. سيطرق أحدهم بابك بعد عشرين دقيقة".

أنهى كولينز الاتصال.

شعر لانغدون بالاسترخاء للمرة الأولى منذ أن استيقظ في المستشفى. القنصلية تعلم بما يجري، وقریباً سَأحصل على أجورية. أغمض عينيه وتنهّد، وشعر أنّه كائن بشري الآن. لم يكن صداعه قد فارقه بعد.

قالت سيبينا بنبرة مازحة: "كان هذا الحديث مخابراتياً جدّاً، هل أنت جاسوس؟".

في تلك اللحظة، لم يكن لانغدون يعرف من يكون. فقدان يومين كاملين من ذاكرته ليجد نفسه في هذا الوضع الغريب أمر لم يستطع فهمه، إلا أنه الآن... على بعد عشرين دقيقة من موعد مع موظف قنصلي في فندق صغير.

ماذا يجري هنا؟

نظر إلى سيبينا، وأدرك أنهما على وشك الافتراق، غير أنه شعر أنه ما زالت ثمة مسائل عالقة بينهما. تذكر الطبيب الملتحفي في المستشفى الذي مات على الأرض أمام عينيها، وهمس قائلاً: "سيبينا، صديقك... د. ماركوني... أشعر بأسف رهيب".

هزّت رأسها بكآبة.

"كما ألتني أسف لأنني ورطتك في هذا الأمر. أعرف أن وضعك في المستشفى ليس طبيعياً، وفي حال حدوث تحقيق...".

قالت: "لا بأس، أنا معتادة على التثقل".

قرأ لانغدون في عيني سيبينا أن كل شيء قد تغير بالنسبة إليها هذا الصباح. كانت حياة لانغدون غارقة في الفوضى في تلك اللحظة، إلا أن قلبه انغطر حزناً على هذه المرأة. لقد أنقذت حياتي... أما أنا فتمرت حياتها.

جلسا بصمت لدقيقة كاملة، وازداد الهواء ثقلاً بينهما، وكأنهما يرغبان في الكلام لكنهما لا يجدان ما يقولانه. إنهما غريبان في النهاية، جمع بينهما القدر في لقاء قصير وغريب، وقد وصلا إلى مفترق طرق، وعلى كل منهما الذهاب في سبيله الآن.

قال لانغدون أخيراً: "سيبينا، عندما أحلّ هذا الأمر مع القنصلية، إن كان ثمة ما أستطيع القيام به لمساعدتك... أرجوك".

همست: "شكراً". وأشاحت نظرها الحزين نحو النافذة.

مع مرور الوقت، نظرت سيبينا بروكس عبر نافذة المطبخ، وتساعلت إلى أين سيفودها هذا النهار. أيّما يكن ما سيحدث، لم يكن لديها أدنى شك أنه بحلول اليوم التالي، سيبدو عالمها مختلفاً كثيراً.

أدركت أن الأدرينالين هو المسؤول عن إحساسها على الأرجح، لكنّها وجدت نفسها منجذبة على نحو غريب إلى البروفيسور الأميركي. فبالإضافة إلى كونه وسيماً، بدا فعلاً طبيب القلب. في حياة أخرى، ربما كان روبرت لانغدون شخصاً تستطيع أن تكون معه. فكرت، لن يرغب بي أبداً. فأنا متضررة.

بينما كانت تطرد تلك الأفكار من رأسها، لغت نظرها شيء ما في الخارج. استقامت، وضغطت وجهها على الزجاج، وراحت تحدّق إلى الشارع. "روبرت، انظر!".

حقق لانغدون إلى الشارع، فرأى دراجة نارية سوداء من نوع بي إم دبليو توقفت للترّ أمام بينمسيوني لا فيورينتينا. كان السائق نحيلاً وقوياً، يرتدي بذلة سوداء جلدية وخوذة. عندما ترّجل السائق برشاقة عن الدراجة ونزع خوخته السوداء اللامعة، سمعت سيبينا لانغدون يحبس أنفاسه. لم يكن من الممكن ألاّ يتعرّف على المرأة بتسريحة السبايكي. أخرجت مستساً مألوفاً، وتحقّقت من كاتم الصوت، ثم أعادته إلى جيب السترة. بعد ذلك، مشّت برشاقة، ودخلت الفندق. همست سيبينا بصوت خائف: "روبرت، لقد أرسلت الحكومة الأميركية للترّ شخصاً لقتلك".

الفصل 13

اجتاحت لانغدون موجة من الذعر وهو يقف عند النافذة، مركزاً نظره على الفندق الواقع في الجهة المقابلة من الشارع. كانت المرأة قد دخلت للتو، لكن لانغدون لم يفهم كيف حصلت على العنوان.

تدفق الأدرينالين في جسده مشتتاً أفكاره مجدداً. "هل يعقل أن ترسل حكومة بلادي شخصاً لقتلي!".

بدا ذهول مشابه على وجه سيبينا أيضاً. "روبرت، هذا يعني أن المحاولة الأولى لقتلك في المستشفى كانت أيضاً بأمر من حكومة بلادك". ثم نهضت وتحققت من إقبال باب الشقة. "إن كانت القنصلية الأميركية قد أعطت الأمر بتصفيتك..." لم تنتهِ الجملة، لكن لم تكن ثمة ضرورة لذلك، فمضاعفات ذلك مرعبة.

لكن، ماذا فعلت؟ لماذا تطاروني حكومة بلادي؟!

تذكر لانغدون مرة أخرى الكلمات التي كان يتم بها عندما وصل مترشحاً إلى المستشفى. آسف جداً... آسف جداً.

قالت سيبينا: "أنت لست بأمين هنا. كلانا لسنا بأمين هنا". وأشارت إلى الشارع مضيفة: "لقد رأينا تلك المرأة ونحن نفر من المستشفى معاً. وأنا متأكدة أن حكومتك والشرطة تحاولان تعقبني. شفتي مستأجرة بعقد إيجار باسم شخص آخر، لكنهم سيعثرون علي في النهاية". ثم حوّلت انتباهها إلى الأنبوب البيولوجي الموضوع على الطاولة وقالت: "عليك أن تفتح هذا حالياً. نظر لانغدون إلى الأنبوب، ولم ير فيه سوى رمز الخطر البيولوجي.

قالت سيبينا: "مهما يكن ما يوجد في ذلك الأنبوب فلا بد من وجود رمز تعريف، أو ملصق وكالة، أو رقم هاتف، أي شيء. أنت بحاجة إلى المعلومات، وأنا كذلك؛ فحكومتك قتلت صديقي!".

تأثر لانغدون بسبب الألم الذي بدا في صوت سيبينا، فأوماً مدركاً أنها محقة. "نعم، أنا... آسف جداً". وأجفل وهو يسمع تينك الكلمتين مرة أخرى. التفت إلى الأنبوب الموضوع على الطاولة، متسائلاً عن الأجوبة التي قد يكشف عنها. قد يكون فتح هذا الشيء خطراً جداً.

فكرت سيبينا للحظة. "مهما يكن ما بداخله، فهو محمي للغاية؛ ربما في أنبوب اختبار من زجاج البليكسي المقاوم للكسر. فهذا الأنبوب ليس سوى غلاف خارجي لتوفير حماية إضافية أثناء النقل".

نظر لانغدون عبر النافذة إلى الدراجة السوداء المركونة خارج الفندق. لم تكن المرأة قد خرجت بعد، لكنّها سرعان ما ستكتشف أنّ لانغدون ليس في الداخل. وتساءل عما ستكون عليه خطواتها التالية... وكم ستستغرق من الوقت قبل أن تطرق على باب الشقة. اتخذ لانغدون قراره. حمل أنبوب التيتانيوم، ووضع إبهامه على المنطقة البيومترية متردداً. عندئذ، فُتح الأنبوب مصدراً طقطقة عالية.

قبل أن ينطلق الأنبوب مجدداً من تلقاء نفسه، أدار لانغدون نصفه باتجاهين معاكسين. بعد ربع دورة، طلق الأنبوب مجدداً، وعرف لانغدون أنّ لا عودة إلى الوراء. شعر بتعرق في يديه وهو يواصل فتح الأنبوب. استدار النصفان بسلاسة وهو يواصل فتحهما، وشعر وكأنّه على وشك فتح دمية روسية ثمينة؛ باستثناء أنّه لا يملك فكرة عما يوجد داخلها.

بعد خمس دورات، فُتح النصفان. أخذ لانغدون نفساً عميقاً وفصلهما عن بعضهما بلطف. اتسعت الفجوة بين النصفين، وانزلق قلبها المصنوع من المطاط الإسفنجي. وضعه لانغدون على الطاولة. كانت الحشوة الواقية تشبه إلى حدّ ما طابة كرة القدم الطويلة. لا شيء.

ثنى لانغدون قليلاً أعلى الغلاف الواقى، ليكشف أخيراً عما يوجد داخله. حذقت سبيناً إلى المحتوى، ثم رفعت رأسها وبدأ عليها الاستغراب. "حتماً، ليس هذا ما توقّعتّه".

كان لانغدون قد توقّع وجود أنبوب زجاجي حديث جدّاً، لكنّ المحتوى لم يكن حديثاً على الإطلاق. إذ بدا الشيء المزخرف بالنقوش مصنوعاً من العاج، وكان تقريباً بحجم علبة من سكاكر لايف سايفرز.

همست سبيناً: "يبدو قديماً، وكأنّه...".

قال لانغدون: "ختم أسطواني"، وتتهدّ أخيراً.

كان السومريون هم الذين اخترعوا الأختام الأسطوانية عام 3500 ق.م، لتكون أوّل أشكال الطباعة بالنقش الغائر. كان الختم يزيّن بزخرفات، ويتمّ تجويف قلبه الأسطواني، حيث يمكن إدخال محور فيه ودحرجته مثل أسطوانة الطلاء الحديثة، وذلك على الطين أو الفخار الرطب، من أجل "طبع" شريط متكرّر من الرموز، أو الصور، أو النصوص.

أدرك لانغدون أنّ هذا الختم نادر وقيم بلا شك، إلّا أنّه لم يفهم مع ذلك لماذا يوضع في علبة من التيتانيوم وكأنّه سلاح بيولوجي.

وبينما كان لانغدون يقلّب الختم بين أصابعه، أدرك أنّه يحمل نقوشاً مخيفة على نحو خاص؛ نقش شيطان ذي قرون بثلاثة رؤوس يقوم بأكل ثلاثة رجال في آن واحد، رجل في كلّ فم من أفواه الثلاثة.

كم هذا لطيف!

نظر لانغدون إلى سبعة حروف منحوتة تحت الصورة. كان النقش المزخرف مكتوباً وكأنه على مرآة، كما هو حال جميع الأختام، لكنّ لانغدون قرأ بسهولة حروف النقش: SALIGIA. حدّقت سيبينا إلى النصّ وقرأته بصوت عالٍ: "ساليديجيا؟". هزّ لانغدون رأسه، وشعر بقشعريرة لدى سماعه الكلمة بصوت عالٍ. "إنّها كلمة لاتينية ابتكرها الفاتيكان في العصور الوسطى لتذكير المسيحيين بالخطايا السبع المميّنة. ساليديجيا اختصار للكلمات: "superbia, avaritia, luxuria, invidia, gula, ira, and acedia". عيسيت سيبينا وترجمت: "الكبرياء، الجشع، الشهوة، الحسد، الشراهة، الغضب، والكسل". فوجئ لانغدون. "أنت تعرفين اللاتينية". "لقد نشأت على التعاليم الكاثوليكية. أنا أعرف الخطيئة". ابتسم لانغدون، وحول نظره إلى الختم متسائلاً مجدداً عن سبب حفظه في أنبوب بيولوجي وكأنه يشكّل خطورة.

قالت سيبينا: "اعتقدت أنه من العاج، لكنّه مصنوع من العظام". دفعت القطعة الأثرية إلى ضوء الشمس، وأشارت إلى الخطوط الموجودة عليها. "العاج يتكوّن في خطوط متقاطعة على شكل الماس مع تصدّعات شقّافة، أمّا العظام فتتكوّن من هذه التصدّعات المتوازية والنّدى الداكنة". تناول لانغدون الختم وتفحص النقوش عن كثب. كانت الأختام السومرية الأصلية تحمل نقوش شخصيات بدائية وكتابات مسمارية. غير أنّ هذا الختم يحمل نقوشاً متقنة أكثر بكثير. خمن لانغدون أنّه ينتمي إلى العصور الوسطى. أضف إلى ذلك أنّ زخرفاته توحى بعلاقة مثيرة للاضطراب مع الصور التي يهذي بها. نظرت إليه سيبينا بقلق. "ما هذا؟".

قال لانغدون بتجهم: "موضوع متكرّر"، وأشار إلى أحد نقوش الختم. "فالشيطان ذو الرؤوس الثلاثة الذي يأكل رجالاً صورة شائعة في العصور الوسطى؛ إنه أيقونة تقترن بالموت الأسود. فالأفواه الثلاثة ترمز لمدى قدرة الطاعون على الفتك بالناس". نظرت سيبينا بقلق إلى رمز الخطر البيولوجي الظاهر على الأنبوب.

يبدو أنّ الإشارات إلى الطاعون تتكرّر منذ الصباح من دون أن يكثرث لانغدون لذلك. هكذا، أقرّ على مضض بوجود علاقة أخرى. "تمثّل كلمة ساليديجيا الخطايا الجماعية للجنس البشري... وهي، بحسب المبادئ الدينية التي كانت تلقن في القرون الوسطى -". أكملت سيبينا الجملة: "السبب الذي عاقب الله الناس من أجله بالموت الأسود".

"نعم". صمت لانغدون، وانقطع حبل أفكاره للحظة. فقد لاحظ أنّ هذا الأنبوب كان مسدوداً. ثمّة شيء ما داخل هذا الختم. سقطت أشعة الضوء على الطرف الآخر فأومض. قال لانغدون: "ثمّة شيء ما في الداخل، ويبدو أنّه مصنوع من الزجاج". قلب الأسطوانة رأساً على عقب للتحقق من الطرف الآخر، فاهتزّ شيء صغير في الداخل، وتندرج من طرف إلى آخر، مثل كرة موضوعة داخل أنبوب.

جمد لانغدون، وسمع سيبينا تشهق بجانبه.

ما هذا؟!

همست سيبينا: "هل سمعت ذلك الصوت؟".

هزّ لانغدون رأسه وحدّق بحذر إلى طرف العبوة. "يبدو أن الفتحة مسدودة بشيء..."

معنني. "ربما هو غطاء الأنبوب اختبار؟"

تراجعت سيبينا. "هل يبدو... مكسوراً؟".

"لا أظن ذلك". قلب الأنبوب مجدداً لتفحص الطرف الزجاجي، فكرر الصوت. بعد

لحظة، حصل للزجاج في الأسطوانة شيء غير متوقع على الإطلاق.

بدأ يتوهج.

حملت سيبينا مذهولة. "روبرت، توقف! لا تتحرك!".

الفصل 14

وقف لانغدون جامداً تماماً؛ يده معلقة في الهواء، وهو يحمل الأسطوانة بثبات. من دون أدنى شك، كان الزجاج الموجود في طرف الأنبوب يتوهج... وكأن محتوياته قد استيقظت فجأة. سرعان ما انطفأ الضوء.

اقتربت سبيناً وقد تسارعت أنفاسها. لوت رأسها وتأملت الجزء المرئي من الزجاج داخل الأنبوب العظمي.

همست: "أقلبه مجدداً، لكن ببطء شديد".

قلب لانغدون الأنبوب بلطف، رأساً على عقب. فتدحرج الشيء الصغير على طول الأنبوب، وتوقف.

قالت: "مرة أخرى، بلطف".

أعاد لانغدون الكرة، وصدرت قعقة مجدداً داخل الأنبوب. هذه المرة، توهج الزجاج بوميض ضعيف، وسرعان ما تلاشى.

أعلنت سبيناً: "لا بد أنه أنبوب اختبار يحتوي على كرة محرّضة".

كانت الكرات المحرّضة مألوفة لدى لانغدون، فهي تُستخدم في عبوات رذاذ الطلاء، وتساعد على تحريك المادة عند خضّ العبوة.

قالت سبيناً: "من المرجح أنه يحتوي على مركب كيميائي فوسفوري، أو كائن بيولوجي مضيء يتوهج عند تحفيزه". كانت أفكار مختلفة تراود لانغدون. فرغم أنه رأى عصياً تتوهج بضوء كيميائي، وعوالق مضيئة بيولوجياً تتوهج عندما يفتح قارب ما بيئتها، إلا أنه كان واثقاً أن هذه الأسطوانة لا تحتوي على أي من هذه الأشياء. قلب الأنبوب برفق عدة مرات إلى أن توهج، ثم وجه الطرف المضيء إلى كفه. وكما توقع، ظهر ضوء خفيف مائل إلى الاحمرار على جلده.

إنه أمر رائع أن نعرف أن أصحاب معمل الذكاء 208 قد يخطئون أحياناً.

قال لانغدون: "انظري". وبدأ يهز الأنبوب بعنف. عندئذ، تدحرجت الكرة في الداخل إلى الأمام والخلف بسرعة أكبر.

قفزت سبيناً إلى الخلف وصاحت: "ماذا تفعل؟!".

واصل هز الأنبوب، ثم توجه إلى المقيس وأطفأ مصباح الغرفة، فخيّم الظلام على المطبخ نسبياً. قال وهو يواصل هز الأنبوب بأقصى قوته: "هذا ليس أنبوب اختبار، بل إنه مؤشر فاراداي".

كان لانغدون قد حصل على جهاز مشابه من أحد تلامذته؛ مؤشر لايزر للمحاضرين الذين لا يحبون استخدام البطاريات، ولا يمانعون بذل مجهود في خضّ المؤشر لبضع ثوانٍ من أجل تحويل طاقتهم الحركية إلى طاقة كهربائية عند الحاجة. عند خضّ ذلك الجهاز، تهتزّ كرة معدنية في الداخل عبر سلسلة من المحركات لتزود بالطاقة مولداً صغيراً. وعلى ما يبدو، قرّر أحدهم إدخال هذا المؤشر في أسطوانة عظيمة منحوتة؛ غلاف قديم يحتوي على لعبة إلكترونية حديثة. بدأ طرف الأداة يتوهج بشدة، فنظر لانغدون إلى سبيّنا وابتمس قائلاً: "حان وقت العرض". وجّه المؤشر العظيم إلى بقعة خالية على جدار المطبخ. وعندما أضاء الجدار، شهقت سبيّنا. إلا أنّ لانغدون كان هو من فوجئ أكثر.

لم يكن الضوء الذي سلّط على الجدار عبارة عن بقعة حمراء صغيرة، بل كان صورة حيّة وواضحة انبعثت من الأنبوب وكأنّه جهاز قديم لعرض الشرائح. يا إلهي! ارتجفت يد لانغدون وهو ينظر إلى المشهد المروّع الذي رآه أمامه على الجدار. لا عجب أنّني كنت أرى صور موت.

إلى جانبه، وضعت سبيّنا يديها على فمها، وخطت خطوة إلى الأمام، وقد هالها ما تراه. كان المشهد الذي انبعث من الأسطوانة العظيمة المنحوتة عبارة عن لوحة زيتية كثية تصوّر العذاب البشري؛ آلاف الأرواح التي تعاني من العذاب في مستويات مختلفة في الجحيم. كان عالم الجحيم مصوراً في مقطع عرضي من الأرض، فيه حفرة على شكل قمع، جدرانها تشبه جدران كهف، ولا يمكن سبر أغوارها. هذه الحفرة مقسّمة إلى مدرجات تنازلية من البؤس المضاعف، وكلّ مستوى من مستوياتها يحتوي على خطأة متنوعين يعانون من العذاب. عرف لانغدون الصورة على الفور.

كانت التحفة المنعكسة أمامه - لا مابا ديل إنغرينو - من صنع أحد عمالقة عصر النهضة الإيطالية، ساندرو بوتيتشيلي. وكانت عبارة عن خارطة مفصّلة لعالم ما تحت الأرض، خارطة الجحيم، وشكّلت إحدى أكثر الرؤى فظاعة لما بعد الموت. كانت تلك اللوحة القائمة، والكثيرة، والمرعبة تستوقف الناس حتّى في يومنا هذا. فخلافاً للوحة بريمافير، أو ولادة فينوس النابضة بالألوان والحياة، رسم بوتيتشيلي خارطة الجحيم بدرجات كثية من ألوان الأحمر، والبني الداكن، والبني. فجأة، عاد الصداق المولم يعتصر رأس لانغدون، إلا أنّه - وللمرة الأولى منذ استيقاظه في مستشفى غريب - شعر أنّ إحدى قطع الأحجية قد سقطت في مكانها. من الواضح أنّ هلوساته المخيفة أثارتها رؤية هذه اللوحة الشهيرة.

فكّر، لا بدّ أنّني كنت عاكفاً على دراسة لوحة بوتيتشيلي، خارطة الجحيم. لكنّه لا يذكر السبب.

مع أنّ اللوحة بحدّ ذاتها كانت مزعجة، إلا أنّ مصدر تلك اللوحة هو ما بدأ يثير اضطراب لانغدون على نحو متزايد. فقد كان لانغدون يعرف جيّداً أنّ الإلهام الذي ولّد هذه التحفة الكثيرة لم ينشأ في عقل بوتيتشيلي نفسه... بل في عقل شخص عاش قبله بمائتي عام.

إنه عمل فني عظيم مستلهم من عمل آخر.

في الواقع، كانت خارطة الجحيم التي رسمها بوتيتشيلي عبارة عن تكريم لعمل أدبي يرجع إلى القرن الرابع عشر، تحول لاحقاً إلى أشهر الأعمال الأدبية في التاريخ... رؤية مشهورة ومروعة للجحيم ما زال صداها يتردد حتى يومنا هذا.
إنفيرنو دانتي.

في الجهة المقابلة من الشارع، تسلقت فايينثا سلماً مخصصاً للخدمة، واختبأت على سطح الفندق الصغير. كان لانغدون قد أعطى رقم غرفة لا وجود له، ومكان لقاء وهمياً للشخص الذي تكلم معه في القنصلية؛ وهي تقنية معروفة تتيح له تقييم الوضع قبل أن يكشف مكانه الحقيقي. وعادة، يتم اختيار الموقع المزيف لأنه يقع على مرأى من المكان الفعلي. وجدت فايينثا نقطة مراقبة جيدة على السطح يمكنها أن تطلّ منها على المنطقة بأكملها. ببطء، أخذت تسمح بنظرها المبنى السكني المقابل.
دورك، سيد لانغدون.

في تلك اللحظة، على متن المينداسيوم، خرج العميد إلى سطح القارب، وأخذ نفساً عميقاً، متلذذاً بهواء البحر الأديراتيكي المالح. شكّلت هذه السفينة بيته منذ سنوات، غير أن سلسلة الأحداث المتلاحقة في فلورنسا تهدّد بتدمير كلّ ما بناه. لقد عرّضت العملية الميدانية فايينثا كلّ شيء للخطر، ومع أنّها ستخضع للتحقيق عند انتهاء هذه المهمة، إلا أنّ العميد ما زال بحاجة إليها.
من الأفضل لها أن تستعيد سيطرتها على هذه الفوضى.
سمع خطوات سريعة خلفه، فاستدار ليرى إحدى المطلّات اللواتي يعملن لديه تصل مسرعة. قالت لاهئة: "سيدي، لدينا معلومات جديدة". بدا صوتها حاداً على نحو غير معهود. "يبدو أنّ روبرت لانغدون دخل حساب بريده الإلكتروني من عنوان بروتوكول إنترنت غير محجوب". صمتت، ثم نظرت إلى عيني العميد وأضافت: "أصبح بإمكاننا تتبّع موقع لانغدون بدقة".
ذهل العميد من هذا التصرف الغبي. هذا يغيّر كلّ شيء. جمع أصابعه وحنق إلى الساحل، وأخذ يفكر في العواقب. "هل لدينا أخبار عن فريق المراقبة والدعم؟".
"أجل سيدي. إنه موجود على بعد أقلّ من ميلين من موقع لانغدون".
لم يستغرق العميد سوى لحظة واحدة لاتخاذ القرار.

الفصل 15

همست سيبنا: "إنفيرنو دي دانتي"، واقتربت من الصورة الظاهرة على جدار المطبخ.

فكر لانغدون، رؤية دانتي للجحيم، معكوسة هنا بالألوان الحية.

كان كتاب الجحيم، أو إنفيرنو، الذي يُعتبر أحد أبرز الأعمال الأدبية في العالم، واحداً من الكتب الثلاثة التي تُولف عمل دانتي أليغييري، الكوميديا الإلهية، وهي قصيدة ملحمية من 14,233 بيتاً، تصف رحلة دانتي المخيفة إلى عالم ما تحت الأرض، مروراً بالمطهر، إلى أن يصل أخيراً إلى الجنة. ومن بين الكتب الثلاثة، أي إنفيرنو، وبورغاتوريو، وباراديزو، كان الكتاب الأول هو الأكثر انتشاراً وحضوراً في الذاكرة.

ألف دانتي أليغييري كتابه إنفيرنو في بدايات العقد الأول من القرن الرابع عشر، وأعاد فيه تعريف تصورات القرون الوسطى للعقاب الإلهي. لم يكن قد سبق لمفهوم الجحيم أن أسر الناس بهذه الطريقة الممتعة. لكن، بعد عشية وضحاها، عزز عمل دانتي المفهوم المجرد للجحيم ووضعه في إطار واضح ومخيف؛ كان مروّعاً، وملموساً، ولا يُنسى. ولا عجب أنه بعد إصدار القصيدة، شهدت الكنيسة الكاثوليكية ارتفاعاً هائلاً في أعداد الحضور من قبل خطاة مذعورين سعوا إلى تجنب الهلاك في النسخة المحدثة التي صوّرها دانتي للجحيم.

في هذه اللوحة التي رسمها بوتيتشيلي، تمّ تصوير رؤية دانتي المرعبة للجحيم على شكل قمع تحت الأرض تتدرج فيه المعاناة؛ مشهد مخيف من النار والكبريت ومياه الصرف الصحي والوحوش، فضلاً عن الشيطان نفسه الذي ينتظر في المركز. تتألف الحفرة من تسعة مستويات مختلفة؛ هي حلقات الجحيم التسع، وفيها يتم إلقاء الخطاة بحسب فداحة خطيئتهم. على مقربة من السطح، تهبّ على أصحاب الشهوات رياح أبدية، ترمز إلى عجزهم عن السيطرة على رغباتهم. تحتمهم، يُجبر الشرهون على الاستلقاء على وجوههم في مياه الصرف الصحي القذرة، لتمتلي أفواههم بقذارتهم. وعلى مستوى أعمق، يحاصر المهبطون في توابيت مشتعلة، ويحكم عليهم بالنار الأبدية. وهكذا، يتضاعف العذاب كلما انخفض المستوى.

خلال القرون السبعة منذ نشر الكتاب، ألهمت رؤية دانتي للجحيم أعمالاً أخرى، وترجمات، وأعمالاً أدبية مختلفة من قبل عدد من أعظم العقول المبدعة في التاريخ. هكذا كتب لونغفيلو، وتشوسر، وماركس، وميلتون، وبورخس، وحتى عدد من الباباوات نصوصاً مستندة إلى إنفيرنو دانتي. كما ألف مونتيفيردي، وليزت، وفاغنر، وتشايكوفسكي، وبوتشيني مقطوعات موسيقية مرتكزة على عمل دانتي، وكذلك فعلت واحدة من موسيقيات العصر

المفضلات لدى لانغدون؛ لورينا ماكينيت. حتى إن العالم المعاصر من ألعاب الفيديو وتطبيقات أي باد لم يوفر موضوعات ذات صلة بدانتي.

كان لانغدون تَوَاقاً إلى مشاطرة طلابه الثراء الرمزي النابض بالحياة لرؤية دانتي، لذلك كان يعطيهم في بعض الأحيان مادة عن الصور المتكررة لدى دانتي والأعمال التي استلهمت منه على مرّ القرون.

قالت سينا وهي تقترب من الصورة الظاهرة على الجدار: "روبرت، انظر!". وأشارت إلى منطقة قريبة من أسفل الجحيم المصوّر على شكل قمع.

كانت المنطقة التي تشير إليها معروفة باسم *مالبيولغي*، أي "خنادق الشر". كانت تشكّل الحلقة الثامنة وما قبل الأخيرة من الجحيم، وتُقسم إلى عشرة خنادق منفصلة، كلٌّ منها مخصص لنوع معيّن من الغش.

أشارت سينا بحماسة أكبر. "انظر! ألم تقل إنك رأيت هذا وأنت تهذي؟!"

ركّز لانغدون نظره إلى حيث أشارت سينا، لكنّه لم يرَ شيئاً. كان جهاز العرض الصغير يخسر طاقته؛ حيث بدأت الصورة تتلاشى. فقام بخضّ الجهاز بقوة إلى أن شَعَّ بقوة مجدداً. عندئذٍ، وضعه بحذر على مسافة أبعد من الجدار، على طرف طاولة المطبخ الصغيرة؛ حيث انعكست منه صورة أكبر. اقترب لانغدون من سينا، ووقف جانباً لتأمّل الخارطة المتوهّجة.

أشارت سينا مجدداً إلى الحلقة الثامنة. "انظر. ألم تقل إنك رأيت في هلو ساتك ساقين بارزتين من الأرض رأساً على عقب، تحملان الحرف *R*". ثمّ لمست بقعة محدّدة على الجدار، وأضافت: "ها هما!".

كما لاحظ لانغدون مرّات عديدة وهو يتأمّل هذه اللوحة، كان الخندق العاشر من *المالبيولغي* يعجّ بخطأ نصف مدفونين رأساً على عقب، سيقانهم بارزة فوق الأرض. لكنّ الغريب في هذه النسخة هو أنّ الساقين تحملان الحرف *R*، مكتوباً بالطين؛ تماماً كما رآه لانغدون في هذيانه.

يا إلهي! حدّق لانغدون جيّداً إلى هذا التفصيل الصغير. "هذا الحرف *R*... غير موجود بالتأكيد في لوحة بوتيتشيلي الأصلية!"

أشارت سينا بإصبعها قائلة: "ثمة حرف آخر".

تبع لانغدون إصبعها إلى خندق آخر من الخنادق العشرة، ليرى الحرف *E* مكتوباً على جنة كاذب، رأسه مثبت إلى الوراء.

ما هذا؟ لقد تمّ تعديل هذه اللوحة.

بدأت تظهر أمامه أحرف أخرى، مكتوبة على خطأ موجودين في الخنادق العشرة *للمالبيولغي*. رأى الحرف *C* على مغرّر يقوم الشياطين بجلده... وحرف *R* آخر على لصّ تعضّه الأفاعي باستمرار... والحرف *A* على سياسي فاسد غارق في بحيرة من القطران المغلي.

قال لانغدون بيقين: "هذه الأحرف غير موجودة بالتأكيد في لوحة بوتيتشيلي الأصلية. لقد تم تعديل هذه الصورة رقمياً".

حوّل نظره إلى الخندق الأعلى من *الماليبولغي*، وبدأ يقرأ الأحرف نزولاً، عبر كلّ من الخنادق العشرة، من الأعلى إلى الأسفل.

C... A... T... R... O... V... A... C... E... R

قال لانغدون: "*Catrovacer*؟ أهذه كلمة إيطالية؟".

هزّت سينيّاً رأسها نافية. "كما أنّها ليست لاتينية. لا أعرف معناها".
"ربّما هي... توقيع؟".

قالت بتشكّك: "*Catrovacer*؟ لا تبدو لي اسماً. لكن انظر هناك". وأشارت إلى إحدى الشخصيات العديدة الموجودة في الخندق الثالث.

عندما نظر لانغدون إلى الصورة، أحسّ بقشعريرة. فقد رأى بين حشود الخطاة في الخندق الثالث صورة أيقونية من العصور الوسطى، عبارة عن رجل يرتدي معطفاً ويضع قناعاً ذا أنف طويل يشبه المنقار، وعينين ميتتين.
قناع الطاعون.

سألته سينيّاً: "هل تتضمن لوحة بوتيتشيلي الأصلية طبيب طاعون؟".

"قطعاً لا. هذه الصورة مضافة".

"وهل وُضع بوتيتشيلي لوحته الأصلية؟".

لا يذكر لانغدون هذا التفصيل. لكن، عندما نظر إلى الزاوية السفلية اليمنى التي يظهر عليها التوقيع عادة، أدرك سبب سؤالها. فاللوحة لم تكن تحمل توقيعاً، غير أنّ سطرّاً من الحروف الصغيرة كان مرئياً بالكاد على الطرف البني الداكن للوحة: *la verita è visibile solo attraverso gli occhi della morte*.

كانت معرفة لانغدون باللغة الإيطالية محدودة، لكنّها كافية لفهم معنى الجملة. "لا يمكن لمخ الحقيقة إلّا عبر عيون الموت".

أومأت سينيّاً قائلة: "هذا غريب".

وقف الاثنان بصمت، في حين أدّت الصورة تتلاشي أمامهما ببطء. فكّر لانغدون، ما زال *إنفيرنو* دانتّي مصدر الإلهام للتحف الفنيّة منذ عام 1330.

كانت المادّة التي يعطيها لانغدون عن دانتّي تتضمن دائماً جزءاً كاملاً عن الأعمال الفنيّة المستلهمة من *إنفيرنو*. فبالإضافة إلى خارطة الجحيم الشهيرة التي رسمها بوتيتشيلي، صنع رودان منحوتته الرائعة التي تحمل اسم *الظلال الثلاثة* من *أبواب الجحيم*... وقام سترادانوس بتصوير فليجياس وهو يجذّف بين الجثث الفارقة في نهر ستيكس... ونرى خطاة الشهوة لدى ويليام بلايك تعصف بهم رياح أبدية... في حين صوّر بوغرو مشهداً إباحياً غريباً يُظهر دانتّي وفيرجيل وهما يشاهدان رجلين عازيين يتعاركان... ونرى الأرواح المعذّبة لدى بايروس جالسة

تحت سيل كالبرد من الجمر وقطرات النار... كذلك، يملك سالفادور دالي سلسلة غريبة جداً من الألوان المائية والكلشيهات الخشبية... هذا فضلاً عن مجموعة دوريه الضخمة من النقوش بالأبيض والأسود التي تصوّر كلّ شيء؛ من نفق المدخل إلى الجحيم... إلى الشيطان المجنّح نفسه.

يبدو الآن أنّ تأثير رؤية دانتي الشاعرية للجحيم لم يقتصر على أهمّ الفنانين عبر التاريخ. على ما يبدو، لقد ألهمت ملحمة شخصاً آخر؛ نفساً منحرفة عمدت إلى تعديل لوحة بوتيتشيلي الشهيرة رقمياً، مضيئة إليها عشرة حروف، وطبيب طاعون، ووقعتها بعبارة مشؤومة عن رؤية الحقيقة عبر عيون الموت. بعد ذلك، قام هذا الفنان بتخزين الصورة على جهاز عرض عالي التقنية، موضوع في قطعة عظام مزينة بنقش مخيف.

لم يستطع لاندون أن يتخيل من يكون صاحب هذه التحفة الفنية. غير أنّ هذه المسألة تُعتبر ثانوية في الوقت الحاضر بالنسبة إلى سؤال آخر أكثر إثارة للأعصاب.

كيف وصلت إلى جيبتي؟

بينما كانت سيبينا واقفة مع لاندون في المطبخ يفكران في الخطوة التالية، تردّد هدير غير متوقّع لمحرك قويّ في الشارع، تبعه صوت متقطع لإطارات تتوقّف فجأة، وأبواب سيارة تصفق.

استغربت سيبينا، وأسرعت لتتظر عبر النافذة.

رأت سيارة فان سوداء متوقفة في الشارع ولا تحمل أيّ علامة. تدفّق من داخلها فريق من الرجال، يرتدون جميعاً البذلات السوداء، ويضعون شارات دائرية خضراء على أكتافهم اليسرى. حملوا بنادقهم الآلية وتقدّموا على نحو عسكري عنيف. ومن دون أيّ تردّد، اندفع أربعة جنود نحو مدخل المبنى السكني.

صاحت سيبينا وقد تجمّد الدم في عروقها: "روبرت! لا أعرف من هم، لكنهم عثروا علينا!".

في الشارع، صاح العميل كريستوف برودر، مصدراً الأوامر إلى رجاله وهم يسرعون إلى المبنى. كان رجلاً قويّ البنية، منحه تاريخه العسكري إحساساً راسخاً بالواجب، وعلمه احترام التسلسل القيادي. كان يعرف مهمته، ويدرك المخاطر التي تتطوي عليها.

كانت المنظمة التي يعمل لحسابها تتضمن أقساماً عديدة، إلا أنّ الشعبة التي ينتمي إليها برودر، أي شعبة المراقبة والدعم، لا تُستدعى إلا عندما يتحوّل الوضع إلى "أزمة".

بينما اختفى الرجال في المبنى السكني، وقف برودر مراقباً المدخل، ثم أخرج جهاز الاتصال واتصل بالمسؤول.

قال: "أنا برودر. نبحث في تعقب لانغدون عبر عنوان بروتوكول الإنترنت لجهازه. فريقى دخل الآن. سأبلغكم عندما يصبح بين أيدينا".

على ارتفاع عذّة طوابق فوق برودر، على سطح بينسيوني لا فيورينتينا، حدثت فايينتا غير مصدقة إلى العملاء الذين اندفعوا إلى داخل المبنى السكني.
ماذا يفعلون هنا؟

مررت يدها عبر شعرها، وقد فهمت فجأة عواقب مهمتها الفاشلة في الليلة الماضية. هديل حمامة قوض مهمتها بأكملها وأخرجها عن السيطرة. ما بدأ كمهمة بسيطة... تحول الآن إلى كابوس فعلي.

إن كان فريق المراقبة والدعم هنا، فهذا يعني أن كل شيء قد انتهى بالنسبة إليّ.
تناولت فايينتا جهاز سيكترا تايفر إكس إس واتصلت بالعميد.

تمت: "سيدي، فريق المراقبة والدعم هنا! رجال برودر يملأون المبنى السكني المقابل!".
انتظرت الجواب، لكن عندما أتى، لم تسمع سوى نقرات حادة على الخط، تبعها صوت إلكتروني قال بهدوء: "لقد بدأ بروتوكول التتصل".

أخفضت فايينتا الهاتف، ونظرت إلى الشاشة في الوقت الذي انطفأ فيه الجهاز.
شحب وجهها، وحاولت إجبار نفسها على قبول ما آلت إليه الأمور. لقد قطع الكونسورتيوم كل روابطه بها.

لا اتصال، ولا ارتباط.

لقد تمّ التتصل مني.

لم تدم الصدمة سوى للحظة.

ثمّ استبدّ بها الخوف.

الفصل 16

حَثَّت سيبينا روبرت قائلة: "أسرع روبرت. اتبعني!".

كانت أفكار روبرت ما زالت مشوشة بالصور الكئيبة لجحيم دانتي وهو يندفع من الباب إلى ردهة المبنى السكني. حتى تلك اللحظة، تمكّنت سيبينا بروكس من التغلّب على توترها الصباحي الكبير بسلوك هادئ. زال الآن إثر انفعال لم يسبق لانغدون أن رآه لديها من قِبَل الخوف الحقيقي. في الممرّ، ركضت سيبينا أمامه، ومزّت من أمام المصعد الذي كان يهبط بعد أن طلبه أحد الرجال الذين دخلوا المبنى من دون شك. أسرعَت إلى آخر الرواق، ومن دون أن تتظر خلفها اختفت على الدّرج.

تبعها لانغدون عن قرب، وأسرع خلفها منتعلاً حذاءه المطاطي الخفيف. كان جهاز العرض الصغير الموضوع في جيب سترته الأمامي يرتطم ب صدره وهو يركض. ومضت في رأسه الأحرف الغريبة التي تزيّن الحلقة الثامنة من الجحيم: CATROVACER. تخيل قناع الطاعون والجملة الغريبة: لا يمكن لمخ الحقيقة إلّا عبر عيون الموت.

حاول لانغدون أن يربط بين هذه العناصر المتباعدة، لكنّها بدت له بلا معنى في تلك اللحظة. عندما توقف أخيراً عند أحد الطوابق، كانت سيبينا هناك تصغي إلى الأصوات. سمع لانغدون الخطوات التي تصعد الدّرج من الأسفل.

همس قائلاً: "هل يوجد مخرج آخر؟".

أجابته بحزم: "اتبعني".

كانت سيبينا قد أنقذت حياة لانغدون في وقت سابق من هذا اليوم. لذلك، وبما أنّه لا يملك أي خيار غير الوثوق بالمرأة، أخذ نفساً عميقاً واندفع خلفها على الدّرج. نزلاً طابقاً آخر، وأصبحت أصوات الأحنية أقرب بكثير؛ تتردّد على بعد طابق أو طابقين تحتها. لماذا تركض نحوهم مباشرة؟

وقبل أن يتمكّن لانغدون من الاعتراض، مدت سيبينا يدها وشدّته بعيداً عن الدّرج، عبر رواق خال وطويل، تتوزّع فيه الأبواب المغلقة.

ما من مكان للاختباء!

ضغطت على أحد أزرار النور، فانطفتأت بضعة مصابيح، لكنّ الممرّ المعتم لم يخفهما تماماً. كانت سيبينا ولانغدون مرئيين بوضوح هنا. أصبحت الخطوات المسرعة قريبة جداً الآن، وعرف لانغدون أنّ الجنود سيصلون في أي لحظة وسيرونهما مباشرة.

همست سيبينا: "أحتاج إلى سترتك". ونزعت السترة التي يرتديها لانغدون. بعد ذلك، أجبرت لانغدون على الانحناء خلفها في إطار باب متراجع قليلاً. "لا تتحرك".
ماذا تفعل؟ إنها مكشوفة تماماً!

ظهر الجنود على الدّرج متّجهين إلى الأعلى، لكنهم توقّفوا عندما رأوا سيبينا في الممرّ المعتم.

صاحت بهم سيبينا بالإيطالية بنبرة تأنيب: "يا الله عليكم! ما هذه الجلبة؟".

حقّق الرجال، غير متأكّدين ممّا ينظران إليه.

فواصلت صياحها. "ما كلّ هذا الضجيج في هذه الساعة؟".

أدرك لانغدون الآن أنّ سيبينا غطّت رأسها وكثفها بسترته السوداء، فبدت السترة وكأنها وشاح امرأة عجوز. كما أحنّت ظهرها، ووقفت بطريقة حجبت لانغدون المنحني خلفها في الظلّ. وبعدما تغيّر شكلها تماماً، اقتربت خطوة وراحت تصيح مثل امرأة عجوز مجنونة.

رفع أحد الجنديين يده، وأشار إليها للعودة إلى شقّتها. "سينيورا، عودي إلى بيتك حالاً!".

قامت سيبينا بخطوة أخرى وهي تترنّح، ونهزّ يدها بغضب. "لقد أيقظتم زوجي المريض!".

أصغى إليها لانغدون مدهوشاً. أيقظوا زوجك المريض؟

في تلك اللحظة، رفع الجندي الآخر بنقّيته ووجّها نحوها مباشرة. "توقفي وإلاّ أطلقت النار!".

توقّفت سيبينا فوراً، واستمرّت بشتمهما من دون رحمة وهي تتراجع إلى الخلف بعيداً عنهما.

أسرع الرجال، واختفيا على الدّرج.

فكّر لانغدون، لم يكن عرضاً شكسبيرياً تماماً، إلّا أنّه مثير للإعجاب. لا شك أنّ المواهب الدرامية سلاح ذو حدين.

نزعت سيبينا السترة عن رأسها وأعادتها للانغدون. "حسناً، اتبعني".

هذه المرّة، تبعها لانغدون من دون تردّد.

نزلا إلى الطابق الذي يعلو الردهة، وهناك كان يوجد جنديان آخران استقلّا المصعد للتوّ. وفي الشارع، وقف جندي آخر يراقب بجانب الفان، وبدت عضلاته المقتولة واضحة تحت بذلته السوداء. أسرع سيبينا ولانغدون بهدوء نحو الطابق السفلي الذي كان مظلماً وتقوّم منه رائحة القذارة. توجّهت سيبينا نحو زاوية رُكنت فيها درّاجات السكوتر والدراجات النارية. توقّفت أمام تراكب فضيّة، هي عبارة عن درّاجة بثلاث عجلات تجمع بين درّاجة الفيسبا الإيطالية والدراجة الهوائية ذات العجلات الثلاث المخصّصة للكبار. مرّرت يدها الرشيقة تحت الحاجز الأمامي ونزعت علبة مغناطيسية صغيرة. كان بداخلها مفتاح، أدخلته وشغلّت المحرّك.

بعد ثوان، جلس لانغدون خلفها على الدراجة. شعر أنه غير ثابت على المقعد الصغير، فراح يتلمس جانبي الدراجة بحثاً عن شيء ما يتمسك به. قالت له سيبينا: "ليس هذا وقت الخجل". ثم أمسكت بيديه ولقتهما حول خصرها النحيل. "عليك أن تتمسك جيداً".

وهذا ما فعله لانغدون حين انطلقت سيبينا بالدراجة عبر المخرج. كانت الآلة أكثر قوة مما تخيل؛ حيث عبرا الطابق السفلي بسرعة وخرجا إلى ضوء الصباح على بعد خمسين ياردة تقريباً من المدخل الرئيس. التفت الجندي مفتول العضلات الواقف أمام المبنى على الفور ليرى لانغدون وسيبينا ينطلقان بعيداً على متن الدراجة التي أصدرت صوتاً عالياً عندما ضغطت على دواسة السرعة.

التفت لانغدون إلى الخلف لينظر إلى الجندي الذي رفع سلاحه وصوّبه نحوه. انحنى لانغدون، ودوت طلقة واحدة أصابت الجهة الخلفية للدراجة وكانت على وشك أن تصيب لانغدون في عموده الفقري.

ربّاه!

انعطفت سيبينا بقوة إلى اليسار عند تقاطع طرق، وشعر لانغدون أنه ينزلق، وكافح ليحافظ على توازنه.

صاحت به: "انحنِ عليّ!".

انحنى لانغدون إلى الأمام، واستعاد توازنه، في حين انطلقت سيبينا في شارع أكبر. مرّا من أمام عدد من المباني قبل أن يستعيد لانغدون أنفاسه. من هم أولئك الرجال؟!

أبقت سيبينا تركيزها على الطريق وهي تسرع بالدراجة وسط حركة السير الصباحية الخفيفة. دُهِش عدد من المارة عند مرورهما، مستغربين على ما يبدو رؤية رجل بطول ستّ أقدام يرتدي سترة برونزي ويجلس خلف امرأة نحيلة.

تجاوز لانغدون وسيبينا عدداً من المباني، وكانا يقتربان من تقاطع رئيس عندما انطلقت الأبواق أمامهما. فجأة، ظهر أمامهما فان أسود لامع، انعطف عند الزاوية على عجلتين، واجتاز التقاطع، وأسرع متجهاً نحوهما مباشرة. كان الفان يشبه تماماً فان الجنود الذين اقتحموا المبنى السكني.

على الفور، انحرفت سيبينا بقوة إلى اليمين، وضغطت على المكابح، فارتطم صدر لانغدون بظهرها وهي تتوقّف بعيداً عن الأنظار خلف شاحنة مركونة على جانب الطريق. أوقفت الدراجة خلف الشاحنة، وأطفأت المحرك.

هل رأونا؟!

انحنيت هي ولانغدون في مخبئهما، وانتظرا... مقطوعي الأنفاس.

مرّ الفان من دون تردّد، وبدا واضحاً أنّ ركابه لم يروهما إطلاقاً. لكن في أثناء مروره، لمح لانغدون شخصاً في الداخل.

على المقعد الخلفي، كانت نومة امرأة مسنة جذابة جالسة بين جنديين وكأنها أسيرة. بدت عيناها مرتخيتين، ورأسها يتمايل كما لو أنها تهذي أو تم تخديرها. وكانت هناك تميمة تتدلى من سلسلة حول عنقها، في حين تتلّى شعرها الطويل الفضّي على ظهرها. للحظة، دُهل لانغدون، واعتقد أنه رأى شبحاً. كانت تلك هي المرأة التي رآها حين كان يهذي.

الفصل 17

خرج العميد من غرفة التحكم وسار على سطح اليخت محاولاً استجماع أفكاره. ما حدث للتو في شقة فلورنسا لا يمكن تصوّره.

دار على سطح اليخت مرتين، ثم دخل مكتبه وتناول زجاجة شراب معتق منذ خمسين عاماً. ومن دون أن يصب كأساً، وضع الزجاجة وأدار لها ظهره؛ مذكراً نفسه أنه ما زال يملك زمام السيطرة.

وقع نظره تلقائياً على مجلّد قديم بالّ على رفّ الكتب. كان هدية من عميل... عميل تمنى لو أنه لم يلتقه مطلقاً.

منذ عام خلا... كيف كان لي أن أعرف؟

لم يكن العميد عادة يقابل زبائنه شخصياً، لكنّ هذا الزبون أتاه عبر مصدر موثوق، لذلك قبل الخروج عن القاعدة.

كان البحر هادئاً في ذلك اليوم الذي وصل فيه الزبون إلى ميند/سيوم بواسطة طائرته المروحية الخاصّة. كان الزائر، وهو شخصية مشهورة في مجاله، يبلغ السادسة والأربعين من عمره، ويمتاز بأناقته، وطوله الفارع، وعينيه الخضراوين اللّاذبتين.

قال له الرجل: "كما تعرف، نصحني صديق مشترك بالاستعانة بخدماتك". مدّ الزائر ساقيه الطويلتين، واسترخى وكأّنه في منزله وهو جالس في مكتب العميد الفخم. "لذلك، سأخبرك بما أريده".

قاطعه العميد، مثبتاً أنّه هو من يملك زمام الأمور: "كلّاً. في الواقع، ينصّ بروتوكولي على ألاّ تقول لي شيئاً. سأشرح لك الخدمات التي أقدمها، وستختار منها ما يناسبك، إن وُجد".

فوجئ الزائر، لكنّه وافق وأصغى إليه. في النهاية، تبيّن أنّ ما يريده ذلك الوافد الجديد خدمة عادية جدّاً بالنسبة إلى الكونسورتيوم، تنصّ بشكل أساسي على نيل فرصة لكي يخفي عن الأنظار لبعض الوقت حتّى يتمكّن من مواصلة مسعاه بعيداً عن أعين المتطفّلين.

لعبة أطفال.

بإمكان الكونسورتيوم أن يوفّر له ذلك عن طريق تأمين هوية مزيفة، ومكان آمن ومجهول تماماً يستطيع فيه إنجاز عمله بسريّة تامّة؛ أيّاً يكن ذلك العمل. لم يسأل الكونسورتيوم قطّ عن الغرض من الخدمة التي يقدّمها، ولطالما فضّل أن يعرف أقلّ قدر ممكن من المعلومات عن الأشخاص الذين يعمل من أجلهم.

لمدة عام كامل، ومقابل أرباح هائلة، أمّن العميد جنةً آمنةً لصاحب العينين الخضراوين الذي تبين أنه عميل مثالي. لم يحدث أيّ اتصال بينه وبين العميد، وكان يدفع جميع فواتيره في الوقت المحدد.

لكن، منذ أسبوعين تغير كل شيء.

فجأة، اتصل الزبون، وطلب مقابلة العميد شخصياً. ونظراً إلى مبلغ المال الكبير الذي دفعه حتى ذلك الوقت، شعر العميد أنه مضطر لمقابلته.

بالكاد وجد شبهاً بين الرجل الأشعث الذي وصل إلى اليخت والرجل الأنيق والثابت الذي عقد معه صفقة قبل عام خلا. طغت نظرة جامحة على عينيهِ الخضراوين اللتين تميزتا بحدتهما في السابق. بدا... مريضاً تقريباً.

ماذا حدث له؟ ماذا كان يفعل؟

اصطحب العميد الرجل المتوتر إلى مكتبه.

راح الزبون يتمتم: "الشيطانة ذات الشعر الفضي تقرب يوماً بعد يوم".

نظر العميد إلى ملف زبونه، وتأمل صورة المرأة الجذابة ذات الشعر الفضي. قال العميد: "أجل، شيطانتك ذات الشعر الفضي. كلنا نعرف أعدائك. مهما تكن قوتها، أبقيناها بعيدة عنك لمدة عام كامل، وسنستمر في القيام بذلك".

راح صاحب العينين الخضراوين يلف خصلاً من شعره الدهني حول أصابعه. "لا تتخدع بجمالها، إنها عدو خطير".

فكر العميد، هذا صحيح، وكان لا يزال مستاءً لأن زبونه لفت انتباه شخص بهذا النفوذ الواسع. كانت ذات الشعر الفضي تمتلك نفوذاً وموارد هائلة، وليست من الخصوم الذين يحب العميد مواجهتهم.

قال الزبون: "إن عثرت علي هي أو أحد شياطينها...".

طمأنه العميد قائلاً: "لن يفعلوا. ألم نبعدك عن أعينهم طوال هذا الوقت، ووفّرنا لك كل ما طلبته؟".

قال الرجل: "بلى. لكنني سأنام ملء جفني إن...". صمت هنيهة محاولاً استجماع أفكاره. "أريد أن أتأكد أنكم ستقذون أمنياتي الأخيرة مهما حدث لي".

"وما هي؟".

مد الرجل يده إلى داخل حقيبة، وأخرج منها مغلفاً صغيراً مختوماً. "محتويات هذا المغلف تؤمن الوصول إلى خزنة في فلورنسا. داخل الخزنة، ستجد غرضاً صغيراً. إن أصابني مكروه، فأنا أريدك أن تسلّم هذا الشيء نيابة عني. إنه هدية".

"حسناً". أمسك العميد بقلمه لتكوين ملاحظاته. "ولمن أسلمه؟".

"لشيطانة ذات الشعر الفضي".

نظر إليه العميد، وسأله: "أهو هدية لعدوتك؟".

"ستكون هذه الهدية أكثر من شوكة في خاصرتها". وومضت عيناه بوحشية. "ستكون شوكة صغيرة نكية، مصنوعة من العظام. ستكتشف أنها خارطة... أنها فيرجيل الخاص بها... رفيقها إلى وسط جحيمها".

تأمل العמיד مطولاً. "كما تريد. اعتبر الأمر منتهياً".
البح الرجل قائلاً: "سيكون التوقيت حرجاً جداً. إذ لا ينبغي تسليم الهدية قبل الأوان. عليك أن تحتفظ بها حتى..." صمت، وقد شرد فجأة.
حنه العמיד: "حتى ماذا؟".

وقف الرجل فجأة، ومشى ليقف خلف مكتب العמיד، ثم أمسك بقلم أحمر ورسم دائرة حول تاريخ على روزنامة العמיד الشخصية. "حتى هذا اليوم".
شد العמיד عضلات فكه، وزفر مبتلعاً استياءه إزاء غرابة أطوار هذا الرجل، وقال: "مفهوم. لن أفعل شيئاً قبل هذا اليوم، وفيه سوسلم الغرض الموضوع في الخزانة، أيّا تكن ماهيته، إلى صاحبة الشعر الفضّي. أعدك بذلك". وعدّ الأيام على روزنامته حتى وصل إلى اليوم المحاط بالدائرة الغريبة. "سأنفذ رغبتك بعد أربعة عشر يوماً بالضبط".

حذره الزبون بحدة: "وليس قبل ذلك بيوم واحد!".
أكد له العמיד: "فهمت، ليس قبل ذلك بيوم واحد".
تناول العמיד المغلف ووضعه في ملف الرجل، ثم دون الملاحظات اللازمة لضمان تنفيذ رغبات الزبون حرفياً. ومع أنه لم يصف طبيعة الشيء الموجود في الخزانة، إلا أنّ العמיד فضّل عدم المعرفة. فعدم الاكتراث هو حجر الزاوية في فلسفة الكونسورتيوم. قدّم الخدمة من دون طرح أسئلة أو إصدار أحكام.

استرخى الرجل وأطلق نفساً ثقيلاً. "شكراً لك".
سأله العמיד: "هل من طلب آخر؟". وكان تواقاً للتخلص من هذا الزبون الغريب.

"أجل في الواقع". مدّ يده إلى جيبه وأخرج شريحة ذاكرة صغيرة حمراء اللون. وضعها أمام العמיד وقال: "هذا ملف فيديو. أريد أن يتم تحميله لوسائل الإعلام العالمية".
تأمل العמיד الرجل بفضول. غالباً ما كان الكونسورتيوم يوزع معلومات لزيائنه على وسائل الإعلام، إلا أنّ شيئاً ما في طلب هذا الرجل بدا مثيراً للقلق.

سأله العמיד، مشيراً إلى الدائرة على روزنامته: "في التاريخ نفسه؟".
أجاب الزبون: "في التاريخ نفسه، وليس قبل ذلك بلحظة واحدة".
"مفهوم". ودون العמיד المعلومات على ورقة مرفقة بشريحة الذاكرة. "هذا كل شيء إذأ؟".
ثم وقف محاولاً إنهاء الاجتماع.

لم يبارح الزبون مكانه. "كلّاً، ثمة أمر أخير".
عاد العמיד للجلوس في مكانه.

بدت عينا الزبون الخضراوان شاربتين تماماً الآن. "بعد أن تسلم هذا الفيلم، سأصبح رجلاً مشهوراً جداً".

فكر العميد، أنت رجل مشهور منذ الآن، نظراً إلى إنجازاته الرائعة.

قال الرجل، "وأنت تستحق بعضاً من هذا الفضل، فخدماتك هي التي مكنتني من إنتاج تحفتي... التي ستغير العالم. يجب أن تكون فخوراً بدورك".

أجاب العميد بنفاد صبر متزايد: "أيا تكن تحفتك، أنا مسرور لأنك حصلت على الخصوصية اللازمة من أجل إنتاجها".

"تعبيراً عن شكري، أحضرت لك هدية وداع". ومد الرجل الأشعث يده إلى حقيبته. "إنها كتاب".

تسأل العميد عما إذا كان هذا الكتاب هو التحفة الأثرية التي كان الزبون يعمل عليها طوال هذا الوقت. "وهل أنت من ألف هذا الكتاب؟".

"كلاً". ثم رفع مجلداً ضخماً ووضعه على الطاولة. "على العكس تماماً... تم تأليف هذا الكتاب من أجلي".

رمق العميد المجلد الذي أخرجه الزبون من حقيبته مستغرباً. يظن أن هذا الكتاب ألف من أجله؟ كان المجلد عبارة عن عمل أدبي كلاسيكي... كُتب في القرن الرابع عشر.

حسَّ الزبون بابتسامة غريبة: "اقرأ، سيساعدك على فهم كل ما فعلته".

عند ذلك، وقف الزائر الأشعث وودَّعه، ثم رحل فجأة. راقب العميد من نافذة مكتبه مروحية الزائر وهي تقطع عائدة إلى الساحل الإيطالي.

بعد ذلك، حوّل انتباهه إلى المجلد الضخم الموضوع أمامه. مدَّ أصابعه بتردد، ورفع الغلاف الجلدي، وقرأ. كانت افتتاحية الكتاب مكتوبة بأحرف كبيرة؛ حيث احتلت الصفحة الأولى بأكملها.

الجحيم

في منتصف مسيرة حياتنا

وجدت نفسي في ظلام غابة،

لأنني أضعت الطريق المستقيم.

على الصفحة المقابلة، كتب الزبون إهداءً بخط اليد:

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم يشكرك أيضاً.

لم يفهم العميد معنى ذلك، لكنه قرأ ما فيه الكفاية. لذا، أغلق الكتاب، ووضعه على الرف. لحسن الحظ، ستنتهي علاقته المهنية مع هذا الغريب قريباً. أربعة عشر يوماً بعد، هكذا فُكر وهو ينظر إلى التاريخ المحاط بدائرة حمراء على روزنامته الشخصية.

في الأيام التالية، شعر العميد بتوتر غير معهود حين تذكر زبونه. فقد بدا الرجل غير طبيعي يوم مجيئه. مع ذلك، مرّ الوقت من دون وقوع أيّ حوادث، على الرغم من الإحساس الذي راوده. لكن، قبل اليوم الموعود تماماً، وقعت سلسلة من الأحداث السريعة والمأساوية في فلورنسا. حاول العميد التعامل مع الأزمة، لكن سرعان ما خرجت الأمور عن سيطرته. وبلغت الأزمة ذروتها بصعود عميله إلى برج باديا.

قفز... إلى حتفه.

على الرغم من الصدمة التي شعر بها إزاء خسارته أحد زبائنه، لا سيّما بتلك الطريقة المروعة، إلّا أنّه حافظ على وعده. فبدأ على الفور بتنفيذ وعده الأخير للرجل الراحل، ألا وهو تسليم المرأة ذات الشعر الفضيّ محتويات الخزانة في فلورنسا. وكان توقّيت هذا العمل حرجاً؛ كما تمّ تحذيره.

ليس قبل التاريخ المحدّد على الروزنامة.

أعطى العميد المغلف الذي يحتوي على رموز الخزانة لفابينثا. وسافرت هذه الأخيرة إلى فلورنسا لإحضار الغرض الموجود في الداخل. لكن، عندما اتّصلت به فابينثا، كانت تحمل أخباراً مفاجئة وخطيرة على حدّ سواء. فقد وجدت الخزانة فارغة، وأفلتت من الاعتقال بصعوبة. بطريقة ما، علمت ذات الشعر الفضيّ بما يجري، واستخدمت نفوذها للوصول إلى الخزانة، وإصدار مذكرة توقيف بحقّ أيّ شخص يحاول فتحها. كان ذلك قبل ثلاثة أيّام.

أراد الزبون أن يشكّل ذلك الشيء الغامض إهانته الأخيرة للمرأة ذات الشعر الفضيّ؛ أن يكون بمثابة صوت يبلّغها من القبر. غير أنّه تحدّث الآن قبل أوّانه.

منذ ذلك الوقت والكونسورتيوم يخوض صراعاً يائساً؛ استخدم فيه كلّ موارده لتنفيذ رغبات الزبون الأخيرة، ولحماية نفسه على حدّ سواء. في خضمّ ذلك، تجاوز الكونسورتيوم عدداً من الخطوط الحمراء التي يعرف العميد أنّه لا يستطيع العودة بعدها إلى الوراء. والآن، مع كلّ ما يجري في فلورنسا، حدّق العميد إلى مكتبه وتساءل عما يخبئه له المستقبل.

على روزنامته، كان الزبون قد خرّش بعنف دائرة حمراء تحدّق إليه الآن، حلقة من الحبر الأحمر تحيط بيوم خاصّ على ما يبدو. غداً.

على مضض، رmq العميد زجاجة الشراب الموضوعة أمامه. وللمرّة الأولى منذ أربعة عشر عاماً، صبّ كأساً وأفرغها في جوفه في جرعة واحدة.

في الطابق السفلي من الـيخت، أخرج المنسّق لورنس نولتون شريحة الذاكرة الحمراء الصغيرة من جهاز الكمبيوتر ووضعها أمامه على الطاولة. كان الفيديو من أغرب ما رآه حتّى الآن.

ويستغرق عرضه تسع دقائق بالضبط... بالثانية.

شعر بالانزعاج على نحو غير معهود، فوقف وراح يذرع حجرته الصغيرة ذهاباً وإياباً، متسائلاً عما إذا كان عليه مشاركة الفيلم الغريب مع العميد. غير أنّه قال لنفسه: قم بعملك وحسب، من دون أسئلة ولا أحكام. طرد الفيلم من ذهنه، ودوّن مهمة محدّدة على جدول أعماله. غداً، وكما طلب الزبون، سيحمل الفيديو لوسائل الإعلام.

الفصل 18

توصف جادة نيكولو ماكيافيلي بأنها أجمل جادات فلورنسا. فبانعطافاتها الواسعة على شكل S التي تتعرج بين المساحات الخضراء المحاطة بالأسيجة والمظللة بالأشجار الوارفة، تُعتبر مفضلة لدى راكبي الدراجات وهواة سيارات الفيراري.

قادت سيبينا دراجتها بخبرة عبر انعطافات الجادة، تاركين وراءهما الحي السكني الفقير لينتقلا إلى الضفة الغربية الراقية التي تمتاز بهوائها العليل العابق بعطر شجر الأرز. مزا من أمام ساعة إحدى الكنائس التي كانت تنقّ معلنة أن الساعة هي الثامنة صباحاً.

تمسك لانغدون جيداً، فيما راح ذهنه يعصف بصور محيرة لجحيم دانتي... والوجه الغامض لامرأة جميلة ذات شعر فضّي رآها للتوّ محاصرة بين جنديين ضخمين على المقعد الخلفي للفان.

فكر لانغدون: *أيا تكن تلك المرأة، لقد أصبحت لديهم الآن.*

قالت سيبينا وهي ترفع صوتها فوق صوت محرك الدراجة: "هل أنت واثق أن المرأة التي رأيتها في الفان هي نفسها التي تظهر في أحلامك؟".
"بكل تأكيد".

"إذاً، لا بد أنك التقيتها في اليومين الفائتين. لكن السؤال هو: لماذا تستمر برويتها؟ ولماذا تقول لك باستمرار من يبحث يجد؟".

آسف جداً. آسف جداً.

فجأة، تسأل لانغدون عما إذا كان اعتذاره الغريب موجهاً للمرأة ذات الشعر الفضّي. فكر وهو يشعر بتقلص في أحشائه، هل خذلتها بشكل من الأشكال؟

شعر لانغدون كما لو أن سلاحاً حيوياً قد انترج من ترسانته. لم أعد أتذكر. كان ذا مخيلة خصبة منذ طفولته، لذلك، كان يعتبر ذاكرته من الممتلكات الفكرية التي يعتمد عليها كثيراً في حياته. بالنسبة إلى رجل معتاد على تذكر كل التفاصيل الدقيقة لما يراه حوله، بدا العيش من دون ذاكرة أشبه بمحاولة الهبوط بطائرة في الظلام من دون رادار.

قالت سيبينا: "يبدو أن فرصتك الوحيدة للعثور على أجوبة هي بفك رموز الخارطة. مهما تكن الأسرار التي تخبئها... يبدو أنها السبب وراء مطاردتك".

هرّ لانغدون رأسه، وهو يفكر بكلمة *catrovacar* التي ظهرت أمام خلفية من الجثث والأجساد التي تتلوى في جحيم دانتي.

فجأة، خطرت في بال لانغدون فكرة واضحة.

لقد استيقظت في فلورنسا...

ما من مدينة على وجه الأرض أكثر ارتباطاً بدانتي من فلورنسا. لقد ولد دانتي أليغييري في فلورنسا، ونشأ في فلورنسا، وأكرم - بحسب الأسطورة - ببيتاتريس في فلورنسا، كما أنه نفي بقسوة من منزله في فلورنسا، وظلّ بهيم في الأرياف الإيطالية لسنوات، وهو يتوق بشدة إلى بيته.

كتب دانتي عن المنفى: عليك أن تترك كل ما تحبه. فهذا أول السهام التي يطلقها المنفى. بينما كان لانغدون يتذكر هذه الكلمات من النشيد السابع عشر للباراديزو، نظر إلى اليمين، وحقّ عبر نهر آرنو إلى الأبراج البعيدة لفلورنسا القديمة.

تخيّل خارطة المدينة القديمة؛ متاهة من السيّاح، والأزحام، والسيّارات التي تتزاحم في الشوارع الضيقة حول مباني فلورنسا الشهيرة من كاتدرائيات، ومتاحف، ودور عبادة، وأسواق. فكّر أنّه إن ترجّل هو وسيبينا عن الدراجة، فبإمكانهما الاختفاء بين حشود الناس.

قال لانغدون: "علينا الذهاب إلى المدينة القديمة. إن كان ثمة أجوبة، فسنجدّها هناك على الأرجح. ففلورنسا القديمة كانت عالم دانتي بأكمله".

وافقت سيبينا، وقالت له: "كما أنّنا سنكون بمأمن أكبر هناك، وسنجد الكثير من الأماكن للاختباء فيها. سأوجّه إلى بورتا رومانا، ومنها يمكننا عبور النهر".

النهر، فكّر فيه لانغدون وهو يشعر برعدة خوف. فرحلة دانتي الشهيرة إلى الجحيم بدأت أيضاً بعبور نهر.

ضغطت سيبينا على دؤاسة الوقود، وانطلقت مسرعة، في حين أخذ لانغدون يراجع في ذهنه صور الجحيم والأموات والمحتضرين وخنادق المالبولغي العشرة مع طبيب الطاعون والكلمة الغريبة؛ catrovacer. فكّر ملياً في الكلمات المكتوبة تحت الخارطة، لا يمكن لمح الحقيقة إلّا عبر عيون الموت، وتساءل عما إذا كانت تلك العبارة مقبسة عن دانتي. لا أعرفها.

كان لانغدون ضليعاً في أعمال دانتي، ونظراً إلى شهرته كمؤرّخ فنيّ متخصص في علم الأيقونات، كان يستدعي أحياناً لتفسير المجموعة الواسعة من الرموز التي تحفل بها أعمال دانتي. وصدف أنّه ألقي محاضرة عن إنفيرنو دانتي منذ حوالي عامين، وربما لم يكن ذلك من قبيل المصادفة.

"كوميديا دانتي: رموز الجحيم".

تحول دانتي أليغييري إلى أحد الرموز الحقيقية في التاريخ، وألهب أفكار جمعيات دانتي في مختلف أنحاء العالم. تمّ تأسيس أقدم فرع أميركي عام 1881 في كامبردج، ماساتشوستس، على يد هنري وادورث لونغفيلو. فقد كان شاعر نيو إنغلاند الشهير أول أميركي يترجم الكوميديا الإلهية، وبقيت ترجمته واحدة من أكثر الترجمات تقديراً وانتشاراً حتّى يومنا هذا.

طُلب من لانغدون بصفته متخصصاً في أعمال دانتي إلقاء خطاب في مناسبة هامة استضافتها أقدم جمعيات دانتي في العالم؛ جمعية دانتي أليغييري في فيينا. نُظِم الحدث في أكاديمية فيينا للعلوم. وكان الراعي الأول، وهو عالم ثري وعضو في جمعية دانتي، قد تمكّن من حجز قاعة الأكاديمية التي تضمّ 2000 مقعد.

عندما وصل لانغدون، استقبله مدير المحاضرة واصطحبه إلى الداخل. وعند مرورهما بالردهة، لم يستطع لانغدون سوى أن يلاحظ الحروف الخمسة المطلية بأحجام عملاقة على الجدار الخلفي.

همس المدير: "هذا العمل للوكاس تروبيرغ. إنه أحدث تحفنا الفنية. ما رأيك؟". رمق لانغدون النصّ ذا الأحرف الضخمة، ولم يعرف بماذا يجيب. "في الواقع... ضربات فرشاته فخمة، لكنّ إتقانه للصيغة الشرطية يبدو ضعيفاً".

رمقه المدير بنظرة مريكة، وأمل لانغدون أن يكون اتصاله بالجمهور أفضل.

عندما صعد على خشبة المسرح، استقبل بعاصفة من التصفيق.

تردّد صوته عبر المكبرات: "سيداتي سادتي، أهلاً بكم.

بلغني أنّ جمهورنا الليلة لا يضمّ أعضاء في جمعية دانتي فحسب، بل يشتمل أيضاً على عدد كبير من العلماء الزائرين والطلّاب الذين يتعرّفون على دانتي للمرة الأولى ربّما. لذلك، ومن أجل أولئك الذين كانوا منشغلين جداً ولم تُتَح لهم الفرصة لقراءة الملاحم الإيطالية للقرون الوسطى، فكّرت في أن أبدأ بلمحة سريعة عن دانتي؛ حياته، وعمله، وعن سبب اعتباره واحداً من أكثر الشخصيات تأثيراً في التاريخ".

مزيد من التصفيق.

استخدم لانغدون جهاز تحكّم عن بعد، وراح يعرض سلسلة من صور دانتي، كانت الأولى لوحة شخصية للشاعر وهو يقف عند أحد الأبواب، حاملاً كتاب فلسفة، رسمها أندريا ديل كاستانيو.

قال لانغدون: "دانتي أليغييري. عاش هذا الكاتب والفيلسوف الفلورنسي بين عامي 1265 و1321. في هذه اللوحة، كما في كلّ صورهِ، يعتمر قبعة حمراء ضيقة ذات غطاء للأذنين. وقد تحوّلت هذه القبعة مع عباعته القرمزية إلى أشهر الصور المستنسخة لدانتي".

مرّر لانغدون صوراً للوحة بوتيتشيلي التي رسمها لدانتي من صالة أوفيتزي، والتي تُظهر أبرز ملامح دانتي؛ أي فكّه الثقيل وأنفه المعقوف. "هنا، يظهر وجه دانتي الفريد مجدداً محاطاً بالقبعة الحمراء، لكنّ بوتيتشيلي أضاف إليه إكليل غار رمزاً لخبرته في الفنون الشعرية، وهو رمز تقليدي مستمدّ من اليونان القديمة ويُستعمل حتّى اليوم في الاحتفالات لتكريم الشعراء والحائزين على جوائز نوبل".

مرّر لانغدون بسرعة عدداً من الصور الأخرى؛ كلّها تُظهر دانتي بقبعته وعباعته الحمراء، وإكليل الغار، وأنفه البارز. "إليكم هذا التمثال من بياترا دي ساننا كروتشي...

وبالطبع، اللوحة الجدارية المنسوبة إلى جوتو في كنيسة بارغيلو".

ترك لانغدون اللوحة الجدارية على الشاشة ومشى إلى وسط المسرح.

"كما تعرفون من دون شك، اشتهر دانتي بتحفته الأدبية العملاقة، الكوميديا الإلهية، التي تشكّل رواية حيّة وقاسية لنزول الكاتب إلى الجحيم، مروراً بالمطهر، ومن ثمّ صعوده إلى الجنة. وفقاً للمعايير الحديثة، لا تشتمل الكوميديا الإلهية على أي شيء كوميدي، بل سمّيت كوميديا لسبب مختلف تماماً. ففي القرن الرابع عشر، كان الأدب الإيطالي - بحسب شروطه - ينقسم إلى فئتين: تراجيديا تمثّل الأدب الراقى، وتُكتب باللغة الإيطالية الرسمية. والكوميديا التي تمثّل الأدب الممتدّن، وتُكتب باللغة العاميّة، وتوجّه لعامة الشعب".

مرّر لانغدون الصور؛ وصولاً إلى الجدارية الأيقونية لميكيلينو التي تصوّر دانتي واقفاً خارج جدران فلورنسا، وحاملاً نسخة من الكوميديا الإلهية. في الخلفية، يرتفع جبل المطهر المدرج عالياً فوق أبواب الجحيم. واللوحة المعلقة اليوم في كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري في فلورنسا، أصبحت معروفة باسم إيل دوومو.

تابع لانغدون: "كما يشير العنوان، كُتبت الكوميديا الإلهية باللغة العاميّة، لغة الشعب. ومع ذلك، دمجت ببراعة الدين والتاريخ والسياسة والفلسفة والاجتماع في نسيج خيالي، ظلّ - على الرغم من ثقافته - مفهوماً تماماً للجماهير. وتحوّل العمل إلى أحد أعمدة الثقافة الإيطالية، حيث إنّ الأسلوب الذي اتّبعه دانتي في الكتابة شكّل أساس اللغة الإيطالية الحديثة".

صمّت لانغدون قليلاً ليترك مجالاً لاستيعاب كلامه، ثمّ همس: "يا أصدقائي، من المستحيل المبالغة في وصف تأثير عمل دانتي الأليغوري. فعبر التاريخ بأكمله ما من عمل أدبي، أو فني، أو موسيقي فاق الكوميديا الإلهية في إلهام أعمال تكريم، أو تقليد، أو تحليل". بعد سرد أسماء المجموعة الواسعة من الملحنين، والفنانين، والأدباء الذين ألّفوا أعمالاً مستندة إلى ملحمة دانتي، تأمّل لانغدون الحضور وقال: "أخبروني الآن، هل لدينا كتاب هنا الليلة؟".

ارتفع حوالى ثلث أيادي الحاضرين. حنّق لانغدون إليهم مدهوشاً. يا إلهي، إمّا أنّني أقف أمام أفضل جمهور على وجه الأرض، أو أنّ النشر الإلكتروني نجح فعلاً. "حسناً، كما يعرف جميع الكتاب الحاضرين هنا، ما من شيء يقدّره الكاتب أكثر من الدعاية المبالغ فيها؛ أي ذلك السطر الوحيد الذي يكتبه شخص نافذ، والمختصّ لدفع الآخرين إلى شراء كتابك. في العصور الوسطى، كانت الدعاية المغالي فيها موجودة أيضاً. وقد حصل دانتي على بعض منها".

غيّر لانغدون الصورة المعروضة. "ألا تودّون أن تظهر جملة كهذه على غلاف كتابكم؟".

لم يطأ الأرض رجل أعظم منه.

- مايكل أنجلو

ظهرت الدهشة على وجوه الحاضرين.

قال لانغدون: "أجل، إنه مايكل أنجلو نفسه الذي تعرفونه من كنيسة سيسيتين وتمثال داوود. فإضافة إلى كون مايكل أنجلو رسّاماً ونحاتاً بارعاً، كان أيضاً شاعراً هاماً. فقد نشر حوالي ثلاثمائة قصيدة، بما فيها قصيدة بعنوان "دانتي"، وأهداها إلى الرجل الذي كانت رؤيته الصارخة للجحيم مصدر إلهام للوحة مايكل أنجلو، يوم القيامة. إن لم تصدّقوني، فاقروا النشيد الثالث من جحيم دانتي، ثم قوموا بزيارة كنيسة سيسيتين. فوق المذبح تماماً، ستجدون هذه الصورة المألوفة".

مرّر لانغدون الصور ليصل إلى تفصيل مخيف لوحش ضخم يورجج مجذافاً عملاقاً فوق أناس يرتعدون خوفاً. "هذا مراكبي دانتي الجهنمي، شارون، يضرب ركاباً نهمين بواسطة مجذاف".

انتقل لانغدون بعد ذلك إلى صورة جديدة تُظهر تفصيلاً ثانياً في لوحة مايكل أنجلو، هو عبارة عن رجل مصلوب. "هذا هامان الأجاغي، الذي مات شنعاً بحسب الكتاب المقدس. لكن في قصيدة دانتي تمّ صلبه. وكما ترون هنا، في كنيسة سيسيتين، اختار مايكل أنجلو رواية دانتي عوضاً عن رواية الكتاب المقدس". ابتسم لانغدون وأخفض صوته هامساً: "لا تخبروا البابا". ضحك الحشد.

"ابتكر إنفيرنو دانتي عالماً من العذاب والمعاناة يفوق التصور البشري، كما أنّ قصيدته حدّثت رؤيتنا الحديثة للجحيم". صمت لانغدون ثمّ أضاف: "وصدّقوني، إنّ الكنيسة الكاثوليكية تدّين بالكثير لدانتي. وذلك لأنّ جحيمه أزعج المؤمنين لعدة قرون، وضاعف من دون شكّ أعداد الحضور ثلاث مرّات".

بدّل لانغدون الصورة. "وهذا ما يقودنا إلى سبب وجودنا هنا الليلة".

ظهر الآن على الصورة عنوان محاضرتّه: كوميديا دانتي: رموز الجحيم. "جحيم دانتي مشهد غني بالرمزية، غالباً ما أخصّص من أجله فصلاً كاملاً. واللييلة، أظنّ أنّه ما من طريقة أفضل لكشف النقاب عن رموز إنفيرنو دانتي من مرافقته خطوة خطوة... عبر أبواب الجحيم".

مشى لانغدون على طرف المسرح، وتفحص الحضور. "إنّ كلّنا ننوي الذهاب في جولة إلى الجحيم، فأنا أفضل أن نستخدم خارطة. وما من خارطة لجحيم دانتي أكثر دقّة وكمالاً من تلك التي رسمها ساندرو بوتيتشيلي".

لمس جهاز التحكم عن بعد، فظهرت لوحة بوتيتشيلي المخيفة، مابا ديل إنفيرنو، أمام الحضور. ارتفع أنين عدد من الموجودين مع استيعاب الناس لمختلف الأحوال التي تجري في ذلك الكهف الأرضي الذي يتخذ شكل قمع.

"خلفاً لبعض الفنّانين، كان بوتيتشيلي مقتنعاً للغاية بتفسيره لنصّ دانتي. في الواقع، أمضى وقتاً طويلاً في قراءة دانتي إلى حدّ أنّ المؤرّخ الفنّي الكبير جورجيو فاساري قال إنّ

هوس بوتيتشيلي بدانتى أدّى إلى اضطرابات خطيرة في حياته. ابتكر بوتيتشيلي أكثر من عشرين عملاً آخر على صلة بدانتى، لكنّ هذه الخارطة هي الأكثر شهرة.

التفت لانغدون، وأشار إلى الزاوية العلوية اليسرى للوحة. "ستبدأ رحلتنا من هنا، من فوق الأرض؛ حيث يمكنكم رؤية دانتى بلباسه الأحمر، مع دليله، فيرجيل، واقفاً خارج أبواب الجحيم. من هناك، سنتّجه نزولاً، عبر الحلقات التسع لجحيم دانتى، إلى أن نلتقي في نهاية المطاف وجهاً لوجه مع...".

انتقل لانغدون بسرعة إلى صورة جديدة، هي عبارة عن صورة مكبرة للشيطان كما رسمه بوتيتشيلي في هذه اللوحة نفسها، وكان عبارة عن مخلوق مروّع ذي ثلاثة رؤوس يأكل ثلاثة أشخاص، كلّ في فم من أفواه الثلاثة.

شهق الحشد بصوت مسموع.

أعلن لانغدون: "هذه لمحة عن أحد الأماكن التي سنزورها. هذه الشخصية المخيفة هي النقطة التي ستنتهي عندها رحلة الليلة. إنها الحلقة التاسعة في الجحيم، وفيها يسكن الشيطان. لكن... صمت قليلاً، ثم أضاف: "الوصول إلى هناك جزء من المتعة وحسب، لذلك دعونا نرجع قليلاً إلى الخلف... ونعود إلى أبواب الجحيم التي تبدأ رحلتنا عندها".

انتقل لانغدون إلى الصورة التالية، وكانت عبارة عن طباعة حجرية لغوستاف دوريه تصوّر مدخل نفق مظلم في واجهة جرف صخري شديد الانحدار. كُتب فوق الباب: تَخَلَّ عن كلّ الآمال، أنت يا من تدخل إلى هنا.

سأل لانغدون مبتسماً: "إذاً، هل ندخل؟".

دوى صوت الفرامل، واختفى الحضور من أمام عيني لانغدون. شعر بجسده يندفع إلى الأمام ويصطدم بظهر سيبّا مع توقّف الدراجة وسط جادة ماكيافيلي.

ترجّح لانغدون، وكان ذهنه لا يزال مشغولاً بأبواب الجحيم التي تلوح أمامه. وعندما استجمع أفكاره، أدرك أين هو في الواقع.

سألها: "ماذا يجري؟".

أشارت سيبّا إلى بورتا رومانّا التي تقع على بعد 300 ياردة أمامهما، وهي البوّابة الحجرية القديمة التي كانت مدخل فلورنسا القديمة وقالت: "روبرت، لدينا مشكلة".

الفصل 19

وقف العميل برودر في الشقة المتواضعة وحاول أن يفهم ما يراه. من الذي يعيش هنا؟ كان الأثاث قليلاً وغير منظم؛ وكانت شقة طالب أثنت بمبلغ زهيد.

ناداه أحد رجاله من الردهة: "أيها العميل برودر، أظن أنك ترغب في رؤية هذا".

عبر برودر الرواق، متسائلاً عما إذا كانت الشرطة المحلية قد اعتقلت لانغدون. كان برودر يفضل حل هذه الأزمة بتكتم، لكن فرار لانغدون لم يترك لديه الخيار، فاضطر إلى طلب مساعدة الشرطة المحلية التي وضعت حواجز على الطرقات. فالزجاجة السريعة التي تجوب متاهة شوارع فلورنسا ستقتل بسهولة من فانات برودر التي تمتاز بنوافذ ثقيلة وصلبة من البوليكاربونات، وإطارات مقاومة للرصاص؛ الأمر الذي يجعلها قوية ولكنها بطيئة. الشرطة الإيطالية معروفة بأنها غير متعاونة مع الغرباء، لكن منظمة برودر تملك نفوذاً كبيراً على الشرطة، والقنصليات، والسفارات. طلباتنا /أوامر.

دخل برودر الغرفة الصغيرة التي يقف فيها أحد رجاله أمام كمبيوتر محمول مفتوح، وطبع بعض الأحرف بأصابعه المكسوة بققازي اللاتكس. قال الرجل: "هذا هو الجهاز الذي استخدمه لانغدون لدخول بريده الإلكتروني والقيام ببعض الأبحاث. ما زالت الملفات موجودة".

اقترب برودر ووقف أمام المكتب.

قال الفني: "لا يبدو أنه كمبيوتر لانغدون، بل إنه مسجل بالحرفين الأولين س. س. سأحصل على الاسم الكامل بعد قليل".

انتظر برودر، وانجذب نظره إلى كومة الأوراق على المكتب. تناولها وراح يتصفّح الأوراق غير الاعتيادية؛ الإعلان القديم من مسرح لندن غلوب وبعض مقالات الصحف. كلما قرأ برودر ازداد دهشة.

حمل الوثائق، وعاد إلى الردهة، واتصل برئيسه. قال: "أنا برودر. أظن أنني عرفت هوية الشخص الذي يساعد لانغدون".

سأله رئيسه: "ومن يكون؟".

زفر برودر ببطء. "لن تصدق".

على بعد ميلين، استقلت فايينثا دراجتها البي إم دبليو وغادرت المكان. مرّت سيارات الشرطة أمامها بالاتّجاه المعاكس مشقّة صفّارات إنذارها. فكّرت، لقد تمّ التّصلّ منّي.

عادة، كان هدير محرك الدراجة يساعدها على تهدئة أعصابها. غير أنّه لم ينجح في ذلك اليوم.

عملت فايينثا لصالح الكونسورتيوم لمدّة اثني عشر عاماً، وتدرّجت في الرّتب من وحدة الدعم الأساسيّة، إلى منسّقة استراتيجيّة، إلى أن أصبحت أخيراً عميلة ميدانيّة عاليّة الرّتبة. مهنتي هي كلّ ما أملك. كان العملاء الميدانيون يعيشون حياة من السّريّة، والسفر الدائم، والمهام طويلة الأمد؛ وكلّها تعزلهم عن الحياة الحقيقيّة وتمنعهم من إقامة أيّ علاقات. قالت لنفسها: إنّي أعمل على هذه المهمّة منذ عام. وكانت عاجزة عن التّصديق أنّ العميد قد استبعدّها بهذه القسوة.

أشرفت فايينثا لمدّة اثني عشر شهراً على خدمات الدعم المقدّمة لزيّون الكونسورتيوم نفسه؛ ذلك العبقرّي أخضر العينين وغريب الأطوار الذي أراد "الاختفاء" وحسب لمدّة من الزمن لكي يتّكّن من العمل بعيداً عن أنظار أعدائه ومنافسيه. نادراً ما كان يتنقّل، بل أمضى معظم وقته وهو يعمل خفية. لم تكن طبيعة ذلك العمل معروفة لفايينثا التي نصّ عقدها على إبقاء الرجل بعيداً عن أنظار الأشخاص النافذين الذين يحاولون العثور عليه. نفّذت فايينثا مهمّتها على أكمل وجه، وسار كلّ شيء على ما يرام. كلّ شيء، حتّى... الليلة الفائتة.

منذ ذلك الحين، أخذت حالة فايينثا النفسيّة ووضعها المهني بالتدهور. أصبحت خارج الكونسورتيوم الآن.

عند تفعيل بروتوكول التّصلّ، يتحقّم على العميل التخلّي عن مهمّته الحاليّة فوراً وإخلاء "المنطقة" مباشرة. ففي حال تمّ اعتقاله سيّتصلّ منه الكونسورتيوم تماماً. والعملاء يعرفون ذلك، ولا يخاطرون مع المنظّمة؛ لأنهم شهدوا بأنفسهم قدرة الكونسورتيوم على تحريف الواقع بما يناسب احتياجاته.

كانت فايينثا تعرف عميلين تمّ التّصلّ منهما. والغريب أنّها لم تر أيّاً منهما بعد ذلك. افترضت دائماً أنّه تمّ استدعاؤهما وطردهما من العمل، وطُلب منهما عدم الاتّصال بموظّفي الكونسورتيوم مجدّداً.

أمّا الآن، فهي لم تعد واثقة من ذلك.

قالت لنفسها: أنت تبالغين. فأساليب الكونسورتيوم أرقى بكثير من القتل بدم بارد.

ومع ذلك، شعرت برعشة خوف تجتاح جسدها.

حدسها هو الذي دفعها إلى الهرب عن سطح الفندق خفية في اللحظة التي رأت فيها فريق برودر يصل، وتساءلت عمّا إذا كان حدسها هو الذي أنقذها.

لا أحد يعرف بمكانى الآن.

بينما أسرعت فايينثا شمالاً عبر جادة فيالى ديل بودجو إمبريالى، أدركت الفرق الذي أحدثته الساعات الأخيرة. ففي الليلة الماضية، كانت تسعى إلى الحفاظ على وظيفتها. أما الآن فهي تسعى إلى الحفاظ على حياتها.

الفصل 20

كانت فلورنسا في الماضي محاطة بسور، وكان مدخلها الأساسي هو بوابة بورتا رومانا الحجرية التي بنيت عام 1326. وفي حين تُمرّ سور المدينة منذ قرون، إلا أن بورتا رومانا ما زالت قائمة حتى هذا اليوم، والسيارات تدخل عبر أنفاق عميقة مقوّسة تمتدّ عبر الحصن الهائل. البوابة نفسها عبارة عن حاجز بارتفاع 50 قدماً، مصنوع من الآجر والصخر القديم، وما زال البابان الخشبيان الضخمان اللذان يبقيان مفتوحين دائماً في وجه حركة المرور موجودين. تلقى أمام هذين البابين ست طرقات رئيسة، وتمرّ حول مستديرة عشبية يقف فيها تمثال لبيستوليتو بصور امرأة تخرج من بوابة المدينة حاملة رزمة كبيرة على رأسها. مع أن هذه المنطقة تشهد اليوم كابوساً من ازدحام السير، إلا أن بوابة فلورنسا كانت في ما مضى موقع فييرا *داي كوتتراتي*، أي مهرجان العقود الذي يقوم فيه الآباء ببيع بناتهم ضمن عقد زواج، وغالباً ما كانوا يجبرونهنّ على الرقص بشكل مغرٍ من أجل الحصول على مهر عالٍ.

هذا الصباح، أوقفت سينيّا الدراجة على بعد عدّة مئات من الياردات من البوابة، وأشارت بخوف. نظر لانغدون الجالس على متن الدراجة إلى الأمام، وشاركها انفعالها على الفور. كان أمامهما صفّ طويل من السيارات المتوقّفة تماماً. فقد قام حاجز للشرطة عند المستديرة بإيقاف السيارات، ووصل في تلك اللحظة المزيد من سيارات الشرطة. كان الضباط المسلّحون ينتقلون من سيارة إلى أخرى، وي طرحون الأسئلة.

فكر لانغدون: لا يمكن أن يكون كلّ هذا من أجلنا. هل يعقل ذلك؟

اقترب منهما دراج يتصبّب عرقاً أتياً من جادة ماكيافيلي، بعيداً عن الزحام. كان يركب دراجة هوائية، ويمدّ ساقيه العاريتين أمامه.

صاحت سينيّا بالإيطالية: "ماذا يجري؟".

أجابها بنبرة قلقة: "ومن يدري؟! شرطة". وأسرع للابتعاد عن المنطقة.

التفتت سينيّا إلى لانغدون، وقد بدا عليها التجهّم: "إنّه حاجز للشرطة العسكرية".

دوّت صفّارات الإنذار خلفهما، فاستدارت سينيّا إلى الخلف وحذّقت إلى جادة ماكيافيلي،

وقد كسا الخوف تعابير وجهها.

إنّنا محاصران. هذا ما فكر فيه لانغدون وهو يتفحص المنطقة بحثاً عن مخرج؛ كتقاطع طرق،

أو حديقة، أو زقاق، لكنّه لم ير سوى منازل خاصّة إلى اليسار، وجدار حجري عالٍ إلى اليمين.

اقترب صوت صفارات الإنذار .

هتف لانغدون: "هناك". وأشار إلى موقع بناء خالٍ على بعد ثلاثين ياردة يحتوي على خلّطة إسمنت يمكن أن تؤمّن لهما غطاء.

توجّهت سينيّا بالدراجة إلى الرصيف، وأسرعت إلى مكان البناء. ركنا الدراجة خلف خلّطة الإسمنت، ثم أدركا فوراً أنّها بالكاد تؤمّن مخبأً للدراجة وحدها.

قالت سينيّا: "اتبعني". وأسرعت باتجاه حجرة صغيرة للأدوات موضوعة بين الشجيرات أمام الجدار الحجري.

أدرك لانغدون أنّها ليست حجرة أدوات، وتقلّص أنفه اشمئزازاً وهما يقتربان. إنّهُ حَمَامٌ نَقَالَ. عندما وصلت سينيّا ولانغدون إلى حَمَامِ العمال، سمعا أصوات سيارات الشرطة وهي تقترب. حاولت سينيّا فتح الباب، إلاّ أنّه لم يتحرّك من مكانه. كان مقفلاً بسلسلة ثقيلة. أمسك لانغدون بذراع سينيّا وسحبها خلف الحجرة، مجبراً إيّاها على إقحام جسدها في المجال الضيق الذي يفصل بين الحَمَامِ والجدار. بالكاد كان المكان يتسع لهما، كما أنّ الهواء كان كريه الرائحة وثقيلاً.

انزلق لانغدون خلفها، وفي اللحظة نفسها مرّت سيّارة سوبارو فورستر سوداء كُتِبَت على جانبها كلمة CARABINIERI. مرّت السيّارة ببطء من أمام مخبئهما.

فكّر لانغدون غير مصدّق، الشرطة العسكرية الإيطالية! وتساءل عمّا إذا كان هؤلاء الضباط قد تلقّوا أوامر بإطلاق النار على الفور.

همست سينيّا: "ثمة من يلاحقنا بجديّة، وقد عثر علينا تقريباً".

تساءل لانغدون بصوت عالٍ: "جي بي إس؟ ربّما كان المسلّاط الصغير يحتوي على جهاز تعقّب".

هزّت سينيّا رأسها نافية. "صدّقني، لو كان من الممكن تعقّب ذلك الشيء، لوجدنا الشرطة فوقنا في هذه اللحظة".

تحرّك لانغدون محاولاً الوقوف بشكل مريح في ذلك المكان الضيق. فوجد نفسه وجهاً لوجه أمام مجموعة من الرسومات الجدارية الأنيقة التي خربشها المارّة على الحائط الخلفي للحَمَامِ النقال.

الإيطاليون هم أهلها.

معظم الحَمَامَاتِ النقالّة الأميركية مغطّاة برسومات كرتونية لطلّاب الجامعات التي تشتمل على إحياءات إباحية، غير أنّ هذه الرسومات تبدو أقرب إلى رسومات تُرى على دفتر رسم طالب فنون؛ عين بشرية، يد رُسمت بدقّة، صورة جانبية لرجل، وتنين خيالي.

قالت سينيّا التي عرفت ما يدور في خلده كما يبدو: "إتلاف الممتلكات العامة لا يبدو بهذا الشكل في أنحاء إيطاليا كافة، غير أنّ معهد فلورنسا للفنون يقع على الجانب الآخر من هذا الجدار".

تأكيداً لكلامها، ظهرت مجموعة طلاب من بعيد، ومشى الطلاب نحوهما حاملين حقائبهم الفنية تحت أذرعهم. كانوا يثرثرون، ويشعلون السجائر، ويتسألون عن سبب وجود الحاجز الذي أقيم عند بورتا رومانا أمامهم.

انحنى لانغدون وسيينا لكي لا يراهما الطالبان. وفي أثناء ذلك، خطرت للانغدون فكرة غير متوقعة.

الخطاة المدفونون رأساً على عقب وأرجلهم في الهواء.

ربما كان السبب هو رائحة القذارة البشرية، أو الدراج الذي مدّد ساقيه العاريتين أمامه، لكن، أيّا يكن الحافز، ومض في ذهن لانغدون عالم المالبولغي القدر والسيقان العارية التي تبرز من الأرض رأساً على عقب.

التفت فجأة نحو رفيقته. "سيينا، في نسختنا عن الخارطة، كانت السيقان التي تلوح في الهواء موجودة في الخندق العاشر، أليس كذلك؟ في أدنى مستويات المالبولغي؟".

نظرت إليه سيينا مستغربة؛ لأنّ الوقت غير مناسب إطلاقاً. "أجل، كانت في الأسفل".

للحظة، عاد لانغدون بذاكرته إلى فيينا عندما كان يلقي محاضراته. كان واقفاً على المسرح، قبل لحظات فقط من ختام المحاضرة، بعد أن عرض على الحضور منحوتة لدوريه تصوّر غريون؛ الوحش المجنّح بذيله السام، الذي يعيش فوق المالبولغي تماماً.

قال لانغدون بصوته العميق الذي تردّد عبر المكبرات: "قبل أن نقابل الشيطان، يجب أن نمرّ عبر خنادق المالبولغي العشرة التي يعاقب فيها المحتالون الذين يرتكبون الشرور المتعمّدة".

مرّر لانغدون الصور على الشاشة ليظهر مخطّطاً للمالبولغي، ثمّ اصطحب الحضور عبر الخنادق، واحداً تلو الآخر. "من الأعلى إلى الأسفل لدينا: المغوون الذين تجلدهم الشياطين... المتملقون الغارقون في البراز البشري... الكهنة الاستغلاليون المدفونون رأساً على عقب وأرجلهم في الهواء... المشعوذون برؤوسهم المفتولة إلى الخلف... السياسيون الفاسدون في الزفت المغلي... المنافقون الذين يرتدون عباءات ثقيلة من الرصاص... اللصوص الذين تعصّتهم الأفاعي... المحامون المحتالون الذين تلتهمهم النيران... زارعو الفتن الذين تقطّعهم الشياطين... وأخيراً، الكذّابون السقيمون على نحو تبدّلت معه ملامحهم". التفت لانغدون إلى الحضور مضيقاً: "على الأرجح، خصّص دانتى هذا الخندق الأخير للكذّابين بسبب سلسلة الأكاذيب التي رويت عنه وأدّت إلى نفيه من مدينته الحبيبة فلورنسا".

"روبرت؟" كان ذلك صوت سيينا.

عاد لانغدون فجأة إلى الواقع.

كانت سيينا تحدّق إليه بنظرة استغراب. "ما الأمر؟".

أجابها بحماسة: "في نسختنا عن الخارطة، التفاصيل الفنية مختلفة!". أخرج المسلاط من جيب سترته وهزّه بقدر ما أتاح له ضيق المجال الذي يقف فيه. أحدثت الكرة في الداخل صوتاً

عالياً، لكنّ نويّ صفّارات الإنذار كان أعلى. "أياً يكن من صنع هذه الصورة، فقد أعاد ترتيب مستويات المالبيولغي!".

عندما بدأ الجهاز يتوهّج، وجّهه لانغدون إلى المساحة المسطّحة أمامهما. فظهرت خارطة الجحيم، وتوهّجت بوضوح في الضوء الخفيف.

فكّر لانغدون بخجل، بوتيتشيكي على جدار حمام نَقال. لا شك أنّ لوحات بوتيتشيكي لم تُعرض يوماً في مكان أقلّ رقيّاً من هذا. نظر لانغدون إلى الخنادق العشرة، وبدأ يهزّ رأسه بحماسة.

صاح: "أجل، هذه اللوحة خاطئة! يجب أن يكون الخندق العاشر للمالبيولغي مليئاً بالكذّابين السقيمين، وليس بأشخاص مدفونين رأساً على عقب. فالخندق العاشر هو للكذّابين وليس للكهنة الاستغلاكيين!".

نظرت إليه سينيّا باستغراب. "لكن، لماذا غيّرنا ذلك؟".

همس لانغدون: "Catrovacer". ورمق الأحرف الصغيرة التي أضيفت إلى كلّ مستوى. "لا أظنّ أنّ هذه هي الكلمة المقصودة من الأحرف".

على الرغم من الإصابة التي محت ذكريات لانغدون عن اليومين السابقين، إلّا أنّه يشعر الآن أنّ ذاكرته تعمل بشكل ممتاز. أغمض عينيه، واستحضر نسختي الخارطة في عقله لتحليل الفوارق. كانت التعبيرات التي طرأت على المالبيولغي أقلّ ممّا تخيل لانغدون... إلّا أنّه شعر وكأنّ حجاباً قد نُزع فجأة عن عينيه.

فجأة، اتّضح كلّ شيء.

من يبحث بجد!

سألته سينيّا: "ما الأمر؟".

شعر لانغدون بجفاف في حلقه. "عرفت لماذا أنا في فلورنسا".
"حقاً!".

"أجل، وأعرف إلى أين يُفترض بي الذهاب".

أمسكت سينيّا بذراعه. "إلى أين؟!".

شعر لانغدون أنّه يقف على أرض صلبة للمرّة الأولى منذ أن استيقظ في المستشفى. همس قائلاً: "هذه الأحرف العشرة تشير في الواقع إلى مكان معيّن في المدينة القديمة. هناك سجد الأجوبة".

سألته سينيّا: "أين في المدينة القديمة؟! ماذا عرفت؟".

تردّدت أصوات ضحك من الجانب الآخر من الحمام النَقال. كانت مجموعة أخرى من الطلّاب تمرّ في الجوار، وكان أفرادها يمزحون ويثرثرون بلغات متنوّعة. استرق لانغدون النظر من خلف الحجرة بحذر، وراقبهم وهم يبتعدون. بعد ذلك، تفحص المكان بحثاً عن عناصر الشرطة. "علينا أن نتحرّك. سأشرح لك في الطريق".

هزّت سبيناً رأسها معترضة: "في الطريق؟ لن نتمكن أبداً من عبور بورنا روماناً!".
قال لها: "ابقي هنا ثلاثين ثانية، ثم اتبعيني".
عندئذ، ابتعد لانغدون، تاركاً صديقته الجديدة حائرة ووحيدة.

الفصل 21

لحق روبرت لانغدون بمجموعة الطلاب: "سكوزي، سكوزاتي!".
التفتوا جميعاً، وتظاهر لانغدون أنه سائح ضائع.
سأل بايطالية ركيكة: "أين يقع معهد الفنون؟".
نفخ أحد الشباب الموشومين دخان سيجارته وأجاب بنبرة ساخرة: "توم بارليامو إيتاليانو".
كانت لكنته فرنسية.
وبخت إحدى الفتيات صديقها الموشوم، وأشارت بتهذيب نحو بورتا رومانا قائلة بالإيطالية:
"إلى الأمام مباشرة".
شكرها لانغدون: "غراتسي".
خرجت سبيينا من دون أن يراها أحد من خلف الحمام النقال، وتوجهت نحو لانغدون.
اقتربت الفتاة الرشيقة من المجموعة، فأحاط لانغدون كتفها بذراعه وقال: "هذه شقيقتي سبيينا.
إنها أستاذة فنون".
تمتم الشاب الموشوم بعبارة ساخرة أخرى، فضحك أصدقاؤه الشباب.
تجاهلهم لانغدون وتابع قائلاً: "أتينا إلى فلورنسا بحثاً عن فرص عمل ممكنة في مجال
التدريس. هل يمكننا السير معكم؟".
قالت الفتاة الإيطالية مبتسمة: "بالتأكيد".
مشت المجموعة باتجاه الشرطة المتمركزة عند بورتا رومانا. في أثناء ذلك، راحت
سبيينا تتحدث مع الطلاب، في حين مشى لانغدون في وسط المجموعة، متقادياً
الأنظار.
فكر، من يبحث يجد، وتسارع نبضه وهو يتخيل خنادق المالبولغي العشرة.
Catrovacer. أدرك لانغدون أن هذه الأحرف العشرة تشكل جوهر أكثر الألغاز غموضاً
في عالم الفن؛ أحجية مضت عليها قرون من الزمن من دون أن تجد حلاً. ففي عام 1563،
استخدمت هذه الحروف العشرة لكتابة رسالة على الجزء العلوي من أحد جدران بالاتزو فيكيو
الشهير في فلورنسا. طُليت على ارتفاع 400 قدم عن الأرض، وكانت بالكاد مرئية من دون
منظار. بقيت مخبأة هناك على مرأى الجميع لقرون من الزمن، حتى سبعينيات القرن العشرين؛
إلى أن رآها خبير فني أصبح مشهوراً اليوم، وأمضى عقوداً في محاولة اكتشاف معناها. لكن،
على الرغم من النظريات العديدة، بقي مغزى الرسالة سراً حتى اليوم.

بالنسبة إلى لانغدون، بدا الرمز أرضاً مألوفة؛ ميناء آمناً في هذا البحر الهائج والغريب. ففي النهاية، كان تاريخ الفن والأسرار القديمة عالماً معروفاً بالنسبة إلى لانغدون أكثر بكثير من الأنايبب المحتوية على خطر بيولوجي والبنادق القاتلة.

أمامهم، بدأت سيارات إضافية للشرطة تمر عبر بورتا رومانا. قال الشاب الموشوم: "رأه، أياً يكن من يبحثون عنه، فلا بد أنه ارتكب جرمًا فظيلاً". وصلت المجموعة إلى بوابة معهد الفنون الواقعة إلى اليمين، والتي تجمع عندها حشد من الطلاب لمراقبة ما يجري عند بورتا رومانا. كان رجل الأمن عند باب المعهد يلقي نظرة خاطفة على بطاقات الطلاب وهم يدخلون، لكنه بدا بوضوح أكثر انشغالاً بما يجري مع الشرطة. دوى صوت فرامل عالٍ في الساحة مع توقف فان أسود مألوف عند بورتا رومانا. لم يكن لانغدون بحاجة إلى إلقاء نظرة أخرى. لذا، من دون التفوه بأي كلمة، استغل هو وسيبنا الفرصة، وتسللاً عبر البوابة مع أصدقائهما الجدد.

كان الطريق المؤدي إلى معهد الفنون رائع الجمال، لا بل كان ملكياً تقريباً. شكّلت أشجار السنديان الضخمة المورّعة على الجانبين قنطرة، بدا من تحتها المبنى البعيد الذي كان عبارة عن بناء أصفر باهت ضخم، مزود بثلاثة أبواب، وتمتدّ أمامه مساحة عشبية بيضاوية واسعة. عرف لانغدون أن هذا المبنى تمّ التكليف ببنائه من قبل الأسرة الشهيرة نفسها التي هيمنت على سياسة فلورنسا خلال القرون الخامس عشر، والسادس عشر، والسابع عشر.

أسرة ميديتشي.

الاسم نفسه أصبح رمزاً لفلورنسا. خلال فترة الحكم الممتدة على ثلاثة قرون، جمعت أسرة ميديتشي الحاكمة ثروة خيالية وتمتعت بنفوذ هائل، فأنتجت أربعة بابوات، وملكيتين لفرنسا، وأكبر مؤسسة مالية في أوروبا بأكملها. وحتى هذا اليوم، تستخدم المصارف الحديثة طريقة المحاسبة التي ابتكرها آل ميديتشي؛ أي النظام المزدوج للدائن والمدين.

غير أن الإرث الأعظم الذي تركه آل ميديتشي لم يكن في المال ولا في السياسة، بل في الفنون. ربما كان أفراد تلك الأسرة الفلورنسية من أكثر رعاة الفن بذخاً في العالم؛ إذ أمروا بإنتاج أعمال فنية سخية غذّت عصر النهضة. وتمتدّ لائحة المستثمرين الذين تلقوا دعم أسرة ميديتشي من دافنشي إلى غاليليو إلى بوتيتشيلي. فلوحة هذا الأخير الشهيرة، ولادة فينوس، كانت بطلب من لورينزو دي ميديتشي الذي أراد إهداء ابن عمه لوحة مثيرة ليعلقها فوق سريره كهنية زفاف.

كان لورينزو دي ميديتشي - المعروف اليوم باسم لورينزو العظيم نظراً إلى كرمه - فناناً وشاعراً هو نفسه، وقيل إنه كان يتمتّع بنظر ثاقب. عام 1489، أعجب لورينزو بعمل نحّات فلورنسي شاب، ودعاها للانتقال إلى قصر ميديتشي لكي يتمكّن من ممارسة حرفته وسط الفنون الجميلة، والشعر العظيم، والثقافة العالية. تحت رعاية ميديتشي، ترعرع الشاب المراهق، وقام بإنتاج أشهر منحوتاته في التاريخ؛ بييتا، ودوود. نعرفه اليوم باسم مايكل أنجلو، العملاق المبدع الذي يوصف أحياناً بأنه أعظم هدية من آل ميديتشي إلى الجنس البشري.

نظراً إلى شغف أسرة ميديتشي بالفن، تخيل لانغدون أن الأسرة كانت ستسّر لو عرفت أن المبنى القائم أمامه، الذي بناه آل ميديتشي أساساً كأسطبل للخيول، قد تحوّل اليوم إلى معهد فنون يضجّ بالحياة. هذا الموقع الهادئ الذي يلهم فنّاني عصرنا الشباب تمّ اختياره لبناء إسطبلات أسرة ميديتشي بسبب قربه من أجمل أماكن ركوب الخيل في فلورنسا.

حدائق بوبولي.

نظر لانغدون إلى يمينه فرأى غابة من رؤوس الأشجار التي تظهر من خلف جدار عالٍ. كانت حدائق بوبولي الشاسعة مكاناً سياحياً معروفاً. لم يشكّ لانغدون أنه إن تمكّن هو وسيبينا من دخول الحدائق، فإنّهما سيعبرانها، ويدخلان المدينة القديمة من دون أن يُكتشف أمرهما. فالحدائق شاسعة ولا تخلو من المخابئ؛ غابات، متاهات، مغاور، تماثيل. والأهمّ أن اجتياز حدائق بوبولي سيقدّهما في النهاية إلى بالاتزو بيتي؛ القلعة الحجرية التي كانت في ما مضى المقرّ الرئيس لدوقية ميديتشي، والتي ظلّت بغرفها البالغ عددها 140 غرفة من أهمّ الأماكن السياحية في فلورنسا.

فكر لانغدون، إن تمكّنا من الوصول إلى بالاتزو بيتي، فإنّ الجسر المؤدّي إلى المدينة القديمة سيكون على مرمى حجر.

أشار لانغدون بهدوء إلى السور العالي الذي يحيط بالحدائق، وسأل الطالب: "كيف يمكننا دخول الحدائق؟ أودّ أن تراها أختي قبل أن نتجوّل في المعهد".

هرّ الشابّ الموشوم رأسه قائلاً: "لا يمكنكما دخولها من هنا. مدخلها يقع بعيداً؛ عند قصر بيتي. عليكم المرور عبر بورتا رومانا والالتفاف من هناك".

قالت سيبينا ساخرة: "هراء".

فالتفت إليها الجميع وحذّقوا إليها باستغراب، بمن فيهم لانغدون.

قالت وهي تبتسم للطالب وتداعب شعرها الأشقر: "هيا، هل تعنون أنكم لا تتسلّلون إلى الحدائق للتدخين والتسلية؟".

تبادل الطالب النظرات، وانفجروا ضاحكين.

بدا الشابّ الموشوم مدهوشاً تماماً الآن. "سيّنتي، عليك حتماً أن تدرّسي هنا". ثمّ رافق سيبينا إلى جانب المبنى، وأشار إلى موقف سيارات خلفي. "هل ترين تلك السقيفة إلى اليسار؟ ثمة منصّة قديمة خلفها. اصعدا إلى السطح، ومنه يمكنكما القفز إلى الجانب الآخر من الجدار".

تحرّكت سيبينا فوراً، ثمّ نظرت إلى لانغدون بابتسامة متعالية وقالت: "هيا يا أخي بوب. أم إنّ سنك لم تعد تسمح لك بالقفز من فوق سور؟".

الفصل 22

أسندت المرأة ذات الشعر الفضّي رأسها على الزجاج المقاوم للرصاص وأغمضت عينيها. شعرت وكأنّ العالم يدور من حولها. فالعقاقير التي أعطوها إياها سبّبت لها الدوار. فكرت، أنا بحاجة إلى طبيب.

مع ذلك، كانت لدى الحارس المسلّح الجالس قريبا أوامر صارمة: يجب تجاهل احتياجاتها حتّى إتمام مهمّتهم بنجاح. ومن أصوات الفوضى الصادرة حولها، يبدو واضحاً أنّ الأوان سيفوت قريباً.

بدأ الدوار يزداد حدّة الآن، وأصبحت تعاني من مشاكل في التنفّس. وبينما راحت تقاوم موجة جديدة من الغثيان، تساءلت عن كيفية إيجادها نفسها في هذه الظروف السريالية. من الصعب عليها في وضعها الحالي الإجابة عن هذا السؤال المعقّد، لكنّها تعرف تماماً أين بدأ كلّ شيء.

نيويورك.

منذ عامين.

سافرت إلى مانهاتن من جنيف، وكانت تشغل هناك منصب مديرة منظّمة الصحة العالمية، وهو مركز مرموق جدّاً تحتلّه منذ عشر سنوات تقريباً. وبصفتها متخصصة في الأمراض المعدية وانتشار الأوبئة، تلقّت دعوة إلى مركز الأمم المتّحدة لإلقاء محاضرة عن تقييم خطر الأمراض المعدية في بلدان العالم الثالث. كان حديثها متفائلاً ومطمئناً، وأشارت فيه إلى عدد من أنظمة الكشف المبكر الحديثة والخطط العلاجية التي وضعتها منظّمة الصحة العالمية وغيرها من المنظّمات. وفي نهاية المحاضرة، صفّق لها الجمهور بحرارة.

بعد انتهاء المحاضرة، وبينما كانت تتحدّث في القاعة مع بعض الأكاديميين، أتى موظّف في الأمم المتّحدة، يحتلّ مركزاً مرموقاً كما بدا من بطاقته الدبلوماسية، وقطع عليها حديثها. "د. سينسكي، اتّصل بنا مجلس العلاقات الخارجية. ثمة من يرغب في التحدّث معك. السيّارة تنتظرك في الخارج".

شعرت د. إليزابيث سينسكي بالحيرة وبشيء من التوتّر. غير أنّها اعتذرت وحملت حقيبة سفرها وانصرفت. وبينما أسرعت سيّارة الليموزين عبر جادة فيرست أفينيو، راح توتّرها يتصاعد. مجلس العلاقات الخارجية؟

كانت إليزابيث سينسكي قد سمعت بالشائعات؛ شأنها شأن كثيرين.

أسس مجلس العلاقات الخارجية في عشرينيات القرن المنصرم، وشكّل خزّاناً فكرياً خاصاً. كان من بين أعضائه السابقين كلّ وزراء الخارجية تقريباً، وأكثر من ستّة رؤساء جمهورية، ومعظم أعضائه من رؤساء السي أي إيه، وأعضاء في مجلس الشيوخ، وقضاة، فضلاً عن سلالات عريقة أسطورية تحمل أسماء مثل مورغن، وروثشيلد، وروكفيلير. ذلك الجمع الفريد بين الفكر، والنفوذ السياسي، والثروة أضفى على مجلس العلاقات الخارجية سمعة مميزة على أنّه "النادي الخاص الأقوى نفوذاً على وجه الأرض".

لم تكن إليزابيث غريبة عن هذا العالم بصفتها مديرة منظمة الصحة العالمية. فالسنوات التي أمضتها على رأس المنظمة - بالإضافة إلى طبيعتها الصريحة - جعلتها تستحقّ مؤخرًا تنويرها من مجلة معروفة ذكرتها من بين الأشخاص العشرين الأكثر نفوذاً في العالم. وكُتبت تحت صورتها العبارة التالية: وجه الصحة العالمية؛ وهي جملة وجدها مثيرة للسخرية نظراً لأنّها كانت طفلة دائمة المرض.

عانت من حالة ربو حادة حين كانت في السادسة من عمرها، فتّمت معالجتها بجرعة عالية من عقار جديد واعد، وكان أوّل عقار في العالم يركّز على الغلوكورتيكويد، أو هرمونات الستيروبيد. نجح هذا الدواء في علاج أعراض الربو على نحو عجائبي، غير أنّ الأعراض الجانبية غير المتوقّعة للدواء لم تظهر سوى بعد سنوات، عندما وصلت سينسكي إلى سنّ البلوغ... إذ لم تظهر عليها أعراض الحيض قطّ. لن تتسّى أبداً الصدمة التي أصيبت بها في عيادة الطبيب عندما كانت في التاسعة عشرة من عمرها، وعرفت أنّ الضرر الذي أصاب جهازها التناسلي دائم.

لن تتّكّن إليزابيث سينسكي من إنجاب الأطفال مطلقاً. طمأنها طبيبها قائلاً إنّ الوقت سيشفى الفراغ، لكنّ حزنها وغضبها ازدادا مع الوقت. والمحزن في الأمر أنّ العقاقير التي سلبتها قدرتها على الإنجاب لم تحرمها من رغبتها الطبيعية في أن تصبح أمّاً. وهكذا، حاربت لسنوات تلك الرغبة المستحيلة. وحتى اليوم، وهي في الحادية والستين من عمرها، ما زالت تشعر بالفراغ المُكثّب في كلّ مرّة ترى فيها أمّاً وطفلاً. أعلن سائق الليموزين: "لقد وصلنا، د. سينسكي".

سرحت إليزابيث شعرها الفضي بسرعة، ونظرت إلى وجهها في المرآة. سرعان ما توقّفت السيّارة، وساعدها السائق على الخروج إلى الرصيف في حيّ مزدحم من مانهاتن. قال السائق: "سأنتظرك هنا. يمكننا الذهاب مباشرة إلى المطار عندما تصبحين جاهزة".

كان المركز الرئيس لمجلس العلاقات الخارجية في نيويورك عبارة عن مبنى نيوكلاسيكي غير لافت للانتباه يقع في الزاوية بين الحديقة العامّة والشارع الثامن والستين، وقد كان في ما مضى منزلاً لأحد رؤساء شركة ستاندرد أويل. تتناسب شكله الخارجي بتناغم مع محيطه الأنيق، من دون أيّ إشارة إلى هدفه الفريد.

حيّتها موظّفة استقبال قاتلة: "د. سينسكي، من هنا من فضلك. إنّهُ بانتظارك".

حسناً، لكن من هو؟ تبعت موظفة الاستقبال في ممر أنيق إلى باب مغلق، طرقت عليه المرأة قبل أن تفتحه وتشير لإليزابيث بالدخول. دخلت، وأغلق الباب خلفها.

كانت غرفة الاجتماعات الصغيرة المعتمدة مضاعة بوهج شاشة فيديو فقط. أمام الشاشة، جلس رجل طويل ونحيل. ومع أنها لم تتمكن من رؤية وجهه، إلا أنها شعرت بقوة نفوذه. رحب بها الرجل بصوت حاد: "د. سينسكي، شكراً لمجيئك". بدا من لحنه أنه ينتمي إلى بلد إليزابيث الأم، سويسرا، أو ربما ألمانيا.

قال: "اجلسي من فضك". وأشار إلى كرسي قريب من مقدمة الغرفة. "أين نتعارف؟ جلست إليزابيث. الصورة الغريبة التي تظهر على الشاشة لم تساعد على تهدئة أعصابها. ما هذا؟

قال الرجل: "كنت موجوداً في محاضرتك هذا الصباح. أتيت من مسافة بعيدة لأستمع إليك. كان أدائك مؤثراً". أجابت: "شكراً".

"اسمحي لي بالقول أيضاً إنك أكثر جمالاً مما تخيلت... على الرغم من سنك ورويتك قصيرة النظر لعالم الصحة".

فغرت إليزابيث فاهها من شدة الدهشة. كان التعليق مهيناً تماماً. سألته وهي تحتق في الظلام: "عذراً! من أنت؟ ولماذا استدعيتني إلى هنا؟".

أجاب الظل النحيل: "عزبرني على دعابتي الفاشلة. الصورة على الجدار ستشرح لك سبب وجودك هنا".

نظرت سينسكي إلى الصورة المربعة؛ لوحة تصوّر بحراً من البشر وحشوداً من المرضى المكذسين فوق بعضهم بعضاً في كومة من الأجساد العارية.

قال الرجل: "هذه لوحة للفنان العظيم دوريه. إنها تجسد تفسيره المتشائم لرؤية دانتي أليغييري للجحيم. أتمنى أن تجديها مريحة... لأن هذا هو ما سيؤول إليه حالنا". صمت والتفت نحوها ببطء مضيقاً: "دعيني أخبرك لماذا".

ظلّ يتقنم نحوها ويزداد طولاً مع كل خطوة يخطوها. "إن أخذت هذه الورقة ومزقتها إلى نصفين... توقف عند الطاولة، وتناول ورقة، ومزقها من منتصفها. ثم وضعت هذين النصفين فوق بعضهما... وفعل ما قاله. "وكبرت العملية... مزق مجدداً الورقتين، ووضع الأجزاء فوق بعضهما. "فسأحصل على كدسة من الأوراق التي تبلغ سماكتها أربعة أضعاف سماكة الورقة الأصلية، أليس كذلك؟". بدت عيناه وكأنهما تلتهبان في ظلام الغرفة.

لم تشعر إليزابيث بالارتياح إزاء نبرته المتصاعدة ووقفته العدوانية، فلم تقل شيئاً. تابع يقول وهو يقترب منها: "قرضياً، إن كانت سماكة الورقة الأصلية تبلغ 10/1 ملم، وكبرت هذه العملية... لنقل: خمسين مرة... فهل تعرفين كم ستبلغ سماكة هذه الكدسة من الأوراق؟".

تَوَثَّرَتِ إليزابيث، وأجابت بعدائية أكثر مما أرادت: "أجل. ستبلغ 10/1 ملم ضرب 2⁵⁰ وهذا ما يسمّى التقمّ الهندسي. هل لي أن أعرف ماذا أفعل هنا؟".

ابتسم الرجل وهزّ رأسه بإعجاب. "أجل. وهل تعرفين كم ستكون تلك القيمة فعلياً؟ هل تعرفين كم سيبلغ طول تلك الكدسة من الأوراق؟". صمت هنيهة ثم أضاف: "سيعادل طولها بعد مضاعفتها خمسين مرّة فقط المسافة بين الأرض... والشمس".

لم تفاجأ إليزابيث. فالقوة الهائلة للنموّ الجيومتري شيء تتعامل معه طوال الوقت في عملها. *دوائر العدوى... تكرر الخلايا المعدية... تقديرات الوفيات*. قالت من دون أن تبذل أيّ مجهود لإخفاء انزعاجها: "أعذر إن بدوت ساذجة، لكنني لم أفهم وجهة نظرك بعد".

ضحك بصوت منخفض وقال: "وجهة نظري! وجهة نظري هي أن تاريخ النموّ السكاني في كوكبنا أكثر أساسية. فسكان الأرض - شأنهم شأن هذه الكدسة الصغيرة من الأوراق - بدأوا بأعداد ضئيلة جداً... لكن إمكانياتهم مثيرة للقلق".

عاد يمشي مجدداً. تأمّلي هذا. استغرق سكان الأرض آلاف السنوات؛ من فجر البشرية وحتى أوائل القرن التاسع عشر، ليلبغوا مليار نسمة. ثم فجأة، تضاعف عددهم خلال مائة عام ليلبغوا ملياري نسمة في عشرينيات القرن العشرين. بعد ذلك، بالكاد مرّت خمسون عاماً حتى تضاعف عددهم إلى أربعة مليارات في سبعينيات القرن العشرين. وكما تتخيلين، نحن نتّجه نحو المليارات الثمانية قريباً. اليوم فقط، أضاف الجنس البشري ربع مليون نسمة إلى سكان الأرض. ربع مليون. وهذا يحدث يومياً، سواء أكان الطقس ممطراً أو مشمساً. حالياً، نضيف كلّ عام ما يعادل سكان ألمانيا بأكملها".

توقّف الرجل الطويل أمام إليزابيث. "كم عمرك؟".

هذا سؤال وقح آخر، مع أنها معتادة على التعامل مع العدوانية بدبلوماسية في عملها. "واحد وستون عاماً".

"هل تعرفين أنّك إن عشت تسعة عشر عاماً، حتى سنّ الثمانين، فستشاهدين تضاعف سكان العالم ثلاث مرّات في حياتك. ثلاث مرّات في حياة واحدة. فكّري بمضاعفات ذلك. كما تعرفين، زادت منظّمة الصحة العالمية توقّعاتها مجدداً، فقد توقّعت أن يصبح عدد سكان العالم تسعة مليارات قبل منتصف هذا القرن. الأنواع الحيوانية تفرّض بشكل متسارع جداً. كما أن الطلب على الموارد الطبيعية المتضائلة يرتفع على نحو هائل. يصعب الحصول على المياه النظيفة. وبحسب التقديرات البيولوجية، تجاوز البشر الأعداد التي يمكننا احتمالها. في وجه هذه الكارثة، تستثمر منظّمة الصحة العالمية - التي تشكّل القيم على صحة هذا الكوكب - في مشاريع مثل علاج السكري، وملء بنوك الدم، ومكافحة السرطان". صمت ليحقّق إليها مباشرة. "لذلك، أحضرتك إلى هنا. لأسألك مباشرة: لماذا لا تجرؤ منظّمة الصحة العالمية على التعامل مع هذه المسألة بشكل حاسم؟".

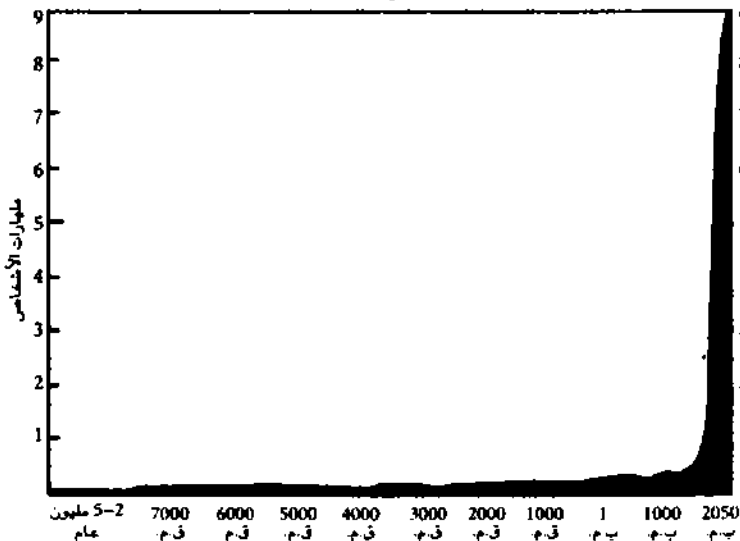
بدأ غضب إليزابيث يتصاعد. "كائنات من تكن، أنت تعرف جيّداً أن منظّمة الصحة العالمية تأخذ موضوع الزيادة السكانية على محمل الجدّ. فقد أنفقنا مؤخراً ملايين الدولارات،

وارسلنا أطيّاءً إلى أفريقيا لتوزيع وسائل مجانية لمنع الحمل، وتوعية الناس حول تحديد النسل".

أجابها الرجل ساخراً: "آه، أجل! ومشى في أعقابكم جيش أكبر من المبشرين الكاثوليك الذين راحوا يحذرون الأفريقيين من أنهم إن استعملوا وسائل منع الحمل فسيذهبون إلى الجحيم. تعيش أفريقيا مشكلة بيئية جديدة اليوم؛ فهناك حقول تفيض بالواقيات الذكرية غير المستعملة". قاومت إليزابيث لإمساك لسانها عن الكلام. كان محقاً في هذه النقطة، غير أنّ الكاثوليك المعاصرين بدأوا يعارضون تدخّل الفاتيكان في مسألة تحديد النسل. فقامت ميليندا غايتس، وهي كاثوليكية ملتزمة، بتخصيص 560 مليون دولار لتسهيل الوصول إلى وسائل تحديد النسل في مختلف أنحاء العالم؛ مخاطرة بإثارة غضب كنيستها. ولطالما أشارت إليزابيث سينسكي إلى أنّ بيل وميليندا غايتس يستحقّان تكريماً عظيماً بسبب جهودهما الرامية إلى تحسين الصحة العالمية. لكن مع الأسف، إن المؤسسة الوحيدة القادرة على صيانة الصحة قد فشلت في رؤية الطبيعة المسيحية لجهودهما.

تابع الظلّ يقول: "د. سينسكي، ما ترفض منظمة الصحة العالمية الاعتراف به هو وجود مشكلة صحية واحدة في العالم". وأشار إلى الصورة المروّعة على الشاشة التي يظهر فيها بحر من البشر المتشابكين. "وهذه هي". صمت ثمّ أضاف: "أدرك أنّك عالمة، وبالتالي لست طالبة فنون كلاسيكية أو فنون جميلة. لذلك، دعيني أعرض عليك صورة أخرى تتحدث معك بلغة تفهمونها". أظلمت الغرفة للحظة، ثمّ ظهرت صورة جديدة على الشاشة. سبق أن رأت إليزابيث الصورة الجديدة مرّات عديدة... وكانت تُحدث فيها الأثر المخيف والحنّمي نفسه.

النمو السكاني عبر التاريخ



خيم صمت ثقيل على الغرفة.

قال الظل الطويل أخيراً: "أجل، الرعب الصامت ردّ قويّ على هذا الرسم. النظر إليه أشبه بالتحديق إلى المصابيح الأمامية لسيارة مسرعة". استدار الرجل ببطء نحو إليزابيث، ورسم على وجهه ابتسامة متعالية. "هل من أسئلة د. سينسكي؟".

ردّت عليه بعنف: "سؤال واحد. هل أحضرتني إلى هنا لإلقاء محاضرة عليّ أم لإهانتني؟". أصبح الصوت لطيفاً على نحو غريب: "لا هذا ولا ذاك. أحضرتك إلى هنا لأعمل معك. لا شك أنّك تفهمين أنّ الانفجار السكاني مشكلة صحيّة. لكن ما أخشاه هو أنّك لا تفهمين أنّه سيؤثر في روح الإنسان نفسها. فتحت وطأة الضغط السكاني، من لم يفكروا في السرقة مطلقاً سيحوّلون إلى لصوص لإطعام أسرهم. ومن لم يفكروا في القتل يوماً سيقتلون من أجل تربية صغارهم. كلّ خطايا دانتى المميّنة: الطمع، والشر، والخيانة، والقتل، إلخ... ستتوالى، وستطفو على سطح البشرية، وستتفاقم بسبب اختفاء وسائل الراحة. إنّنا نواجه معركة ضدّ روح الإنسان". "أنا عالمة بيولوجية. أنا أنقذ حياة الناس... لا أرواحهم".

"حسناً، يمكنني أن أوكد لك أنّ الحياة ستصبح صعبة على نحو متعاظم في السنوات المقبلة. فمساوئ الانفجار السكاني لا تقتصر على الاستياء الروحي. ثمة مقطع لماكيافيلي -". "أجل"، قاطعته وتلت ما تذكره من مقولته الشهيرة. "عندما تعجّ كلّ مقاطعة في العالم بسكان لا يستطيعون البقاء حيث هم، ولا الانتقال إلى مكان آخر... فإنّ العالم سيظهر نفسه". حدّقت إليه مضيفة: "كلّ من في المنظمة يعرف هذه المقولة". "جيد. إذاً، لا بدّ أنّك تعرفين أنّ ماكيافيلي تابع متحدثاً عن الأمراض التي تشكّل الطريقة الطبيعية للتطهير الذاتي للعالم".

"أجل. وكما ذكرت في حديثي، نحن ندرك العلاقة المباشرة بين الكثافة السكانية واحتمال انتشار الأوبئة على نطاق واسع، إلّا أنّنا نبتكر باستمرار وسائل كشف وطرق علاج حديثة. والمنظمة على ثقة من أنّنا سنتمكّن من منع انتشار الأوبئة في المستقبل". "هذا مثير للشفقة".

حدّقت إليه إليزابيث غير مصدّقة. "أستميتك عنراً؟!".

قال الرجل وهو يضحك على نحو غريب: "د. سينسكي، أنت تتحدّثين عن مكافحة الأوبئة وكأنّها أمر جيّد".

نظرت إليه مذهولة.

قال وقد بدا وكأنّه محام يدافع عن قضيّته: "أصغي إليّ. ها أنا أقف مع رئيسة منظمة الصحة العالمية، أي أفضل من يمكن للمنظمة تقديمه. وهذه فكرة مخيفة في الواقع. عرضت عليك هذه الصورة عن البؤس الداهم الذي يترصد بنا". أعاد عرض صورة الجثث. "ذكّرتك بالقوّة المخيفة للنمو السكاني الجامح". وأشار إلى كدسة الأوراق الصغيرة. "كما شرحت لك أنّنا على شفير انهيار روحي". صمت ثمّ التفت إليها مباشرة. "وما هو جوابك؟ وسائل لمنع الحمل في

أفريقيا". أطلق الرجل ضحكة ساخرة. "هذا أشبه بالتلويح بكشاشة نواب على كوكب انحرف عن مساره. لم تعد القنبلة الموقوتة تثكتك. لقد انفجرت أساساً، ومن دون اتخاذ تدابير جذرية، ستصبح الرياضيات الأسية هي ما يحكم العالم... وستكون حاكماً حقوداً. ستحضر رؤية دانتي للجحيم إلى بارك أفينيو... جموعاً غفيرة تتخبط في قذارتها. إنها غريزة كونية نظمها الطبيعة بنفسها".

سألته إليزابيث بنبرة لاذعة: "حقاً؟ أخبرني إذا بحسب رؤيتك لمستقبل مستدام، ما هو العدد المثالي لسكان الأرض؟ ما هو العدد السحري الذي يستطيع الجنس البشري احتماله بلا حدود... وعلى نحو مريح نسبياً؟".

ابتسم الرجل الطويل وقد أعجبه السؤال. "أي عالم بيولوجيا بيئي أو عالم إحصائيات سيخبرك. أن أفضل فرصة للجنس البشري لكي يستمر على المدى الطويل هي بعدد سكان يقارب أربعة مليارات".

أجابته إليزابيث: أربعة مليارات! لقد بلغنا سبعة مليارات الآن، وأظن أن الألوان قد فات على ذلك".

ومضت عينا الرجل الخضراوان وسألها: "حقاً؟".

الفصل 23

هبط لانغدون على الأرض الطرية خلف سور الطرف الجنوبي لحدائق بوبولي بأشجارها الكثيفة. حطت سبيناً قريبه، ثم وقفت ونفضت التراب عن ملابسها وبدأت تتأمل محيطها.

وقفا في فسحة مليئة بالطحالب ونبات السرخس عند أطراف غابة صغيرة. كان بالأترو بيتي محجوباً تماماً عن أنظارهما من هذه البقعة، ف شعر لانغدون أنهما أبعد ما يكون عن القصر. لكن على الأقل، لم يكن ثمة عمال أو سياح في هذه الساعة المبكرة.

حقق لانغدون إلى طريق مكسو بالحصى يمتد على نحو جميل نزولاً في الغابة أمامهما. في المكان الذي تختفي فيه الطريق بين الأشجار، ينتصب تمثال رخامي في موقع ممتاز لجذب الأنظار. لم يفاجأ لانغدون، فحدائق بوبولي نتاج مواهب التصميم الفريدة التي تمتع بها كل من نيكولو تريبولو، وجورجيو فاساري، وبيرناردو بونتالينتي الذين أنتجوا معاً هذه التحفة الهندسية الممتدة على مساحة 111 أكر.

قال لانغدون مشيراً إلى الطريق: "إن أتجهنا نحو الشمال الشرقي فسنصل إلى القصر. وهناك يمكننا الاختلاط بالسياح والخروج من دون أن يرانا أحد. أظن أن القصر يفتح أبوابه عند الساعة التاسعة".

نظر لانغدون إلى معصمه للتحقق من الوقت، لكنه لم يَز سوى معصمه الخالي الذي كانت تحمله ساعة ميكسي ماوس سابقاً. تساءل عما إذا كانت لا تزال في المستشفى مع بقية أغراضه، وعما إذا كان سيتمكن من استرجاعها.

وقفت سبيناً في مكانها، ونظرت إليه بتحدٍ. "روبرت، قبل أن نقوم بخطوة أخرى، أريد أن أعرف إلى أين نحن ذاهبان. ماذا عرفت هناك؟ وماذا عن حلقات المالبولغي؟ قلت إنها ليست بالتسلسل الصحيح؟".

أشار لانغدون إلى الغابة الممتدة أمامهما. "لنبتعد أولاً عن الأنظار". قادها عبر الطريق الذي ينعطف عند تجويف مغلق؛ "غرفة" بلغة الهندسة المعمارية للمناظر الطبيعية. كان المكان يحتوي على بعض المقاعد، فضلاً عن نافورة صغيرة. وكان الهواء تحت الأشجار أكثر برودة بلا شك.

أخرج لانغدون المسلات من جيبه وبدأ يهره بقوة. "سبيناً، أيا يكن من صنع هذه الصورة الرقمية، فهو لم يكتف بإضافة أحرف إلى الخطأ في المالبولغي، بل غيّر ترتيب الخطايا".

وقف على المقعد، ووجه المسلاط عند قدميه، فظهرت خارطة بونيتشيلي بصورة باهتة على المقعد المسطح بجانب سيينا.

أشار لانغدون إلى المنطقة المدرجة عند أسفل القمع. "هل ترين الأحرف الموزعة على خنادق المالبولغي العشرة؟".

بحثت سيينا عنها على الصورة وقرأتها من الأعلى إلى الأسفل. "catrovacer".

"صحيح. وهي بلا معنى".

"كذلك أدركت أن الخنادق العشرة ليست بالترتيب الصحيح؟".

"لا، بل الأمر أسهل من ذلك في الواقع. لو شَبَّهنا هذه المستويات بمجموعة من عشر بطاقات من أوراق اللعب، فهي لم تُخلط كثيراً، بل تمّ قطعها مرّة واحدة. وبعد القطع، بقيت الأوراق بالترتيب الصحيح، لكنّها بدأت عند البطاقة الخطأ". أشار لانغدون إلى الخنادق العشرة. "بحسب نصّ دانتلي، إنّ الخندق العلوي هو للمغزّرين الذين تجلدهم الشياطين. لكن في هذه النسخة، نجد المغزّرين... في الأسفل؛ في الخندق السابع".

تأمّلت سيينا الصورة المتلاشية قريباً، وهزّت رأسها موافقة. "حسناً، أرى ذلك. الخندق الأوّل أصبح هنا السابع".

وضع لانغدون المسلاط في جيبه، وقفز مجدداً على الأرض. تناول غصناً صغيراً، وبدأ يرسم أحرفاً على التراب بجانب طريق الحصى. "هذه هي الأحرف التي تظهر في نسختنا المعدّلة للجحيم".

C
A
T
R
O
V
A
C
E
R

قرأت سيينا: "catrovacer".

"أجل. وهنا تمّ قطع الورق". رسم لانغدون خطاً تحت الحرف السابع وانتظر لكي تتأمّل سيينا عمله.

C A T R O V A

C E R

قالت بسرعة: "حسناً، Catrova. Cer".

"أجل. إن أعدنا البطاقات إلى ترتيبها الصحيح، فعلينا ببساطة إعادة هذا الجزء إلى الأعلى".

تأملت سينيّا الحروف. "Cer. Catrova". هزت كتفها قائلة: "ما زالت بلا معنى...".
كّرر لانغدون بصوت عالٍ: "Cer Catrova". صمت قليلاً ثم أعاد نطق الأحرف ودمجها معاً. "Cercatrova". أخيراً، لفظها مجدداً وفصل الكلمة في منتصفها. "Cerca... trova".
شهقت سينيّا بصوت عالٍ ونظرت إلى لانغدون.
ابتسم وقال: "أجل، تشيركا تروفا".

كانت الكلمتان الإيطاليتان تعنيان حرفياً "ابحث" و"جد". وعندما تُستخدمان معاً في جملة تصبحان مرادفاً للحكمة الواردة في الكتاب المقدس "اطلبوا تجدوا".
هتفت سينيّا: "هذه هي الجملة التي كنت تسمعها في هذيانك! المرأة ذات الوشاح كانت تطلب منك دائماً أن تبحث لتجد!". قفزت واقفة. "روبرت، هل تدرك معنى ذلك؟ هذا يعني أن الكلمتين Cerca trova كانتا موجودتين في لا وعيك! هل تدرك ذلك؟ لا بد أنك فككت رموز هذه الجملة قبل وصولك إلى المستشفى! لقد رأيت على الأرجح هذه الصورة الموجودة في المسلاط من قبل... لكنك نسيت!".

أدرك لانغدون أنها على حق. فقد كان يركّز انتباهه على الشيفرة بحدّ ذاتها، ولم يخطر في باله قط أنه سبق له أن مرّ بكل ذلك.

"روبرت، قلت إنّ الخارطة تشير إلى مكان محدّد في المدينة القديمة، لكنني لم أفهم بعد إلى أين".

"ألا تذكر هاتان الكلمتان بأي شيء؟".
هزت كتفها حائرة.

ابتسم لانغدون وفكر، أخيراً ثمة شيء لا تعرفه سيبينا. "كما يبدو، تشير هذه الكلمة تحديداً إلى لوحة جدارية شهيرة معلقة في قصر بالاتزو فيكيو؛ جدارية جورجيو فاساري التي تحمل عنوان باتاليا دي مارتشانو في قاعة الخمسمائة. في أعلى اللوحة تقريباً، وبأحرف بالكاد مرئية، كتب فاساري بأحرف صغيرة جداً *cerca trova*. ثمة نظريات كثيرة عن سبب ذلك، لكن لم يتم اكتشاف أي دليل حاسم".

فجأة، ارتفع صوت طائرة صغيرة فوقهما، بدت وكأنها قد ظهرت من العدم، وبدأت تحلق في أجواء الغابة. كان الصوت قريباً جداً، حيث تجمد لانغدون وسيبينا في مكانهما في اللحظة التي مرت فيها الطائرة.

عندما ابتعدت الطائرة، حلق لانغدون من بين الأشجار وقال: "إنها مروحية دمى". وتنفس الصعداء وهو يشاهد الطائرة التي يبلغ طولها ثلاث أقدام، ويتم التحكم بها لاسلكياً، وهي تميل في الجو. بدت أشبه ببعوضة عملاقة غاضبة.

غير أن سيبينا لم تشعر بالارتياح، بل قالت له: "ابق منخفضاً".

انعطفت الطائرة الصغيرة بالكامل وعادت باتجاههما، مارة فوق الأشجار على علو منخفض، وابتعدت عنهما مجدداً، متجهة هذه المرة إلى اليسار فوق فسحة أخرى.

همست قائلة: "هذه ليست دمى، بل إنها طائرة استطلاع من دون طيار. إنها مزودة على الأرجح بكاميرا فيديو تُرسل صوراً حية إلى... شخص ما".

توتر فك لانغدون وهو يشاهد المروحية تعود إلى المكان الذي أتت منه؛ بوريتا رومانو ومعهد الفنون.

قالت سيبينا: "لا أدري ما الذي فعلته، لكن بعض الأشخاص النافذين مصممون جداً على العثور عليك".

عادت المروحية مجدداً، وبدأت تمر ببطء فوق محيط السور الذي قفزا من فوقه للتو. قالت سيبينا وهي تتقدم على الطريق: "لا بد أن شخصاً ما في معهد الفنون قد رآنا وأخبر عنا. علينا الابتعاد من هنا حالياً".

مع ابتعاد الطائرة نحو أطراف الحدائق، قام لانغدون بمحو الأحرف التي كتبها على الطريق بقدمه، ثم أسرع خلف سيبينا. تزامنت في ذهنه أفكار عن *cerca trova*، وجدارية جورجيو فاساري، وما قالته سيبينا عن أنه سبق له أن فكك رموز رسالة المسلاط. اطلبوا تجبوا.

فجأة، وبينما كانا يدخلان فسحة أخرى، خطرت في ذهن لانغدون فكرة مفاجئة، فتوقف على الطريق المخاط بالأشجار، وبدا الذهول على وجهه.

توقفت سيبينا هي الأخرى. "روبرت، ما الأمر؟".

أعلن قائلاً: "أنا بريء".

"ما الذي تحدث عنه؟".

"الأشخاص الذين يطاردونني... اعتقدت أنني ارتكبت أمراً فظيهاً".

"أجل، كنت تردّد في المستشفى آسف جدًا".
"أعرف. لكن ظننت أنني كنت أتكلّم بالإنكليزية".
نظرت إليه سينيّا متفاجئة. "كنت تتكلّم بالإنكليزية فعلاً".
امتلاك عينا لاتغدون الزرقاوان بالحماسة. "سينيّا، عندما كنت أكرّر *Very sorry* لم أكن
أعتذر. بل كنت أهذي بالرسالة السريّة المكتوبة على اللوحة الجدارية في بالاتزو فيكيو!". ما
زال يستطيع سماع صوته المسجّل وهو يرّد: *Ve... sorry. Ve... sorry*.
شعرت سينيّا بالضياح.
"ألا ترين؟!". كان لاتغدون يبتسم الآن. "لم أكن أتأسّف، بل كنت أردّد اسم الفنان؛ فـ...
ساري، فاساري!".

الفصل 24

ضغطت فايينتا على الفرامل بقوة.

أصدرت دراجتها صوتاً عالياً، وتركت أثراً طويلاً على الإسفلت في جادة بودجو إمبريالي، ثم توقفت أخيراً بشكل مفاجئ خلف صف طويل من السيارات. كانت جادة بودجو في حالة جمود.

ليس لدي وقت لهذا!

رفعت فايينتا رأسها لتتظر من فوق السيارات؛ محاولة معرفة سبب هذا الزحام. كانت قد اضطرت إلى القيادة في دائرة واسعة لتجنب فريق المراقبة والدعم والفوضى التي تحيط بالمبنى السكني، وهي الآن بحاجة إلى دخول المدينة القديمة من أجل إخلاء غرفة الفندق التي تمركزت فيها خلال الأيام القليلة الماضية.

لقد تمّ التوصل مئى، وعلى مغادرة البلدة على الفور!

غير أن سوء الحظ لم يفارقها على ما يبدو. فالتريق التي اختارتها لدخول المدينة القديمة كانت مغلقة. لم تكن فايينتا في مزاج يسمح لها بالانتظار، فانحرفت بدراجتها إلى أحد جانبي صف السيارات، وأسرعت عبر الممر الضيق إلى أن تمكنت من رؤية تقاطع الطرق المسدود. رأت أمامها مستديرة مقطوعة تتوزع منها ست طرق رئيسة. كانت تلك بورتا روماننا؛ أحد أكثر التقاطعات ازدحاماً في فلورنسا، كما أنها الباب المؤدي إلى المدينة القديمة.

ما الذي يجري هنا؟!

لاحظت فايينتا أن المنطقة بأكملها تعج بعناصر الشرطة الذين أقاموا حاجز تفتيش. وبعد لحظات، رأت في وسط المعمعة مشهداً أدهشها؛ رأت فناناً أسود مألوفاً يقف حوله عدد من العملاء الذين يرتدون ملابس سوداء، ويصدرون الأوامر للسلطات المحلية.

لا شك في أن هؤلاء من فريق المراقبة والدعم، غير أن فايينتا لم تفهم ماذا يفعلون هنا.

إلا إذا...

ابتلعت فايينتا لعبها بصعوبة، ولم تجرؤ على تخيل ذلك الاحتمال. هل يعقل أن يكون لانغنون قد أفلت من بروبر أيضاً؟ بدا ذلك غير وارد، وذلك لأن فرص الهرب كانت معدومة تقريباً. غير أن لانغنون لم يكن يعمل بمفرده، وقد عرفت فايينتا بنفسها أن المرأة الشقراء واسعة الحيلة. ظهر في الجوار ضابط شرطة يتنقل من سيارة إلى أخرى، ويبرز صورة لرجل وسيم، شعره بني كثيف. عرفت فايينتا فوراً أن الصورة لروبرت لانغنون، فتسارعت نبضات قلبها.

لقد أفلتت من برودر...

ما زال لانغدون حراً!

بصفتها استراتيجية واسعة الخبرة، بدأت تقيّم انعكاس هذا التطور على وضعها.

الخيار الأول: الهرب.

لقد تسببت فايينثا بفشل مهمة حرجة للعميد، وتمّ التنصّل منها بسبب ذلك. إن كانت محظوظة فستواجه استجواباً رسمياً، وستنتهي مهنتها على الأرجح. أما إن لم تكن كذلك، وأساعت تقدير خطورة رئيسها، فقد تمضي بقية حياتها هاربة، ومتسائلة عما إذا كان رجال الكونسورتيوم يترصّون بها.

لديك خيار آخر الآن.

أكملي مهمتك.

كان إكمال المهمة يتعارض تماماً مع بروتوكول التنصّل. لكن، ما دام لانغدون هارباً، فإنّ الفرصة متاحة أمام فايينثا لمواصلة تنفيذ الأوامر الأصلية.

فكرت ونبضها يتسارع، إن فشل برودر في إيجاد لانغدون، ونجحت أنا...

عرفت فايينثا أنّ الاحتمال بعيد. لكن، إن تمكّن لانغدون من التملّص من برودر تماماً، وتمكّنت فايينثا من التدخّل وإنهاء المهمة، فستفرد بإنقاذ الكونسورتيوم، ولن يكون أمام العميد أيّ خيار سوى إعادتها إلى وظيفتها.

فكرت، سأحتفظ بوظيفتي، وقد تتمّ ترقيةي أيضاً.

في لمح البصر، أدركت فايينثا أنّ مستقبلها بأكمله يتمحور حول خطوة حرجة واحدة. على أن أجد لانغدون... قبل برودر.

لن يكون الأمر سهلاً. إذ يملك برودر بتصرّفه قوة عاملة غير محدودة، فضلاً عن مجموعة واسعة من الوسائل التكنولوجية الواسعة المستخدمة للمراقبة. أما فايينثا فتعمل بمفردها. غير أنّها تملك معلومة واحدة لا يعرفها برودر، أو العميد، أو الشرطة.

أعرف تماماً إلى أين سيذهب لانغدون.

ضغطت على نواصة السرعة، واستدارت 180 درجة، ثمّ عادت من حيث أتت. فكرت وهي تتخيل الجسر الواقع إلى الشمال، بورتني ألي غراتسيي. ثمة أكثر من طريق يؤدي إلى داخل المدينة القديمة.

الفصل 25

راح لانغدون يفكر مذهولاً: لم يكن اعتذاراً، بل كان اسم فنان.

رندت سبيناً وهي تعود خطوة كاملة إلى الوراء: "فاساري، الفنان الذي خبأ عبارة *cerca trova* في لوحته الجدارية".

ابتسم لانغدون. فاساري. فاساري. صحيح أن هذا الاكتشاف سلط الضوء على المازق الغريب الذي وجد نفسه فيه، إلا أنه كان يعني أيضاً أن لانغدون لن يتسائل بعد الآن عن الإثم القطيع الذي ارتكبه... والذي كان يعتذر عنه باستقاضة.

"روبرت، من الواضح أنك رأيت لوحة بونيتشيلي هذه قبل إصابتك بالرصاصة، وعرفت أنها تحتوي على شيفرة تشير إلى جدارية فاساري. لهذا السبب استيقظت وأنت تردد اسمه!".

حاول لانغدون أن يحلّ معنى كل ذلك. كان جورجيو فاساري فناناً، ومهندساً معمارياً، وأديباً عاش في القرن السادس عشر. وغالباً ما وصفه لانغدون بأنه "أول مؤرخ للفن في العالم". فعلى الرغم من مئات اللوحات التي رسمها فاساري، وعشرات المباني التي صمّمها، كان أهم آثاره هو كتابه المبدع، *حياة أنجح الرسّامين، والنحاتين، والمهندسين المعماريين*، الذي يضمّ سيراً لفنانين إيطاليين، وما زالت قراءته حتى هذا اليوم مطلوبة من تلامذة تاريخ الفن.

أعادت عبارة *cerca trova* فاساري إلى محور النقاشات قبل حوالي ثلاثين عاماً؛ عندما تمّ اكتشاف "رسالته السرية" في أعلى لوحته الجدارية المترامية في قاعة الخمسمائة في قصر فيكيو. ظهرت الأحرف الصغيرة على علم حربي أخضر، وكانت بالكاد مرئية في فوضى مشهد المعركة. ومع أنه لم يتمّ الاتفاق حول السبب الذي دفع فاساري إلى إضافة هذه الرسالة الغريبة إلى لوحته، إلا أن النظرية الأكثر شيوعاً تفيد أنها إشارة للأجيال القادمة إلى وجود جدارية مفقودة لليوناردو دافينشي مخبأة في فجوة من ثلاثة سنتمترات خلف ذلك الجدار.

كانت سبيناً تنظر من بين الأشجار بعصبية. ثمّة أمر لم أفهمه بعد. إن لم تكن تعتذر... فلماذا يحاول هؤلاء الأشخاص قتلك؟".

كان ذهن لانغدون مشغولاً بالتفكير في السؤال نفسه.

علا صوت طائرة المراقبة مجدداً، فأدرك لانغدون أن الوقت قد حان لاتخاذ القرار. لم يفهم كيف يمكن للوحة فاساري، *باتاليا دي مارتشانو*، أن تكون على علاقة بإنفيرنو دانتي، أو بالطفلة التي أصيب بها في الليلة الفائتة. ومع ذلك، رأى أخيراً طريقاً واضحاً أمامه.

Cerca trova

من يبحث يجد.

تراعت للانغدون مجدداً المرأة ذات الشعر الفضي وهي تتأديه من الضفة الأخرى للنهر.
الوقت ينفد! إن كان ثمة أجوبة، فقد شعر لانغدون أنه سيجدها في قصر فيكيو.
عاد إليه في تلك اللحظة مثل قديم للغطاسين الإغريق الذين كانوا يصطادون الكركند في
الكهوف المرجانية في جزر بحر إيجه. حين تسبح في نفق مظلم، فتصل إلى نقطة اللاعودة؛
عندما يصبح نفسك غير كافٍ لتعود أدراجك. عندئذٍ، سيكون خيارك الوحيد هو السباحة إلى
الأمم نحو المجهول... والصلاة لإيجاد مخرج.

تسأل لانغدون عما إذا كان قد بلغ تلك المرحلة.

نظر إلى المتاهة أمامه. إن تمكن هو وسيبتا من الوصول إلى قصر بيتي والخروج من
الحدائق، فستكون المدينة القديمة على مسافة مسيرة قصيرة عبر أشهر جسر للمشاة في العالم،
بونتي فيكيو. هذا الجسر مزدحم دائماً، وبالتالي سيوفر لهما غطاء جيداً. من هناك، سيكون
قصر فيكيو على مسافة قريبة.

اقتربت الطائرة أكثر، وشعر لانغدون للحظة أنه منهك تماماً. فعندما أدرك أنه لم يكن
يقول "أسف جداً"، أصبح هربه من الشرطة بلا معنى بالنسبة إليه.

قال لانغدون: "سيقبضون عليّ في النهاية سيبتا. ربما كان من الأفضل أن أكفّ عن
الهرب".

نظرت إليه سيبتا بفزع. "روبرت، كلما توقفت حاول شخص ما إطلاق النار عليك! يجب
أن تعرف ما أنت متورط فيه. يجب أن تنظر إلى جدارية فاساري وتدعو لكي تنعش ذاكرتك.
ربما ستساعدك على معرفة مصدر هذا المسلط وسبب وجوده معك".

تذكر لانغدون المرأة بشعرها السباكي التي قتلت د. ماركوني بدم بارد... والجنود الذين
أطلقوا النار عليهما... والشرطة العسكرية الإيطالية المتجمعة عند بورنا روماننا... والآن طائرة
المراقبة التي تبحث عنهما في حدائق بويولي. غرق في الصمت، وذلك عينيه المتعبتين وهو
يفكر بالخيارات المتاحة أمامه.

قالت سيبتا: "روبرت، ثمة أمر آخر... شيء لم يبدُ ذا أهمية، لكنني أجده مهماً الآن".
نظر إليها مستغرباً جدية نبرتها.

قالت: "كنت أنوي إخبارك في الشقة، لكن...".

"ما الأمر؟"

بدا التوتر على وجه سيبتا. "عندما وصلت إلى المستشفى، كنت تهذي وتحاول التواصل".

قال لانغدون: "أجل، وكنت أتمم فاساري، فاساري".

"أجل. لكن، قبل ذلك... قبل أن نحضر آلة التسجيل، أي في اللحظات الأولى من
وصولك، قلت شيئاً آخر ما زلت أنكره. قلته مرة واحدة، لكنني متأكدة مما فهمته".
"ماذا قلت؟"

نظرت سبيناً إلى الطائرة ومن ثم إلى لانغدون. قلت: أنا أملك المفتاح لإيجاده... إن فشلت، فمسيرنا الموت.

حدّق إليها لانغدون عاجزاً عن الكلام.

تابعت سبيناً: ظننت أنك كنت تعني الشيء الموجود في سترتك، لكنني لم أعد واثقة الآن.

إن فشلت، فمسيرنا الموت؟! تلك الكلمات صغقت لانغدون. تراعت له صور الموت التي تلاحقه في هذيانه... إنفيرنو دانتي، رمز الخطر البيولوجي، طبيب الطاعون. مجدداً، توسّلت إليه المرأة الجميلة ذات الشعر الفضي من على ضفة النهر. من يبحث يجد! الوقت ينقذ!

أعاده صوت سبيناً إلى الواقع. "أياً يكن ما يشير إليه هذا المسلاط... وأياً يكن ما تحاول إيجاده، فلا بدّ أنّه خطير للغاية. فالأشخاص الذين يسعون إلى قتلنا..." ارتجف صوتها، وحاولت تمالك نفسها. "فكر بالأمر. لقد أطلقوا عليك النار في وضوح النهار... وعليّ أنا أيضاً، مع أنني بريئة. لا يبدو أن ثمة من يسعى إلى التفاوض. حتّى إن حكومتك انقلبت عليك... اتّصلت بهم لطلب المساعدة، فما كان منهم إلّا أن أرسلوا شخصاً لتصفيتك".

حدّق لانغدون إلى الأرض ساهماً. سواء أكانت القنصلية الأميركية قد أبلغت القاتلة بمكان لانغدون، أو قامت القنصلية نفسها بإرسال القاتلة، فإنّ هذا الأمر لم يعد مهماً. وذلك لأنّ النتيجة هي نفسها؛ حكومتني ليست إلى جانبي.

نظر لانغدون إلى عيني سبيناً، ورأى فيهما شجاعة وتصميماً. بماذا ورطتها؟ "أتمنّى لو كنت أعرف ما نبحث عنه. فذلك سيساعدنا على وضع الأمور في نصابها". أومات سبيناً موافقة. "مهما يكن، فعلينا إيجاده. ذلك سيساعدنا".

كان من الصعب دحض حجّتها. غير أنّ فكرة ظلّت تزعج لانغدون. إن فشلت، فمسيرنا الموت. منذ الصباح وهو يصادف رموزاً للموت، من الخطر البيولوجي، إلى الطاعون، إلى جحيم دانتي. صحيح أنّه لا يملك دليلاً واضحاً عمّا يبحث عنه، إلّا أنّه من السذاجة عدم التفكير في احتمال اشتغال هذا الوضع على مرض قاتل أو خطر بيولوجي واسع النطاق. لكن، إن كان ذلك صحيحاً، فلماذا تحاول حكومته القضاء عليه؟

هل يعتقدون أنني متورّط في هجوم محتمل؟

لم يكن لذلك أيّ معنى. لا بدّ أنّ أمراً آخر يجري هنا.

فكر لانغدون بالمرأة ذات الشعر الفضي. "هناك أيضاً تلك المرأة التي أراها في أحلامي. أشعر أنّ عليّ إيجادها".

قالت سبيناً: "إذا، ثِقْ بأحاسيسك. ففي حالتك، يُعتبر عقلك الباطن أفضل بوصلة لديك. فهذا من علم النفس الأساسي؛ إن كان إحساسك يشجّعك على الوثوق بهذه المرأة، فانا أعتقد أنّه عليك فعل ما تقوله لك".

قالا معاً: "من يبحث يجد".

تتهّد لانغدون، وعرف أنّ طريقه واضح.

ليس أمامي سوى السباحة في هذا النفق.

بعزيمة صلبة، التفت وبدأ يدرس محيطه؛ محاولاً إيجاد طريقة للخروج من الحقائق.

كانا يقفان تحت الأشجار، عند طرف ساحة واسعة مفتوحة، تتقاطع فيها عدّة طرق. على مسافة بعيدة إلى يسارهما، رأى لانغدون بحيرة على شكل هلال تضمّ جزيرة صغيرة مزينة بأشجار اللبمون وبتمثال. فكّر، إنّها /إيزولوتو، وعرف المنحوتة الشهيرة لبيرسوس التي تصوّر حصاناً يقفز وهو نصف مغمور بالماء.

قال لانغدون: "قصر بيتي بهذا الاتجاه"، وأشار إلى الشرق بعيداً عن الجزيرة؛ باتجاه الطريق الرئيس للحديقة، أي فيتولوني، الذي يمتدّ من الشرق إلى الغرب عبر الحديقة بأكملها. كان طريق فيتولوني بمساحة طريق باتجاهين، تحيط به أشجار السرو الطويلة التي يرجع عمرها إلى أربعمئة عام.

قالت سيبينا وهي ترمق الطريق المكشوف وتشير إلى الطائرة التي تحوم في الأجواء: "لا يوجد غطاء هنا".

قال لانغدون وهو يبتسم: "أنت على حق. لهذا السبب سنسلك النفق المحاذي للطريق".

أشار هذه المرة إلى سياج بمحاذاة بداية فيتولوني. كان الجدار العشبي الكثيف يحتوي على فتحة صغيرة مقوّسة. خلف الفتحة، امتدّ طريق ضيق للمشاة كان عبارة عن نفق يمتدّ بموازية فيتولوني. كان ذلك النفق محاطاً من الجانبين بصفّ من شجر السنديان الذي تمّ تشذيبه بعناية منذ القرن السابع عشر ليشكّل قنطرة فوق الطريق، ويؤمن ظلاً. كان اسم ذلك الطريق، لا تشيريكياتا، ويعني حرفياً "الدائرة" أو "القنطرة"، بسبب الأشجار التي تظّلّه وتجعله شبيهاً بالبرميل، بالإيطالية تشيركي.

أسرعت سيبينا إلى الفتحة وحنّقت إلى النفق الظليل، ثم التفتت فوراً إلى لانغدون وقالت مبسّمة: "هذا أفضل".

ومن دون إضاعة المزيد من الوقت، دخلت عبر الفتحة وأسرعت بين الأشجار.

لطالما اعتبر لانغدون نفق لا تشيريكياتا من أكثر الأماكن أماناً في فلورنسا. لكن اليوم، وهو يشاهد سيبينا تختفي في الممرّ المظلم، فكّر مجدداً بالغطاسين الإغريق الذين يسبحون في الأنفاق المرجانية ويصلّون لإيجاد مخرج.

تلا لانغدون بسرعة دعاء قصيراً وأسرع خلفها.

على بعد نصف ميل، خارج معهد الفنون، مشى العميل برودر بين حشد من رجال الشرطة والطلّاب، وركّز نظره الجليدي على الحشود المغادرة أمامه. توجّه إلى مركز القيادة المؤقت الذي أقامه أخصائي المراقبة في فريقه على غطاء محرك الفان الأسود.

قال الأخصائي وهو يعطي برودر شاشة لوحية: "هذه الصورة أخذت منذ بضع دقائق بواسطة كاميرا الطائرة".

تفحص برودر الصورة التي التقطت لوجهين؛ رجل ذي شعر داكن وامرأة ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان، كلاهما يقفان في الظلّ ويحدّقان إلى السماء من خلال أغصان الأشجار.

روبرت لانغدون.

سيبّا بروكس.

لا شكّ في ذلك.

حوّل برودر انتباهه إلى خارطة حدائق بويولي التي كانت موضوعة على غطاء محرّك الفنان. فكّر في سزّه وهو يتأمّل الخارطة: كان خيارهما خاطئاً. فمع أنّ الحدائق مترامية الأطراف، ومعقّدة التصميم، كما تزخر بالمخابئ، إلّا أنّها محاطة بأسوار عالية من كلّ الجهات. كانت حدائق بويولي أقرب ما تكون إلى مصيدة.

لن يخرجوا أبداً.

قال العميل: تقوم السلطات المحليّة بإغلاق كلّ المخرج، وستبدأ عمليّة التمشيط".

قال برودر: "أطلعني على كلّ المستجذات".

نظر ببطء إلى نافذة الفنان السميكة المصنوعة من البوليكاربونات، ورأى من خلالها المرأة ذات الشعر الفضيّ جالسة على المقعد الخلفي.

العقاقير التي أعطوها إيّاها شلّت حواسها من دون شكّ؛ أكثر ممّا تخيل برودر. ومع ذلك، كما يبدو من نظرة الخوف في عينيها، ما زالت تفهم تماماً ما يجري حولها.

فكّر برودر، لا تبدو سعيدة. أساساً، كيف لها ذلك؟

الفصل 26

انطلقت المياه على ارتفاع عشرين قدماً في الهواء.

راقبها لانغدون وهي تغوص مجدداً في الأرض، وعرف أنهما يقتربان. لقد وصلا إلى نهاية نفق لا تشيركياتا، وراحا يركضان عبر مرج مفتوح في أكمة من شجر القلن. كانا ينظران الآن إلى أشهر نافورة طبيعية في بوبولي؛ تمثال ستولدو لورينزي البرونزي الذي يصور نبتون ممسكاً برمحه الثلاثي. كانت هذه النافورة تُعرف بين المحليين باسم نافورة الشوكة، وتُعتبر موقعاً مركزياً في الحدائق.

توقفت سيبينا عند طرف الأكمة، وحدقت إلى الأعلى عبر أغصان الأشجار. "لا أرى الطائرة".

لم يعد لانغدون يسمع صوتها أيضاً، غير أن صوت النافورة كان عالياً. قالت سيبينا: "لا بد أنهم اضطروا إلى التزوّد بالوقود. هذه فرصتنا، بأي اتجاه نذهب؟". قادها لانغدون إلى اليسار، وبدأ بهبوط منحدر. عندما خرجا من بين الأشجار، بدا قصر بيثي.

همست سيبينا: "يا له من بناء جميل!".

أجابها بامتعاض: "إنه بناء نموذجي لأسرة ميديشي".

مع ذلك، كانت واجهة قصر بيثي الواقعة على بعد ربع ميل تقريباً تهيمن على المشهد، ممتدة إلى اليمين واليسار. أضفت الزخرفة الخارجية على المبنى هيئة قوية، زادت من حدتها النوافذ المغلقة والفتحات المقوسة. تقليدياً، كانت القصور الرسمية تقع على أرض مرتفعة؛ حيث يُضطر كل من يقف في الحدائق إلى النظر إلى الأعلى لرؤية القصر. غير أن قصر بيثي كان مبنياً في منخفض قرب نهر أرنو، ما يعني أن الموجودين في حدائق بوبولي ينظرون إلى الأسفل لرؤية القصر.

غير أن هذا التأثير كان أكثر دراماتيكية. وصف أحد المهندسين المعماريين القصر على أنه يبدو وكأنه من بناء الطبيعة... وكأن الحجارة الضخمة قد تدرجت إلى أسفل الجرف وتكوّمت في الأسفل على شكل متراس أنيق. على الرغم من هذا الموقع الضعيف في الوادي، إلا أن هيكل قصر بيثي بجارته المتينة كان مهيباً؛ إلى درجة أن نابليون استخدمه مرة كقاعدة له عندما كان في فلورنسا.

قالت سيبينا مشيرة إلى أقرب أبواب القصر: "انظر، لدينا أخبار طيبة".

كان لانغدون قد رأى المشهد أيضاً. ففي هذا الصباح الغريب، لم يكن مشهد القصر بحد ذاته هو المفرج، بل السياح الذين يتدفقون من المبنى إلى الحدائق السفلية. كان القصر مفتوحاً، ما يعني أن لانغدون وسيبئاً لن يواجهها أي مشاكل في التسلل إلى الداخل، وعبور المبنى لتفادي الحدائق. عرف لانغدون أنهما عندما يخرجان من القصر، فسيريان نهر آرنو إلى اليمين، وخلفه أبراج المدينة القديمة.

واصلاً التقدّم، وهرولاً عبر المنحدر. أثناء نزولهما، عبرا مدرج بوبولي الذي شهد أول أوبرا في التاريخ، والذي يقع إلى جانب التلّ؛ كما لو كان حافر حصان. ثم مرّاً بالقرب من مسئلة رمسيس الثاني، والتحفة "الفنية" الموضوعة على قاعدتها. تشير الكتيبات السياحية إلى أنها "حوض حجري ضخّم من حمامات كركلا في روما"، لكنّ لانغدون رأها دائماً على حقيقتها؛ أكبر حوض استحمام في العالم. عليهم حقّاً وضع ذلك الشيء في مكان آخر.

وصلاً أخيراً إلى الجهة الخلفية للقصر، وأبطأ من سيرهما، حيث اختلطا مع السياح الأوائل لذلك اليوم. تقدّما بعكس التيار، ونزلاً عبر نفق ضيق إلى الفناء الذي جلس فيه بعض الزوّار للاستمتاع باحتساء قهوة الصباح في مقهى القصر. كان الهواء عابقاً برائحة القهوة الطازجة، فتاق لانغدون فجأة إلى الجلوس والاستمتاع بفطور هادئ. ليس اليوم مناسباً، فكّر وهما يسرعان ويدخلان الممرّ الحجري الواسع المؤدي إلى مدخل القصر الرئيس.

مع اقترابهما من المدخل، اصططم لانغدون وسيبئاً بحشد أكبر من السياح الذين اجتمعوا عند الباب لرؤية شيء ما في الخارج. حدّق لانغدون من بين الحشود إلى الفناء الممتدّ أمام القصر.

لم يكن المدخل الأساسي لقصر بيّتي جذاباً كما يتذكّره، بل مجرد فناء مكسو بالعشب المشدّب. كانت الباحة الأمامية عبارة عن مساحة واسعة من الإسفلت ممتدة عبر التلال، وصولاً إلى فيا دي غويتشارديني؛ كما لو أنّها منحدر تزلّج هائل مرصوف. عند أسفل التلّ، رأى لانغدون ما يجذب أنظار المتفرّجين.

في بياتزا دي بيّتي، وصلت ست سيارات للشرطة من كلّ الاتجاهات. تدفّق منها جيش صغير من الضباط الذين صعدوا التلّ شاهرين أسلحتهم، ثم انتشروا لتأمين واجهة القصر.

الفصل 27

عندما دخلت الشرطة قصر بيثي، كانت سيبينا ولانغدون قد ابتعدا؛ إذ عادا أدراجهما إلى داخل القصر فراراً من الشرطة. أسرعاً عبر الباحة والمقهى الذي بدأت الجلبة تنتشر فيه، وراحت الأعناق تشرئب في محاولة لتحديد مصدر الضجة. دهشت سيبينا لأن السلطات تمكنت من إيجادهما بهذه السرعة. لا شك أن الطائرة قد اختفت لأنها حذت مكاننا.

وجدت هي ولانغدون النفق الضيق نفسه الذي استخدماه للخروج من الحقائق، فاندفعا إليه من دون تردد وصعدا الأدراج. كان الدرج يميل في آخره على طول جدار دعم عالٍ. هكذا، عندما أسرعاً بصعود الدرج، راح الجدار يقصر بجانبهما، إلى أن أصبحا قاذرين على أن يطلا من فوقه على حقائق بويولي الشاسعة.

أمسك لانغدون بذراع سيبينا فوراً وأرجعها إلى الخلف؛ ليختبئاً خلف جدار الدعم. كانت سيبينا قد رأت المشهد أيضاً.

على بعد ثلاثمائة ياردة، على المنحدر الذي يعلو المدرج، نزلت كتيبة من الشرطة، وراحت تبحث في البساتين، وتستجوب السياح، وتتسقى بين أفرادها بواسطة أجهزة اللاسلكي.

نحن محاصران!

لم تتخيل سيبينا قط، أن لقاءها روبرت لانغدون سيؤدي بها إلى هذه الحال. هذا يفوق ما توقّعت. عندما غادرت سيبينا المستشفى مع لانغدون، اعتقدت أنهما فرّا من امرأة ذات تسريحة سبايكي تحمل مسدساً. أما الآن، فهما بهريان من فريق عسكري كامل، ومن السلطات الإيطالية. بدأت الآن تدرك أن فرص النجاة معدومة تقريباً.

سألت سيبينا وهي تلهث: "هل من مخرج آخر؟".

قال لانغدون: "لا أظن ذلك، فهذه الحديقة مدينة مسورة، تماماً مثل...". وصمت فجأة، ثم نظر نحو الشرق. "تماماً مثل... الفاتيكان". وشعّ وجهه بوميض أمل غريب.

لم تفهم سيبينا ما علاقة الفاتيكان بمأزقهما الحالي، غير أن لانغدون بدأ فجأة يهزّ رأسه، وهو ينظر شرقاً إلى الجهة الخلفية من القصر.

قال وهو يحثّها على الإسراع في الجري معه الآن: "الاحتمال ضئيل، لكن، قد تكون ثمة طريقة للخروج من هنا".

فجأة، ظهر أمامهما شخصان بعدما انعطفا عند زاوية الجدار، وكادا أن يرتطما بهما. كانا يرتديان ملابس سوداء، فاعتقدت سينيّا للحظة مخيفة أنّهما الجنديان اللذان التقتهما في المبنى السكني. غير أنّهما تابعا طريقهما، فعرفت أنّهما مجرد سائحين إيطاليين كما يبدو من ملابسهما الجلدية الأنيقة.

خطرت فكرة لسينيّا، فأمسكت بذراع أحد السائحين، ثمّ ابتسمت وسألته بلطف بالغ، وبإيطالية سريعة عن اتجاه صالة الأزياء الشهيرة في القصر؟ وأضافت أنّها وشقيقها قد تأخرا على جولة خاصة.

ابتسم لهما الرجل، وبدا متلهفًا للمساعدة. ثمّ أرشدهما إلى المكان مشيرًا إلى الغرب، على طول الجدار؛ تمامًا بعكس الاتجاه الذي كان لانغدون ينظر إليه. ابتسمت سينيّا شاكرة الرجلين اللذين تابعا طريقهما.

نظر لانغدون إلى سينيّا بإعجاب، وقد فهم دوافعها على ما يبدو. فإن استجوبت الشرطة السائحين، فسيقولان إنهما ذهبا إلى صالة الأزياء التي تقع - استناداً إلى الخارطة الموضوعة على الجدار أمامهما - في أقصى الطرف الغربي للقصر... أي أبعد ما يكون عن الاتجاه الذي يقصدانه.

قال لانغدون: "علينا الوصول إلى ذلك الطريق". مشيرًا عبر ساحة مفتوحة إلى طريق يمتدّ على منحدر آخر، بعيداً عن القصر. كان طريق الحصى محمياً بأشجار ضخمة تحجبها عن أعين السلطات التي راح عناصرها يهبطون التلّ، على بعد مائة ياردة فقط. رأت سينيّا أنّ فرص عبورها الساحة للوصول إلى الطريق ضئيلة جدًّا. كان السياح مجتمعين هناك، يشاهدون الشرطة بفضول. أمّا الطائرة، فعاد هديرها يُسمع مجدّداً ويقترب. قال لانغدون: "هذه فرصتنا الوحيدة". ثمّ أمسك بيدها وشدّها نحو الساحة، وهناك بدأ يتسلّلان بين حشود السياح. قاومت سينيّا رغبتها في الركض، كما أمسك لانغدون يدها بحزم، وأخذ يمشي بسرعة ولكن بهدوء.

عندما وصلا إلى الطريق أخيراً، نظرت سينيّا إلى الخلف لترى ما إذا كان أمرهما قد كُشف. كان كلّ رجال الشرطة ملتفتين إلى الاتجاه الآخر، وهم ينظرون إلى الأعلى وقد جذب انتباههم صوت الطائرة المقترية.

استدارت إلى الأمام وأسرعت خلف لانغدون.

ظهرت أمامهما الآن من فوق الأشجار سماء فلورنسا القديمة، وبدت واضحة أمامهما مباشرة. رأت سينيّا قبة دوومو الحمراء، وقمة برج جرس جوتو الخضراء والحمراء والبيضاء. كما لمحت للحظة قبة بالاتزو فيكيو الذي يبدو وجهتهما المستحيلة. لكن، عندما هبطا الطريق المنحدر، حجب السور العالي المشهد عن أعينهما مجدّداً.

عندما وصلا إلى أسفل التلّ، كانت سينيّا مقطوعة الألفاس، وتتساعل عما إذا كان لانغدون يملك فكرة عن اتجاههما. كان الطريق يؤدي مباشرة إلى متاهة، لكن لانغدون انعطف بثقة إلى

اليسار، إلى باحة مكسوة بالحصى البيضاء، ودار حولها مختبئاً خلف سياج ظليل من الأشجار العالية. كانت تلك الباحة خالية، وكأنها موقف سيارات للموظفين، وليست لاستقبال السياح. أخيراً، سأله سينا لاهثة: "إلى أين نحن ذاهبان؟".
"أوشكنا على الوصول".

الوصول إلى أين؟ كانت الباحة مسورة بجدران بارتفاع ثلاثة طوابق على الأقل. وكان المخرج الوحيد عبارة عن بوابة للسيارات تقع إلى اليسار، ومقفلة بعارضة حديدية بدت وكأنها تعود إلى القصر الأصلي من أيام الجيوش المغيرة. وخلف البوابة، رأيت رجال الشرطة مجتمعين في بياترا دي بيئي.

لازم لانغدون المحيط النباتي، وتقدم إلى الأمام مباشرة نحو الجدار الممتد أمامهما. راحت سينا تبحث عن باب مفتوح، لكنها لم تر سوى زاوية تحتضن أشع نمثال رآته في حياتها.
رياه! حكام أسرة ميديشي الذين كان باستطاعتهم امتلاك أي تحفة فنية على وجه الأرض، لم يختاروا سوى هذه؟

كان النمثال يصور قرماً عارياً وبيدياً يمتطي سلحفاة عملاقة. وكان الماء يقطر من فم السلحفاة كما لو أنها مريضة.

قال لانغدون من دون أن يتوقف: "أعرف، هذا نمثال براكيو دي بارتولو، وهو قرم شهير في البلاط. برأيي، يجب وضعه في حوض الاستحمام العملاق".
انعطف لانغدون إلى اليمين، متجهاً إلى درج لم تره سينا حتى الآن.
أهو مخرج؟

لم يدم وميض الأمل طويلاً.
فعندما انعطفت عند الزاوية ونزلت الدرج خلف لانغدون، أدركت أنهما يتوجّهان نحو طريق مسدود محاط بجدران يبلغ ارتفاعها ضعف ارتفاع سور الباحة.
بالإضافة إلى ذلك، شعرت سينا أن رحلتها الطويلة على وشك الانتهاء عند باب كهف... مغارة عميقة في الجدار الخلفي. مستحيل! إلى أين يأخذنا؟

لاحت من مدخل الكهف هوابط شبيهة بالخناجر. في الداخل، كانت الأشكال الجيولوجية الملطوية تقطر ماءً وكأن الحجر يذوب ويتحول إلى أشكال تتضمن أعضاء بشرية ناتئة من الجدران؛ وكأن الصخور قد التهمتها. المشهد بأكمله ذكر سينا بخارطة الجحيم ليويتشيلي.
لسبب ما، بدا لانغدون متماسكاً، واستمر بالركض مباشرة نحو مدخل الكهف. كان قد ذكر منذ قليل شيئاً عن مدينة الفاتيكان، لكن سينا واثقة أنه ما من كهوف مخفية داخل جدران الكرسي الرسولي.

مع اقترابهما، رأت سينا السطح المعمد الممتد فوق المدخل؛ مجموعة غريبة من الهوابط والحجارة الغامضة التي بدت كما لو أنها تحيط بامرأتين مستلقيتين ومطوّقتين بدرع مزين بست كرات، أو باله، وهو شعار أسرة ميديشي الشهيرة.

فجأة، انعطف لانغدون إلى اليسار، بعيداً عن المدخل، باتجاه شيء لم تره سيبينا في البداية، كان عبارة عن باب صغير رمادي اللون يقع إلى يسار الكهف. كان باباً خشبياً متداعياً، بدا قليل الأهمية، وكأنه باب مخزن أو غرفة للمعدات. اندفع لانغدون نحو الباب، آملاً أن يتمكن من فتحه، لكنه لم يكن مزوداً بمقبض، بل بمجرد قفل نحاسي يُفتح كما يبدو من الداخل فقط. "تباً!". بدا القلق الآن في عيني لانغدون، واختفى الأمل الذي راوده في البداية. "كنت آمل -".

ومن دون سابق إنذار، تردّد هدير الطائرة بصوت عالٍ خلف الجدران العالية. انفتحت سيبينا فرأت الطائرة تحلق فوق القصر وتشقّ طريقها في السماء نحوهما. لا بدّ أن لانغدون رآها هو أيضاً، لأنه أمسك بيد سيبينا واندفع باتجاه الكهف. اختفيا عن الأنظار في الوقت المناسب تحت الهوابط المتكّلية من المغارة. فكرت سيبينا: يا لها من نهاية مناسبة! ها نحن نقحم أبواب الجحيم.

الفصل 28

على بعد ربع ميل شرقاً، ركنت فايينثا دراجتها النارية. كانت قد دخلت المدينة القديمة عبر جسر بونتي ألي غراتسيي، ثم مرّت على بونتي فيكيو، وهو جسر المشاة الشهير الذي يربط قصر بيتي بالمدينة القديمة. وبعد أن قيّدت خונثها بالدراجة، اجتازت الجسر سيراً على الأقدام، واختلطت بالسياح الذين أتوا للتزّه في الصباح الباكر.

هَبْ نسيم آذار المنعش على النهر، وداعب شعر فايينثا القصير؛ الأمر الذي ذكرها أن لانغدون يعرف مظهرها. فتوقّفت عند أحد الباعة على الجسر واشترت قُبعة بايسبول من ماركة *أمو فيرينزي*، ثم أخفضتها فوق وجهها.

سوّت سترتها الجلدية التي بدا المسدّس من تحتها، واتّخذت مقعداً قريباً من وسط الجسر، ثم اتكأت بطريقة طبيعية على عمود مواجه لقصر بيتي. من مكانها، كان باستطاعتها مراقبة كلّ المشاة الذين يعبرون نهر آرنو باتجاه قلب فلورنسا.

قالت لنفسها: لانغدون يتجول سيراً على الأقدام. إن وجد طريقة للالتفاف حول بورنا روماننا، فهذا الجسر هو طريقه الأكثر منطقية لدخول المدينة القديمة.

إلى الغرب، باتجاه قصر بيتي، سمعت صفارات سيارات الشرطة، وتساءلت عما إذا كان ذلك نذير خير أم سوء. *أما زالوا يبحثون عنه؟ أم قبضوا عليه؟* وبينما أرهفت فايينثا السمع بحثاً عن أي مؤشر لما يجري، سُمع فجأة صوت جديد؛ هدير عالٍ صادر من مكان ما في الأعلى. نظرت تلقائياً نحو السماء، ورأت على الفور الطائرة الصغيرة التي يتمّ التحكم بها عن بعد وهي ترتفع فوق القصر ثم تتحدر لتلامس رؤوس الأشجار متّجهة نحو الزاوية الشمالية الشرقية للحدائق بوبولي.

طائرة مراقبة من دون طيار. هذا الأمر أعطى فايينثا شيئاً من الأمل. ما دامت هذه الطائرة في الجو، فهذا يعني أن بروبر لم يجد لانغدون بعد.

كانت الطائرة تقترب بسرعة. من الواضح أنها تراقب الزاوية الشمالية الشرقية للحدائق، وهي المنطقة الأقرب إلى جسر فيكيو وموقع فايينثا، ممّا أعطاها مزيداً من التشجيع. *إن كان لانغدون قد هرب من بروبر، فإنّه يتحرّك بهذا الاتجاه حتماً.*

لكن، بينما كانت فايينثا تراقب المشهد، غابت الطائرة فجأة عن الأنظار، وانخفضت خلف الجدار الحجري العالي. سمعتها وهي تحوم في مكان ما تحت خطّ الأشجار... ممّا يشير إلى أنها وجدت شيئاً ذا أهمية.

الفصل 29

فَكَرَ لانغدون وهو مختبئ في المغارة المعتمدة مع سيبينا، من يبحث يجد. بحثنا عن مخرج... ووجدنا طريقاً مسدوداً.

شكَّلت النافورة في وسط الكهف غطاء جيداً. لكن، بينما كان لانغدون يسترق النظر من خلفها، شعر أنَّ الألوان قد فأت.

كانت الطائرة قد انخفضت للتو فوق موقعهما، وتوقَّفت خارج الكهف، ثم راحت تحوم هناك على ارتفاع عشر أقدام فقط فوق الأرض، بمواجهة المغارة، وهي تهدر بحدة كما لو أنها حشرة غاضبة... تنتظر الانقضاض على فريستها.

تراجع لانغدون وزفَّ الأنباء السيئة لسيبينا: "أظنَّها عرفت مكاننا".

كان هدير الطائرة يصمُّ الأذان داخل الكهف، ويرتدُّ بقوة على الجدران الصخرية. لم يصدِّق لانغدون أنَّهما محتجزان من قبل طائرة آلية صغيرة، إلَّا أنَّه أدرك أنَّ الهرب منها غير مجدٍ. ماذا يفعلان الآن؟ هل ينتظران؟ كانت خطته الأصلية المتمثلة بعبور الباب الرمادي الصغير معقولة إلى حدِّ ما، غير أنَّه لم يدرك أنَّ الباب لا يفتح سوى من الداخل.

اعتادت عينا لانغدون على ظلام المغارة، فأخذ يراقب محيطه الغريب، ويتساءل عما إذا كان ثمة مخرج آخر. لم يز شيئاً يبشِّر بالخير. فداخل المغارة كان مزيناً بالمنحوتات الحيوانية والبشرية التي تتأكلها الجدران الغريبة على مراحل متفاوتة. نظر لانغدون يائساً إلى السقف الذي تتدلى منه الهوابط على نحو مخيف.

مكان ملائم للموت.

كانت مغارة بونتالينتي - التي تحمل اسم مهندسها بيرناردو بونتالينتي - أغرب مكان في فلورنسا. بنيت كمكان لتسليه الزوار الشباب في قصر بيئي، وهي تتألف من ثلاث غرف مزينة بالفانازيا الواقعية وبهندسة قوطية مفرطة؛ مؤلفة مما بدا أنَّها تحجرات وخفاف¹ تقطر منها المياه، وتبدو كما لو أنَّها تتأكل الأشكال العديدة المنحوتة أو تنضج بها. في أيام حكم أسرة ميديتشي، أضيف إلى المغارة الماء الجاري على الجدران، والذي ساهم في تبريد المكان خلال فصول الصيف التوسكانية الحارة، وإضفاء شكل مغارة حقيقية عليها.

اختبأ لانغدون وسيبينا في أول وأكبر غرفة خلف نافورة مركزية غريبة. كانا محاطين بأشكال ملونة لرعاة غنم، وقرويين، وموسيقيين، وحيوانات، وحتى نسخ عن سجناء مايكل أنجلو

1 زجاج بركاني مسامي خفيف جداً يُستعمل في السقف.

الأربعة؛ جميعها تبدو وكأنها تكافح للتحرّر من الصخور الرطبة التي تلتهمها. من الأعلى، تسأل ضوء النهار من خلال فتحة في السقف كانت مزوّدة في الماضي بكرة زجاجية ضخمة مليئة بالمياه كانت تسبح فيها سمكة شبوط حمراء تحت أشعة الشمس.

تسأل لانغدون عما سيفكر فيه زوّار هذه المغارة في عصر النهضة حين يرون مروحية حقيقية تحلق في الأعلى؛ هي التي كانت حلم ليوناردو دافينشي.

في تلك اللحظة بالضبط، توقّف هدير الطائرة. لم ينخفض صوته تدريجياً، بل... توقّف فجأة. استغرب لانغدون، فاسترق النظر من خلف النافورة، ورأى أنّ الطائرة قد هبطت على الأرض. كانت الآن متوقفة في الساحة المرصوفة بالحصى، وتبدو أقلّ خطراً بكثير، لا سيما وأنّ عدسات الفيديو الشبيهة بالدبابيس كانت موجهة بعيداً عنهما، نحو الباب الرمادي الصغير. سرعان ما زال إحساس لانغدون بالاطمئنان. فعلى بعد مائة ياردة خلف الطائرة، وعلى مقربة من تمثال القزم والسلحفاة، رأى ثلاثة جنود مسلّحين يهبطون الدّرج، متوجّهين مباشرة نحو المغارة. كان الجنود يرتدون بزّة سوداء مألوفة، ويضعون شارات خضراء على أكْتَافهم. أمّا قائدهم، بعضلاته المفتولة وعينيه الباردتين، فذكّر لانغدون بقناع الطاعون الذي كان يراه وهو يهذي.

أنا الموت.

لم يلمح لانغدون الفان أو المرأة الغامضة ذات الشعر الفضّي في أيّ مكان.

أنا الحياة.

مع اقتراب الجنود، توقّف أحدهم عند أسفل الدّرج، واستدار إلى الخلف، وذلك ليمنع نزول أيّ كان إلى المكان. أمّا الجنديان الآخران، فواصلتا التقدّم نحو المغارة. بدأ لانغدون وسيّناً بالتحرّك مجدداً؛ على الرغم من أنّهما يؤخّران المحتوم وحسب. فتراجعا زاحقيّن إلى المغارة الثانية التي كانت أصغر، وأعمق، وأكثر ظلمة. هي أيضاً كانت تهيم عليها تحفة فنيّة مركزية تمثّل عاشقين متشابكين، اختبأ خلفها الآن لانغدون وسيّناً. في الظلّ، تأمل لانغدون قاعدة التمثال، ثم راقب اقتراب الجنود. عندما وصل الجنديان إلى الطائرة، توقّف أحدهما وانحنى لحملها وتفحص الكاميرا.

تسأل لانغدون، هل حدّد الجهاز موقعنا؟ وشعر أنّه يعرف الإجابة.

أمّا الجندي الثالث، ذو العضلات المفتولة والعينين الباردتين، فظلّ يسير بإصرار باتجاه لانغدون. اقترب الرجل إلى أن أصبح تقريباً عند مدخل الكهف. سيّدخل. استعدّ لانغدون للابتعاد خلف التمثال وإخبار سيّناً أنّ الأمر قد انتهى. لكن، في تلك اللحظة، حدث أمر لم يتوقّعه.

فجأة، وعوضاً عن دخول المغارة، انعطف الجندي يساراً واختفى.

إلى أين يذهب؟ ألا يعرف أننا هنا؟

بعد بضع دقائق، سمع لانغدون طرقة على الخشب.

فكر، إنّ الباب الرمادي الصغير. لا بدّ أنّه يعرف إلى أين يؤدّي.

لطالما رغب حارس قصر بيتي، إرنستو روستو، أن يلعب كرة القدم الأوروبية. لكن في سنه البالغة تسعة وعشرين عاماً، ويوزنه الزائد، بدأ يقتنع أخيراً أن حلم الطفولة لن يتحقق أبداً. خلال السنوات الثلاث الماضية، عمل إرنستو هنا حارساً في قصر بيتي، ولازم دائماً المكتب الصغير نفسه، ومارس العمل الممل نفسه.

اعتاد إرنستو على السياح الفضوليين الذين يطرقون على الباب الرمادي الصغير خارج المكتب الذي يعمل فيه، وكان يتجاهلهم عادة إلى أن يتوقفوا. غير أن الطرقات كانت اليوم حادة ومتواصلة.

انزعج وحاول أن يركز مجدداً على تلفازه الذي كان يشاهد عليه إعادة عرض لمباراة كرة قدم صاخبة؛ فيورنتينا ضد جوفينتوس. غير أن الطرقات أخذت تعلو. أخيراً، شتم السياح ونهض من أمام مكتبه، وسلك الممر الضيق باتجاه الصوت. في منتصف الطريق، توقف عند الحاجز الفولاذي الضخم الذي يبقى مغلقاً في هذا الممر، باستثناء ساعات محدّدة.

أدخل الرقم السري وفتح الحاجز الذي تحرك جانباً. بعد عبوره، اتبع البروتوكول، وأعاد إغلاق الحاجز خلفه، ثم توجه بعد ذلك نحو الباب الرمادي.

صاح بالإيطالية من خلف الباب، على أمل إسماع الطارق: "الباب مغلق! لا يمكنكم الدخول!".

بيد أن الطرق استمر.

صر إرنستو على أسنانه. يا لإصرار أهالي نيويورك. فالسبب الوحيد وراء نجاح فريق ريد بولز لكرة القدم على المسرح العالمي هو أنه سرق أفضل مدربي أوروبا.

تواصلت الطرقات، ففتح إرنستو الباب على مضض، ودفعه بضعة إنشات. "الباب مغلق!".

توقفت الطرقات أخيراً، ووجد إرنستو نفسه وجهاً لوجه أمام جندي بارد العينين إلى حدّ جعل إرنستو يتراجع خطوة إلى الخلف. رفع الرجل بطاقة رسمية تحمل اختصاراً لم يتعرّف عليه إرنستو.

سأل إرنستو بالإيطالية مذعوراً: "ماذا يجري؟!".

خلف الجندي، رأى جندياً آخر منحنيّاً يعالج ما بدا أنه طائرة هليكوبتر صغيرة كلعب الأطفال. وعلى مسافة منهما، رأى جندياً ثالثاً يحرس الدّرج. كما سمع صفارات الإنذار لسيارات الشرطة في الجوار.

سأل الجندي بلكنة غير نيويوركية حتماً: "هل تتكلم الإنكليزية؟". /هو أوروبي؟

هز إرنستو رأسه قائلاً: "أجل، قليلاً".

"هل دخل أحد من هنا هذا الصباح؟".

"كلاً سينبوري، لا أحد".

"ممتاز. أبقيه مغلقاً، ولا تدع أحداً يدخل أو يخرج منه. هل هذا واضح؟".

هز إرنيسو كتفيه مستغرياً. فهذه وظيفته على أي حال. "مفهوم. لن أسمح لأحد بالدخول أو الخروج".

"أخبرني رجاء، أهذا الباب هو المدخل الوحيد؟".

فكر إرنيسو، تقنياً، يُعتبر هذا الباب في هذه الأيام مخرجاً، ولهذا السبب ليس له مقبض من الخارج. لكنّه فهم قصد الرجل. "أجل، هذا الباب هو المدخل الوحيد. ما من طريق آخر". فالمدخل الأصلي في القصر قد أغلق منذ سنوات عديدة.

"وهل ثمة مخارج خفية أخرى لحدائق بوبولي غير البوابات التقليدية؟".

"كلّاً سينبوري. الأسوار تحيط بالمكان كلّهُ. هذا هو المخرج السريّ الوحيد".

هز الجندي رأسه قائلاً: "شكراً لمساعدتك". وأشار لإرنيسو لكي يفتح الباب.

أطاع إرنيسو مستغرياً، ثم عاد عبر الممرّ، وفتح الحاجز الفولاذي وعبره، ثم أقفله خلفه، وعاد لمتابعة مباراة كرة القدم.

الفصل 30

استغلّ لانغدون وسيينا الفرصة؛ إذ بينما كان الجندي مقتول العضلات يطرق على الباب، زحفاً إلى منطقة أعمق في المغارة، واختبأ في الغرفة الأخيرة. كانت هذه الغرفة الصغيرة مزينة بالفسيفاء، وتضمّ في وسطها منحوتة بالحجم الطبيعي لفينوس وهو يستحمّ، ويبدو وكأنّه ينظر بتوتّر من فوق كتفه.

كان لانغدون وسيينا مختبئين الآن عند أقصى قاعدة التمثال الضيقة، ينتظران وهما يحنّان إلى الرواسب الكلسية الوحيدة الصاعدة إلى الأعلى على أعماق جدار في المغارة. صاح جندي من مكان ما في الخارج: "كلّ المخارج مغلقة!". كان يتحدث بلغة إنكليزية لم يستطع لانغدون تحديد لكتنتها. "شغلّ الطائرة مجدداً. سأتقدّد هذا الكهف". شعر لانغدون أنّ سيينا تقترب منه.

بعد ثوانٍ، تردّدت خطوات ثقيلة في المغارة. اقتربت بسرعة عبر الغرفة الأولى، وارتفع صداها وهي تتقدّم إلى الغرفة الثانية متوجّهة نحوهما مباشرة. التصق لانغدون وسيينا ببعضهما. صاح صوت آخر من بعيد: "لقد وجدناهما!". توقّفت الخطوات فجأة.

سمع لانغدون شخصاً يركض على الممرّ الحصوي باتجاه المغارة. قال الرجل وهو يلهث: "حدّثنا هويتهما! تحدّثنا للتوّ مع سائحين. منذ دقيقتين، سألهما الرجل والمرأة عن اتجاه صالة الأزياء في القصر... التي تقع في الطرف الغربي من القصر". نظر لانغدون إلى سيينا التي لاحت على وجهها ابتسامة باهتة. النقط الجندي أنفاسه، وتابع قائلاً: "المخارج الغربية هي المخارج الأولى التي أغلقت... وأنا واثق أننا حاصرناهما داخل الحداثق".

قال الجندي الأقرب: "نفذ المهمة، واتّصل بي عند نجاحها". ارتفعت أصوات الخطوات المبتعدة على الحصى، وسمع صوت الطائرة وهي ترتفع مجدداً، ثم عمّ الصمت التام.

كان لانغدون على وشك أن ينهض لاستراق النظر من فوق قاعدة التمثال، لكنّ سيينا أمسكت بذراعه وأوقفته. رفعت إصبعها إلى شفيتها وأومات نحو ظلّ بشري بدا على الجدار الخلفي. كان قائد الجنود ما زال يقف بصمت عند مدخل المغارة.

ماذا ينتظر!؟

قال الجندي فجأة: "أنا برودر، لقد حاصرناهما. سأعطيكم التأكيد قريباً".
كان الرجل يجري اتصالاً هاتفياً، وبدا صوته قريباً على نحو مثير للأعصاب، كما لو أنه يقف بجانبهما تماماً. كانت المغارة تؤدّي دور مكبر للصوت يجمع كل الأصوات ويركّزها في آخر المغارة.

تابع برودر يقول: "لدي المزيد. وصلتني للتوّ أخبار من فريق الطبّ الشرعي. يبدو أنّ شقّة المرأة مستأجرة بعقد فرعي. وهي غير مؤثقة بالكامل، ومن الواضح أنها تعيش فيها لمدة قصيرة. وجدنا الأثوب، لكننا لم نعثر على المسلاط. أكرّر لم نعثر على المسلاط. نظنّ أنّه ما زال بحوزة لانغدون".

شعر لانغدون برعشة عندما سمع الجندي يذكر اسمه.
علا صوت الخطوات، وأدرك أنّ الرجل يتقدّم داخل المغارة. كانت خطواته تقتدّ إلى الحدة التي رافقتها قبل دقائق، ويبدو الآن وكأنّ الرجل يتجول وحسب، ويستكشف المغارة وهو يتحدث على الهاتف.
قال: "صحيح. أكّد المحقّقون أيضاً أنّ اتصالاً واحداً أجري قبل وقت قصير من اقتحامنا للشقّة".

فكّر لانغدون باتصاله بالفضلية الأميركية، وتذكّر حديثه الهاتفي، ووصول المرأة التي حاولت قتله. يبدو أنّ تلك المرأة قد اختفت واستبدلت بفريق كامل من الجنود المدربين.
لا يمكننا الإفلات منهم إلى الأبد.

كان صوت خطوات الجندي على الأرض الصخرية على بعد عشرين خطوة فقط، ويزداد اقتراباً. كان الرجل قد دخل الغرفة الثانية، وإن واصل التقدم حتّى النهاية، فسيعثر عليهما بالتأكيد خلف قاعدة التمثال.

أعلن الرجل فجأة: "سيينا بروكس". ورّنت كلماته بوضوح.
أجفلت سيينا قرب لانغدون، ونظرت إلى الأعلى؛ متوقّعة أن ترى الجندي يحقّق إليها. لكنّها لم تر أحداً.

تابع الصوت الذي بدا على بعد عشر أقدام تقريباً: "إنهم يفحصون حاسبها المحمول الآن. ليس لديّ تقرير بعد، لكنّه بالتأكيد الآلة نفسها التي دخل لانغدون من خلالها حاسبه البريدي التابع لجامعة هارفرد".

عند سماع ذلك، التفتت سيينا إلى لانغدون غير مصدّقة، ونظرت إليه مصدومة... ثمّ ظهرت على وجهها تعابير من تعرّض للخيانة.

صُعق لانغدون أيضاً. أمكذ! تعقّبونا!؟ لم يخطر له ذلك في ذلك الوقت. كنت أحتاج إلى المعلومات وحسب! قبل أن يتمكّن لانغدون من التعبير عن أسفه، أشاحت سيينا بوجهها الذي أصبح جامداً عنه.

قال الجندي الذي وصل إلى مدخل الغرفة الثالثة، وأصبح على بعد ست أقدام فقط من لانغدون وسيينا: "هذا صحيح". خطوتان بعد وسيراهما بالتأكيد.

أعلن قائلاً وهو يقترب خطوة أخرى: "بالضبط". فجأة، توقّف قائلاً: "انتظر لحظة".

جمد لانغدون، وشعر أنّ أمرهما قد افترض.

"انتظر، لم أعد أسمع صوتك". ثمّ تراجع بضعة خطوات إلى الغرفة الثانية. "الاتصال ضعيف..." أصغى للحظة ثمّ أجاب: "أجل، أوافقك. لكننا على الأقلّ أصبحنا نعرف مع من نتعامل". عند ذلك، اختفت خطواته خارج المغارة، ثمّ ابتعدت على الأرض المكسوة بالحصى، واختفى وقعها تماماً.

استرخى لانغدون، ثمّ التفت إلى سيينا التي لمعت عيناها بمزيج من الخوف والغضب. سألتها قائلة: "هل استخدمت حاسوبي لتفقد بريدك؟".

"أنا أسف... اعتقدت أنّك ستفهمين. أردت أن أعرف -".

"لقد وجدونا بسبب ذلك، والآن أصبحوا يعرفون اسمي".

"أنا أعترف سيينا. لم أعرف...".

شعر لانغدون بالذنب.

أشاحت سيينا بنظرها بعيداً، وحققت إلى الرواسب الصاعدة كروية الشكل على الجدار الخلفي. لم يقل أحد منهما شيئاً لدقيقة تقريباً. تساءل لانغدون عما إذا كانت سيينا تذكر الأغراض الموضوعة على مكتبها؛ بما فيها الإعلان لمسرحية حلم ليلة صيف، وقصاصات الصحف عن حياتها كعقيرة صغيرة. هل تشكّ أنّه رآها؟ لم تسأله شيئاً، وعلاقة لانغدون بها مضطربة بما فيه الكفاية أساساً، لذا امتنع عن ذكر الأمر.

كرّرت سيينا بصوت ضعيف بالكاد سمعه لانغدون: "أصبحوا يعرفون من أنا". خلال الدقائق العشر التالية، أخذت سيينا عدّة أنفاس بطيئة كما لو أنها تحاول استيعاب هذا الواقع الجديد. في أثناء ذلك، شعر لانغدون أنّ تصميمها يزداد صلابة.

ومن دون سابق إنذار، نهضت واقفة وقالت: "علينا الذهاب. لن يمضي وقت طويل قبل أن يكتشفوا أنّنا لسنا في صالة الأزياء".

نهض لانغدون أيضاً. "صحيح، لكن إلى أين... سنذهب؟".

"مدينة الفاتيكان".

"عزراً؟".

"فهمت أخيراً ما كنت تعنيه، وما القاسم المشترك بين مدينة الفاتيكان وحدائق بوبولي". وأشارت باتجاه الباب الرمادي الصغير. "هذا هو المدخل، أليس كذلك؟".

هرّ لانغدون رأسه مجيباً: "في الواقع، هذا هو المخرج. لكنني تخيلت أنّنا نستطيع المحاولة. لسوء الحظّ، لن نتمكن من المرور". كان لانغدون قد سمع ما فيه الكفاية من حديث الحارس مع الجندي ليدرك أنّ هذا الباب ليس خياراً مطروحاً للمحاولة.

قالت سيبينا وقد عادت النيرة الماكرة إلى صوتها: "لكن، إن استطعنا المرور، فهل تعرف ما يعنيه ذلك؟". وظهرت ابتسامة على شفثيها. "يعني ذلك أنك حصلت اليوم على المساعدة مرتين من فنان عصر النهضة نفسه".

ضحك لانغدون لأن الفكرة نفسها خطرت له منذ دقائق. فاساري. فاساري. اتسعت ابتسامة سيبينا، وشعر لانغدون أنها سامحته؛ حالياً على الأقل. أعلنت قائلة بنبرة جادة بعض الشيء: "أظنّها إشارة من السماء. علينا عبور ذلك الباب". "حسناً... هل سنمرّ ببساطة من أمام الحارس؟".

طقطقت سيبينا أصابعها، وتوجّهت إلى خارج المغارة. "كلّاً، بل سأحدّث معه". التفتت إلى لانغدون، وقد عاد البريق إلى عينيها. "ثق بي بروفيسور، يمكنني أن أكون مقنعة جداً عندما أريد".

عادت الطرقات على الباب الرمادي الصغير.
كانت حازمة ومتواصلة.

تمتم الحارس إرنستو روستو غاضباً. من الواضح أنّ الجندي الغريب وبارد العينين قد عاد، وفي أسوأ توقّيت ممكن. كانت مباراة كرة القدم المتلفزة تجري في الوقت الإضافي، وكانت الدقائق حاسمة جداً. استمرّت الطرقات.

لم يكن إرنستو غيباً. كان يعرف أنّ ثمة مشاكل هذا الصباح؛ بوجود سيّارات الشرطة والجنود، لكنّه ليس من الأشخاص الذين يتورّطون في مسائل لا تهمّهم مباشرة. مجنون من يحسّر أنفه في شؤون الآخرين.

لكن، من الواضح أنّ الجندي شخص ذو أهميّة، وليس من الحكمة تجاهله على الأرجح. فمن الصعب في هذه الأيام إيجاد وظائف في إيطاليا؛ حتّى لو كانت وظائف ممّلة. هكذا، استرق نظرة أخيرة إلى المباراة، ثمّ توجّه إلى الباب.

ما زال لا يصدّق أنّه يتقاضى راتباً مقابل الجلوس في هذا المكتب الصغير طوال اليوم ومشاهدة التلفاز. وقد يصدف مرتّين في اليوم أن تصل مجموعة من الأشخاص المهمّين بعد زيارة صالة أوفيتزي، فيلقي عليهم إرنستو التحية، ثمّ يفتح الحاجز الفولاذي، ويسمح لهم بالمرور عبر الباب الرمادي الصغير لنتتهي جولتهم في حدائق بوبولي.

الآن، مع تواصل الطرقات وازديادها حدّة، فتح إرنستو الحاجز، وعبره، ثمّ أغلقه وأقفله خلفه.

صاح وهو يسرع نحو الباب: "نعم؟".

إلا أن أحداً لم يجب، بل تواصلت الطرقات.
أخيراً، فتح الباب متوقفاً أن يرى النظرة نفسها الخالية من الحياة التي واجهته قبل لحظات.

لكن الوجه الذي رآه عند الباب كان أكثر جانبية بكثير.
حيته امرأة شابة جميلة بابتسامة لطيفة وقالت: "شاور". ثم أعطته ورقة مطوية، فمدّ يده تلقائياً لأخذها. وفي اللحظة التي أمسك فيها الورقة وأدرك أنها مجرد قطعة من النفايات، أمسكت المرأة رسغه بيديها الرشيقتين وضغطت إبهامها على العظم تحت كفّ يده تماماً.
شعر إرنيسكو وكأن سكيناً قطع رسغه. وتبع ذلك الإحساس خدر كهربائي. اقتربت المرأة منه، وازداد الضغط، فعادت دورة الألم مجدداً. ترتج إلى الخلف محاولاً تحرير رسغه، لكن ساقيه تخذرتا وانهارتا تحته، فركع على ركبتيه.
حدث الباقي في لحظة واحدة.

ظهر رجل يرتدي ملابس داكنة عند الباب، ثم انسل إلى الداخل، وأغلق الباب الرمادي خلفه بسرعة. مدّ إرنيسكو يده إلى جهاز اللاسلكي الذي يحمله، لكن يداً ناعمة ضغطت على عنقه، فتقلصت عضلاته، ولم يعد قادراً على التنفس. أخذت المرأة جهاز اللاسلكي، واقتربت الرجل الطويل الذي بدا أنه لا يقل عن إرنيسكو خوفاً.
قالت الشقراء بنبرة عملية للرجل الطويل: "ليم ماك". إنها نقاط ضغط صينية. ثم سبب وجبه لبقائها منذ ثلاث ألفيات.
راقبها الرجل مدهوشاً.

همست المرأة لإرنيسكو بالإطالية وهي تخفف الضغط عن عنقه: "نحن لا نريد إيذاءك".
في اللحظة التي خفّ فيها الضغط، حاول إرنيسكو التحرر، لكن الضغط عاد فجأة، وتقلصت عضلاته، فشقق من شدة الألم، وعجز تقريباً عن التنفس.
قالت: "نريد المرور". وأشارت إلى الحاجز الفولاذي الذي أغلقه إرنيسكو خلفه لحسن الحظ.
"أين المفتاح؟".

أجاب بصعوبة: "ليس معي".
مرّ الرجل الطويل من أمامهما نحو الحاجز وتفحص آلية عمله، ثم قال للمرأة بلكنة أميركية: "إنه قفل مركّب".

انحنيت المرأة وسألت إرنيسكو بنظرة باردة كالجليد: "ما هو الرقم؟".
أجاب: "أست مخوفاً".

حدث شيء ما عند أعلى عموده الفقري، وشعر بخدر في جسده بأكمله.
بعد قليل، غاب عن الوعي.

عندما استعاد إرنيسـتو وعيه، شعر أنه كان يستيقظ ويغيب عن الوعي تكراراً لعدّة دقائق. تنكّر حديثاً... شكّات من الألم... وربما تمّ جزّه؟ كلّ شيء ضبابي.

عندما استعاد وعيه تماماً، رأى مشهداً غريباً. كان حذاؤه مرمياً قربه على الأرض، ورياطه منزوع. عندئذ أدرك أنه بالكاد يستطيع الحراك. كان ممّدداً على جانبه، ويداه مقيدتان خلفه وكذلك قدماه؛ بريات حذائه كما يبدو. حاول الصراخ، لكنّه لم يستطع. فقد كان فمه محشواً بجاريه. غير أنّ لحظة الخوف الفعلية أتت بعد لحظة عندما نظر إلى الأعلى، ورأى عرضاً لمباراة كرة القدم على تلفاز. أنا في مكثبي... عبرت الحاجز!!

سمع إرنيسـتو خطوات بعيدة تركض في الممر... ليختفي صوتها تماماً بعد قليل. مستحيل! بطريقة ما، قامت المرأة بإقناع إرنيسـتو بفعل الشيء الوحيد الذي وُظف لعدم فعله: كشف الرقم السري لفتح قفل الحاجز المؤدي إلى رواق فاساري الشهير.

الفصل 31

شعرت د. إليزابيث سينسكي بنويات متسارعة من الغثيان والدوار. كانت غارقة في المقعد الخلفي للغان المكون أمام قصر بيتي. وكان الجندي الجالس قريباً يراقبها بقلق متزايد. قبل لحظات، تصاعد صوت من لاسلكي الجندي يذكر شيئاً عن صالة أزياء، فأيقظ إليزابيث من سباتها الذهني الذي سيطرت عليه صورة الوحش ذي العينين الخضراوين. كانت ذكرياتها قد عادت إلى الغرفة المعتمدة في مجلس العلاقات الخارجية في نيويورك، حين راحت تصغي هناك إلى هذيان الغريب الغامض الذي قام باستدعائها. راح الرجل يتنقل في مقدمة الغرفة، وانعكس ظلّه الطويل على الصورة المروعة للأجساد العارية المحتضرة المستلهمة من إنفيرنو دانتي.

استنتج قائلاً: "على أحدنا أن يخوض هذه الحرب، وإلا فسيكون هذا مستقبلنا. فعلم الرياضيات يضمن ذلك. يحوم الجنس البشري الآن في مطهر تسوده المماثلة والتردد، والطمع الشخصي... لكن حلقات الجحيم تنتظر تحت أقدامنا لالتهامنا جميعاً".

كانت إليزابيث ما زالت مصعوقة من الأفكار الوحشية التي طرحها الرجل. ولم تعد قادرة على الاحتمال، فقفزت واقفة. "ما تقترحه هو -".

قاطعها قائلاً: "الخيار الوحيد المتبقي لدينا".

أجابت: "في الواقع، كنت أقصد القول إنه إجرامي!".

رفع الرجل كتفيه. "الطريق إلى الجنة يمر مباشرة عبر الجحيم. هذا ما علمنا إياه دانتي. أنت مجنون!".

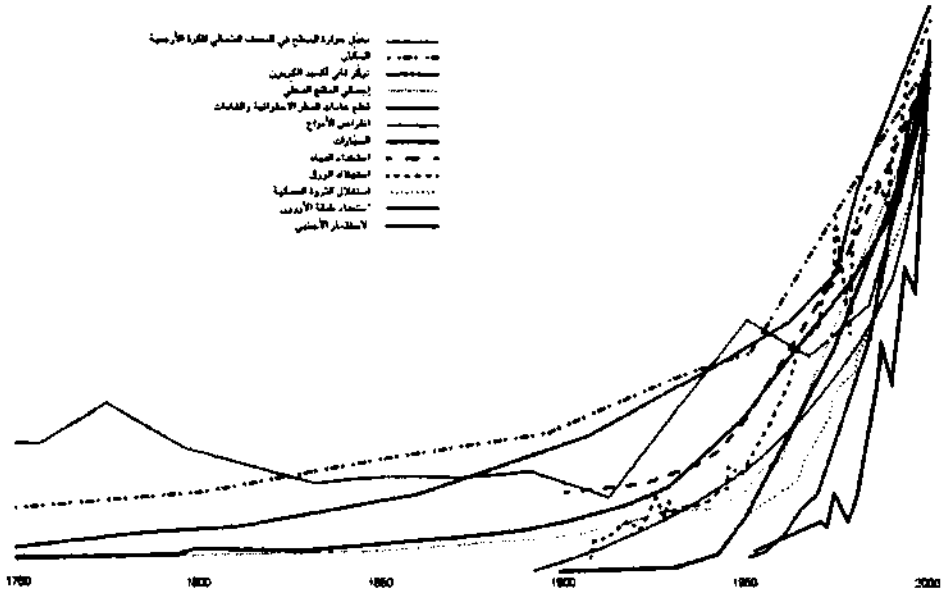
كرّر الرجل: "مجنون؟!". وبدا عليه الشعور بالإهانة. "أنا؟! لا أظن ذلك. الجنون هو منظمة الصحة العالمية التي تحذق إلى الهاوية وتكرر وجودها. الجنون هو النعامة التي تغرز رأسها في الرمل بينما تطوقها مجموعة من الضباع".

قبل أن تتمكن إليزابيث من الدفاع عن منظمتها، غير الرجل الصورة الظاهرة على الشاشة. قال مشيراً إلى الصورة الجديدة: "وبالحديث عن الضباع، هذه مجموعة من الضباع التي تطوق حالياً الجنس البشري... وهي تقترب بسرعة".

فوجئت إليزابيث برؤية تلك الصورة المألوفة. كانت عبارة عن مخطط نشرته المنظمة في العام الماضي، يحدد المشاكل البيئية الأساسية التي ترى المنظمة أن لها التأثير الأعظم على الصحة العالمية.

تضمّنت اللائحة:

الطلب على الماء العذب، حرارة السطح عالمياً، نفاد طبقة الأوزون، استهلاك موارد البحار، انقراض الأنواع، تركّز ثاني أكسيد الكربون، قطع الأشجار، وتبدّل مستويات البحار. كانت جميع هذه المؤشرات السلبية ترتفع خلال القرن الماضي. غير أنّها الآن تعلو بوتيرة متسارعة ومخيفة.



كان ردّ فعل إليزابيث هو نفسه كلّما رأت هذا المخطّط؛ الإحساس بالعجز. فهي عالمة، وتعتقد بفاعلية الإحصائيات، وهذا المخطّط رسم صورة مخيفة ليس للمستقبل البعيد فحسب، بل لمستقبل قريب جداً.

لسنوات عديدة، ظلّ العجز عن الإنجاب يلاحق إليزابيث سينسكي. لكن، عندما ترى هذا المخطّط، تشعر بالراحة لأنّها لم تتجب طفلاً إلى هذا العالم. *أهذا هو المستقبل الذي سأهديه لطفلي؟*

أعلن الرجل قائلاً: "خلال السنوات الخمسين الأخيرة، ارتفعت خطايانا بحق أمتنا الطبيعة ارتفاعاً أسياً". صمت هنيهة ثمّ أضاف: "وأنا أخشى على الجنس البشري. عندما نشرت منظّمة الصحة العالمية هذا المخطّط، عقد سياسيو العالم وسماصرة السلطة وعلماء البيئة اجتماعات قّة عاجلة، حاولوا فيها تقييم المشاكل الأكثر خطورة التي يمكننا أن نتأمّل في حلّها. والنتيجة؟ وضعوا رؤوسهم بين أيديهم وكوا سرّاً. أمّا علناً، فأكدوا لنا أنّهم يعملون على إيجاد حلول، إلّا أنّ هذه المسائل معقّدة".

"هذه المسائل معقّدة فعلاً!".

انفجر الرجل قائلاً: "هراء! أنت تعرفين جيداً أن هذا المخطط يصور أبسط العلاقات؛ وظيفة قائمة على متغير واحد! فكل خطأ في هذا الرسم يصعد بتناسب مباشر مع قيمة واحدة؛ قيمة يخشى الجميع مناقشتها. سكان العالم!".
"في الواقع، أعتقد أنه أكثر -".

"أكثر تعقيداً؟ في الواقع، ليس كذلك! ما من شيء أبسط. إن كنت تريدان مزيداً من الماء العذب لكل نسمة فأنت بحاجة إلى عدد أقل من البشر على سطح الأرض. وإن كنت تريدان خفض انبعاثات السيارات، فأنت إذاً بحاجة إلى عدد أقل من السائقين. أما إن كنت تريدان أن تستعيد المحيطات ثروتها السمكية، إذاً يجب أن يكون الناس الذين يتناولون السمك أقل عدداً!".

حدّق إليها وأصبحت نبرته أكثر شراسة. "افتحي عينيك! نحن على شفير انتهاء البشرية، في حين يجلس قادة العالم في غرف الاجتماعات ويطلبون إجراء دراسات حول الطاقة الشمسية، وإعادة تدوير النفايات، والسيارات الهجينة! كيف يعقل ألا تري/أنت ذلك رغم كونك عالمة وذات ثقافة عالية؟ استفاد طبقة الأوزون، وقلة المياه، والتلوث ليست المرض، بل الأعراض. المرض هو الانفجار السكاني. وما لم نواجه هذه المشكلة مباشرة، فإننا نكتفي بوضع شريط لاصق على ورم سرطاني سريع النمو".

سألته إليزابيث: "أنت تعتبر الجنس البشري ورماً سرطانياً؟".
"ليس السرطان سوى خلية سليمة تبدأ بالتكاثر على نحو خارج عن السيطرة. أنا أفهم أنك تجدان أفكاراً بغیضة، لكنني أؤكد لك أن البديل سيكون أقطع عندما نصل إليه؛ إن لم نتخذ تدبيراً جريئاً، إذاً -".

قالت باسمئزاز: "جريء؟! ليست هذه هي الكلمة المناسبة، بل إنها بالأحرى جنوني!".
قال الرجل بصوت هادئ على نحو غريب: "د. سينسكي، استدعيتك إلى هنا خصيصاً لأنني كنت أمل أن تكوني على استعداد - بصفقتك صوتاً عاقلاً في منظّمة الصحة العالمية - للتعاون معي والبحث عن حلّ ممكن".

حدّقت إليه إليزابيث بذهول. "أتظن أن المنظّمة ستعاون معك... لبحث فكرة كهذه؟".
قال: "في الواقع، أجل. فمنظمتكم مؤلفة من أطباء، والأطباء لا يتورعون عن قطع ساق المريض المصاب بالغرغرينا لإنقاذ حياته. ففي بعض الأحيان، يكون الحلّ الوحيد هو أحلى الأمرين".

"لكن هذا مختلف تماماً".

"كلاً، بل إنه مشابه. الفرق الوحيد هو النطاق".
كانت إليزابيث قد سمعت ما فيه الكفاية. لذا، وقفت فجأة وقالت: "عليّ اللحاق بطائرتي".
قام الرجل الطويل بخطوة تهديدية باتجاهها، معيقاً طريقها. "هذا تحذير. بتعاونك أو من نونه، يمكنني استكشاف هذه الفكرة بسهولة".

رَبَّتْ عَلَيْهِ: "وهذا تحذير مِنِّي: أنا أعتبر هذه الفكرة تهديداً إرهابياً وسأعامل معها على هذا الأساس". تناولت هاتفها.

ضحك الرجل قائلاً: "هل ستبلغين عَنِّي لأنني تحدّثت بفرضيات؟ لسوء الحظ، عليك تأجيل اتصالك. فهذه الغرفة محصّنة إلكترونياً. لن تجدي أي إشارة في هاتفك".

لا أحتاج إلى إشارة أيها المجنون. رفعت إليزابيث هاتفها، وقبل أن يدرك الرجل ما يجري، التقطت صورة لوجهه. انعكس الوميض على عينيهِ الخضراوين، وشعرت للحظة أَنَّ وجهه مألوف.

قالت: "كأننا من تكون، فقد أخطأت بإحضاري إلى هنا. ما إن أصل إلى المطار حتّى أكون قد اكتشفت هويتك، وستكون على لائحة المراقبة في منظمة الصحة العالمية، ومركز مكافحة الأمراض، والمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها؛ كإرهابي بيولوجي محتمل. ستكون أعيننا عليك ليل نهار. وإن حاولت شراء أي مواد، فسنعرف ذلك. وإن بنيت مختبراً، فسنعرف به أيضاً. لا يمكنك الاختباء في أي مكان".

وقف الرجل مطوّلاً بصمت مشوب بالتوتر، وكأنه على وشك الانقضاض على هاتفها. أخيراً، استرخى وخطا جانباً بعد أن رسم على وجهه ابتسامة مخيفة. ثم قال: "إذا، يبدو أَنَّ رقصتنا قد بدأت".

الفصل 32

إيل كوريدويو فاساريانو، أو رواق فاساري رواق صممه جورجيو فاساري عام 1564 بأمر من الحاكم الميديشي، النوق الأكبر كوزيمو الأول، وذلك لتأمين ممَر آمن من مكان سكنه في قصر بيتي إلى مكتبه الإداري، عبر نهر أرنو، في قصر فيكيو.

على غرار ممَر "باسيتو" في مدينة الفاتيكان، كان رواق فاساري هو الممر السري الجوهري. فهو يمتد على مسافة كيلومتر كامل تقريباً من الزاوية الشرقية لحدائق بوبولي إلى قلب القصر القديم نفسه، ويعبر جسر فيكيو مروراً بصالة أوفيتزي بينهما.

اليوم، ما زال رواق فاساري يُستعمل كجَنَّة آمنة، ليس لأرستقراطي أسرة ميديشي بل للتحف الفنية. فنظراً إلى طول امتداد مساحة الجدران الآمنة، شكل الرواق مخبأً للوحات فنية نادرة لا تعد ولا تحصى، فاضت عن صالة أوفيتزي الشهيرة التي يمر الرواق عبرها.

كان لانغدون قد عبر هذا الممر قبل بضع سنوات ضمن جولة خاصة. عصر ذلك اليوم، توقّف لتأمل المجموعة المذهلة من اللوحات، بما في ذلك أكبر مجموعة من البورتريهات الذاتية في العالم. كما توقّف عدّة مرّات ليطلّ من الأبواب المتفرقة في الرواق، التي تسمح للمارين عبره بتتبع تقدّمهم عبر ذلك الممر المرتفع.

لكن، هذا الصباح، عبر لانغدون وسيينّا الرواق عدواً، بهدف الابتعاد عن مطاردتهم قدر الإمكان. تساءل لانغدون: كم سيستغرق اكتشاف أمر الحارس المقيّد؟ وكلّما تقدّم أكثر، شعر أنهما يزدادان قرباً ممّا يبحثان عنه.

Cerca trova ... عينا الموت ... وهوية من يلاحقني.

أصبح هدير طائرة المراقبة بعيداً عنهما الآن. كلّما تقدّم في النفق، تذكر لانغدون كم شكّل هذا الممر إنجازاً معمارياً طموحاً. كان رواق فاساري، الذي يرتفع فوق المدينة ويمتد بطولها تقريباً، أشبه بثعبان عريض يتلوّى عبر الأبنية، من قصر بيتي، عبر نهر أرنو، إلى قلب فلورنسا القديمة. يبدو الممر الضيق المطلّي باللون الأبيض وكأنّه يمتد إلى ما لا نهاية، وينعطف أحياناً إلى اليمين أو اليسار لتجنّب عائق، لكنّه يتقدّم دائماً نحو الشرق ... فوق نهر أرنو.

تردّدت فجأة أصوات في الرواق، فتوقّفت سيينّا. توقّف لانغدون أيضاً، ووضع يده على كتفها لتهديتها، ثم أشار إلى نوافذ قريبة.

السيّاح في الأسفل.

اقترب لانغدون وسيبنا من النافذة، وأدركا أنهما فوق جسر فيكيو حالياً، ذلك الجسر الحجري الذي يرجع إلى القرون الوسطى، والذي يشكّل ممراً للمشاة لدخول المدينة القديمة. تحتكما، كان السيّاح الأوائل لذلك اليوم يستمتعون بالسوق التي تقام على الجسر منذ القرن الخامس عشر. معظم الباعة اليوم من تجّار الذهب والمجوهرات، لكن لم يكن الحال كذلك دائماً. ففي الأساس، شكّل الجسر مكاناً لسوق اللحوم الكبيرة التي تقام في الهواء الطلق، لكن تمّ منع الجزّارين من بيع اللحوم على الجسر عام 1593؛ بعدما تسلّلت رائحة اللحم الفاسد عبر رواق فاساري، وهاجمت أنف الدوق الأكبر الحساس.

يذكر لانغدون أنّ هذا الجسر شهد أيضاً أبشع جرائم فلورنسا. ففي عام 1216، رفض شابّ نبيل يدعى بونديلمونتي زواجا تمّ تربيته من قبل أسرته لأنّه يرغب في الزواج ممّن يُحبّها فعلاً. وبسبب هذا القرار، قُتل بوحشية على هذا الجسر.

اعتُبر موته لمدة طويلة "الجريمة الأكثر دموية في فلورنسا"؛ لأنّها سبّبت نزاعاً بين فصيلتين سياسيتين قويتين - هما غيلف وغيبيلين - شتتاً حرباً ضروساً ضدّ بعضهما لقرون من الزمن. وبما أنّ الخلاف السياسي الذي نتج عن ذلك أدّى إلى نفي دانتي من فلورنسا، خُذ الشاعر بمرارة ذلك الحدث في الكوميديا الإلهية: يا بونديلمونتي، بسبب مشورة آخرين، نكثت بعهد الزواج، وجبررت علينا هذه الويلات!

حتّى هذا اليوم، يمكن إيجاد ثلاث لوحات منفصلة بالقرب من موقع الجريمة، تذكر كلّ منها بيتاً من النشيد 16 في *بارانزيو* دانتي. تقع إحداها عند مدخل جسر فيكيو، وتحتوي على العبارة المشوومة التالية:

لكنّ فلورنسا، في سلامها الأخير،
كان مقدراً لها أن تقدّم ضحية على ذلك الحجر المشوّه،
تكون حارساً لجسرها...

حوّل لانغدون نظره من الجسر إلى المياه الداكنة التي يمتدّ فوقها. شرقاً، بدا البرج الوحيد لقصر فيكيو.

ومع أنّ لانغدون وسيبنا لم يقطعا سوى نصف الطريق عبر نهر آرنو، إلّا أنّه لم يكن لديه أدنى شكّ في أنهما قد تجاوزا منذ وقت طويل نقطة اللاعودة.

على بعد ثلاثين قدماً في الأسفل، فوق جسر فيكيو المرصوف بالحصى، راحت فابينا تتفحص حشود الوافدين، من دون أن تتخيّل إطلاقاً أنّ فرصة نجاتها الوحيدة مرّت للتوّ من فوق رأسها.

الفصل 33

في أعماق الميند/سيوم، جلس الفتي نولتون وحده في حجرته وحاول عبثاً التركيز على عمله. بعدما استبدّ به الذعر، عاد لمشاهدة شريط الفيديو، وأمضى الساعة الأخيرة وهو يحلّل ذلك الشريط الذي يستغرق عرضه تسع دقائق والذي تراوح بين العبقرية والجنون.

سرّع نولتون الشريط من البداية؛ بحثاً عن أيّ تفصيل ربما يكون قد فاتّه. تجاوز اللوحة المغمورة بالمياه... والكيس المعلق المليء بالسائل البني المائل إلى الاصفرار... ووصل إلى اللحظة التي ظهر فيها الظلّ بأنفه الشبيه بالمنقار؛ ذلك الشكل المشوه المنعكس على جدار كهف تقطر منه المياه... ينيره وهج أحمر خفيف.

أصغى نولتون إلى الصوت المكتوم، وحاول أن يفكّك شيفرة تلك اللغة المعقّدة. في منتصف الحديث تقريباً، أصبح الظلّ أكبر حجماً فجأة، وارتفع صوت المياه.

جسيم دانتي ليس خيالياً... إنه توقّع!
بؤس وتعاسة. ويلات وعذاب. هذا هو مشهد الغد.
إن لم تتم السيطرة على الجنس البشري، فإنّه سيصبح مثل طاعون، أو سرطان... ستتعاظم أعدادنا مع كلّ جيل إلى أن تختفي وسائل الراحة الدنيوية التي كانت تغذيّ فينا الفضيلة والأخوة... لتكشف القناع عن الوحوش التي تعيش في داخلنا... فنحارب حتّى الموت لإطعام صغارنا.
هذا هو جسيم دانتي بحلقاته التسع.
هذا ما ينتظرنا.
مع انقضاء المستقبل علينا، تغذّيه رياضيات مالتوس القاسية، فإنّنا نترنّج فوق الحلقة الأولى من الجسيم، ونستعدّ للغوص فيها أسرع ممّا تخيلنا يوماً.

أوقف نولتون الفيديو. رياضيات مالتوس؟ أجرى بحثاً سريعاً على الإنترنت وتوصّل إلى معلومات عن رياضي وديموغرافي إنكليزي بارز من القرن التاسع عشر يدعى توماس روبرت مالتوس، اشتهر بتوقّعه انهياراً عالمياً بسبب الانفجار السكاني.

كانت النبذة عن حياة مالتوس تتضمن مقتطفاً من كتابه رسالة عن مبدأ السكّان أثار قلق

نولتون:

إنّ القوة السكّانية تفوق بكثير قوّة الأرض على إنتاج الغذاء للإنسان حيث ينبغي للموت المبكر أن يزور الجنس البشري بشكل أو بآخر. فردائل الجنس البشري وسائل ناشطة وفاعلة لخفض عدد السكّان. إنها النذير في جيش الدمار العظيم، وغالباً ما تنهي العمل المروّع بنفسها. لكن في حال فشلها في حرب الإبادة هذه، تتقدّم الأمراض الموسمية والأوبئة والطاعون بمستويات مخيفة، وتمسح الآلاف وعشرات الآلاف. وفي حال بقي النجاح منقوصاً، تأتي المجاعة المحتومة التي تحلّ مؤخّر الجيش، وتسوّي بضرية واحدة قوية أعداد السكّان مع كمّية الغذاء المتوفّرة في العالم.

نظر نولتون مجدّداً إلى صورة الظلّ بأنفه المعقوف، وكان قلبه ينبض بقوة. *إن لم تتم السيطرة على الجنس البشري، فإنّه سيصبح مثل سرطان.*
إن لم تتم السيطرة على الجنس البشري. لم تُعجب هذه العبارة نولتون.
شغل الفيديو مجدّداً بتردد.
تابع الصوت المكتوم.

إن جلسنا مكتوفي الأيدي فإنّنا نرّحب بجحيم دانتي... منكمشين، ومتضوّرين جوعاً، ومتخبّطين في الخطيئة.
لذلك، تحرّكت بجرأة.
سينتفض البعوض مذعوراً، لكنّ الخلاص لا يأتي من دون ثمن.
يوماً ما، سيفهم العالم قيمةّ نصحيتي.
فأنا خلاصكم.
أنا الظلّ.
أنا بآبكم إلى عصر ما بعد الإنسانية.

الفصل 34

يشبه قصر فيكيو قطعة شطرنج عملاقة. يمتاز المبنى الضخم الذي يشبه طائر الغداف بموقع ذكي، مع واجهة مرتبة وشرفات ذات فرجات بنمط ريفي، حيث يحرس الزاوية الجنوبية الشرقية لبياتزا ديلا سينيوريا.

يرتفع برج المبنى الوحيد من الوسط، من قلب القلعة المرتبة، مضيفاً عليها شكلاً مميزاً. وقد أصبح رمزاً فريداً لفلورنسا.

تمّ بناء القصر كمقرّ للحكومة الإيطالية، وهو يفرض على زائريه مجموعة مهيبّة من التماثيل الذكورية. يقف تماثيل نبتون بعضلاته المفتولة للنحات أماناتي عارياً فوق أربع أفراس بحر؛ رمزاً لهيمنة فلورنسا على البحر. وتقف نسخة لتمثال داوود لمايكل أنجلو - الذي يعدّ واحداً من أجمل التماثيل للشخصيات العارية في العالم - بكلّ مجده عند مدخل القصر. ينضمّ إلى تماثيل داوود تماثيلان لهرقل وكاكوس، وهما تماثيلان ذكوريان أكثر ضخامة. ومع التماثيل المرافقة لتمثال نبتون، يصبح مجموع التماثيل للشخصيات العارية التي تستقبل زوّار القصر أكثر من عشرة.

عادة، كانت زيارات لانغدون إلى قصر فيكيو تبدأ هنا في ساحة سينيوريا، التي كانت دائماً - على الرغم من كثرة تماثيل العراة الذكور - ساحته المفضّلة في أنحاء أوروبا كافة. ولا تُعتبر زيارة الساحة كاملةً من دون ارتشاف فنان إسبريسو في كافيه ريفوار، تتبع ذلك زيارة لأسود ميديتشي في لودجيا داي لانتزي، وهو معرض منحوتات موجود في الساحة في الهواء الطلق.

أمّا اليوم، فيخطّط لانغدون ورفيقتة لدخول قصر فيكيو عبر رواق فاساري، كما كان دوقات أسرة ميديتشي يفعلون في أيامهم؛ متجاوزين صالة أوفيتزي الشهيرة عبر الرواق الذي يمرّ فوق الجسور والطرقات والمباني ليؤدّي مباشرة إلى قلب القصر القديم. حتّى تلك اللحظة، لم يسمعا أيّ خطوات خلفهما، لكنّ لانغدون ما زال متلهّفاً للخروج من الرواق.

ها قد وصلنا. أدرك لانغدون ذلك وهو يرمق الباب الخشبي الثقيل أمامهما. هذا مدخل القصر القديم.

مع أنّ الباب يضمّ قفلاً ألياً هاماً، إلّا أنّه مجهّز بعارضة دفع أفقية توفّر مخرجاً طارئاً، وتمنّع في الوقت نفسه دخول أيّ شخص من الجهة الأخرى من الرواق من دون مفتاح. وضع لانغدون أذنه على الباب وأصغى. لم يسمع شيئاً من الجانب الآخر، فوضع يديه على العارضة ودفعها بلطف.

سُمِعَتْ مَلَقَطَةُ الْقفل.

عندما فُتِحَ الباب الخشبي بضعة إنشآت، استرق لانغدون النظر عبره، فوجد مُخْتَلَى صغيراً وخالياً وهادئاً.

تنفّس لانغدون الصعداء، ودخل مشيراً إلى سبيّنّا لتتبعه.
لقد دخلنا.

وقف لانغدون وسبيّنّا في المُخْتَلَى الهادئ؛ في مكان ما داخل قصر فيكيو، وانتظر لانغدون للحظة محاولاً تحديد موقعه. امتدّ أمامهما ممَرٌ طويل يشكّل زاوية مستقيمة مع المُخْتَلَى. إلى اليسار، على مسافة منهما، تردّدت أصوات في الرواق، وكانت هادئة ومرحة. كان قصر فيكيو - شأنه شأن مبنى الكابيتول في الولايات المتّحدة - موقعاً سياحياً ومكتباً حكومياً في الوقت نفسه. في تلك الساعة، لا بدّ أنّ الأصوات المتناهية إليهما هي أصوات الموظّفين المدنيين الذين يدخلون ويخرجون من المكاتب استعداداً لذلك اليوم.

تقدّم لانغدون وسبيّنّا في الممرّ ببطء، واسترقّا النظر عند الزاوية. وجدا في آخر الممرّ حجرة وقف فيها حوالي عشرة موظّفين حكوميين يرتشفون الإسبريسو الصباحي ويتجاذبون أطراف الحديث قبل الشروع في العمل.

همست سبيّنّا: "قلت إنّ جدارية فاساري موجودة في قاعة الخمسمائة، أليس كذلك؟".
أوما لانغدون بالإيجاب، وأشار إلى باب خلف الحشد يفتح على ممَرٍ حجري. "لسوء الحظّ، علينا المرور عبر تلك الحجرة".
"هل أنت واثق؟".

هزّ لانغدون رأسه. "لا يمكننا المرور خفية".
"إنّهم موظّفون حكوميون، لن يهتمّوا بنا. ما عليك سوى أن تمشي وكأنّك تنتمي إلى هذا المكان".

مدّت سبيّنّا يديها وسوّت بلطف سترة لانغدون وياقته. "أنت تبدو أنيقاً جداً روبرت". ثم ابتسمت وسوّت قميصها، وانطلقت.

أسرع لانغدون خلفها، وسارا باتّجاه الحجرة. عندما دخلا، بدأت سبيّنّا تتحدّث بإيطالية سريعة عن المزارع وتحرك يديها بشغف وهي تتكلّم. سارا بجانب الجدار الخارجي، على مسافة من الآخرين. ودُهِش لانغدون حين لاحظ أنّ أيّاً من الموظّفين لم يعرهما انتباهاً.
عندما عبرا الحجرة، أسرعاً باتّجاه الممرّ. تذكر لانغدون إعلان شكسبير، بوك الشزير، فهمس قائلاً: "أنت ممثلة بارعة".

أجابت تلقائياً بصوت بدا بعيداً على نحو غريب: "كان عليّ ذلك".
شعر لانغدون مجدداً أنّ هذه الشابة عانت في ماضيها أكثر ممّا يعرف؛ وهذا ما ولّد لديه إحساساً عميقاً بالذنب لأنّه ورّطها في هذا المأزق الخطير. غير أنّه نكّر نفسه أنّه لم يعد يستطيع فعل شيء الآن؛ باستثناء الخروج منه.

واصل السباحة عبر النفق... وادّغ لرؤية الضوء.

مع اقترابهما من الباب المقصود، شعر لانغدون بالارتياح لأن ذاكرته خدمته جيداً. إذ وصل إلى لافتة صغيرة تحمل سهماً يشير عند الزاوية إلى الممر مع عبارة *إيل صالوني داي شينكوينتو*، أي قاعة الخمسمائة. تساءل لانغدون عن الإجابات التي تنتظره في الداخل. لا يمكن لمح الحقيقة إلا عبر عيون الموت. ما معنى ذلك يا ترى؟

عندما اقتربا من الزاوية، حذرهما لانغدون قائلاً: "ربما كانت الغرفة لا تزال مغلقة". فرغم أن قاعة الخمسمائة وجهة سياحية شعبية، إلا أن القصر لم يبدُ مفتوحاً للسياح بعد في هذا الوقت من الصباح.

سألته سيبينا وهي تتوقّف فجأة: "هل سمعت ذلك؟".

كان لانغدون قد سمع الصوت؛ هديراً عالياً أتياً من وراء الزاوية. لا تقولي لي إنها طائفة مراقبة داخلية. استرق لانغدون النظر بحذر من زاوية الباب. على بعد ثلاثين ياردة، رأى الباب الخشبي البسيط جداً الذي يشكّل مدخل قاعة الخمسمائة. لسوء الحظ، وقف أمام الباب مباشرة حارس يدفع آلة كهربائية لصقل الأرض بحركة دائرية حذرة.

حارس الباب.

تحوّل انتباه لانغدون إلى الرموز الثلاثة الظاهرة على لافتة بلاستيكية خارج الباب. كانت الرموز معروفة لأقل علماء الرموز خبرة. فهي صور عالمية لكاميرا فيديو رُسمت عليها إشارة X، وكوب رُسمت عليه إشارة X، وشكلين أحدهما أنثوي والآخر ذكوري. تولّى لانغدون المسألة، فتقدّم نحو الحارس، وبدأ يهرول وهو يقترب. ثم أسرعت سيبينا خلفه.

نظر إليهما الحارس وبدت عليه الدهشة. "سينيوري؟!". ورفع يديه مشيراً إلى لانغدون وسيبينا بالتوقّف.

ابتسم لانغدون للرجل ابتسامة مشوية بالألم، وأقرب إلى الغمزة، وأشار معتذراً إلى الرمز عند الباب. ثم أعلن قائلاً: "توبليتي"، مع أنة في صوته. لم يكن ذلك سؤالاً. تردّد الحارس للحظة، وبدا على وشك رفض طلبهما، لكنه عندما رأى لانغدون يقف أمامه منزعجاً، هزّ رأسه متعاطفاً معه وسمح لهما بالمرور.

عندما وصلا إلى الباب، نظر لانغدون إلى سيبينا وغمزها قائلاً: "التعاطف لغة عالمية".

الفصل 35

في وقت من الأوقات، كانت قاعة الخمسمائة أكبر قاعة في العالم. فقد بنيت عام 1494 لتكون قاعة اجتماع للمجلس الأكبر للجمهورية، كونسيوليو مادجوري، المؤلف من خمسمائة عضو، ومنه استمدت اسمها. بعد بضع سنوات، وبأمر من كوزيمو الأول، تم تجديد القاعة وتوسيعها بشكل كبير. واختار كوزيمو الأول - الذي كان الرجل الأوسع نفوذاً في إيطاليا - جورجيو فاساري العظيم ليكون المهندس والمشرف على المشروع.

قام فاساري بإنجاز هندسي استثنائي. فرفع السقف الأصلي إلى حد كبير، وسمح للضوء الطبيعي بدخول القاعة من خلال نوافذ عالية موزعة على الجوانب الأربعة للغرفة؛ حيث تحول المكان إلى صالة عرض أنيقة لبعض أجمل التحف في فلورنسا في مجال الهندسة المعمارية، والنحت، والرسم.

بالنسبة إلى لانغدون، كانت أرض هذه القاعة دائماً أول ما يلتفت نظره؛ لأنها تظهر على الفور أن هذا المكان ليس عادياً. فالبلاط القرمزي ذو الأطراف السوداء أضفى على تلك المساحة الممتدة على اثني عشر ألف قدم مربعة متانة، وعمقا، وتوازناً.

نظر لانغدون إلى الطرف الآخر من القاعة ببطء. هناك اصطفت أمام الجدار ست منحوتات تمثل كفارات هرقل، كما لو كانت كتيبة من الجنود. تجاهل لانغدون عمداً تمثالي هرقل وديوميديس اللذين يتشابك جسداهما العاريان في مباراة مصارعة غريبة، لطالما سببت القشعريرة للانغدون.

كان تمثال مايكل أنجلو الذي يخطف الأنفاس، عبقرى النصر، مريحاً أكثر للبصر، وكان يقع إلى اليمين، ويهيمن على الكوة المركزية للجدار الجنوبي. كانت تلك المنحوتة التي يبلغ طولها تسع أقدام تقريباً مخصصة لقبر البابا يوليوس الثاني المفرط في التحفظ، والملقب بالبابا الريب. لطالما سخر لانغدون من هذا الأمر، نظراً لموقف الفاتيكاني من الشذوذ الجنسي. إذ يصور التمثال توماسو داي كافاليري، الشاب الذي أغرم به مايكل أنجلو معظم سنوات حياته، وألف من أجله أكثر من ثلاثمائة قصيدة.

همست سبيناً بصوت هادئ: "لا أصدق أنني لم آتِ إلى هذا المكان مطلقاً. كم هو... جميل".

هرّ لانغدون رأسه، وتذكر زيارته الأولى إلى هذا المكان، بمناسبة حفل موسيقي كبير للموسيقى الكلاسيكية ضمّ عازفة البيانو المشهورة مارييل كايميل. فرغم أن هذه القاعة الكبيرة

كانت مخصصة في الأصل للاجتماعات السياسية الخاصة مع الدوق الأكبر، إلا أنها تحتضن الآن الموسيقيين والمحاضرين المشهورين وحفلات العشاء؛ من المؤرخ الفني ماوريسيو سيراتشيني إلى متحف غوتشي. في بعض الأحيان، يتساءل لانغدون عما كان كوزيمو الأول سيشعر به حيال مشاركة قاعته الخاصة الصارمة مع الرؤساء التنفيذيين وعارضات الأزياء.

نظر لانغدون إلى اللوحات الضخمة التي تزين الجدران. تضمن تاريخها الغريب تقنية رسم تجريبية فاشلة لليوناردو دي فينشي، أدت إلى "تحفة ذاتية". كما شهدت القاعة أيضاً مباراة فنية أشرف عليها ببيرو سوديريني وماكيا فيلي اللذان حرّضا عمالّين من عمالقة عصر النهضة هما مايكل أنجلو وليوناردو ضدّ بعضهما، وطلبا منهما رسم جداريات على حائطين متقابلين في القاعة نفسها.

لكن اليوم، كان لانغدون أكثر اهتماماً بتحفة تاريخية واحدة في القاعة.

Cerca trova

سألته سيبباً وهي تتأمل الجدران: "أيّ منها لفاساري؟".

أجاب لانغدون: "كلّها تقريباً". فقد كان يعرف أنّ فاساري ومساعديه قاموا - خلال أعمال تجديد القاعة - بإعادة رسم كلّ ما فيها، من جداريات الجدران الأصلية، إلى الألواح التسعة والثلاثين التي تزين السقف "المعلق" الشهير.

لكنّ لانغدون أشار إلى جدارية إلى أقصى اليمين قائلاً: "لكن، تلك هي ما أتينا من أجله؛ معركة مارتشانو".

كانت المواجهة العسكرية هائلة حتماً، إذ امتدّت اللوحة على مساحة بطول خمسي وخمسين قدماً وارتفاع يتجاوز ارتفاع ثلاثة طوابق. طغت عليها ظلال مائلة إلى الاحمرار من البني والأخضر، وكانت عبارة عن مشهد عنيف يظهر فيه الجنود المتقاتلون، والأحصنة، والرماح، والرايات التي تتصادم على سفح تلّ.

همست سيبباً: "فاساري، فاساري. في مكان ما هناك تخبئ رسالته السرية؟".

هرّ لانغدون رأسه وهو يُمعن النظر إلى الجزء العلوي من الجدارية الضخمة؛ محاولاً تحديد مكان العلم الأخضر الذي كتب عليه فاساري رسالته الغامضة؛ *cerca trova*. قال لانغدون مشيراً إلى تلك المنطقة: "يستحيل تقريباً رؤيتها من هنا من دون منظار، لكن في وسط الجزء العلوي، إن نظرت تحت المزرعتين تماماً على سفح التلّ، ثمة علم صغير أخضر و -".

قالت سيبباً: "رأيتة!". وهي تشير إلى الجزء العلوي الأيمن، في المكان المقصود تماماً.

تمنّى لانغدون لو أنّه يملك عينين أكثر شباباً.

اقترب الاثنان من الجدارية الشاهقة، وراح لانغدون يحقّق إليها بكلّ مجدها. ها قد وصلا أخيراً إلى هنا، لكنّ المشكلة الوحيدة الآن هي أنّ لانغدون ليس واثقاً من سبب وجودهما في هذا المكان. وقف بصمت لدقائق طويلة، محدّقاً إلى تفاصيل تحفة فاساري.

إن فشلت... فمسيرنا الموت.

قالت سيبينا: "روبرت، ليس لدينا الكثير من الوقت. عليك أن تفكر. هل تذكر اللوحة
بشيء؟ هل تحرك فيك أي ذكريات على الإطلاق؟".

تأمل لانغدون مشهد الحرب الفوضوي.

لا يمكن لمع الحقيقة إلا عبر عيون الموت.

اعتقد لانغدون أن الجدارية تتضمن ربما جثة تحقّق بعينها الميتين إلى إشارة أخرى في
اللوحة... أو حتى إلى مكان آخر في القاعة. لكن، لسوء الحظ، رأى لانغدون عشرات الجثث
في الجدارية، ولم تكن أي منها جديرة بالاهتمام أو توجّه نظرها نحو شيء معين.

لا يمكن لمع الحقيقة إلا عبر عيون الموت؟

حاول أن يتخيّل خطوطاً تربط جثة بأخرى، وتساءل عما إذا كان شكل معين سيظهر من
ذلك. لكن، لا شيء إطلاقاً.

راح رأس لانغدون يعصف مجدداً وهو يفتش في أعماق ذاكرته. في مكان ما هناك، ظلّ
صوت المرأة ذات الشعر الفضّي يردّد هامساً: من يبحث يجد.

أراد لانغدون أن يصرخ: "ماذا سيجد؟".

أجبر نفسه على إغماض عينيه وراح يتنفس ببطء. حرك كتفيه عدّة مرّات وحاول تحرير
نفسه من كلّ الأفكار الواعية، على أمل أن يستعين بحدسه.

آسف جداً.

فاساري.

Cerca trova

لا يمكن لمع الحقيقة إلا عبر عيون الموت.

أخبره حدسه من دون أدنى شكّ أنّه يقف في المكان الصحيح. ومع أنّه لم يكن واثقاً من
السبب، إلا أنّه شعر أنّه على بعد لحظات من إيجاد ضالّته.

حقّق العميل برودر بشرود إلى السراويل والقمصان المخملية الحمراء في صندوق العرض
أمامه، وأخذ يشتم في سرّه. كان فريقه قد فنّس صالة الأزياء بأكملها، من دون العثور على أيّ
أثر للانغدون وسيبينا.

فكر بغضب، منذ متى يستطيع أستاذ في الجامعة الإفلات من شعبة المراقبة والدعم؟ أين
ذهب هذان الاثنان!

أكّد أحد رجاله: "لقد تمّ إقفال جميع المخارج. الاحتمال الوحيد المتبقّي هو أنّهما ما زالا في
الحدائق".

ومع أنّ ذلك بدا منطقياً، لكنّ برودر شعر أنّ لانغدون وسيبينا وجدا طريقة أخرى للخروج.

قال بنبرة حادة: "أعد الطائفة إلى الجوّ، وأخبر السلطات المحليّة بتوسيع رقعة البحث خارج الأسوار". اللعنة!

عندما اندفع الرجال لتنفيذ الأوامر، تناول بروده هاتفه واتّصل بالمسؤول. قال: "أنا برودر. أخشى أنّنا أمام مشكلة خطيرة، لا بل عدد من المشاكل في الواقع".

الفصل 36

لا يمكن لمع الحقيقة إلا عبر عيون الموت.

أخذت سيبينا تكرر هذه الكلمات وهي تبحث في كل إنش من مشهد المعركة الطاحنة، على أمل إيجاد شيء.

كانت ترى عيون الموت في كل مكان.

عن أي منها نبحث؟!

تساءلت عما إذا كانت عيون الموت تشير إلى الجثث المتعفنة المنتشرة في أوروبا بسبب الموت الأسود.

هذا يفسر على الأقل قناع الطاعون...

فجأة، خطرت في بال سيبينا قصيدة قديمة من أيام الطفولة: خاتم حول الورد. حفنة من الأزهار. رماد، رماد. تتساقط كلنا.

كانت تنشئ تلك القصيدة في المدرسة في إنكلترا إلى أن سمعت أنها ترجع إلى عهد وباء الطاعون الذي انتشر في لندن عام 1665. ويُزعم أن الخاتم حول الورد يشير إلى بثرة وردية كانت تظهر على الجلد ثم تحيط بها حلقة، وهذا ما يدل على التعرض للإصابة. وكان المرضى يحملون قبضة من الأزهار في جيوبهم لإخفاء رائحة أجسادهم المتحللة، فضلاً عن رائحة المدينة نفسها التي يسقط فيها مئات ضحايا الطاعون يومياً، ثم يتم حرق جثثهم.

رماد، رماد. تتساقط كلنا.

قال لانغدون فجأة، وهو يستدير إلى الجدار المقابل: "حباً بالله".

نظرت إليه سيبينا: "ما الأمر؟".

"هذا هو اسم اللوحة التي كانت معروضة هنا في الماضي. حباً بالله".

شاهدت سيبينا حائرة كيف هرع لانغدون عبر القاعة إلى باب زجاجي صغير حاول فتحه، لكنه وجده مقفلاً. ألصق وجهه بالزجاج، وأحاطه بيديه ليحقق إلى ما وراءه.

أيما يكن ما يبحث عنه لانغدون، أملت سيبينا أن يجده بسرعة. فقد ظهر الحارس للتو، وبدت عليه رغبة متزايدة لدى رؤيته لانغدون يحاول فتح باب مقفل.

لوحث له سيبينا بمرح، لكن الرجل حدق إليها مطوئاً بنظرة باردة ثم اختفى.

لو ستوديو.لو.

خلف الباب الزجاجي، تماماً مقابل عبارة *cerca trova* الخفية في قاعة الخمسمائة، تقع غرفة صغيرة من دون نوافذ. كانت هذه الغرفة المستطيلة التي صمّمها فاساري كمكتب سرّي لفرانشيسكو الأوّل ذات سقف مقبّب يُشعر من في داخلها أنّه موجود في صندوق كنز هائل. بالطبع، كان قلب الستوديو يوزخ بالتحف الجميلة. أكثر من ثلاثين لوحة نادرة تزين الجدران والسقف، وقريبة من بعضها بعضاً؛ حيث تملأ جدران الغرفة من الفراغ تقريباً. سقوط *بيكاروس... قصة رمزية للحياة البشرية... الطبيعة تقدم بروميثيوس بالأحجار الكريمة المذهلة...*

حدّق لانغدون عبر الزجاج إلى القاعة الرائعة وهو يهمس: "عيون الموت". كان لانغدون قد دخل لو ستوديو للمرة الأولى خلال جولة خاصة داخل الممرّات السريّة للقصر منذ بضع سنوات، وأذهلته مجموعة الأبواب والسلالم والممرّات الخفية التي يزخر بها القصر؛ بما في ذلك عدد منها مخبأ خلف لوحات داخل لو ستوديو. لكنّ الممرّات السريّة لم تكن هي التي أثارت اهتمام لانغدون. عوضاً عن ذلك، تذكّر تحفة جريئة من الفنّ المعاصر رآها معروضة هناك تحت عنوان حبّاً بالله. كان صاحب هذه التحفة المثيرة للجدل هو داميان هيرست، وأحدثت ضجة كبيرة عندما عُرضت في ستوديو فاساري الشهير.

كانت التحفة عبارة عن جمجمة بشرية بالحجم الطبيعي مصنوعة من البلاتينوم الصلب، سطحها مكوّن بالكامل بأكثر من ثمانية آلاف ألماسة لامعة. كان الأكثر مذهلاً. فقد كان محجراً العينين الفارغان يشعان بالضوء والحياة، حيث تجاور رمزان متناقضان؛ الحياة والموت... الجمال والرعب؛ الأمر الذي ولّد تأثيراً مثيراً للاضطراب. ومع أنّ جمجمة هيرست الألماسية قد أزيلت منذ وقت طويل من لو ستوديو، إلّا أنّ ذكريات لانغدون عنها ولدت لديه فكرة. قال لنفسه: *عيون الموت*. لا شك أنّ هذه الصفة تنطبق على الجمجمة.

كانت الجماجم من المواضيع المتكرّرة في إنفيرنو دانتي، أشهرها هو العقاب القاسي الذي ناله الكونت أوغولينو في أدنى حلقات الجحيم؛ إذ حكم عليه بنخر جمجمة رئيس أساقفة شرير إلى الأبد.

هل نحن نبحث عن جمجمة؟

كان لانغدون يعلم أنّ لو ستوديو الغامض بني على طريقة "خزانة للتحف". فجميع لوحاته تقريباً كانت مزوّدة بفتحة سريّة، حيث يمكن أن تُفتح لتكشف عن خزائن خفية خلفها، كان الدوق يخبئ فيها مقتنيات غريبة تهمة؛ كعينيّات معدنية نادرة، وريش جميل، وأحفور كامل لصدفة بحرية، حتّى إنّّه احتفظ كما يُزعم بعظم ساق راهب مزينة بالفضّة يدوياً. لسوء الحظّ، يعتقد لانغدون أنّ جميع محتويات الخزائن قد أزيلت منذ وقت طويل، ولم يسمع قطّ عن أيّ جمجمة معروضة هنا باستثناء تحفة هيرست.

انقطع حبل أفكاره بفعل باب صُفّق بعنف عند الطرف الآخر من القاعة. ثم اقترب وقع خطوات سريعة في الصالة.

صاح صوت غاضب بالإيطالية: "سينيوري، ما زالت الصالة مغلقة!".

التفت لانغدون ليرى أمامه موظفة تتجه نحوه. كانت قصيرة القامة وذات شعر بني قصير. كما كانت حاملاً في أشهر متقدمة. تقدّمت المرأة باتجاههما بحدة، وهي تطرق على ساعتها وتصيح بشيء عن أنّ القاعة لم تفتح أبوابها بعد. مع اقترابها، نظرت إلى لانغدون ثم توقفت على الفور، ووضعت يدها على فمها مصدومة.

هتفت وقد بدا عليها الإحراج: "بروفيسور لانغدون! أنا آسفة جداً! لم أعرف أنك هنا. مرحباً بك مرّة أخرى!".

جمد لانغدون في مكانه.

كان واقعاً تماماً أنه لم يسبق له أن رأى هذه المرأة في حياته.

الفصل 37

راحت المرأة تتحدث بلغة إنكليزية مشوبة بلكنة إيطالية وهي تقترب من لانغدون. لم أعرفك تقريباً، بروفيسور! ملابسك هي السبب". ابتسمت، وأومات برأسها وهي تنظر بإعجاب إلى ستره بيوني التي يرتديها لانغدون. "كم هي أنيقة. تبدو إيطالياً تقريباً". جفّ حلق لانغدون، لكنّه ابتسم بتهذيب للمرأة التي اقتربت منه وتمتم قائلاً: "صباح... الخير. كيف حالك؟".

ضحكت وهي تضع يدها على بطنها. "منهكة؛ فقد أمضت كاتالينا الصغيرة الليلة كلها وهي ترفس". نظرت المرأة في أرجاء الغرفة، وبدأ عليها الاستغراب. *إيل دوومينو* لم يذكر أنك ستعود اليوم. أفترض أنه معك؟".

إيل دوومينو؟ لم يعرف لانغدون مَنْ تتحدث. يبدو أنّ المرأة لاحظت حيرته، فطمأنته قائلة: "لا بأس، كلّ من في فلورنسا ينادونه بهذا اللقب، فهو لا يمانع". ثمّ نظرت حولها وسألته: "أهو من أدخلك؟". قالت سبينّا وهي تقترب منهما: "أجل، لكن كان لديه فطور عمل، وقال إنك لا تمانعين إن بقينا لإلقاء نظرة على المكان". مدّت سبينّا يدها بحماسة مضيفة: "أنا سبينّا، شقيقة روبرت".

صافحت المرأة سبينّا على نحو رسمي مبالغ فيه. "أنا مارتا ألفاريز. كم أنت محظوظة بدليلك الخاص".

أجابت سبينّا بمرح: "أجل، فهو زكي جداً!". صممت المرأة فجأة متأملة سبينّا، ثمّ قالت: "هذا غريب، لكنني لا أرى أيّ شبه بينكما، باستثناء طول القامة ربّما".

شعر لانغدون بخطر داهم. *إمّا أن يغتتم الفرصة الآن أو يخسرها إلى الأبد*. قاطعها لانغدون أملاً أن يكون قد سمع اسمها بشكل صحيح: "مارتا، أنا أسف لإزعاجك. لكن، في الواقع... أظنّ أنك تعرفين على الأرجح سبب وجودي هنا". ضاقت عيناها وهي تجيب: "كلاً، في الواقع، لا يمكنني أن أتخيّل ما تفعله هنا".

تسارع نبض لانغدون، وخلال الصمت الذي تبع ذلك، أدرك أنّ رهانه على وشك أن يُمنى بالفشل. فجأة، ابتسمت مارتا ابتسامة عريضة وضحكت بصوت عالٍ.

بروفيسور، أنا أمزح! بالطبع أعرف سبب عودتك. بصراحة، لا أعرف لماذا تجدونه ساحراً إلى هذا الحد. لكن، بما أنك أمضيت قرابة الساعة مع *ليل دومينو* هناك في الليلة الماضية، فأنا أظن أنك أتيت لتريه لأختك، أليس كذلك؟".

"صحيح... بالضبط. أود أن تراه سيبينا إن لم يكن... لديك مانع". نظرت مارتا إلى الأعلى، إلى شرفة الطابق الثاني، وهزت كتفها قائلة: "ما من مشكلة. أنا ذاهبة الآن إلى هناك".

راح قلب لانغدون ينبض وهو ينظر إلى شرفة الطابق الثاني الواقعة في الجزء الخلفي من القاعة. هل كنت هناك البارحة؟ لم يتذكر شيئاً. كان يعرف أن الشرفة، بالإضافة إلى كونها تقع على الارتفاع نفسه لعبارة *cerca trova*، فهي تشكل أيضاً مدخلاً إلى متحف القصر الذي كان لانغدون يزوره كلما أتى.

كانت مارتا على وشك أن تقودهما عبر القاعة عندما توقفت، وكأنها تعيد النظر في الأمر. "بروفيسور، هل أنت واثق أننا لا يمكن أن نجد شيئاً أقل كآبة لتريه لأختك الجميلة؟". لم يعرف لانغدون بماذا يجيب.

سألها سيبينا: "هل سنرى شيئاً مثيراً للكآبة؟ ما هو؟ لم يخبرني". ابتسمت مارتا بخجل ونظرت إلى لانغدون. "بروفيسور، هل تريدني أن أخبر أختك عنه، أم تفضل إخبارها بنفسك؟".

كاد لانغدون أن يرقص طرباً أمام هذه الفرصة. "بالتأكيد، مارتا، فلنخبرها كل شيء عنه". التفتت مارتا إلى سيبينا، وبدأت تتحدث ببطء شديد. "لا أعرف ما قاله لك أخوك، لكننا ذاهبون إلى المتحف لرؤية قناع غير مألوف إطلاقاً".

اتسعت عينا سيبينا قليلاً. "أي نوع من الأقنعة؟ أهو من تلك الأقنعة البشعة التي يرتدونها في الكارنافالي؟".

أجابت مارتا: "كلاً، ليس قناع طاعون. بل إنه قناع مختلف تماماً، يسمى قناع الموت". شهق لانغدون بصوت مسموع، فالتفتت إليه مارتا عابسة، اعتقاداً منها على الأرجح أنه يبالغ في رد فعله في محاولة منه لإخافة أخته.

قالت: "لا تصني لأخيك. فأقنعة الموت كانت شائعة جداً في القرن السادس عشر. إنها مجرد قالب من الجص لوجه المرء يؤخذ بعد بضع دقائق من وفاته".

قناع الموت. شعر لانغدون أنها لحظة الوضوح الأولى منذ استيقاظه في فلورنسا. جحيم دانتي... *cerca trova*... النظر عبر عيون الموت. القناع!

سألت سيبينا: "ولوجه من يعود القناع؟". وضع لانغدون يده على كتف سيبينا وأجاب بهدوء قدر الإمكان: "لشاعر إيطالي شهير يدعى دانتي أليغييري".

الفصل 38

أشرقت شمس البحر الأبيض المتوسط على سطح *الميند/سيوم* الذي راح يتأرجح فوق أمواج البحر الأدرياتيكي. شعر العميد أنه مستنزف وهو يُفرغ كأس الشراب الثانية في جوفه، ويحدّق بشرود من نافذة مكتبه.

لم تكن الأخبار الواردة من فلورنسا جيّدة. كان يشعر أنه مشوّش وعاجز على نحو غريب... كما لو أنّ سفينته قد فقدت محرّكاتهما وانجرفت مع التيار على غير هدى.

كان هذا الإحساس غريباً على العميد. ففي عالمه، كان يعتمد دائماً على بوصلة موثوقة - *البروتوكول* - ولم يسبق له معها أن ضلّ الطريق. لقد مكّنه البروتوكول من اتّخاذ قرارات صعبة من دون النظر إلى الوراء.

البروتوكول هو الذي فرض التّصلّ من فايينثا، وقد نفّذه العميد من دون تردّد. *سأتعامل معها فور انتهاء هذه الأزمة.*

والبروتوكول هو الذي فرض على العميد أن يعرف أقلّ قدر من المعلومات عن زبائنه. فقد قرّر منذ وقت طويل أن الكونسورتيوم ليس مسؤولاً عن محاكمتهم من الناحية الأخلاقية.

قلم الخدمة.

تق بالعميل.

لا تطرح أسئلة.

على غرار مديري معظم الشركات، كان العميد يقدّم ببساطة خدماته على افتراض أنّها ستُنقّذ في إطار القانون. ففي النهاية، لا تُعتبر شركة فولفو مسؤولة عن الأمّهات اللواتي يسرعن في الأماكن المخصّصة للتلاميذ، ولا تُعتبر شركة ديل مذنبّة إن قام أحدهم باستخدام حواسيبها الإلكترونية لاختراق حساب مصرفي.

الآن، مع كلّ هذه الحوادث المتتالية، أخذ العميد يصبّ جام غضبه على الشخص الموثوق الذي اقترح على الكونسورتيوم التعامل مع هذا الزبون.

في ذلك الحين، أكّد له قائلاً: "سيكون المجهود قليلاً والمكسب سهلاً. فالرجل بالغ النكاء، وهو نجم في مجاله، وفاحش الثراء. كلّ ما يحتاج إليه هو الاختفاء لعام أو اثنين. يريد شراء بعض الوقت بعيداً عن الأعين للعمل على مشروع هامّ".

وافق العميد من دون أن يفكر كثيراً. فتأمين مخابئ لفترات طويلة كان دائماً مصدراً لمكاسب سهلة، والعميد يثق بحدس ذلك الشخص.

كانت المهمة سهلة ومريحة جداً مثلما كان متوقعاً.

لكن، تغير كل شيء في الأسبوع الماضي.

الآن، في أعقاب الفوضى التي سببها هذا الرجل، وجد العميد نفسه يروح ويجيء أمام زجاجة الشراب، وبعد الأيام حتى تنتهي مسؤولياته تجاه هذا العميل.

رن الهاتف على المكتب، وعرف العميد أن نولتون، أحد أبرز المنسقين، يتصل به من الطابق السفلي.

أجاب: "نعم".

قال نولتون بصوت مشوب بالتوتر: "سيدي، لم أشأ إزعاجك بذلك، لكن كما تعلم، يتوجب علينا تحميل شريط فيديو إلى وسائل الإعلام غداً".

أجاب العميد: "نعم. أهو جاهز؟".

"نعم، لكن أظن أنك قد ترغب في رؤيته قبل التحميل".

صمت العميد بحيرة. "هل الفيديو يذكرنا بالاسم أو يضر بنا بشكل من الأشكال؟".

"كلاً سيدي، لكن المضمون مقلق للغاية. فالعميل يظهر على الشاشة ويقول -".

قاطعته العميد وقد فوجئ بأن يتجرأ أحد موظفيه على اقتراح هذا الانتهاك الصارخ للبروتوكول: "توقف هنا. المحتوى لا يهم. مهما يكن، فسيحمل هذا الفيديو بنا أو من دوننا. كان باستطاعة الزبون بكل بساطة إصداره إلكترونياً، إلا أنه استأجر خدماتنا من أجل ذلك. لقد دفع لنا، ووثق بنا".

"نعم، سيدي".

وبخه العميد مضيقاً: "أنت لم تعين هنا كناقد سينمائي، بل لتفي بالوعد. قم بعملك".

على جسر فيكيو، انتظرت فايينثا وهي تتفحص بنظرها الحادّ مئات الوجوه المارة على الجسر. كانت يقظة جداً، واثقة أن لانغدون لم يمرّ بعد، غير أن طائفة المراقبة صمّنت، ولم تعد ضرورية كما يبدو.

لا بد أن برودر قد قبض عليه.

بدأت تتخيل على مضض التحقيق الذي ستخضع له في الكونسورتيوم، لا بل أسوأ من ذلك.

تذكرت فايينثا مجدداً العميلين اللذين تمّ الاتصال منهما... ولم يُعرف عنهما شيء بعد ذلك.

أكدت لنفسها، لقد انتقلا ببساطة إلى وظيفة أخرى. مع ذلك، أخذت تتساءل إن كان يجدر بها الاختفاء في تلال توسكانا واستخدام مهاراتها لبدء حياة جديدة.

لكن، إلى متى سأختبئ منهم؟
أدرك عدد لا يحصى من الأهداف أنه عندما يضع الكونسورتيوم عينه على شخص ما،
تصبح الخصوصية وهماً. إنها مسألة وقت وحسب.
هل ستنتهي حياتي المهنية على هذا النحو؟ ما زالت عاجزة عن التصديق أن خدمتها لمدة
اثني عشر عاماً في الكونسورتيوم ستنتهي بسبب سلسلة من المصادفات السيئة. لقد أشرفت لمدة
عام كامل على تلبية احتياجات زبون الكونسورتيوم ذي العينين الخضراوين. لست المنذبة إن
قرر الانتحار... لكن يبدو أنني أسقط معه.
كانت فرصتها الوحيدة لنيل العفو تكمن بمنافسة برودر... لكنها أدركت منذ البداية أن
الأمر بعيد الاحتمال.
حصلت على فرصتي في الليلة الماضية، وفشلت.
استدارت فابينا على مضض نحو دراجتها النارية، غير أنها سمعت فجأة صوتاً بعيداً...
هديراً عالياً مألوفاً.
نظرت إلى الأعلى باضطراب، وفوجئت بطائرة المراقبة تحوم مجدداً في الجو، هذه المرة
قرب الطرف الأقصى لقصر بيتي. شاهدت فابينا الطائرة وهي تقوم بدورات يائسة حول
القصر.
إن إعادة الطائرة إلى الجو لا تعني سوى شيء واحد.
ما زالوا يبحثون عن لانغدون!
لكن، أين هو؟

أخرج هدير الطائرة الحاد د. إليزابيث سينسكي من هذيانها مجدداً. عانت طائرة المراقبة
إلى الأجواء؟ لكن، ظننت...
تحركت على مقعدها الخلفي في الفان، وكان العميل الشاب نفسه ما زال جالساً قريباً.
أغمضت عينيه من جديد مكافحة الأكم والغثيان. غير أنها كافحت الخوف بضراوة أكبر.
الوقت ينقذ.
مع أن عدوها انتحر، إلا أنها ما زالت تراه في منامها وهو يلقي عليها محاضرات في
ظلام مجلس العلاقات الخارجية.
ومضت عيناه الخضراوان وهو يعلن قائلاً: لا بد لأحد أن يتخذ تدبيراً جريئاً. إن لم يكن
نحن، فمن سيقوم بذلك؟ وإن لم يكن الآن، فمتى؟
أدركت إليزابيث أنه كان يجدر بها إيقافه في ذلك الوقت؛ عندما أتيحت لها الفرصة. لن
تنسى أبداً كيف خرجت من ذلك الاجتماع بسرعة، واستقلت سيارة الليموزين وهي ترغي وتزيد

في طريقها إلى مطار جون كينيدي الدولي عبر مانهاتن. كانت متلهفة لمعرفة من يكون هذا المجنون، فأخرجت هاتفها الخلوي لتتفحص الصورة المفاجئة التي التقطتها له.

عندما رأت الصورة، شهقت بصوت عالٍ. كانت د. إليزابيث سينسكي تعرف تماماً من يكون هذا الرجل. الجيد في الأمر أن تعقبه سيكون سهلاً جداً. لكن المشكلة هي أنه عبقري في مجاله، وشخص بالغ الخطورة إن قرّر أن يكون كذلك.

ما من شيء أكثر إبداً... أو تدميراً... من عقل لامع لديه هدف.

عند وصولها إلى المطار بعد ثلاثين دقيقة، كانت قد اتصلت بفريقها ووضعت اسم الرجل على لائحة المراقبة ضد الإرهاب البيولوجي في كل وكالة ذات صلة في العالم؛ وكالة المخابرات المركزية، ومركز مكافحة الأمراض، والمركز الأوروبي للوقاية من الأمراض ومكافحتها، والمنظمات الشقيقة كافة في جميع أنحاء العالم.

هذا كل ما يمكنني القيام به إلى أن أصل إلى جنيف.

حملت حقيبتها منهكة، وأعطت الموظفة جواز السفر والتذكرة.

قالت الموظفة مبتسمة: "آه، د. سينسكي، ترك لك رجل لطيف رسالة للتو".

"المعذرة؟" كانت إليزابيث تعرف أنه ما من أحد يستطيع الوصول إلى المعلومات المتعلقة بسفرها.

"إنه طويل جداً وعيناه خضراوان".

أسقطت إليزابيث حقيبتها. هو هنا! كيف؟! التفتت متفحصة الوجه حولها.

قالت الموظفة: "لقد رحل، لكنه أراد إعطائك هذه". وأعطت إليزابيث قطعة مطوية من الورق.

فتحت إليزابيث الورقة بيدين مرتجتين وقرأت الملاحظة المكتوبة بخط اليد.

كانت أبياتاً مشهورة مقتطفة من قصيدة دانتي أليغييري.

أحلك الأماكن في الجحيم

هي لأولئك

الذين يحافظون على حيادهم

في الأزمات الأخلاقية.

الفصل 39

حدّثت مارتا ألفاريز متعبة إلى الدّرج الحادّ الذي يمتدّ من قاعة الخمسمائة إلى المتحف في الطابق الثاني.

فكرت في سرّها، بوسو فارثيلا. يمكنني ذلك.

كانت مارتا، بصفتها مديرة الفنون والثقافة في قصر فيكيو، قد صعدت هذا الدّرج مرّات عديدة. لكن، بما أنّها قد تجاوزت الشهر الثامن من حملها، أصبحت تجد الصعود أكثر صعوبة.

"مارتا، هل أنت واثقة أنّك لا ترغبين في استخدام المصعد؟". بدا روبرت لانغدون قلقاً، وأشار إلى المصعد الصغير المجاور الذي أضيف إلى القصر ليستخدمه الزوّار ذوو الاحتياجات الخاصة.

ابتسمت مارتا شاكرة لكنّها هزّت رأسها نافية. "كما أخبرتك البارحة، قال طبيبي إنّ الرياضة مفيدة للطفل. كما أنّني أعرف أنّك تعاني من رهاب الأماكن المغلقة". أجفل لانغدون لدى سماعه تعليقها. "آه، صحيح. نسيت أنّني ذكرت ذلك". استغربت مارتا. أنسي أنّه ذكر ذلك؟ لم تمضِ اثنتا عشرة ساعة بعد، كما أنّنا تحدّثنا مطوّلاً عن الحادثة التي سبّبت هذا الرهاب.

في الليلة الماضية، وبينما استقلّ مرافق لانغدون البدين إيل دومينيو المصعد، رافق لانغدون مارتا على الدّرج. في الطريق، أخبرها بالتفصيل عن سقوطه وهو صبي صغير في بئر مهجورة؛ الأمر الذي سبّب له خوفاً من الأماكن الضيقة.

الآن، وبينما سبقتهما شقيقة لانغدون الأصغر سنّاً، وشعرها يتمايل خلفها، ارتقى لانغدون ومارتا الدّرج ببطء، وتوقفاً عدّة مرّات لكي تتّكّن من النقاط أنفاسها. قالت: "تفاجئني رغبتك في رؤية القناع مجدّداً. فمن بين كلّ القطع المتواجدة في فلورنسا، تُعتبر هذه القطعة الأقلّ إثارة للاهتمام".

هرّ لانغدون كتفيه من دون اكتراث. "عدت أساساً لكي تراه سييّنّا. بالمناسبة، شكراً لك على السماح لنا بالدخول مجدّداً".

"لا شكر على واجب".

كانت سمعة لانغدون كافية لإقناع مارتا بفتح الصّالة من أجله في الليلة الماضية، لكنّ مرافقة إيل دومينيو له كانت تعني أنّها لا تملك الخيار.

إغناسيو بوزوني، المعروف بلقب *إيل دوومينو*، شخصية مشهورة في عالم فلورنسا الثقافي. كان إغناسيو مدير متحف موزيو ديل أوبرا ديل دوومو منذ مدة طويلة، ويشرف على مختلف نواحي الموقع التاريخي الأبرز في فلورنسا، إيل دوومو، وهو اسم الكاتدرائية الضخمة بقبعتها الحمراء التي تهيمن على تاريخ فلورنسا وسماؤها. أدى شغفه بهذا المعلم التاريخي، بالإضافة إلى وزنه الذي يقارب أربعمائة باوند، والاحمرار الطاغي على وجهه، إلى اكتسابه لقب *إيل دوومينو*، أي "القبة الصغيرة".

لا تدري مارتا كيف تعرّف لانغدون على *إيل دوومينو*، لكنّ هذا الأخير اتصل بها في الليلة الماضية وقال إنّهُ يريد اصطحاب ضيف في زيارة خاصّة لرؤية قناع الموت لدانتلي. وعندما تبين أنّ الضيف الغامض هو عالم الرموز الأمريكي الشهير ومؤرخ الفنون روبرت لانغدون، شعرت مارتا بالحماسة لاستقبال الرجلين الشهيدين في صالة القصر. عندما وصلا الآن إلى أعلى الدّرج، وضعت مارتا يديها على روكيها وتنفست بعمق. كانت سيّناً قد وصلت إلى الشرفة، ووقفت تطلّ من هناك على قاعة الخمسمائة.

قالت مارتا وهي تلهث: "هذا مكاني المفضّل لرؤية القاعة. من هنا، تحصيلين على منظور مختلف تماماً للوحات الجدارية. أظنّ أنّ شقيقك أخبرك عن الرسالة الغامضة في تلك اللوحة هناك؟". وأشارت بيدها نحو اللوحة.

هزّت سيّناً رأسها بحماسة قائلة: "*cerca trova*".

بينما التفت لانغدون يتأمّل القاعة، راحت مارتا تراقبه. تحت الضوء الصادر من نوافذ القاعة، لم يكن من الممكن ألاّ تلاحظ أنّ لانغدون لا يبدو جذاباً كما كان في الليلة الماضية. أعجبتها بذلته الجديدة، لكنّه كان بحاجة إلى حلاقة، كما بدا وجهه شاحباً ومتعباً. حتّى إنّ شعره الذي كان كثيفاً ومرتباً في الليلة الماضية، بدا مشعثاً هذا الصباح، وكأنّه لم يستحم بعد. التفتت مارتا إلى الجدارية قبل أن تثير انتباهه. قالت: "نحن نقف تقريباً عند مستوى *cerca trova* بالضبط. يمكنكم تقريباً رؤية الكلمات بالعين المجردة".

لم يبدُ على شقيقة لانغدون أنّها مهتمة بالجدارية، إذ قالت: "أخبريني عن قناع الموت لدانتلي. لماذا هو موجود في قصر فيكيو؟".

الأخت تشبه أخاها، هذا ما فكّرت فيه مارتا وهي تننّ في سرّها؛ محذارة من سبب اهتمامها بهذا القناع. إلّا أنّ قناع دانتلي لديه قصة غريبة، لا سيّما مؤخراً، ولانغدون ليس أول من يُظهر افتتاناً جنونياً به. "أخبريني، ماذا تعرفين عن دانتلي؟".

هزّت الشابة الشقراء الجميلة كنفها مجيبة: "ما يتعلّمه الجميع في المدارس. دانتلي شاعر إيطالي اشتهر بكتابة *الكوميديا الإلهية* التي تصف رحلة تخيلها عبر الجحيم".

أجابت مارتا: "هذا صحيح إلى حدّ ما. في القصيدة، ينجو دانتلي من الجحيم ويتابع رحلته عبر المطهر؛ إلى أن يصل أخيراً إلى الجنة. إن قرأت *الكوميديا الإلهية*، فستكتشفين أنّ رحلته مقسّمة إلى ثلاثة أجزاء: *إيفرنزو*، *بورغاتوريو*، و*باراديزو*". الجحيم، المطهر، والجنة. أشارت إليهما

مارتا ليتبعها على الشرفة باتجاه مدخل المتحف. لكن سبب وجود هذا القناع في قصر فيكيو لا علاقة له بالكوميديا الإلهية، بل بالتاريخ. فقد عاش دانتي في فلورنسا، وأحبها بقدر ما يمكن لإنسان أن يحب مدينة. كان فلورنسياً بارزاً وواسع النفوذ، لكن تغييراً طرأ على السلطة السياسية، وأيد دانتي الطرف الخطأ. وهكذا تم نفيه، فطرد خارج أسوار المدينة ومنع من العودة إليها.

توقفت مارتا لالتقاط أنفاسها مع اقترابهم من مدخل المتحف. وضعت يديها مجدداً على وركيها وقوست ظهرها إلى الخلف وهي تتابع حديثها. "يُدعي بعض الناس أن نفي دانتي هو السبب الذي يجعل قناع موته يبدو حزيناً إلى هذا الحد، لكن لدي نظرية أخرى. فأنا رومانية بعض الشيء، وأعتقد أن وجهه الحزين سببه امرأة تدعى بياتريشي. فقد أمضى دانتي حياته بأكملها مغرمًا بشابة تدعى بياتريشي بورتيناري. لكن مع الأسف، كانت الشابة متزوجة من رجل آخر؛ ما يعني أن دانتي لم يكن مجبراً على العيش بعيداً عن مدينته الحبيبة فحسب، بل وعن المرأة التي أحبها بعمق أيضاً. وشكل حبه لبياتريشي موضوعاً مركزياً في الكوميديا الإلهية".

قالت سيبينا بنبرة توهي أنها لم تسمع كلمة واحدة: "هذا مثير للاهتمام. لكنني لم أفهم حتى الآن لماذا يتم الاحتفاظ بهذا القناع هنا في القصر؟".

وجدت مارتا إلحاح الشابة غريباً ويفتقد بعض الشيء إلى التهذيب. فاستأنفت سيرها وتابعت تقول: "في الواقع، عندما توفي دانتي كان لا يزال منغياً، ودفنت جثته في رافينا. لكن، بما أن حبه الحقيقي، بياتريشي، دفنت في فلورنسا، وبما أن دانتي أحب فلورنسا كثيراً، فإن إحضار قناع موته إلى هنا بدا نوعاً من التكريم الصادق لذلك الرجل".

قالت سيبينا: "فهمت. ولماذا وضع في هذا المبنى بالتحديد؟".

"قصر فيكيو هو أقدم رمز لفلورنسا، وفي عهد دانتي كان يشكل قلب المدينة. في الواقع، ثمة لوحة شهيرة في الكاتدرائية تُصور دانتي وهو يقف خارج أسوار المدينة منغياً، في حين يظهر في خلفية المشهد برج هذا القصر العزيز على قلبه. باحتفاظنا بهذا القناع هنا، نشعر من عدة نواح أن دانتي سمح له أخيراً بالعودة إلى الوطن".

قالت سيبينا التي بدت أخيراً راضية بالجواب: "كم هذا لطيف. شكراً لك".

وصلت مارتا إلى باب المتحف وطرقت ثلاث مرّات. "سونو إيرو، مارتا! بونجورنو!".

سمعت خشخشة مفاتيح، ثم فُتح الباب. ابتسم لها رجل مسنّ بتعب ونظر إلى ساعته، ثم قال لها بالإيطالية مبسّماً: "الوقت مبكر بعض الشيء".

أوضحت مارتا سبب مجيئها بإيماءة نحو لانغدون، فشغ وجه الرجل على الفور. "سينيوري! بينتوراتو!". أهلاً بعودتك!

أجاب لانغدون بنبرة ودّية: "عزاسي"، وأوما لهم الحارس بالدخول.

دخلوا بهواً صغيراً، ثم قام الحارس بتعطيل جهاز الإنذار قبل أن يفتح باباً آخر أثقل وزناً. عندما فُتح الباب، دخل، ثم أشار لهم للدخول بحركة بذراعه. "يكون إيل موزيو!". تفضلوا إلى المتحف!

ابتسمت مارتا شاكراً، وقادت ضيفيها إلى الداخل.

يحتل المتحف مكاناً صُمم في الأساس كمكاتب حكومية. لهذا السبب، عوضاً عن كون المتحف صالة واسعة ومفتوحة، كان عبارة عن متاهة من الغرف متوسطة الحجم والأروقة التي تحيط بنصف المبنى.

قالت لسيينا: "قناع دانتي موجود عند الزاوية. إنه معروض في غرفة ضيقة تدعى لانديتو، هي في الأساس مجرد ممزج بين غرفتين أكبر حجماً. وقد حُفظ في خزانة أثرية معلقة على الجدار، الأمر الذي يبقيه بعيداً عن الأنظار إلى أن تقتربي منه. لهذا السبب، الكثير من الزوار يمرّون من أمامه من دون ملاحظته!".

بدأ لانغدون يسير بخطى أسرع الآن، مثبتاً نظره إلى الأمام، وكان القناع يمارس عليه قوة غريبة. وكزت مارتا سينا وهمست قائلة: "من الواضح أن أخاك غير مهتم بأيّ من تحفنا الأخرى. لكن، بما أنك هنا، لا يجب أن تقوّتي رؤية مجموعتنا الخاصة بماكيافيلي أو ماتيا موندي (خارطة العالم) في قاعة الخرائط".

هزّت سينا رأسها بأدب، وواصلت التقدّم إلى الأمام هي أيضاً. بالكاد كانت مارتا قادرة على مواكبتها. عندما وصلوا إلى الغرفة الثالثة، أصبحت متأخرة عنهما قليلاً، فتوقّفت في النهاية.

نادت وهي تلهث: "بروفيسور، ربّما... تودّ أن تري أخذك... شيئاً من القاعة... قبل أن نرى القناع؟".

التفت لانغدون الذي بدا وكأنه يعود إلى الواقع من مكان بعيد. "المعذرة؟". أشارت مارتا وهي تلهث إلى خزانة عرض مجاورة. "هذه واحدة من أولى... النسخ المطبوعة للكوميديا الإلهية".

عندما رأى لانغدون مارتا وهي تمسح العرق عن جبينها وتحاول التقاط أنفاسها، شعر بعذاب الضمير. "مارتا، سامحيني! بالطبع، سيكون لقاء نظرة خاطفة على النصّ أمراً رائعاً". أسرع لانغدون عائداً، وترك مارتا تقودهما إلى خزانة العرض الأثرية. كان في داخلها كتاب مجلد بغلاف جلدي بالي، ومفتوح على صفحة عنوان مزخرفة: لا بيفينا كوميديا: دانتي البغيري. قال لانغدون، وقد بدت عليه الدهشة: "لا أصدّق، أنا أعرف هذه الصفحة الأمامية. لكنني لم أكن أدري أنكم تملكون إحدى نسخ نومايشتر الأصلية".

فكرت مارتا حائرة: بالطبع تدري. لقد أريتك إياها في الليلة الماضية!

قال لانغدون بسرعة لسيينا: "في أواسط القرن الخامس عشر، أصدر جوهان نومايشتر أول نسخة مطبوعة من هذا العمل. تمّت طباعة عدّة مئات من النسخ، لكن لم يبقَ منها سوى اثنتي عشرة نسخة تقريباً. وهي نادرة جداً".

بدا لمارتا الآن أن لانغدون كان يؤدّي دوراً ليتباهي أمام شقيقته الصغرى. ورأت في ذلك قلة لياقة من جانب بروفيسور مشهور بتواضعه الأكاديمي.

عرضت مارتا قائلة: "هذه النسخة موجودة هنا على سبيل الإعارة من مكتبة لورنس. إن لم تقوما بزيارتها بعد، فعليكما القيام بذلك. يوجد هناك درج رائع من تصميم مايكل أنجلو، يؤدي إلى أول قاعة قراءة عامة في العالم. كانت الكتب تُقَدَّ هناك بالمقاعد لكي لا يسرقها أحد. وبالطبع، الكثير من تلك الكتب نسخ فريدة في العالم".

قالت سيبينا وهي تنتظر إلى أرجاء المتحف: "رائع. هل القناع من هذا الطريق؟".
لِمَ العجلة؟ كانت مارتا بحاجة إلى دقيقة أخرى لاستعادة أنفاسها. "أجل، لكن ربما يهتمك أن ترى هذا". وأشارت إلى كوة باتجاه درج صغير يختفي في السقف. "يؤدي هذا الدرج إلى منصة مشاهدة في العوارض الخشبية، يمكن الإطلال منها على سقف فاساري الشهير المعلق. يسرني الانتظار هنا إن كنتما ترغبان في -".

قاطعتها سيبينا قائلة: "رجاء مارتا. أودّ رؤية القناع؛ فوقتنا ضيق بعض الشيء".
حدّثت مارتا إلى الشاية الجميلة حائرة. لم تعجبها إطلاقاً طريقة الغراء في مناداة الآخرين بأسمائهم الأولى. فكّرت في سرّها: أنا سينيورا ألفاريز، وأنا أقدم لك خدمة.
قالت مارتا باقتضاب: "حسناً سيبينا، القناع من هنا".

لم تضع مارتا مزيداً من الوقت في إعطاء معلومات للانغدون وشقيقته اللذين شقّا طريقهما عبر غرف القاعة باتجاه القناع. في الليلة الماضية، أمضى لانغدون وإيل دومينو نصف ساعة تقريباً في الحجرة الضيقة وهما يتأملان القناع. استغربت مارتا حينذاك من فضول الرجلين إزاء القطعة، وسألتهما عما إذا كان اهتمامهما بها يتعلّق بسلسلة الأحداث غير الاعتيادية التي أحاطت بالقناع خلال العام الفائت. لكن لانغدون وإيل دومينو تكثما، ولم يقدّما لها جواباً يذكر. أثناء اقترابهم من الحجرة، بدأ لانغدون يشرح لأخته العملية البسيطة المستخدمة لصنع قناع الموت. سرّت مارتا لدى سماعها وصفه الدقيق الذي لم يكن يشبه ادّعاءه الكاذب أنّه لم يسبق له أن رأى نسخة المتحف النادرة من الكوميديا الإلهية.

شرح لانغدون قائلاً: "بعد وقت قصير من الوفاة، يمدّد الميت، ويُدّهن وجهه بزيت الزيتون. بعد ذلك توضع طبقة من الجصّ الرطب على البشرة، وتغطّي كلّ شيء؛ الفم، والأنف، والجفنين، من خطّ الشعر حتّى العنق. ما إن يتصلّب الجصّ حتّى يُرفع بسهولة ويُستخدم كقالب يُصبّ فيه الجصّ مجدّداً. وهكذا، يتحوّل هذا الجصّ إلى نسخة مفصلة تماماً عن وجه الميت. كانت هذه الممارسة شائعة الاستخدام لتخليد ذكرى شخصيات بارزة وعابرة من أمثال دانتي، وشيكسبير، وفولتير، وتاسو، وكيتس، وجميعهم حصلوا على ألقعة موت".

أعلنت مارتا عند وصولهم إلى الأنديتو: "ها قد وصلنا أخيراً". وقفت جانباً، وأشارت لشقيقة لانغدون بالدخول أولاً. "القناع موجود في خزانة العرض المعلقة على الجدار إلى يسارك. أرجو منك البقاء خارج الدعامات".

شكرتها سيبينا ودخلت الرواق الضيق، ثمّ مشّت باتجاه خزانة العرض، وحدّثت إلى الداخل. اتّسعت عيناها على الفور، ونظرت إلى أخيها بتعبير طغي عليه الرعب.

كانت مارتا قد رأت ردّ الفعل هذا آلاف المرات، وذلك لأنّ الزوّار غالباً ما يُجفلون وينفرون من القناع للوهلة الأولى؛ حين يرون وجه دانتي المجعد، وأنفه المعقوف، وعينيّه المغمضتين. مشى لانغدون وراء سيبينا، ووقف بجانبها ثمّ نظر إلى خزانة العرض. وعلى الفور، تراجع وبدأت على وجهه تعابير الدهشة.

أنّت مارتا وقالت لنفسها: كم يبالغ. تبعتهما إلى الداخل. لكن، عندما حدّقت إلى الخزانة، شهقت هي أيضاً بصوت عالٍ. /وه ميو ديرو! يا إلهي!

توقّعت مارتا ألفايز رؤية وجه دانتي الميت المألوف أمامها، لكنّها لم ترَ عوضاً عن ذلك سوى قلب الخزانة المبطن بالساتان الأحمر والمسمار الذي يعلّق عليه القناع عادة.

وضعت مارتا يدها على فمها وحدّقت برعب إلى الخزانة الفارغة. تسارعت أنفاسها وأمسكت بإحدى الدعامات لتستند إليها. أخيراً، أبعدت نظرها بصعوبة عن الخزانة الفارغة واستدارت نحو الحارسين الليليين الواقفين عند المدخل الرئيس.

صاحت كالمجنونة: "لا ماسكيرا دي دانتي! لا ماسكيرا دي دانتي إي سباريتا!".

الفصل 40

أخذت مارتا ألفاريز ترتجف أمام خزانة العرض الفارغة. أملت أن تكون التقلّصات التي تشعر بها في بطنها ناتجة عن الذعر وليس عن آلام المخاض.

لقد اختفى قناع دانتي!

كان الحارسان الآن في حالة تأهب قصوى بعد أن وصلا إلى الأنسييتو ورأيا الخزانة الفارغة، فتحرّكا على الفور. اندفع أحدهما إلى غرفة المراقبة المجاورة لمشاهدة تسجيلات كاميرا المراقبة من الليلة الماضية، في حين أبلغ الآخر الشرطة عن عملية السرقة.

قال الحارس لمارتا وهو يُعيد السماعَة إلى مكانها: "ستصل الشرطة خلال عشرين دقيقة!". سألته: "بعد عشرين دقيقة! لدينا هنا عملية سرقة لتحفة فنية كبرى".

شرح الحارس ما قيل له عن أن معظم رجال الشرطة في المدينة منشغلون حاليًا بأزمة أكثر خطورة بكثير، وأنهم يحاولون إيجاد عنصر لإرساله. صاحبت: "ما الذي يمكن أن يكون أكثر خطورة؟!"

تبادل لانغدون وسبينّا نظرة قلقة، ولاحظت مارتا أن ضيفيها يعانيان من التوتر الزائد. ليس هذا مستغرباً. فبعدما توقّفا بكلّ بساطة لإلقاء نظرة على القناع، ها هما يشهدان اختفاء أثر عملية سرقة فنية كبيرة. بطريقة ما، دخل أحدهم الصالة في الليلة الماضية، وسرق قناع دانتي.

كانت مارتا تعرف أنه ثمة قطع أكثر قيمة بكثير في المتحف كان يمكن أن تُسرق، لذلك حاولت أن تشكر الله على ذلك. لكن، هذه هي المرّة الأولى التي يشهد فيها تاريخ المتحف عملية سرقة. حتّى إنني لا أعرف البروتوكول المتّبع في هذه الحالة!

شعرت مارتا بالضعف فجأة، ومذّت يدها للاستناد إلى إحدى الدعامات.

بدا حارسا الصالة مريبكين وهما يرويان لمارتا أحداث الليلة الماضية وما فعلاه بالضبط: عند حوالي الساعة العاشرة، دخلت مارتا مع *إيل دوومينو* ولانغدون. وبعد مدّة قصيرة، خرج الثلاثة معاً. فأعاد الحارسان إقفال الأبواب، وضبط جهاز الإنذار. وعلى حدّ علمهما، لم يدخل أحد أو يخرج من القاعة منذ تلك اللحظة.

صاحبت مارتا بالإيطالية: "هذا مستحيل! لقد كان القناع في الخزانة عندما غادرنا في الليلة الماضية. لذلك، لا شك أن أحدهم قد دخل القاعة منذ ذلك الحين!". رفع الحارسان أيديهما، وبدت عليهما علامات الحيرة. "لم نر أحداً".

الآن، ويانتظار وصول الشرطة، ذهبت مارتا بأسرع ما سمح لها به جسدها باتجاه غرفة المراقبة. وسار لانغدون وسيينا خلفها بتوتر. فكرت مارتا: ستظهر لنا كاميرات المراقبة بالتحديد من دخل إلى هنا في الليلة الماضية!

على مسافة من القصر، على جسر فيكيو، ابتعدت فايينثا إلى الظل مع وصول عنصرين من الشرطة أخذًا يشيطان المنطقة مزوّدين بصور للانغدون. مع اقتراب الضابطين من فايينثا، تصاعد صوت من جهازي اللاسلكي اللذين يحملانها. كان عبارة عن نشرة روتينية لجميع رجال الشرطة. كان الإعلان موجزاً وباللغة الإيطالية، لكن فايينثا فهمت مغزاه: يجب على أي عنصر متوقّف في منطقة قصر فيكيو أن يتوجّه لأخذ إفادة في متحف القصر. لم يعر الضابطان البيان الذي أثار اهتمام فايينثا أي اهتمام. متحف قصر فيكيو!

لقد وقعت كارثة الليلة الماضية التي تمرّت حياتها المهنية في الأروقة خارج قصر فيكيو تماماً. واصلت الشرطة نشرتها بلغة إيطالية غير مفهومة بالنسبة إليها في معظمها، باستثناء كلمتين برزتا بوضوح: دانتي أليغييري. توتر جسدها على الفور. دانتي أليغييري؟! بالتأكيد هذا ليس محض صدفة. التفتت باتجاه قصر فيكيو ورأت برجه المطل فوق أسطح المباني المجاورة. تساءلت: ما الذي حدث بالضبط في المتحف؟ ومتى؟! بغض النظر عن التفاصيل، عملت فايينثا محلّة ميدانية لمدة طويلة، حيث أصبحت تعرف أن الصدفة أمر أقل شيوعاً بكثير ممّا يتصوّر أغلب الناس. متحف قصر فيكيو... ودانتي؟! لا بد أن لهذا الأمر علاقة بلانغدون.

شكّت فايينثا دائماً أن لانغدون سيعود إلى المدينة القديمة؛ فهذا منطقي. المدينة القديمة هي المكان الذي تواجد فيه لانغدون ليل أمس عندما بدأ كلّ شيء يخرج عن السيطرة. والآن، في ضوء النهار، تساءلت فايينثا عمّا إذا كان لانغدون قد عاد إلى المنطقة المحيطة بقصر فيكيو لإيجاد ما يبحث عنه. كانت واثقة أنه لم يعبر هذا الجسر لدخول المدينة القديمة. وعلى الرغم من وجود الكثير من الجسور الأخرى، غير أنها بدت بعيدة جداً ليذهب إليها سيراً على الأقدام من حدائق بوبولي.

تحت الجسر، رأت طاقماً من أربعة رجال يجذفون ويمزّون من تحت الجسر. قرأت على القارب عبارة سوسييتا كانوتيري فيرنزي/نادي فلورنسا للتجديف. راحت المجاذيف البيضاء والحمراء المميزة تغلو وتنخفض بانسجام تام.

هل يمكن أن يكون لانغدون قد استقل القارب؟ يبدو هذا الاحتمال بعيداً، لكنّها شعرت أنّ عليها عدم تجاهل بلاغ الشرطة المتعلّق بقصر فيكيو.

قالت امرأة بلكنة إنكليزية: "الرجاء إطفاء كلّ الكاميرات!".

التفتت فايينثا ورأت كرة برتقالية زاهية تلوح بها دليّة سياحية في محاولة لقيادة مجموعة من السياح عبر جسر فيكيو.

قالت المرأة بحماسة وهي ترفع كرتها في الهواء وتوجّه أنظار الجميع إلى الأعلى: "فوقكم تقع أكبر تحفة من تحف فاساري".

لم تلاحظ فايينثا الأمر من قبل، لكن يبدو أنّ هناك طابقاً ثانياً يمتدّ فوق المتاجر مثل شقّة ضيقة.

قالت الدليّة: "رواق فاساري. يبلغ طوله تقريباً كيلومتراً واحداً، وكان يؤدّي دور ممزّ آمن لأسرة ميديتشي بين قصر بيتي وقصر فيكيو".

ذهلت فايينثا عندما أدركت وجود البناء الشبيه بالنفق الممتدّ فوقها. كانت قد سمعت عن هذا الرواق، لكنّها لم تعرف عنه الكثير.

إذاً، إنه يؤدّي إلى قصر فيكيو؟

تابعت الدليّة: "قلّة من الأشخاص الذين لديهم علاقات مع شخصيات هامّة يمكنهم دخول هذا الرواق اليوم. إنه صالة فنيّة رائعة تمتدّ من قصر فيكيو إلى الزاوية الشمالية الشرقية لحدائق بوبولي".

مهما يكن ما قالته الدليّة بعد ذلك، فإنّ فايينثا لم تسمع منه شيئاً؛ إذ كانت قد انطلقت باتجاه دراجتها النارية.

الفصل 41

عانت القطب في رأس لانغدون تسبب له الألم وهو يدخل مع سيبينا ومارتا والحارسين غرفة المراقبة. لم تكن الحجرة الصغيرة سوى غرفة ملابس سابقاً، تم تحويلها إلى غرفة مراقبة مع بنك من محركات الأقراص الصلبة وشاشات الكمبيوتر. كان الهواء في الداخل خائفاً وعابقاً برائحة السجائر. شعر لانغدون على الفور أن الجدران تضيق عليه الخناق.

جلست مارتا أمام الشاشة التي كانت أساساً تعرض مناهد سابقة. ظهرت عليها صورة باهتة بالأسود والأبيض للأنديتو، مأخوذة من فوق الباب. أشار الزمن الظاهر على الشاشة إلى أن المشاهد ترجع إلى ما قبل ظهيرة يوم أمس؛ أي تحديداً قبل أربع وعشرين ساعة، قبل أن يفتح المتحف أبوابه، وقبل مدة طويلة من وصول لانغدون في ذلك المساء مع إيل نورمينو الغامض.

سرّع الحارس الشريط، ورأى لانغدون مجموعة من السياح الذين راحوا يتدفقون بسرعة داخل الأنديتو، ويتنقلون بحركة سريعة. لم يكن القناع مرئياً من تلك الزاوية، لكن من الواضح أنه ما زال معروضاً في الخزانة، لأن السياح كانوا يتوقفون تكراراً لرؤيته والتقاط الصور قبل متابعة جولاتهم.

فكر لانغدون، /أسرع/ أرجوك، وأدرك أن الشرطة في طريقها إليهم. تساءل عما إذا كان يتعين عليه الاستئذان والهرب برفقة سيبينا، لكنه بحاجة إلى رؤية هذا الشريط. مهما يكن ما فيه، فإنه سيجيب عن الكثير من الأسئلة حول ما يجري.

تواصل العرض بشكل أسرع، وبدأت ظلال ما بعد الظهيرة تظهر في الغرفة. دخل السياح وخرجوا إلى أن بدأت الحشود تتفرق، ثم تختفي تماماً. مع مضي الوقت متجاوزاً الساعة الخامسة مساءً، انطفأت أضواء المتحف، وعمّ الهدوء.

يغلق المتحف أبوابه عند الساعة الخامسة.

أمرت مارتا قائلة: "ضاعف السرعة"، وانحنى في كرسيها وهي تحقق إلى الشاشة. سرّع الحارس العرض، وتقدم الزمن بسرعة، إلى أن عاد المتحف ليشتع بالأنوار حوالى الساعة العاشرة مساءً.

سارع الحارس إلى إبطاء التسجيل ليعيده إلى السرعة الطبيعية.

بعد دقيقة، ظهرت صورة مارتا ألفاريز الحامل. كان يتبعها عن قرب لانغدون الذي دخل مرتدياً سترة هاريس تويد كامبرلي المألوفة مع سروال كاكي، ومنمعلأ حذاءه الخاص. حتى إن ساعة ميكي ماوس بدت من تحت كم قميصه وهو يمشي.

ها أنا ذا... قبل أن أتعرض لإطلاق النار.

شعر لانغدون باضطراب عميق وهو يشاهد نفسه يفعل أشياء لا يذكرها إطلاقاً. هل كنت هنا في الليلة الماضية... ورأيت قناع الموت؟ بطريقة ما، بين تلك اللحظة وهذه، فقدّ ملابسه وساعة ميكي ماوس ويومين من حياته.

مع استمرار الشريط بعرض المشاهد، اقترب هو وسيينا من مارتا والحارسين لإلقاء نظرة أفضل. تواصل العرض الصامت مظهراً لانغدون ومارتا وهما يقتربان من خزانة العرض ويتأملان القناع. في أثناء ذلك، ظهر ظلّ كبير على الباب خلفه، ثمّ تقدّم رجل بدين للغاية وظهر في الصورة. كان يرتدي سترة داكنة، ويحمل حقيبة، وبالكاد تمكّن من العبور عبر الباب. مقارنة بكرشه الضخمة، بدت مارتا الحامل نحيلة.

تعرف لانغدون فوراً على الرجل. إغناسيو!!

همس لانغدون في أنف سيينا: "هذا إغناسيو بوزوني، مدير متحف أوبرا دوومو. أعرفه منذ عدّة سنوات، لكنني لم أكن أعرف إطلاقاً أنّه ملقّب بإيل دوومينو". أجابت سيينا بصوت منخفض: "اللقب يناسبه تماماً".

خلال السنوات الفائتة، استشار لانغدون إغناسيو بشأن تحف فنية ومعلومات تاريخية متعلّقة بإيل دوومو، أي البازيليك المسؤول عنها. لكنّ زيارة قصر فيكيو بدت خارج مجال إغناسيو. مع ذلك، وبالإضافة إلى كون إغناسيو بوزوني شخصية نافذة في عالم الفنّ في فلورنسا، فقد كان شديد الحماسة لدانتي وواحداً من تلامذته.

إنّه مصدر منطقي للمعلومات عن قناع الموت العائد لدانتي.

عندما أعاد لانغدون تركيزه إلى الفيديو، رأى أنّ مارتا تظهر في الفيلم وهي تنتظر بصبر أمام الجدار الخلفي للأنديتو، في حين انكأ لانغدون وإغناسيو على الدعامات لتفحص القناع من أقرب مسافة ممكنة. ومع مواصلة الرجلين تأملاتهما ونقاشهما، مرّت الدقائق، وبدت مارتا وهي تنظر إلى ساعتها سرّاً خلفهما.

تمنّى لانغدون لو أنّ تسجيل الكاميرات يتضمّن الصوت أيضاً. عمّ كنّا نتحدّث؟ وعمّ كنّا

نبحث؟!

في تلك اللحظة، تجاوز لانغدون الدعامات، وانحنى أمام خزانة العرض مباشرة؛ حيث أصبح وجهه على بُعد بضعة إنشات فقط من الزجاج. عندها، تدخّلت مارتا على الفور، وأخذت توبّخه كما يبدو، في حين تراجع لانغدون وهو يعتذر.

قالت مارتا وهي تنظر إليه من فوق كتفها: "أعتذر لأنني كنت صارمة جداً. لكن كما قلت لك في ذلك الوقت، إنّ خزانة العرض قطعة أثرية حسّاسة للغاية. وقد أصرّ مالك القناع على بقاء الناس خلف الدعامات. حتّى إنّنا لا نسمح لموظّفيننا بفتح الخزانة إن لم يكن موجوداً".

استغرق لانغدون بعض الوقت حتّى استوعب كلامها. مالك القناع؟ اعتقد لانغدون أنّ

القناع ملك للمتحف.

ظهر أثر المفاجأة أيضاً على سيبينا التي قالت على الفور: "ليس المتحف هو مالك القناع؟".

هزت مارتا رأسها نافية، وأعادت نظرها إلى الشاشة. "عرض أحد الأثرياء شراء قناع دانتي من مجموعتنا، وتركه معروضاً هنا دائماً. وبما أنه عرض ثروة صغيرة لقاء ذلك، قبلنا بسرور". قالت سيبينا: "لحظة واحدة، دفع ثمن القناع... وسمح لكم بالاحتفاظ به؟".

قال لانغدون: "هذا ترتيب شائع، يسمّى عملية شراء خيرية؛ أي طريقة يتبرّع بها الواهبون بمبالغ كبيرة للمتاحف من دون تسجيل المنحة على أنّها عمل خيري". قالت مارتا: "كان الواهب رجلاً غير عادي؛ تلميذاً حقيقياً لدانتي، غير أنّه... إلى حدّ ما... فاناتيكر". متعصّب؟

سألته سيبينا بنبرة عرضية: "ومن يكون؟". عيسيت مارتا وهي تحدّق إلى الشاشة: "من؟ في الواقع، لا بدّ أنّك قرأت عنه مؤخراً في الصحف؛ إنّهُ الملياردير السويسري بيرتراند زوبريست؟".

بالنسبة إلى لانغدون، كان الاسم مألوفاً على نحو بعيد، لكنّ سيبينا أمسكت بذراع لانغدون وشدّت عليها بقوة، وبدت كما لو أنّها رأت شبحاً.

قالت بتردد وقد شحب وجهها: "آه، أجل... بيرتراند زوبريست، الكيميائي الحيوي الشهير الذي جنى ثروة كبيرة من الاختراعات البيولوجية في سنّ مبكرة". صممت هنيهة لابتلاع لعبائها، ثمّ مالت باتجاه لانغدون وهمست في أذنه: "زوبريست هو من اخترع مجال التلاعب بالسلالات الجراثومية".

لم يكن لانغدون يملك أدنى فكرة عن معنى ذلك، لكنّ العبارة تنذر بالشؤم، لا سيّما في ضوء موجة الصور المنطوية على الأوبئة والموت التي تلاحقه. تساءل عمّا إذا كانت سيبينا تعرف هذا القدر عن زوبريست لأنّها على اطلاع واسع في مجال الطب... أو لأنّهما كانا طفلين معجزة. هل يتابع العلماء أعمال بعضهم بعضاً؟

شرحت سيبينا قائلة: "سمعت عن زوبريست للمرّة الأولى منذ بضع سنوات، عندما أعطى وسائل الإعلام تصريحات استغزازية للغاية حول النمو السكاني". صممت قليلاً، ثمّ أضافت بتجهم: "زوبريست من دعاة معادلة الانهيار السكاني".

"المعززة؟".

"في الأساس، هذا اعتراف رياضي بأنّ عدد سكّان العالم يرتفع، والناس يعيشون لمُدّة أطول، وثرواتنا الطبيعية تتضاءل. وتتوقّع المعادلة أنّ الوضع الحالي لن يؤدّي سوى إلى انهيار المجتمع على نحو مروع. كان زوبريست قد توقّع علناً أنّ الجنس البشري لن يعيش قرناً آخر... ما لم يتعرّض لحدث ما يؤدّي إلى موت جماعي". تنهّدت سيبينا بتعب، ونظرت إلى عيني لانغدون مضيفة. "في الواقع، نُقل عن زوبريست قوله في إحدى المرات إنّ أفضل ما حدث لأوروبا هو الموت الأسود".

حقّق إليها لانغدون مصدوماً، واقتصر جسده وهو يتنكّر مجدداً صورة قناع الطاعون. كان يحاول منذ الصباح أن يقاوم فكرة أنّ مازقه الحالي مرتبط بوباء قاتل... لكن مع الوقت، يصعب عليه رفض هذه الفكرة.

لا شك أنّه من المنفر أن يقوم بيرتراند زوبريست بوصف الطاعون الأسود بأنّه أفضل ما حدث لأوروبا. لكنّ لانغدون يعرف أنّ الكثير من المؤرّخين ذكروا المنافع الاجتماعية والاقتصادية طويلة الأمد للموت الجماعي الذي شهدته أوروبا في القرن الرابع عشر. فقبل الطاعون، كان الاكتظاظ السكاني والمجاعة والأزمة الاقتصادية هي الصفات التي ميّزت عصر الظلمات. لكنّ الانتشار المفاجئ للطاعون - ومع أنّه كان مريعاً - كان فعالاً في خفض أعداد السكان، وإيجاد وفرة من الغذاء والفرص. واستناداً إلى الكثير من المؤرّخين، شكّل ذلك العامل الأولي لمجيء عصر النهضة.

عندما تذكّر لانغدون رمز الخطر البيولوجي على الأنبوب الذي احتوى على الخارطة المعدلة لجحيم دانتّي، سرت رعدة في جسده: إذ لا بدّ أنّ المسلط الصغير صنعه شخص ما... وبيرتراند زوبريست، الكيميائي الحيوي والمتعصّب لدانتّي، يبدو الآن مرشحاً منطقياً.

خبير التلاعب الجيني بالسلالات الجرثومية. شعر لانغدون أنّ قطع الأحجية بدأت الآن تأخذ مكانها. لكن مع الأسف، بدت الصورة التي تتكوّن مخيفة على نحو متعاطم.

أمّرت مارتا الحارس قائلة: "سرع هذا الجزء"، وبدت متلهفة لتجاوز القسم الذي يتفحص فيه لانغدون وإغناسيو بوزوني القناع لمعرفة من اقتحم المتحف وسرقه.

ضغط الحارس على زرّ تسريع الشريط.

ثلاث دقائق... ست دقائق... ثماني دقائق.

على الشاشة، بدت مارتا واقفة خلف الرجلين وهي تنقل ثقلها من رجل إلى أخرى على نحو متسارع، وتتفحص ساعتها تكراراً.

قال لانغدون: "أنا أسف لأننا تحدّثنا مطوّلاً. تبدين منزوعة".

أجابت مارتا: "هذا خطئي. فقد أصررتما عليّ للذهاب إلى البيت وترككما مع الحراس، لكنني شعرت أنّ ذلك لن يكون لائقاً".

فجأة، اختفت مارتا عن الشاشة، فأبطأ الحارس الفيديو إلى السرعة الطبيعية.

قالت مارتا: "لا بأس. أذكر أنّني ذهبت إلى الحمام".

هزّ الحارس رأسه ومدّ يده مجدداً لتسريع الشريط، لكن قبل أن يفعل، أمسكت مارتا بذراعه. "توقّف!".

اشرأب عنقها وحدقت إلى الشاشة بارتباك.

كان لانغدون قد رأى ذلك أيضاً. ما الذي يجري حباً بالله!!

بدا لانغدون على الشاشة وهو يمدّ يده إلى جيب ستره للتويد ويخرج زوجاً من القفازات الطبية، ويرتديهما.

في الوقت نفسه، وقف *ايل* دوومينو خلفه، وراح يحتق إلى الممر الذي خرجت منه مارتا منذ لحظات للذهاب إلى الحمام. بعد قليل، أوما الرجل البدين للانغدون وكأنه يعني أن المكان آمن.

لكن، ماذا كنا نفعل؟!

شاهد لانغدون نفسه على شريط الفيديو وهو يمدّ يديه المكسوتين بالقفازين ويتحسس طرف باب الخزانة... ثم يشده بلطف إلى أن تحرّك المفصل القديم وفُتح الباب ببطء... حيث لم يعد أي حاجز يفصل بينه وبين قناع دانتي.

صدرت عن مارتا ألفاريز شهقة رعب، قبل أن تضع يديها على وجهها. لم يكن لانغدون يقلّ عنها رعباً وهو يشاهد نفسه يمدّ يديه إلى الخزانة، ويمسك بقناع دانتي ويخرجه.

صاحت مارتا: "نيو مي سالفى!". ثم نهضت على قدميها واستدارت لمواجهة لانغدون. "كوزا فاتو؟ بيركي؟". ماذا فعلت؟ لماذا؟

قبل أن يتمكن لانغدون من الإجابة، أخرج أحد الحارسين بيريتا أسود وسدّه مباشرة إلى صدر لانغدون.

رياه!

حدّق لانغدون إلى مستس الحارس وشعر أن الحجرة تضيق الخناق عليه. كانت مارتا ألفاريز واقفة أمامه الآن؛ تحدّق إليه بعدم تصديق وبتعبير من تعرّض للخيانة. وعلى الشاشة خلفها، ظهر لانغدون الآن وهو يحمل القناع أمام الضوء ويتأملّه. أصرّ لانغدون، وهو يدعو لكي يكون ما يقوله صحيحاً: "أخرجته للحظة واحدة فقط، إغناسيو أكّد لي أنك لن تمنعني!".

لم تجبه مارتا. بدت مذهولة، وهي تحاول بوضوح أن تتخيل السبب الذي دفع لانغدون ليكذب عليها... وكيف تمكّن من الوقوف قريبهم بهدوء ومشاهدة الشريط وهو يعلم بما يحتويه.

لم أكن أعرف أنني فتحت الخزانة!

همست سيبينا: "روبرت، انظر! لقد وجدت شيئاً!". ظلّ انتباه سيبينا مركّزاً على الفيديو؛ محاولة إيجاد أجوبة على الرغم من تلك اللورطة.

على الشاشة، كان لانغدون الآن يحمل القناع ويوجّهه نحو الضوء، وبدأ اهتمامه منجذباً لشيء في الجهة الخلفية للتحفة.

من تلك الزاوية للكاميرا، وللحظة خاطفة، حجب القناع المرفوع وجه لانغدون جزئياً على نحو أصبحت فيه عينا القناع على خطّ واحد مع عيني لانغدون. تذكر عبارة لا يمكن لمس الحقيقة إلا عبر عيون الموت، وأحسّ بقشعريرة.

لم يكن لانغدون يملك أدنى فكرة عما كان ينظر إليه في الجهة الخلفية للقناع. لكن في تلك اللحظة، عندما أخبر إغناسيو بما اكتشفه، فوجئ الرجل البدين، وراح يبحث عن نظارته

وينظر إلى القناع مرة تلو الأخرى. وبدأ يهزّ رأسه بقوة ويذرع الغرفة ذهاباً وإياباً في حالة من التوتر.

فجأة، نظر الرجلان إلى الأعلى لدى سماعهما على الأرجح صوتاً في الرواق، لا بدّ أنّه كان صوت مارتا العائدة من الحمام. فأسرع لانغدون وأخرج من جيبه كيساً كبيراً وضع فيه قناع الموت قبل أن يعطيه لإغناسيو الذي وضعه - بتردد واضح - داخل حقيبتّه. سارع لانغدون إلى إغلاق باب الخزانة الأثرية الفارغة، ثم خرج الرجلان إلى الردهة لملاقاة مارتا قبل أن تكتشف فعلتهما.

الآن، رفع الحارسان مستسيهما في وجه لانغدون. ترنّحت مارتا واستندت إلى الطاولة وهي تقول بحدة: "لا أفهم! أنت وإغناسيو بوزوني سرقتما قناع دانتي!".

قال لانغدون محاولاً الارتجال قدر الإمكان: "كلاً. لدينا إذن من المالك بإخراج القناع من المبنى الليلة واحدة".

سألته: "إذاً من المالك؟ من بيرتراند زوبريست؟".

"أجل، لقد وافق السيّد زوبريست على السماح لنا بفحص بعض العلامات على الجهة الخلفية للقناع! اجتمعنا به عصر أمس!".

راحت عينا مارتا تقدحان شرراً. "بروفيسور، أنا واثقة تماماً أنّكما لم تجتمعا ببيرتراند زوبريست عصر أمس".

"بلى بالتأكيد -".

وضعت سبيناً يدها على نراع لانغدون وهي تنتهّد قائلة: "روبرت... منذ ستّة أيّام، ألقى بيرتراند زوبريست بنفسه من أعلى برج باديا، على بعد مسافة قصيرة من هذا المكان".

الفصل 42

كانت فايينثا قد تركت دراجتها النارية شمال قصر فيكيو ودارت حول ساحة بياتزا ديلأ سينيوريا سيراً على الأقدام. وفي أثناء مرورها بين تماثيل لودجا داي لانتسي المعروضة في الهواء الطلق، لم تتمكّن سوى من ملاحظة أن جميع التماثيل ذات موضوع واحد: عرض عنيف لهيمنة الرجل على المرأة.

اختطاف السابيينيات.

اختطاف بوليكتينا.

فيرساوس يحمل رأس ميدوزا المقطوع.

جميل، هذا ما فكرت فيه فايينثا وهي تخفض قبعتها فوق عينيها وتشق طريقها بين الحشود الصباحية باتجاه مدخل القصر الذي بدأ يستقبل للثو السياح الأوائل لذلك النهار. كما يبدو، إنه يوم عمل عادي في قصر فيكيو.

فكرت فايينثا: ما من عناصر شرطة، على الأقل ليس بعد.

أحكمت إغلاق سترتها حول عنقها، وتأكدت أن سلاحها مخبأ، ثم توجهت عبر المدخل. تبعَت الإشارات المتجهة إلى متحف القصر، ومزّت عبر قاعتين مزخرفتين قبل أن ترتقي درجاً كبيراً يؤدي إلى الطابق الثاني.

تذكّرت وهي تصعد رسالة الشرطة:

ايل موزيو دي بالاتزو فيكيو... دانتي أليغييري.

لا شك أن لانغدون هنا.

قادت الإشارات المؤدية إلى المتحف فايينثا إلى صالة ضخمة مزخرفة هي قاعة الخمسمائة، التي توزّع فيها السياح متأملين اللوحات الجدارية الهائلة المرسومة على الجدران. لم تكن فايينثا مهتمة بتأمل الفنون الموجودة في هذا المكان، بل بحثت عن إشارة أخرى تشير إلى المتحف، ووجدتها عند أقصى الزاوية اليمنى للغرفة، وكانت تشير إلى الدّرج.

وفيما كانت تعبر القاعة، رأت مجموعة من طلاب الجامعة متجمهرين حول منحوتة واحدة، وهم يضحكون ويلتقطون الصور. وقرأت على اللوحة: *هرقل وديوميديس*.

نظرت فايينثا إلى المنحوتة وصدر عنها أنين.

كانت المنحوتة تصوّر بطلي الأساطير اليونانية، كلاهما عاريان، ويخوضان مبارزة مصارعة. كان هرقل يحمل ديوميديس رأساً على عقب مستعداً لإلقائه أرضاً، في حين بدأ ديوميديس وكأنه يقول: "هل أنت واثق أنك ترغب في رمي؟".

اقشعر جسد فايينثا.

أبعدت عينيها عن التمثال الغريب، وراحت تصعد الدّرج بسرعة متّجهة إلى المتحف. وصلت إلى شرفة عالية تطلّ على القاعة، ورأت هناك عدداً من السياح الذين ينتظرون أمام مدخل المتحف.

قال لها أحد السياح بمرح وهو يطلّ من خلف كاميرا الفيديو: "تأخّر فتح القاعة". سألته: "هل تعرفون السبب؟".

"كلاً. لكن يمكننا استغلال الوقت في تأمل هذه الإطلالة الرائعة!". وأشار الرجل إلى قاعة الخمسمائة الممتدة في الأسفل.

مشّت فايينثا إلى طرف الشرفة، وراحت تحدّق إلى القاعة الكبيرة. في الأسفل، وصل للتوّ ضابط شرطة، ولم يجنب الانتباه إليه وهو يسير في القاعة من دون استعجال متوجّهاً إلى الدّرج. فكّرت فايينثا، إنّهُ قادم لأخذ إفادة. أشارت مشية الرجل الهانئة إلى أنّه يأتي استجابة لاتّصال روتيني، ولا يشبه على الإطلاق أولئك الرجال الذين يبحثون عن لانغدون عند بورتا رومانا.

إن كان لانغدون هنا، فلماذا لا يفتشون المبنى؟

إما أن تكون فايينثا قد أخطأت في ظنّها أنّ لانغدون في القصر، أو أنّ الشرطة المحليّة وبرودر لم يدركوا ذلك بعد.

وصل الشرطي إلى أعلى الدّرج، وتقدّم نحو مدخل المتحف، فاستدارت فايينثا وتظاهرت أنّها تنظر من إحدى النوافذ. فنظراً إلى ما جرى معها وإلى طول ذراع العميد، حاولت أن تتجنّب أيّ مخاطرة.

سمعت صوتاً يهتف قائلاً: "أسبيثا!".

راح قلب فايينثا ينبض بعنف عندما توقّف الضابط خلفها مباشرة. أدركت أنّ الصوت صادر من جهازه اللاسلكي.

كرّر الصوت: "أتيندي إي رينفورسي!".

انتظر وصول الدعم؟ شعرت فايينثا أنّ شيئاً ما قد تغيّر.

في تلك اللحظة، لمحت من النافذة شيئاً أسود يكبر حجمه في السماء. كان يطير باتجاه قصر فيكيو آتيا من حدائق بوبولي.

أدركت فايينثا أنّها طائرة المراقبة. برودر يعرف، وهو أت إلى هنا.

كان منسق الكونسورتيوم، لاورنس نولتون، ما زال يلوم نفسه على اتصّاله بالعميد. أدرك أنّه لم يكن يجدر به أن يقترح عليه مشاهدة فيلم الزبون قبل تحميله إلى وسائل الإعلام غداً.

المحتوى لا يهتنا.

البروتوكول هو المرجع.

ما زال نولتون يتذكر الشعار الذي يعلمونه للتقنيين الشباب عندما يبدأون بالعمل في المنظمة. لا تسأل، بل نفذ وحسب.

وضع على مضمض بطاقة لاصقة حمراء لتذكيره بتلك المهمة في الصباح الباكر، وتسأل عما ستفعله وسائل الإعلام بتلك الرسالة الغريبة. هل ستعرضها أساساً؟ بالطبع ستفعل، فهي من بيرتراند زوبريست.

لم يكن زوبريست شخصية ناجحة جداً في عالم الطب البيولوجي فحسب، بل ذاع صيته مؤخراً أيضاً نتيجة إقدامه على الانتحار في الأسبوع الفائت. وهذا الشريط الذي يستغرق عرضه تسع دقائق سيبدو وكأنه رسالة من القبر. ونظراً إلى درجة تشاؤمه، سيستحيل تقريباً على الناس إيقافه.

سينتشر هذا الشريط كالنار في الهشيم بعد دقائق من إطلاقه.

الفصل 43

خرجت مارتا ألفاريز من غرفة المراقبة المزدحمة غاضبة، وتركزت لانغدون وشقيقته الفظة تحت تهديد السلاح. اقتربت من إحدى النوافذ، وحذقت إلى بياتزا ديلاً سينيوريا، فشعرت بالارتياح لدى رؤيتها سيارة شرطة مركونة أمام القصر.
لقد حان الوقت.

لم تفهم مارتا لماذا يقوم رجل محترم في مهنته مثل روبرت لانغدون بخداعها على هذا النحو الصارخ، واستغلال اللباقة المهنية التي تحلّت بها لسرقة تحفة أثرية لا تقدّر بثمن. وبمساعدة إغناسيو بوزوني؟! هذا مستحيل!
أرادت أن تُسمع إغناسيو رأيها بفعلتهما بصراحة، فتناولت هاتفها الخليوي واتصلت بمكتب ليل بومينو الذي كان يبعد مسافة قصيرة عن موزيو ديل أوبرا ديل دوومو.
لم يرنّ الهاتف سوى مرة واحدة.

أجاب صوت امرأة مألوف: "مكتب إغناسيو بوزوني".
كانت مارتا ودوداً مع سكرتيرة إغناسيو، لكنها اليوم ليست في مزاج مناسب لتبادل الحديث: "أوجينيا، أنا مارتا. أريد التحدّث مع إغناسيو".
حلّ صمت غريب في الطرف الآخر، ثم بدأت السكرتيرة فجأة تبكي بشكل هستيري.
سألته مارتا: "ما الأمر؟".

راحت أوجينيا تخبر مارتا وهي تبكي أنها وصلت للتوّ إلى المكتب واكتشفت أن إغناسيو قد أصيب ليلة أمس بذبحة قلبية خطيرة في أحد الأذقة قرب دوومو. كان الوقت حوالى منتصف الليل عندما اتّصل بالإسعاف، لكنّ المسعفين لم يصلوا في الوقت المناسب. وهكذا، مات بوزوني.

كانت مارتا أن تسقط من أثر الصدمة. لقد سمعت هذا الصباح في نشرة الأخبار أن مسؤولاً لم يُكشف عن اسمه قد توفّي في الليلة الفائتة، لكنها لم تتخيّل أن يكون إغناسيو.
قالت لها مارتا: "أوجينيا، اهدئي". وحاولت أن تحافظ على هدوئها وهي تشرح لها بسرعة ما شاهدته للتوّ على تسجيل كاميرات المراقبة العائدة للقصر: سرقة قناع دانتي على يد إغناسيو وروبرت لانغدون المحتجز الآن تحت تهديد السلاح.

لم تعرف مارتا ما هو ردّ الفعل الذي توقّعت من أوجينيا، لكنها بالتأكيد لم تتوقّع ما سمعته.
سألته أوجينيا: "روبيرتو لانغدون! هل أنت مع لانغدون الآن؟!"

بدا لمارتا وكأنَّ أوجينيا لم تفهم الوضع على حقيقته. "أجل، لكنَّ القناع -".
صاحت أوجينيا: "أريد التحدُّث معه".

في غرفة المراقبة، لم يتوقَّف الألم الذي شعر به لانغدون في رأسه وهو يقف أمام الحارسين اللذين سدَّدا سلاحيهما باتجاهه مباشرة. فجأة، فُتِح الباب وظهرت مارتا ألفاريز. سمع لانغدون عبر الباب المفتوح هدير طائرة المراقبة الآتي من بعيد، مصحوباً بعويل صفارات الإنذار المقترية. لقد عثروا علينا. قالت مارتا للحارسين: "وصلت الشرطة". وأرسلت أحدهما لمرافقة السلطات إلى المتحف. فيما بقي الآخر حاملاً سلاحه الموجه إلى لانغدون. فوجئ لانغدون بمارتا تقول له بدهشة: "ثمَّة من يريد التحدُّث معك. لكن عليك الوقوف هناك لالتقاط الشبكة".

خرجت المجموعة من غرفة المراقبة الضيقة إلى القاعة المغمورة بأشعة الشمس المتسلِّلة من النوافذ الكبيرة المطلَّة على مشهد رائع لبياتزا ديلأ سينيوريا في الأسفل. ومع أنَّ لانغدون ما زال تحت تهديد السلاح، إلَّا أنَّه شعر بالارتياح لخروجه من تلك الغرفة الضيقة. أشارت له مارتا ليقف قرب النافذة وأعطته الهاتف.

تناوله لانغدون بتردد، ووضع على أذنه. "نعم؟ أنا روبرت لانغدون".
قالت المرأة في محاولة للتكلُّم بالإنكليزية: "سينيوري، أنا أوجينيا أنتونوتشي، سكرتيرة إغناسيو بوزوني. التقينا ليلة أمس عندما أتيت إلى مكتبه".

لم يكن لانغدون يذكر شيئاً. "أجل؟".

"أنا أسفة جدًّا لإخبارك بذلك، لكنَّ إغناسيو قد توفيَّ ليل أمس إثر ذبحة قلبية".

اشتدَّت قبضة لانغدون على الهاتف. إغناسيو بوزوني مات؟!

بدأت المرأة تتحبب وهي تتحدَّث بصوت مليء بالحزن. "اتصل بي إغناسيو قبل أن يموت. لقد ترك لي رسالة وطلب منِّي إسماعك إيَّاها. سأسغِّلها لك".

سمع لانغدون خفياً، وبعد لحظات، بلغ مسمعه تسجيل صوتي ضعيف لإغناسيو بوزوني. قال الرجل الذي بدا بوضوح أنَّه يتألَّم: "أوجينيا، أحرصى أرجوك على إسماع لانغدون هذه الرسالة. أنا في ورطة، ولا أظنُّ أنني سأتمكن من العودة إلى المكتب". أخذ إغناسيو يئنُّ ألماً، وحلَّ صمت طويل. وعندما تحدَّث مجدداً، كان صوته أكثر ضعفاً. "روبرت، أتمنَّى أن تكون قد فررت. ما زالوا يلاحقونني... وأنا... أنا لست بخير. أحاول الوصول إلى طبيب، لكن... حلَّ صمت طويل آخر، كما لو أنَّ إيل دو مينيور يستجمع ما تبقى له من طاقة، قبل أن يتابع قائلاً: "روبرت، أصغِ إليَّ جيِّداً. ما تحدث عنه بأمان. الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع. الجئة خمس وعشرون". صمت مجدداً ثم همس: "بالتوفيق".

ثم انتهت الرسالة.

راح قلب لانغدون ينبض بسرعة وقد أدرك أنه سمع للتو الكلمات الأخيرة لرجل يحتضر. وكون هذه الكلمات موجهة إليه، لم يساعده على التخفيف من قلقه. الجثة 25؟ الأبواب مفتوحة أمامي؟ فكر لانغدون بذلك. أي أبواب يعني؟! الشيء الوحيد المفهوم إلى حد ما هو ما قاله إغناسيو عن أن القناع بأمان.

عادت أوجينيا إلى الخط. "بروفيسور هل تفهم شيئاً من ذلك؟".

"أجل، بعضه".

"هل ثمة ما يمكنني فعله؟".

فكر لانغدون بهذا السؤال مطوّلاً قبل أن يجيب: "أحرص على ألا يسمع أي شخص آخر

هذه الرسالة".

"والشرطة أيضاً؟ سيصل قريباً أحد المحققين لأخذ إفادتي".

تصلّب لانغدون عند سماعه ذلك. نظر إلى الحارس الذي يصوب سلاحه عليه، ثم التفت بسرعة نحو النافذة وأخفض صوته، وهمس بسرعة: "أوجينيا... سيبدو هذا غريباً، لكن من أجل إغناسيو، أريد منك أن تحذفي تلك الرسالة ولا تنكري للشرطة أنك تحدثت إلي. أهذا واضح؟ الوضع معقد جداً و -".

شعر لانغدون بفوهة المسدّس تضغط على جانبه، فالتفت ليرى الحارس المسلّح على بعد بضعة إنشات يرفع يده الأخرى مطالباً بهاتف مارتا.

على الطرف الثاني من الخط، حلّ صمت طويل قبل أن تقول أوجينيا أخيراً: "سيد لانغدون، رئيسي وثق بك... وهذا ما سأفعله".

عند ذلك، أنهت الاتصال.

أعطى لانغدون الحارس الهاتف، ثم قال لسيينا: "لقد توفي إغناسيو بوزوني بسكتة قلبية في الليلة الماضية بعد مغادرته هذا المتحف". صمت قليلاً ثم أضاف: "القناع بأمان، فقد خبّاه إغناسيو قبل أن يموت. وأظن أنه ترك لي فكرة عن مكانه". الجثة 25.

ومض الأمل في عيني سيينا. لكن، عندما التفت لانغدون إلى مارتا بدت متشككة.

قال لانغدون: "مارتا، يمكنني أن أعيد إليك قناع دانتي، لكن عليك أن تتركيني أخرج من هنا فوراً".

ضحكت مارتا بصوت عالٍ. "لن أفعل شيئاً كهذا! أنت من سرق القناع! والشرطة على وشك الوصول -".

قاطعتها سيينا قائلة بالإيطالية بصوت عالٍ: "سينيورا ألفاريز، نحن آسفان، لكننا لم نكن صادقين معك".

أجفل لانغدون. ماذا تفعل سيينا؟! فقد فهم ما قالتها.

ظهرت الدهشة على وجه مارتا أيضاً، مع أنها بدت ناتجة عن اكتشافها أن سيبينا أصبحت تتحدث فجأة بلغة إيطالية سليمة.
تابعت سيبينا بنبرة اعتذار: "أولاً، أنا لست شقيقة لانغدون".

الفصل 44

تراجعت مارتا خطوة إلى الخلف، ثم شبكت ذراعيها وراحت تتأمل الشابة الواقعة أمامها.

تابعت سيبينا بإيطالية سلسة: "أنا أسفة. لقد كذبتا عليك بشأن أمور كثيرة".

بدا الحارس حائراً بقدر ما بدت مارتا؛ مع أنه ظلّ ثابتاً على موقفه.

أخذت سيبينا تتكلم الآن بسرعة، بالإيطالية، وأخبرت مارتا أنها تعمل في مستشفى في فلورنسا، وأنّ لانغدون وصل في الليلة الماضية مصاباً بعيار ناري في الرأس، وشرحت لها كيف أنّ لانغدون لا يذكر شيئاً عن الأحداث التي جلبته إلى هنا، وأنه فوجئ بشريط الفيديو مثل مارتا تماماً.

أمرت سيبينا لانغدون قائلة: "أرها الجرح".

عندما رأت مارتا القطب تحت شعر لانغدون المشعث، جلست على حافة النافذة وأحاطت

وجهها بيديها لعدة ثوان.

خلال الدقائق العشر الأخيرة، اكتشفت مارتا أنّ قناع دانتي قد سُرق خلال وجودها في المتحف. ليس هذا فحسب، بل عرفت أيضاً أنّ اللصين هما بروفيسور أميركي محترم وزميلها الفلورنسي الذي تتق به، والذي أصبح الآن في عداد الأموات. بالإضافة إلى كلّ ذلك، إنّ الشابة سيبينا بروكس التي ظنّتها شقيقة روبرت لانغدون الأميركية ذات العينين الكبيرتين، هي في الواقع طبيبة، وتعتزف بالكذب... وتقوم بذلك بلغة إيطالية فصيحة.

قال لانغدون بصوته العميق والمتفهم: "سأعيد إليك القناع، أنا أعذك. لكن، لا يمكنني فعل

ذلك ما لم تسمح لي بالخروج. الوضع معقد، وعليك أن تخلي سبيلنا حالاً".

مع أنّ مارتا كانت تريد استعادة القناع الثمين، إلّا أنّها لم تكن تتوي السماح لأحد

بالذهاب. أين الشرطة؟! نظرت إلى سيارة الشرطة الوحيدة المتوقفة في بياتزا ديلّا سينيوريا. يبدو

غريباً أنّ رجال الشرطة لم يصلوا إلى المتحف بعد. سمعت مارتا أيضاً أزيزاً غريباً من بعيد؛ كما

لو أنّ أحداً ما يستخدم منشأراً كهربائياً، والصوت يزداد ارتفاعاً.

ما هذا؟

تابع لانغدون كلامه متوسلاً: "مارتا، أنت تعرفين إغناسيو. ما كان ليخرج القناع من دون

سبب وجيه. ثمة صورة أكبر هنا. فمالك القناع بيرتراند زوبريست كان رجلاً غير مستقر. نظنّ

أنّه متورط بشيء رهيب. ولا وقت لشرح كلّ ذلك، لكنني أتوسل إليك أن تتقي بنا".

حدقت إليه مارتا بصمت. فكّل ذلك بدا بالنسبة إليها بلا أي معنى.

قالت سيبينا وهي تسلط على مارتا نظرة باردة. "سيّدة ألفاريز، إن كنت تهتمين بمستقبلك ومستقبل طفلك، فعليك أن تسمحي لنا بالخروج حالا".

وضعت مارتا يديها على بطنها بحركة وقائية، ولم يسرها التهديد المبطن لجنينها. ازداد الأريز العالي قريباً، وعندما أطلقت مارتا من النافذة، لم تستطع رؤية مصدر الصوت، لكنها رأت شيئاً آخر.

رأى الحارس ذلك أيضاً، وحملق مذهولاً.

في بيانزا ديلاً سينيوريا، افرقت الحشود إلى الجانبين مفسحة الطريق لصف طويل من سيارات الشرطة التي وصلت من دون صفارات إنذار، تقودها سيارتا فان سوداوان توقفتا خارج أبواب القصر. ثم قفز منها جنود بالزي الأسود، وهرعوا إلى القصر حاملين بنادق كبيرة.

شعرت مارتا بالخوف. ما الذي يجري؟!

بدا القلق على الحارس أيضاً.

فجأة، ارتفع الأريز، وتراجعت مارتا فجأة عندما لمحت طائرة هليكوبتر صغيرة ترتفع بمستوى النافذة.

حامت الآلة في الجو على بعد لا يزيد عن عشر ياردات، وكأنها تحنق إلى الأشخاص الموجودين في القاعة. كانت عبارة عن آلة صغيرة، لا يتجاوز طولها ياردة واحدة تقريباً، مزودة بأسطوانة طويلة سوداء في المقدمة. وكانت الأسطوانة موجهة إليهم مباشرة.

صاحت سيبينا: "ستطلق النار! ستا بير سباراري! انبطحوا جميعاً! توّمي أنتيّا!". ركعت تحت حاجب النافذة، وحذت مارتا حذوها تلقائياً بعد أن استبد بها الخوف. ركع الحارس أيضاً، وصوب سلاحه تلقائياً نحو الآلة الصغيرة.

رأت مارتا من مكانها تحت النافذة أن لانغدون ما زال واقفاً ويحنق إلى سيبينا باستغراب، ومن الواضح أنه لا يصدق وجود أي خطر. انخفضت سيبينا لمجرد لحظة، قبل أن تقفز واقفة مجدداً، وتمسك لانغدون من معصمه، وتشدّه نحو الردهة. وبعد لحظة، كانا يهربان معاً باتجاه المدخل الرئيس للمبنى.

استدار الحارس على ركبتيه مثل قنّاص، ورفع سلاحه باتجاه الردهة مستهدفاً الثنائي الهارب.

أمرته مارتا قائلة: "لا تطلق النار! لن يتمكنا من الهرب!".

اختفى لانغدون وسيبينا عند الزاوية، وعرفت مارتا أنها ستكون مسألة ثوانٍ قبل أن يصطدما برجال الشرطة القادمين من الاتجاه المعاكس.

قالت سيبينا: "أسرع!". واندفعت مع لانغدون نحو الطريق الذي أتيا منه. كانت تأمل أن يتمكنا من الوصول إلى المدخل قبل أن يجدا نفسيهما وجهاً لوجه مع الشرطة. لكنها أدركت أن فرصتهما معدومة.

ساورت لانغدون شكوك مشابهة. فجأة، توقّف عند تقاطع واسع من الأروقة وقال: "لن
نتمكّن من الهرب من هذا الطريق".

حتّته سينيّا قائلة: "هيا روبرت، لا يمكننا الوقوف هنا!".

بدا لانغدون شاردأ وهو ينظر إلى اليسار؛ حيث امتدّ ممرّ قصير ينتهي كما يبدو عند
غرفة صغيرة خافتة الإضاءة. كانت جدران الغرفة مكسوّة بالخرايط القديمة، وفي وسطها وُضعت
كرة أرضية حديدية ضخمة. نظر لانغدون إلى الكرة المعدنية، وبدأ يهزّ رأسه ببطء، ومن ثمّ بقوة
أكبر.

أعلن قائلاً وهو يندفع نحو الكرة الحديدية: "من هنا".

روبرت! تبعته سينيّا مرغمة. من الواضح أنّ الممرّ يتّجه إلى أعماق المتحف؛ بعيداً عن
المخرج.

لحقت به قائلة: "روبرت، إلى أين تأخذنا؟!".

أجابها: "عبر أرمينيا".

"ماذا؟!".

كزّر وهو ينظر إلى الأمام: "أرمينيا، تقى بي".

على بعد طابق واحد في الأسفل، اختبأت فايينثا بين السياح الخائفين على شرفة قاعة
الخمسمائة، وأخضت رأسها حين مرّ برودر وفريقه من أمامها واقتحموا المتحف. في الأسفل،
سمعت الأبواب وهي تُقفل بعنف من قبل الشرطة التي أغلقت المكان.
إن كان لانغدون هنا فعلاً، فقد علق.
شأنه شأن فايينثا، مع الأسف.

الفصل 45

كانت قاعة الخرائط الجغرافية، بجدرانها الدافئة المكوّنة من خشب السنديان وسقفها المكوّن من الخشب، بعيدة كلّ البعد عن جدران قصر فيكيو الحجرية والجصّية. كانت هذه الغرفة في الأساس مخصصة لإيداع القبعات والمعاطف، وتحتوي على عشرات الخزائن التي استُخدمت في الماضي لحفظ مقتنيات الدوق الأكبر المجمولة. أمّا اليوم، فقد أصبحت جدرانها مزينة بالخرائط. ثلاث وخمسون لوحة مرسومة باليد على الجلد، تصوّر العالم كما كان معروفاً في العقد الخامس من القرن السادس عشر.

تهيمن على المجموعة الهائلة من الخرائط كرة أرضية ضخمة تحتلّ وسط الغرفة. هذه الكرة المعروفة باسم *ماتبا موندي*، والتي يبلغ طولها ستّ أقدام، كانت أكبر كرة أرضية دوّارة في العالم في أيامها، ويقال إنّها تتحرّك بسلاسة بمجرد لمسها. اليوم، تشكّل هذه الكرة الأرضية محطة أخيرة للسياح الذين يزورون قاعات القصر وغرفته، ويصلون إلى هذه الغرفة، ليدوروا فيها حول العالم ثمّ يعودوا أدراجهم من حيث أتوا.

وصل لانغدون وسيينا لاهنّين إلى قاعة الخرائط. ارتفعت أمامهما *ماتبا موندي* على نحو مهيب، لكنّ لانغدون لم يعرها أيّ انتباه، بل ركّز نظره على جدران الغرفة. قال: "علينا إيجاد أرمينيا، خارطة أرمينيا!".

من الواضح أنّ طلبه لم يفاجئ سيينا التي أسرعت تبحث عن خارطة أرمينيا على الجدار الأيمن في الغرفة.

وبدأ لانغدون على الفور بحثاً مشابهاً على الجدار الأيسر، وهو يشقّ طريقه حول الغرفة.

شبه الجزيرة العربية، إسبانيا، اليونان...

كان كلّ بلد من البلدان مصوّراً بتفاصيل لافتة للنظر؛ على اعتبار أنّ تلك الرسومات وضعت قبل أكثر من خمسمائة عام، في زمن لم يتمّ فيه بعد استكشاف معظم أجزاء العالم ووضع خرائط لها. أين أرمينيا؟

كانت ذكريات لانغدون عن "الجولة في الممرّات السريّة" التي قام بها هنا قبل بضع سنوات ضبابية مقارنة بذكرياته التخيلية الحيّة عادة. ويرجع ذلك إلى حدّ كبير إلى الكأس الثانية من شراب غاجا نيبولو الذي تناوله على الغداء قبل القيام بالجولة. والمضحك في الأمر، أنّ كلمة

نيبيولو تعني "الضباب الخفيف". مع ذلك، ما زال لانغدون يذكر أنه اطلع على خارطة في هذه الغرفة هي خارطة أرمينيا، وكانت تمتاز بخاصية فريدة.

فكر لانغدون، /أعرف أنها هنا، وتابع بحثه في مجموعة الخرائط التي لا تنتهي.
هتفت سيبينا: "أرمينيا! ها هي!".

التفت لانغدون نحوها، وكانت تقف في الزاوية اليمنى للغرفة. فاندفع نحوها، بينما وقفت سيبينا جانبا مشيرة إلى خارطة أرمينيا بتعبير بدا وكأنه يقول: "وجدنا أرمينيا، فماذا بعد؟".
لم يكن لانغدون يملك الوقت للتفسير. وعوضاً عن ذلك، مَذَّ يديه وأمسك بإطار الخارطة الخشبي الضخم، ثم شدّه نحوه. فانفصلت الخارطة عن الجدار والإطار الخشبي، لتكشف خلفها عن ممَرٍ خفي.
عندئذ، قالت سيبينا بإعجاب: "حسناً إذاً".

ومن دون تردّد، اندفعت سيبينا عبر الفتحة، ودخلت بلا خوف ذلك المكان المظلم. تبعها لانغدون، ثم سارع إلى إغلاق الباب الجداري خلفهما.

على الرغم من ذكريات لانغدون الضبابية عن الجولة في الممرّات الخفية، إلا أنّه كان يذكر هذا الممرّ بوضوح. لقد دخل هو وسيبينا للقرى القصر الخفي، وهو عالم غير مرئي، موجود خلف جدران قصر فيكيو، لا يدخله سوى الدوق الحاكم ومقرّبيه.

وقف لانغدون للحظة عند المدخل؛ لاستيعاب محيطه الجديد الذي كان عبارة عن ممَرٍ حجري باهت اللون، ينيره ضوء طبيعي خافت يتسلّل من سلسلة من النوافذ المصفّحة. وكان الممرّ يهبط لمسافة خمسين ياردة تقريباً نحو باب خشبي.

التفت الآن إلى يساره، ورأى سلماً ضيقاً يتّجه صعوداً، وكان مغلقاً بسلسلة. فوق السلم، عُلفت لافتة كتب عليها: /أوسيتا فييناتا.

توجّه لانغدون إلى السلم.

حدّثته سيبينا قائلة: "كلّا! اللافتة تعني أنّه لا يوجد مخرج".

ابتسم لانغدون ساخراً وقال: "شكراً، أنا أقرأ الإيطالية".

نزع السلسلة، وأخذها إلى الباب السري، ثم استخدمها لتثبيت الجدار المتحرّك، عبر تمريرها في مقبض الباب وتثبيتها على الجدار المجاور؛ حيث يتعدّد فتح الباب من الجهة الأخرى.
قالت سيبينا بخجل: "آه، فكرة جيّدة".

قال لانغدون: "لن نعيّقه لمُدّة طويلة، لكننا لن نحتاج إلى أكثر من ذلك. اتبعيني".

عندما فتّحت خارطة أرمينيا أخيراً، اندفع العميل برودر ورجاله عبر الممرّ الضيق، متوجّهين إلى الباب الخشبي عند الطرف الآخر من الممرّ. وعندما عبروه، شعر برودر بهبة من الهواء البارد، كما أضاء ضوء الشمس الساطع للحظات.

كان قد وصل إلى ممشي خارجي يمتد على طول سطح القصر. تأمل الطريق المؤدي مباشرة إلى باب آخر يبعد حوالى خمسين ياردة، ويؤدي مجدداً إلى داخل المبنى. نظر برودر إلى يسار الممشى. هناك، ارتفع سقف قاعة الخمسمائة المقبب مثل جبل. يستحيل المرور. التفت برودر الآن إلى اليمين، ورأى أن الممر محاط بجرف شاهق. الموت المحتم.

نظر مجدداً إلى الأمام وقال: "من هنا!". اندفع برودر ورجاله عبر الممشى باتجاه الباب الثاني، في حين راحت طائرة المراقبة تحوم كالنسر فوق الرؤوس.

عندما دخل برودر ورجاله عبر الباب، توقفوا فجأة، وأوشكوا على السقوط فوق بعضهم. وجدوا أنفسهم في حجرة صغيرة لا مخرج لها باستثناء الباب الذي دخلوا منه. وكان فيها مكتب خشبي وحيد موضوع أمام الجدار. فوقهم، بدت الرسومات الغريبة المرسومة على سقف الحجرة كما لو أنها تحدق إليهم ساخرة. إنهم أمام حائط مسدود.

أسرع أحد رجال برودر وقرأ اللافتة المعلقة على الجدار، ثم قال: "لحظة واحدة. بحسب اللافتة، ثمة نافذة هنا، نافذة سرية من نوع ما".

نظر برودر حوله لكنه لم يَرِ أي نوافذ خفية. ثم اقترب وقرأ اللافتة بنفسه. يبدو أن هذا المكان كان في الماضي مكتباً خاصاً للدوقة بيانكا كابيلى، ويحتوي على نافذة سرية - أونا فينيسترا سيغراتا - كانت بيانكا تشاهد عبرها زوجها وهو يلقي خطاباته في قاعة الخمسمائة.

تفحص برودر الغرفة مجدداً، ورأى هذه المرة فتحة صغيرة مخزومة ومخفية في الجدار الجانبي. هل هربا من هنا؟

اقترب وتفحص الفتحة التي بدت صغيرة جداً ولا تسمح بمرور شخص بحجم لانغدون. ضغط برودر وجهه على الشبك وحدق عبره، وتأكد بنفسه أنه لا يمكن لأي شخص الهرب من هنا. فمن الجهة الأخرى، لم يكن ثمة شيء سوى الفراغ الذي يهبط عدة طوابق وصولاً إلى قاعة الخمسمائة. إلى أين ذهبوا إذًا؟!

التفت برودر إلى الغرفة الصغيرة مجدداً، وشعر أن الإحباط يتصاعد داخله. وفي لحظة نادرة من الانفعال الجامح، أرجع العميل برودر رأسه إلى الوراء وأطلق صيحة غضب. تردد الصوت في الغرفة الصغيرة على نحو يصم الأذان.

وفي الأسفل، في قاعة الخمسمائة، التفت السياح وعناصر الشرطة وحدقوا جميعاً إلى الفتحة الصغيرة المكسوة بالشبك المخزوم في أعلى الجدار. يبدو من الصوت الصادر من الأعلى أن مكتب الدوقة السري يستخدم الآن كقفص لحيوان متوحش.

وقفت سيبينا بروكس وروبرت لانغدون في الظلام الدامس.
قبل دقائق، شاهدت سيبينا كيف قام لانغدون بنكاء باستخدام السلسلة ليوصد باب أرمينيا
المتحرك، قبل أن يستدير ويفرّ معاً.
لكن سيبينا فوجئت بلانغدون يتوجّه إلى السلم الذي علّقت فوقه لافتة /وشينا هييتاتا، عوضاً
عن التّقدّم عبر الممرّ.
همست محتارة: "روبرت، اللافتة تقول إنّه لا مخرج من هنا! ظننت أننا نريد النزول إلى
الأسفل!".

قال لانغدون وهو ينظر إلى الخلف من فوق كتفه: "صحيح. لكن، أحياناً عليك
الصعود إلى الأعلى... لكي تنزلي إلى الأسفل". غمزها مشجعاً وأضاف: "ألا تذكرين سرّة
الشیطان؟".

صعدت سيبينا وراءه من دون أن تفهم شيئاً. عمّ يتحدّث؟

سألها لانغدون: "هل سبق لك أن قرأت /إنفيرنو؟".

أجل... لكن أظنّ أنني كنت في السابعة.

بعد لحظة، فهمت ما يعنيه. قالت: "آه، سرّة الشيطان! تذكرت الآن".

أدركت سيبينا الآن أنّ لانغدون كان يشير إلى خاتمة /إنفيرنو دانتي. في تلك المقاطع،
وللهرب من الجحيم، كان على دانتي أن يتسلّق بطن الشيطان الضخم المكسو بالشعر. وعندما
وصل إلى سرّة الشيطان - التي ادّعى أنّها مركز الأرض - تبدّل فجأة اتّجاه جاذبية الأرض.
ولكي يتابع دانتي نزوله إلى المطهر... كان عليه أن يبدأ بالصعود إلى الأعلى.

لم تكن سيبينا تذكر الكثير عن /إنفيرنو باستثناء خيبتها إزاء حركات الجاذبية المناهضة للعقل
عند مركز الأرض. إذ يبدو أنّ عقريّة دانتي لا تتضمّن فهماً لفيزياء قوى النواقل.
وصلا إلى أعلى السلم، وفتح لانغدون الباب الوحيد الذي وجده. كان قد كتّب عليه: سالا
داي موديلي دي /اركييتورا.

قادها لانغدون إلى الداخل، ثمّ أوصد الباب خلفهما.

كانت الحجرة صغيرة وعادية، وتحتوي على سلسلة من الأطر التي تعرض نماذج خشبية
لتصاميم فاساري الهندسية لداخل القصر. بالكاد لاحظت سيبينا النماذج، لأنّها لم تر سوى شيء
واحد، وهو أنّ الغرفة لا تحتوي على أبواب، ولا على نوافذ؛ كما سبق أن أعلنت اللافتة... لا
يوجد مخرج.

همس لانغدون: "في أواسط القرن الرابع عشر، تولّى دوق أثينا السلطة على هذا القصر،
وبنى هذا الطريق السريّ للهرب في حال تعرّض للهجوم. يسمّى هذا السلم سلّم دوق أثينا، وهو
يقود إلى فتحة صغيرة في شارع جانبي في الأسفل. إن وصلنا إلى هناك، فلن يرانا أحد ونحن
نخرج". وأشار إلى إحدى الرسومات قائلاً: "انظري، هل ترين الباب هنا جانباً؟".

هل أحضرني إلى هنا ليبريني خرائط؟

نظرت سبيناً إلى الرسم المصغر بقلق، ورأت السلم السري الذي يهبط من أعلى القصر إلى مستوى الشارع، مُخبأً بين الجدران الداخلية والخارجية للمبنى. قالت سبيناً ساخرة: "أنا أرى السلم روبرت، ولكنّه من الجهة المقابلة للقصر تماماً. لن نتمكن أبداً من الوصول إلى هناك".

أجابها بابتسامة جانبية: "أظهري شيئاً من الثقة". تنأهى إليهما صوت حطام مفاجئ من الأسفل، فأدركا أنّه تمّ اختراق خارطة أرمينيا للتوّ. وقفّا جامدين وهما يصغيان إلى وقع أقدام الجنود المنطفعين عبر الممرّ، والذين لم يفكّر أيّ منهم بصعود السلم المتّجه إلى الأعلى... والذي يحمل لافتة كُتب عليها: لا يوجد مخرج. عندما هدأت الأصوات في الأسفل، توجّه لانغدون بنقّة بين المعروضات؛ مباشرة باتجاه ما بدا أنّه خزانة كبيرة في الجدار المقابل. كانت الخزانة بمساحة ياردة مربعة تقريباً، ومثبتة على ارتفاع ثلاث أقدام فوق الأرض. من دون تردّد، أمسك لانغدون بالمقبض وفتح الباب. تراجعت سبيناً متفاجئة.

بدا الباب وكأنّه يفصلهما عن كهف فارغ... كما لو كان يؤدّي إلى عالم آخر لا يسوده سوى الظلام.

قال لها لانغدون: "اتبعيني". تناول مصباحاً معلقاً على الجدار بجانب الفتحة، وبعد ذلك تسلّق وعبر الفتحة بخفّة وحيوية مفاجئة، واختفى في جحر الأرنب.

الفصل 46

فَكَرَ لانغدون في سرّه، لا سوقيّاً، العَلِيّة الأكثر إثارة على وجه الأرض.
كان الهواء في الداخل عفن الرائحة وقديماً، وكان الجصّ أصبح رقيقاً وخفيفاً على مرّ
القرون؛ إلى حدّ أن رائحته ظَلَّت عالقة في الهواء. أخذت الأرض تحت أقدامهما تصرّ وتئنّ،
فشعر لانغدون وكأنّه دخل أحشاء وحش حيّ.
ما إن وجد موطئ قدم ثابتاً على سطح أفقي متين، حتى رفع المصباح وترك أشعته تخترق
الظلام.

امتدّ أمام ناظره نفق بدا بلا نهاية، مؤلف من شبكة خشبية من المثاثات والمستطيلات
التي تشكّل تقاطع الأعمدة، والحزم، والألواح، وغيرها من العناصر البنّوية التي تؤلّف الهيكل
غير المرئي لقاعة الخمسمائة.

كان لانغدون قد زار هذه العَلِيّة الكبيرة خلال الجولة الضبابية في الممرّات السريّة التي قام
بها قبل بضع سنوات. كانت النافذة الشبيهة بالخزانة قد صُنعت في جدار غرفة النماذج
المعمارية لكي يتمكّن الزوّار من الاطّلاع على نماذج العمل والإطلال عبر الفتحة مجهّزين
بالمصباح لرؤية هذا العمل الهندسي على حقيقته.

الآن، بعد أن أصبح لانغدون داخل العَلِيّة، فوجئ من مدى الشبه بين هذا الفنّ المعماري
وذلك المستخدم في بناء حظائر نيو إنغلاند القديمة.

تسلّقت سبيّنا الفتحة أيضاً، وثبتت نفسها على العارضة الخشبية قرّبه، وبدأ عليها الضياع.
راح لانغدون يحرك المصباح إلى الأمام في أرجاء المكان لإعطائها فكرة عن هذا المشهد غير
المألوف.

من حيث يقفان، بدا النظر إلى العَلِيّة أشبه بالنظر عبر صفّ طويل من المثاثات
المتناظرة الممتدة إلى نقطة بعيدة. تحت أقدامهما، لم تكن العَلِيّة تحتوي على ألواح أرضية، بل
كانت العوارض الأفقية مكشوفة بالكامل، وأشبه بسكّة حديدية ضخمة.

أشار لانغدون إلى الممرّ الطويل وتحدّث بصوت خافت. "يمتدّ هذا المكان مباشرة فوق
قاعة الخمسمائة. إن تمكّنا من الوصول إلى الطرف الآخر، فأنا أعرف كيف نذهب إلى سلّم
دوق أثينا".

ألقت سبيّنا نظرة متشكّكة إلى مناهة العوارض والدعامات الممتدة أمامها. كانت الطريقة
الوحيدة لاجتياز العَلِيّة هي بالقفز بين الدعامات مثل الأطفال الذين يقفزون على سكّة حديد.

كانت الدعامات كبيرة، وكلّ منها تتألف من عدد كبير من العوارض الخشبية المجموعة معاً بواسطة مشابك حديدية عريضة لتشكل حزاماً متينة. كانت كبيرة بما يكفي؛ حيث يستطيع المرء الوقوف عليها متوازناً. لكنّ التحدي يكمن في المسافة الفاصلة بين الدعامات والتي تفوق قدرتهما على القفز بينها بأمان.

همست سيبينا قائلة: "لا يمكنني القفز بين هذه العوارض".

شكّ لانغدون في قدرته على فعل ذلك هو أيضاً، لا سيما وأنّ السقوط يعني الموت المحتم. وجّه ضوء المصباح عبر الفتحات الفاصلة بين الدعامات.

على بعد ثماني أقدام تحتهما، امتدّت مساحة أفقية مكسوّة بالغبار، ومعلّقة بالقضبان الحديدية. كانت تشبه الأرضية، وتمتدّ على مدى النظر. على الرغم من مظهرها المتين، عرف لانغدون أنّ تلك الأرضية تتألف أساساً من النسيج المشدود المكسوّ بالغبار. كان ذلك هو "الوجه الآخر" لسقف قاعة الخمسمائة المعلق، والذي كان عبارة عن مساحة كبيرة من الفتحات الخشبية التي تشكل أطراً للوحات فاساري التسع والثلاثين، وجميعها مثبتة أفقياً على شكل رف.

أشارت سيبينا إلى المساحة المكسوّة بالغبار الممتدة تحتهما وقالت: "ألا يمكننا النزول إلى هناك والسير عليها؟".

هذا إن كنت تريدان السقوط عبر إحدى لوحات فاساري في قاعة الخمسمائة.

قال لانغدون بهدوء، لكي لا يخيفها: "في الواقع، ثمة طريقة أفضل". وبدأ يسير على الدعامة باتجاه العمود المركزي للعلية.

في زيارته السابقة، وبالإضافة إلى إطلالته عبر نافذة غرفة النماذج الهندسية، قام باستكشاف العلية سيراً على الأقدام، ودخل عبر باب يقع في الطرف الآخر من العلية. وحسبما يذكر من تلك الزيارة، ثمة لوح متين يمتدّ على طول العمود المركزي للعلية، ويتيح للسياح الوصول إلى سطح كبير وسط هذا المكان للمشاهدة.

لكن، عندما وصل لانغدون إلى وسط الدعامة، وجد لوحاً لا يشبه إطلاقاً ذاك الذي يذكره من جولته.

كم أفرطت في الشرب ذلك النهار؟

عوضاً عن اللوح المتين السياحي، وجد خليطاً من الألواح المتصدعة التي تشكل زاوية أفقية مع العوارض الخشبية مؤلفة ممشي بدائياً، أقرب ما يكون إلى حبل بهلوان منه إلى جسر. يبدو أنّ الممشى السياحي المتين الذي يبدأ من الطرف الآخر لا يمتدّ سوى إلى منصة المشاهدة المركزية. من هناك، يعود السياح أدراجهم كما هو واضح. وعلى الأرجح، أقيمت هذه العارضة الضيقة الممتدة أمام لانغدون وسيبينا الآن لكي يتمكن المهندسون من الإشراف على بناء الجزء المتبقي من العلية من هذه الجهة.

قال لانغدون وهو يرمق الألواح الضيقة بريبة: "يبدو وكأننا نستطيع السير على هذا اللوح". هزّت سيبينا كتفها بلا اكتراث: "ليس أسوأ من البندقية في موسم الفيضانات".

أدرك لانغدون أنها محقّة إلى حدّ ما. ففي آخر رحلة قام بها إلى البندقية، غرقت ساحة سان مارك تحت مياه بارتفاع قدم، واضطرّز إلى السير من فندق دانييلي إلى البازيليكا على الألواح الخشبية الممدودة على قطع من الطوب ودلاء مقلوبة. بالطبع، إنّ احتمال تعرّض حدائه للبلال أسهل بكثير من السقوط عبر تحفة من عصر النهضة وملاقاته حتفه.

أبعد لانغدون الفكرة عن ذهنه، ومشى على اللوح الضيق بقوّة مزيفة أمل أن تهدئ من روع سيبينا إن كانت تخفي قلقها. مع ذلك، وعلى الرغم من شكله الواثق، كان قلبه ينبض بقوّة وهو يمشی على أول لوح. عندما اقترب من الوسط، تقوّس اللوح الخشبي بفعل ثقله، وأصدر صريراً مخيفاً، فمشى بسرعة إلى أن وصل أخيراً إلى الجهة المقابلة وإلى الأمان النسبي الذي توفّره الدعامة الثانية.

تهدّ لانغدون، ثم استدار لإنارة طريق سيبينا وتقديم الدعم المعنوي لها الذي قد تحتاج إليه. لكنها كما يبدو لم تكن بحاجة إلى شيء من ذلك. فما إن سلّط الضوء على اللوح الخشبي، حتّى عبرته ببراعة مثيرة للإعجاب. تحمّل اللوح وزن جسدها النحيل بسهولة، ولحقت به خلال ثوانٍ.

تشجّع لانغدون واستدار، ثم اجتاز اللوح التالي. أمّا سيبينا، فانتظرت إلى أن وصل إلى الدعامة الثانية وأصبح قادراً على الاستدارة لإنارة طريقها، ثم تبعته. وهكذا، أخذاً يتقلّان بسرعة بإيقاع ثابت؛ شخصان يتقلّان الواحد تلو الآخر على ضوء مصباح واحد. من مكان ما في الأسفل، ارتفع صوت أجهزة اللاسلكي التي تستخدمها الشرطة عبر نسيج السقف الرقيق، فابتسم لانغدون ابتسامة باهتة. *إنّنا نحوم فوق قاعة الخمسمائة بخفّة ومن دون أن يرانا أحد.*

همست سيبينا: "روبرت، قلت إنّ إغناسيو أخبرك أين تعثر على القناع، أليس كذلك؟".
"أجل... لكنّه استخدم شيفرة لذلك". وشرح لها لانغدون بسرعة أنّ إغناسيو لم يشأ على ما يبدو الكشف عن مكان القناع على المجيب الآلي، ولهذا السبب أعطاه المعلومات بطريقة مشفرة. ذكر الجئة التي اعتقد أنها إشارة إلى القسم الأخير من *الكوميديا الإلهية*. قال تحديداً: الجئة خمس وعشرون.

نظرت إليه سيبينا قائلة: "لا بدّ أنّه يعني *النشيد الخامس والعشرين*".
قال لانغدون: "أوافقك في ذلك". *فالنشيد يعادل الفصل، وتستخدم الكلمة بسبب التقليد الذي كان سائداً، والذي يقوم على "إنشاد" القصائد الملحمية. تشتمل الكوميديا الإلهية بمجملها على مائة نشيد، وهي مقسّمة إلى ثلاثة أقسام.*

إنفيرنو 1-34

بورغاغوريو 1-33

باراديزو 1-33

الجئة خمس وعشرون، تمنّى لانغدون لو أنّ ذاكرته التخيلية قوية بما يكفي ليتذكّر النصّ بأكمله. مستحيل، علينا إيجاد نسخة عن النصّ.

تابع لانغدون قائلاً: ثمة المزيد. فأخّر ما قاله لي إغناسيو كان: الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع". صمت هنيهة، ونظر إلى سبيّنا ثم أضاف: "يشير النشيد الخامس والعشرون على الأرجح إلى موقع معيّن هنا في فلورنسا. ويبدو أنّ لهذا المكان أبواباً". عبست سبيّنا قائلة: "لهذه المدينة عشرات الأبواب في الواقع".

"أجل. لهذا السبب علينا قراءة النشيد الخامس والعشرين من الجّنة". ثم ابتسم لها ابتسامة مليئة بالأمل وقال: "هل يصدف أنّك تعرفين الكوميديا الإلهية بأكملها عن ظهر قلب؟".

نظرت إليه مصدومة وقالت: "أربعة عشر ألف بيت من الشعر الإيطالي القديم الذي قرأته وأنا طفلة!". هزّت رأسها مضيفة: "أنت من يملك ذاكرة عجيبة بروفيسور، أمّا أنا فمجرد طبيبة". بينما تابعا تقدّمهما، حزن لانغدون لأنّ سبيّنا ما زالت تفضّل إبقاء حقيقة ذكائها الاستثنائي سرّاً، على الرغم من كلّ ما مرّ به معاً. مجرد طبيبة! أراد لانغدون أن يضحك. لا شك أنّها أكثر الأطباء تواضعاً على وجه الأرض، هذا ما فكّر به لانغدون وهو يتذكّر قصاصات الصحف التي قرأها عن مواهبها الخاصة، مواهب لا تتضمّن مع الأسف حفظ واحدة من أطول الملاحم في التاريخ، وإن لم يكن هذا مستغرباً.

واصلتا طريقهما بصمت، واجتازتا عدداً من العوارض الخشبية. أخيراً، رأى لانغدون شكلاً مشجّعاً في الظلام؛ منصّة المشاهدة! كانت الألواح الهشة التي يسيران عليها تؤدي مباشرة إلى سطح أكثر متانة بكثير محاط بالدرايزين. إن صعدا إلى المنصّة، فبإمكانهما متابعة السير على الممشى إلى أن يخرجوا من العلّية عبر باب يذكر لانغدون أنّه قريب جداً من سلّم دوق أثينا. مع اقترابهما من المنصّة، نظر لانغدون إلى السقف المعلق تحتهما بشماني أقدام. حتّى هذه اللحظة، كانت كلّ اللوحات المعلقة تحتهما متساوية المساحة. غير أنّ اللوحة الآتية كانت أكبر بكثير من اللوحات الأخرى.

قال لانغدون لنفسه: تمجيد كوزيمو الأول.

كانت هذه اللوحة الدائرية الكبيرة أهمّ لوحات فاساري، وهي اللوحة المركزية في قاعة الخمسمائة بأكملها. غالباً ما كان لانغدون يعرض صوراً لهذا العمل على طلابه، ويشير إلى أوجه الشبه بينها وبين لوحة تمجيد واشنطن في مبنى الكابيتول الأمريكي، التي تذكر أنّ أميركا الوليدة قد اقتبست عن إيطاليا أكثر بكثير من مجرد مفهوم الجمهورية.

لكن اليوم، كان لانغدون مهتماً باجتياز اللوحة أكثر من اهتمامه بدراستها. وبينما كان يسرع، التفت قليلاً ليهمس لسبيّنا أنّهما على وشك الوصول.

عندئذ، زلّت قدمه اليمنى عن وسط اللوح الخشبي، وحطّ نصف حذائه المستعار على حافة اللوح، فالتوى كاحله، وترنّج إلى الأمام متعثراً، وحاول أن يستعيد توازنه بسرعة.

لكنّ الألوان كان قد فات.

فقد ارتطمت ركبته باللوح بقوة، وامتدّت يده إلى الأمام في محاولة للوصول إلى الدعامة المعترضة، فسقط من يده المصباح الذي هوى في الظلام تحتهما، وحطّ على النسيج الذي

أمسك به كالشبك. بالكاد تمكّن لاتفنون من دفع نفسه إلى الأمام؛ إلى الدعامة التالية، في حين سقط اللوح وتحطّم على بعد ثماني أقدام تحتهما، على الإطار الخشبي المحيط بلوحة فاساري، تمجيد كوزيمو الأول.

تردّد الصوت في أنحاء العلّية كافة.

وقف لاتفنون مذعوراً واستدار نحو سيينا.

في الضوء الباهت الصادر من المصباح في الأسفل، رأى لاتفنون أنّ سيينا كانت تقف على الدعامة خلفه محاصرة، من دون أيّ وسيلة للعبور. أخبرته عيناها بما يعرفه أساساً. لا شك أنّ الضجة التي أحدثها اللوح الخشبي قد فضحت أمرهما.

نظرت فايينثا إلى الأعلى فجأة، وتأملت السقف المزخرف.

قال الرجل الذي يحمل كاميرا الفيديو مازحاً عندما تردّد صدى الصوت في الأسفل: "أهي جردان في العلّية؟".

فكرت فايينثا وهي تنظر إلى اللوحة الدائرية التي تحتلّ وسط السقف، جردان كبيرة. تسألّت غيمة صغيرة من الغبار من بين الأطر الخشبية، وكانت فايينثا متأكّدة من أنّها رأت انتفاخاً طفيفاً في القماش. وكانّ شخصاً ما يضغط عليه من الجهة الأخرى.

قال الرجل وهو يرمق الانتفاخ الذي بدا في اللوحة: "ربّما أوقع أحد عناصر الشرطة مسدّسه من على منصّة المشاهدة. عمّ يبحثون برأيك؟ فهذه الحركة مريبة جداً".

سألته فايينثا: "منصّة مشاهدة!! هل يستطيع الناس الصعود إلى هناك؟".

"بالتأكيد". وأشار إلى مدخل المتحف مضيئاً: "عند عبور ذلك الباب، ثمة باب يؤدي إلى ممشى في العلّية. يمكنك رؤية عمل فاساري لدى وقوفك على الدعائم الخشبية. إنّه لا يصدّق".

تردّد صوت برودر فجأة في أرجاء قاعة الخمسمائة. "أين هما إذا؟".

انبعثت كلماته - شأنها شأن صيحته الغاضبة - من خلف فتحة مكسوة بالشبك في أعلى الجدار إلى يسار فايينثا. يبدو أنّ برودر موجود في غرفة خلف تلك النافذة... أي تحت سقف الغرفة المزخرف بطابق كامل.

عادت أنظار فايينثا إلى الانتفاخ الذي بدا في اللوحة الممتدة فوق رأسها.

فكرت: جردان في العلّية تحاول إيجاد مخرج.

شكرت صاحب الكاميرا، وتوجّهت بسرعة إلى مدخل المتحف. كان الباب مغلقاً، لكن بوجود ضباط الشرطة الذين يدخلون ويخرجون، فكرت أنّه قد لا يكون مقلّلاً.

في الواقع، صدق حدسها.

الفصل 47

في الساحة في الخارج، وسط الفوضى التي أحدثها عناصر الشرطة الذين وصلوا منذ قليل، وقف رجل كهل في ظلال لودجا داي لانتزي، مراقباً الجلبة باهتمام كبير. كان الرجل يضع نظارة من ماركة بلوم باري، وربطة عنق بيزلي، وقرطاً ذهبياً صغيراً في إحدى أذنيه. بينما كان يراقب ما يحصل، أخذ يحك عنقه مجدداً. كان الرجل قد أصيب بطفح جلدي في الليلة الماضية، وبدا أن وضعه يتفاقم مع ظهور بثور صغيرة على فكه، ورقبته، وخصيه، وجفنيه.

عندما نظر إلى أظفاره، رأى أنها ملوثة بالدماء. فأخرج منديلته ومسح أصابعه والبثور الدامية على عنقه وخصيه.

بعدما نظف نفسه، نظر إلى سيارتي الفان السوداوين المكونتين خارج القصر. كان الفان الأقرب يحتوي على شخصين جالسين على المقعد الخلفي.

أحدهما جندي مسلح يرتدي زياً أسود.

أما الثاني فكان امرأة أكبر سناً، لكنها جميلة جداً وذات شعر فضي، تضع سلسلة حول عنقها تتدلى منها تميمة على صدرها.

بدا الجندي وكأنه يجهز حقنة تعطى تحت الجلد.

داخل الفان، أخذت د. إليزابيث سينسكي تنظر بشرود إلى الساحة خارج القصر، وتتساءل كيف تأزمت الأمور ووصلت إلى هذا الحد.

قال الرجل الجالس قريبا بصوت عميق: "سيّنتي".

التفتت إلى الجندي المرافق لها. كان يمسك بساعدها ويحمل حقنة. "لا تتحركي".

اخترقت الإبرة الحادة بشرتها.

أتم الجندي حقنها، ثم قال: "والآن، عودي إلى النوم".

وبينما كانت تغمض عينيها، رأت رجلاً يتفحصها من بين الظلال. كان يضع نظارة وربطة عنق أنيقة، في حين بدا وجهه مليئاً بالبثور وأحمر اللون. شعرت للحظة أنها تعرفه، لكن عندما فتحت عينيها لإلقاء نظرة أخرى، كان الرجل قد اختفى.

الفصل 48

في ظلام العلية، أصبح لانغدون وسيينا منفصلين عن بعضهما بمسافة عشرين قدماً من الفراغ. تحتها بثمانى أقدام، استقرّ اللوح على الإطار الخشبي الذي يثبت قماش لوحة فاساري. أما المصباح الكبير - الذي ما زال مضاءً - فهبط على اللوحة نفسها، مسبباً انخفاضاً صغيراً فيها؛ مثل حجر سقط على الشبكة.

همس لانغدون: "هل يمكنك سحب اللوح الموجود خلفك لبلوغ هذه الدعامة؟". نظرت سيينا إلى اللوح وأجابت: "ليس من دون سقوط الطرف الآخر على اللوحة". هذا ما كان لانغدون يخشاه. فأخر ما يحتاجان إليه الآن هو إسقاط لوح خشبي بمقاس اثنين بستة فوق لوحة فاساري.

قالت سيينا: "لدي فكرة"، وبدأت تتحرك جانبياً على الدعامة، متوجهة إلى الجدار الجانبي. قام لانغدون بالمثل، في حين أصبحت كل خطوة أكثر خطورة مع ابتعادهما عن ضوء المصباح. عندما وصلا إلى الجدار الجانبي، غرقا في ظلام تام. همست سيينا: "هناك"، وأشارت إلى الظلام المخيم تحتها. "لا بد أن طرف الإطار مثبت على الجدار. يجب أن يتحمل وزني".

قبل أن يتمكن لانغدون من الاعتراض، نزلت سيينا عن الدعامة، واستخدمت سلسلة من العوارض الخشبية كسلم. هبطت على طرف الإطار الخشبي فأصدر صريراً واحداً، لكنه ظل متماسكاً. بعد ذلك، بدأت تتقدم ببطء على طول الجدار، باتجاه لانغدون، وكأنها تسير على حافة مبنى عالٍ. صدر صرير آخر عن الإطار.

فكر لانغدون، الجليد رقيق، ابقي قريبة من الشاطئ.

عندما وصلت سيينا إلى منتصف الطريق، واقتربت من الدعامة التي يقف عليها في الظلام، تجدد الأمل فجأة في قلب لانغدون، وشعر أنهما قد ينجحان في الخروج من هنا في الوقت المناسب. فجأة، وفي مكان ما في الظلام المخيم أمامهما، صُفّق باب، وارتفع وقع خطوات سريعة تقترب على طول الممشى. ظهر ضوء مصباح يمسح المكان، ويقترب مع كل ثانية. عندئذ، شعر لانغدون أن آماله تتحطم. فثمة شخص أبّ باتجاههما، ويسلك الممشى الرئيس ليقطع عليهما طريق الفرار.

همس تلقائياً: "سيينا، تابعي التقدم. استمري بالسير على طول الجدار، فثمة مخرج في الطرف الآخر. أما أنا فساُعترض طريق القادم".

همست سيبناً بالبحاح: "كلّا! روبرت، عد إلى هنا!".

لكن روبرت انطلق عائداً أدرجه على الدعامة باتجاه العمود المركزي للعلية، وترك سيبناً في الظلام، تتقدّم على طول الجدار الجانبى، تحته بثمانى أقدام. عندما وصل لانغدون إلى وسط العلية، رأى أنّ شخصاً غامضاً يحمل مصباحاً قد وصل إلى منصّة المشاهدة المرتفعة. توقّف الشخص عند الدرايزين المنخفض، ووجّه ضوء المصباح إلى عيني لانغدون.

أعماه وهج المصباح، فرفع يديه فوراً في إشارة استسلام. لم يشعر يوماً في حياته بضعف أكبر مما شعر به وهو يحاول التوازن فوق قاعة الخمسمائة، وقد بهره ضوء ساطع. انتظر لانغدون طلقة رصاص، أو أمراً صارماً، لكن لم يواجه سوى الصمت. بعد قليل، ابتعد الشعاع عن وجهه، وبدأ باستكشاف الجزء المظلم خلفه، بحثاً عن شيء ما... أو شخص آخر. عندما ابتعد الشعاع عن عينيه، تمكّن من رؤية الشخص الذي يعترض طريقه. كانت امرأة نحيلة، ترتدي ملابس سوداء. لم يكن لديه أي شك في أنّ قبعة البايستول التي تضعها على رأسها تخفي شعرها السبايكي.

توتّرت عضلات لانغدون فوراً في حين داهمت ذهنه صور الدكتور ماركوني الذي مات في المستشفى.

لقد عثرت عليّ، وأنت لإنهاء عملها.

عادت إلى ذهن لانغدون صورة لغطّاسين يونانيين يسبحون في أعماق نفق، وقد تجاوزوا نقطة اللاعودة ليصطدموا بحائط مسدود.

أعادت القائلة توجيه شعاع المصباح إلى وجه لانغدون.

همست: "سيد لانغدون، أين صديقك؟"

شعر لانغدون بقشعريرة. هذه القائلة هنا من أجلنا نحن الاثنين.

حاول لانغدون خداعها بالنظر بعيداً عن سيبناً من فوق كتفه، إلى الظلام الذي أتيا منه.

"لا علاقة لها بهذه المسألة. أنت تسعين ورائي".

أخذ لانغدون يتضرّع إلى الله لكي تكون سيبناً قد تقدّمت على طول الجدار. فإن تمكّنت من التسلّل إلى ما وراء منصّة المشاهدة، فستجح عندها في العبور إلى الممشى المركزي بهدوء، خلف المرأة التي تلاحقه، وستوجّه نحو الباب.

رفعت القائلة مصباحها مجدداً وتخصّصت العلية الخالية خلفه. وفي اللحظة التي ابتعد فيها

الوهج عن عيني لانغدون، لمح فجأة شكلاً خلفها في الظلام.

يا إلهي، كلّا!

كانت سيبناً تتقدّم بالفعل فوق الدعامة باتجاه الممشى المركزي، لكن لسوء الحظّ، لم تكن

تبعد سوى عشر ياردات من المرأة.

سيبناً، كلّا! أنت قريبة جدّاً! ستسمعك!

عاد الوهج إلى عيني لانغدون مجدداً.
همست القاتلة: "أصغ إلي جيداً بروفيسور. إن أردت أن تعيش، فأنا أقترح أن تتق بي. فقد انتهت مهمتي ولم يعد لدي سبب لإيذاذك. أصبحنا أنا وأنت في فريق واحد، وربما كنت أعرف كيف أساعدك".

لم يكن لانغدون يصغي إليها تماماً، وذلك لأن أفكاره كانت متركزة على سبينا التي أصبحت مرتبة بعض الشيء وهي تتسلق الممشى، خلف منصة المشاهدة، على مسافة قريبة جداً من المرأة المسلحة.

أراد أن يصيح: اهربي! ابتعدي من هنا!
غير أن سبينا ظلت في مكانها، إذ قبع في الظل وراحت تراقب بصمت.

فتشت عينا فايينثا في الظلام خلف لانغدون. لكن، أين ذهبت؟ هل انفصلا؟
كان على فايينثا إيجاد طريقة لمنع الهاربين من الوقوع بين يدي برودر. هذا أملي الوحيد.

غامرت فايينثا وهمست قاتلة: "سبينا، إن كنت تسمعينني، فأصغي إلي جيداً. ليس من صالحك الوقوع بين أيدي الرجال الموجودين في الأسفل. لن يكونوا لطفاء إطلاقاً. أعرف طريقاً للهرب، ويمكنني مساعدتك. تقب بي".
تحدّاه لانغدون قائلاً: "تتق بك؟!". ارتفع صوته فجأة حيث أصبح مسموعاً لكل من يقف بجواره. "أنت قاتلة!".

عندها، أدركت فايينثا أن سبينا قريبة. لانغدون يتحدّث معها... ويحاول تحذيرها.
"سبينا، الوضع معقد، لكنني أستطيع إخراجك من هنا. فكّري بالخيارات المتاحة أمامك، أنت محاصرة، وليس لديك أي خيار".
قال لانغدون بصوت عالٍ: "لديها خيار، وهي ذكية بما فيه الكفاية للابتعاد عنك قدر الإمكان".

أصرت فايينثا: "لقد تغيّر كل شيء، ولم يعد لدي سبب لإيذاء أي منكما".
"لقد قتلت د. ماركوني! وأظن أنك أنت التي أطلقت علي النار وأصببتني في رأسي!".
عرفت فايينثا أن الرجل لن يصدق أبداً أنها لا تنوي قتله.
وقت الحديث انتهى. ما من شيء أستطيع قوله لإقناعه.
ومن دون تردد، مدت يدها إلى سترتها وأخرجت المسدس الكاتم للصوت.

بقيت سبيناً قابضة في الظلّ بلا حراك على مسافة لا تتجاوز عشر ياردات خلف المرأة التي واجهت لانغدون للتوّ. حتّى في الظلام، لم يكن من الممكن عدم التعرّف عليها. شعرت سبيناً بالرعب عندما رأتها تشهر السلاح نفسه الذي استخدمته لقتل د. ماركوني.

عرفت من لغة جسد المرأة أنّها ستطلق النار.

وبالفعل، تقدّمت المرأة خطوتين باتجاه لانغدون، وتوقّفت عند الدرابزين المنخفض الذي يحيط بمنصّة المشاهدة فوق لوحة فاساري، تمجيد كوزيمو الأول. كانت القاتلة الآن أقرب ما تكون من لانغدون. رفعت مسدّسها ووجّهته مباشرة إلى صدر لانغدون.

قالت: "هذا لن يؤلم سوى للحظة واحدة، لكنّه خيارى الوحيد".

كان ردّ فعل سبيناً تلقائياً.

كان الاهتزاز غير المتوقّع للألواح تحت قدمي فايينثا كافياً لينحرف اتجاه مسدّسها وهي تطلق النار. وحسب عندما ضغطت على الزناد، أدركت أنّ المسدّس لم يعد موجّهاً نحو لانغدون.

شعرت بشيء ما يقترب خلفها.

يقترب بسرعة.

استدارت فايينثا في مكانها، وانحرف سلاحها 180 درجة باتجاه المهاجم، ورأت وميضاً من الشعر الأشقر في الظلام في اللحظة التي اصطدم بها فيها شخص ما بكلّ سرعته. هسهس المسدّس مجدّداً، لكنّ المهاجم انحنى تحت مستوى فوهة السلاح وصدّمها بقوة ورفعها نحو الأعلى.

ارتفعت قدما فايينثا عن الأرض، واصطدم الجزء الأوسط من جسدها بقوة بالدرابزين المنخفض لمنصّة المشاهدة. وفيما اندفع صدرها فوق الدرابزين، لوحت بذراعيها في محاولة للتمسك بشيء ما لتجنّب السقوط، لكنّ الأوان كان قد فات؛ فقد سقطت من فوق الحافة.

وقعت فايينثا في الظلام، واستعدت للاصطدام بالأرض المكسوّة بالغبار والممتدة تحت المنصّة على مسافة ثماني أقدام. لكنّ الغريب في الأمر أنّها استقرّت على سطح أكثر ليونة ممّا تخيلت... كما لو أنّها وقعت على أرجوحة من القماش، تدلّت تحت ثقلها.

تمدّدت فايينثا على ظهرها حائرة، وحدّقت إلى مهاجمها. كانت سبيناً بروكس تنظر إلى الأسفل من فوق الدرابزين. فتحت فايينثا فمها مذهولة لتتكلم، لكن فجأة، سمعت صوت تمزّق عالياً تحتها.

كان القماش الذي يحمل وزنها يتمزّق.

ثم سقطت مجدّداً.

هبطت هذه المرة لمدة ثلاث ثوان طويلة، حذقت خلالها إلى الأعلى؛ إلى السقف المكسوّ بلوحات جميلة. رأت شقاً كبيراً وسط اللوحة التي تعلوها مباشرة، والتي كانت عبارة عن قماش دائري كبير رُسم عليه كوزيمو الأول محاطاً بكائنات مجنّحة على غيمة بيضاء. بعد ذلك، واثراً صدمة مفاجئة، تلاشى عالم فاييننا وحلّ مكانه الظلام.

في الأعلى، حنق لانغدون غير مصدّق إلى اللوحة الممزّقة في الأسفل. على أرض قاعة الخمسمائة، تمددت المرأة بلا حراك، وسرعان ما بدأت تتكوّن قرب رأسها بركة داكنة من الدماء، في حين ظلّت يدها ممسكة بالمسدس. نظر لانغدون إلى سبيينا التي وقفت محدّقة إلى الأسفل، وقد شلّها المشهد. بدت على وجهها آثار الصدمة. "لم أكن أقصد....". همس لانغدون: "لقد تصرّفت تلقائياً. كانت على وشك أن تقتلني". بدأت أصوات الذعر تتعالى من الأسفل، عبر اللوحة الممزّقة. فدفع لانغدون سبيينا بلطف بعيداً عن الدرابزين، وقال: "علينا أن نواصل مسيرنا".

الفصل 49

في المكتب السري للدوقة بيانكا كابيّلُو، سمع العميل برودر صوتاً مخيفاً، تبعته جلبة متنامية في قاعة الخمسمائة. اندفع إلى النافذة ونظر من خلالها. استغرق عدة ثوان لاستيعاب المشهد الذي رآه على أرض القاعة الجميلة.

وصلت مديرة المتحف الحامل إلى جانبه عند النافذة، وغطت فمها بيدها فوراً لدى رؤيتها المشهد المرعب؛ فهناك شخص مستلقٍ على الأرض ومخاطبٍ بسياح مذعورين. وعندما حوّلت المرأة ببطء نظرها نحو سقف قاعة الخمسمائة، صدر عنها أنين أليم. نظر برودر إلى الأعلى أيضاً، فرأى أنّ لوحة السقف المستديرة قد تمزّقت في وسطها. التفت إلى المرأة وسألها: "كيف نصعد إلى هناك؟".

في الطرف الآخر من المبنى، نزل لانغدون وسيينا من العلية وهما يلهثان، واندفعا عبر أحد الأبواب. خلال ثوانٍ، وجد لانغدون الكوة الصغيرة المخبأة خلف ستارة قرمزية. تذكرها من جولة الممرات السرية التي قام بها سابقاً. *سَلِّمْ بوقِ أثينا.*

تصاعد صوت الخطوات المسرعة والصراخ من كلّ الاتجاهات، فأدرك لانغدون أنّ الوقت قصير. أزاح الستارة جانباً، وتسلّل هو وسيينا إلى أول السلم. بدأ النزول على السلم الحجري من دون أن ينطقا بأيّ كلمة. كان قد تمّ تصميم هذا الممرّ على شكل سلسلة مخيفة من الدرجات الضيقة والمتعرجة. وكلّما ازداد المكان عمقاً، أصبح السلم أضيق. عندما شعر لانغدون أنّ الجدران على وشك أن تسحق عظامه، انتهى السلم، حمداً لله. *الطابق الأرضي.*

كان السلم ينتهي عند حجرة صغيرة. ومع أنّ بابها يبدو أصغر باب على وجه الأرض، إلّا أنّهما فرحاً لرؤيته. لم يكن الباب يرتفع أكثر من أربع أقدام، وكان مصنوعاً من الخشب الثقيل، مع مسامير حديدية ومزلاج داخلي ثقيل الوزن لمنع الناس من الدخول. همست سيينا التي لم تفارقها آثار الصدمة بعد: "يمكنني سماع أصوات الشارع خلف الباب. ماذا يوجد في الجهة الأخرى؟".

أجاب لانغدون: "فيا ديلاً نيئاً". وتخيّل الشارع المزدهم بالمشاة. "لكن، قد تكون الشرطة هناك".

"لن يتعرّفوا علينا، فهم يبحثون عن فتاة شقراء ورجل داكن الشعر".

رمقها لانغدون بغرابة. "وهذا بالضبط ما نحن عليه..."

هرّت سيبينا رأسها، وبدأ على وجهها تصميم كئيب. "لم أكن أرغب في أن تراني هكذا روبرت. لكن، لسوء الحظّ هذا ما أنا عليه". فجأة، مدّت سيبينا يدها وأمسكت بشعرها الأشقر، ثم أرجعت رأسها إلى الخلف، فانزلق شعرها بأكمله بحركة واحدة.

ترجع لانغدون إلى الوراء وقد أجفل من حقيقة أنّ سيبينا تضع شعراً مستعاراً، ومن شكلها من دونه على السواء. كانت سيبينا بروكس في الواقع صلعاء تماماً، رأسها أملس وشاحب مثل مريضة سرطان تخضع لعلاج كيميائي. /هي مريضة فوق كلّ ذلك؟

قالت: "أعلم، إنّها قصّة طويلة. والآن انحن". حملت الشعر المستعار، وبدأ بوضوح أنّها تتوي وضعه على رأس لانغدون.

/هي جادة؟! انحنى لانغدون على مضض، ووضعت سيبينا الشعر المستعار على رأسه. بالكاد لامع مقاس رأسه، لكنّها سوّته قدر الإمكان، ثمّ تراجعت إلى الخلف وقيّمت الشكل. لم يرضها تماماً، فمدّت يدها وحلّت ربطة عنقه، ثمّ رفعتها إلى جبينه وشدّتها مثل منديل لتثبت بها الشعر المستعار.

بعد ذلك، بدأت سيبينا تعمل على شكلها، فشمرت عن ساقها، وأخفضت جوربها حتّى كاحليها. عندما وقفت، بدت على شفّيتها ابتسامة ساخرة. لقد تحوّلت سيبينا بروكس الجميلة إلى فتاة حليقة الرأس. كان التغيير الذي طرأ على الممثلة الشكسبيرية السابقة مذهلاً.

قالت: "تذكّر أنّ لغة الجسد تكشف عن شخصية المرء بنسبة تسعين بالمائة. لذلك، عندما تمشي، تصرّف وكأنّك راقص روك متقدّم في السن.

فكّر لانغدون: يمكنني تمثيل دور شخص متقدّم في السن، لكن، راقص روك؟! لست واثقاً من ذلك.

وقبل أن يتمكّن لانغدون من مجادلتها، رفعت مزلاج الباب الصغير وفتحته. أخفضت رأسها، وخرجت إلى الشارع المزدهم المكسوّ بالحصى، فتبعها لانغدون على يديه ورجليه تقريباً، وخرج إلى ضوء النهار.

باستثناء نظرات الاستغراب التي ألغها عليها المارة لدى رؤيتهم هذين الشخصين غير المتناسقين يخرجان من الباب الصغير في أساس قصر فيكيو، لم يلقي عليهما أحد نظرة ثانية. وفي غضون ثوانٍ، كان لانغدون وسيبينا يتجهان شرقاً، وقد ابتلعهما الحشد.

أخذ الرجل الذي يضع نظارة بلوم باريس يحك بشرته وهو يمشي بين الحشود؛ محافظاً على مسافة آمنة خلف روبرت لانغدون وسيينا بروكس. على الرغم من تنكرهما الذكي، فقد رآهما وهما يخرجان من الباب الصغير ويتجهان إلى فيا نيلاً نيئاً، وعرفهما فوراً. تبعهما مسافة عدة مبان فقط قبل أن يتعب، ويبدأ صدره بإيلامه؛ الأمر الذي أجبره على أخذ أنفاس سطحية. شعر وكأنه يتلقى لكمة في صدره. صرّ على أسنانه وقاوم الألم، وأجبر نفسه على تركيز انتباهه مجدداً على لانغدون وسيينا وهو يواصل تعقبهما في شوارع فلورنسا.

الفصل 50

أشرقت شمس الصباح تماماً؛ ملقياً ظلالاً طويلة أسفل الوديان الضيقة الممتدة بين أبنية فلورنسا القديمة. كان أصحاب المحال التجارية قد بدأوا يفتحون الأبواب المعدنية التي تحمي محالهم، وكان الهواء متقلّباً بعبير إسبريسو الصباح والكورنيش الطازجة. على الرغم من أن لانغدون كان يتضور جوعاً، إلا أنه واصل السير. على إيجاد القناع... ورؤية ما خُبي في باطنه.

وبينما قاد لانغدون سبيناً شمالاً عبر فيا داي ليوني الضيق، واجه صعوبة في الاعتياد على مظهر رأسها الأصلع. ذكره هذا التغير الجذري الذي طرأ على شكلها أنه بالكاد يعرفها. كانا يتوجّهان إلى بياتزا ديل دوومو؛ الساحة التي عُثر فيها على إغناسيو بوزوني ميتاً بعد مكالمته الأخيرة.

قال إغناسيو وهو يلهث، روبرت ما تبحث عنه بأمان. الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك الإسراع. الجثة خمس وعشرون. بالتوفيق.

الجثة خمس وعشرون، كرّر لانغدون هذه الجملة في سرّه، وكان لا يزال مستغنياً من كيفية تذكر إغناسيو بوزوني نصّ دانتلي بما فيه الكفاية ليشير إلى نشيد معين. لا بد أن ذلك النشيد يحتوي على شيء يتذكره بوزوني جيداً. وأياً يكن ذلك، عرف لانغدون أنه سيجده بسرعة؛ حالما يضع يديه على نسخة عن النصّ، وهو أمر يمكن فعله بسهولة في عدد من الأماكن الموزعة أمامهما.

بدأ الشعر المستعار الذي يصل إلى كتفه يسبّب له الحكاك. ومع أنه وجد نفسه سخيلاً بهذا التفكير، إلا أنه يقر أن فكرة سبيناً المرتجلة كانت خدعة جيدة. فما من أحد شكّ فيهما، ولا حتى تعزيزات الشرطة التي هُرع عناصرها للتوّ من أمامهما في طريقهم إلى بالاتزو فيكيو. كانت سبيناً تسير قربه بصمت منذ عدة دقائق، فنظر إليها لانغدون للتأكد من أنها على ما يرام. بدت على بعد أميال، وكأنها على الأرجح تحاول تقبّل فكرة أنها قد قتلت للتوّ المرأة التي كانت تلاحقهما.

قال لها بخفة، على أمل إبعاد تفكيرها عن صورة المرأة ذات قصّة السبايكي الممددة على أرض القصر: "أعطيك ليرة لمعرفة ما تفكرين فيه".

خرجت سبيناً من تأملاتها ببطء وقالت: "كنت أفكر بزوبريست وأحاول تذكر ما أعرفه عنه".

"والام توصلت؟".

"معظم ما أعرفه مستمد من رسالة مثيرة للجدل كتبها قبل بضع سنوات. وقد علفت في ذهني. ففي المجتمع الطبي، سرعان ما انتشرت كالوباء". ثم غمزته مضيفة: "أعذر على سوء اختياري للكلمات".

ضحك لانغدون قائلاً: "تابعي".

"أعلن في رسالته أساساً أن الجنس البشري على شفير الانقراض، وما لم تقع كارثة تخفض بشكل كبير النمو السكاني في العالم، فإن جنسنا لن يعيش مائة عام أخرى".

التفت لانغدون وحدث إليها قائلاً: "قرن واحد من الزمن!".

"كانت رسالة صارخة. فالإطار الزمني المتوقع كان أكثر بكثير من التقديرات السابقة، إلا أنه مدعوم ببعض البيانات العلمية القوية جداً. لقد كَوّن لنفسه أعداداً كثيراً عندما أعلن أنه يجب على الأطباء التوقف عن ممارسة الطب لأنّ تمديد فترة حياة الإنسان لا يؤدي سوى إلى تفاقم المشكلة السكانية".

فهم لانغدون الآن لماذا انتشرت المقالة كالنار في الهشيم بين أعضاء المجتمع الطبي.

تابعت سيبينا: "بطبيعة الحال، تعرّض زوبريست للانتقادات فوراً من جميع الجهات؛ سواء أكانت من السياسيين، أو رجال الدين، أو منظمة الصحة العالمية. وجميعهم سخروا منه واعتبروه مجنوناً يحاول أن ينشر الذعر، وامتعضوا كثيراً من قوله إنّ شباب اليوم إن اختاروا التوالد، فستشهد ذريتهم فعلياً نهاية الجنس البشري. وأوضح زوبريست وجهة نظره بقوله إنّه إن تم ضغط الحياة البشرية على الأرض إلى ساعة واحدة... فنحن الآن في التواني الأخيرة منها".

قال لانغدون: "في الواقع، سمعت عن ذلك".

"بالفعل، وقد سببت ضجة كبيرة. لكن أكبر رد فعل عنيف ضد زوبريست جاء عندما أعلن أنّ تقدّمه في مجال الهندسة الوراثية سيكون مفيداً للبشرية أكثر بكثير؛ إن استُخدم ليس لعلاج المرض، وإنّما لإنشائه".

"ماذا؟!"

"أجل. قال إنّ التكنولوجيا التي ابتكرها يجب أن تُستعمل للحدّ من النمو السكاني من خلال إنتاج سلالات هجينة من المرض يعجز الطبّ المعاصر عن إيجاد علاج لها".

شعر لانغدون بالذعر وهو يستحضر صوراً لفيروسات هجينة وغريبة ما إن يتم إطلاقها حتّى يستحيل إيقافها.

قالت سيبينا: "خلال سنوات قليلة تحوّل زوبريست من كونه واحداً من النخبة في عالم الطبّ إلى شخص منبوذ تماماً؛ إلى لعنة". صمتت، وظهرت على وجهها تعابير الشفقة. "لا عجب حقاً أنّه أقدم على الانتحار. والأمر المحزن أكثر هو أنّ أطروحته صحيحة على الأرجح".

أوشك لانغدون على السقوط. "عفواً! هل تعتقدن أنّه محقّ؟!"

رفعت سينيّا كتيها وشرحت قائلة: "روبرت، من وجهة نظر علمية بحتة، أي من وجهة نظر منطقية ومن دون مشاعر، يمكنني التأكيد من دون أدنى شك أنه بغياب التغيير الجذري، فإن نهاية جنسنا قادمة، وبسرعة. لن يكون ذلك بفعل حريق، ولا بسبب نهاية العالم، ولا نتيجة حرب نووية... بل سيحدث بسبب انهيار تام ناتج عن ازدياد عدد الناس على هذا الكوكب. فالرياضيات غير قابلة للجدل".

تصلّب لانغدون.

قالت: "لقد درستُ قدرًا لا بأس به من علم الأحياء، ومن الطبيعي للأنواع أن تنقرض نتيجة اكتظاظ أعدادها في بيئتها. تخيّل مستعمرة من الطحالب التي تعيش في بركة صغيرة في الغابة، وتستمتع بالتوازن التام للمغذيات في البركة. في حال عدم وجود أي رادع، ستتكاثر هذه الطحالب بصورة عشوائية، وستغطي سطح البركة بأكملها، حيث تحجب نور الشمس وتمنع نمو المغذيات في البركة. بعد استنزاف كل ما هو متوفّر في تلك البيئة، سرعان ما ستموت تلك الطحالب وتختفي من دون أن تترك أثرًا". تنهّدت مضيفة: "من الممكن جدًا أن يكون مصير مماثل منتظرًا للبشرية، وذلك أسرع بكثير ممّا تخيّل أيّ منا".

شعر لانغدون باضطراب عميق، وقال: "لكن... يبدو هذا مستحيلًا".

"هذا ليس مستحيلًا روبرت، لكن يصعب تصوّره وحسب. فالعقل البشري يملك آلية دفاع بدائية عن الأنا تنفي كل الحقائق التي تُنتج ضغطاً كبيراً يصعب على الدماغ التعامل معه. وهذا يدعى الإنكار".

قال لانغدون ساخرًا: "سبق أن سمعت عن الإنكار، ولكنني لا أعتقد بوجوده".

نظرت سينيّا إلى الأعلى بسأم وقالت: "كم هذا جميل! لكن صدّقني، ما أقوله حقيقي جدًا. فالإنكار جزء حيوي من الآلية التي يستخدمها الإنسان للتحمل. من دونه، كنّا سنستيقظ كل صباح مرعوبين من مختلف الطرق التي قد نموت بها. عوضاً عن ذلك، نقوم عقولنا بحجب مخاوفنا الوجودية من خلال التركيز على الضغوط التي يمكننا التعامل معها؛ مثل الوصول إلى العمل في الوقت المحدّد، أو دفع الضرائب. ولو واجهنا مخاوف وجودية على نطاق أوسع، فإننا ننبذها بسرعة ونعيد التركيز على المهام البسيطة والتفاهات اليومية".

تذكّر لانغدون دراسة أجريت عبر الإنترنت على طلّاب في بعض جامعات آيفي ليغ، وأظهرت أنّ المستخدمين الأكثر ذكاءً أيضاً يُظهرون ميلاً تلقائياً إلى الإنكار. فاستناداً إلى الدراسة، يقوم معظم طلّاب الجامعات، بعد النقر على مقال محبط حول ذوبان جليد القطب الشمالي أو انقراض الأنواع، بالخروج بسرعة من تلك الصفحة لصالح أخبار تافهة تطهّر عقولهم من الخوف. وتتضمّن الخيارات المفضّلة أبرز الأخبار الرياضية، ومشاهد فيديو مضحكة عن القططة، وأخبار المشاهير.

قال لانغدون: "في الأساطير القديمة، يُعتبر الإنكار مظهرًا من مظاهر الغطرسة والكبرياء. فما من رجل أكثر كبرياء من ذاك الذي يعتقد أنّه في مأمن من مخاطر العالم. وقد وافق دانتلي

على ذلك بوضوح، واعتبر الكبرياء إحدى الخطايا السبع المميتة... كما عاقب المتطهرسين في أعرق حلقة من حلقات الجحيم".

فكرت سيبينا للحظة ثم قالت: "يتهم زوبريست في مقالته الكثير من قادة العالم بأنهم في حالة إنكار شديد... وأنهم يدفعون رؤوسهم في الرمال. وقد انتقد بشدة منظمة الصحة العالمية". "لا شك أن انتقاداته قد انعكست ضده".

"كان رد فعلهم أنهم ساووا بينه وبين متعصب ديني يقف على ناصية الشارع، ويحمل لافتة كتب عليها: النهاية قريبة".

"في ساحة هارفرد يوجد بعضهم".

"أجل، وكلنا نتجاهلهم لأننا لا نستطيع تخيل حدوث ذلك. لكن صدقني، إن مجرد كون العقل البشري لا يستطيع تخيل حدوث شيء... لا يعني أن ذلك لن يحدث".

"تبدين تقريباً وكأنك من محبي زوبريست".

أجابت بحدّة: "أنا من محبي الحقيقة، حتى لو كان تقبلها مؤلماً".

صمت لانغدون، وشعر مجدداً أنه غريب عن سيبينا في تلك اللحظة، وحاول أن يفهم هذا المزيج الغريب من الشغف والموضوعية الذي تتحلّى به.

نظرت سيبينا إليه، وقد لانت تعابيرها: "اسمع روبرت، أنا لا أعني أن زوبريست محق في قوله إن طاعوناً يقضي على نصف سكان العالم هو الحل للانفجار السكاني. كما أنني لا أقول إن علينا التوقف عن علاج المرضى. فكل ما أعنيه هو أن مسارنا الحالي وصفة بسيطة جداً لدمار العالم. فالنمو السكاني تطوّر أسرع يحدث ضمن نظام محدود على صعيد المكان والموارد. والنهاية ستصل على نحو مفاجئ جداً. لن يكون الأمر شبيهاً بنفاد الوقود من السيارة ببطء... بل سيكون أشبه بالسقوط من الهاوية".

تهدّد لانغدون، وحاول استيعاب كلّ ما قد سمعه للفرّ.

أضافت مشيرة إلى الأعلى، إلى يمينهما: "وبالمناسبة، أنا واثقة أن هذا هو المكان الذي قفز منه زوبريست".

نظر لانغدون إلى الأعلى، ورأى أنهما يمرّان أمام الواجهة الحجرية البسيطة لمتحف بارغيلو الواقع إلى اليمين. خلفه، ارتفع برج باديا المسنّن فوق المباني المحيطة به. حتّى إلى أعلى البرج، وتساءل عن سبب قفز زوبريست منه، وتمنّى ألا يكون السبب أمراً فظيهاً فعله ولا يريد مواجهة ما هو آتٍ.

قالت سيبينا: "يحب نقاد زوبريست الإشارة إلى المفارقة الكامنة في أن الكثير من التقنيات الوراثية التي طوّرها تساهم اليوم في تمديد متوسط العمر المتوقع بشكل كبير".

"الأمر الذي يؤدي إلى تفاقم المشكلة السكانية".

"بالضبط. قال زوبريست ذات مرّة علناً إنه يتمنى لو يستطيع إعادة الجنّي إلى القمقم، ومحو بعض مساهماته في إطالة العمر البشري. وأفترض أن هذا الأمر منطقي من الناحية

الأيدولوجية. فكُلما طالت حياتنا، سَخَرنا قِدرًا أكبر من الموارد لدعم المسنّين والمرضى".
هَزَّ لانغدون رأسه موافقاً: "قرأت مرّة أنّ 60 بالمائة من تكاليف الرعاية الصحيّة في الولايات المتّحدة تُنفق لدعم المرضى في الأشهر السّنة الأخيرة من حياتهم".
"صحيح. وبينما تقول عقولنا إنّ هذا جنون، تقول قلوبنا: علينا إبقاء الجِدة على قيد الحياة ما استطعنا ذلك".

أوما لانغدون قائلاً: "هذا هو الصراع بين أبولو وديونيسوس، وهي معضلة شهيرة في الأساطير القديمة. إنّها المعركة القديمة بين العقل والقلب اللذين غالباً ما يريدان الشيء نفسه".
كان لانغدون قد سمع أنّ هذه الإشارة الأسطورية تُستخدم اليوم في اجتماعات المدمنين لوصف المدمن الذي يحدّق إلى الكأس، وعقله يعرف أن الشراب سيؤذيّه، لكنّ قلبه يتوقّ إلى الراحة التي سيَجدها فيه. كانت الرسالة تقول كما يبدو: لا تشعر أنّك وحيد، فحتّى أبطال الأساطير يعيشون هذا النزاع.

همست سينيّا: "Who needs agathusia?".

"المعذرة؟".

نظرت إليه سينيّا قائلة: "أخيراً تذكّرت عنوان مقالة زوبريست: "Who Needs Agathusia?".
لم يسبق للانغدون أن سمع بكلمة أغاثوسيا، لكنّه حاول أن يخبّن استناداً إلى الجذور اليونانية للكلمة: أغاثوس وثوسيا. "أغاثوسيا... هل تعني التضحية الجيدة؟".
"تقريباً. معناها في الواقع هو التضحية بالذات من أجل الصالح العام". صممت ثمّ أضافت: "وتُعرف أيضاً بالانتحار الخيّر".

في الواقع، كان لانغدون قد سمع بهذه الكلمة مرّة في قصّة أب مفلس أقدم على الانتحار لكي تتمكّن أسرته من قبض تأمينه على الحياة، والثانية عند وصف سفاح متسلسل نادم أنهى حياته لأنّه عاجز عن السيطرة على ميله إلى القتل.

لكنّ المثال الأكثر فظاعة الذي يذكره لانغدون كان في رواية Logan's Run الصادرة عام 1967، والتي تصوّر مجتمعاً مستقبلياً يوافق فيه الجميع بسرور على الانتحار في سنّ الحادية والعشرين؛ وبالتالي التمتّع بشبابهم بالكامل من دون ترك ازدياد أعدادهم أو تقمّمهم في السنّ يضغطان على موارد هذا الكوكب المحدودة. وكما يذكر لانغدون، إنّ الفيلم المستند إلى الرواية رفع سنّ الانتحار من الحادية والعشرين إلى الثلاثين؛ في محاولة من دون شكّ لجعل الفيلم أكثر قبولاً لدى جمهور شبّاك التذاكر الحيوي الذي تتراوح أعمار أفرادهِ بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين.

قال لانغدون: "إذاً، بالنسبة إلى عنوان مقالة زوبريست... لست واثقاً من أنّي أفهمه. من يحتاج إلى أغاثوسيا؟ هل كان يطرح سؤالاً ساخراً يعني فيه من يحتاج إلى الانتحار الخيّر؟ جميعنا".

"كلّاً في الواقع، العنوان فيه لعب على الكلام".

هزّ لانغدون رأسه من دون أن يفهم.

WHO اختصار لاسم منظّمة الصحة العالمية. في تلك المقالة، يثور زوبريست ضدّ مديرية المنظّمة، د. إليزابيث سينسكي التي تحتلّ ذلك المنصب منذ سنوات عديدة. واستناداً إلى زوبريست فإنّها لا تأخذ مسألة السيطرة على أعداد السكّان بجديّة. قال في تلك المقالة إنّ المنظّمة ستكون أفضل لو أنّ مديرتها سينسكي تقدّم على الانتحار".

يا له من رجل متعاطف!".

"أعتقد أنّ هذه نتائج العبقرية. في أغلب الأحيان، إنّ تلك العقول القادرة على التركيز أكثر من غيرها تقوم بذلك على حساب النضج العاطفي".

تذكّر لانغدون المقالات التي قرأها عن سيبينا؛ الطفلة المعجزة التي يبلغ معدّل ذكائها 208 والتي تمتاز بوظائف فكرية خارقة. وسأعلّ عما إذا كانت تتحدّث عن نفسها أيضاً وهي تتحدّث عن زوبريست. كما تسأعل: كم ستحتفظ بسرّها؟

أمامه، رأى لانغدون المعلم الذي يبحثان عنه. بعد عبور فيا داي ليوني، قادها لانغدون إلى تقاطع شارع ضيق جدّاً، هو أقرب إلى زقاق. كُتب على اللاقطة في الأعلى: فيا دانتي البغييري.

قال لانغدون: "يبدو أنّك تعرفين الكثير عن الدماغ البشري. هل هذا مجال تخصصك في دراسة الطب؟".

"كلّاً، لكن عندما كنت صغيرة، كنت أقرأ كثيراً. واهتممت بعلم الدماغ لأنّني كنت أعاني من بعض... المشاكل الطّبيّة".

نظر إليها لانغدون بفضول؛ أملاً أن تستمرّ.

قالت سيبينا بهدوء: "كان دماغي... ينمو بشكل مختلف عن معظم الأطفال؛ الأمر الذي سبّب لي بعض... المشاكل. أمضيت وقتاً طويلاً وأنا أحاول أن أفهم مشكلتي، وخلال ذلك تعلّمت الكثير عن علم الأعصاب". نظرت إلى عيني لانغدون وأضافت: "نعم، الصلح مرتبط بحالتي الطّبيّة".

أشاح لانغدون بنظره، وشعر بالارتباك لأنّه سأل عن ذلك.

قالت: "لا تقلق. لقد تعلّمت التعايش مع هذه الحالة".

عندما وصلا إلى الزقاق المظلل بهوائه البارد، فكّر لانغدون بكلّ ما عرفه للتوّ عن زوبريست ومواقفه الفلسفية المثيرة للقلق.

عاد إلى ذهنه سؤال طرحه على نفسه تكراراً، فأخذ يتسأعل بصوت عالٍ: "أولئك الجنود الذين يحاولون قتلنا، من هم؟ هذا غير منطقي. إن كان زوبريست قد وضع وباء محتملاً هناك، ألا يجب أن يكون الجميع على الجانب نفسه؟ يعملون على إيقافه؟".

"ليس بالضرورة. قد يكون زوبريست منبوذاً من قبل المجتمع الطّبيّ، لكن لديه على الأرجح حشداً غفيراً من المؤيدين لإيديولوجيته؛ أناساً يوافقون على أنّ الإعدام شرّ لا بدّ منه

لإنقاذ الكوكب. كل ما نعرفه هو أن أولئك الجنود يحاولون أن يضمنوا تحقق رؤية زوبريست".

هل يملك زوبريست جيشاً خاصاً به من الأتباع؟ فكر لانغدون بذلك الاحتمال. بالطبع، التاريخ مليء بمتعصبين وبأفراد طوائف قتلوا أنفسهم بسبب أنواع عديدة من المفاهيم الجنونية؛ كالأعتقاد أن سفينة فضائية تنتظرهم خلف القمر، أو أن يوم الحساب بات وشيكاً. إن النكهات حول الحد من النمو السكاني تركز على الأكل على العلم. لكن، ثمة شيء لدى أولئك الجنود لا يبدو صحيحاً بالنسبة إلى لانغدون.

"في الواقع، أنا لا أصدق أن حفنة من الجنود المدربين يوافقون على قتل أعداد كبيرة من الأشخاص الأبرياء عن سابق معرفة منهم... من دون أن يخافوا من النقاط المرض والموت هم أنفسهم".

نظرت إليه سينا وقالت: "زوبريست، ماذا يفعل الجنود برأيك عندما يذهبون إلى الحرب؟ إنهم يقتلون أشخاصاً أبرياء ويخاطرون بحياتهم. فكل شيء ممكن عندما يعتقد الناس بقضية ما".

"وهل تعتبرين أن نشر وباء بين الناس قضية؟".

نظرت إليه سينا، وتأملته بعينها البتيتين. "زوبريست، ليس نشر وباء... بل إنقاذ العالم". ثم صممت قبل أن تضيف: "طرح بيرتراند زوبريست في مقالته سؤالاً افتراضياً واضحاً جداً أثار ضجة كبيرة. أريدك أن تجيب عنه".

"ما هو السؤال؟".

تسأل زوبريست: إن كان باستطاعتك أن تضرب بسوط وتقتل عشوائياً نصف سكان العالم، فهل ستفعل ذلك؟".

"بالطبع لا".

"حسناً. لكن، ماذا لو قيل لك إنك إن لم تضرب بذلك السوط الآن، فإن الجنس البشري سينقرض خلال الأعوام المائة القادمة؟". صممت قليلاً ثم تابعت قائلة: "هل ستفعل ذلك عندئذ؟ حتى لو كان ذلك يعني مقتل أصدقائك، وأسررتك، وربما مقتلك أنت أيضاً؟".

"سينا، لا يمكنني -".

قالت: "هذا سؤال افتراضي. هل ستقتل نصف سكان العالم اليوم من أجل الحؤول دون انقراض البشر؟".

شعر لانغدون بالاضطراب بسبب هذا الموضوع المروع الذي يتناقشان به، لذلك أحس بالامتنان لدى رؤيته لاقعة حمراء مألوفة معلقة على جانب مبنى حجري أمامهما.

أعلن وهو يشير إلى اللاقعة: "انظري، لقد وصلنا".

هزت سينا رأسها قائلة: "كما سبق وقلت. الإنكار".

الفصل 51

يقع كازا دي دانتي في فيا سانتا مارغريتا، ويسهل إيجاداه بفضل اللافتة الكبيرة المعلقة على الواجهة الحجرية في منتصف الزقاق: موزيو كازا دي دانتي (متحف منزل دانتي). رمقت سينيّا اللافتة بتشكّك. "هل نحن ذاهبان إلى بيت دانتي؟".

قال لانغدون: "ليس تماماً. فقد عاش دانتي في منزل يقع عند ناصية الشارع، وهذا المكان هو أقرب إلى... متحف لدانتي". غامر لانغدون ذات مرة بدخول المتحف، إذ دفعه الفضول إلى الاطلاع على المجموعة الفنية التي تبين أنها مجرد نسخ من أعمال مشهورة من جميع أنحاء العالم ذات صلة بدانتي، إلا أنه كان من المثير للاهتمام رؤيتها مجموعة تحت سقف واحد. ظهر الأمل فجأة على وجه سينيّا. "هل تعتقد أنهم يعرضون نسخة قديمة عن الكوميديا الإلهية هناك؟".

ضحك لانغدون وأجاب: "كلّا. لكنني أعرف أن لديهم محلاً لبيع الهدايا يبيع ملصقات ضخمة تحتوي على النص الكامل للكوميديا الإلهية مطبوعاً بأحرف مجهرية". نظرت إليه بذهول.

"أعرف، لكنّها أفضل من لا شيء. المشكلة هي أنّ عينيّ لن تسعفاني، لذلك سيتوجب عليك أن تقرّئي عنيّ".

قال رجل عجوز بالإيطالية حين رأهما يقتربان من الباب: "إنّه مقفل، فالיום عطلة". شعر لانغدون فجأة بالارتباك من جديد. نظر إلى سينيّا وسألها: "أليس اليوم هو... الاثنين؟".

هزّت رأسها موافقة وقالت: "يفضّل أهل فلورنسا أخذ العطلة الأسبوعية يوم الاثنين". تذمّر لانغدون، وتذكّر فجأة التقويم الأسبوعي غير المألوف في المدينة. فيما أنّ أموال السباح تتدفّق بشكل كبير في عطلة نهاية الأسبوع، يختار الكثير من تجّار فلورنسا نقل يوم العطلة من يوم الأحد إلى يوم الاثنين لكي لا يؤثر ذلك كثيراً على دخلهم.

أدرك لانغدون مع الأسف أنّ هذا الأمر يستبعد الخيار الثاني، أي مكتبة تبادل الكتب؛ وهي من المكتبات الفلورنسية المفضّلة لدى لانغدون، والتي يمكن أن تملك نسخاً عن الكوميديا الإلهية. سأله سينيّا: "هل من أفكار أخرى؟".

فكّر لانغدون للحظة، ثم هزّ رأسه أخيراً. ثمة مكان قريب يجتمع فيه هواة دانتي. وأرجّح أنّه ثمة من يملك بينهم نسخة يمكننا أن نستعيرها".

حذرته سيبًا قائلة: قد يكون مقفلاً على الأرجح، فكلّ الأماكن في البلدة تقريباً تنقل يوم العطلة إلى غير يوم الأحد".
أجابها لانغدون مبسماً: "هذا المكان لا يحلم بفعل شيء من هذا القبيل، لأنّه كنيسة".

على بعد خمسين ياردة خلفهما، اختبأ المصاب بالطفح الجلدي الذي يضع قرطاً ذهبياً بين الحشد، وانكأ على أحد الجدران؛ متلذّذاً بفرصة النقاط أنفاسه. لم يتحسن تنفّسه، كما أنّ الطفح الجلدي الذي غزا وجهه يصعب عليه تجاهله، لا سيّما المنطقة الحساسة فوق عينيه. نزع نظّارة بلوم باريس، ودلّك جفنيه بلطف بكمّ قميصه؛ محاولاً عدم إيذاء بشرته. وعندما وضع النظّارة مجدداً، رأى طريقتيه تتحرّكان، فأجبر نفسه على اللحاق بهما، وهو يتنفس ببطء قدر الإمكان.

على بعد عدّة مبانٍ خلف لانغدون وسيبًا، وقف العميل برودر في قاعة الخمسمائة أمام الجئة المحطّمة للمرأة المألوفة جدّاً بشعرها السباكي، والتي كانت ممّدة على الأرض. جثا قربها وتناول مسدّسها، ثمّ نزع بعناية صمّام الأمان قبل إعطائه إلى أحد رجاله.
وقفت مدبرة المتحف الحامل، مارتا ألفاريز، جانباً. كانت قد أعطت برودر للتوّ ملخصاً وجيزاً وهامّاً لما حدث مع روبرت لانغدون منذ الليلة السابقة... بما في ذلك معلومة ما زال برودر يحاول استيعابها.

يدّعي لانغدون أنّه يعاني من فقدان الذاكرة.
تناول برودر هاتفه وطلب رقماً. رنّ الهاتف ثلاث مرّات في الطرف الآخر قبل أن يجيب الصوت الذي بدا بعيداً وغير مستقرّ.
"نعم أيها العميل برودر. ماذا لديك؟".
تحدّث برودر ببطء ليتأكّد من فهم كلّ كلمة يقولها. "ما زلنا نحاول إيجاد لانغدون والفتاة. لكن، ثمة تطوّر آخر". صمت برودر قبل أن يضيف: "إن كان صحيحاً... فهو يغيّر كلّ شيء".

راح العميد يسير في مكتبه مقاوماً إغراء يحثّه على صبّ كأس أخرى من الشراب؛ مجبراً نفسه على مواجهة هذه الأزمة المتفاقمة وهو بكامل وعيه.

لم يسبق له في حياته قط أن خان زيوناً أو أخلف معه في تنفيذ الاتفاق، وهو بالتأكيد لا ينوي البدء بذلك الآن. في الوقت نفسه، اشتبه أنه ورط نفسه في سيناريو غايته مختلفة تماماً عما تخيل في الأصل.

قبل عام، أتى العالم الوراثي الشهير بيرتراند زوبريست إلى متن الميند/سيوم وطلب مكاناً آمناً ليعمل فيه. في ذلك الوقت، تخيل العميد أن زوبريست يخطط لتطوير عقار طبي سري سيضاعف ثروته الفاحشة. فهذه ليست المرة الأولى التي تتم فيها الاستعانة بالكونسورتيوم من قبل علماء ومهندسين مصابين بجنون العظمة، يفضلون العمل في عزلة شديدة لكي لا تتم سرقة أفكارهم.

على هذا الأساس، قبل العميد تقديم خدماته إلى الزيون، ولم يفاجأ عندما علم أن أعضاء منظمة الصحة العالمية قد بدأوا يبحثون عنه. كما أنه لم يفكر كثيراً عندما اكتشف أن مديرة المنظمة نفسها، د. إليزابيث سينسكي، جعلت من تحديد موقع ذلك العميل مهمة شخصية. لطالما واجه الكونسورتيوم خصوصاً أقوياء.

وكما تم الاتفاق، نفذ الكونسورتيوم اتفاهه مع زوبريست من دون طرح أي أسئلة، وأحبط جهود سينسكي للعثور عليه طوال مدة العقد مع العالم. تقريباً طوال المدة.

لكن، قبل أسبوع من انتهاء العقد، تمكنت سينسكي من إيجاد زوبريست في فلورنسا، وسافرت إلى هناك، وراحت تلاحقه إلى أن أقدم على الانتحار. وهكذا، فشل العميد للمرة الأولى في حياته المهنية في توفير الحماية التي وافق عليها، وأصبحت هذه الحادثة تطارده، بالإضافة إلى الظروف الغريبة التي صاحبت وفاة زوبريست.

فضل الانتحار... على الوقوع بين أيديهم؟

ما الذي كان زوبريست يحميه بالضبط؟

بعد وفاته، قامت سينسكي بمصادرة شيء من خزانة زوبريست، وأصبح الكونسورتيوم في مواجهة مع سينسكي في فلورنسا؛ يخوض مطاردة خطيرة من أجل إيجاد... إيجاد ماذا؟

نظر العميد تلقائياً إلى رف الكتب، ووقع نظره على المجلد الثقيل الذي أعطاه زوبريست إياه قبل أسبوعين.

الكومينديا الإلهية.

تناول العميد الكتاب، وحمله إلى مكتبه، ثم أسقطه محدثاً صوتاً عالياً. فتحه بأصابع غير ثابتة على الصفحة الأولى، وقرأ الإهداء مجدداً.

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم بشكرك أيضاً.

فَكَرَّ العَمِيد: لم تكن يوماً صديقين أنا وأنت.
قرأ الإهداء ثلاث مرّات أخرى، ثم حوّل نظره إلى الدائرة الحمراء الزاهية التي رسمها الزيون
على روزنامته، والتي تحدّد تاريخ الغد.
العالم يشكرك؟
استدار وحنّق إلى الأفق مطوّلاً.
فَكَرَّ بالفديو، واستعاد صوت المنسق نولتون الذي اتّصل به قبل مدّة. /ظنّ أنّك قد ترغب
في رؤيته قبل التحميل... المضمون مقلق للغاية.
ما زالت تلك المكالمات تحيّر العَمِيد. فنولتون واحد من أفضل رجاله، وهذا الطلب لا يتّفق
أبداً مع طبيعته؛ فهو يفهم البروتوكول جيّداً، واقتراحه تجاوزه أمرٌ غريب.
بعدما أعاد العَمِيد الكوميديا /الإلهية إلى الرفّ، سار نحو زجاجة الشراب وصبّ نصف
كأس.
عليه اتّخاذ قرار بالغ الصعوبة.

الفصل 52

تُعتبر كيزا دي سانتا مارغريتا داي تشيركي، المعروفة باسم كنيسة دانتي، أقرب إلى دار عبادة صغيرة منها إلى كنيسة. فذلك البناء الصغير المؤلف من غرفة واحدة يشكل مقصداً شعبياً لمحبي دانتي الذين يعتبرونه مكاناً للحظتين محوريتين في حياة ذلك الشاعر العظيم.

بحسب ما هو معروف، في هذه الكنيسة، وفي سنّ التاسعة، رأى دانتي للمرة الأولى بياتريشي بورتيناري، المرأة التي أغرم بها من النظرة الأولى، والتي تاق قلبه إليها طوال حياته. لسوء حظّ دانتي، تزوّجت بياتريشي من رجل آخر، ثمّ توفيت في سنّ الشباب، حين كانت في الرابعة والعشرين من عمرها.

في هذه الكنيسة أيضاً، وبعد بضع سنوات، تزوّج دانتي من غيما دوناتي، وكان ذلك سوء اختيار من جانب دانتي، حتّى بنظر الكاتب والشاعر العظيم بوكاتشو. فمع أنّ الزوجين أنجبا أطفالاً، إلاّ أنّهما لم يُظهرا أيّ مودة تجاه بعضهما. وحتّى بعد نفي دانتي، لم يبدُ أيّ منهما متلهفاً لرؤية الآخر مجدداً.

إنّ حبّ حياة دانتي كان وبقي دائماً الراحلة بياتريشي بورتيناري التي بالكاد عرفها دانتي، إلاّ أنّ ذكراها سيطرت عليه وأصبح شبحها ملهماً لأعماله العظيمة.

هكذا، إنّ ديوان دانتي الشهير *لا فيتا نونا* يزخر بأبيات عن "بياتريشي المباركة". كما يبدو شغفه بها واضحاً على نحو أكبر في *الكوميديا الإلهية*؛ حيث يصوّر بياتريشي على أنّها المنقذة التي تقود دانتي عبر الجحّة. وفي العملين الأدبيين الشرعيين، يتوق دانتي إلى حبيبته بعيدة المنال.

اليوم، أصبحت كنيسة دانتي مقصداً لمحطّمي الفؤاد الذين يعانون من حبّ غير متبادل. يقع قبر الشابة بياتريشي في الكنيسة، وقد تحول ذلك القبر البسيط إلى مقصد لمحبي دانتي والعشاق المحبطين على حدّ سواء.

هذا الصباح، شقّ لانغدون وسيينا طريقهما عبر شوارع فلورنسا القديمة باتجاه الكنيسة، وظلّت الأزقة تضيق إلى أن تحولت إلى مجرّد ممرّات للمشاة. من وقت إلى آخر، كانت سيّارة محلية تمرّ عبر تلك المتاهة من الأزقة وتُجبر المشاة على الالتصاق بالجدران أثناء مرورها.

قال لانغدون لسيينا: "تقع الكنيسة عند ناصية الشارع". وتمنّى أن يتمكن أحد السياح في الداخل من مساعدتهما. كان يعرف أنّ فرص العثور على شخص صالح أصبحت أفضل الآن؛ لأنّ سيينا استعادت شعرها المستعار، واسترجع كلّ منهما شخصيته المعتادة؛ متحولين من راقص روك وحليقة رأس، إلى أستاذ في الجامعة وشابة أنيقة.

شعر لانغدون بالارتياح في جلده.

عندما دخلا زقاقاً أضيق، هو فيها دليل بريستو، تفحص لانغدون مختلف المداخل. كان من الصعب دائماً تحديد موقع الكنيسة لأنّ المبنى نفسه صغير جداً، وغير مزخرف، كما أنّه محاصر بين مبنيين آخرين؛ حيث يمكن للمرء بسهولة أن يمزّ من دون ملاحظته. والغريب أنّه من الأسهل غالباً إيجاد هذه الكنيسة ليس بواسطة العينين... بل بالأذنين.

من خصائص لا كييزا دي ساننا مارغريتا داي تشيركي أنّها تستضيف تكراراً حفلات موسيقية. وفي حال عدم وجود حفل مقرر، تبتّ الكنيسة تسجيلات لتلك الحفلات لكي يستمتع الزوّار بالموسيقى في أيّ وقت.

مثملاً توقّع لانغدون، تنأهى إلى سمعه صوت الموسيقى وهما يمشيان في الزقاق، وراح يعلو باطراد؛ إلى أن أصبح هو وسيقنا أمام المدخل. كانت الإشارة الوحيدة إلى أنّهما في المكان الصحيح لافتة صغيرة تتناقض تماماً مع اللافتة الحمراء الزاهية لمتحف موزيو كازا دي دانتي، وتعلن بتواضع أنّ هذه كنيسة دانتي وبياتريشي.

عندما دخل لانغدون وسيقنا الكنيسة المعتمة، أصبح الهواء أكثر برودة، وارتفع صوت الموسيقى. كان المبنى من الداخل صارماً وبسيطاً، وأصغر ممّا يذكر لانغدون. لم يجدا في الداخل سوى حفنة من السياح الذين يتحدّثون، أو يكتبون، أو يجلسون في هدوء على المقاعد مستمتعين بالموسيقى، أو متفحصين المجموعة الغريبة من الأعمال الفنية.

باستثناء لوحة المادونا التي رسمها نيري دي بيتشي على المذبح، فإنّ كلّ الأعمال الفنية الأصلية في هذه الكنيسة قد استبدلت بأعمال معاصرة تمثّل شخصيتين شهيرتين هما دانتي وبياتريشي؛ وهما السبب الذي يدفع معظم الزوّار إلى زيارة هذه الكنيسة الصغيرة. أغلب اللوحات تصوّر دانتي - بنظرات الشوق - خلال لقائه الأوّل الشهير ببياتريشي، حين أغرم بها على الفور، على حدّ قول الشاعر نفسه. تتفاوت جودة اللوحات إلى حدّ كبير، ومعظمها لا يمتاز بذوق رفيع بنظر لانغدون. في إحداها، يبدو دانتي بقبّعة الحمراء التي تتدلّى على أذنيه. مع ذلك، إنّ الموضوع المتكرّر الذي يركّز على نظرات الشوق التي يوجّهها الشاعر إلى ملهمته ببياتريشي لا يترك مجالاً للشكّ أنّ هذه الكنيسة كنيسة آلام حبّ من طرف واحد لم يتكلّل بالزواج.

التفت لانغدون إلى اليسار تلقائياً، وحقّق إلى قبر بياتريشي بورتيناري المتواضع. كان هذا القبر هو السبب الأساسي الذي يدفع الناس إلى زيارة هذه الكنيسة، مع أنّ هدفهم ليس رؤية القبر نفسه بل رؤية شيء شهير موضوع بجانبه.

سلة الخوص.

كالعادة هذا الصباح، كانت سلة الخوص البسيطة موضوعة بجانب قبر بياتريشي. وكالعادة هذا الصباح أيضاً، كانت تطفح بأوراق مطوية، كلّ منها رسالة مكتوبة بخطّ اليد من أحد الزوّار إلى بياتريشي نفسها.

لقد أصبحت بياتريتشى بوريتناري أقرب إلى شفيعة العشاق. واستناداً إلى تقليد قديم، أصبحت الصلوات المكتوبة بخط اليد توضع في السلّة على أمل أن تتدخل بياتريتشى لصالح كاتب الرسالة وتلهم المحبوب بحبه أكثر، أو تساعد صاحب الرسالة على إيجاد حبه الحقيقي، أو حتى تمنحه القوة لنسيان حبّ مضى.

قبل سنوات عديدة، وبينما كان لانغدون في خضمّ بحث حول كتاب يؤلفه عن تاريخ الفن، توقّف في هذه الكنيسة وترك رسالة في السلّة، لم يطلب فيها من ملهمة دانتي منحه الحبّ الحقيقي، بل إعطائه بعضاً من الإلهام الذي مكّن دانتي من كتابة مجلّده الضخم. غنى بداخلي، آتتها الملهمة، ولساني اروي القصة...

بدت له افتتاحية/وَيْسَة هوميروس ملائمة، واعتقد سرّاً أنّ رسالته كانت ذات جدوى، وذلك لأنّه ألّف الكتاب بسهولة غير اعتيادية عند عودته إلى الوطن.

ارتفع صوت سيبينا فجأة. "سكوزاتي! هلاًّ أعرتموني انتباهكم جميعاً". استدار لانغدون، فرأى سيبينا تتحدّث بصوت عال مع السياح الذين التفتوا إليها جميعاً وبدأ عليهم القلق.

ابتسمت سيبينا للجميع بلطف وسألتهن بالإيطالية عمّا إذا كان أحدهم يملك بالصدفة نسخة عن الكوميديا الإلهية. وجّه إليها الحاضرون نظرات استغراب، وهزّوا رؤوسهم في إشارة نفى، فطرحَت السؤال بالإنكليزية، لكن من دون جدوى.

في تلك اللحظة، التفتت امرأة مسنة كانت تجلس قرب المذبح، وهسهست بحذّة باتجاه سيبينا رافعة إصبعها على شفيتها طلباً للصمت.

نظرت سيبينا إلى لانغدون وقطبت جبينها وكأنّها تقول: "ما العمل الآن؟". لم تكن مبادرة سيبينا ما فكّر فيه لانغدون، لكن عليه أن يقرّ أنّه توقّع استجابة أفضل من الموجودين. ففي الزيارات السابقة، رأى لانغدون عدداً كبيراً من السياح الذين يقرأون الكوميديا الإلهية في هذا المكان، مستمتعين على ما يبدو بالانغماس التام في تجربة دانتي. لكنّ الأمر يختلف اليوم.

وقع نظر لانغدون على زوجين مسنّين جالسين بالقرب من مدخل الكنيسة. كان رأس الرجل الأضلع منحنيّاً إلى الأمام، وقد لامس نقه صدره. من الواضح أنّه يأخذ غفوة. أمّا المرأة الجالسة بجانبه فكانت مستيقظة تماماً، يتدلّى من أذنيها سلكان أبيضان لسماعتين تختفيان تحت شعرها الرمادي.

بصيص من الأمل، هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يشقّ طريقه عبر الممرّ إلى أن وصل إلى الزوجين. كما أمل لانغدون، كانت السماعتان البيضاءان موصولتين بهاتف أيفون موضوع على حضنها. عندما لاحظت المرأة أنّها مراقبة، نظرت إلى الأعلى ونزعت السماعتين من أذنيها.

لم يكن لانغدون يعرف اللغة التي تتحدثها المرأة، لكن الانتشار العالمي لأجهزة أيفون، وإيباد، وأيبود استحدثت مفردات مفهومة عالمياً مثل رموز الذكر والأنثى المتعلقة على الحمامات في جميع أنحاء العالم.

سألها لانغدون وهو يتأمل جهازها بإعجاب: "أهو أيفون؟".

أشرق وجه المرأة العجوز فوراً وهزت رأسها بفخر، ثم همست بلكنة بريطانية: "يا له من جهاز فائق الذكاء! لقد أهداني إياه ابني، وكنت أستمع إلى بريدي الإلكتروني. هل تصدق ذلك؟ أستمع إلى بريدي الإلكتروني! هذا الكنز الصغير يقرأ لي الرسائل. فعبئاي المستئنان لا تساعداني كثيراً".

قال لانغدون مبتسماً وهو يجلس بجانبها، ويحرص على عدم إيقاظ زوجها النائمة: "لدي واحد أنا أيضاً، لكنني أضعته في الليلة الماضية".

"آه، يا لها من مأساة! هل حاولت إيجادها عبر استخدام ميزة هاتف أيفون؟ يقول ابني -".
"بسبب غيائي، لم أشغل تلك الميزة قط". نظر إليها لانغدون بخجل، وسألها بشيء من التردد: "إن لم يكن في ذلك تطفل كبير، هل تمنعني إن استعرت هاتفك للحظة واحدة؟ أريد أن أبحث عن شيء على الإنترنت، وسيساعدني ذلك كثيراً".

"بالطبع!". سحب السماعتين من أذنيها، ووضعت الجهاز بين يديه. "لا مشكلة على الإطلاق يا عزيزي".

شكرها لانغدون وتناول الهاتف. وبينما راحت تخبره كم ستحزن لو أضاعت هاتفها، فتح لانغدون نافذة بحث غوغل وضغط على زر مكبر الصوت. عندما أصدر الهاتف رنة واحدة، قال لانغدون:

"دانتي، الكوميديا الإلهية، الجنة، النشيد الخامس والعشرون".

بدت الدهشة على وجه المرأة التي لم تكن تعرف بعد بتلك الميزة. عندما بدأت النتائج بالظهور على الشاشة الصغيرة، ألقى لانغدون نظرة سريعة على سينيّا التي كانت تتفحص بعض المواد المطبوعة الموضوعية بالقرب من سلة الرسائل الموجهة إلى بياتريتشى.

على مسافة غير بعيدة من سينيّا، كان ثمة رجل يضع ربطة عنق ويركع في الظل، ويصلي بتركيز، خافضاً رأسه إلى الأسفل. لم يستطع لانغدون رؤية وجهه، لكنه شعر بالأسى على الرجل الوحيد الذي خسر محبوبته على الأرجح، وأتى إلى هذا المكان طلباً للراحة.

أعاد لانغدون تركيزه إلى الأيفون، وتمكّن خلال ثوانٍ من إيجاد رابط يعرض نسخة رقمية من الكوميديا الإلهية، ويمكن الوصول إليه مجاناً لأنه كان في المجال العام. عندما فُتحت الصفحة تحديداً على النشيد 25، أقر بإعجابه بالتكنولوجيا. فذكر نفسه، على أن أتوقف عن التمسك بالكتب ذات الغلاف الجلد، فالكتب الإلكترونية لها مزاياها أيضاً.

نظرت إليه المرأة المسنة، وأبدت بعض القلق حيال ارتفاع كلفة تصفّح الإنترنت في الخارج، فشر لانغدون أن فرصته ستكون قصيرة، وركز باهتمام على الصفحة المفتوحة أمامه.

كان النص مكتوباً بأحرف صغيرة، لكنّ الضوء الخافت الصادر من الكنيسة جعل الشاشة المضيئة أكثر وضوحاً. فرح لانغدون لأنّه وقع صدفة على ترجمة ماندلباوم، وهي ترجمة معاصرة وشعبية قام بها البروفيسور الأميركي الراحل الآن ماندلباوم. ويفضل هذه الترجمة المذهلة، نال ماندلباوم أعلى تكريم في إيطاليا، وهو الصليب الرئاسي لوسام نجمة التضامن الإيطالي. ومع أنّ ترجمة ماندلباوم أقلّ شاعرية من ترجمة لونغفيلوي، إلّا أنّها مفهومة أكثر بكثير.

فكر لانغدون: سأختار اليوم الموضوع عوضاً عن الشعر، وتمنّى أن يجد في النص على الفور إشارة إلى مكان محدّد في فلورنسا؛ المكان الذي خبأ فيه إغناطيوس قناع دانتي. لم تكن شاشة الأيفون الصغيرة تعرض سوى سنّة أسطر في وقت واحد. وبينما بدأ لانغدون يقرأ، أخذ يتذكّر النصّ. في بداية النشيد 25، ذكر دانتي الكوميديا/الإلهية نفسها، والكلفة المائيّة التي تكبدها لكتابتها، كما ذكر أمّله المؤلم في أن تتغلّب قصيدته الجميلة على قسوة المنفى الذي أبعده عن مدينته الجميلة فلورنسا ووحشيتها.

النشيد 25

إن كان سيحدث... إن كانت هذه القصيدة المبدّلة
هذا العمل المتقاسم بين السماء والأرض
الذي جعلني أنحني مع مرور السنوات الطويلة
تستطيع أن تتغلّب على الوحشية
التي تبعدني عن الحظيرة الجميلة التي كنت أرقّد فيها،
حمل في مواجهة جيش من الذئاب...

مع أنّ هذا المقطع يشكّل تذكيراً أنّ فلورنسا الجميلة هي الوطن الذي تاق إليه دانتي وهو يؤلّف الكوميديا/الإلهية، إلّا أنّ لانغدون لم يجد فيه إشارة إلى مكان محدّد في المدينة. قاطعته المرأة وهي ترمق هاتفها بقلق مفاجئ: "ماذا تعرف عن الرسوم المفروضة على البيانات؟ تذكرت للتوّ أنّ ابني طلب منّي أن أكون حذرة لدى تصفّح الإنترنت في الخارج". أكّد لها لانغدون أنّه لا يحتاج إلى أكثر من دقيقة، وعرض أن يستدّ لها كلفة استخدامه الهاتف. لكن، مع ذلك، شعر أنّها لن تسمح له أبداً بقراءة النشيد 25 المؤلّف من مائة بيت. مرّر النصّ بسرعة إلى الأسطر السنّة التالية وتابع القراءة.

عندئذ، بصوت آخر وبصوف آخر،
سأعود كشاعر وأضع،
عند جرن معموديتي، إكليل الغار؛

لأنني هناك اعتنقت ذلك الإيمان
الذي يجعل النفوس ترحب بالله، ويومها،
بسبب ذلك الإيمان، كلل بيتر جيبني.

تذكر لانغدون قليلاً هذا المقطع أيضاً، وفيه إشارة مبثّنة إلى صفقة سياسية عُرضت على
دانتي من قبل أعدائه. بحسب التاريخ، إنّ "الذئب" الذين نفوا دانتي من فلورنسا أخبروه أنّه لا
يستطيع العودة إلى المدينة إلا إن وافق على تحمّل الخزي العلني، المتمثّل بالوقوف أمام جماعة
كبيرة وحده في جرن المعمودية، وهو لا يرتدي سوى رداء من الخيش اعترافاً بذنبه.
في النصّ الذي قرأه لانغدون للتوّ، يقول دانتي، بعدما رفض الصفقة، إنّ عاد يوماً ما
إلى جرن معموديته، فلن يكون مرتدياً ثوب الخيش الذي يرتديه المذنبون، بل سيكون واضعاً
إكليلاً من الغار يليق بالشعراء.
رفع لانغدون سبّابته لتمرير النصّ أكثر، لكنّ المرأة اعترضت فجأة، ومدّت يدها طالبة
هاتفها، بعدما أعادت النظر كما يبدو في سماحها للانغدون باستخدامه.
لكنّ لانغدون بالكاد سمعها. ففي اللحظة التي سبقت لمسه للشاشة، وقعت عيناه على
بيت... ورآه للمرّة الثانية.

سأعود كشاعر وأضع،
في جرن معموديتي، إكليل الغار؛

حقّق لانغدون إلى تلك الكلمات، وشعر أنّه في غمرة بحثه عن مكان محدّد، كانت أن
تقوته إشارة واضحة في الأبيات الأولى.

في جرن معموديتي...

كانت فلورنسا موطناً لواحدٍ من أجران المعمودية الأشهر في العالم، الذي استُخدم لأكثر
من سبعمائة عام لتعميد الفلورنسيين الصغار، ومن بينهم دانتي أليغييري.
تذكر لانغدون على الفور المبنى الذي يحتوي على الجرن. كان صرحاً رائعاً مثمّن الزوايا،
يُعتبر من نواحٍ عديدة أكثر جمالاً من الكاتدرائية نفسها. وتساءل الآن عما إذا كان قد قرأ ما فيه
الكفاية.

هل يمكن أن يكون هذا المبنى هو المكان الذي يشير إليه إغناسيو؟
فجأة، ومض في ذهن لانغدون ضوء ذهبي مع تجسّد صورة جميلة في خياله، أبواب
برونزية رائعة، تلمع وتتألّق تحت شمس الصباح.

عرفت ماذا حاول إغناطسيو أن يقول لي!
ثم تبخّرت كلّ الشكوك بعد لحظات؛ عندما أدرك أن إغناطسيو بوزوني هو الشخص الوحيد
في فلورنسا الذي يستطيع فتح تلك الأبواب.
روبرت، الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.
أعاد لانغدون الأيفون إلى المرأة المسنة وشكرها شكراً جزيلاً.
اندفع إلى سيينا وهمس بحماسة: "عرفت عن أي أبواب كان إغناطسيو يتحدث؟ إنها أبواب
الجنة!".
نظرت إليه سيينا بشكك: "أبواب الجنة؟!".
ابتسم لانغدون ابتسامة متعبة وتوجّه إلى الباب قائلاً: "في الواقع، إن عرفت أين تبحثين
فستجدين أن فلورنسا رائعة بحدّ ذاتها".

الفصل 53

سأعود كشاعر... إلى جرن معموليتي.

تردّدت كلمات دانتي في ذهن لانغدون وهو يقود سيبنا شمالاً في الزقاق الضيق المعروف باسم فيا ديلو ستوديو. مع كلّ خطوة كانا يتقدّمان فيها إلى وجهتهما، كان يشعر بثقة أكبر أنهما على الطريق الصحيح، وأنهما ابتعدا عن مطارديهما. الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.

عندما اقتربا من نهاية الزقاق الشبيه بالصدع، بدأ لانغدون يسمع أصوات الحركة منخفضة الوثيرة أمامه. فجأة، انتهى الزقاق ليخرجا منه إلى ساحة مترامية الأطراف. بياتزا ديل دوومو.

كانت هذه الساحة الشاسعة، بشبكاتها المعقّدة من الأبنية، مركز فلورنسا الديني قديماً. أما اليوم، فأصبحت أقرب إلى مركز للسياح، وكانت قد بدأت تعجّ بالحافلات السياحية وحشود الزوّار الذين يتجمّعون حول كاتدرائية فلورنسا الشهيرة.

بعدما وصل لانغدون وسيبنا إلى الجزء الجنوبي من الساحة، أصبحا يواجهان جانب الكاتدرائية، برخامها رائع الألوان من الأخضر، والوردي، والأبيض. كانت الكاتدرائية تخطف الأنفاس بحجمها وبالفنّ المستخدم في بنائها. وكانت تمتدّ بالاتجاهين لمسافات بعيدة جداً كما يبدو؛ إذ يعادل طولها تقريباً طول نصب واشنطن ممدّداً على جانبه.

على الرغم من تخلي الكنيسة عن الزخرفة الحجرية التقليدية أحادية اللون لصالح المزيج غير المألوف للألوان الصارخة، إلّا أنّ الهيكل كان يمتاز بنمط قوطي صافٍ؛ كلاسيكي، وقوي، ومتين. يعترف لانغدون أنّه في زيارته الأولى إلى فلورنسا وجد الهندسة المعمارية للكاتدرائية مبهرجة تقريباً. لكن في الزيارات التالية، أخذ يدرس البناء لساعات متواصلة، وقد أسرته على نحو غريب تأثيراته الجمالية غير المألوفة، إلى أن أصبح أخيراً يقدر جمال الكاتدرائية الخلاب.

لم يقتصر عطاء كاتدرائية إيل دوومو، المسمّاة أيضاً ساننا ماريا ديل فيوري، على توفير لقب لإغناسيو بوزوني، بل اعتُبرت لفترة طويلة القلب الروحي لفلورنسا، كما اشتمل تاريخها على قرون من الدراما والإثارة. إذ تراوح ماضي البناء المتقلّب بين المناقشات الطويلة والشرسة حول جدارية فاساري المكروهة، التي تحمل اسم يوم القيامة، والتي تغطّي الجهة الداخلية للقبّة... والمنافسة الحامية لاختيار مهندس لإنهاء القبّة نفسها.

في نهاية المطاف، فاز فيليبو برونيليسكي بالعقد المريح، وأكمل بناء القبة التي كانت الكبرى في ذلك الزمن. وحتى هذا اليوم، يمكن رؤية برونيليسكي نفسه في منحوتة، جالساً خارج بالاتزو داي كانونيتشي، يتأمل تحفته راضياً.

هذا الصباح، عندما نظر لانغدون إلى القبة الحمراء التي شكّلت إنجازاً معمارياً في زمانها، تذكّر اليوم الذي قرّر فيه بحماقة اعتلاء القبة ليكتشف أنّ سلالمة الضيقة المكتظة بالسياح لا تختلف عن الأماكن الخائفة التي توجد فيها. مع ذلك، كان لانغدون ممثلاً للمحنة التي عاناها وهو يتسلّق قبة برونيليسكي "لأنها شجّعت على قراءة كتاب مثل لروس كينغ يحمل العنوان نفسه.

سألته سينا: "روبرت، ألن تتابع الطريق؟".

أبعد لانغدون نظره عن القبة، ليدرك أنّه توقّف لتأمل البناء. "أسف على ذلك".

واصل التقدم سالكين محيط الساحة. أصبحت الكنيسة إلى يمينهما الآن، ولاحظ لانغدون أنّ السياح بدأوا يتدفّقون من أبوابها الجانبية، وهم يشطبون الكنيسة من لائحة الأماكن التي سيزورونها.

ارتفع أمامهما برج الأجراس الذي لا يمكن إخطاؤه، وهو المبنى الثالث في مجمع الكاتدرائية. كان معروفاً باسم برج جرس جوتو، وهو لا يدعُ مجالاً للشك في أنّه ينتمي إلى الكاتدرائية المجاورة له. فقد كان البرج المرتفع، بألوان واجهته الوردية والخضراء والبيضاء المشابهة لألوان الكاتدرائية، يرتفع في السماء على علو شاهق يقارب ثلاثمائة قدم. لطالما دُهِش لانغدون من صمود هذا البناء طوال قرون، على الرغم من الزلازل وسوء الأحوال الجوية، لا سيّما مع ثقل وزنه، وذلك لأنّ قمته تحمل أجراساً يتجاوز وزنها عشرين ألف باوند.

مشت سينا بجانبه بسرعة، وهي تتأمل بعصبية السماء خلف برج الأجراس، بحثاً كما يبدو عن طائفة مراقبة، لكنّها لم تجد شيئاً في الأجواء. كان الحشد كثيفاً؛ حتّى في هذه الساعة المبكرة، وحرص لانغدون على البقاء في الوسط.

عندما اقتربا من برج الأجراس، مرّا بصفّ من فنّاني الكاريكاتير الواقفين أمام حوامل الرسم يرسمون صوراً كرتونية للسياح. مراهق يقف على لوح تزلّج، فتاة ذات أسنان كأسنان الحصان تحمل عصا لأكروس، وعروسان يقبلان بعضهما على ظهر وحيد قرن. وجد لانغدون أنّه من الممتع السماح بهذا النشاط في المكان نفسه الذي وضع فيه مايكل أنجلو حامل الرسم الخاص به وهو صبي.

تابع لانغدون وسينا طريقهما حول قاعدة برج جوتو، ثمّ انعطفا يميناً، واجتازا الساحة المفتوحة مباشرة أمام الكاتدرائية. في هذا المكان، كانت الحشود أكثر كثافة، وكان السياح من مختلف أنحاء العالم يوجّهون كاميرات هواتفهم وآلات الفيديو نحو الأعلى لتصوير الواجهة الرئيسة الملونة.

بالكاد نظر لانغدون إلى الأعلى، وذلك لأنّ انتباهه كان مركّزاً على مبنى أصغر بكثير ظهر أمامه للتوّ. أمام مدخل الكاتدرائية مباشرة، يقع البناء الثالث والأخير في مجمع الكاتدرائية. كان أيضاً البناء المفضّل لدى لانغدون.

معمودية سان جوفاتي.

كانت المعمودية ذات الواجهة المزينة بالألوان المتعددة والأعمدة المخططة مثل الكاتدرائية، وتمتاز عن المبنى الأكبر حجماً بشكلها اللافت: بناء مثمن الأضلاع. ادعى البعض أنها تشبه قالب حلوى مؤلفاً من طبقات؛ إذ إنها تتألف من ثلاثة طوابق مميزة يعلوها سقف أبيض منخفض.

مع أن لانغدون يعتبر المعمودية أحد أروع الأبنية في فلورنسا، إلا أنه يجد أن اختيار الموقع غير عادل إلى حد ما. ففي أي مكان آخر على وجه الأرض، كانت هذه المعمودية ستشكل مركز الاهتمام. أما هنا، فإنها تبدو أقل شأنًا في ظلّ المبنيين الشاهقين المجاورين لها. ذكر لانغدون نفسه أن هذا الانطباع يتغير ما إن يخطو المرء إلى الداخل، وأخذ يتذكر داخل المبنى المزين بالفسيفساء الخلابة التي دفعت بعض المعجبين بالعمل المعماري إلى وصف سقف المعمودية أنه عمل معماري يثير الإعجاب. كان لانغدون قد قال لسيينا، إن عرفت أين تبحثين فستجدين أن فلورنسا رائعة بحد ذاتها.

لقرون عديدة، استضاف هذا البناء مثمن الأضلاع مراسم عمادة عدد لا يحصى من الشخصيات البارزة، وكان دانتى واحداً منهم. سأعود كشاعر... إلى جرن معموديتي.

بعدما حكم على دانتى بالنفي، لم يسمح له قط بالعودة إلى هذا المكان، مكان عمارته، مع أن لانغدون يأمل أن يكون قناع دانتى قد وجد طريقه أخيراً إلى هذا المكان عوضاً عن دانتى، وذلك من خلال سلسلة الأحداث التي تالتت في الليلة الفائتة.

فكر لانغدون، لا بد أن تكون المعمودية هي المكان الذي خبأ فيه إغناطيوس القناع قبل وفاته. تذكر الرسالة الصوتية اليايسة التي تركها إغناطيوس، وأحس بقشعريرة وهو يتخيل الرجل البدين بمسك بصدرة ويترنح لاجتياز الساحة إلى أحد الأزقة، ويجري مكالمته الهاتفية الأخيرة بعدما ترك القناع بأمان في المعمودية. الأبواب مفتوحة أمامك.

ظلّ نظر لانغدون مركّزاً على المعمودية وهو يسير مع سيينا بين حشود المارة. كانت سيينا تسير الآن بلهفة كبيرة؛ إلى حد أن لانغدون اضطرّ للهرولة لمجاراتها، حتى من تلك المسافة البعيدة، استطاع رؤية أبواب المعمودية الضخمة وهي تلمع تحت أشعة الشمس.

استغرقت تلك الأبواب المصنوعة من البرونز المذهب والتي يتجاوز طولها خمس عشرة قدماً، من لورنزو غيبيرتي ما يزيد عن عشرين عاماً لإتمامها. كانت مزخرفة بعشر لوحات لشخصيات مستمدة من التوراة، وذلك بجودة عالية دفعت فاساري إلى وصف الأبواب على أنها "كاملة بلا أي شك من جميع النواحي... وأروع تحفة على وجه الأرض".

غير أن شهادة مايكل أنجلو هي التي منحت الأبواب لقباً ظلّ حياً حتى هذا اليوم. إذ أعلن الفنان الشهير أنها جميلة جداً.

الفصل 54

التوراة بالبرونز. هذا ما فُكر فيه لانغدون وهو يتأمل الباب الجميل الذي يقف أمامه. تتألف أبواب غيبيرتي من عشر لوحات مربعة، تصوّر كلّ منها مشهداً مهماً من العهد القديم. تبدأ النقوش من جنة عدن، وتنتقل إلى موسى، وهيكّل الملك سليمان، حيث تقصّ رواياتهما على عمودين أفقيين يتألف كلّ منهما من خمس لوحات.

ولدت المجموعة المذهلة من اللوحات الفردية على مرّ القرون ما يشبه مسابقة شعبية بين الفنانين ومؤرّخي الفنّ، خاض الجميع خلالها - بدءاً من بوتيّشيليّ إلى النقاد المعاصرين - جدالاً حول "اللوحة الأكثر جمالاً". وكانت اللوحة الفائزة، بالإجماع العام عبر القرون، لوحة يعقوب وعيسو، اللوحة الوسطى في العمود الأيسر التي اختيرت بحسب المزاعم نظراً إلى العدد المذهل من الأساليب الفنية التي استخدمت في صنعها. غير أنّ لانغدون يعتقد أنّ السبب الفعلي وراء هيمنة اللوحة على اللوحات الأخرى هو اختيار بوتيّشيليّ لها لتوقيع اسمه عليها.

قبل بضع سنوات، ذهب إغناسيو بوزوني مع لانغدون بفخر لرؤية هذه الأبواب، واعترف له بخجل أنّه بعد نصف ألفية من التعرّض للفيضانات، والتخريب، وتلوّث الهواء، تم استبدال الأبواب المذهبة بهدوء بأخرى مقلّدة، واحتفظ بالأبواب الأصلية في موزيو ديل أويرا ديل دوومو لترميمها. فامتنع لانغدون بتعذيب عن إخبار بوزوني أنّه يدرك تماماً أنّهما يتأملان أبواباً مزيفة، وأنّ هذه النسخة في الواقع هي المجموعة الثانية من أبواب غيبيرتي "المزيفة" التي يراها. إذ وقع على النسخة الأولى عن طريق الصدفة؛ بينما كان يجري بحثاً حول متاهات كاتدرائية غريس في سان فرانسيسكو، واكتشف أنّه تمّ استعمال نسخة عن أبواب غيبيرتي لمدخل الكاتدرائية منذ أواسط القرن العشرين.

بينما كان لانغدون واقفاً أمام تحفة غيبيرتي، استرعت انتباهه لوحة إعلانية معلقة في الجوار، كتبت عليها جملة إيطالية بسيطة أفزعته.

لا بيسّتي نيرا. كانت العبارة تعني "الموت الأسود". قال لانغدون لنفسه: يا إلهي، أنا أجدّه أينما ذهبت! بحسب اللوحة، تمّ التكليف بصنع الباب امتثالاً لنجاة فلورنسا إلى حدّ ما من الطاعون. أجبر لانغدون نفسه على التركيز على الباب، في حين ترددت كلمات إغناسيو في ذهنه مجدداً. *الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.*

على الرغم من وعد إغناسيو، إلا أنّ أبواب الجنة كانت موصدة حتماً؛ كعادتها، باستثناء المناسبات الدينية النادرة. وعادة، يدخل السياح إلى المعمودية من جهة أخرى؛ عبر الباب الشمالي.

وقفت سينيّا قريباً على رؤوس أصابعها، محاولة النظر من بين الحشد. قالت: "الباب المواجه لنا ليس مزوّداً بمقبض، أو بقفل، أو أي شيء".

هذا صحيح. كان لانغدون يعرف أنّ غيبيرتي ما كان ليتلف تحفته بشيء تافه، مثل مقبض باب. "الباب يفتح إلى الداخل، ويقفل من هناك".

فكرت سينيّا وهي تلوي شفيتها، ثمّ قالت: "إذاً، من بعيد... لا يمكن لأحد أن يعرف إن كانت الأبواب مقفلة أم لا".

أوما لانغدون موافقاً. "أمل أن يكون هذا بالضبط ما فكر فيه إغناسيو".

مشى بضع خطوات إلى اليمين، وألقى نظرة على الجهة الشمالية للمبنى، فرأى هناك باباً أقلّ زخرفة، هو باب السياح. وقف عنده رجل يدخن سيجارة وقد بدا عليه الملل، وراح يصرف السياح الذين أتوا يستفسرون بالإشارة إلى لافتة علّقت على المدخل: *بيروتور 13:00-17:00*.

فكر لانغدون مسروراً، لا تفتح الأبواب قبل عدّة ساعات. ولم يدخل أحد بعد.

نظر تلقائياً إلى معصمه، وتذكّر مجدداً فقدان ساعة ميكي ماوس.

عندما عاد إلى سينيّا، وجدها بين مجموعة من السياح الذين أتوا لالتقاط الصور من وراء السور الحديدي البسيط الذي تمّ بناؤه على مسافة عدّة أقدام من الأبواب، لمنع السياح من الاقتراب من تحفة غيبيرتي كثيراً.

صنعت بوابة السور من الحديد المطاوع الأسود، وتعلوها مسامير مطلية بماء الذهب. وهذا السور يشبه السور البسيط الذي غالباً ما يحيط بالمنازل في الضواحي. والغريب أنّ اللافتة الإعلامية التي تصف أبواب الجنة لم تعلّق على الأبواب نفسها، بل على هذا السور العادي جداً.

كان لانغدون قد سمع أنّ اللافتة تسبب أحياناً إرباكاً للسياح. وبالفعل، أتت في تلك اللحظة امرأة مكتنزة ترتدي ملابس أنيقة، ثمّ نظرت إلى اللافتة، وحملت عابسة إلى السور الحديدي، قبل أن تقول ساخرة: "أبواب الجنة؟ تبّاً، تبدو مثل سياج وجار كلبي!". ثمّ انصرفت قبل أن يتمكّن أحد من الشرح لها.

مدّت سينيّا يدها وأمسكت البوابة، ثمّ نظرت على نحو غير لافِت للانتباه عبر القضبان إلى القفل الموجود في الخلف.

التفتت إلى لانغدون بدهشة وهمست قائلة: "انظر، القفل في الخلف غير موّصد".

نظر لانغدون عبر القضبان وأدرك أنّها محقة؛ فقد كان القفل مثبتاً ليبدو أنّه مقفل، لكن عندما تفحصه عن كثب، عرف أنّه مفتوح حتماً.

الأبواب مفتوحة أمامك، لكن عليك أن تسرع.

نظر لانغدون إلى مصراعي الباب البرونزيين خلف السور. إن كان إغناسيو قد ترك فعلاً أبواب المعمودية مفتوحة، فما عليه سوى دفعها. لكن التحذّر يكمن في الدخول من دون لفت أنظار كلّ الموجودين في الساحة، بمن فيهم من دون شك الشرطة وحراس الدومو.

فجأة، صاحت امرأة في الجوار: "انظروا! سوف يقفز!". كان صوتها مليئاً بالرعب. "هناك، على برج الأجراس!".

استدار لانغدون ورأى أنَّ المرأة التي تصرخ لم تكن سوى... سبيثا. كان تقف على بعد خمس ياردات، وتشير بإصبعها إلى برج الأجراس وهي تصيح: "هناك في الأعلى! سوف يقفز!".

توجّهت كلُّ الأنظار إلى الأعلى، وبدأ أشخاص آخرون يقفون بجوارها ويشيرون وينادون بعضهم بعضاً.

"أحدهم سيقفز؟".

"أين؟".

"لا أراه!".

"هناك إلى اليسار!".

لم يستغرق الأمر سوى ثوانٍ حتّى عمّ الذعر أرجاء الساحة، وأخذ الجميع يحدقون إلى قمة البرج. انتشر الذعر في الساحة كالنار في الهشيم، إلى أن اشرّبت كلُّ الأعناق وارتفعت كلُّ الأيدي مشيرة إلى البرج.

التسويق عبر التواصل. فكّر لانغدون بذلك، وأدرك أنّه لا يملك سوى ثوانٍ للتصرّف. أمسك على الفور ببوابة السور الحديدي وفتحها في اللحظة التي عادت فيها سبيثا، فتسلّلت معه إلى المساحة الضيقة خلف السور. ما إن أغلقت البوابة خلفهما حتّى استدارا لمواجهة مصراعي الباب البرونزيين بارتفاعهما البالغ خمس عشرة قدماً. أمل لانغدون ألا يكون قد أخطأ في فهم إغناطيوس وهو يلقي بقلبه على أحد المصراعين ويدفع بقوة.

لم يحدث شيء في البداية. لكن، بعد برهة، بدأ ذلك الجزء بالتحرك ببطء شديد. الباب مفتوح! لمسافة قدم واحدة تقريباً، فلم تُضع سبيثا ثانية واحدة، بل وقفت بشكل جانبي وانزلت إلى الداخل، وحذا لانغدون حذوها ودخل جانبياً عبر الفتحة الضيقة إلى ظلام المبنى.

بعد ذلك، استدارا معاً وأغلقا الباب الضخم الذي أطلق صوت جلبة قوياً. على الفور، تلاشت الأصوات والجلبة الآتية من الخارج، وخيم الصمت المطبق.

أشارت سبيثا إلى عارضة خشبية طويلة متروكة على الأرض عند أقدامهما، من الواضح أنّها تستخدم كمزلاج يتم إسقاطه في قوسين من جانبي الباب. قالت: "لا بد أنّ إغناطيوس قد أزاله من أجلك".

رفعوا العارضة معاً، وأسقطاها في مكانها، وأقفلا بالفعل /أحد/ /بواب/ /الجنة... وحبسا نفسيهما في الداخل.

وقف لانغدون وسبيثا مطوّلاً بصمت، متكئين على الباب وهما يلتقطان أنفاسهما. مقارنة بضجيج الساحة، كان قلب المعمودية غارقاً في السكينة.

خارج معمودية سان جوفاني، مشى صاحب نظارة بلوم باريس وربطة عنق بيزلي بين
حشود السياح، متجاهلاً نظرات من لاحظوا طفحه الجلدي.
كان قد وصل للتوّ إلى الباب البرونزي الذي اختفى وراءه لاتفنون ورفيقته الشقراء بذكاء.
حتى من الخارج، كان قد سمع دويّ الباب وهو يوصد من الداخل.
لا يمكن الدخول من هذا الباب.
كانت الساحة تستعيد أجواءها الطبيعية ببطء. فالسياح الذين كانوا يحدقون إلى الأعلى
بترقب، فقدوا اهتمامهم بعدما أدركوا عدم وجود أحد ينوي القفز، وتابع الجميع طريقهم.
عاوده الحكاك مجدداً، وأخذ الطفح يتفاقم. تَوَرَّمَت أنامله الآن وبدأت تتشقق. فأدخل يديه
في جيبه لمنع نفسه من حكّ بشرته. عاوده الألم في صدره عندما بدأ يدور حول المبنى مَثَمَّن
الأضلاع بحثاً عن مدخل آخر.
وحين وصل إلى الزاوية، شعر بألم حاد بين ساقيه، وأدرك أنّه يحكّ مجدداً.

الفصل 55

بحسب الأسطورة، عند دخول معمودية سان جوفاني، من المستحيل عدم النظر إلى الأعلى. وعلى الرغم من مجيء لانغدون إلى هذه القاعة مرات عديدة، فقد شعر الآن بجاذبية المكان، وترك نظره يصعد إلى السقف.

في الأعلى، امتد سقف المعمودية المقيب على أكثر من ثمانين قدماً من جهة إلى أخرى، وراح يلمع ويومض كما لو كان مصنوعاً من الجمر. عكس سطحه الذهبي عنبري اللون الضوء المحيط به على نحو غير متساوٍ من أكثر من مليون قطعة سمّلتي؛ وهي عبارة عن قطع فسيفساء دقيقة غير مقصوفة يدوياً من زجاج السيليكات المصقول، تم ترتيبها في ست حلقات متحدة المركز لتصور مشاهد من الكتاب المقدس.

اخترق النور الطبيعي القاعة، مضافاً دراما صارخة على الجزء العلوي منها، وذلك عبر فتحة مركزية شبيهة بتلك الموجودة في البانثيون في روما، وعبر سلسلة من النوافذ العميقة الصغيرة والمرتفعة التي تلقي أشعة من الضوء المركز والتماسك إلى حد تبدو معه وكأنها صلبة؛ مثل عوارض بنيوية مشيدة وفقاً لروايات متغيرة.

عندما مشى لانغدون مع سيبينا في القاعة، استحوذت عليه فسيفساء السقف الأسطورية التي تشبه إلى حد كبير ما وصفه دانتي في الكوميديا الإلهية. فكّر لانغدون: لقد رأى دانتي أليغييري هذا في طفولته. إنه إلهام من الأعلى.

ثبت لانغدون نظره الآن على محور لوحة الفسيفساء. فوق المذبح الرئيس مباشرة، ارتفعت صورة ليسوع المسيح بطول سبع وعشرين قدماً، تظهره وهو جالس، بالإضافة إلى لوحة فسيفسائية أخرى تصور الشيطان.

لطالما أجفل لانغدون كلما رأى هذه الصورة التي حدّق إليها دانتي أليغييري الصغير قبل أكثر من سبعمائة عام، فأرعبته وألهمته لاحقاً بذلك التصوير الحي لما يختبئ في الحلقة الأخيرة من الجحيم.

تصور الفسيفساء في الأعلى شيطاناً ذا قرون يلتهم كائناً بشرياً بدءاً من رأسه. فيما تدلّت ساقا الضحية من فم الشيطان على نحو شبيه بسيقان الخطاة نصف المدفونين التي تتلوى في مالبولفي دانتي.

فكر لانغدون وهو يتذكر النص: إمبراطور مملكة الأحرار.

خرج من أنفي الشيطان ثعبانان ضخمان يتلويان، ويقومان بأكل الخطاة على نحو يعطي الانطباع أن الشيطان يملك ثلاثة رؤوس، كما وصفه دانتي بالضبط في النشيد الأخير من الإنفيرنو. بحث لانغدون في خبايا ذاكرته، واستعاد مقاطع من تخیلات دانتي. على رأسه ثلاثة وجوه... يسيل من أنفائه الثلاثة دم مزيد... يستعمل أفواهه الثلاثة كمطاحن... يلتهم الخطاة كل ثلاثة معاً.

بينما كان لانغدون يحقّق إلى المشهد المروّع، حاول أن يتخيل تأثير الفسيفساء على دانتي الشاب الذي كان يأتي للصلاة في هذه الكنيسة عاماً بعد عام، ويرى الشيطان وهو يحقّق إليه في كلّ مرة يصلي فيها. لكن هذا الصباح، شعر لانغدون أن الشيطان يحقّق إليه مباشرة، وداهمه إحساس بعدم الارتياح.

أخفض نظره بسرعة إلى شرفة الطابق الثاني للعمودية والقاعة، وهي المكان الوحيد الذي يُسمح فيه للنساء بمشاهدة مراسم التعميد، ومنها إلى التابوت المعلق للبابا يوحنا الثالث والعشرين، الذي تتمدّد جسّته على ارتفاع عالٍ في الجدار، وكأنّه من ساكني الكهوف أو موضوع خدعة قام بها ساحر. أخيراً، وصل نظره إلى بلاط الأرض المزخرف الذي يعتقد كثيرون أنّه يشتمل على إشارات إلى علم الفلك في القرون الوسطى. ترك بصره يتنقّل فوق الأشكال المعقّدة السوداء والبيضاء إلى أن بلغ وسط القاعة.

ها هو/أخيراً، هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو يحقّق إلى المكان الذي عُمد فيه دانتي أليغيري في النصف الثاني من القرن الثالث عشر. أعلن قائلاً: سأعود كشاعر... إلى جرن معموديتي". وتردّد صوته في القاعة الخالية. "ها هو".

بدا على سبيل الاضطراب وهي ترمق وسط الأرض، حيث يشير لانغدون. "لكن... لا يوجد شيء هنا".

أجاب لانغدون: "ليس بعد الآن".

لم يبقَ شيء سوى مساحة بيّنة مائلة إلى الاحمرار ذات شكل مثمن الأضلاع. هذه المنطقة العادية جدّاً بجوانبها الثمانية تتناقض بوضوح مع أرضية القاعة المزخرفة، وتشبه كثيراً فجوة كبيرة. وفي الواقع، هذا ما هي عليه بالضبط.

شرح لها لانغدون بسرعة أنّ جرن المعمودية الأصلي كان عبارة عن حوض كبير مثمن الأضلاع يقع في وسط هذه القاعة تماماً. وفي حين أنّ أجران المعمودية الحديثة عبارة عن أحواض مرتفعة، كانت الأجران القديمة أقرب إلى حوض عميق للماء يتمّ فيه غمر المعمّدين بشكل أعمق. تساءل لانغدون كيف كانت هذه القاعة تبدو بينما الأطفال يصيحون خوفاً وهم يغمرّون فعليّاً في حوض المياه الباردة الذي كان موجوداً في وسطها.

قال لانغدون: "كان التعميد بارداً ومخيفاً حتّى إنّهُ كان خطيراً. فحسب المزاعم، قفز دانتي مرة في الجرن لإنقاذ طفل يغرق. على كلّ حال، تمّت تغطية الجرن الأصلي في مرحلة ما في القرن السادس عشر".

بدأت سبيئاً تنظر في أرجاء القاعة بقلق واضح. لكن، إن كان جرن معمودية دانتي قد اختفى... فأين خبأ إغناسيو القناع؟".

فهم لانغدون سبب توترها. في الواقع، لا تقتصر هذه القاعة الضخمة إلى المخابئ؛ خلف الأعمدة والتماثيل والقبور، وداخل المحاريب، وعلى المنبح، وحتى في الطابق العلوي.

مع ذلك، شعر لانغدون بالثقة وهو يستدير لمواجهة الباب الذي دخل منه. وقال وهو يشير إلى مكان على الجدار، إلى يمين باب الحِجَّة: "علينا أن نبدأ من هناك".

على منصة مرتفعة وراء بوابة مزخرفة، كانت نَمَّة قاعدة سداسية من الرخام المنحوت، تشبه مذبحاً صغيراً أو طاولة. كان سطحها الخارجي مليئاً بالنقوش الدقيقة؛ حيث بدا شبيهاً باللؤلؤ. وفوق القاعدة الرخامية، كان نَمَّة سطح خشبي مصقول يبلغ قطره حوالي ثلاث أقدام.

بدت سبيئاً غير واثقة وهي تتبع لانغدون نحوه. عندما صعدا الدرجات وفتحا البوابة، نظرت سبيئاً عن كثب، وشهقت عندما أدركت ما تنظر إليه.

ابتسم لانغدون. بالضبط، هذا ليس مذبحاً أو طاولة. كان السطح الخشبي في الواقع عبارة عن غطاء للقاعدة المجوفة.

سألته: "أهو جرن معمودية؟".

هز لانغدون رأسه وقال: "لو أن دانتي يعمد اليوم، فسيتم ذلك في هذا الحوض هنا. ومن دون إضاعة الوقت، أخذ لانغدون نفساً عميقاً ووضع يديه على الغطاء الخشبي، وشعر بالترقب وهو يستعد لفتحه.

أمسك لانغدون طرفي الغطاء بإحكام ورفع جانباً، مبعداً إياه بحذر عن القاعدة الرخامية، قبل أن يضعه على الأرض بجانب الجرن. بعد ذلك حثق إلى التجويف المظلم بعرضه البالغ قدمين.

ازدرد لانغدون لعبه أمام ذلك المشهد المخيف.

في الظلام، كان وجه دانتي أليغييري الميت ينظر إليه.

الفصل 56

من يبحث يجد.

وقف لانغدون على حافة جرن المعمودية، وحنق إلى قناع الموت الأصفر الشاحب الذي كان ينظر إلى الأعلى بلامحه المكسوة بالتجاعيد. كان الأنف المعقوف والذقن البارز لا لبس فيهما.

دانتى ألغييري.

كان الوجه الخالي من الحياة مثيراً للاضطراب بما فيه الكفاية، لكن شيئاً ما في وضعيته في الجرن بدا خارقاً تقريباً. وللحظة، كان لانغدون غير متأكد مما يراه.

هل القناع... بطير؟

جثا لانغدون لينظر عن كثب. كان عمق الجرن يبلغ عذّة أقدام، وكان أقرب إلى بئر عمودية منه إلى حوض ضحل، إذ تنخفض جدرانه بحدّة إلى القعر بشكله سداسي الأضلاع الذي كان مليئاً بالمياه. والغريب أنّ القناع بدا معلقاً في منتصف المسافة إلى الأسفل... وكأنّه يطفو على سطح الماء بسحر ساحر.

استغرق لانغدون لحظة ليدرك سبب هذا الوهم. كان الجرن مزوّداً بمحور مركزي يرتفع إلى نصف ارتفاع الجرن، ويعطوه طبق معدني مسطح صغير فوق الماء. بدا أنّ ذلك الطبق يُستخدم كمكان لإسناد مؤخرة الطفل، لكنّه يُستخدم حالياً كمنصب لقناع دانتى لحمايته من الماء.

لم يتفوّه لانغدون وسييناً بأيّ كلمة وهما يقفان جنباً إلى جنب، محدّقين إلى وجه دانتى ألغييري الذي ما زال محفوظاً في الكيس المصنوع من النايلون، وكأنّه مختنق. وللحظة، ذكّرت صورة الوجه الذي يحنق إلى الأعلى في حوض مليء بالماء لانغدون بتجربته المخيفة في طفولته عندما سقط في قعر بئر وراح يحدّق إلى الأعلى يائساً.

طرد الفكرة من عقله، ثم مدّ يده بعناية وأمسك القناع من الجانبين، حيث ينبغي أن تكون أدنا دانتى. على الرغم من أنّ القناع كان صغيراً بالمقاييس الحديثة، إلّا أنّ الجصّ القديم كان أثقل ممّا توقّع. رفع القناع وأخرجه من الجرن، ثم حمّله عالياً لكي يتمكّن من تفحصه هو وسييناً عن كثب.

حتّى من خلال الكيس، بدا القناع نابضاً بالحياة. فكّل تجاعيد وجه الشاعر العجوز وملامحه تمّ التقاطها بواسطة الجصّ الرطب. وباستثناء شقّ قديم في الوسط، كان القناع بحالة ممتازة. همست سييناً: "أقلبه نرى ماذا يوجد في الجهة الأخرى".

كان لانغدون ينوي أن يقوم بذلك أساساً. فقد أظهر شريط تسجيل المراقبة في قصر فيكيو بوضوح اكتشافهما هو وإغناسيو شيئاً في الجهة الأخرى للقناع؛ شيئاً هاماً جداً دفع الرجلين إلى الخروج من القصر مع القطعة الأثرية.

حرص لانغدون جيداً على عدم إسقاط القناع الجصّي الهشّ وهو يقبله على وجهه فوق في راحة يده اليمنى لكي يتفحصاً باطنه. خلافاً لوجهه دانتي المسنّ والمكسّر بالتجاعيد الذي يبدو من الخارج، كان باطن القناع أملس تماماً. وبما أنّه لم يُصنع ليوضع على الوجه، كان باطنه مملوءاً بالجصّ لإضفاء شيء من المتانة إلى هذه القطعة الحساسة؛ ممّا جعل الباطن عبارة عن سطح أجوف خالٍ من الملامح، وكأثّه وعاء حساء.

لم يعرف لانغدون ما الذي كان يتوقّع وجوده في باطن القناع، لكن بالتأكيد ليس هذا. لا شيء.

لا شيء إطلاقاً.

مجرد سطح أملس خالٍ.

بنت سيبينا مرتبكة هي أيضاً. همست: "إنّه جصّ فارغ. لا يوجد شيء هنا، إلام كنت تتظر أنت وإغناسيو؟"

فكر لانغدون، ليست لديّ أي فكرة، وشدّ الكيس على القناع ليراه بوضوح. لا يوجد شيء هنا! تصاعد إحباط لانغدون وهو يرفع القناع إلى الضوء ويتفحصه عن كثب. وعندما أمال القناع قليلاً، ظلّ للحظة أنّه لمح تلوّناً باهتاً بالقرب من الجزء الأعلى؛ خطأً من العلامات ممتدّاً أفقياً على باطن جبين دانتي.

أهي سؤائب طبيعية؟ أو ربّما... شيء آخر. استدار لانغدون على الفور، وأشار إلى لوح رخامي مزوّد بمفاصل على الجدار خلفهما. قال لسيبينا: "ابحثي هناك عن بعض المناشف". بدا التشكّك واضحاً على تعابير سيبينا، لكنّها أطاعته، وفتحت الخزانة ذات الباب الخفيّ ووجدت فيها ثلاثة أشياء: صمّام للتحكّم بمستوى المياه في الجرن، ومفتاح للضوء للتحكّم بالمصباح فوق الجرن، و... عدد من المناشف الكتّانية.

نظرت سيبينا إلى لانغدون بدهشة، لكنّ هذا الأخير جال عدداً كبيراً من الكنائس في العالم ليعرف أنّ قاعات المعمودية توفّر للكهنة دائماً وصولاً سهلاً إلى المناشف عند الحاجة الطارئة إليها، وذلك لأنّ التعميد يواجه دائماً خطر عدم قدرة الأطفال على التحكّم بمثانتهم.

قال وهو يرمق المناشف: "جيد، هلاً حملت القناع للحظة". نقل القناع بلطف إلى يدي سيبينا، ثمّ بدأ بالعمل.

أولاً، أعاد لانغدون الغطاء سداسي الشكل إلى سطح الجرن الذي سرعان ما استعاد شكل الطاولة الشبيهة بالمذبح. بعد ذلك، تناول عدداً من المناشف الكتّانية من الخزانة وفرشها على الطاولة وكأنّها مفرش مائدة. أخيراً، أضاء المصباح الموجود فوق الجرن، فأضاء مكان التعميد وسطع فوق سطح الطاولة المغطى بالمناشف.

وضعت سبيئاً القناع على غطاء الجرن بحرص، في حين أخرج لانغدون المزيد من المناشف التي استخدمها مثل ققازي الفرن لإخراج القناع من الكيس، مع الحرص على عدم لمسه بينيه مباشرة. بعد لحظات، كان قناع دانتي موضوعاً تحت الضوء، ووجهه إلى الأعلى، لا يحجبه شيء، مثل رأس مريض مخدر على طاولة العمليات.

بدا سطح القناع أكثر إرباكاً في الضوء، وضاعف تغير لون الجص من حدة ثانياً الشيوخوخة وتجاعيدها. لم يُضِع لانغدون الوقت، بل استخدم ققازيه المرتجلين لقلب القناع على وجهه. بدا باطن القناع أكثر شباهاً بكثير من سطحه الخارجي، فقد كان نظيفاً وأبيض اللون وليس قديماً أو مصفراً.

أما لت سبيئاً رأسها، وبدت عليها الحيرة: "ألا تبدو لك هذه الجهة جديدة أكثر؟". بالفعل، كان اختلاف اللون واضحاً أكثر ممّا تخيل لانغدون، لكن هذه الجهة بالتأكيد بعمر الجهة الأخرى نفسه. قال: "إنها شيوخوخة متفاوتة. فقد تمت حماية باطن القناع بفضل خزانة العرض، ولم يتعرض لآثار الشيوخوخة الناجمة عن ضوء الشمس". ذكر لانغدون نفسه بمضاعفة درجة الوقاية من الشمس الذي استخدمه.

قالت سبيئاً وهي تتحني فوق القناع: "لحظة واحدة، انظر! هنا على الجبين! لا بد أن هذا ما رأيتماه أنت وإغاناسيو".

نظر لانغدون إلى السطح الأبيض الأملس؛ إلى التلون الذي لمحّه قبل قليل من خلال الكيس، والذي كان عبارة عن خطّ باهت من العلامات الممتدة أفقياً على باطن جبين دانتي. لكن، تحت الضوء الساطع، رأى لانغدون بوضوح أن هذه العلامات لم تكن شوائب طبيعية... بل من صنع إنسان.

همست سبيئاً، وقد علقت الكلمات في حلقها: "هذه... كتابة. ولكن...". تأمل لانغدون الكتابة الظاهرة على الجص. كانت عبارة عن صف واحد من الأحرف المكتوبة بخط منمّق أصفر مائل إلى البني.

قالت سبيئاً، وقد بدا عليها الغضب تقريباً: "أهذا كل شيء؟". بالكاد سمعها لانغدون، فقد كان يتساءل: من كتب هذا؟ / هو شخص من حقبة دانتي؟ يبدو هذا الأمر غير محتمل. في تلك الحالة، كان أحد المؤرخين سيكتشف الأمر منذ زمن طويل خلال عملية التنظيف والترميم المنتظمة التي كان القناع يخضع لها، وكانت الكتابة عندها ستتحول إلى جزء منه. غير أن لانغدون لم يسمع بذلك قطّ. عندئذ، خطر في باله بسرعة مصدر أكثر احتمالاً بكثير.

بيرتراند زوبريست.

كان زوبريست مالك القناع، ويستطيع بالتالي أن يطلب الوصول إليه على انفراد كلما أراد ذلك. ربّما كتب النص على باطن القناع مؤخراً وأعادته إلى الخزانة الأثرية من دون معرفة أحد. فقد قالت لهما مارتا: مالك القناع لا يسمح لموظفينا بفتح الخزانة من دون وجوده.

شرح لانغدون نظريته بسرعة.

بدا على سبينّا أنّها قبلت تفسيره، لكنّ ذلك الاحتمال سبّب لها اضطراباً واضحاً. قالت: "هذا غير منطقي. إن صدّقنا أنّ زويريست قام سرّاً بكتابة شيء ما على باطن قناع الموت الخاصّ بدانتلي، وأنّه تكبّد عناء ابتكار ذلك المسلاط الصغير للإشارة إلى القناع... فلماذا لم يكتب إذا شيئاً أكثر وضوحاً؟ برأيي، هذا لا معنى له! هل بحثنا أنا وأنت عن هذا القناع، لكي لا نجد سوى هذا؟".

أعاد لانغدون تركيزه على النصّ الموجود على باطن القناع. كانت الرسالة المكتوبة بخطّ اليد قصيرة جداً، لا تتجاوز سبعة حروف، وبدت بلا أيّ معنى. *إحباط سبينّا مبرّر بالتأكيد.*

لكنّ لانغدون شعر بالإثارة المألوفة للإلهام وشيك، بعدما أدرك على الفور تقريباً أنّ هذه الأحرف السبعة ستخبره بكلّ ما يحتاج إلى معرفته عن الخطوة التالية التي تنتظره هو وسبينّا. علاوة على ذلك، كان قد اكتشف رائحة خفيفة تصدر من القناع، رائحة مألوفة كشفت له السبب وراء اللون الأكثر بياضاً للجهة الباطنية للجسم... وهذا الاختلاف لا علاقة له بالشيخوخة ولا بأشعة الشمس.

قالت سبينّا: "أنا لا أفهم. فالأحرف كلّها متشابهة". هزّ لانغدون رأسه ببطء، وهو يتأمّل السطر المؤلّف من سبعة أحرف متشابهة نُقِشت بعناية ويخطّ أنيق على باطن جبين دانتلي.

PPPPPPP

قالت سبينّا: "سبعة P، ماذا يُفترض بنا أن نفعل بها".
ابتسم لانغدون بهدوء ونظر إليها. "أقترح أن نفعل بالضبط ما تطلبه ممّا هذه الرسالة".
حملت به سبينّا وسألته: "سبعة P! رسالة!".
أجاب مبتسماً: "إنّها كذلك. ولو درستِ دانتلي، لعرفت أنّها رسالة واضحة جداً".

خارج معمودية سان جوفاني، مسح الرجل ذو ربطّة العنق أظفاره بمنديل كما مسح البثور على عنقه. حاول تجاهل الأكم الحارق في عينيه ونظر إلى وجهته.
مدخل السياح.

خارج الباب، وقف رجل منهك يرتدي سترة ويدخن سيجارة وقام بإعادة توجيه السياح الذين لم يتمكّنوا من فهم الجدول الزمني للمبنى، والذي كان مكتوباً بالتوقيّت الدولي.

أبیرتورا 13:00-17:00.

تحقق الرجل المصاب بالطفح الجلدي من ساعته. كانت تشير إلى 10:02 صباحاً. هذا يعني أن المعمودية ستبقى مغلقة لساعتين أخريين. راقب الحارس لبعض الوقت، ثم اتخذ قراره. فنزع الحلقة الذهبية من أذنه ووضعها في جيبه، ثم أخرج محفظته وتحقق من محتوياتها. بالإضافة إلى بطاقات الائتمان ورزمة من الأوراق النقدية باليورو، كان يحمل أكثر من ثلاثة آلاف دولار نقداً.

لحسن الحظ، إِنَّ الطمع خطيئة عالمية.

Peccatum ... Pe

P السبعة المكتوبة على
جمع إلى المسرح في فيينا

لصوت: "لقد هبطنا الآن
الشيطان نفسه".

الصور للشيطان ذي الر
بودية فلورنسا، والشيطان
القرمزي.

أ صدر الشيطان المكس
ي الكتيب... مرة أخرى ل
صور، إلى أن وصل إلى
الدوومو التي تصوّر دا
تروون تلك النجوم".

المليئة بالنجوم الممتدة
سع دوائر متحدة المركز
إلى عكس الحلقات التسب
الرقم تسعة رقماً متكرراً ل
شفة من الماء، ثم ترك ال
جحيم.

جيم، لا بد أنكم متحمسون
م دانتي". تتهد بشكل درا
ة والفعلية على السواء، أن
يكيلينو. في الأفق، خلف
ى السماء. كما يبدو أنه
تزداد ضيقاً نحو الأعلى
الكفارات على الطريق.

أعلن لانغدون قائلاً: "أقمت لكم جبل المطهر. مع الأسف، هذا الصعود المرهق عبر تسع حلقات هو الطريق الوحيد من أعماق الجحيم إلى أمجاد الجنة. على هذا الطريق، ترون النفوس التائبة وهي تصعد، وكلّ منها تدفع الثمن المناسب لخطيئة معينة. على الحسودين أن يصعدوا وأعينهم مغمضة لكي لا يطمعوا بشيء، وعلى الفخوريين أن يحملوا صخوراً ضخمة على ظهورهم لكي ينحنوا بتواضع، وعلى الشرهين أن يصعدوا من دون طعام أو ماء ليتضوّروا جوعاً، وعلى أصحاب الشهوات أن يصعدوا عبر ألسنة النيران الحارقة لتطهرهم من حرارة العواطف...". صمت مضيقاً: "لكن، قبل أن يتاح لكم هذا الشرف العظيم لتسلّق الجبل والتطهر من ذنوبكم، عليكم التحدّث مع هذا الكائن".

مرّر لانغدون السرائح ليصل إلى لقطة مقرّبة لإحدى لوحات ميكيلينو التي تصوّر ملاكاً مجتّحاً جالساً على عرش عند أسفل جبل المطهر. عند قدمي الملاك، كان ثمة صفّ من الخطاة التائبين ينتظرون أن يُسمح لهم بتسلّق الجبل. والغريب أنّ الملاك يشهر سيفاً طويلاً، ويطعن بطرفه وجه أوّل شخص في الصفّ.

سأل لانغدون: "من يعرف ما الذي يفعله هذا الملاك؟".

أجاب أحدهم: "يطعن شخصاً ما في رأسه؟".

"كلاً".

أجاب آخر: "يطعن شخصاً ما في عينه؟".

هزّ لانغدون رأسه نافياً. "غيره؟".

تحدّث صوت في آخر القاعة بحزم: "يكتب على جبينه".

ابتسم لانغدون قائلاً: "يبدو أنّه ثمة من يعرف دانتي". أشار مجدّداً إلى اللوحة. "أعرف أنّ الأمر يبدو وكأنّ الملاك يطعن هذا المسكين في جبينه، لكنّ الحال ليس كذلك. فبحسب نصّ دانتي، يستخدم الملاك الذي يحرس المطهر طرف سيفه لكتابة شيء ما على جبين كلّ من الوافدين إليه قبل دخولهم. ولا بد أنكم تتسألون عمّا يكتبه".

صمت لانغدون لزيادة الإثارة ثمّ قال: "الغريب في الأمر أنّه يكتب حرفاً واحداً... يكرّره سبع مرّات. هل يعرف أحدكم ما هو الحرف الذي يكتبه الملاك سبع مرّات على جبين دانتي؟".

أجاب صوت من بين الحشد: "P".

ابتسم لانغدون. "أجل، الحرف P. وهذا الحرف يعني بيكاتوم، وهي كلمة لاتينية تعني خطيئة. وكتابتها سبع مرّات ترمز إلى سببتيك بيكاتا مورتاليا، أي -".

صاح شخص آخر: "الخطايا السبع المميتة!".

"بالضبط. بالتالي، فقط بصعود كلّ مستوى من مستويات المطهر يمكنك التكفير عن خطاياك. مع كلّ مستوى تصعده، يقوم ملاك بتطهير إحدى الخطايا من جبينك إلى أن تبلغ القمة، وتصل بجبين خالٍ من الأحرف السبعة... وبروح مطهّرة من الخطايا". ثمّ غمز مضيقاً: "فذلك المكان لا يسمّى مطهراً من دون سبب".

خرج لانغدون من أفكاره لرؤية سيبينا التي وقفت أمام جرن المعمودية محتقة إليه. قالت وهي تعيده إلى الوقت الحاضر وتشير إلى قناع دانتي: "أقول إن هذه الأحرف السبعة تحمل رسالة؟ هل نخبرنا بما علينا فعله؟".

شرح لانغدون بسرعة رؤية دانتي لجبل المطهر، وكيف أن هذه الأحرف تمثل الخطايا السبع المميتة وعملية تطهيرها من الجبين.

ختم لانغدون: "من الواضح أن بيرتراند زوبريست، الذي كان مولعاً بدانتي، يعرف عن الأحرف P السبعة وعملية إزالتها عن الجبين كوسيلة للتقدم نحو الجنة".

بدا التشكك على سيبينا. "أعتقد أن بيرتراند زوبريست وضع تلك الأحرف على القناع لأنه يريدنا... أن نمسحها عن قناع الموت؟ أهذا ما تعتقد أن علينا فعله؟".
"أدرك أن -".

"روبرت، حتى لو مسحنا هذه الأحرف، فكيف سيساعدنا ذلك؟! سننتهي بنا الأمر مع قناع خالٍ تماماً".

"ربما". ثم ابتسم ابتسامة مليئة بالأمل وأضاف: "ربما لا. أعتقد أن هذا الشيء يحتوي على أكثر مما تراه العين". وأشار إلى القناع. "هل تذكرين أنني قلت إن باطن القناع أفتح لوناً بسبب الشيوخة المتفاوتة؟".
"أجل".

"ربما كنت مخطئاً. إذ يبدو تفاوت الألوان صارخاً جداً حيث لا يمكن اعتباره بفعل الشيوخة، كما أن النسيج الخلفي مسنن".
"مسنن؟".

أظهر لها لانغدون أن نسيج باطن القناع أكثر خشونة من ظاهره... يشبه ورق الزجاج. "في عالم الفن، يوصف هذا النسيج على أنه مسنن، ويفضل الرسامون أن يرسموا على سطح مسنن لأن اللون يثبت عليه على نحو أفضل".
"لا أفهم".

ابتسم لانغدون وسألها: "هل تعرفين ما هو الجيسو؟".
"بالتأكيد، إنها مادة يستخدمها الرسامون لتأسيس اللوحات - توقفت بعد أن بدأت تفهم على ما يبدو".

قال لانغدون: "بالضبط. يستخدمون الجيسو لتكوين سطح أبيض نظيف وخشن، وفي بعض الأحيان لتغطية لوحات غير مرغوب فيها إن أرادوا إعادة استخدام القماش".
بدت الحماسة الآن على سيبينا. "وأنت تظن أن زوبريست قام ربما بتغطية باطن القناع بمادة الجيسو، أليس كذلك؟".

"هذا الأمر يفسر الخشونة واختلاف اللون. كما قد يفسر لماذا أراد منا أن نزيل الأحرف السبعة".

بدأت سيبينا في حيرة من أمرها.
قال لها لانغدون وهو يرفع القناع إلى مستوى وجهها: "شمّي رائحته".
بدأ الاشمزاز على وجه سيبينا وسألته: "هل رائحة الجيسو تشبه رائحة كلب مبلّل؟".
"ليس كلّ أنواعه. فالجيسو العادي رائحته مثل رائحة الطيبشور. أمّا هذا النوع فهو جيسو الأكريليك".

"ما معنى ذلك؟".

"هذا يعني أنّه يذوب في الماء".

أمالت سيبينا رأسها جانباً، وشعر لانغدون أنّها بدأت تفهم. انتقل نظرها ببطء إلى القناع، ومنه فجأة إلى لانغدون، وقالت وهي تحملق: "أتظنّ أن ثمة شيئاً تحت الجيسو؟".
"هذا يفسّر الكثير".

أمسكت سيبينا بالغطاء الخشبي سداسي الشكل الذي يغطّي الجرن ورفعته جانباً. حملت منشفة كتّانية نظيفة وغمسها في ماء التعميد، ثم أعطت لانغدون المنشفة المبلّلة قائلة: "افعل ذلك بنفسك".

وضع لانغدون القناع المقلوب على وجهه في راحة يده اليسرى، وأمسك بالمنشفة المبلّلة. عصر فائض الماء، وبدأ يمسح بها باطن جبين دانتي، ويبلّل المنطقة التي كُتبت عليها الأحرف السبعة. وبعد أن ربّت عليها عدّة مرّات بسبّابته، أعاد تغميس المنشفة في الجرن وتابع محاولاته؛ فبدأ الحبر الأسود بالزوال.

قال بحماسة: "الجيسو يذوب، والحبر يزول معه".

بعدما قام بتلك العملية للمرّة الثالثة، راح لانغدون يتحدّث بنبرة رتيبة ترنّد صداها في القاعة، ويكرّر العبارة التي يقولها الكهنة أثناء تأديتهم مراسم العمادة.
حدّقت سيبينا إلى لانغدون وكأنّه فقد عقله.
هرّ كتفيه قائلاً: "يبدو هذا ملائماً".

نظرت إلى الأعلى ومن ثمّ إلى القناع. وبينما تابع لانغدون مسح باطن القناع بالماء، بدأ الجصّ الأصلي يظهر تحت طبقة الجيسو، وكان لونه المصفرّ أكثر انسجاماً مع توقّعات لانغدون لتحفة بهذا القدم. عندما اختفى الحرف الأخير من الأحرف السبعة، جفّف مكانها بمنشفة نظيفة وحمل القناع لتتمكّن سيبينا من رؤيته.

عندما نظرت إلى مكان الأحرف، صدرت عنها شهقة عالية.

تماماً، كما توقّع لانغدون، كانت طبقة الجيسو تخفي شيئاً تحتها، هو عبارة عن طبقة أخرى من الكتابة؛ تسعة أحرف مكتوبة مباشرة على السطح الأصفر الشاحب للجصّ الأصلي.
لكن هذه المرّة، كانت الأحرف تشكّل كلمة.

الفصل 58

تساءلت سيبينا: "المسكون! لا أفهم".
وأنا أيضاً. تأمل لانغدون النص الذي ظهر تحت الأحرف السبعة؛ كلمة واحدة مكتوبة
على باطن جبين دانتي.

المسكون

سألته سيبينا: "هل يقصد... المسكون بالشیطان؟".
ربما. حول لانغدون نظره إلى الأعلى، إلى هسيساء الشيطان الذي يلتهم الأشخاص الملعونين
الذين لم يتمكنوا من تطهير أنفسهم من الخطيئة قط. دانتي... مسكون؟ لا يبدو هذا الكلام منطقياً.
قالت سيبينا وهي تأخذ القناع من بين يدي لانغدون وتتفحصه عن كثب: "لا بد أن ثمة
المزيد". بعد لحظة، أخذت تهز رأسها قائلة: "بالفعل، انظر إلى أطراف الكلمة... ثمة المزيد من
الكلمات من الجانبين".
نظر لانغدون إلى القناع مجدداً، ورأى ظلاً باهتاً لكلمات إضافية تبدو عبر الجيستو
الرطب من جانبي كلمة المسكون.
تناولت سيبينا المنشقة بحماسة، وواصلت مسح باطن القناع حول الكلمة، إلى أن برز نص
أكبر، مكتوب بشكل مقوس.

يا أيها المسكون بالحكمة

أطلق لانغدون صفرة خافتة. يا أيها المسكون بالحكمة... تأمل التعاليم المختبئة هنا...
وراء حجاب أبيات غامضة جداً.
حدقت إليه سيبينا. "عفواً؟".
قال لانغدون بحماسة: "إنها مأخوذة من أحد أشهر مقاطع إنفيرنو دانتي. فيها، بحث دانتي
قراءه الأذكياء على البحث عن الحكمة المختبئة في أبياته الرمزية".
غالباً ما كان لانغدون يذكر هذه الأبيات وهو يدرس الرمزية الأدبية. فهي من أوضح الأمثلة
على الكاتب الذي يلوح بذراعيه بعنف ويصيح: "أيها القراء! ثمة معنى رمزي مزبوج هنا!".

بدأت سيبينا تحفّ باطن القناع بقوة أكبر الآن.

قال لها لانغدون: "كوني حذرة!".

أعلنت سيبينا وهي تمسح الجيستو بسرعة: "أنت على حق، فبقية أبيات دانتلي موجودة هنا؛ تماماً كما ذكرتها". توقفت لتبأل المنشفة في الجرن وتغسلها.

نظر لانغدون بفزع إلى مياه جرن المعمودية التي أصبحت بيضاء بفعل الجيستو الذائب، وشعر بالانزعاج لاستخدام هذا الجرن كمغسلة، وقال في سرّه: نَقَمَ اعتذارنا لسان جوفائي.

عندما أخرجت سيبينا المنشفة من المياه، كانت تقطر ماءً، وبالكاد عصرتها قبل أن تضعها في وسط القناع وتحفّه كما لو أنّها تتظفّ وعاء حساء. نبّها لانغدون مجدداً: "سيبينا! هذه قطعة قديمة -".

أعلنت وهي تتفحص باطن القناع: "النصّ يغطّي باطن القناع بأكمله! وهو مكتوب بـ...". صمتت، وأمالت رأسها إلى اليسار، ثم أدارت القناع إلى اليمين، وكأنّها تحاول القراءة بشكل جانبي.

سألها لانغدون: "مكتوب بماذا؟".

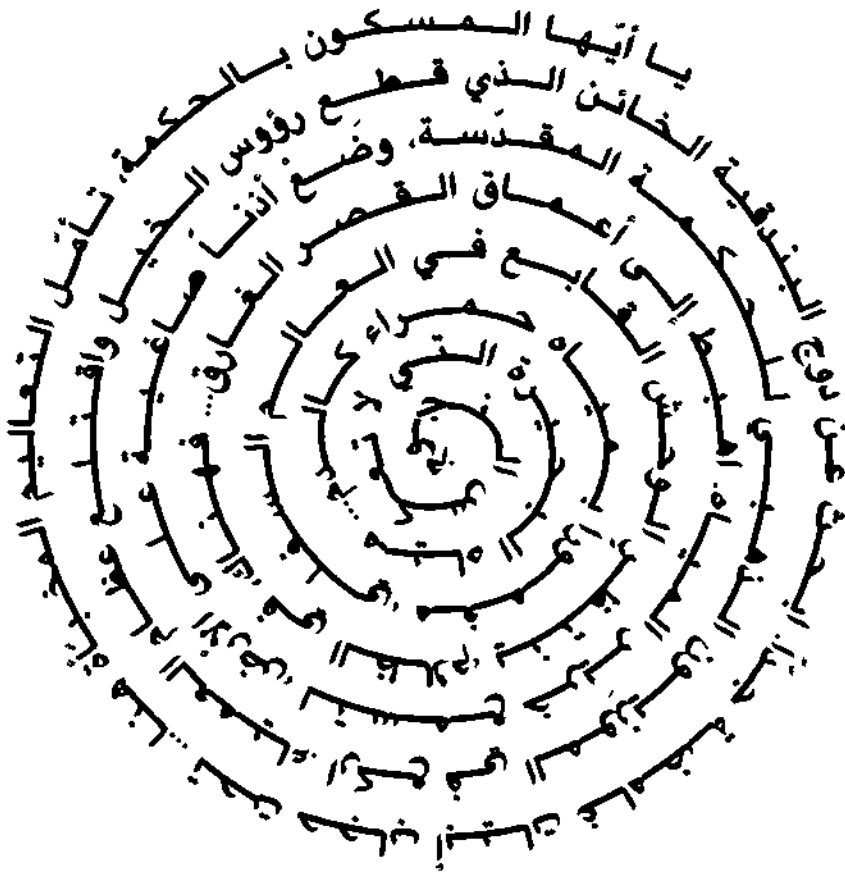
أنهت سيبينا تنظيف القناع، ثم جفّفته بمنشفة نظيفة، ووضعتّه أمامه لكي يَمَكّنّا من رؤية النتيجة معاً.

عندما نظر لانغدون إلى باطن القناع أجفل. كان السطح المقعر مكسوّاً تماماً بنصّ مؤلف تقريباً من مائة كلمة. كان يبدأ في الأعلى بعبارة *يا أيّها المسكون بالحكمة*، ويتواصل في خطّ واحد غير منقطع... يلتفّ حول الطرف الأيسر للقناع نحو الأسفل، ثمّ ينعطف إلى الأعلى قبل أن يعود إلى الأسفل ويتابع طريقه على هذا النحو مكوناً دائرة أصغر.

كان خطّ النصّ يذكرّ على نحو غريب بجبل المطهر بطريقه اللولبي إلى الجذبة. حدّد عالم الرموز فوراً نوع الخطّ اللولبي بدقة. /رخميدسي، متناظر، باتجاه عقارب الساعة. كما لاحظ أنّ عدد الدورات بدءاً من الكلمة الأولى، "يا"، ووصولاً إلى النقطة الأخيرة في الوسط مألوف.

تسعة.

حبس لانغدون أنفاسه وراح يدير القناع في دوائر بطيئة، ويقرأ النصّ اللولبي داخل القناع المقعر، الممتّج إلى الوسط.



قال لانغدون: "المقطع الأول مقتبس من دانتى حرفياً تقريباً. يا أيها المسكون بالحكمة، تأمل التعاليم المختبئة هنا... تحت حجاب أبيات غامضة جداً".
ألحت سيبينا قائلة: "والباقي؟".

هرّ لانغدون رأسه نافياً. "لا أظنّ ذلك. إنها مكتوبة بطريقة مشابهة، لكنني لم أتعرف على النص. يبدو وكأنّ شخصاً ما يحاول تقليد أسلوب دانتى".
همست سيبينا: "زوبريست. لا بدّ أنّه هو".

أوماً لانغدون برأسه موافقاً. كان هذا ظنّه هو أيضاً. فبتعديله خارطة الجحيم لبونيتشيلي، أظهر زوبريست ميله إلى التعاون مع الأساتذة الكبار وتعديل الأعمال الفنية العظيمة بما يتناسب مع احتياجاته.

"بقية الكلمات غريبة جداً". قال لانغدون ذلك وهو يدير القناع ويقرأ. "يتحدث عن... قطع رؤوس الخيل... واقتلاع عظام عمياء..." تابع القراءة حتى وصل إلى السطر الأخير الذي كان مكتوباً في دائرة ضيقة في وسط القناع، وصدرت عنه شهقة خافتة. "كما أنّه يذكر مياهاً حمراء كالدم".

قطبت سيبناً حاجبها. "كما في الرؤى التي ظهرت فيها ذات الشعر الفضي؟".
هزّ لانغدون رأسه، وهو يتأمل النصّ بحيرة. مياه حمراء كالدم... مياه البحيرة التي لا
تعكس النجوم؟

همست وهي تقرأ من فوق كتفه وتشير إلى كلمة في منتصف الدائرة اللولبية: "انظر، هذا
مكان معين".

وجد لانغدون الكلمة التي فاتته عندما قرأ النصّ بسرعة. كان ثمة ذكر لواحدة من أكثر
المدن إثارة وفردة في العالم. غير أنّ لانغدون أحسّ بقشعريرة لعلمه أنّ هذه المدينة هي أيضاً
المدينة التي أصيب فيها دانتي أليغييري بالمرض القاتل الذي قضى عليه.
البندقية.

تأمل لانغدون وسيبناً الأبيات الرمزية بصمت للحظات عدّة. كانت القصيدة مقلقة ومخيفة،
ويصعب تفكيك رموزها. كما أنّ استخدام كلمتي ¹روح وبحيرة، أكدّ للانغدون من دون أدنى شكّ
أنّ القصيدة تشير بالفعل إلى البندقية، تلك المدينة الإيطالية الفريدة المؤلفة من مئات الأكنية
المتراصة التي حكمها لقرون قاضي أول من أهلها عُرف باسم دوج.

للوهلة الأولى، لم يستطع لانغدون أن يعرف بالضبط إلى أيّ مكان في البندقية تشير هذه
القصيدة، لكن من الواضح حقّاً أنّها تحثّ القارئ على تنفيذ توجيهاتها.

ضع أنفأ صاغية على الأرض، لتسمع خرير المياه.

قالت سيبناً، وهي تقرأ معه: "إنّها تشير إلى مكان تحت الأرض".

هزّ لانغدون رأسه باضطراب، وقرأ السطر التالي.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق... فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي.

سألته سيبناً: "روبرت، أيّ نوع من الوحش هذا؟".

"أي الذي يعيش تحت الأرض".

قبل أن يتابع لانغدون، تردّدت في أرجاء القاعة صليصلة مزلاج عالية. يبدو أنّ مدخل
السيّاح قد فُتح للتوّ من الخارج.

قال الرجل الذي كسا وجهه طفح جلدي: "غرّاتسي ميلى". شكراً جزيلاً.

هزّ حارس المعمودية رأسه بقرّ، ودسّ خمسمائة دولار في جيبه، ثمّ نظر حوله للتأكد
من أنّ أحداً لم يره.

"تشينكوي مينوتى". نكّره بذلك وهو يفتح بتكتم الباب الموصد مسافة تكفي فقط لمرور
الرجل إلى الداخل.

أغلق الحارس الباب على الرجل الذي أصبح في الداخل، وحجب بذلك كل الأصوات الآتية من الخارج. خمس دقائق. في البداية، رفض الحارس أن يشفق على الرجل الذي ادعى أنه أتى من الولايات المتحدة للصلاة في معمودية سان جوفاني أملاً في الشفاء من مرضه الجلدي الرهيب. لكن في النهاية، أنه إلهام بالتعاطف معه، ساعده على ذلك من دون شك مبلغ خمسمائة دولار دفعها له لقاء تمضية خمس دقائق وحده في المعمودية... بالإضافة إلى خوفه المتزايد من وقوف هذا الرجل بمرضه الذي يبدو معدياً قريبه خلال الساعات الثلاث التالية بانتظار موعد فتح الأبواب.

الآن، وبينما راح الرجل يتنقل خلسة في القاعة ذات الأضلاع الثمانية، نظر إلى السقف تلقائياً. تَبَّأ. لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا. شيطان بثلاثة رؤوس يحقّق إليه مباشرة؛ ممّا دفعه إلى خفض بصره بسرعة إلى الأرض.

يبو المكان خالياً.

لكن، أين ذهبوا؟

بينما كان الرجل يتفحص القاعة، وقع بصره على المذبح الرئيس. كان عبارة عن كتلة رخامية ضخمة مستطيلة الشكل، يحيط بها حاجز لإبقاء المتفرجين على مسافة منها. بدا المذبح وكأنه المخبأ الوحيد في القاعة بأكملها. أضف إلى ذلك أن أحد حبال الحاجز كان يتأرجح بخفة... وكأنه تعرّض للاهتزاز.

خلف المذبح، اختبأ لانغدون وسيبنا بصمت. بالكاد وجدا الوقت لجمع المناشف المنسّخة وإعادة الغطاء إلى سطح الجرن، قبل أن يختبئا خلف المذبح الرئيس، وقد حملا القناع معهما. كانا ينوان الاختباء هناك إلى أن تمتلئ الغرفة بالسياح، ليتسلّلا بعد ذلك خلسة بين الحشود. كان باب المعمودية الشمالي قد فُتح بالتأكيد للتوّ، للحظة على الأقل، لأنّ لانغدون سمع الأصوات المنبعثة من الساحة. إلا أنّ الباب أغلق بعد ذلك فجأة، وعاد الهدوء ليخيم على القاعة. بعدما عاد الصمت يلفّ القاعة، سمع لانغدون وقع خطي شخص واحد يمشي على الأرض الحجرية.

أهو أحد الحراس دخل لإلقاء نظرة على القاعة قبل فتحها أمام السياح اليوم؟

لم يجد الوقت الكافي لإطفاء المصباح فوق جرن المعمودية، وتساءل عما إذا كان الحارس سيلاحظ ذلك. راحت الخطوات تتنقّل بسرعة باتجاههما قبل أن تتوقّف أمام المذبح، قرب الحبل الذي مرّ لانغدون وسيبنا من فوقه للتوّ.

ساد صمت طويل.

فجأة، ارتفع صوت الرجل بغضب: "روبرت، هذا أنا. أعرف أنك هنا. اخرج حالا وأشرح لي ما فعلته".

الفصل 59

لا جنوى من إنكار وجودي.

أشار لانغدون لسيينا لكي تبقى مختبئة، حاملة قناع دانتلي الذي أعاد وضعه في الكيس. بعد ذلك، نهض لانغدون على قدميه ببطء. وقف مثل كاهن خلف مذبح المعمودية، وحث إلى رعيته المؤلفة من رجل واحد. كان الغريب الواقف أمامه رجلاً بني الشعر، يضع نظارة أنيقة، غير أن طفحاً جلدياً غريباً غزا وجهه وعنقه. أخذ يحك بعصية رقبته المتهيجة، فيما كانت عيناه المتورمتان تقدحان شرراً ويبدو عليهما الارتباك. سأله وهو يمر من فوق الحبل ويقرب منه: "أخبرني حالاً، ماذا تفعل روبرت؟". كانت لكنته أميركية.

أجابه لانغدون بتعذيب: "بالطبع، لكن قل لي أولاً من تكون". جمد الرجل في مكانه، وبدا عليه عدم التصديق. "ماذا قلت؟!". شعر لانغدون بشيء مألوف في عيني الرجل... وربما صوته أيضاً. لقد التقيته... بطريقة ما، في مكان ما. كرر لانغدون طلبه بهدوء. "أرجوك، أخبرني من أنت وكيف أعرفك؟". رفع الرجل يديه غير مصنق. "جوناثان فيريس، منظمة الصحة العالمية، الرجل الذي طار إلى جامعة هارفرد وأحضرك!". حاول لانغدون أن يحلل ما يسمعه.

سأله الرجل وهو يواصل حك عنقه وخديه اللذين كساهما الاحمرار والقروح: "لماذا لم تتصل؟! ومن هي المرأة التي رأيتك تدخل معها؟ هل أصبحت تعمل لحسابها الآن؟". وقفت سيينا بجانب لانغدون، وتولت الشرح للغريب. "د. فيريس؟ أنا سيينا بروكس، وأنا طبيبة أيضاً. أعمل هنا في فلورنسا. لقد أصيب البروفيسور لانغدون بعيار ناري في رأسه. إنه يعاني الآن من فقدان الذاكرة الانتكاسي، ولا يعرف من تكون ولا ما جرى معه في اليومين الماضيين. أنا هنا لمساعدته".

تردبت أصدااء كلمات سيينا في المعمودية الخالية، في حين أمال الرجل رأسه في حيرة، وكأنه لم يستوعب معنى ما قالت تماماً. بعد لحظة من الدهشة، تراجع خطوة إلى الوراء، واستند إلى أحد أعمدة الحاجز.

تمتم قائلاً: "يا إلهي! هذا يفسر كل شيء". رأى لانغدون كيف تبدد الغضب عن وجه الرجل.

همس القادم الجديد: "روبرت، ظننا أنك..." هز رأسه وكأنه يحاول وضع قطع الأحجية في مكانها. "ظننا أنك انتقلت إلى الطرف الآخر... وأنهم ربما قاموا برشوتك... أو تهديدك... لم نعرف بالضبط!".

قالت سيبينا: "أنا الوحيدة التي تكلم معها. كل ما يعرفه هو أنه استيقظ في الليلة الماضية في المستشفى الذي أعمل فيه، وصادف أشخاصاً يحاولون قتله. كما أن هناك روى رهينة تراوده؛ فيها جثث، وضحايا طاعون، وامرأة ذات شعر فضي وتميمة على شكل ثعبان تقول له -".

قال الرجل: "إليزابيث! هذه د. إليزابيث سينسكي! روبرت، إنها المرأة التي جندتك لمساعدتنا!".

قالت سيبينا: "إذاً، في هذه الحالة أمل أن تكون على علم بأنها في ورطة. فقد رأيناها في فان مليء بالجنود، وبدت وكأنها مخدرة أو شيء من هذا القبيل".

هز الرجل رأسه ببطء مشيراً إلى معرفته بالأمر، وأغمض عينيه. عندئذ، بدت أجنافه منتفخة وحمراء.

سألته سيبينا: "ما خطب وجهك؟".

فتح عينيه: "المعذرة؟".

"ماذا حلّ ببشرتك؟ تبدو كما لو أنك قد التقطت عدوى ما. هل أنت مريض؟".

فوجئ الرجل. ومع أن سؤال سيبينا كان بالتأكيد فظاً إلى درجة الوقاحة، إلا أن لانغدون تساءل عن الشيء نفسه. فظنراً إلى كثرة الإشارات إلى الطاعون التي واجهها اليوم، كان منظر بشرة الرجل الحمراء والمتقرحة مثيراً للقلق.

قال الرجل: "أنا بخير. السبب هو صابون الفندق اللعين. فأنا أعاني من تحمّس قويّ تجاه الصويا، ومعظم الصابون الإيطالي المعطر يحتوي على الصويا. ولشدة غيائي، لم أتحمّق من الأمر".

تنفّست سيبينا الصعداء، وشعرت بالاسترخاء. "الحمد لله أنك لم تأكله...".

ضحكا بشيء من الارتباك.

غامرت سيبينا بسؤاله: "أخبرني، هل يعني لك اسم بيرتراند زوبريست شيئاً؟".

جمد الرجل، وبدأ كما لو أنه يقف وجهاً لوجه أمام الشيطان ذي الرؤوس الثلاثة.

قالت سيبينا: "نعتقد أننا وجدنا للتو رسالة منه. وهي تشير إلى مكان في البندقية. هل يعني لك ذلك شيئاً؟".

بدأ الاضطراب في نظرات الرجل الذي صاح قائلاً: "يا إلهي، أجل! بكل تأكيد! إلى أين

تشير؟!".

أخذت سيبينا نفساً وهي تستعدّ كما يبدو بوضوح لإخبار الرجل بكل شيء عن القصيدة

اللولبية التي اكتشفها للتو على القناع، لكنّ لانغدون وضع يده تلقائياً على يدها لإسكاتهما. يبدو

هذا الرجل بالتأكيد حليفاً لهما، لكن بعد أحداث هذا اليوم، لم يعد لانغدون يرغب في أن يثق بأحد. بالإضافة إلى ذلك، إنَّ رِبطة العنق التي يضعها الرجل تذكّره بشيء ما، ويشعر أنّه قد يكون الرجل نفسه الذي رآه يصلي في كنيسة دانتي الصغيرة قبل قليل. هل كان يتعبّنا؟ سأله لانغدون: "كيف وجدتنا هنا؟".

ما زال الرجل يبدو مريباً لأنَّ لانغدون لا يتذكّر كلّ شيء. "روبرت، لقد اتصلت بي في الليلة الفائتة لتخبرني أنّك حدّدت موعداً مع مدير متحف يدعى إغناسيو بوزوني، ثمّ اختفيت، ولم تتصل قطّ. وعندما سمعت أنّ إغناسيو بوزوني وُجد ميتاً، شعرت بالقلق. أنا هنا أبحث عنك منذ الصباح. رأيت حركة الشرطة خارج قصر فيكيو، وبينما كنت أنتظر لمعرفة ما حدث، رأيته صدفه تخرج من باب صغير مع... ونظر إلى سبيّنا، التي نسي اسمها على ما يبدو. فقالت: "سبيّنا بروكس".

"أنا أسف... مع د. بروكس. فتبعكما على أمل معرفة ما تفعله بالضبط".

"رأيته في كنيسة تشيركي تصلي، أليس كذلك؟".

"أجل، كنت أحاول أن أعرف ما الذي تفعله، لكنني لم أفهم شيئاً! غادرت الكنيسة مثل رجل لديه مهمة محدّدة، ففمّث بتعبّكما. وعندما رأيكما تتسلّان إلى داخل المعمودية، رأيته أنّ الوقت قد حان للمواجهة، فرشوت الحارس ليسمح لي بالدخول لبضع دقائق".

أشار لانغدون: "يا لها من خطوة غريبة إن كنت تظنّ أنّي قد انقلبت ضدّكم!".

هرّ الرجل رأسه نائفاً. "كان لديّ شعور أنّك لا يمكن أن تفعل ذلك. فشيء كهذا لا يصدر عن البروفيسور روبرت لانغدون. كنت واثقاً من وجود تفسير آخر. لكن، فقدان الذاكرة!! إنه أمر لا يصدّق، لم يكن من الممكن أن يخطر على بالي مطلقاً".

بدأ الرجل يحكّ جلده بعصبية مجدّداً. "اسمع، ليس لديّ أكثر من خمس دقائق. علينا الخروج من هنا فوراً. إن كنت قد عثرت عليك، فباستطاعة من يحاولون قتلك إيجادك أيضاً. ثمّة الكثير من الأمور التي لا تفهمها. علينا الذهاب إلى البندقية، حالاً. لكن علينا الخروج من فلورنسا خلسة. فالناس الذين يحتجزون د. سينسكي... أولئك الذين يلاحقونك... لديهم أعين في كلّ مكان". وأشار إلى الباب.

تمسك لانغدون بموقفه، وشعر أخيراً أنّه يستطيع الحصول على بعض الإجابات. "من هم الرجال ذوو الملابس السوداء؟ ولماذا يحاولون قتلي؟".

قال الرجل: "إنّها قصّة طويلة، سأشرح لك كلّ شيء في الطريق".

عبس لانغدون لدى سماعه هذه الإجابة التي لم ترق له تماماً. أشار إلى سبيّنا واقتادها جانباً، ثمّ تحدّث معها بصوت خافت. "هل تثقين به؟ ما رأيك؟".

نظرت سبيّنا إلى لانغدون كما لو أنّه مجنون. "رأيي أنّه ينتمي إلى منظّمة الصّحة العالمية! وأعتقد أنّه فرصتنا للحصول على إجابات!".

"وماذا عن الطّفح الجدي؟".

"إنه كما يقول بالضبط، التهاب جلد تماسي حاد".

همس لانغدون: "وماذا لو لم يكن كذلك؟ ماذا لو كان... شيئاً آخر؟".

نظرت إليه غير مصدقة: "شيء آخر؟! روبرت، هذا ليس طاعوناً؛ إن كان هذا ما يشغل بالك. حباً بالله، الرجل طبيب. لو كان يعاني من مرض فتاك، ويعرف أنه معد، فهو لن يتهور بالخروج ونشره بين الناس".

"ماذا لو لم يكن يعرف أنه طاعون؟".

فكرت سبيناً للحظة ثم أجابت: "إذاً، أخشى أنه قُضي علينا أنا وأنت... وكذلك كل من في هذه المنطقة".

"هذا ليس وقت المزاح".

"أنا أحاول أن أكون صريحة وحسب". ثم أعطته الكيس الذي يحتوي على القناع. "يمكنك أن تحمل صديقنا الصغير".

عندما التقيا إلى د. فيريس لاحظا أنه ينهي مكالمته هاتفية بصوت خافت.

قال الرجل: "اتصلت بسائقي، سيلاقينا أمام -" صمت د. فيريس وهو يحدّق إلى يدي لانغدون، ويرى للمرة الأولى وجه دانتلي أليغيري الميت.

قال وهو يتراجع إلى الخلف: "رأه! ما هذا؟!".

أجاب لانغدون: "إنها قصة طويلة، سأخبرك بها في الطريق".

الفصل 60

استيقظ محرر مجلة نيويورك جوناس فوكمان على رنين هاتف مكتبه المنزلي. نهض وتحقق من الساعة التي كانت تشير إلى 4:28 صباحاً.

في عالم نشر الكتب، كانت المستجذبات الليلية الطارئة نادرة جداً؛ مثل النجاح بين ليلة وضحاها. توتر فوكمان، فقام من سريره وأسرع إلى مكتبه.

"ألو". كان الصوت الذي أجابه مألوفاً وعميقاً. "جوناس، الحمد لله أنك في المنزل، معك روبرت. أمل ألا أكون قد أيقظتك".

"بالطبع أيقظتني! إنها الرابعة صباحاً؟".

"أنا آسف، فأنا في الخارج".

ألا يدرسون المناطق الزمنية في هارفرد؟

"أنا أواجه بعض المتاعب جوناس، وأحتاج إلى خدمة". بدا صوت لانغدون متوتراً. "وهي تتضمن الحصول على بطاقتك الخاصة بشركة نت جيتس".

ضحك فوكمان غير مصدق: "نت جيتس! روبرت، نحن نعمل في نشر الكتب، ولا يمكننا الوصول إلى الطائرات الخاصة".

"كلانا نعرف أنك تكذب يا صديقي".

تنهد فوكمان. "حسناً، سأعيد صياغة كلامي. لا يمكننا الوصول إلى الطائرات الخاصة بمؤلفي المجلدات حول التاريخ الديني. إن كنت تريد كتابة خمسون ظلاً للأيقونية، فيمكننا التحدث".

"جوناس، سأدفع تكاليف الرحلة مهما بلغت، أعدك بذلك. هل سيق أن أخلفت بوعدتي يوماً؟".

باستثناء مرور ثلاث سنوات على انتهاء مهلتك؟ مع ذلك شعر فوكمان بالإلحاح في نبرة لانغدون. "أخبرني، ماذا يجري؟ سأحاول مساعدتك".

ليس لذي الوقت لأشرح، لكنني أحتاج فعلاً إلى هذه الخدمة منك. إنها مسألة حياة أو موت.

عمل فوكمان مع لانغدون لمدة طويلة، حيث أصبح يعرف حسه الساخر بالمرح، لكنه لم يجد أي أثر للمزاح في نبرة لانغدون القلقة في تلك اللحظة. يبدو الرجل جاداً. تنهد فوكمان، واتخذ قراره. مديري المالي سيقبلني. بعد ثلاثين ثانية، كان فوكمان قد دون تفاصيل طلب رحلة لانغدون الخاصة.

سأله لانغدون، بعد أن شعر بتردد الناشر ودهشته إزاء تفاصيل الرحلة: "هل كل شيء على ما يرام؟".
أجاب فوكمان: "أجل، لكنني ظننت أنك في الولايات المتحدة. وقد فوجئت لدى معرفتي أنك في إيطاليا".
قال لانغدون: "وأنا كذلك. شكراً جوناس. أنا في طريقي إلى المطار الآن".

يقع مركز العمليات الأمريكية لشركة نت جيتس في كولومبس، في ولاية أوهايو، وهو مجهز بفريق طيران على مدار الساعة.
كانت مديرة المركز، ديب كير، قد تلقت للتو مكالمة هاتفية من صاحب دار نشر في نيويورك. قالت وهي تسوي السماعتين وتطبع اسم محطتها: "لحظة واحدة، سيدي. من الناحية الفنية، ستكون هذه الرحلة رحلة أوروبية، لكن يمكنني المساعدة في ذلك". أرسلت بسرعة رسالة إلى نظام نت جيتس أوروبا، الذي يقع في باتشو دي أركوس، في البرتغال، وتحققت من موقع طائراتها في إيطاليا ومحيطها.
قالت: "حسناً سيدي، يبدو أن لدينا طائرة سيتايشن إكسيل متمركزة في موناكو، يمكن إرسالها إلى فلورنسا خلال ساعة فقط. هل تعتبر هذه المدة ملائمة للسيد لانغدون؟".
أجاب الرجل الذي بدا متعباً ومنزعجاً بعض الشيء: "تأمل ذلك. شكراً جزيلاً".
قالت ديب: "العفو. هل يريد السيد لانغدون السفر إلى جنيف؟".
"على ما يبدو".

واصلت ديب الطباعة، ثم قالت أخيراً: "كل شيء جاهز. تم التأكيد على أن السيد لانغدون سينطلق من قاعدة تاسينيانو الجوية في لوكا، التي تقع على بعد حوالي خمسين ميلاً غرب فلورنسا. ستطلق الطائرة عند الساعة 11:20 صباحاً، بالتوقيت المحلي. وعلى السيد لانغدون الحضور إلى القاعدة الجوية قبل عشر دقائق. لم تطلب نقلاً برياً، ولا خدمة طعام، وقد أعطيتني المعلومات الخاصة بجواز السفر. كل شيء جاهز إذاً. هل ترغب بشيء آخر؟".
أجابها ضاحكاً: "وظيفة جديدة ربما؟ شكراً، لقد ساعدتني كثيراً".

"هذا من دواعي سروري. تصبح على خير". أنهت ديب الاتصال، والتفتت إلى الشاشة لإتمام الحجز. أدخلت المعلومات الخاصة بجواز سفر روبرت لانغدون، وكانت على وشك المتابعة عندما ظهر على شاشتها مربع تحذير أحمر. قرأت ديب الرسالة بذهول.
لا بد أنه ثمة خطأ.

حاولت إدخال بيانات جواز سفر لانغدون مجدداً، فعاد التحذير إلى الظهور. كان هذا التحذير سيظهر على كمبيوتر أي خطوط طيران في العالم لو حاول لانغدون أن يحجز مكاناً على متن رحلة طيران.

حدّثت ديب كير إلى شاشتها مطوّلاً. كانت تعرف أنّ شركة نت جيتس تولى أهميّة كبيرة لخصوصية الزبائن، لكنّ هذا التحذير يخترق كلّ أنظمة الخصوصية في الشركة. على الفور، اتصلت ديب بالسلطات.

أنهى العميل برودر المكالمة، وبدأ يأمر رجاله بالعودة إلى سيّارات الفان. أعلن قائلاً: "لانغدون يتحرّك. سيستقلّ طائرة خاصّة إلى جنيف، وستطلق الطائرة خلال أقلّ من ساعة من قاعدة لوكا الجوية، على بعد خمسين ميلاً غرباً. إن انطلقنا الآن، فبإمكاننا الوصول إلى هناك قبل إقلاع الطائرة".

في تلك اللحظة، أسرعت سيّارة فيات سيدان مستأجرة باتجاه الشمال على طول فيا داي بانزاني، مغادرة بياترا ديل دوومو لتشقّ طريقها باتجاه محطة قطار سانتا ماريا نوفيلّا في فلورنسا. على المقعد الخلفي، جلس لانغدون وسيينا من دون أن يلفتا الأنظار، في حين احتلّ د. فيريس المقعد الأمامي بجانب السائق. كانت سيينا هي التي ابتكرت فكرة حجز إحدى طائرات نت جيتس. إن حالفهم الحظّ، فسيشتتون انتباه السلطات لمُدّة كافية تسمح لهم بعبور محطة قطارات فلورنسا بأمان، المحطة التي ستكون من دون شكّ مليئة برجال الشرطة. لحسن الحظّ، لم تكن البندقية تبعد سوى ساعتين على متن القطار، والسفر بالقطار المحلي لا يتطلّب جواز سفر.

نظر لانغدون إلى سيينا التي بدا أنّها تتفحص د. فيريس بقلق. من الواضح أنّ الرجل يتألّم، فتنفّسه صعب، وكأنّه يشعر بالألم كلّما تنشقّ الهواء.

فكر لانغدون في سرّه: *أتمنى أن يكون محقّقاً حيال مرضه*. ونظر إلى بشرة الرجل وهو يتخيّل كلّ الجرائم التي تطوف في السيّارة الصغيرة. حتّى أنامله بدت منتفخة وحمراء. أخيراً، أبعد لانغدون الفلق عن ذهنه ونظر من النافذة.

عند اقترابهم من محطة القطار، مرّوا من أمام فندق باليوني الذي غالباً ما يستضيف فعاليات مؤتمر للفنون يحضره لانغدون كلّ عام. عندما رآه، أدرك أنّه على وشك فعل شيء للمرة الأولى في حياته.

سأغادر فلورنسا من دون زيارة تمثال داوود.

اعتذر بصمت من مايكل أنجلو، وحول نظره إلى محطة القطار أمامه... فيما سبقته أفكاره إلى البندقية.

الفصل 61

لانغدون ذاهب إلى جنيف؟

شعرت د. إليزابيث سينسكي أن إحساسها بالغثيان يتفاقم وهي تهتز على المقعد الخلفي للغان الذي كان يسرع مغادراً فلورنسا باتجاه الغرب، نحو مطار خاص خارج المدينة. قالت لنفسها: السفر إلى جنيف غير منطقي.

العلاقة الوحيدة التي تربط جنيف بالمازق الحالي هي أنها المقر الرئيس لمنظمة الصحة العالمية. أهو ذاهب إلى هناك بحثاً عني؟ يبدو هذا غير منطقي لأنه يعرف أن سينسكي هنا في فلورنسا.

خطرت لها فكرة أخرى.

يا إلهي... هل يستهدف زوربريست جنيف؟

كان زوربريست رجلاً مطلعاً على الرمزية، واختياره مقر منظمة الصحة العالمية كنقطة انطلاق له اختيار يشتم بالرغبة في الانتقام؛ نظراً إلى معركته مع سينسكي التي امتدت لعام كامل. مع ذلك، إن كان يبحث عن مكان يطلق فيه الوباء، تعتبر جنيف خياراً سيئاً. فمقارنة بمدن أخرى، تعد العاصمة السويسرية معزولة جغرافياً، وباردة في هذا الوقت من العام. ومعظم الأوبئة تحتاج إلى بيئة مكتظة وأكثر دفئاً. وجنيف تعلو أكثر من ألف قدم عن مستوى البحر، وبالكاد يمكن اعتبارها مكاناً ملائماً لنشر وباء؛ مهما بلغ حقد زوربريست عني.

يبقى السؤال إذاً: ماذا سيفعل لانغدون هناك؟ غير أن وجهة البروفيسور الأميركي الغربية ليست سوى نقطة جديدة في لائحة تصرفاته غير المفهومة التي بدأت الليلة الماضية. وعلى الرغم من الجهود التي بذلتها سينسكي، إلا أنها وجدت صعوبة في التوصل إلى تفسير منطقي لسلوكه.

إلى جانب من هو؟

بالطبع، لم تتعرف سينسكي على لانغدون سوى منذ بضعة أيام، لكنها تجيد عادة الحكم على الأشخاص، وترفض تصديق أن رجلاً مثل روبرت لانغدون سيضعف أمام إغراء المال. لكننا فقدنا الاتصال به منذ ليل أمس. وها هو الآن يتنقل من مكان إلى آخر خلسة مثل المحتالين. هل تم إقناعه بطريقة من الطرق أن أفعال زوربريست منطقية؟

أفزعها هذه الفكرة، لكنها رفضتها قائلة لنفسها: أعرف سمعته جيداً. إنه أفضل من ذلك.

التقت سينسكي روبرت لانغدون للمرة الأولى قبل أربع ليالٍ على متن طائرة نقل C-130 استُخدمت كمركز تنسيق متنقل لمنظمة الصحة العالمية.

كانت الساعة قد تجاوزت السابعة عندما حطّت الطائرة في مدرج هينسكوم، على بعد أقل من خمسة عشر ميلاً من كامبردج، ماساتشوستس. لم تكن سينسكي تعرف ما الذي تتوقعه من الأكاديمي الشهير الذي اتصلت به هاتفياً، لكنها سُرّت عندما رآته يمشي بثقة في الجزء الخلفي من الطائرة، ثم يحييها بابتسامة هادئة.

قال لانغدون وهو يصافحها بيد ثابتة: "افترض أنك د. سينسكي؟".

"بروفيسور، تشرفت بلقائك".

"الشرف لي. شكراً لكم على كل ما تقومون به".

كان لانغدون رجلاً طويل القامة، ذا مظهر حضاري، وصوت عميق. افترضت سينسكي أنّ ملابسه الحالية هي الملابس التي يرتديها في الجامعة؛ سترة تويد، مع سروال كاكبي، وحذاء جلدي. وهذا منطقي؛ نظراً لأن الرجل أحضر من الجامعة من دون سابق إنذار. كما أنّه يبدو أصغر سناً وأكثر لياقة بكثير ممّا تخيلت؛ الأمر الذي ذكر إليزابيث بسنّها. إنني بسن والدته.

ابتسمت له ابتسامة متعّبة. "شكراً لمجيتك بروفيسور".

أشار لانغدون إلى مساعدتها الجاذ الذي أرسلته لإحضاره: "صديقك لم يترك لي الخيار".

"هذا جيّد، لهذا السبب أنا أدفع له".

قال لانغدون وهو يرمق القلادة: "يا لها من تميّة جميلة. أهي من اللازورد؟".

هزّت سينسكي رأسها، ونظرت إلى الحجر الأزرق الذي يمثّل الرمز الأيقوني لأفعى ملتفة حول عصا عمودية. "إنّ الرمز الحديث للطب. وكما تعرف بالتأكيد، يسمّى صولجان هرمس".

نظر لانغدون إلى الأعلى فجأة، وكأنّه يرغب في قول شيء ما.

انتظرت. نعم؟

يبدو أنّه بذل رأيه، واكتفى بالابتسام بتهذيب قبل أن يغيّر الموضوع. "إذاً، لماذا أنا هنا؟".

أشارت إليزابيث إلى قاعة اجتماعات مرتجلة حول طاولة من الستانلس ستيل. "اجلس من فضلك. أوّد أن أريك شيئاً".

توجّه لانغدون إلى الطاولة، ولاحظت إليزابيث أنّه على الرغم من حيرة البروفيسور وفضوله إزاء هذا الاجتماع السري، إلّا أنّه لم يبد عليه أي اضطراب. هذا رجل مرّاح على وضعه. وتساءلت عمّا إذا كان هذا الاسترخاء سيبدو عليه عندما يكتشف سبب استدعائه إلى هنا.

انتظرت إليزابيث إلى أن جلس لانغدون في مكانه، ثمّ عرضت عليه من دون مقدّمات الشيء الذي صادرتّه هي وفريقها من خزانة في فلورنسا منذ أقل من اثنتي عشرة ساعة.

تأمل لانغدون الأسطوانة الصغيرة مطوّلاً قبل إعطائها ملخصاً عمّا تعرفه أصلاً. كان ختماً أسطوانياً قديماً يمكن استعماله للطباعة. وكان يحمل صورة شنيعة لشيطان بثلاثة رؤوس مع كلمة واحدة: *saligia*.

قال لانغدون: "*saligia* هي اختصار لاتيني -".

قاطعته إليزابيث قائلة: "للخطايا السبع المميتة. أجل، بحثنا عنها".

بدت الحيرة على وجه لانغدون. "حسناً... هل نعمة سيب تريدين من أجله أن أتفحص هذا الشيء؟".

"في الواقع، أجل". استعادت د. سينسكي الأسطوانة وبدأت تهزها بعنف، وراحت الكرة الصغيرة في الداخل تهتز إلى الأمام والخلف. استغرب لانغدون تصرفها، لكن قبل أن يتمكن من السؤال، بدأ طرف الأسطوانة يتوهج، فوجهته إلى بقعة ملساء من العازل على جدار الطائرة.

أطلق صفرة خافتة، وقام ليقترّب من الصورة المسلطة على الجدار. أعلن قائلاً: "إنها خارطة الجحيم لبوتيتشيلي الذي رسمها استناداً إلى إنفيرنو دانتي. مع أنني أظن أنك تعرفين ذلك على الأرجح".

هزت إليزابيث رأسها موافقة. كانت قد قامت هي وفريقها ببحث على الإنترنت للتعرف على اللوحة، وفوجئت عندما عرفت أنها إحدى لوحات بوتيتشيلي؛ الفنان المعروف بأعماله اللامعة والمثالية، مثل ولادة فينوس والربيع. أحببت سينسكي العاملين على الرغم من أنهما يصوران الخصوبة وولادة الحياة؛ الأمر الذي ذكرها بالحادث التراجيدي الذي جعلها عاجزة عن الإنجاب، وهو مصدر الأسف الوحيد في حياتها المنتجة جداً.

قالت سينسكي: "كنت أمل أن تشرح لي الرمزية المخبأة في هذه اللوحة". بدا على لانغدون الانزعاج للمرة الأولى في تلك الليلة. "لهذا السبب استدعيتني؟ اعتقدت أنها حالة طارئة".
"إنها كذلك".

تتهّد لانغدون. د. سينسكي، عموماً، إن أردت أن تتعرفني على لوحة معينة، فعليك الاتصال بالمتحف الذي يحتوي على اللوحة الأصلية. في هذه الحالة، كان عليك الاتصال بالمكتبة الرسولية في الفاتيكان. فالفاتيكان يملك عدداً من رسامي الأيقونات اللامعين الذين -".
"الفاتيكان يكرهني".

فوجئ لانغدون وقال: "أنت أيضاً؟! ظننت أنني الوحيد المكروه لديهم".
ابتسمت بحزن. "تشعر منظّمة الصحة العالمية أن انتشار وسائل منع الحمل هو مفتاح الصحة العالمية، سواء أتم استخدامها لمكافحة الأمراض المتناقلة جنسياً مثل الإيدز، أو للحد من النمو السكاني".
"وللفاتيكان رأي آخر".

"تماماً. لقد أنفقوا مجهوداً هائلاً ومبالغ طائلة لإقناع العالم الثالث بشروط وسائل منع الحمل".

قال لانغدون مبسماً: "آه، أجل. من أفضل من حفنة من الذكور العازبين في الثمانين من عمرهم لتعليم الناس كيفية ممارسة الجنس؟".
كان إعجاب سينسكي بالبروفيسور يزداد مع مرور كل ثانية.

هزّت الأسطوانة لإعادة شحنها ثم سلّطت الصورة على الجدار مجدّداً. "بروفيسور، ألقي نظرة فاحصة على هذه اللوحة".

مشى لانغدون نحو الصورة وهو يتأملها فيما كان يقترب. فجأة، توقّف في مكانه. "هذا غريب، لقد تمّ تعديلها".

لم يستغرق منه اكتشاف ذلك وقتاً طويلاً. "أجل، وأريد منك إخباري بما تعنيه التغييرات". سكت لانغدون، وراح يتأمل الصورة بأكملها، ويتوقّف عند الأحرف العشرة التي تكوّن كلمة *catrovacer*... ومن ثمّ قناع الطاعون... والجملة الغريبة عند طرف اللوحة عن "عيون الموت". سألها لانغدون: "من فعل هذا؟ من أين أتت هذه اللوحة؟".

"في الواقع، كلّما عرفت أقلّ كان ذلك أفضل لك. لكنني أمل أن تتمكّن من تحليل هذه التعديلات وإخبارنا بمعناها". وأشارت إلى مكتب في الزاوية. "هنا؟ الآن؟".

هزّت رأسها قائلة: "أعلم أنّ هذا مزعج، لكنني لا أستطيع أن أشدّد بما فيه الكفاية على أهمية هذا الأمر بالنسبة إلينا". صمّقت ثمّ أضافت: "يمكن القول إنّها مسألة حياة أو موت". تأملها لانغدون بقلق. "تفكير هذه الرموز قد يستغرق وقتاً، لكن، إن كان هذا الأمر مهماً -". قاطعته سينسكي قبل أن يغيّر له: "شكراً لك. هل نعمة من ترغب في الاتصال به؟".

هزّ لانغدون رأسه نائفاً، وأخبرها أنّه كان يخطّط لتمضية عطلة نهاية أسبوع هادئة بمفرده. ممتاز. أجلسته سينسكي قرب مكتب، وأعطته المسلاط وأوراقاً وقلماً وجهاز كمبيوتر محمولاً متّصلاً بقمر اصطناعي آمن. بدت الحيرة على لانغدون حيال السبب الذي دفع منظمة الصحة العالمية إلى الاهتمام بلوحة معدّلة لبوتيتشيلي إلى هذا الحدّ، إلّا أنّه نفذ العمل بإخلاص.

اعتقدت د. سينسكي أنّه سيحتاج إلى ساعات متواصلة لدراسة اللوحة، لذلك جلست لإنجاز أعمال خاصّة بها. من وقت إلى آخر، كانت تسمعه وهو يهزّ المسلاط ويدون ملاحظات على أوراقه. وبالكاد مرّت عشر دقائق عندما وضع لانغدون قلمه وأعلن قائلاً: "*cerca trova*".

نظرت إليه سينسكي: "ماذا؟".

كرّر: "*cerca trova*". من يبحث يجد، هذا ما تقوله الشيفرة".

أسرعت سينسكي وجلست بالقرب منه، ثمّ راحت تصغي إليه بإعجاب وهو يشرح عن مستويات جحيم دانتي وكيف تمّ تبديلها، وأنّه لو أعيد ترتيبها بالتسلسل الصحيح، فستظهر العبارة الإيطالية *cerca trova*.

تساءلت سينسكي: من يبحث يجد؟ أهذه هي رسالة ذلك المجنون إليّ؟ بدت الرسالة وكأنّها تحدّ مباشر. وعادت إلى ذهنها الكلمات الأخيرة التي قالها زوبريست خلال لقائهما في مجلس العلاقات الخارجية: إنّا، يبدو أنّ رقصتنا قد بدأت.

قال لانغدون وهو يتأملها جيداً: "لقد شحبت لونك. هل أفهم أنّ هذه هي الرسالة التي كنت تتنظرينها؟".

استجمعت سينسكي أفكارها، وسوّت التميمة. "ليس بالضبط. أخبرني... هل تعتقد أنّ خارطة الجحيم هذه تطلب منّي أن أبحث عن شيء ما؟".
"أجل. *cerca trova*".

"وهل تشير أين يجب أن أبحث؟".

أخذ لانغدون يحكّ ذقنه، في حين بدأ موظفون آخرون في منظّمة الصحة العالمية يتجمّعون حوله، متلهّقين إلى معرفة المزيد من المعلومات. "ليس صراحة... كلاً، مع أنّي أملك فكرة جيّدة عن المكان الذي ينبغي لك أن تبدئي منه".
سألته سينسكي بنبرة أكثر حدة ممّا توقّع لانغدون: "أخبرني".
"حسناً، ما رأيك بفلورنسا، في إيطاليا؟".

فغرت فيها، وبذلت جهداً لعدم إظهار ردّ فعلها. لكنّ موظفيها كانوا أقلّ تحكّماً بانفعالاتهم؛ إذ راحوا يتبادلون نظرات الدهشة. تناول أحدهم هاتفاً وأجرى اتصالاً، في حين أسرع آخر إلى مقفلة الطائرة.

بدت الحيرة على لانغدون. "ما سبب دهشتكم؟ أهو شيء ما قلته؟".

فكرت سينسكي، بكلّ تأكيد. "لماذا اقترحت فلورنسا؟".

أجاب: "*cerca trova*". وروى لها باختصار لغزاً قديماً ينطوي على لوحة جدارية لفاساري في قصر فيكيو.

فكرت سينسكي بعدما سمعت ما فيه الكفاية، فليكن. من الواضح أنّها ليست مجرد صدفة أن يكون عدوّها قد قفز منتحراً على مسافة بضعة مبانٍ من قصر فيكيو في فلورنسا.
قالت: "بروفيسور، عندما رأيت تميمتي في وقت سابق وقلتُ إنّها صولجان هيرمس، شعرت أنّك أردت قول شيء ما لكنّك تردّدت، وبدت كما لو أنّك غيرت رأيك. ما الذي كنت ترغب في قوله؟".

هزّ لانغدون رأسه قائلاً: "لا شيء، هذا غباء. في بعض الأحيان يصبح الأستاذ بداخلي متعجباً بعض الشيء".

حدّثت إليه وألحّت قائلة: "أنا أسأل لأنني أريد أن أعرف إن كان بإمكانني الوثوق بك. ماذا أردت أن تقول؟".

ابتلع لانغدون لعابه، وقحّ قبل أن يقول: "ليس الأمر ذا أهميّة، قلبتُ إنّ التميمة هي الرمز القديم للطبّ، وهذا صحيح. لكن، عندما أسميتها صولجان هيرمس ارتكبت خطأ شائعاً جداً. فصولجان هيرمس يوجد فيه شعبانان يلتقآن حول الصولجان وأجنحة في الأعلى. أمّا تميمتك فيظهر فيها شعبان واحد من دون أجنحة. هذا الرمز يدعى -".
"صولجان أسكليبيوس".

أجابها مندهشاً: "أجل، بالضبط".

"أعرف ذلك، لكنني كنت أختبر صدقك".

"غفوا؟".

"أردت أن أعرف إن كنت ستخبرني بالحقيقة مهما كانت مزعجة لي".

"ويبدو أنني فشلت".

"لا تفعل ذلك مرة أخرى. فالصدق التام هو الطريقة الوحيدة التي يمكننا أن نعمل بها معاً

على هذه المسألة".

"تعمل معاً؟ ألم ينته عملنا هنا؟".

"كلاً روبرت، لم ينته عملنا. أريدك أن ترافقني إلى فلورنسا لمساعدتي على إيجاد شيء".

حدّق إليها لانغدون وهو غير مصتّق: "الليلة؟".

"أخشى ذلك. فأنا لم أخبرك بعد بمدى خطورة هذه الحالة".

هرّ لانغدون رأسه رافضاً: "لا يهم ما نقولينه لي. أنا لا أريد السفر إلى فلورنسا".

قالت بكآبة: "ولا أنا. لكن لسوء الحظ، الوقت ينفد".

الفصل 62

سطعت شمس الظهيرة فوق السطح الأملس لقطار فريتشارجينتو السريع الذي راح يشق طريقه شمالاً، في الريف التوسكاني. على الرغم من أن القطار الشبيه بسهم فضي قد غادر فلورنسا بسرعة 174 ميلاً في الساعة، إلا أنه لم يكن يُصدر أي ضوضاء تقريباً، بل إن طقطقته المتكررة وتمايله اللطيف لديهما أثر مهدئ على ركابه تقريباً.

بالنسبة إلى روبرت لانغدون، كانت الساعة الأخيرة أشبه بالكابوس.

الآن، جلس مع سيبينا ود. فيريس في مقصورة خاصة على متن القطار السريع تحتوي على أربعة مقاعد جلدية وطاولة قابلة للطي. حجز فيريس المقصورة بأكملها مستخدماً بطاقته الائتمانية، بالإضافة إلى ابتاعه مياهاً معدنية ومجموعة متنوعة من السندويشات التي التهمها لانغدون وسيبينا بعدما اغتسلا في الحمام المرفق بالمقصورة.

بعدما استقر الثلاثة في القطار المتوجّه إلى البندقية في رحلة تستغرق ساعتين، التفت د. فيريس فوراً إلى قناع دانتلي الموضوع على الطاولة بينهم داخل الكيس. "علينا أن نعرف على وجه التحديد إلى أين يقودنا هذا القناع في البندقية".

أضافت سيبينا بالحاح: "وبسرعة. إنه على الأرجح أملنا الوحيد للحوول نون انتشار وباء زوبريست".

قال لانغدون وهو يضع يده بحماية على القناع: "لحظة واحدة. لقد وعدت بإعطاء بعض الأجوبة حول الأيام الأخيرة فور ركوبنا القطار بأمان، وحتى الآن، كل ما أعرفه هو أن منظّمة الصحة العالمية جندتني في كامبردج للمساعدة على تفكيك الشيفرة الموجودة في نسخة زوبريست عن خارطة الجحيم. لكنك لم تخبرني شيئاً بخلاف ذلك".

بدا الانزعاج على د. فيريس الذي عاد يحكّ وجهه وعنقه مجدداً وقال: "من الواضح أنك محبط. وأنا متأكد أنه من المزعج عدم تذكر ما جرى معك، لكن من الناحية الطبية..." ونظر إلى سيبينا ليستمدّ منها الدعم ثم تابع: "أوصيك بشدة بعدم صرف طاقتك على محاولة تذكر تفاصيل لا تذكرها. فمع ضحايا فقدان الذاكرة، من الأفضل ترك الماضي منسياً".

شعر لانغدون أن غضبه يتصاعد: "ترك الماضي منسياً! ثباً! أنا بحاجة إلى بعض الأجوبة! لقد أحضرتني منظمتكم إلى إيطاليا، وفيها تعرّضت لطلق ناري وخسرت عدة أيام من حياتي! أريد أن أعرف الآن ما جرى!".

تدخلت سينيّا، وتكلّمت بصوت هادئ في محاولة منها لتهنئة أعصابه: "روبرت، د. فيريس محقّ. ليس من المناسب بالتأكيد أن تهرق نفسك بفيض المعلومات دفعة واحدة. فكّر بالتفاصيل الصغيرة التي تذكرها، أي المرأة ذات الشعر الفضيّ، ومن يبحث يجد، والجثث التي تتلوى في خارطة الجحيم. لقد تزامنت تلك الصور في ذهنك في سلسلة من الذكريات التي لا يمكن السيطرة عليها، وتركتك عاجزاً تقريباً. وإن بدأ د. فيريس بإخبارك بتفاصيل الأيام السابقة، فقد يحزّك ذلك ذكريات أخرى، وقد تعود هلوساتك مجدداً. فقدان الذاكرة الانتكاسي حالة خطيرة، ومن شأن إثارة ذكريات في غير محلّها أن تسبّب لك اضطراباً نفسياً كبيراً".

لم يخطر ذلك في بال لانغدون.

أضاف فيريس: "لا بدّ أنك تشعر بتشوّش كبير. لكن في هذه اللحظة بالذات، نريد أن تكون حالتك النفسية في أحسن حال لكي تتمكن من الماضي قُدماً. من المهم جداً أن نعرف ما يحاول هذا القناع إخبارنا به".

هزّت سينيّا رأسها.

لاحظ لانغدون أنّ الطبيبين بيدوان متفّحين.

جلس لانغدون بصمت، وحاول تجاوز شكوكه. لم يكن من المريح لقاء شخص غريب تماماً وإدراك أنّك كنت تعرفه قبل عدّة أيام. ومع ذلك، ثمة شيء مألوف في عينيّه.

قال فيريس بتعاطف: "بروفيسور، من الواضح أنّك متردّد في الوثوق بي، وهذا مفهوم نظراً إلى كلّ ما مررت به. فالارتياح وانعدام الثقة من الآثار الجانبية لفقدان الذاكرة".

فكّر لانغدون: هذا منطقي، على اعتبار أنّني لا أثق حتّى بعقلي.

قالت سينيّا بمزاحة، في محاولة واضحة لتلطيف الأجواء: "بالحديث عن الارتياح، عندما رأى لانغدون الطفح الجلدي الذي تعاني منه ظنّ أنّك مصاب بالطاعون".

اشّعت عينا فيريس المنتفختان، وانفجر ضاحكاً. "هذا الطفح الجلدي؟ صدّقني بروفيسور، لو كنت أعاني من الطاعون، لما كنت عالجتّه بمضادّات الهستامين التي اشتريتها من دون وصفة طبّيّة". ثمّ أخرج من جيبه أنبوباً صغيراً، ووضعه أمام لانغدون. كان عبارة عن أنبوب نصف فارغ للكريم المضادّ للحكّة.

قال لانغدون وهو يشعر بالغباء: "أسف على ذلك، فقد كان يوماً طويلاً".

قال فيريس: "لا تقلق".

التفت لانغدون نحو النافذة، وأخذ يراقب المشاهد الصامتة للريف الإيطالي التي راحت تمرّ أمام عينيّه في لوحة مسالمة. أصبحت كروم العنب والمزارع أكثر ندرة الآن عندما حلّت سفوح جبال الأبينين محلّ السهول. قريباً، سيعبر القطار الطريق الجبلي المتعرّج، ثمّ سيهيّط مجدداً ويتّجه شرقاً نحو البحر الأدرياتيكي.

فكّر في سرّه: أنا متوجّه إلى البندقية لأبحث عن ويا.

بعد هذا اليوم الغريب، شعر لانغدون أنه يتنقل في مكان مؤلف من أشكال غامضة من دون تفاصيل معينة؛ كما لو كان في كابوس. ومن المفارقات أن الكوابيس توقظ الناس عادة... لكن لانغدون شعر كما لو أنه استيقظ في كابوس.

همست سيبينا بجانبه: "عطيك ليرة إن بحث لي بأفكارك".

نظر إليها لانغدون، وارتسمت على فمه شبه ابتسامة. "أفكر أنني سأستيقظ في المنزل بعد قليل واكتشف أن ما حصل كان مجرد حلم سيئ".

نظرت إليه سيبينا وقالت: "ألن تفقدني إن استيقظت واكتشفت أنني لم أكن حقيقة؟".

ابتسم لانغدون وأجاب: "بلى في الواقع، سأفتدك قليلاً".

ربتت على ركبته وقالت: "توقّف عن أحلام اليقظة بروفيسور، وهيا إلى العمل".

حوّل لانغدون نظره على مضض إلى وجه دانتلي أليغيري المجدّد الذي كان يحدّق إليه من على الطاولة. تناول القناع الجصّي وقّله، ثم حدّق إلى قعره؛ إلى السطر الأوّل من النصّ اللولبي:

يا أيّها المسكون بالحكمة...

شكّ لانغدون في أن يكون هذا الوصف ملائماً له في الوقت الحالي.

ومع ذلك، بدأ بالعمل.

على بعد مائتي ميل أمام القطار السريع، بقي العميد/سيوم راسياً في البحر الأكرياتيكي. في الأسفل، سمع لورنس نولتون طرقة على زجاج حجرته، فلمس زراً تحت مكتبه، وتحوّل الجدار إلى زجاج شفاف. في الخارج، رأى رجلاً أسمر قصير القامة.

العميد.

بدا متجهماً.

من دون أي كلمة، فتح باب الحجرة ودخل، ثم حوّل البذالة التي تحجب داخل الغرفة مجدداً.

قال العميد: "بخصوص الفيلم الذي تركه لنا زوبريست".

"أجل سيدي".

"أريد مشاهدته فوراً".

الفصل 63

أنهى لانغدون كتابة النص اللولبي على الورق لكي يتمكنوا من تحليله عن كُتب. اقتربت سيبينا ود. فيريس لتقديم المساعدة، وبذل لانغدون جهده لتجاهل فيريس الذي كان يحك بشرفته باستمرار ويتنفس بصعوبة.

قال لانغدون في سرّه، إنّه بخير، وأجبر نفسه على التركيز على الأبيات.

يا أيها المسكون بالحكمة،
تأمل التعاليم المختبئة هنا...
تحت حجاب أبيات غامضة جداً

قال لانغدون: "كما ذكرت سابقاً، إنّ افتتاحية قصيدة زوبريست مأخوذة حرفياً من إنفيرنو دانتي، وهي تلفت انتباه القارئ إلى أنّ الكلمات تتطوي على معنى أعمق".
كان عمل دانتي الرمزي زاخراً بالإشارات المبطنّة الدينية والسياسية والفلسفية؛ الأمر الذي كان يدفع لانغدون غالباً إلى أن يقترح على طلابه أن يدرسوا الشعر الإيطالي مثلما يدرسون الكتاب المقدس؛ أي أن يقرأوا بين السطور ويفهموا المعنى الأعمق.

تابع لانغدون: "عموماً، يقسم علماء رمزية القرون الوسطى تحليلاتهم إلى فئتين: النص والصورة... ويشكل النص المحتوى الحرفي للعمل، في حين تعتبر الصورة الرسالة الرمزية".

قال فيريس بحماسة: "حسناً. إذًا، استهلال القصيدة بهذا البيت -".
قاطعته سيبينا: "يشير إلى أنّ قراءتنا السطحية لن تكشف لنا سوى جزء من الحكاية، وقد يبقى المعنى الحقيقي خفياً".

"شيء من هذا القليل، أجل". أعد لانغدون نظره إلى النص وتابع القراءة بصوت عالٍ.

ابحث عن دوج البنديقية انخائن
الذي قطع رؤوس الخيل...
واقطع عظام العمياء.

قال لانغدون: "أنا لست واثقاً بشأن رؤوس الخيل وعظام العمياء، لكن يبدو أنّه علينا تحديد مكان دوج معين".

سألته سيبينا: "أفترض أنه... قبر دوج؟".

أجاب لانغدون: "أو تمثال، أو لوحة. مضت قرون على وجودهم".

كان دوج البندقية شبيهاً بالدوق في الدولات الإيطالية الأخرى، وقد تولى أكثر من مائة منهم حكم البندقية على مدار ألف عام، بدءاً من عام 697 ق.م. انتهت سلالتهم في القرن الثامن عشر، مع استيلاء نابوليون على المدينة، لكن أمجادهم ونفوذهم ما زالت ماثرة افتتان المؤرخين.

قال لانغدون: "كما تعرفان، إنَّ أهمَّ معلمين سياحيين في البندقية، أي قصر الدوج وبازيليك سان مارك، بناهما الدوجات لأنفسهم، والكثيرون منهم دفنوا هناك".

سألته سيبينا وهي ترمق القصيدة: "وهل تعرف ما إذا كان ثمة دوج يعتبر خطيراً على نحو خاص؟".

نظر لانغدون إلى البيت المقصود. *ابحث عن دوج البندقية الخائن*. ليس على حدِّ علمي، لكنَّ القصيدة لم تستخدم كلمة خطير بل خائن. وثمة فرق بينهما، على الأقلَّ في عالم دانتي. فالخيانة إحدى الخطايا السبع المميتة؛ لا بل أسوأها، والخائن ينال عقوبته في الحلقة التاسعة والأخيرة من الجحيم".

الخيانة كما يعرفها دانتي هي خيانة شخص محبوب. من أشهر الأمثلة على هذه الخطيئة في التاريخ خيانة يهوذا لحبيبه يسوع، وهو عمل اعتبره دانتي مشيناً إلى حدِّ أنه نفى يهوذا إلى نواة الجحيم الأكثر عمقاً، وهي حلقة أطلق عليها اسم جوديكَّا، المستمدَّ من اسم ساكنها. قال فيريس: "إذا، نحن نبحث عن دوج ارتكب خيانة".

هزَّت سيبينا رأسها موافقةً. "هذا يحذُّ من الاحتمالات". صممت وتأمَّلت النص. لكن البيت التالي يتحدَّث عن دوج قطع رؤوس الخيل؟". ونظرت إلى لانغدون. "هل ثمة دوج ذبح أحصنة؟". ذكرته الصورة التي استحضرتها سيبينا بمشهد مريع من العراب. "لا يذكّرني ذلك بشخص معيّن. لكن، استناداً إلى ما هو مكتوب هنا، فقد قام أيضاً باقتلاع عظام عمياء". نظر إلى فيريس وسأله: "هاتفك موصول بشبكة الإنترنت، أليس كذلك؟".

أخرج فيريس هاتفه بسرعة، ورفع أصابعه المتورّمة. "أعتقد أنه من الصعب على الضغط على الأزرار".

قالت سيبينا وهي تأخذ منه الهاتف: "فهمت. سأجري بحثاً عن دوجات البندقية مع أحصنة منبوحة وعظام عمياء". ثم بدأت تطبع بسرعة على لوح المفاتيح الصغير. في هذا الوقت، تابع لانغدون القراءة بصوت عالٍ.

اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة،
وضع أذنًا صاغية على الأرض،
لتسمع خرير المياه

قال فيريس: "لم يسبق لي أن سمعت بالموزيون".
أجاب لانغدون: "إنها كلمة قديمة تعني الهيكل الذي تحميه آلهة الفنون والعلوم. ففي عصر الإغريق، كان *الموزيون* مكاناً يجتمع فيه المستثمرون لمشاركة أفكارهم، ومناقشة الأدب، والموسيقى، والفن. بُني أول موزيون على يد بطليموس في مكتبة الإسكندرية قبل قرون من ولادة المسيح، ثم تم تأسيس المعاهد منه في مختلف أنحاء العالم".
قال فيريس وهو ينظر إلى سينيّا بشيء من الأمل: "د. بروكس، هلأ تحققت من وجود موزيون في البندقية؟".

قال لانغدون مبتسماً: "في الواقع، ثمة العشرات منها، وهي تسمى الآن متاحف".

أجاب فيريس: "آه... أظن أنه علينا توسيع رقعة البحث".
واصلت سينيّا محاولاتها على الهاتف، ولم تواجه أي مشاكل وهي تقوم بأبحاث متعددة وتقرأ لألحة النتائج. "حسناً إذاً، نحن نبحث عن متحف يمكن أن نجد فيه دوجاً قطع رؤوس الخيل واقتلع عظام العمياء. روبرت، هل يوجد متحف معين لنبحث فيه؟".
كان لانغدون قد بدأ أساساً بالتفكير بمختلف متاحف البندقية المعروفة؛ غاليري ديل أكاديميا، كاريتزونيكو، بالاتزو غراسي، مجموعة بيغي غوغنهايم، موزيو كورير. لكن أيّاً منها لم يكن يناسب الوصف.
نظر مجدداً إلى النص.

اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة...

ابتسم لانغدون ابتسامة ساخرة وقال: "في البندقية متحف واحد يمكن وصفه تماماً بأنه الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة".

نظر إليه كل من فيريس وسينيّا بترقب.
أعلن قائلاً: "إنها يازيليك سان مارك، أكبر كنيسة في البندقية".
لم يقتنع فيريس تماماً: "أهي كنيسة ومتحف؟".
هز لانغدون رأسه. "تماماً مثل متحف الفاتيكان. والأهم أنه مشهور بأنه مزخرف من الداخل بكامله بالبلاط الذهبي".

قالت سينيّا بحماسة حقيقية: "موزيون ذهبي".
هز لانغدون رأسه موافقاً، ولم يعد لديه أدنى شك في أن سان مارك هو الموزيون الذهبي الذي تشير إليه القصيدة. لقرون من الزمن، أطلق أبناء البندقية على سان مارك اسم لا كيززا دورو، أي الكنيسة الذهبية. وبرأي لانغدون، إن داخلها أجمل من أي كنيسة أخرى في العام.

أضاف فيريس: "قيل في القصيدة /ركع هناك، والكنيسة هي المكان المنطقي للركوع". راحت سيبينا تطبع بسرعة مجتداً. "سأضيف سان مارك إلى البحث. لا بدّ أنها المكان الذي يجب أن نبحث فيه عن النوح". عرف لانغدون أنهم سيجدون العديد من الدوجات في سان مارك التي كانت فعلياً بازيليك الدوجات. وشعر بالتفاؤل وهو يعود لقراءة القصيدة.

اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة،
وضع أنذا صاغية على الأرض،
لتسمع خرير المياه

تسأل لانغدون: خرير المياه؟! هل توجد مياه تحت بازيليك سان مارك؟ أدرك أنه من الغباء طرح سؤال كهذا. فالمياه موجودة تحت المدينة بأكملها. كلّ مباني البندقية تغرق ببطم وتتسرّب إليها المياه. تخيل لانغدون البازيليك، وحاول أن يتصور المكان الذي يمكن الركوع فيه والإصغاء إلى خرير المياه. وماذا تفعل عندما نسمعه؟ عاد لانغدون إلى القصيدة، وأنهى قراءتها بصوت عالٍ.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...
فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم

قال لانغدون الذي أزعجته الصورة: "حسناً، كما يبدو، يجب أن نتبع صوت خرير المياه... إلى أن نصل إلى قصر غارق". أخذ فيريس يحكّ وجهه بعصبية. "ما معنى وحش من العالم السفلي؟". أجابته سيبينا، وهي تواصل الطباعة: "أي تحت الأرض، العالم السفلي يعني تحت الأرض".

قال لانغدون: "إلى حدّ ما، مع أنّ للكلمة أبعاداً تاريخية تقترب بالأساطير والوحوش. إنها فئة كاملة من الآلهة والوحوش، مثل إرينيس وهيكات وميدوزا. وقد سميت كذلك لأنها تعيش تحت الأرض وتقترب بالجحيم". سكت لانغدون ثمّ أضاف: "تاريخياً، تخرج هذه الكائنات من تحت الأرض إلى السطح، لتعيث فساداً في عالم البشر". حلّ صمت طويل، وشعر لانغدون أنهم يفكرون بالشيء نفسه. لا شك أنّ هذا الوحش القابع في العالم السفلي... ليس سوى طاعون زووبريست.

فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،
مغموراً بمياه حمراء كالدم...
مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم

قال لانغدون محاولاً البقاء في الاتجاه الصحيح: "على كل حال، من الواضح أننا نبحث
عن موقع تحت الأرض؛ الأمر الذي يفسر البيت الأخير من القصيدة الذي يشير إلى البحيرة
التي لا تعكس النجوم".

قالت سيبينا وهي ترفع نظرها عن هاتف فيريس: "معك حق". فالقصيدة تشير إلى ظلام
القصر الغارق. سبق أن ذكرت أن قصر الدوج مرتبط بالبازيليك؟ هذا يعني أن ذنك البناعين
فيهما الكثير مما تذكره القصيدة؛ موزيون الحكمة المقدسة، قصر، إشارة إلى دوج. وهما موجودان
في بحيرة البندقية الرئيسية، على مستوى البحر".

فكر لانغدون ثم سألهما: "أتعتقد أن القصر الغارق هو قصر الدوج؟".
"لَمْ لَا؟ فالقصيدة تطلب مذابحاً أولاً الركوع في بازيليك سان مارك، ومن ثم اتباع صوت
خرير المياه. ربما كان صوت خرير المياه يقودنا إلى قصر الدوج المجاور، وربما كان أساسه
غارقاً".

قام لانغدون بزيارة قصر الدوج مرّات عديدة، وهو يعرف أنه بناء ضخم جداً. إنه عبارة
عن مجمع مترامي الأطراف من الأبنية، يضمّ متحفاً كبيراً، ومتاهة حقيقية من الغرف والشقق
والباحات، وشبكة سجون واسعة جداً مؤلفة من عدة أبنية.

قال لانغدون: "قد تكونين على حق، لكن البحث على غير هدى في ذلك القصر سيستغرق
مناً أياً ما. لذلك أقترح أن ننفذ تعليمات القصيدة حرفياً. سنذهب أولاً إلى بازيليك سان مارك،
وسنعث على قبر أو تمثال ذلك الدوج الخائن، ثم سنركع".
سألته سيبينا: "وبعد ذلك؟".

أجابها متنهّداً: "بعد ذلك، سندعو من أعماق قلوبنا لكي نسمع خرير المياه... ولكي يقودنا
إلى مكان معين".

خلال الصمت الذي تلا ذلك، تخيّل لانغدون وجه إليزابيث سينسكي القلق كما رآها وهو
بهذي، وهي تقول له: الوقت ينفذ. من يبحث بجداً! وتساءل عن مكانها الآن... وعما إذا كانت
بخير. لا بد أن الجنود ذوي الملابس السوداء قد أدركوا الآن أنه تمكّن من الفرار هو وسيبينا. كم
سيمضي من الوقت قبل أن يلحقوا بنا؟

عندما نظر لانغدون مجدداً إلى القصيدة، اجتاحتها موجة من الإنهاك. تأمل البيت الأخير،
وخطر له فكرة أخرى. تساءل عما إذا كانت تستحق الذكر. البحيرة التي لا تعكس النجوم. قد
لا تكون ذات صلة ببحثهم، لكنّه قرر البوح بها. ثمّة أمر آخر يجب أن أذكره.
حوّلت سيبينا نظرها عن الهاتف.

قال لانغدون: "إنّ الأجزاء الثلاثة من الكوميديا الإلهية، أي إنفيرنو وبورتاغوريو وباراديزو، جميعها تنتهي بالكلمة نفسها".

بدت الدهشة على سيبينا، في حين سأله فيريس: "وما هي تلك الكلمة؟".
أشار لانغدون إلى آخر النص الذي كتبه. "إنّها الكلمة نفسها التي تنتهي بها هذه القصيدة، نجوم". ثم حمل قناع دانتي وأشار إلى وسط النص الحلزوني تماماً.
البحيرة التي لا تعكس النجوم.

تابع يقول: "والأهم أنّه في ختام الإنفيرنو نجد دانتي يصغي إلى خرير المياه داخل شقّ ويتبعه عبر فتحة... تقوده إلى خارج الجحيم".

شحب فيريس وقال: "يا إلهي!".

عندئذٍ، هبّ هواء عنيف في المقصورة مع دخول القطار نفقاً جبلياً.

في الظلام، أغمض لانغدون عينيه وحاول أن يريح ذهنه. فكّر: قد يكون زويريسست مجنوناً، لكنّه يملك حتماً فهماً عميقاً لدانتي.

الفصل 64

شعر لورنس نولتون بارتياح عارم.
لقد بطل العميد رآيه حيا! مشاهدة فيلم زوبريست.
أخرج نولتون شريحة الذاكرة القرمزية فوراً وأدخلها في الكمبيوتر. كانت رسالة زوبريست الغريبة التي يستغرق عرضها تسع دقائق قد أثقلت كاهله، ورغب كثيراً في أن تشاهدها عينان غير عينيه.
لن أكون مسؤولاً عنها بعد الآن.
حبس نولتون أنفاسه وبدأ بتشغيل الفيديو.
أعتمدت الشاشة، وعلا في الحجرة صوت خرير المياه، وتحركت الكاميرا عبر الضباب المائل إلى الاحمرار المخيم على الكهف تحت الأرض. ومع أن العميد لم يظهر رد فعل واضحاً، إلا أن نولتون شعر أن الرجل ذعر واربتك على حد سواء.
توقفت الكاميرا ثم مالت إلى الأسفل نحو سطح البحيرة، قبل أن تغوص تحت الماء عدة أقدام، لتكشف عن لوحة التيتانيوم المثبتة بالأرض.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغير العالم إلى الأبد.

أجفل العميد قليلاً، وهمس وهو يرمق التاريخ: "غداً. وهل نعرف أين يقع هذا المكان؟".
هز نولتون رأسه نافياً.
مالت الكاميرا الآن إلى اليسار، ليظهر الكيس المغمور بالمياه، والمحتوي على مسائل بنّي مائل إلى الاصفرار.
"ما الذي يجري هنا؟". سحب العميد كرسيّاً وجلس عليه، ثم راح يحدّق إلى الفقاعة المتوجّهة المعلقة مثل بالون تحت الماء.
خيم صمت غير مريح على الحجرة مع تواصل عرض الشريط. بعد قليل، أظلمت الشاشة، ثم ظهر ظلّ ذو أنف معقوف على جدار الكهف وبدأ يتحدث بلغة غامضة.

أنا الظلّ...

بعدما أصبحت تحت التراب، عليّ أن أتحدّث إلى العالم من أعماق الأرض، منفيّاً في هذا الكهف المعتم الذي تتجمّع فيه مياه حمراء بلون الدم في بحيرة لا تعكس النجوم.
لكن، هذه جنّتي... الرحم المثالي لطفلي الضعيف.
الجحيم.

حوّل العميد نظره عن الشاشة وقال: "الجحيم؟".

هز نولتون كتفيه قائلاً: "كما قلت، إنّه مثير للقلق".

أعاد العميد نظره إلى الشاشة وأخذ يتابع بتركيز.

تابع الظلّ ذو الأنف المعقوف حديثه لعدّة دقائق، وذكر الأويشة، وحاجة السكّان إلى التطهير، ودوره المهمّ في صناعة المستقبل، ومعرّكته ضدّ أرواح جاهلة كانت تحاول إيقافه، والقلّة القلائل الذين أدركوا أنّ الحلّ الجذري هو السبيل الوحيد لإنقاذ هذا الكوكب.

مهما كانت طبيعة هذه الحرب، فإن نولتون كان يتساعل طيلة الصباح عمّا إذا كان الكونسورتيوم يقاتل مع الطرف الخاطئ.
تابع الصوت.

لقد صنعت تحفة للخلاص، لكنّ جهودي لم تكافأ بالأبواق وأكاليل الغار... بل بتهديدات القتل.
أنا لا أخاف الموت... فالموت يحوّل الحالمين إلى شهداء... والأفكار النبيلة إلى حركات قويّة.

يسوع، سقراط، مارتّن لوثر كينغ.

يوماً ما، سأنضمّ إليهم.

فالتحفة التي صنعتها هبة من الله الذي أسبغ عليّ الحكمة، وزوّدني بالوسائل والشجاعة للقيام بهذا الإبداع.
والآن يقترب الموعد.

ينام الجحيم تحتي، يستعدّ للخروج من رحمته المائي... تحت العين الساهرة للوحش القابع في العالم السفلي بكلّ ضراوته.

على الرغم من فضائلي، أنا مثلكم، لست غريباً عن الخطيئة. حتّى إنني ارتكبت أسوأ السبع التي لا يجد سوى قلّة منجى من إغوائها.
الغرور.

بتسجيل هذه الرسالة، استسلمت لإغراء الغرور... لأضمن أن يعرف العالم ما فعلته.

ولم لا؟

على البشرية أن تعرف مصدر خلاصها... اسم من أغلق أبواب الجحيم المفتوحة إلى الأبد!

مع كل ساعة تمر، تصبح النتيجة مؤكدة أكثر. فالرياضيات، مثل قوة الجاذبية، غير قابلة للنقاش. ازدهار الحياة الأسّي نفسه الذي قضى تقريباً على البشرية سيكون خلاصها. فجمال الكائن الحي، سواء أكان خيراً أم شراً، يكمن في أنه يتبع قانون الطبيعة برؤية فريدة.

كونوا مثمرين وتكاثروا.

هكذا أطفئ النار... بالنار.

قال العميد بصوت منخفض بالكاد بلغ مسمعي نولتون: "هذا يكفي".

"سيدي؟"

"أوقف الفيلم".

أوقف نولتون العرض. "سيدي، النهاية في الواقع هي الجزء الأكثر ترويعاً".

"لقد رأيت ما فيه الكفاية". بدا العميد شاحباً، وراح يذرع الحجرة ذهاباً وإياباً لعدة دقائق ثم

قال فجأة: "علينا الاتصال بـ FS-2080".

فكر نولتون بالخطوة.

كان هذا الرمز يشير إلى أحد معارف العميد الموثوقين، وهو الشخص نفسه الذي أحال

زوبريست إلى الكونسورتيوم كزبون. لا شك أنّ العميد يلوم نفسه في هذه اللحظة لأنه وثق بحكم

FS-2080. فالتعامل مع بيرتراند زوبريست أحدث فوضى عارمة في عالم الكونسورتيوم المتوازن.

سبب هذه الأزمة هو FS-2080.

يبدو أنّ السلسلة المتلاحقة من الكوارث المحيطة بزوبريست تتفاقم، ليس بالنسبة إلى

الكونسورتيوم وحده... بل ربما بالنسبة إلى العالم بأسره.

قال العميد: "علينا أن نكتشف نوايا زوبريست الحقيقية. أريد أن أعرف ما الذي صنعه

بالضبط، وإن كان حقيقياً".

أدرك نولتون أنه إن كان ثمة من يعرف الإجابات عن هذه الأسئلة فسيكون FS-2080. فما

من أحد يعرف بيرتراند زوبريست على نحو أفضل. حان الوقت ليخرق الكونسورتيوم البروتوكول،

ويحاول أن يعرف أي نوع من الجنون قام بدعوه خلال العام الفائت من دون قصد.

فكر نولتون بالنتائج المحتملة لمواجهة FS-2080 مباشرة. فمجرد الاتصال به ينطوي

على مخاطر.

قال نولتون: "بالطبع سيدي، إن أردتم الاتصال، فعليكم توخّي الحذر الشديد".
لمعت شرارة الغضب في عيني العميد الذي أخرج هاتفه قائلاً: "لقد تجاوزنا مرحلة الحذر منذ وقت طويل".

جلس صاحب ربطة العنق الكشميرية ونظارة بلوم باريس بين رفيقيه في السفر في مقصورة قطار فريتشارجينتو الخاصة، وبذل ما في وسعه لكي لا يحكّ بشرته. كما شعر أنّ الأكم في صدره قد تفاقم أيضاً.

مع خروج القطار من النفق أخيراً، حدّق الرجل إلى لانغدون الذي فتح عينيه ببطء، وكأنّه يعود من بعيد. وراحت سبيّنّا الجالسة بجانبه ترمق الهاتف الذي وضعت من يدها عندما دخل للقطار النفق وانقطعت الإشارة.

بدت سبيّنّا متلهّفة لمتابعة بحثها على الإنترنت، لكن قبل أن تتناول الهاتف، بدأ يهتزّ مرسلاً سلسلة من الرنات المتقطّعة.

كان الرجل يعرف الرنة جيداً، فمدّ يده إلى الهاتف فوراً، ورمى الشاشة المضيّئة، محاولاً إخفاء دهشته.

وقف وقال: "المعذرة، والدتي مريضة وعليّ الردّ على هذه المكالمات".
هرّ لانغدون وسبيّنّا رأسيهما بتفهّم، في حين استأذن الرجل وغادر الحجرة مسرعاً باتجاه حمام قريب.

أقفل الرجل باب الحمام وفتح الخطّ. "الو".
كانت نبرة المتكلّم بالغة الجذبة. "معك العميد".

الفصل 65

لم يكن حمّام الفريتشارجيننتو أكبر مساحة من حمّام طائرة تجارية؛ فهو لا يكاد يتسع للتحرك فيه. أنهى الرجل المصاب بالطفح الجلدي مكالمته مع العميد ودس الهاتف في جيبه. أدرك أنّ الوضع قد تغيّر. لقد انقلب المشهد فجأة رأساً على عقب، وهو بحاجة إلى بعض الوقت لتمالك نفسه.

أصدقائي أصبحوا الآن أعدائي.

أرخی الرجل ربطة عنقه وحدّق إلى وجهه المليء بالبثور في المرأة. الوضع أسوأ ممّا توقّع. لكن، لم يكن وجهه ما يقلقه، بالمقارنة مع صدره. حلّ عدداً من الأزرار بيد مترددة وفتح قميصه. أجبر نفسه على النظر إلى المرأة... وتأمل صدره العاري.

يا إلهي!

لقد ازدادت المساحة السوداء اتساعاً.

كانت بشرته وسط صدره مصبوغة بلون أسود مزرق. بدا السواد في الليلة الماضية بحجم كرة غولف، لكنّه الآن أصبح بحجم برتقالة. لمس تلك المنطقة المؤلمة وأغمض عينيه. أعاد ترزير قميصه بسرعة؛ على أمل إيجاد القوة الكافية لإتمام ما عليه فعله. فكر: ستكون الساعة القادمة خطيرة، سلسلة دقيقة من المناورات.

أغمض عينيه وسيطر على نفسه، ثمّ خطّط لما يجب فعله. فكر مجدداً: *أصدقائي أصبحوا أعدائي.*

أخذ عدّة أنفاس عميقة مؤلمة؛ على أمل تهدئة أعصابه. علم أنّ عليه الحفاظ على هدوئه؛ إن كان يرغب في إبقاء نواياه خفية.

السلام الداخلي مهم جداً للتمثيل المقنع.

لم يكن الرجل غريباً على الخداع، لكن قلبه كان ينبض بعنف. أخذ نفساً عميقاً آخر بقلب خافق. ذكر نفسه: أنت تقوم بخداع الناس منذ سنوات، هذا عملك.

استجمع شجاعته، وعاد إلى لانغدون وسيبينا.

قال لنفسه: هذا أدائي الأخير.

اتخذ إجراء احتياطياً أخيراً قبل أن يغادر الحمام، ونزع بطارية الهاتف المحمول للتأكد من أنّ الهاتف لم يعد يعمل.

بيدو صاحباً؛ هذا ما فكرت فيه سبيناً عندما عاد الرجل المصاب بالطفح الجلدي إلى المقصورة وجلس متنهّداً.

سألته بقلق حقيقي: "هل كل شيء على ما يرام؟".

هز رأسه قائلاً: "أجل، شكرًا، أنا بخير".

بعدما حصلت سبيناً على كل المعلومات التي يمكن أن يبوح بها الرجل عن وضعه، قررت تغيير الموضوع. "أحتاج إلى هاتفك مجدداً، إن لم يكن لديك مانع، أريد متابعة البحث عن الدوج. ربما يمكننا إيجاد بعض الأجوبة قبل الذهاب إلى سان مارك".

قال: "لا مشكلة". وأخرج الهاتف من جيبه وتحقق من الشاشة. "آه، تباً. كانت البطارية شبه فارغة خلال المكالمات، ويبدو أنها فرغت تماماً". نظر إلى ساعته: "سنصل إلى البندقية قريباً، ما علينا سوى الانتظار".

على بعد خمسة أميال من الساحل الإيطالي، على متن المينداسيوم، راقب نولتون العميد بصمت وهو يسير في محيط الحجرة مثل حيوان في قفص. بعد المكالمات الهاتفية، من الواضح أن العميد قد استغرق في التفكير. ونولتون يعرف جيداً أنه لا يجدر به أن يتقوّه بكلمة في هذه الحالة.

أخيراً، تحدّث الرجل الأسمر، وكان صوته في غاية التوتر. "ليس لدينا أي خيار، علينا مشاركة هذا الفيلم مع د. إليزابيث سينسكي".

جمد نولتون في مكانه وحاول إخفاء دهشته. الشيطانة ذات الشعر الفضي؟ تلك التي ساعدنا زويريست لكي يتعلّص منها لمّة عام؟ "حسناً سيّدي. هل عليّ إيجاد طريقة لإرسال الفيلم إليها عبر البريد الإلكتروني؟".

"رَبّاه، كلاً؟ هل سنخاطر بتسريب الفيلم إلى الناس؟ سيحدث ذلك هستيريا جماعية. أريد منك إحضار د. سينسكي إلى متن هذه السفينة بأسرع ما يمكن".

حدّق إليه نولتون وهو عاجز عن التصديق. يريد إحضار مديرة منظمة الصحة العالمية إلى متن المينداسيوم؟ "سيّدي، هذا الخرق لبروتوكول السرية قد -".

"تفّذ من دون نقاش، نولتون! فوراً!!".

الفصل 66

انعكست صورة لانغدون على زجاج نافذة القطار المسرع أمام عيني FS-2080. ما زال البروفيسور يفكر بحلول محتملة للغز قناع الموت الذي صنعه بيرتراند زوبريست. ذاب قلب FS-2080 شوقاً. بيرتراند، يا الله، كم أفتقد إليك! ما زالت الخسارة مؤلمة. ما زالت الليلة التي التقيا فيها أشبه بحلم سحري. شيكاغو. العاصفة الثلجية.

يناير، قبل ست سنوات... لكن، يبدو كما لو أن اللقاء قد حصل بالأمس. كنت أمشي بين الثلوج في شارع ماغنيفيسانت مايل الذي تعصف فيه رياح عاتية. على الرغم من البرد، قلت لنفسي إن شيئاً لن يثنيني عن تحقيق هدفي. هذه الليلة هي فرصتي لسماع بيرتراند زوبريست يتحدث... شخصياً.

كنت قد قرأت كل ما كتبه الرجل، وشعرت بالسعادة لأنني أملك إحدى البطاقات الخمسمائة التي طبعت لهذه المناسبة. عندما وصلت، شعرت بالذعر لدى رؤيتي القاعة شبه خالية. هل ألغى الخطاب بسبب سوء الأحوال الجوية؟ أخيراً وصل.

دخل بقامته الفارعة ووقف على المسرح. نظر إلى القاعة الخالية التي لم يكن فيها سوى عشرة تقريباً من معجبيه؛ الأمر الذي أشعرنى بالخجل. هذا هو بيرتراند زوبريست!

مرت لحظة صمت طويلة وهو يحدق إلينا بجذبة. فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجر ضاحكاً ولمعت عيناه الخضراوان. قال: "فلتذهب هذه القاعة الخالية إلى الجحيم. فننقى قريب، لنذهب إلى هناك!".

ضحك الموجودون، وتوجهنا إلى الفندق المجاور. اجتمعنا هناك وطلب الشراب. اتحفنا زوبريست بقصص عن أبحاثه، وصعود نجمه، وأفكاره حول مستقبل الهندسة الجينية. ثم انتقل إلى الحديث عن موضوع شغفه مؤخراً؛ ألا وهو الفلسفة ما وراء الإنسانية.

قال زوبريست: "أعتقد أن الفلسفة ما وراء الإنسانية أملنا الوحيد للبقاء طويل الأمد". ثم شدّ ياقة قميصه ليظهر للجميع وشماً على كتفه "H+". "كما ترون، أنا ملتزم بها تماماً". لم أتخيل أن يكون "عقبري علم الوراثة" شخصاً كاريزماتياً وجذاباً إلى هذا الحد. كلّما نظرت إليه، أشعلت فيّ عيناه الخضراوان إحساساً غير متوقع... جانبية عميقة.

مع انقضاء الليل، تفرقت المجموعة، واستأذن الحاضرون للعودة إلى الواقع. ويحلول منتصف الليل، أصبحنا بمفرنا أنا وبيتراند زويريست. قلت له وقد أثر الشراب في تركيزي: "شكراً لك على هذه الليلة. أنت أستاذ رائع". ابتسم ومال نحوي، فتلامست ساقلنا: "هذا الغزل قد يقودك إلى أي مكان". من الواضح أن الغزل لم يكن ملائماً. لكن، كانت ليلة جليدية في فندق خالٍ. وبدا وكأن العالم بأسره قد توقف.

قال زويريست: "ما رأيك؟ هل نتناول كأساً في غرفتي؟". تسمرت من المفاجأة، وعرفت أنني أبدو كغزال فاجأته أضواء سيارة. شعرت باحمرار وجهي، وكافحت لأخفي انفعالاتي التي تراوحت بين الإحراج، والإثارة، والخوف. قلت: "في الواقع، بصراحة، لم يسبق لي أن كنت مع أي رجل". ابتسم زويريست واقترب أكثر: "لا أعرف ما الذي كان يؤخرك، لكن أود أن أكون الأول". في تلك اللحظة، تلاشت كل مخاوف الطفولة المكبوتة... تبخرت في ثلوج الليل. للمرة الأولى في حياتي، شعرت بتوق غير مشوب بأي عار. بعد عشر دقائق، كنا في غرفة زويريست. كان هذا خياراً، لم يجبرني على شيء. شعرت معه أن كل شيء في هذا العالم صحيح. تمددت هناك وحدقت من النافذة إلى الثلوج المتساقطة، وعرفت أنني سأتابع هذا الرجل إلى أي مكان. أبطأ القطار السريع من سرعته فجأة، وأخرج FS-2080 من تلك الذكريات الهائلة إلى الواقع المحيط.

لقد رحلت يا بيتراند... كانت تلك الليلة هي الخطوة الأولى في رحلة لا تصدق. أصبحنا أكثر من مجرد عشيقين. أصبح أستاذاً. قال لانغدون: "جسر ليبيرتا. أوشكنا على الوصول". ذكرت مياه لاغونا فينيثا FS-2080 بالرحلة البحرية التي قام بها مع زويريست إلى هنا... صورة مسالمة تحولت إلى ذكرى مرعبة منذ أسبوع. كنت هنا عندما قفز عن برج بانديا. كانت عيناها آخر عيني رأهما.

الفصل 67

انطلقت طائرة نت جيتس سيتايشن إكسيل من مطار تاسينيانو باتجاه البندقية. على متنها، بالكاد لاحظت د. إليزابيث سينسكي الانطلاقة الصعبة للطائرة وهي تلمس تيمتها بشروء وتحقق من النافذة إلى الفراغ.

كانوا قد توقفوا أخيراً عن إعطائها الحقن، وبدأت تشعر أن تفكيرها أصبح أكثر وضوحاً. بجانبها، جلس العميل برودر صامتاً، وهو يفكر على الأرجح بما آلت إليه الأمور. فكرت سينسكي - وهي ما زالت عاجزة عن تصديق ما يجري - لقد انقلب كل شيء رأساً على عقب.

منذ نصف ساعة، اقتحموا المطار الصغير لاعتراض لانغدون الذي كان ينبغي أن يستقل الطائرة الخاصة التي طلبها. لكن، عوضاً عن إيجاد البروفيسور، وجدوا الطائرة مع طيارين يزرعان المدرج ذهاباً وإياباً وهما يتحققان من الوقت. لكن لانغدون لم يصل. ثم أتت المكالمات الهاتفية.

كانت جالسة على المقعد الخلفي في السيارة كالعادة عندما دخل العميل برودر مدهوشاً وأعطاهما هاتفه.

"اتصال عاجل لك، سيدتي."

سألته: "ممن؟"

"طلب إخبارك أن لديه معلومات هامة عن بيرتراند زوبريست."

أخذت سينسكي الهاتف. "معك د. إليزابيث سينسكي."

"د. سينسكي، لم يسبق لنا أن التقينا، لكن منظمتي مسؤولة عن إخفاء بيرتراند زوبريست عنك طوال العام الفائت."

استقامت سينسكي فجأة. "كائنات من تكن، لقد كنت تخفي مجرماً؟"

"لم ترتكب عملاً غير قانوني، لكن هذا ليس -"

"حقاً! ألم تفعل!؟"

أخذ الرجل نفساً عميقاً، ثم تحدث بنبرة خافتة: "سيكون لدينا أنا وأنت مشع من الوقت لمناقشة أخلاقيات أفعالي. أعلم أنك لا تعرفيني، لكنني أعرف الكثير عنك. كان زوبريست يدفع لي مبالغ طائلة لأخفيه عنك وعن الآخرين طوال العام الفائت. وما أنا الآن أخرق بروتوكول منظمتي وأتصل بك لأنني أعتقد أن الخيار الوحيد أمامنا هو التعاون. أخشى أن يكون بيرتراند زوبريست قد ارتكب أمراً فظيماً."

لم تستطع سينسكي أن تتخيل من يكون هذا الرجل. "ألم تترك ذلك سوى الآن؟".
أجابها بجنبية: "أجل، هذا صحيح. الآن فقط أدركت ذلك".

حاولت سينسكي أن تهزّ خيوط العنكبوت. "من تكون؟".
"أنا شخص يريد تقديم المساعدة قبل فوات الأوان. لديّ رسالة فيديو صوّرها بيرتراند زوبريست، وطلب منّي أن أنشرها... غداً. وأعتقد أنّ عليك رؤيتها حالاً".
"ماذا تقول الرسالة؟".

"ليس عبر الهاتف، علينا أن نلتقي".
"كيف أتق بك؟".

"سأخبرك عن مكان روبرت لانغدون... ولماذا يتصرّف على هذا النحو الغريب".
أجفلت سينسكي عند سماعها اسم لانغدون، وأصغت بذهول إلى شرحه الغريب للأحداث.
يبدو أنّ هذا الرجل كان متواطئاً مع عدوّها خلال العام الماضي، لكنها عندما استمعت إلى التفاصيل، شعرت أنّ عليها الوثوق به.
ليس لديّ خيار آخر.

تعاونهما أدّى إلى استخدام طائرة نبت جيتس "الخالية". وهكذا، كانت سينسكي والجنود يسرعون باتجاه البندقية. فعلى حدّ قول ذاك الرجل، كان لانغدون ورفيقاه متجهين إلى هناك الآن؛ على متن القطار. وقد تأخّر الوقت لاستدعاء السلطات المحلية، لكنّ هذا الرجل يدّعي أنّه يعرف إلى أين يتوجّه لانغدون.

ساحة سان مارك؟! شعرت سينسكي بالقشعريرة وهي تتخيل حشود الناس في أكثر الأماكن اكتظاظاً في البندقية. "كيف عرفت ذلك؟".

أجابها الرجل: "لا أستطيع أن أخبرك عبر الهاتف، لكن عليك أن تعرفي أيضاً أنّ لانغدون يتنقّل عن غير قصد مع شخص خطير جداً".

سألته سينسكي: "من يكون؟".

أجاب الرجل متتهّداً: "إنّه أحد أقرب المقرّبين من زوبريست. إنّه شخص وثقت به عن تهوّر، لكنّه يشكّل الآن خطراً كبيراً".

في أثناء توجّه الطائرة إلى مطار ماركو بولو في البندقية، حاملة على متنها سينسكي والجنود الستة، أخذت سينسكي تفكّر بروبرت لانغدون. فقد ذاكرته! لم يعد ينكر شيئاً!! مع أنّ هذا الخبر يفسّر العديد من الأشياء، إلّا أنّه سبّب لسينسكي عذاباً أكبر بسبب توريط ذلك الأكاديمي الكبير في هذه الأزمة.

لم أترك له الخيار.

عندما قامت سينسكي بتجنيد لانغدون قبل يومين تقريباً، لم تسمح له حتّى بالعودة إلى البيت ليجلب جواز سفره. وعوضاً عن ذلك، قامت بالترتيبات اللازمة لمروبه بشكل هادئ عبر مطار فلورنسا، باعتباره أحد معارف منظّمة الصحة العالمية.

في أثناء تلك الرحلة، ومع ارتفاع طائرة C-130 في الجو، متجهة شرقاً عبر المحيط الأطلسي، نظرت سينسكي إلى لانغدون الجالس بجانبها ولاحظت أنه لا يبدو بخير. كان يحدّق إلى جدار الطائرة الخالي من النوافذ.

"بروفيسور، أنت تدرك أنّ هذه الطائرة من دون نوافذ؟ كانت تُستعمل حتّى وقت قريب كوسيلة نقل عسكرية".

التفت إليها لانغدون بوجه شاحب. "أجل، لاحظت ذلك منذ دخولي إليها. أنا لا أرتاح في الأماكن المغلقة".

"أنت تتظاهر إذا بالنظر من نافذة وهمية؟".

ابتسم بخجل وأجاب: "شيء من هذا القليل، أجل".

"حسناً، انظر إلى هذه الصورة عوضاً عن ذلك". وأخرجت صورة لعدّوها الطويل أخضر العينين ووضعتها أمامه. "هذا هو بيرتراند زوبريست".

سبق لسينسكي أن أخبرت لانغدون عن مواجهتها مع زوبريست في مجلس العلاقات الخارجية، وعن شغف الرجل بمعادلة الانهيار السكاني، وتعليقاته المنتشرة على نطاق واسع حول الفوائد العالمية للطاعون، والأهم من ذلك؛ عن اختفائه تماماً خلال العام الماضي.

سألها لانغدون: "كيف يمكن لشخص معروف مثله البقاء مختفياً طوال هذه المدة؟".

"لقد تلقى قدرأ كبيراً من المساعدة المهنية؛ ربّما حتّى من حكومة أجنبية".

"أي حكومة هي هذه التي تتغاضى عن صنع وباء؟".

"إنّها الحكومات نفسها التي تحاول شراء رؤوس حربية نووية من السوق السوداء. لا تنس أنّ الوباء الفعّال هو السلاح البيوكيميائي الأمثل، ويستحقّ ثروة. من الممكن أن يكون زوبريست قد كذب على شركائه وأكد لهم أنّ وباءه يمتاز بنطاق محدود. قد يكون هو الشخص الوحيد الذي يعرف ماهية اختراعه".

سكت لانغدون.

تابعت سينسكي: "على كلّ حال، إن لم يكن السبب هو السلطة أو المال، فقد يكون ثمة من ساعد زوبريست لأنّه يعتقد بأبيولوجيته. فهو لم يكن يفكر إلى الأتباع المستعدين لفعل أي شيء من أجله. لقد كان واسع الشهرة، وألقى محاضرة في جامعتكم منذ مدة قصيرة".

"في هارفرد؟".

تناولت سينسكي قلماً، وكتبت على طرف صورة زوبريست التي التقطتها له الحرف H مع علامة زائد. وسألته: "أنت بارع في تحليل الرموز. هل تعرف هذا الرمز؟".

H+

همس لانغدون: "بالتأكيد. فقبل بضع سنوات، كان منتشراً في كلّ أرجاء الجامعة، واعتقدت أنّها محاضرة كيميائية".

ضحكت سينسكي. "كلاً، هذا رمز للقفزة التي عُقدت عام 2010 تحت عنوان Humanity-plus، وهو أكبر تجمّع للحركة ما وراء الإنسانية".

شرد لانغدون وكأنه يحاول فهم العبارة.

قالت سينسكي: "إنها حركة فكرية، فلسفة من نوع ما، وهي تترسخ بسرعة في المجتمع العلمي. تنص أساساً على أنه ينبغي للإنسان استعمال التكنولوجيا لتجاوز نقاط الضعف الكامنة في أجسامنا البشرية. بعبارة أخرى، تتمثل الخطوة التالية في التطور البشري في إقدامنا على هندسة أنفسنا بيولوجياً".

قال لانغدون: "هذا لا يبشر بالخير".

"على غرار كلّ التغييرات، هذه مسألة درجات. عملياً، نحن نهندس أنفسنا منذ سنوات بفضل اللقاحات التي نطوّرها، والتي تجعل الأطفال أكثر مناعة تجاه أمراض معينة... كشلل الأطفال، والجدي، والتيفوئيد. لكن الفرق هو أنّ اكتشافات زوبريست في مجال هندسة السلالات الجرثومية ستجعل هذه المناعة موروثية، وذلك لأنها ستؤثر على المتلقي على مستوى السلالة الجرثومية، وستؤدّ كلّ الأجيال اللاحقة بمناعة ضدّ المرض".

فوجئ لانغدون. "إذاً، إنّ الجنس البشري سيتطوّر حيث يكتسب مناعة ضدّ التيفوئيد مثلاً؟".

صحّحت له سينسكي قائلة: "إنّه أقرب إلى تطوّر مراقب. عادة تستغرق هذه العملية آلاف السنوات لتحدث. لكن الآن، يمكننا إحداث تغييرات جينية جذرية خلال جيل واحد. يعتقد أنصار هذه التكنولوجيا أنّها التعبير الأمثل عن النظرية الداروينية بقاء الأقوى، إذ يصبح البشر جنساً يتعلّم تحسين عملية تطوّره".

أجاب لانغدون: "يبدو لي الأمر على قدر كبير من الأهمية".

قالت سينسكي: "أوافقك تماماً. غير أنّ زوبريست - شأنه شأن العديد من أعضاء الحركة العابرة للإنسانية - يعتقد أنّه من واجب البشر استخدام كلّ الوسائل المتاحة؛ كالتعديل الجيني للسلالات الجرثومية مثلاً، لكي يتحسّنوا. لكنّ المشكلة هي أنّ تكويننا الجيني مترابط، حيث إنّ إزالة سمة بشرية واحدة قد تؤدّي إلى تغيّر في مئات السمات الأخرى؛ محدثة نتائج كارثية ربّما".

وافقها لانغدون قائلاً: "لهذا السبب، إنّ التطوّر عملية بطيئة".

شعرت سينسكي أنّ إعجابها بالبروفيسور يزداد مع كلّ لحظة تمرّ. بالضبط! نحن أمام عملية استغرقت دهوراً لتتكوّن. هذه أوقات خطيرة. فنحن نستطيع الآن فعلياً تنشيط بعض المتواليات الجينية التي تمنح سلالتنا القوة، والقدرة على التحمّل، وذكاء أكبر؛ أي عرقاً خارقاً. وهؤلاء الأشخاص المحسّنون هم من يطلق عليهم اسم ما بعد البشر، وهو مستقبلنا نحن البشر كما يعتقد البعض".

أجاب لانغدون: "يبدو الأمر شبيهاً بعلم تحسين النسل".

تلك الملاحظة أجملت سينسكي.

في أربعينيات القرن الماضي، عكف العلماء النازيون على دراسة تكنولوجيا أطلقوا عليها اسم علم تحسين النسل، وحاولوا من خلالها استخدام الهندسة الوراثية البدائية لزيادة معدل ولادات الأشخاص الذين يملكون "صفات وراثية مرغوباً فيها"، وخفض معدل المواليد ذوي الصفات "غير المرغوبة".

تطهير على المستوى الجيني.

أقرت سينسكي: "ثمة أوجه شبه. ومع أنه من الصعب أن نتخيل كيف يمكن للمرء أن يهندس عرقاً بشرياً جديداً، إلا أن الكثير من الأشخاص الأنكياء يعتقدون أنه من الضروري لبقائنا أن نبدأ بهذه العملية. فأحد المساهمين في مجلة الحركة ما بعد الإنسانية وصف الهندسة الجينية للسلاطة الجرثومية بأنها الخطوة التالية الواضحة، كما ادعى أنها تجسد الإمكانيات الحقيقية لجنسنا". سكنت سينسكي ثم أضافت: "مع ذلك، تنشر المجلة نفسها مقالة تحت عنوان: أخطر فكرة في العالم".

قال لانغدون: "أعتقد أنني أوافقهم، على الأقل من وجهة نظر اجتماعية ثقافية".
"ماذا تقصد؟".

"أفترض أن تلك التعديلات الجينية - شأنها شأن الجراحة التجميلية - ستكون مكلفة".

"بالطبع، لن يكون بمقدور جميع الناس تحسين أنفسهم أو أطفالهم".

"هذا يعني أن التعديلات الجينية التي سيتم تشريعها ستوجد فوراً عالمياً من الأشخاص الذين يملكون المقدرة وآخرين لا يملكونها. نحن نعاني أساساً من شرخ متعاطف بين الأغنياء والفقراء، وستأتي الهندسة الجينية لتوجد عرقاً من البشر الخارقين و... عرقاً دونياً بنظرهم. تخيلي فقط أن نسبة الواحد بالمائة تلك هي فعلياً جنس متفوق؛ من حيث الذكاء، والقوة، والصحة أيضاً. سيكون ذاك الوضع وضعاً مثالياً للعبودية والتطهير العرقي".

ابتنمت سينسكي للأكاديمي الوسيم الجالس قربها. "بروفيسور، لقد فهمت فوراً حقيقة ما أعتقد أنه أخطر أوجه الهندسة الجينية".

"ربما فهمت ذلك، لكن زوبريست ما زال يحيرني. فالفكر الذي يعتد به يبدو أنه يسعى إلى تحسين البشرية، وجعلنا أكثر صحة، وعلاج الأمراض الفتالة، وزيادة العمر. إلا أن آراء زوبريست حيال الزيادة السكانية تؤيد قتل الناس كما يبدو. ألا تبدو لك أفكاره حيال ما بعد الإنسانية والزيادة السكانية متعارضة؟".

تتهذت سينسكي. كان السؤال وجيهاً، ومع الأسف، جوابه واضح ومزعج. "افتتح زوبريست من أعماق قلبه بالحركة ما وراء الإنسانية؛ أي تحسين الأنواع بواسطة التكنولوجيا. لكنه افتتح أيضاً أن جنسنا البشري سينقرض قبل أن نتاح له الفرصة لتحقيق ذلك. في الواقع، إن لم يتحرك

أحد منّا، فإنّ أعدادنا الزائدة ستقضي علينا قبل أن نتاح لنا الفرصة لإدراك فوائد الهندسة الجينية".

فوجئ لانغدون وسألها: "إذا، أراد زوبريست خفض أعداد البشر... لشراء المزيد من الوقت؟".

هزت سينسكي رأسها موافقة. "شبه نفسه مرّة بالمحتجز على سفينة يتضاعف عدد ركبائها كلّ ساعة، في حين أنّه يحاول يائساً صنع قارب نجاة قبل أن تغرق السفينة بفعل وزنها". صممت هنيهة ثمّ أضافت: "اقترح إلقاء نصف الركاب في البحر".

قال لانغدون: "يا لها من فكرة مخيفة!".

"لكنّ زوبريست يعتقد أنّ التدبير الجذري المتمثّل في خفض عدد السكّان سينتّزعه الناس يوماً ما على أنّه عمل بطولي... على أنّه اللحظة التي اختار فيها الجنس البشري البقاء".
"كما قلت، إنّها مخيفة".

"لا سيّما وأنّ زوبريست لم يكن بمفرده. فعندما مات، أصبح بطلاً بالنسبة إلى الكثير من الناس. لا أدري من سنواجه عندما نصل إلى فلورنسا، لكن علينا توخّي الحذر. لن نكون الوحيدة الذين يبحثون عن هذا الوفاء. لذا، حفاظاً على سلامتك، لا يجب أن يعرف أحد أنّك ذاهب إلى إيطاليا بحثاً عنه".

عندها، أخبرها لانغدون عن صديقه إغناسيو بوزوني المتخصّص في دانتّي والذي يظنّ أنّه سيساعده على دخول قصر فيكيو بعد ساعات العمل لتأمّل اللوحة التي تحتوي على عبارة *cerca trova*، الموجودة في الصور التي عرضها مسلاط زوبريست الصغير. وقد يساعده بوزوني أيضاً على فهم العبارة الغريبة المتعلقة بعيون الموت.

أبعدت سينسكي شعرها الفضّي الطويل إلى الخلف ونظرت إلى لانغدون قائلة: "من يبحث يجد، بروفيسور. الوقت ينفد".

توجّهت سينسكي نحو مخزن في الطائرة، وأحضرت الأنبوب الأكثر أماناً في منظّمة الصحة العالمية، المخصّص للمواد الخطرة، وكان مزوّداً بقفل بيومئري. وضعت العبوة أمام لانغدون وقالت: "أعطني إبهامك".
أطاعها لانغدون لكنّه استغرب.

برمجت سينسكي الأنبوب لكي لا يتمكّن أيّ شخص آخر غير لانغدون من فتحه، ثمّ وضعت المسلاط الصغير فيه.

قالت مبتسمة: "اعتبره خزانة محمولة".

بدا على لانغدون الانزعاج. "مع رمز للخطر البيولوجي؟".

"هذا هو الموجود. كما أنّ أحداً لن يجرؤ على العبث به".

استأنّتها لانغدون ليتمشّي قليلاً ويستخدم الحّمّام. عندما ذهب، حاولت سينسكي وضع

الأنبوب في جيب سترته، إلّا أنّه لم يتسّع له.

لا يمكن أن يحمل هذا المسلاط على مرأى من الناس. فكّرت للحظة، ثم عادت إلى المخزن وأحضرت مشرطاً وعدة تقطيب، وقامت بدقّة ومهارة بصنع شقّ في بطانة سترة لانغدون وخاطت فيها جيباً سرّياً بحجم الأنبوب.

عندما عاد لانغدون، كانت تغرز القطب الأخيرة. توقّف وحدّق إليها كما لو أنّها شوّهت الموناليزا. "هل قصصتِ بطانة سترة هاريس تويد؟". قالت: "استرخ بروفيسور. أنا جراحة مدريّة. قمت بخياطة القطب بطريقة مهنية جدّاً".

الفصل 68

محطة قطارات سانتا لوتشيا في البندقية عبارة عن بناء أنيق ومنخفض مكوّن من الحجارة الرمادية والإسمنت، تمّ تصميمه وفق نمط حديث وبسيط، مع واجهة خالية من أيّ لافتات؛ باستثناء رمز واحد هو عبارة عن الحرفين المجنّحين FS اللذين يمثلان رمز نظام سكك الحديد في الدولة؛ Ferrovie dello Stato.

بما أنّ المحطة تقع في الطرف الغربي لگران كانال، فإنّ الركّاب الذين يصلون إلى البندقية لا يمشون سوى خطوة واحدة خارج المحطة، ويجدون أنفسهم وسط مناظر البندقية، وروائعها، وأصواتها المميّزة.

بالنسبة إلى لانغدون، كان الهواء دائماً أوّل ما تلفت انتباهه؛ ذلك النسيم العذب المنكّه برائحة البيتزا التي يبعثها باعة الشارع خارج المحطة. اليوم، هبّ الهواء من الشرق، وحمل معه رائحة وقود الديزل المنبعثة من صفّ طويل من زوارق التاكسي المتوقّفة في الجوار في مياه غران كانال. راح عشرات البخّارة يلوّحون بأيديهم ويدعون السيّاح على أمل إغرائهم برحلة على متن مراكب التاكسي، أو الغوندول، أو الزوارق البخارية، أو المراكب السريعة الخاصة.

فكّر لانغدون وهو يرمق الازدحام المائي: فوضى في الماء. بطريقة ما، بدا الازدحام الذي يثير الجنون في بوسطن جميلاً هنا في البندقية.

على مرمى حجر في القناة، ترتفع قبة سان سيموني بيكولو في السماء بلونها الصدي. كانت الكنيسة واحدة من أكثر الكنائس انتقائية على الصعيد المعماري في أنحاء أوروبا كافة. فقبتّها شديدة الانحدار على نحو غير اعتيادي وحرمتها المستدير هما من النمط البيزنطي، في حين أنّ أعمدتها الرخامية بنيت على طراز المدخل الإغريقي الكلاسيكي للبانثيون الروماني. ويعلو المدخل الرئيس مثلث رائع من الرخام المزخرف الذي يضمّ مجموعة من التماثيل.

البندقية متحف في الهواء الطلق. هذا ما فكّر فيه لانغدون وهو ينظر إلى قناة الماء التي تمرّ قرب أدراج الكنيسة. إنّها متحف يغرق ببطء. مع ذلك، بدا احتمال الغرق غير هامّ مقارنة بالخطر الذي يترصّ الآن بالمدينة.

ولا أحد يعرف بذلك...

عاد إليه نصّ القصيدة المكتوبة على باطن قناع دانتلي، وتساءل عن المكان الذي ستقودهم إليه تلك الأبيات. كان قد احتفظ بالنصّ المكتوب في جيبه، لكنّه لفّ القناع بالجرائد، بناءً على اقتراح سيبّا، ووضعه في خزانة شخصية في محطة القطار. ورغم أنّ هذا المخبأ غير

مناسب إطلاقاً لتلك التحفة الثمينة، إلا أنه أكثر أمناً من حمل ذلك القناع الثمين والتجول به في مدينة مليئة بالماء.

كانت سيبينا قد سبقت مع فيريس، وأخذت تشير إلى قارب التاكسي. نادته قائلة: "روبرت، ليس لدينا وقت طويل".

أسرع لانغدون باتجاههما، مع أنه بصفته محباً للهندسة المعمارية وجد صعوبة في الإسراع عبر غران كانال؛ فتجارب البندقية التي تعد أكثر إمتاعاً من الصعود على متن الزورق البخاري رقم 1 قليلة؛ وهو وسيلة النقل المائي الرئيسة في المدينة، ويستحسن أن يكون ذلك ليلاً، وأن يجلس المرء في الهواء الطلق لتأمل الكاتدرائيات والقصور المضاءة وهو يمر من أمامها.

فكر لانغدون: لن نركب الفابريكو اليوم. فالزوارق البخارية معروفة ببطئها، والتاكسي المائي سيكون أسرع. مع الأسف، بدا صفّ مراكب التاكسي خارج محطة القطار طويلاً جداً في تلك اللحظة.

لم يكن فيريس بمزاج يسمح له بالانتظار، فأخذ الأمور على عاتقه. لذا، دفع مبلغاً سخياً، وطلب ليموزين مائية، وهي عبارة عن زورق مصقول مصنوع من خشب ماهوغاني جنوب أفريقي. ومع أن ذلك الزورق مفرط الأناقة، إلا أن الرحلة ستكون خاصة وسريعة، ولن تستغرق أكثر من ربع ساعة للوصول إلى ساحة سان مارك عبر غران كانال.

كان السائق رجلاً وسيماً للغاية، يرتدي بذلة أرماني متقنة الصنع. بدا أقرب إلى نجم سينمائي منه إلى سائق، لكن في النهاية هذه هي البندقية، أرض الأناقة الإيطالية.

قال الرجل وهو يرحب بهم ويغمر سيبينا: "ماوريتسيو بيمبوني. ماذا تشربون؟".

شكرته سيبينا، وطلبت منه بإيطالية سريعة إيصالهم إلى ساحة سان مارك بأسرع ما يمكن.

غمزها ماوريتسيو مجدداً وقال: "ما تشربون؟ زورقي هو الأسرع في البندقية...".

جلس لانغدون ورفيقاه على المقاعد الفخمة في الهواء الطلق، في حين شغل ماوريتسيو المحرك وتراجع عن الضفة ببراعة. أدار بعد ذلك المقود إلى اليمين وتقدم إلى الأمام ليمر بزورقه الكبير بين حشد من الغوندولات؛ مخلفاً وراءه مجموعة غاضبة من أصحاب الغوندولات المبتلين الذين راحوا يلوحون بقبضاتهم في الهواء، في حين راحت مراكبهم السوداء الرشيفة تعلق وتهبط بفعل الاضطراب الذي سببه خلفه في الماء.

صاح ماوريتسيو معتزلاً: "شكورتني! معي شخصيات هامة!".

خلال ثوانٍ، انطلق بهم ماوريتسيو بعيداً عن محطة سانتا لوتشيا، وتوجه شرقاً عبر غران كانال. عندما مروا من تحت جسر بونتي ديلي سكالزي، شم لانغدون الرائحة المميزة للطبق المحلي سبيبي/النيرو - وهو حبار معد بحبره - التي تصاعدت من المطاعم الموزعة على الضفة المجاورة. وعندما استداروا عند أحد منعطفات القناة، برزت أمامهم كنيسة سان جيورجيا الضخمة بقبتها الجميلة.

همس لانغدون وهو يقرأ اسم القديسة على النقش بجانب الكنيسة: "القديسة لوتشيا، عظام العمياء".

نظرت إليه سينيّا: "عفواً؟". أملت أن يكون قد عرف شيئاً عن القصيدة الغامضة. قال لانغدون: "لا شيء. خطرت لي فكرة غريبة، لكنّها قد لا تكون هامة". ثم أشار إلى الكنيسة وقال: "هل ترين النقش؟ القديسة لوتشيا مدفونة هناك. أحياناً ألقى محاضرات عن الفن الذي يصوّر القديسين المسيحيين، وتذكّرت أن القديسة لوتشيا هي قديسة العميان". تدخل ماوريتسيو قائلاً: "أجل، القديسة لوتشيا هي قديسة العميان! ألا تعرفون القصة؟". نظر إليهم السائق وصاح ليعلو صوته على صوت المحرّك. "كانت لوتشيا جميلة جداً ويرغب فيها كلّ الرجال. لذلك، ومن فرط حبّها لله، وحفاظاً على عذريتها، قامت باقتلاع عينيها". صدر عن سينيّا أنين وعظمت قائلة: "هذا هو الالتزام".

أضاف ماوريتسيو: "مكافأة لها على تضحيّتها، أعطاه الله عينيّن أكثر جمالاً!". نظرت سينيّا إلى لانغدون. "هو يدرك أن كلامه بلا معنى، أليس كذلك؟". أجابها لانغدون: "حكمة الله غامضة أحياناً". وراح يتخيّل أكثر من عشرين لوحة تصوّر القديسة لوتشيا حاملة عينيها على طبق.

على الرغم من وجود روايات عديدة لقصة القديسة لوتشيا، إلّا أنّها تتحدّث كلّها عن لوتشيا التي اُقتلعت عينيها رائعتي الجمال، ووضعتهما على طبق، وقدمتهما بتحدّ إلى الرجل الذي طلب يدها قائلة له: "إنهما أكثر ما رغبت فيه... والآن، أنا أتوسّل إليك أن تتركني بسلام!". والغريب أن لوتشيا استلهمت هذا العمل من الكتاب المقدّس كما يقال.

لاحظ لانغدون أن هذه الكلمة نفسها هي المستخدمة في القصيدة. ابحث عن دوج البنديقية الخائن الذي... اقتلع عظام العمياء.

حيّزته هذه المصادفة، وتساءل عما إذا كانت تلك إشارة مشفرة إلى أن القديسة لوتشيا هي العمياء المذكورة في القصيدة.

هتف لانغدون، مشيراً إلى كنيسة سان جبريميا: "ماوريتسيو، هل رفات القديسة لوتشيا موجودة في تلك الكنيسة؟".

أجاب ماوريتسيو وهو يقود بمهارة بإحدى يديه وينظر إلى الخلف للتحدّث مع ركّاب زورقه، متجاهلاً الازحام أمامه: "بعضها، أجل. لكنّ معظمها ليست هنا. فقد كانت القديسة لوتشيا محبوبة إلى حدّ أن رفاتها توزّعت على كنائس في مختلف أنحاء العالم. لكنّ أهل البنديقية هم أكثر من يحبّ القديسة لوتشيا بالطبع، ولذلك نحتفل -".

صاح فيريس: "ماوريتسيو! القديسة لوتشيا هي العمياء، وليس أنت. انظر أمامك!". ضحك ماوريتسيو والنفت إلى الأمام في الوقت المناسب ليتفادى بمهارة الاصطدام مع زورق آتٍ بالاتجاه المعاكس.

نظرت سينيّا إلى لانغدون: "إلام ترمي؟ الدوج الخائن الذي اقتلع عظام العمياء؟".

لوى لانغدون شفّيته. "ست وانثا".

ثم روى لسيينا وفيريس باختصار حكاية رفات القديسة لوتشيا، أي عظامها، التي كانت الأكثر غربة من بين قصص القديسين. إذ يُزعم أنه عندما رفضت لوتشيا الجميلة عرض رجل واسع النفوذ للزواج، أبلغ عنها، وتم حرقها، لكن جسدها لم يحترق - بحسب الأسطورة - لأن جلدتها كان مقاوماً للنار. واعتقد أن رفاتها تمتاز بقوة خاصة، وأن من يملكها يعيش حياة طويلة على نحو غير مألوف.

قالت سيينا: "عظام سحرية!".

"صدقي أو لا تصدقي. أجل، لهذا السبب انتشرت رفاتنا في مختلف أنحاء العالم. وحاول زعماء أقوياء لأفريقيين من الزمن محاربة التقدم في السن والموت بامتلاك عظام القديسة لوتشيا. فسُرقَت جثثها عدة مرّات، وقُسمَت أكثر من أي قديس في التاريخ. ويُعتقد أن عظامها مرّت بين أيدي عشرة أشخاص نافذين في التاريخ على الأقل".

سألته سيينا: "يمن في ذلك دوج خائن؟".

ابحث عن دوج البندقية الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقتلع عظام العمياء.

قال لانغدون: "هذا ممكن". ثم أدرك أن دانتي ذكر القديسة لوتشيا بوضوح في قصيدة الجحيم، وكانت واحدة من النساء الثلاث المباركات، لي تري دوتّي بينيديتي، اللواتي ساعدن على استدعاء فيرجيل لمساعدة دانتي على الخروج من العالم السفلي. وبذلك يكون دانتي قد وضع القديسة لوتشيا بمنزلة امرأتين تمتازان بمكانة عالية جداً.

قالت سيينا بحماسة: "إن كنت محققاً في ذلك، فإن الدوج الخائن نفسه الذي قطع رؤوس الخيل...".

أكمل لانغدون: "... قد سرق أيضاً عظام القديسة لوتشيا".

هرّت سيينا رأسها موافقة. "وهذا ما يضيق لائحة البحث بشكل كبير". نظرت إلى فيريس مضيفة: "هل أنت واثق أن هاتفك لا يعمل؟ ربما استطعنا إجراء بحث على الإنترنت من أجل -".

قاطعتها فيريس قائلاً: "لقد توقّف عن العمل تماماً، تحقّقت منه للتوّ. أنا آسف".

قال لانغدون: "سنصل قريباً، واعتقد أننا سنجد بعض الأجوبة في بازيليك سان مارك".

كانت بازيليك سان مارك قطعة الأحجية الوحيدة التي بدت مؤكّدة بالنسبة إلى لانغدون. موزيون الحكمة المقدّسة. كان لانغدون يعتمد على البازيليك لاكتشاف هوية الدوج الغامض... ومن هناك، منع شيء من الخطأ، سيكتشف أيضاً القصر الذي اختاره زوبريست لنشر الوباء منه. فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي.

حاول لانغدون أن يطرد من ذهنه صور الطاعون، لكن عبثاً. غالباً ما تسأل: كيف كانت هذه المدينة الرائعة في ذروتها... قبل أن يوهنها الطاعون بما فيه الكفاية ليستولي عليها العثمانيون، ومن بعدهم نابليون؟ كيف كانت البندقية في زمن شكّلت فيه المركز التجاري

لأوروبا بأسرها؟ من دون أدنى شك، لم تكن في العالم أي مدينة تضاهيها جمالاً ولا شعب يضاهي شعبها ثروة وثقافة.

من المفارقات، أنَّ حبَّ السكَّان للكماليات الأجنبية هو الذي جلب لهم الدمار؛ وذلك لأنَّ الطاعون القاتل انتقل من الصين إلى البندقية بسبب جردان اختبأت على متن السفن التجارية. وهكذا، انتقل الطاعون نفسه الذي قضى على ثلثي سكَّان الصين إلى أوروبا، وسرعان ما أودى بحياة ثلث السكان، ولم يفرِّق بين العجزة والشباب، أو بين الفقراء والأغنياء.

كان لانغدون قد قرأ وصفاً لحياة الناس في البندقية خلال نفْسي الطاعون. فمع انعدام الأراضي الجافة لدفن الموتى، أو قَلَّتْها، عامت الجثث المنتفخة في الأبنية، واكتظَّت بعض الأماكن بالجثث إلى حدِّ أنَّ العمال اضطروا إلى جزها مثل جنوح الأشجار لإيصالها إلى البحر. بدا للناس أنَّ الصلاة لم تعد تجدي لإطفاء غضب الطاعون. وعندما أدرك مسؤولو المدينة أنَّ الجردان هي التي تسبَّبت بالوباء، كان الأوان قد فات. مع ذلك، طبَّقت البندقية مرسوماً بقضي بأن ترسو كل السفن الواقعة بعيداً عن الشاطئ لمدة أربعين يوماً قبل أن يُسمح لها بإفراغ حمولتها. حتَّى هذا اليوم، ما زال العدد أربعون، أي *كارانتا* بالإيطالية، يُستخدم للتذكير بأصول كلمة *كارانتينا*.

مع تقدُّم الزورق بسرعة أكبر عند أحد منعطفات القناة، ظهرت مظلة حمراء زاهية ترفرف في الهواء، وجذبت انتباه لانغدون بعيداً عن أفكار الموت السوداء باتجاه بناء أنيق من ثلاثة طوابق يقع إلى اليسار.

كازينو البندقية: إحساس بلا حدود.

مع أنَّ لانغدون لم يفهم مطلقاً معنى الكلمات المكتوبة على لافتة الكازينو، إلَّا أنَّ ذلك القصر الجميل المبني في عصر النهضة شكَّل جزءاً من مشهد البندقية منذ القرن السادس عشر. كان في ما مضى قصرأ خاصاً؛ قبل أن يصبح كازينو، وشهد عام 1883، على وفاة الموسيقار ريتشارد فاغنر الذي سقط ميتاً إثر إصابته بذبحة قلبية بعد وقت قصير من تأليف *أوبرا باريسفال*، وذلك في إحدى قاعات القصر.

بعد الكازينو، إلى اليمين، ظهرت واجهة على نمط الباروكي تحمل لافتة أكبر حجماً تعلن بخط أزرق اللون، *كابيسارو: المعرض الدولي للفن الحديث*. قبل سنوات، دخل لانغدون المتحف، ورأى تحفة غوستاف كليمت - *القبلة* - عندما كانت معروضة على سبيل الإعارة من فيينا. أبهره ذلك العمل الرائع، ووُلد لديه شغفاً بأعمال الفنان. حتَّى هذا اليوم، ما زال يعترف بفضل متحف كابيسارو في إثارة اهتمامه بالفن الحديث مدى الحياة.

قاد ماوريتسيو الليموزين بسرعة أكبر في القناة العريضة.

أمامهم، ارتفع جسر رياتو الشهير الذي يقع في منتصف الطريق إلى ساحة سان مارك. عندما اقتربوا منه وأوشكوا على المرور من تحته، نظر لانغدون إلى الأعلى، ورأى شخصاً وحيداً يقف بلا حراك وراء الدرابزين، ويحدِّق إليهم بوجه متجهِّم.

كان الوجه مألوفاً... ومخيفاً.
تراجع لانغدون تلقائياً إلى الوراء.
كان الوجه طويلاً، ورمادي البشرة، ويمتاز بعينين بارزتين وأنف طويل معقوف.
مرّ القارب من تحت الجسر، وأدرك لانغدون أنّه لم يكن سوى سائح يضع واحداً من مئات
أقنعة الطاعون التي تباع كلّ يوم في سوق رياتو المجاورة.
لكن اليوم، لم يبدو ذلك القناع ساحراً على الإطلاق.

الفصل 69

تقع ساحة سان مارك في أقصى الطرف الجنوبي لغران كانال، حيث يصب الممر المائي في البحر. تشرف على هذا التقاطع الخطير قلعة مثلثة الشكل تحمل اسم دوغانا دامار، وتضم مكتب الجمارك البحرية، وقد استُخدم برج المراقبة فيها لحراسة البندقية من الغزو الخارجي في ما مضى. اليوم، استُبدل برج المراقبة بكرة ذهبية ضخمة ودوّارة لتحديد اتجاه الرياح؛ تذكر البحارة المتجهين إلى المحيط بتقلب الأقدار.

بينما كان ماوريتسيو يوجّه القارب الأنيق نحو آخر القناة، بدا لهم البحر بأواجه المتلاطمة. كان لانغدون قد مرّ بهذه الطريق مرّات عديدة من قبل، لكن على متن زورق بخاري أكبر بكثير. ولذلك شعر بشيء من عدم الارتياح مع تمايل قاربهم فوق الأمواج العالية.

للوصول إلى أحواض ساحة سان مارك، يجب أن يعبر قاربهم بحيرة مفتوحة تزدهم بمئات القوارب من الأنواع كافة؛ يخوت فاخرة، وناقلات نفط، ومراكب شراعية خاصة، وسفن سياحية ضخمة. شعر لانغدون وكأنّهم يخرجون من طريق ريفي إلى الطريق السريع.

بدا القلق أيضاً على سيبينا التي رمقت بخوف السفينة السياحية المؤلفة من عشرة طوابق، والتي مرّت من أمامهم في تلك اللحظة على بعد لا يتجاوز ثلاثمائة ياردة. كان سطح السفينة يزدهم بالركّاب الواقفين قرب الدرابزين ليلتقطوا صوراً لساحة سان مارك من المياه. خلف تلك السفينة، كان ثمة ثلاثة مراكب أخرى تتحين الفرصة للمرور من أمام أشهر المعالم السياحية في البندقية. كان لانغدون قد سمع أنّه في السنوات الأخيرة، تضاعف عدد السفن بسرعة؛ حيث إنّ أعداداً لا تحصى منها تعبر القناة ليل نهار.

تأمل ماوريتسيو من خلف المقود السفن القادمة، ثمّ نظر إلى اليسار ليحدّد موقع الحوض القريب. "هل تريدون النزول عند مطعم هاري؟". وأشار إلى المطعم الشهير باختراع البيليني. "إنه لا يبعد عن سان مارك سوى مسافة قصيرة سيراً على الأقدام".

قال فيريس؛ مشيراً إلى أحواض ساحة سان مارك. "كلّا، أوصلنا إلى هناك".

هرّ ماوريتسيو كتفيه قائلاً: "خيار جيّد. انتظروا قليلاً!".

علا صوت المحركات، وبدأت الليموزين تمرّ بين المراكب الأخرى إلى أن وصلت إلى الحوض المقصود. بدت السفن التي مرّوا قريباً أشبه بمبانٍ سكنية عائمة تقذف الزوارق الصغيرة خلفها كما لو أنها قطع فلين.

فوجئ لانغدون عندما رأى عشرات الغوندولات الأخرى تعبر الطريق نفسه. بدت المراكب التي يبلغ طول الواحد منها نحو أربعين قدماً تقريباً ووزنه حوالى ألف وأربعمئة باوند، ثابتة في وجه الأمواج على نحو لافت. كان يقود كلاً منها غناديلي ثابت القدمين، يقف على منصة على الجانب الأيسر من مؤخر السفينة، ويرتدي القميص التقليدي المخطّط بالأبيض والأسود، ويجذّف بمجذاف واحد معلق على الحافة اليمنى للمركب. حتّى في المياه الهائجة، كان واضحاً أنّ كلّ غوندول ينحرف إلى اليسار. وقد علم لانغدون أنّ السبب يعود إلى بناء القارب غير المتناظر. فجسم الغوندول ينحرف إلى اليمين، بعيداً على الغناديلي، وذلك لمقاومة ميل القارب نحو اليسار بفعل التجذيف من الجانب الأيمن.

أشار ماوريتسيو بفخر إلى أحد مراكب الغوندول وهم يمرّون قريبا. "هل ترون الإشارة المعدنية في المقدّمة؟". وأشار إلى الزخرفة الأنيقة البارزة على مقدّمة المركب. "إنّها الشيء المعدنيّ الوحيد في الغوندول، ويدعى فيزرو دي برون، أي حديد مقدّمة السفينة. إنّها صورة للبندقية!".

شرح لهم ماوريتسيو أنّ الزخرفة الشبيهة بالمنجل التي تزيّن مقدّمة الغوندول في البندقية لها معنى رمزي. فالحديد المقوّس يمثّل غران كانال، وأسنانه السّت تشير إلى مقاطعات البندقية الست، والنصل المستطيل يشير إلى خوذة دوج البندقية.

عادت أفكار لانغدون إلى المهمة التي تنتظرهم. الدوج. ابحث عن دوج البندقية الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقطع عظام العمياء.

نظر لانغدون إلى الشاطئ متراحي الأطراف أمامه، الذي تلقى عنده حديقة صغيرة مشجرة بأطراف الحوض. فوق الأشجار، ارتفع برج جرس سان مارك المستنق بأحجاره الحمراء تحت السماء الصافية، وبدا على سطحه تمثال ذهبي يحدّق إلى الأسفل من على ارتفاع ثلاثمئة قدم. في مدينة تخلو من المباني الشاهقة بسبب ميل تلك المباني إلى الغرق، يؤدّي برج جرس سان مارك دور منارة ملاحية لكلّ من يغامر في متاهة قنوات البندقية وممراتها. إذ تكفي نظرة إلى السماء لكي يرى المسافر التائه طريق العودة إلى ساحة سان مارك. ما زال لانغدون لا يصدّق أنّ هذا البرج الشاهق انهار عام 1902 مخلفاً كومة هائلة من الركام في ساحة سان مارك. ولم تسفر الكارثة سوى عن ضحية واحدة، ألا وهي قطعة.

يستطيع زوّار البندقية الإحساس بأجواء المدينة الفريدة من نوعها في أيّ عدد من الأماكن الرائعة، لكنّ المكان المفضل لدى لانغدون كان دائماً ريفا ديلي سكيافوني. كان المنتزه الحجري الواسع الواقع على ضفة المياه قد بُني في القرن التاسع عشر من الطمي، ويمتدّ من الأرسنال القديم وصولاً إلى ساحة سان مارك.

تحيط المقاهي الجميلة، والفنادق الفخمة، وحتّى كنيسة أنطونيو فيفالدي بالمنتزه الذي يبدأ عند الأرسنال؛ وهي الساحة القديمة في البندقية المخصّصة لبناء السفن. هناك، كانت راحة الصنوبر المتصاعدة من نسج الأشجار المغلي الذي يستخدمه بتّاو السفن لسدّ الثغرات في

مراكبهم تملأ الهواء. ويزعم أن زيارة ذلك المكان بالذات هي التي ألهمت دانتي أليغييري باستخدام أنهار الزيت المغلي كوسيلة للتعذيب في جحيمه.

انتقل نظر لانغدون إلى اليمين، على طول ضفة الريفاء، واستقر عند نهاية المنتزه. هناك، عند أقصى الطرف الجنوبي لساحة سان مارك يلتقي الرصيف بالبحر المفتوح. في عهد البندقية الذهبي، كان هذا الجرف يسمى بكل فخر "نهاية الحضارة".

اليوم، اصطف ما لا يقل عن مائة غوندول أسود أمام الضفة التي تلتقي فيها ساحة سان مارك بالبحر، والتي تمتد على طول 300 ياردة. كانت الأمواج تزجج المراكب التي راحت تعلو وتهبط أمام أبنية البياتزا الرخامية.

ما زال لانغدون يستغرب كيف أن هذه المدينة الصغيرة التي لا تزيد مساحتها عن ضعف مساحة سانترال بارك في نيويورك، قد خرجت من البحر، لتصبح أكبر وأغنى إمبراطورية في الغرب. مع اقتراب ماوريتسيو من وجهتهم، رأى لانغدون الساحة الأساسية مزدحمة بالناس. كان نابوليون قد وصف ساحة سان مارك بأنها "قاعة استقبال أوروبا". وكما يبدو، تضم هذه "القاعة" عدداً كبيراً جداً من الضيوف. بدت البياتزا وكأنها ستغرق تحت ثقل معجبيها.

همست سيبينا وهي تحقّق إلى حشود الناس: "يا إلهي!". لم يعرف لانغدون ما إذا كان خوفها ناتجاً عن اختيار زوبريست موقعاً يمتاز بهذه الكثافة السكانية لإطلاق وبائه... أم لأنها شعرت أن زوبريست كان محقاً في التحذير من مخاطر الزيادة السكانية.

تستقبل البندقية عدداً هائلاً من السياح كل عام؛ يقدر بنحو ثلث واحد بالمائة من سكان العالم، وقد بلغ هذا العدد حوالي عشرين مليون زائر في العام 2000. ومع مليار النسمة الذين أضيفوا إلى سكان الأرض منذ ذلك العام، فإن المدينة تنبأ الآن تحت ثقل ثلاثة ملايين زائر إضافي كل عام. والبندقية - شأنها شأن هذا الكوكب - ذات مساحة محدودة. ويوماً ما، لن تعود قادرة على استيراد ما فيه الكفاية من الطعام، وعلى التخلص من نفاياتها، وتأمين عدد كافٍ من الأسرة لجميع الناس الذين يرغبون في زيارتها.

وقف فريس بجوارهما، لكنّه لم ينظر إلى البرّ، بل إلى البحر؛ مراقباً السفن القادمة. سألته سيبينا بفضول: "هل أنت بخير؟".

"أجل، بخير... كنت أفكر وحسب". ثم استدار ونادى ماوريتسيو قائلاً: "ارسل بالليموزين أقرب ما يكون إلى سان مارك".

قال السائق: "لا مشكلة في ذلك! أعطني دقيقتين!". أصبحت الليموزين الآن أمام ساحة سان مارك، وارتفع قصر الدوج إلى يمينهم بشكل مهيب، حيث هيمن على الشاطئ.

يشكّل القصر نموذجاً ممتازاً عن الهندسة القوطية في البندقية، ومثالاً للأناقة والرقي المعماري. لا يمكن تشبيه أبراجه بأبراج قصور فرنسا أو إنكلترا. فقد بُني القصر بشكل

مستطيل، حيث يؤمن أكبر مساحة ممكنة في الداخل لاحتواء أفراد حكومة الدوج الكبيرة ومساعديه.

من المحيط، كانت واجهة القصر البيضاء الضخمة المبنية من الحجر الجيري ستبدو جافة لولا أنه تم تخفيف هذا التأثير عبر إضافة أروقة، وأعمدة، ولوجيا، وتقوب رباعية. تمتد النماذج الهندسية المصنوعة من الجير الوردي على الجهة الخارجية للقصر بأكمله لتذكر لانغدون بقصر الحمراء في إسبانيا.

عندما اقتربوا من المرسى أكثر، لاحظ فيريس مجموعة من الناس أمام القصر. كان المحتشدون متجمعين على جسر، وهم جميعاً يشيرون إلى قناة ضيقة في الأسفل تمر بين جزأين من قصر الدوج.

سأل فيريس بعصبية: "إلام ينظرون؟".

أجابت سيبّا: "إنه بونتي داي سوسبيري؛ جسر مشهور في البندقية".

نظر لانغدون إلى الجسر المكتظ، ورأى النفق الجميل الذي يمتد بين مبنيين. جسر التهّدات، تذكر لانغدون أحد أفلامه المفضلة في شبابه، ليتل رومانس، المستند إلى أسطورة تزعم أنه إن قبل العاشقان بعضهما تحت هذا الجسر عند مغيب الشمس، في الوقت الذي تُرفع فيه أجراس سان مارك، فسيحبّان بعضهما إلى الأبد. علقت هذه الفكرة الرومانسية العميقة في ذهن لانغدون طوال حياته. بالطبع، لم يكن أمراً سيئاً أن بظلة الفيلم كانت ممثلة جديدة في الرابعة عشرة من عمرها تدعى ديان لاين، وقد افْتُتِن بها لانغدون على الفور... ويقرّ أنه لم يتخلّص تماماً من هذا الافتتان حتى اليوم.

لاحقاً، دُعر لانغدون لدى معرفته أن جسر التهّدات لا يستمد اسمه من تهّدات العاشقين... بل من تهّدات البؤس. إذ تبين أنه يربط بين قصر الدوج وسجنه الذي كان السجناء يموتون فيه، وتتردّد أصداًء أُنينهم ومعاناتهم من النوافذ على طول القناة الضيقة.

كان لانغدون قد زار السجن مرّة، وفوجئ لدى معرفته أن الزنازين الأكثر فظاعة لم تكن تلك الموجودة على مستوى الماء، والتي غالباً ما كانت تُغمر بالمياه، بل تلك المجاورة لها، التي تقع في الطابق الأعلى من القصر، والتي تسمّى بيومبي بسبب سطحها المغطى بالرصاص، والذي يجعلها حارقة في الصيف وقارسة البرد في الشتاء. وقد سُجن في إحداها العاشق الشهير كازانوفّا بتهمة الخيانة والتجسس، وعاش فيها خمسة عشر شهراً ليتمكّن من الهرب لاحقاً بعد أن خدع سجنانه.

صاح ماوريتسيو لقائد أحد الغوندولات لينتبه فيما كان يدخل الليموزين الحوض الذي غادره الغوندول للتوّ. كان قد وجد بقعة خالية أمام فندق دانييلي، على بعد مائة ياردة فقط من مساحة سان مارك وقصر الدوج.

ألقي ماوريتسيو حبلاً حول دعامة، ثم قفز إلى الشاطئ. وعندما ثبت الليموزين، عاد ومدّ يده إلى القارب لمساعدة الركّاب على النزول.

شكر لانغدون الإيطالي وهو يسحبه إلى الضفة بعضلاته المفتولة.
تبعه فيريس الذي بدا مشنّأً، ونظر مجدداً إلى البحر.
كانت سيبينا هي الأخيرة. ساعدها البحار الوسيم، وحنق إليها مطولاً وكأنه يعني ضمناً أنها
ستمضي وقتاً أجمل بكثير إن تخلّت عن رفيقها وبقيت معه على المركب. لكن بدا أنّ سيبينا لم
تلاحظ نظراته.

قالت وهي تنظر إلى قصر الدوج: "غرّاسي، ماوريسيو".
ومن دون إضاعة الوقت، قادت لانغدون وفيريس بين الحشود.

الفصل 70

يقع مطار ماركو بولو الدولي، الذي يحمل اسم الرحالة الشهير، على بعد أربعة أميال شمال ساحة سان مارك، على ضفة لاغونا فينيستا.

بفضل مزايا السفر الخاص جواً، وصلت إليزابيث سينسكي قبل عشر دقائق من الوقت المحدد، وهي الآن تعبر البحيرة على متن مركب أسود من نوع دويوا SR52 بلاكبيرد، أرسله الغريب الذي اتصل بها.

العميد.

شعرت سينسكي، بعد جلوسها الطويل على المقعد الخلفي لسيارة الفان طوال اليوم، بالنشاط في الهواء الطلق المشبع برائحة البحر. التفتت نحو الهواء المالح، وتركت يداعب شعرها الفضفي. مرّت ساعتان تقريباً منذ آخر حقنة تلقّتها، وللمرة الأولى منذ الليلة الماضية شعرت أنّها عادت إلى طبيعتها.

جلس العميل برودر إلى جانبها مع فريقه. لم يتكلّم أيّ منهما. إن كانت لحيهما أيّ مخاوف حيال هذا اللقاء غير الاعتيادي، فقد أدركا أنّ أفكارهما ليست مهمة، إذ لم يكن القرار بأيديهما.

مع تقدّم القارب، لاحت في الأفق جزيرة كبيرة إلى اليمين، انتشرت على سواحلها مباني الطوب ومداخل المصانع. مورانو، الشهيرة بمصانع نفخ الزجاج اللامع.

فكرت في سرّها: لا أصنّق أنّني عدت، وشعرت بغصّة كبيرة. دورة كاملة.

منذ سنوات، عندما كانت في كلية الطبّ، أتت إلى البندقيّة مع خطيبها، وقاما بزيارة متحف الزجاج في مورانو. هناك، رأت خطيبها زينة جميلة لغرف الأطفال من الزجاج، فعلق ببراءة أنّه يرغب في تعليق واحدة مثلاً يوماً ما في غرفة طفلهما. عندئذ، شعرت بالذنب لأنّها خبأت عنه سرّاً مؤلماً لفترة طويلة، فأخبرته أخيراً بإصابتها بالربو في طفولتها والعلاجات المرتكزة على الغلو كوكورتيكويد التي وُصفت لها ودُمّرت جهازها التناسلي.

لم تعرف إليزابيث ما إذا كان عدم صدقها أو عقمها ما حول قلب ذلك الشاب إلى حجر. لكن بعد أسبوع واحد، غادرت البندقيّة من دون خاتم الخطوبة.

ذكراها الوحيدة من تلك الرحلة هي التميّة التي تعلّقها حول عنقها، كان صولجان أسكليبيوس رمزاً للطبّ، الطبّ الفاشل في حالتها، لكنّها تضعها منذ ذلك الحين.

تميمتي الغالية، هدية الوداع من رجل أراد أن أنجب أطفاله.

اليوم، لم تجد جزر الهندية رومانسية، ولم تولد قراها المعزولة فيها أحاسيس الحب، بل ذكّرتها بمستعمرات الكارانتينا التي أقيمت فيها في الماضي في محاولة للتصدّي للموت الأسود. مع مرور البلاكيرد من أمام جزيرة سان بييترو، لاحظت إليزابيث أنهم يتوجّهون نحو سفينة رمادية ضخمة، بدت راسية في قناة عميقة بانتظار وصولهم. بدت السفينة الرمادية المعدنية وكأنّها تنتمي إلى برنامج عسكري سري أميركي. أمّا الاسم الذي يظهر على السفينة فلم يكن يعطي أيّ إشارة إلى نوع السفينة.

الميند/سيوم؟

اقتربوا من السفينة تدريجيّاً، ورأت سينسكي على متنها رجلاً قصير القامة، أسمر البشرة، يراقبهم عبر المنظار. عندما وصل القارب إلى المنصة الخلفية للميند/سيوم، نزل الرجل السالم لاستقبالهم.

صافحها الرجل بهذيب، ولاحظت أنّ يديه ناعمتان ولا تتاسبان يدي بحار. "د. سينسكي، أهلاً بك. أشكرك لمجيئك. اتبعيني من فضلك".

صعدت المجموعة عدّة طوابق، ولمحت سينسكي في طريقها عدة حجرات يعمل فيها أشخاص. كانت هذه السفينة الغربية مليئة بالناس، وكلّهم يعملون.

على ماذا؟

تابعوا صعودهم، وسمعت سينسكي في أثناء ذلك محرّكات السفينة وهي تدور، ثمّ ظهر أثر عميق في الماء عندما بدأ اليخت يتحرّك مجدداً.

تساءلت بقلق: إلى أين نذهب؟

قال الرجل للجنود: "أودّ التحدّث مع د. سينسكي على انفراد". ثمّ نظر إليها مضيقاً: "إنّ كان هذا يناسبك".

هزّت إليزابيث رأسها موافقة.

قال برودر: "سيدي، أتمنّى أن يقوم طبيب السفينة بفحص د. سينسكي، فهي تعاني من -".

قاطعتها سينسكي قائلة: "أنا بخير، حقاً. شكراً لك".

رمى العميد برودر مطوّلاً، ثمّ أشار إلى طاولة طعام وشراب تحضّر على سطح المركب. "استرح قليلاً، فأنت بحاجة إلى ذلك. ستعود إلى اليايسة قريباً".

ومن دون قول المزيد، استدار العميد وقاد سينسكي إلى مكتب أنيق، ثمّ أغلق الباب خلفهما.

"هل ترغبين في بعض الشراب؟".

رفضت بإيماءة من رأسها وهي لا تزال تحاول استيعاب محيطها الغريب. من يكون هذا الرجل؟ ماذا يفعل هنا؟

قال وهو يتأمّلها: "هل تعرفين أنّ عميلي بيرتراند زوبريست كان يسمّيك الشيطانة ذات الشعر الفضي؟".

لديّ أنا أيضاً أسماء مختارة له".

ذهب الرجل إلى مكتبه وتناول كتاباً ضخماً. "أودّ أن تلقى نظرة على هذا".
اقتربت منه سينسكي ونظرت إلى المجلّد. جسيم دانتني؟ تذكرت صور الموت المرعبة التي
عرضها عليها زوبريست في لقائهما الأخير في مجلس العلاقات الخارجية.
"أعطاني إياه زوبريست قبل أسبوعين، وثمّة إهداء عليه".
تأمّلت سينسكي النص المكتوب بخط اليد على صفحة العنوان. كان موقعاً باسم
زوبريست.

صديقي العزيز، شكراً لك لمساعدتي على إيجاد الطريق.
العالم يشكرك أيضاً.

شعرت سينسكي بقشعريرة. "ما هو الطريق الذي ساعدته على إيجاده؟".
"لا أدري، أو بالأحرى لم أكن أدري".
"والآن؟".

"الآن، خرقت البروتوكول الخاص بي... واتّصلت بك".

لم تكن سينسكي في مزاج ملائم للتلميحات. "سيدي، أنا لا أعرفك ولا أعرف ما تفعله على
هذه السفينة، لكنك تدّين لي بتفسير. أخبرني لماذا أخفيت رجلاً ملاحقاً من قبل منظّمة الصحة
العالمية".

على الرغم من نبرة سينسكي الحادة، أجابها الرجل هامساً: "أدرك أننا كنّا نعمل أنا وأنت
لأهداف متعارضة، لكنني أقترح أن ننسى الماضي. برأيي، المستقبل هو ما يحتاج إلى اهتمامنا
الفوري".

عندئذ، تناول الرجل شريحة ذاكرة حمراء صغيرة وأدخلها في جهاز الكمبيوتر، ثم أشار لها
لتجلس قائلاً: "لقد أعدّ بيرتراند زوبريست هذا الفيلم على أمل أن أنشره له غداً".
وقبل أن تتمكّن سينسكي من الإجابة، أظلمت شاشة الكمبيوتر، وسمع خرير مياه. خرج
من الظلام مشهد وبدأ يتّضح تدريجياً... قلب كهف مغمور بالماء... وكأنه بركة تحت الأرض.
والغريب أنّ الماء بدا وكأنه مضاء من الأسفل... إذ كان يتوهّج بلون قرمزي غريب.
تواصل الفيلم، ومالت الكاميرا إلى الأسفل، ثم غاصت في الماء، وركّزت الصورة على
أرض الكهف المغطاة بالطمي. هناك في القعر، ظهرت لوحة مستطيلة لامعة تحمل نقشاً لتاريخ
واسم.

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغيّر العالم إلى الأبد.

كان التاريخ هو تاريخ الغد، والاسم هو اسم بيرتراند زوبريست.
شعرت سينسكي برعشة وسألته: "ما هذا المكان؟! وكيف يقع؟".
تتهّد العميد وبدا عليه القلق والخيبة. "د. سينسكي، كنت آمل أن أجد عندك جواباً عن هذا السؤال".

على بعد ميل واحد، من على ممشى ريفاً ديلبي سكيافوني المقابل للبحر، تغيّر مشهد
البحر قليلاً. فمن يمعن النظر، يَرّ يختاً رمادياً ضخماً يقترب من البرّ من ناحية الشرق. كان
متّجهاً الآن إلى ساحة سان مارك.
إنّه المينداسيوم، سرت رعشة خوف في جسد F2-2080 عند إدراكه ذلك.
لا يمكن لأحد أن يخطئه.
العميد قادم... والوقت ينفذ.

الفصل 71

مرّ لانغدون وسيينا وفيريس بين حشود الناس على ريفا ديلي سكيافوني، على ضفة المياه، وشقوا طريقهم في ساحة سان مارك، إلى أن وصلوا إلى أقصى الطرف الجنوبي الذي تلتقي فيه البياتزا بالبحر.

هناك، كانت حشود السياح كثيفة جداً حيث ينعذر اختراقها، فشعر لانغدون بالاختناق بين الناس الذين يقتربون لتصوير العمودين الضخمين القائمين عند حدود الساحة. المدخل الرسمي للمدينة. هذا ما فكر فيه لانغدون ساخراً، لعلّهم أن هذا المكان قد استخدم أيضاً لتنفيذ أحكام الإعدام العلنية حتى أواخر القرن الثامن عشر. فوق أحد العمودين، رأى تمثالاً غريباً للقديس ثيودور؛ إذ يقف بفخر مع التّين المذبوح بحسب الأسطورة الشهيرة، الذي بدا دائماً بالنسبة إلى لانغدون أقرب إلى تمّساح. فوق العمود الثاني، كان تمّة رمز معروف للبندقية، الأسد المجنّح. يمكن رؤية الأسد المجنّح في مختلف أنحاء المدينة وهو يضع إحدى قوائمه بفخر على كتاب مفتوح نُقِشت عليه باللاتينية عبارة *Pax tibi Marce, evangelista meus*. بحسب الأسطورة، قال هذه الكلمات ملاك عند وصول سان مارك إلى البندقية، وأخبره أن جيّته ستدفن هنا يوماً ما. وقد استخدمت هذه الأسطورة الملفقة لاحقاً من قبل أهالي البندقية لتبرير سرقة رفات سان مارك من الإسكندرية، وإعادة دفنه في بازيليك سان مارك. ظلّ الأسد المجنّح حتى هذا اليوم رمز المدينة، ويمكن رؤيته في كلّ مكان.

أشار لانغدون إلى اليمين عبر ساحة سان مارك وقال: "ما رأيكما أن نفترق هنا ونلتقي عند مدخل البازيليك؟".

وافق الاثنان الآخران، وأخذوا جميعاً يمشون عند أطراف الحشد متّبعين الجدار الغربي لقصر الدوج في الساحة. بدت حمائم البندقية الشهيرة في أفضل حال، على الرغم من القوانين التي تمنع إطعامها. كان بعضها ينقر الأرض قرب أقدام السياح، في حين انقضّت حمائم أخرى على المقاهي المفتوحة للاستيلاء على الخبز الموضوع في سلال وإزعاج النّذل. خلافاً لمعظم ساحات أوروبا، لم تكن هذه الساحة مرتبة، بل على شكل L. كانت الجهة الأكثر قصراً المعروفة باسم *بياتريتا* تربط البحر ببازيليك سان مارك. بعد ذلك، تتعطف الساحة بزواية تسعين درجة وتمتدّ من البازيليك إلى متحف كورير. لكن، عوضاً عن الامتداد بشكل مستقيم، تتخذ الساحة شكل مربع شبه منحرف وغير منتظم، يضيق إلى حدّ كبير عند أحد أطرافه. وهذا الشكل

جعل البياتزا تبدو أطول مما هي عليه في الواقع، بسبب شبكة البلاط التي تمتد على حدود الأكشاك الأصلية لتجّار الشارع في القرن الخامس عشر.

بينما تابع لانغدون طريقه نحو الزاوية التي تتعطف الساحة عندها، رأى أمامه مباشرة الزجاج الأزرق لبرج ساعة سان مارك؛ وهو البرج الشاهق نفسه الذي رمى جايمس بوند من فوقه أحد الأشرار في فيلم مونراكر.

في اللحظة التي دخل فيها لانغدون الساحة المحمية، استطاع أن يقدّر أهم مزايا تلك المدينة وأكثرها فريدة.

الصوت.

ففي ظلّ غياب السيّارات والعربات ذات المحركات بأنواعها كافة، كانت البندقية تمتاز بانعدام ازدحام حركة المرور المعتادة، وغياب قطارات الأنفاق، وأبواق السيّارات؛ الأمر الذي يترك مساحة سمعية للمزيج غير الآلي من الأصوات البشرية، وهديل الحمام، وعزف الكمنجة في المقاهي المفتوحة. بدت البندقية مختلفة عن أيّ مركز حضري في العالم.

مع تسلّل أشعة شمس ما بعد الظهيرة إلى ساحة سان مارك من الغرب، ملقاة ظلالاً طويلة عبر الساحة المرصوفة، نظر لانغدون إلى برج الأجراس الشاهق الذي هيمن على الساحة وعلى أفق البندقية القديمة. كان الطابق العلوي من البرج مكتظاً بمئات الأشخاص. مجرد فكرة تواجده هناك سبّبت له الارتعاش، فأخفض رأسه وتابع سيره وسط البحر البشري.

تمكّنت سيبينا بسهولة من اللحاق بلانغدون، لكنّ فيريس كان متأخراً عنهما، فقرّرت أن تقسم فرق المسافة بالنصف. غير أنّ المسافة بينهم أصبحت أكبر، فنظرت إلى الخلف بنفاد صبر. أشار فيريس إلى صدره، وطلب منها متابعة النّقْدَم.

أطاعته سيبينا وحسّت خطأها خلف لانغدون إلى أن غاب فيريس عن نظرها. لكن، راودتها شكوك غريبة في أنّ فيريس كان يتأخّر عمدًا...

تعلمت سيبينا منذ زمن طويل أن تثق بحدسها. ولهذا، اختبأت جانباً، واسترقت النظر من بين الحشود خلفها بحثاً عن فيريس.

أين ذهب؟!

شعرت وكأنّه لم يعد يحاول حتّى اللحاق بهما. تأملت الوجوه، وأخيراً رآته. فوجئت حين رآته متوقفاً، وقد انحنى وراح يضغط على أزرار هاتفه.

الهاتف نفسه الذي قال إنّ بطّاريته قد فرغت.

تملّكها خوف عميق، وأدركت مجدداً أنّ عليها أن تثق بإحساسها.

لقد كذب عليّ في القطار.

تسألت عما يفعله. هل يبحث برسالة سرية إلى أحد ما؟ أم يجري بحثاً من وراء ظهرها؟
هل يحاول حل لغز قصيدة زوبريست قبل لانغدون وسيينا؟
أيّا يكن ما يجول في ذهنه، فقد كذب عليها بكل تأكيد.
لا يمكنني الوثوق به.

تسألت سيينا عما إذا كان يجدر بها مواجهته، لكنها قرّرت متابعة طريقها قبل أن يراها.
فتوجّهت مجدداً نحو البازيليك بحثاً عن لانغدون. على تحذيره من كشف أي شيء آخر لفيريس.
كانت على بعد خمسين ياردة من البازيليك عندما شعرت بيد قوية تشدّ سترتها من الخلف.
استدارت لتجد نفسها وجهاً لوجه مع فيريس.
كان الرجل المصاب بالطفح الجلدي يلهث بقوة، ومن الواضح أنه ركض للحاق بها. رأت
في عينيه نظرة خوف لم تعهدها من قبل.
قال لها وهو يتنفس بصعوبة: "آسف، لقد ضعت في الزحام".
في اللحظة التي نظرت فيها سيينا إلى عينيه، عرفت أنه يخفي شيئاً.

عندما وصل لانغدون إلى بازيليك سان مارك، استغرب عدم وجود مرافقيه خلفه. فوجئ
أيضاً بسبب غياب صف السياح الذين ينتظرون عادةً لدخول الكنيسة. غير أنه أدرك أن معظم
السياح يشعرون بالخمول في هذا الوقت من العصر بعد وجبات الباستا الثقيلة، ويقرّرون التترّه
في الساحات، أو شرب القهوة عوضاً عن محاولة استكشاف المزيد من المعالم التاريخية.
افترض لانغدون أن سيينا وفيريس سيصلان في أي لحظة، فحوّل نظره إلى مدخل
البازيليك أمامه. يَتهَم البناء أحياناً بأنه يمتاز بمدخله المفرطة في الإرياك، وذلك لأن واجهته
تحتلها بأكملها تقريباً مجموعة من خمسة مداخل مجوّفة، ومزوّدة بأعمدة مزخرفة وقناطر مقببة
وأبواب برونزية مفتوحة تجعل البناء يبدو مضافاً على نحو لا جدال فيه.
تُعتبر بازيليك سان مارك من أجمل نماذج العمارة البيزنطية في أوروبا، إذ تمتاز بشكلها
الناعم والغريب. خلافاً لأبراج نوتردام أو شارتر، بدت البازيليك مهيبة، ولكنها أكثر تواضعاً. كان
عرضها يزيد عن طولها، وتعلوها خمس قبب بيضاء تضيء عليها جمالاً مميّزاً يجعلها أشبه
بقالب حلوى الميرينغ؛ كما تذكر بعض الكتيبات السياحية.

على سطح الكنيسة ارتفع تمثال لسان مارك يطلّ على الساحة التي تحمل اسمه، ويضع
قدميه على قنطرة مطلية بالأزرق الداكن ومزينة بنجوم ذهبية. أمام هذه الخلفية، يظهر الأسد
المجَنّح الذهبي الذي يُعتبر جالب حظّ للمدينة.

لكن، تحت الأسد الذهبي، تعرض سان مارك أشهر كنوزها؛ وهو عبارة عن أربعة أحصنة
نحاسية كانت في تلك اللحظة تلمع تحت الشمس.

خيول سان مارك.

كان تلك الخيول التي تبدو وكأنها تستعدّ للقفز في أي لحظة في الساحة قد نُهبت - شأنها شأن الكثير من الكنوز الموجودة في البندقية - من القسطنطينية في أثناء الحملات الصليبية. وثمة تحفة أخرى تمت سرقتها من القسطنطينية معروضة تحت الأحصنة في الزاوية الجنوبية الغربية للكنيسة، وهي عبارة عن تمثال منحوت من الحجر السماقي. كان التمثال يفنّد إلى قدم كُسرت أثناء نهبه من القسطنطينية في القرن الثالث عشر. وفي ستينيات القرن العشرين، تمّ العثور بأعجوبة على القدم في إسطنبول، فطالبت البندقية بالجزء المفقود من التمثال، لكنّ السلطات التركية أجابت برسالة بسيطة: *أنتم سرقتم التمثال، ونحن سنحتفظ بقدمنا.*

لفت نظره صوت امرأة تقول: "سيدي، هل تشتري؟".

نظر لانغدون إلى مصدر الصوت فرأى عجربة تحمل عموداً طويلاً عُقّت عليه مجموعة من أقنعة البندقية. كان معظمها من أقنعة فولتو/نتيرو البيضاء الكاملة التي تضعها النساء في الكارنفال. ورأى بينها أيضاً مجموعة من الأقنعة النصفية والمتلثة وقناع موريتا. على الرغم من مجموعتها النابضة بالألوان، إلا أنّ ما استحوذ على انتباه لانغدون قناعٌ واحد أسود اللون مائل إلى الرمادي، معلق على أعلى العمود. شعر لانغدون أنّ العينين المبتتين تحدّقان إليه مباشرة من فوق الأنف الطويل المعقوف.

طبيب الطاعون. أشاح لانغدون بنظره عنه، وذلك لأنّه لم يكن بحاجة إلى من يذكره بسبب وجوده في البندقية.

كرّرت العجربة: "هل تشتري؟".

ابتسم وهزّ رأسه قائلاً بالإيطالية: "إنّها جميلة جدّاً، لكن كلاً، شكراً".

رحلت المرأة، وتبعّت عينا لانغدون قناع الطاعون وهو يهتّزّ عالياً فوق رؤوس المحتشدين. تنهّد، ونظر مجدداً إلى الأحصنة النحاسية الأربعة في الطابق الثاني للبازيليك. فجأة، اتّضح له الأمر.

شعر لانغدون أنّ الصور تتزاحم فجأة في عقله؛ أحصنة سان مارك، أقنعة البندقية، والكنوز المنهوبة من القسطنطينية.

همس: "يا إلهي، هذه هي!".

الفصل 72

تَسْمَر لانغدون في مكانه من هول المفاجأة.

خيول سان مارك!

ذَكَرَتْه هذه الأحصنة الأربعة الرائعة، بأعناقها الجميلة وأطواقها الرائعة، بأمر مفاجئ وغير متوقَّع يفسِّر عنصراً حيوياً في القصيدة الغامضة الموجودة على قناع دانتي.

كان لانغدون قد حضر مرّة حفل زفاف في مزرعة رونيميد التاريخية في نيوهامشاير. تضمّن الاحتفال عرضاً مذهلاً لفرقة الخيل المسرحية يحمل اسم "خلف القناع". كان عرضاً جميلاً قام خلاله الخيَّالون بأداء رائع مرتدين الزيّ البندقي، وأخفوا وجوههم خلف أقنعة فولترو / إنتيرو. استخدمت الفرقة خيولاً فريزيانية جميلة، لم يسبق للانغدون أن رأى خيولاً بحجمها. راحت تلك الخيول الضخمة تعدو في الحقل بعضلاتها القوية، وحوافرها المكسوّة بالوبر، وأعرافها الطويلة تتطاير خلف أعناقها الطويلة الجميلة.

لشدة جمال تلك الخيول، أجرى بحثاً عنها على الإنترنت بعد عودته، واكتشف أنّها كانت مفضّلة لدى ملوك القرون الوسطى في الحروب، وكانت على وشك الانقراض في السنوات الأخيرة. كان اسمها الأصلي /يكوس روبوستوس، وهي تسمّى اليوم خيولاً فريزيانية؛ نسبة إلى موطنها الأصلي، فريزلاند، وهي مقاطعة ألمانية تُعتبر مسقط رأس الفنان اللامع س. م. إيشير. يبدو أنّ قوّة أجساد الخيول الفريزيانية الأولى، شكّلت مصدر إلهام لخيول سان مارك في البندقية. واستناداً إلى الموقع، كانت خيول سان مارك جميلة جداً إلى حدّ أنّها أصبحت "أكثر التحف الفنّية تعرّضاً للسرقة عبر التاريخ".

لطالما اعتقد لانغدون أنّ هذا الشرف المشكوك فيه ينتمي إلى مذبح غينيت، فقام بزيارة سريعة لموقع ARCA للتأكد من هذه النظرية. لم تؤكّد جمعية البحوث في الجرائم ضدّ الفنّ شيئاً بهذا الخصوص، لكنّها أوردت سرداً موجزاً عن تاريخ تلك المنحوتات التي كانت هدفاً للنهب والسرقة.

تمت صناعة الخيول النحاسية الأربعة في القرن الرابع على يد نحّات يوناني مجهول الهوية على جزيرة كيوس، وبقيت هناك إلى أن نقلها ثيودوسيوس الثاني إلى القسطنطينية لعرضها في الهييودروم. وفي الحملة الصليبية الرابعة، عندما نهب جنود البندقية القسطنطينية، طلب اللوج الحاكم نقل التماثيل الثمينة بحراً إلى البندقية، وشكّل ذلك إنجازاً مستحيلاً نظراً لوزنها وحجمها. وصلت الخيول إلى البندقية عام 1254، ونُصبت أمام واجهة كاتدرائية سان مارك.

بعد نصف ألفية، في عام 1797، استولى نابليون على البندقية وأخذ الأحصنة لنفسه. فُنقلت إلى باريس، وعُرضت فوق قوس النصر. أخيراً، عام 1815، وبعد هزيمة نابليون في واترلو والحكم عليه بالنفي، تمّ إنزال الأحصنة عن قوس النصر ونقلها بحراً إلى البندقية، ليعاد نصبها على الشرفة الأمامية لبازيليك سان مارك. ومع أنّ لانغدون كان مطلعاً على تاريخ الأحصنة، إلّا أنّ ما اطلع عليه على الموقع الإلكتروني تضمّن مقطعاً فاجأه.

أضيفت الأطواق التزيينية إلى أعناق الأحصنة عام 1204 من قبل أبناء البندقية لإخفاء المكان الذي قُطعت فيه رؤوسها لتسهيل نقلها عبر السفينة من القسطنطينية إلى البندقية.

أمر الدوج بقطع رؤوس أحصنة سان مارك! بدا هذا مستحيلاً. سمع صوت سبيّنّا تناديه: "روبرت؟!". خرج لانغدون من لجة أفكاره، والتفت ليرى سبيّنّا تشقّ طريقها بين الناس وفيريس إلى جانبها.

صاح لانغدون بحماسة: "عرفت ما هي الخيول التي ورد ذكرها في القصيدة". بدا الارتباك على سبيّنّا التي سألته: "ماذا؟". "نحن نبحث عن دوج خائن قطع رؤوس الخيل، أليس كذلك؟". "نعم؟". "القصيدة لا تشير إلى خيول حيّة". أشار لانغدون إلى واجهة سان مارك حيث أضاعت أشعة الشمس أربعة تماثيل نحاسية. "بل تشير إلى هذه الخيول!".

الفصل 73

على متن المينداسيوم، جلست د. سينسكي مرتعشة بعدما شاهدت الفيديو في مكتب العميد. ومع أنها رأت أموراً مخيفة في حياتها، إلا أن هذا الفيلم الغامض الذي أعده بيرتراند زوبريست قبل انتحاره جعل أطرافها باردة كالثلج.

على الشاشة، أخذ الظل ذو الأنف المعقوف يتمايل فوق جدار رطب في كهف تحت الأرض. استمر بالتحدث بفخر عن تحفته التي أسماها الجحيم، والتي ستقذ العالم عبر خفض عدد سكانه.

ليحمننا الله. قالت بصوت مرتجف: "علينا... علينا إيجاد ذلك المكان قبل فوات الأوان".

قال العميد: "تابعي، الفيلم يزداد غرابة".

فجأة، أصبح الظل أكبر على الجدار الرطب إلى أن اقترب الشخص، ووقف أمام الكاميرا. ثبًا.

كانت سينسكي تحقّق إلى طبيب طاعون بزيّه الكامل؛ مع العباءة السوداء والقناع المخيف. اقترب الرجل من الكاميرا، وملأ الشاشة على نحو مخيف.

همس قائلاً: "أهلك الأماكن في الجحيم هي لأولئك الذين يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية".

كانت تلك هي الجملة التي تركها لها في المطار عندما هربت منه في نيويورك منذ عام خلا.

تابع طبيب الطاعون: "أعرف أن هناك من يعتبرونني وحشاً". صمت، وشعرت سينسكي أن هذا الكلام موجّه إليها. "أعرف أن ثمة من يراني مجرماً من دون قلب يختبئ خلف قناع". صمت مجدداً، ثم اقترب أكثر من الكاميرا. "لكنني لست بلا وجه، أو من دون قلب".

عندئذٍ، نزع زوبريست القناع والقبعة وكشف عن وجهه. تصلبت إليزابيث لدى رؤيتها العينين الخضراوين المألوفتين اللتين رأتهما آخر مرة في ظلام مجلس العلاقات الخارجية. كانتا تمتازان بالشغف نفسه، لكنهما تومضان الآن بشيء آخر؛ حماسة جنون.

قال وهو يحدّق إلى الكاميرا: "اسمي بيرتراند زوبريست، وهذا وجهي الذي أعزّيه ليراه العالم. أما بالنسبة إلى روحي... لو كان بإمكانني أن أحمل قلبي الملتهب عالياً، كما فعل دانتى لمحبوبته بياتريشي، لعرفتم أنني أفيض حباً؛ أعمق أشكال الحب، لكم جميعاً، ولشخص معيّن من بينكم".

اقترب زويريست أكثر، وحنق إلى الكاميرا بنظرة عميقة، ثم تحدث بصوت منخفض، وكأنه يتحدث مع عشيقته.

همس: "يا حبي، يا حبي الغالي، أنت سعادتي، أنت خلاصي. أنت من ساعدني على الخروج من الهاوية وأمنني بالقوة لفعل ما فعلته".
أصغت سينسكي باشمزاز.

تابع زويريست كلامه، وتردد صدى همسه في الكهف الذي يتحدث فيه: "أنت ملهمي ودليلي، فيرجيل وبياتريشي على السواء، وهذه التحفة لك بقدر ما هي لي. إن لم نجتمع مجدداً أنا وأنت، فسأجد السلام في معرفة أنني تركت المستقبل بين يديك الحنونين. لقد انتهى عملي هنا وحاتت الساعة لأصعد إلى الأعلى... وأعانق النجوم".

توقّف زويريست عن الكلام، وتردد صدى كلمة /النجوم للحظة في الكهف، ثم انتهى الفيلم.

أظلمت الشاشة.

أطفاً العميد الجهاز، وسألها عما إذا كانت تعرف هذا المكان، فهزت رأسها نافية.
قال العميد: "أظن أنني أعرف الشخص الذي كان زويريست يعشقه، كان يحب شخصاً يحمل الاسم الشيفري FS-2080".

حدقت سينسكي إلى العميد مصدومة. "FS-2080؟".

فوجئ هو أيضاً. "هل يعني لك شيئاً؟".

هزت رأسها مجيبة: "بكل تأكيد".

أخذ قلب سينسكي ينبض بعنف. فرغم أنها لا تعرف هوية الشخص، إلا أنها عرفت إلام يشير الرمز. فقد كانت المنظمة تراقب أسماء مشابهة منذ سنوات.

قالت: "الحركة ما وراء الإنسانية، هل تعرفها؟".

هز رأسه نافياً.

شرحت له قائلة: "ببساطة، هذه الحركة تمثل فلسفة ترى أنه يجب على البشر استخدام كل أشكال التكنولوجيا المتاحة لهندسة جنسنا وجعله أقوى؛ أي البقاء للأقوى".

لم يبد على العميد أي انفعال.

تابعت: "عموماً، تتألف الحركة من أشخاص مسؤولين، وعلماء، وأصحاب رؤى يتحملون المسؤولية الأخلاقية. لكن، كما يحصل في كل حركة، هناك مجموعة تعتقد أن الحركة لا تتقدم بالسرعة الكافية. إنهم مفكرون يعتقدون أن نهاية العالم أصبحت وشيكة، وأن على أحدهم اتخاذ إجراء جذري لإنقاذ مستقبل الحياة على وجه الأرض".

"وهل بيرتراند أحدهم؟".

"بالضبط. إنه قائد الحركة. فبالإضافة إلى ذكائه الحاذق، كان جذاباً للغاية، وكتب مقالات عديدة جمعت حوله عدداً كبيراً من المؤيدين. اليوم، يستخدم الكثير من أتباعه المتعصبين أسماء

شيفرية مؤلفة جميعها من حرفين وأربعة أرقام. مثل DG-2064، BA-2105، أو الاسم الذي نكرته للتو".

"FS-2080".

هزّت رأسها. "قد يكون هذا اسماً شيفرياً لأحد أعضاء الحركة".

"وهل للأرقام والأحرف أي معنى؟".

أشارت سينسكي إلى الكمبيوتر قائلة: "افتح محرك البحث وسأريك". نفذ العميد طلبها بتردد.

قالت سينسكي وهي تقف خلفه: "ابحث عن FM-2030".

طبع العميد الرمز، وظهرت آلاف النتائج.

قالت سينسكي: "انقر على أي منها".

نقر العميد على أول صفحة في القائمة، وتبين أنها صفحة ويكيبيديا تعرض صورة لرجل إيراني وسيم يدعى *فيريديون م. إسفاندياري*، وتصفه بأنه كاتب وفيلسوف، وهو مؤسس الحركة ما وراء الإنسانية. ولد عام 1930، ويرجع إليه الفضل في نشر الفلسفة ما وراء الإنسانية، فضلاً عن توثقه بالتوصل إلى أطفال الأنابيب، والهندسة الجينية، والعولمة.

يذكر الموقع أن أكثر مزاعم إسفاندياري جرأة، هو أن التكنولوجيا الجديدة ستتيح له البقاء على قيد الحياة لمدة مائة عام، وهو أمر نادر بين أبناء جيله. وللتعبير عن ثقته في التكنولوجيا المستقبلية، قام بتغيير اسمه إلى FM-2030، وهو رمز مكون من الحرفين الأولين من اسمه واسمه الأوسط، والرقم هو العام الذي سيبلغ فيه عامه المائة. للأسف، توفي إسفاندياري بسرطان البنكرياس في سن السبعين، ولم يحقق هدفه قط. لكن تكريماً لذكراه، ظل أتباع الحركة ما وراء الإنسانية يستخدمون هذه الطريقة في تسمية أنفسهم.

عندما أنهى العميد القراءة، وقف وتوجّه نحو النافذة، وحنّ بشروء إلى البحر مطولاً.

همس أخيراً؛ وكأنه يفكر بصوت عالٍ: "إذاً، حبّ زويريست من أتباع الحركة... ما وراء

الإنسانية".

"من دون شك. لا أعرف مع الأسف من يكون بالضبط، لكن -".

قاطعها العميد وهو يحدّق إلى البحر: "هذه هي الفكرة. أنا أعرف، أعرف بالضبط من

يكون".

الفصل 74

يبدو وكأنَّ الهواء نفسه مصنوع من الذهب.

سبق للانغدون أن زار العديد من الكاتدرائيات الرائعة في حياته، لكنَّه اعتبر دائماً أجواء كيبزا دورو في سان مارك فريدة من نوعها. وبحسب المزاعم التي سادت لقرون، إنَّ مجرد استنشاق هواء سان مارك يجعل منك شخصاً أكثر ثراء. ليس مجازياً فحسب، بل فعلياً أيضاً. فالمكان في الداخل مكسو بطبقة سميكة من بلاط الذهب القديم، ويقال إنَّ الكثير من ذرات الغبار التي تحوم في الهواء في الواقع غبار ذهب فعلي. هذا الغبار الذهبي وضوء الشمس الساطع المتسلل من النافذة الغربية الكبيرة يولِّدان جوّاً نابضاً بالحياة يساعد المصلِّين على بلوغ الغنى الروحي. وفي حال استنشقوا الهواء بعمق، فيستكسبون غنىً دنيوياً يتملَّ في تذهيب رؤيتهم. في هذه الساعة من النهار، تسَلَّت أشعة الشمس المنخفضة عبر النافذة الغربية، وانتشرت فوق رأس لانغدون مثل الحرير المشع. شهِق لانغدون رغماً عنه بسبب شدة إعجابه بالمكان، وشعر أنَّ ردَّ فعل سيبيَّا وفيريس كان مشابهاً. همست سيبيَّا بجانبه: "من أيّ طريق؟".

أشار لانغدون إلى درج يقود إلى الأعلى. كان متحف الكنيسة في الطابق العلوي، ويحتوي على معروضات عديدة تتعلق بخيول سان مارك. اعتقد لانغدون أنَّ هذه الخيول ستكشف لهم قريباً هوية الدوج الغامض الذي قطع رؤوس الخيل. أثناء صعودهم الدَّرج، لاحظ أنَّ فيريس ما زال يكافح ليتنَّفس، والتقى نظره نظر سيبيَّا التي كانت تحاول جذب انتباهه منذ بضع دقائق. بدا تعبيرها حذراً وهي تومئ برأسها باتجاه فيريس وتحركَ فيها بكلام غير مفهوم. وقبل أن يستوضح منها، نظر إليهما فيريس، فالتفتت سيبيَّا إليه مباشرة.

سألته ببراءة: "هل أنت بخير دكتور؟".

هزَّ فيريس رأسه، وراح يصعد بسرعة أكبر.

فكر لانغدون: يا لها من ممثلة موهوبة. لكن، ماذا تحاول أن تقول لي؟

عندما وصلوا إلى الطابق الثاني، امتدَّت تحتهم البازيليك بأكملها. كان المبنى قد شيد على شكل صليب يوناني، وكان شكله مربعاً أكثر من سان بيتر أو نوتردام. فوجود المسافة القصيرة التي تفصل بين صحن الكنيسة والمذبح، بدت كنيسة سان مارك أكثر قوَّة ومتانة، كما امتازت برحابة أكبر.

لكن، لكي لا تبدو الكنيسة مضيافة على نحو مبالغ فيه، وضع المذبح خلف حاجز معمد. وهو يُعتبر من أكبر المذابح قيمة في العالم، ويسمى بالـ دورو. يحمي المذبح غطاء أنيق يعرض إحدى أثمن القطع في العالم؛ ألا وهي النسيج الذهبي الشهير، أو بالـ دورو. إنه عبارة عن غطاء فضي مذهب لا يعتبر نسيجاً إلا من حيث كونه مزيجاً من أعمال سابقة - هو في الأساس ميناء بيزنطي - منسوجة كلها في إطار قوطي واحد. ونظراً إلى ما يحتويه النسيج الذهبي من ألف وثلاثمائة لؤلؤة، وأربعمائة حجر من العقيق، وثلاثمائة حجر ياقوت، فضلاً عن الزمرد، والجمشت، والياقوت، فإنه يُعتبر - بالإضافة إلى خيول سان مارك - من أروع كنوز البندقية.

من الناحية المعمارية، تشير كلمة بازيليك إلى أي كنيسة شرقية مبنية على النمط البيزنطي في أوروبا أو الغرب. تشكّل بازيليك سان مارك نسخة طبق الأصل عن بازيليك الرسل لجوستينيان في القسطنطينية، وهي تُعتبر شرقية النمط كثيراً، إلى درجة أنّ الكتيّبات السياحية غالباً ما تقترحها كبديل عن زيارة المساجد التركية، وذلك لأن الكثير من تلك المساجد كان كاتدرائيات بيزنطية تمّ تحويلها إلى دور عبادة للمسلمين.

ومع أنّ لانغدون لا يعتقد أبداً أنّ زيارة كنيسة سان مارك يمكن أن تشكّل بديلاً عن زيارة المساجد التركية الرائعة، إلا أنّ عليه أن يقرّ أنّ شغف المرء بالفن البيزنطي يمكن أن ترصّيه زيارة الغرف السرية في الجناح الأيمن لهذه الكنيسة؛ الذي حُبّي فيه كنز سان مارك، وهو عبارة عن مجموعة من 283 أيقونة ثمينة، وحجر كريم، وكؤوس تمّ الاستيلاء عليها في أثناء نهب القسطنطينية.

سرّ لانغدون لأنّ البازيليك اليوم كانت هادئة نسبياً. فهي ما زالت تحتوي على حشود من الناس، لكنهم وجدوا متسعاً للتحرك على الأقل. فاد لانغدون كلاً من فيريس وسيينا إلى النافذة الغربية التي يمكن للزوار أن يخرجوا منها ويروا الأحصنة على الشرفة. على الرغم من ثقة لانغدون بقدرتهم على إيجاد الدوج المعني، إلا أنّه ما زال يشعر بالقلق إزاء الخطوة التالية، أي تحديد مكان الدوج. قبره؟ تمثاله؟ قد يحتاج ذلك إلى بعض المساعدة، نظراً إلى وجود مئات التماثيل في الكنيسة والقبو، وكذلك القبور التي تمتد على طول الجهة الشمالية للكنيسة.

رأى موظفة شابة تقود عدداً من الزوار في جولة، فسألها قائلاً: "المعذرة، هل إنثوري فيو موجود هنا اليوم؟".

نظرت المرأة إلى لانغدون وأجابت بالإيطالية: "إنثوري فيو؟ بالطبع. لكن، أنست روبرت لانغدون؟".

ابتسم لانغدون. "أجل، هذا أنا. هل يمكنني التحدّث مع إنثوري؟".

"أجل، أجل". طلبت من مجموعتها الانتظار قليلاً، ثم ابتعدت مسرعة.

كان لانغدون قد ظهر مع القيم على المتحف، إنثوري فيو، في فيلم وثائقي عن البازيليك، وبقياً على تواصل منذ ذلك الحين. شرح لسيينا قائلاً: "ألف إنثوري كتاباً عن هذه البازيليك، لا بل عدّة كتب في الواقع".

كانت سبينا لا تزال تبدو متوترة إزاء فيريس الذي بقي على مقربة منهما، في حين قاد لانغدون مرافقته نحو النافذة الغربية التي يمكن مشاهدة الخيول عبرها. عندما وصلوا، كانت عضلات الحيوانات قد أصبحت مرئية تحت أشعة شمس العصر. على الشرفة، استمتع السياح بقربهم من الأحصنة وبالمشهد الرائع لساحة سان مارك.

هتفت سبينا مشيرة إلى الأحصنة التي بدت من النافذة: "ها هي!". أجابها لانغدون: "ليس بالضبط. هذه ليست سوى نسخة عن تلك الأصلية الموجودة في الداخل حفاظاً عليها".

ثم قادهما عبر ممر إلى حجرة ساطعة الإضاءة تحتوي على مجموعة مشابهة من أربعة أحصنة بدت وكأنها تقفز باتجاههم أمام خلفية من القاطر. أشار لانغدون إلى التماثيل بإعجاب: "هذه هي الأصلية".

كل مرة يرى فيها لانغدون هذه الخيول عن كثب، يُعجب كثيراً بمدى إتقان صنعها ودقة تفاصيلها. ضاعف من قوة هذا المظهر المؤثر الصدا الأخضر الذهبي الذي غطى سطحها تماماً. بالنسبة إلى لانغدون، ذكرته رؤيته هذه الخيول الأربعة محفوظة تماماً على الرغم من ماضيها الصاخب بأهمية الحفاظ على الفن العظيم.

قالت سبينا مشيرة إلى الأطواق المحيطة بأعناق الخيول: "قلت إن هذه الأطواق قد أضيفت إليها لتغطية المكان حيث قطعت الرؤوس، أليس كذلك؟".

كان لانغدون قد أخبر سبينا وفيريس بهذه المعلومة التي قرأها على موقع ARCA.

قال لانغدون مشيراً إلى لوحة تفسيرية معلقة في الجوار: "هذا ما يبدو".

هتف صوت وود خلفهم: "روبرتو! هذه إهانة!".

التفت لانغدون ليرى إيتوري فيو، ذاك الرجل الأشيب بلامحه الشابة. كان يرتدي قميصاً أزرق، فيما تتدلى نظارة من سلسلة يضعها حول رقبته، ويشق طريقه بين الناس باتجاههم. تأتي إلى البندقية من دون الاتصال بي!".

ابتسم لانغدون وصافح الرجل. "أحب أن أفاжك إيتوري. تبدو بأحسن حال. هذان صديقا؛ د. بروكس ود. فيريس".

حيّاهما إيتوري ثم تراجع إلى الخلف متأملاً لانغدون. "أتسافر مع طبيبين؟ هل أنت مريض؟ وماذا عن ملابسك؟ هل تحولت إلى إيطالي؟".

قال لانغدون وهو يضحك: "لا هذا ولا ذاك. قصدتك طلباً لمعلومات عن الخيول".

بدا الاستغراب على إيتوري. "هل ثمة شيء لا يعرفه البروفيسور الشهير؟".

ضحك لانغدون. "أريد أن أعرف هوية من قطع رؤوس الخيل لنقلها أثناء الحملات الصليبية".

دُعر إيتوري فيو كما لو أن لانغدون قد سأل عن بواسير الملكة. "رباه، روبرت، نحن لا نتحدث عن ذلك. إن أردت رؤية رؤوس مقطوعة، فإمكاني أن أريك كارمانيولا أو -".

"إتوري، أريد أن أعرف من هو الدوج الذي قطع رؤوس هذه الخيول".
قال إتوري مدافعاً: لم يحدث ذلك قط. سمعت هذه الإشاعات بالطبع، لكن تاريخياً لا توجد أدلة قاطعة تشير إلى أن دوجاً معيناً -".
قال لانغون: "إتوري، أرجوك، أخبرني. استناداً إلى الإشاعة، من هو الدوج الذي فعل ذلك؟".
وضع إتوري نظارته وتأمل لانغون. "حسناً، بحسب الإشاعة، تم نقل خيولنا الحبيبة بأمر من الدوج الأكثر ذكاء وخداعاً في البندقية".
"خداعاً؟".

"أجل، الدوج الذي خدع الجميع في الحملات الصليبية". نظر إلى لانغون متابعاً: "الدوج الذي أخذ أموال الدولة للإبحار إلى مصر... لكنه توجه عوضاً عن ذلك إلى القسطنطينية ونهبها".

فكر لانغون: هذه تبهر خيانة. "وما كان اسمه؟".

عبس إتوري قائلاً: "روبرت، ظننت أنك خبير في تاريخ العالم".

"أجل، لكن العالم كبير، والتاريخ طويل، يمكنني الاستعانة بصديق".
"حسناً إذا، سأعطيك إشارة أخيرة".

أراد لانغون أن يعترض، لكنه شعر أن اعتراضه سيكون مضيعة للوقت.

"عاش هذا الدوج لقرن من الزمن تقريباً، وكان ذلك أمراً عجيبيّاً في زمانه. وقيل إن سبب طول عمره هو العمل الشجاع الذي قام به عندما استرجع عظام القديسة لوتشيا من القسطنطينية وأعادها إلى البندقية. كانت القديسة لوتشيا قد خسرت عينيها -".

قالت سيبينا وهي تنظر إلى لانغون الذي تبادرت إلى ذهنه الفكرة نفسها: "أقتلع عظام العمياء؟".

نظر إتوري إلى سيبينا باستغراب: "إلى حد ما، أجل".

بدا الضعف فجأة على فيريس، كما لو أنه ما زال متعباً من المسافة التي قطعها عبر البياتزا والدرج.

قال إتوري: "وأود أن أضيف أن الدوج أحب القديسة لوتشيا كثيراً لأنه كان أعمى هو أيضاً. في سن التسعين، وقف في هذه الساحة، أعمى البصر، ودعا إلى الانضمام إلى الحملات الصليبية".

قال لانغون: "عرفت من يكون".

أجاب إتوري مبتسماً: "ممتاز؟".

بما أن ذاكرة لانغون التخيلية كانت أكثر اعتياداً على الصور، تذكر فوراً تحفة فنية، هي عبارة عن لوحة لغوستاف دوري، تصور دوجاً أعمى وعجوزاً، يرفع ذراعيه إلى الأعلى وهو يحث حشداً من الناس على الانضمام إلى الحملة الصليبية. كان عنوان لوحة دوري واضحاً في ذهنه: داندولو يدعو إلى الحملة الصليبية.

أعلن لانغدون: "إنه إنريكو داندولو، الدوج الذي عاش طويلاً".
قال إيتوري: "أخيراً. خفت أن يكون عقلك قد شاخ يا صديقي".
"شأنه شأن بقية جسدي. هل هو مدفون هنا؟".

هز إيتوري رأسه. "داندولو؟ كلاً ليس هنا".
سألته سيبينا: "أين دفن إذا؟ هل دفن في قصر الدوج؟".
خلع إيتوري نظارته، وفكر للحظة. "دعيني أتذكر، ثمة عدد كبير من الدوجات -".
وقبل أن ينهي إيتوري حديثه، اقتربت منه موظفة يبدو عليها الخوف واقتادته جانباً، ثم
همست شيئاً في أذنه. تفاجأ، واندفع فوراً إلى الدرايزين لينظر إلى الأسفل. بعد قليل، التفت نحو
لانغدون.

صاح إيتوري: "سأعود بعد قليل". وأسرع مبتعداً.
استغرب لانغدون تصرفه، وأسرع ليطل من الشرفة. ماذا يجري هناك؟
للوهلة الأولى لم ير شيئاً، بل مجرد سياح يتجولون. ثم أدرك أن عدداً كبيراً من الزوار
يحتفون بالاتجاه نفسه، إلى المدخل الرئيس الذي دخلت منه مجموعة من الجنود الذين يرتدون
ملابس سوداء، والذين توزعوا في صحن الكنيسة مغلقين كل المخرج.
جنود يرتدون ملابس سوداء. شعر لانغدون بيديه تتصلبان على الدرايزين.
نادته سيبينا: "روبرت؟".

ظالّ نظر لانغدون مركزاً على الجنود. كيف وجدونا؟!
نادته سيبينا بالحاح أكبر: "روبرت، ثمة خطب ما! ساعدني!".
التفت مستغرباً طلب المساعدة.

أين هي؟

وسرعان ما وقعت عيناه على سيبينا وفيريس. كانت سيبينا منحنية على الأرض أمام خيول
سان مارك فوق د. فيريس... الذي كان منهأراً ويعاني من تشنجات في صدره.

الفصل 75

صاحت سيبينا: "أعتقد أنه يعاني من نوبة قلبية!".
أسرع لانغدون إلى حيث كان د. فيريس ممدداً على الأرض.
كان الرجل يشهق: عاجزاً عن التنفس.
ماذا جرى له؟ بالنسبة إلى لانغدون، حدث كل شيء في لحظة واحدة. فمع وصول الجنود وسقوط فيريس على الأرض شعر لانغدون للحظة أنه مشلول وغير واثق لمن يجب أن يعطى انتباهه.
انحنّت سيبينا فوق فيريس وحلّت ربطة عنقه، ثم فتحت عدداً من أزرار قميصه لمساعدته على التنفس. لكن، عندما أبعدت القميص عن صدره، أطلقت صيحة خوف، ووضعت يدها على فمها وهي تتراجع إلى الخلف، وتحقق إلى صدره العاري.
رأى لانغدون أيضاً ما رأيته.
كانت هناك دائرة سوداء مزرقّة بحجم برتقالة كبيرة على صدر فيريس. بدا وكأن صدره قد أصيب بطلقة مدفع.
قالت سيبينا وهي تنظر إلى لانغدون مصدومة: "إنه مصاب بنزيف داخلي، لهذا السبب كان يعاني من مشاكل في التنفس طوال النهار".
أخذ فيريس يهز رأسه محاولاً الكلام، لكن لم يصدر عنه سوى أزيز خافت. بدأ السياح يتجمعون حولهم، وشعر لانغدون أن الوضع على وشك أن يخرج عن السيطرة.
قال لانغدون لسيبينا: "الجنود في الأسفل، لا أعرف كيف وجدونا".
سرعان ما تحولت نظرة التفاجؤ والخوف على وجه سيبينا إلى غضب، فحدقت إلى فيريس وقالت: "كنت تكذب علينا، أليس كذلك؟".
حاول فيريس أن يتكلم لكنه لم يستطع. فبحثت سيبينا في جيوبه وأخرجت هاتفه ومحفظة اللذين دستهما في جيبيها، ونظرت إليه نظرة اتهامية.
في تلك اللحظة، اندفعت امرأة إيطالية عجوز بين الحشد، وصاحت بغضب قائلة لسيبينا: "لاي كوليبيتو آل ببيتو!". وحركت قبضتها بقوة على صدرها.
لكن سيبينا قالت: "كلاً! التنفس الاصطناعي سيقتله! انظري إلى صدره!". ثم انفتحت إلى لانغدون وقالت: "روبرت، علينا الخروج من هنا حالا".
نظر لانغدون إلى فيريس الذي كان ينظر إليه بياس وتوسل، وكأنه يرغب في قول شيء له.

قال لانغدون: "لا يمكننا تركه هكذا!".

قالت سيبينا: "إنه ليس مصاباً بنوبة قلبية، ثق بي. سنرحل حالاً".

مع ازدياد الحشد كثافة، بدأ السياح يصيحون طلباً للمساعدة. فأمسكت سيبينا بذراع لانغدون بقوة مفاجئة وشدته بعيداً عن تلك الفوضى، ثم أخرجته إلى الشرفة.

اللحظة، لم ير لانغدون شيئاً. فقد كانت الشمس أمام عينيه مباشرة، تغيب خلف الطرف الغربي لساحة سان مارك، حيث غمرت الشرفة بأكملها بضوء ذهبي. قادت سيبينا لانغدون إلى اليسار، على طول شرفة الطابق الثاني، وتسللاً من بين السياح الذين خرجوا لتأمل البياترا والنسخة المزيفة من خيول سان مارك.

عندما خرجا أمام البازيليك، كانت البحيرة أمامهما مباشرة. لكن في المياه، رأى لانغدون يختاً حديثاً جداً، أشبه بسفينة حربية مستقبلية.

انعطفا بعد ذلك إلى اليسار على طول الشرفة، متجهين نحو الزاوية الجنوبية الغربية للبازيليك، باتجاه المبنى الملحوق الذي يربط البازيليك بقصر الدوج، والمسمى "باب الورق" لأن الدوجات كانوا يعلّقون المراسيم هناك ليقرأها الشعب.

ليس مصاباً بنوبة قلبية! كانت صورة صدر فيريس الأسود والأزرق قد طبعت في ذهن لانغدون، وشعر فجأة بالخوف من إمكانية سماعه تشخيص سيبينا لمرض الرجل الفعلي. بالإضافة إلى ذلك، شعر أنّ أمراً ما تغير، وأن سيبينا لم تعد تثق بفيريس. *ألهذا السبب كانت تحاول لفت نظري منذ قليل؟*

فجأة، توقفت سيبينا وانحنت فوق الدرايزين الأنيق لتطلّ على زاوية منعزلة في ساحة سان مارك في الأسفل.

قالت: "تَبَّاء، إنها أعلى مما توقعت".

حنّ إليها لانغدون. هل كنت تفكرين في القفز؟

قالت له سيبينا: "لا يمكن أن نسمح لهم بإيجادنا روبرت".

التفت روبرت نحو البازيليك، ورمق الباب الحديدي الثقيل المصنوع من الحديد المطاوع والزجاج خلفهما مباشرة. كان السياح يدخلون ويخرجون، وبحسب تقدير لانغدون، إنّ عبور ذلك الباب سيعيدهما إلى داخل المتحف على مقربة من الجزء الخلفي للكنيسة.

قالت سيبينا: "سيغلقون المخارج كافة".

فكر لانغدون في خيارات الفرار، ولم يتوصّل سوى لفكرة واحدة. "أظنّ أنّني رأيت شيئاً في الداخل قد يحلّ هذه المشكلة".

لم تستطع سيبينا أن تتخيل ما الذي يفكر فيه لانغدون عندما أعادها إلى داخل البازيليك، عبرا المتحف محاولين الابتعاد عن الحشود، وكان الكثيرون منهم ينظرون إلى وسط المتحف؛ باتجاه الجبلبة التي تدور حول فيريس. استرق لانغدون النظر إلى المرأة الإيطالية المسنة

الفاضبة التي كانت تقود جنديين يرتديان ملابس سوداء إلى الشرفة، وترشدهما على الطريق التي حاول لانغدون وسيينا الهرب عبرها.

فكر لانغدون: علينا أن نسرع. وتأمل الجدران إلى أن وجد أخيراً ما كان يبحث عنه بالقرب من جدار عُرض عليه عدد كبير من السجّادات.

كان الجهاز المثبت على الجدار ذا لون أصفر زاهٍ مع ملصق أحمر اللون كُتب عليه: ALLARME ANTINCENDIO.

قالت سيينا: "إنذار الحريق، أهذه هي خطّتك؟".

"يمكننا التسلّل مع الحشود". مدّ لانغدون يده وجذب مقبض الجهاز، غير أن شيئاً لم يحدث. قبل أن يعيد التفكير في الأمر، شدّه إلى الأسفل بقوة حيث تحطّم زجاج الأسطوانة الصغيرة في الداخل.

صفّارات الإنذار والضوضاء التي كان يتوقّعها لم تتطوّل مطلقاً.

شدّ مجدداً، لكن من دون جدوى.

حدّقت إليه سيينا كما لو أنّه مجنون. "روبرت، نحن في كاتدرائية قديمة مليئة بالسياح! هل نظنّ أنّ أجهزة الحريق العامة هذه تعمل عندما يرغب أيّ مجنون بتشغيلها؟".

"بالطبع! فقوانين الحريق في الولايات المتحدة -".

"أنت في أوروبا، ولدينا هنا عدد أقلّ من المحامين". ثم أشارت خلف لانغدون مضيفة: "كما أنّنا لم نعد نملك الوقت".

التفت لانغدون إلى الباب الزجاجي الذي دخلا منه ورأى الجنديين عائدين من الشرفة. عرف لانغدون الجندي الذي أطلق النار عليهما عندما هربا من شقة سيينا.

تمكّن لانغدون وسيينا من الابتعاد عن أنظارهما، ووصلا إلى درج حلزوني ينزل إلى الطابق السفلي. عندما وصلا إلى منبسط الدّرج، وقفا في الظلّ. رأيا من هناك عدداً من الجنود الذين يحرسون المداخل، ويمسحون بأنظارهم القاعة بأكملها.

قال لانغدون: "إن ابتعدنا عن هذا الدّرج فسيروننا".

همست سيينا مشيرة إلى لافتة كُتبت عليها عبارة الدخول ممنوع: "الدّرج يتّجه إلى الأسفل". كان الدّرج يهبط في دوامة تزداد ضيقاً إلى حيث يسود الظلام الدامس.

فكر لانغدون: هذه فكرة سيئة. سرّاب تحت الأرض من دون مخرج.

كانت سيينا قد بدأت تهبط في النفق الحلزوني، واختفت في الظلام.

همست من الأسفل: "إنّه مفتوح".

فوجئ لانغدون. فقد كان قبو سان مارك مختلفاً عن الكثير من الأماكن الأخرى المشابهة لأنّه يشكّل أيضاً كنيسة ناشطة تقام فيها قداديس منتظمة أمام رفات سان مارك.

همست سيينا: "أظنّ أنّني أرى ضوءاً طبيعياً!".

هذا ممكن؟! حاول لانغدون أن يتذكر زيارته السابقة إلى هذا المكان، وفكر أن سيبنا ترى على الأرجح لو كس إيتيرنا، وهو ضوء كهربائي يبقى مضاءً عند قبر سان مارك في وسط القبر. لكن، مع اقتراب الخطوات، لم يعد لديه الوقت للتفكير. فتجاوز اللافتة أيضاً، ثم وضع راحة يده على الجدار الخشن متمسكاً طريقه نحو الأسفل.

كانت سيبنا بانتظاره عند أسفل الدّرج. خلفها، كان الظلام يغمر المكان. كان السرداب عبارة عن حجرة تحت الأرض ذات سقف حجري منخفض جداً مدعم بأعمدة قديمة وقناطر الطوب المقيبة. فكر لانغدون: إن وزن البازيليك بأكملها يتركز على هذه الأعمدة. أشعرته تلك الفكرة بالاختناق.

أشارت سيبنا إلى نوافذ علوية صغيرة في الجدار وهمست: "كنتُ محقة".

كان لانغدون قد نسي أمر وجود مناوِر في القبر. كانت المناوِر مصممة للسماح بدخول الضوء والهواء النقي إلى هذا القبر، وذلك عبر فتحات عميقة تمتد لتصل إلى ساحة سان مارك في الأعلى. كان زجاج النوافذ مدعماً بالحديد في خمس عشرة دائرة متشابكة. ومع أن لانغدون شك في أن يكون فتحها ممكناً من الداخل، إلا أنها كانت بارتفاع الكتف ويمكن عبورها بصعوبة. حتى لو تمكنا بطريقة ما من عبور النافذة إلى المنور، فسيكون الخروج منها أمراً مستحيلاً؛ لأنها على عمق عشر أقدام ومقفلة بإحكام بغطاء آمن من الأعلى.

في الضوء الخافت المتسلل من تلك النوافذ، بدا قبر الكنيسة أشبه بغابة مضاءة بنور القمر؛ بسبب الأعمدة الشبيهة بجذوع الأشجار، والتي تلقي ظلالاً على الأرض. نظر لانغدون إلى وسط القبر، ورأى شمعة واحدة تضيء قبر سان مارك. كان من تحمل الكنيسة اسمه ممتداً في تابوت حجري وراء المذبح، وكانت أمامه صفوف من المقاعد تجلس عليها عادة القلة المحظوظة التي تتم دعوتها إلى الصلاة هنا في قلب عالم البندقية المسيحي.

فجأة، رأى لانغدون ضوءاً خافتاً قريبه. التفت ووجد سيبنا تحمل هاتف فيريس وقد أضيئت شاشته.

استغرب ذلك. "قهمت من فيريس أن البطارية قد فرغت".

قالت سيبنا وهي تضغط على الأزرار: "كان يكذب حيال أمور كثيرة". عيست وهزّت رأسها قائلة: "لا توجد إشارة. ظننت أننا نستطيع ربما إيجاد موقع قبر إنريكو داندولو". توجهت إلى إحدى النوافذ وحملت الهاتف عالياً قرب الزجاج للحصول على إشارة.

فكر لانغدون، إنريكو داندولو لم يجد الفرصة للتفكير بالدوج بسبب هربهما المفاجئ. لكن، على الرغم من هذا المأزق، فإن زيارتهم إلى كنيسة سان مارك أدت غرضها، وكشفت عن هوية الدوج الخائن الذي قطع رؤوس الخيل... واقتلع عظام العمياء.

مع الأسف، لم يكن لانغدون يملك فكرة عن موقع القبر، وإثوري فيو لم يكن يعرف أيضاً. إنه يعرف هذه البازيليك مثل راحة يده... وعلى الأرجح قصر الدوج أيضاً. لكن، بما أنه لم ينكر فوراً مكان القبر للانغدون فهذا يدل على أنه غير موجود على مقربة من سان مارك أو قصر الدوج.

أين هو إذا؟

نظر لانغدون إلى سيبينا، فوجدها واقفة على مقعد نقلته ووضعته تحت إحدى النوافذ. كانت قد فتحت النافذة وحملت هاتف فيريس عالياً في الهواء الطلق.

تسرّبت أصوات ساحة سان مارك من الأعلى، فتساعل لانغدون فجأة عما إذا كان ثمة طريق إلى الخارج. رأى صفّاً من الكراسي القابلة للطيّ خلف المقاعد، وفكّر في ما إذا كان من الممكن رفعها ووضعها تحت أحد المناور. ربما كانت الأعطية العلوية تُفتح من الداخل أيضاً؟

أسرع نحو سيبينا، لكن ما إن سار بضع خطوات حتّى فوجئ بضربة قوية على جبينه دفعته إلى الخلف. ركع على ركبتيه معتقداً أنّه تعرّض لهجوم، ثم أدرك أنّ طولهُ يزيد عن ارتفاع القناطر التي بُنيت بحسب الطول العادي قبل أكثر من ألف عام. أثناء ركوعه، وجد نفسه يحدّق إلى نقش على الأرض. سانكتوس ماركوس.

حدّق إلى النقش مطوّلاً. لم يكن اسم مارك هو الذي فاجأه، بل اللغة التي كُتِب بها، أي اللاتينية.

بعد هذا اليوم الطويل الذي انغمس فيه في إيطاليا المعاصرة، شعر بالارتباك لدى رؤيته اسم سان مارك مكتوباً باللاتينية. لقد ذكّرهُ ذلك أنّ اللغة المستعملة في زمن وفاة سان مارك كانت لغة الإمبراطورية الرومانية. ثم خطرت فكرة ثانية للانغدون.

ففي أوائل القرن الثالث عشر، أي في زمن إنريكو داندولو والحملة الصليبية الرابعة، كانت لغة السلطة هي اللاتينية. بالتالي، لا يمكن أن يكون الدوج الذي حدّق مجداً كبيراً للإمبراطورية الرومانية بإعادة الاستيلاء على القسطنطينية قد دفن باسم إنريكو داندولو... بل باسمه اللاتيني.

هنريكوس داندولو.

في تلك اللحظة، خطرت في بال لانغدون صورة قديمة منسية. ومع أنّ ذلك الإلهام أتاه وهو راكع في كنيسة، إلّا أنّه عرف أنّ السبب على الأرجح ذكرى عادت إليه فجأة. كانت الصورة التي خطرت في بال لانغدون هي لاسم داندولو اللاتيني المنقوش على لوح رخامي قديم مدمج في أرضية مزخرفة.

هنريكوس داندولو.

دُهل لانغدون وهو يتذكّر شاهدة قبر الدوج البسيطة. لقد كنت هناك. كما ذكرت القصيدة، كان إنريكو داندولو مدفوناً بالفعل في متحف ذهبي، موزيرون الحكمة المقدّسة، لكنّه ليس بازيليكا سان مارك.

عندئذ بدأ لانغدون ينهض ببطء.

قالت سينا وهي تنزل عن المقعد وتقترب منه: "لم أستطع إيجاد إشارة".
قال لها: "لست بحاجة إليها. فالموزيون الذهبي للحكمة المقدسة..." وأخذ نفساً عميقاً.
"لقد... ارتكبتُ خطأً".

شحب وجه سينا: "لا تقل لي إننا في المتحف الخاطئ".
همس لاتفدون: "سينا، إننا في البلد الخاطئ".

الفصل 76

في ساحة سان مارك، وقفت الفجرية بائعة الأكفنة للحصول على استراحة، وانكأَت على الجدار الخارجي للبازيليك. كالعادة، احتلت مكانها المفضل الذي كان عبارة عن فسحة صغيرة بين غطاءين معدنيين في الرصيف، وهي بقعة مثالية لوضع البضاعة جانباً ومشاهدة مغيب الشمس.

رأت الكثير من الأمور الغريبة في ساحة سان مارك على مرّ السنوات، لكن ما يحدث الآن أمام عينيها لم يكن يجري في الساحة... بل تحتها. لفت انتباهها صوت عالٍ عند قدميها، فحنّقت عبر فتحة في أحد الغطاءين الحديديين إلى منور ضيق، ربّما يبلغ عمقه عشر أقدام تقريباً. فتحت النافذة في أسفل المنور ورفع منها كرسي قابل للطي، راح يحثك بالرصيف. تبعت الكرسي امرأة جميلة ذات شعر أشقر مسرّح على شكل ذيل حصان، بدت وكأنها تدفع من الأسفل لتسلّق الفتحة الضيقة.

وقفت الشقراء على قدميها ونظرت إلى الأعلى مباشرة، لتفاجأ بالفجرية التي راحت تحنّق إليها عبر فتحة الغطاء المعدني. وضعت المرأة الشقراء إصبعها على فمها وابتمت بتوتّر، ثم فتحت الكرسي وصعدت عليه، ومدّت يديها إلى الغطاء.

قالت الفجرية في سرّها: أنت قصيرة جداً، ماذا تفعلين بالضبط؟

نزلت الشقراء عن الكرسي وتحذّث مع شخص داخل المبنى. ومع أنّ المكان كان بالكاد يتسع لها للوقوف بجانب الكرسي، إلّا أنّها ابتعدت جانباً، وظهر رجل طويل أسود الشعر يرتدي بذلة أنيقة من قِبو البازيليك.

نظر هو أيضاً إلى الأعلى، ورأى الفجرية عبر فتحة الغطاء الحديدي. بعد ذلك، تبادل موقعه بصعوبة مع المرأة الشقراء وتسلّق الكرسي المتزعزع. كان أطول قامه منها، وعندما مدّ يديه إلى الأعلى، تمكّن من نزع الترياس الموجود تحت الغطاء. وقف على رؤوس أصابعه، ووضع يديه على الغطاء، ورفع إلى الأعلى. ارتفع الغطاء إنشاً تقريباً قبل أن يهبط مجدداً. سألت المرأة الشقراء الفجرية بالإيطالية: "هل يمكنك المساعدة؟".

تردّدت الفجرية، وذلك لأنّها لم تكن تتوي التورط بشيء مريب. ماذا تفعلن؟

أخرجت الشقراء مائة يورو من محفظة رجل ولوّحت بها. كان هذا المبلغ يفوق ما تكسبه البائعة من بيع الأكفنة في ثلاثة أيّام. كانت بارعة في المساومة، فهزّت رأسها ورفعت إصبعين. عندئذ أخرجت الشقراء ورقة نقدية ثانية.

لم تصدّق المرأة الحظّ الذي هبط عليها فجأة، فوافقت على مساعدتهما، وحاولت أن تبدو غير آبهة وهي تتحنى وتمسك بقضبان الغطاء، وتتنظر إلى عيني الرجل لكي يتعاونوا معاً. عندما بدأ الرجل برفع الغطاء مجدداً، سحبت الغجرية الغطاء إلى الأعلى بذراعيها القويتين بفعل سنوات من حمل بضاعتها، إلى أن ارتفع... نصف المسافة. وعندما اعتقدت أنّهما نجها، سمعت صوت تحطّم تحتها، واختفى الرجل، ليغرق مجدداً في المنور مع انهيار الكرسي تحته. ازداد ثقل الغطاء بين يديها على الفور، وظنّنت أنّها ستسقطه، لكنّ الوعد بالحصول على مائتي يورو منحها القوة، فنجحت في رفعه ليسقط على الأرض محدثاً صوتاً عالياً. نظرت الغجرية إلى الأسفل وهي تلهث، ورأت فوضى وأجزاء الكرسي المحطّم. نهض الرجل مجدداً، ونفض ملابسه، في حين مدّت يدها إلى المنور مطالبةً بمالها. هزّت المرأة الشقراء رأسها بسرور، ورفعت ورقّتين نقديّتين فوق رأسها. حاولت الغجرية التقاطهما، لكنّها كانت بعيدة جداً. أعطى الرجل المال.

فجأة، سُمعت ضوضاء، وتعلّلت أصوات غاضبة من داخل البازيليك. أصيب الرجل والمرأة بالذعر، وابتعدا عن النافذة. وما هي إلّا لحظات حتّى عثت الفوضى.

تولّى الرجل ذو الشعر الداكن الأمور، ففرّص وأمر المرأة بحزم بوضع قدمها على يديه ليرفعها نحو الأعلى. نفّذت طلبه، فرفعها نحو فتحة المنور. وضعت الأوراق النقدية في فمها لتحرّر يديها في محاولة للوصول إلى طرف الفتحة. رفعها الرجل أكثر فأكثر... إلى أن وصلت يداها إلى الحافة.

بمجهود كبير، خرجت إلى الساحة كما لو كانت تصعد من حوض سباحة. أعطت الغجرية المال، ثم استدارت على الفور لمساعدة الرجل. كان الأوان قد فات.

فقد امتدّت ذراعان قويتان مكسوتتان بكمين أسودين وأمسكتا بقميّه، ثم سحبته إلى الأسفل.

صاح الرجل وهو يكافح: "اهربي سبيّنا، اهربي فوراً!".

سُحب بقوة إلى داخل البازيليك.

أمّا المرأة الشقراء فحدّقت إلى الأسفل مصدومة، وفاضت عيناها بالدموع. همست: "أنا أسفة، روبرت". ثم أضافت: "أسفة على كلّ شيء".

بعد قليل، راحت المرأة تركض مسرعة بين الناس، وشعرها الأشقر يتأرجح خلف ظهرها. اجتازت زقاق ميرتشيريا ديل أورولودجو... واختفت في قلب البندقية.

الفصل 77

أعاد صوت خرير المياه روبرت لانغدون إلى وعيه. شَم رائحة مواد التعقيم الممزوجة بهواء البحر المالح وشعر بالعالم يتمايل تحته.
أين أنا؟

قبل دقائق، اشتبك مع ذراعين قويتين حاولتا إخراجه من المنور وإعادته إلى القبو. والآن، لم يعد يشعر بأرض سان مارك الباردة تحته... بل بفراش وثير.
فتح عينيه، وتأمل محيطه، فرأى غرفة صغيرة طيِّبة المظهر، ذات نافذة واحدة. ظلَّ يشعر أنه يتمايل.

هل أنا على متن قارب؟

كان آخر ما يذكره لانغدون هو أنه مسمَّر على أرض القبو من قبل جنود يرتدون الملابس السوداء ويقولون له بغضب: "توقَّف عن محاولة الهرب!".

صاح لانغدون عندئذ طالباً المساعدة، في حين حاول الجنود كتم صوته.

قال أحدهم لزميله: "علينا إخراجه من هنا".

فهزَّ شريكه رأسه على مضض. "قم بذلك".

عندها شعر لانغدون بأصابع قوية تضغط بخبرة واضحة على شرايين عنقه. وبعدما عثرت على بقعة محدَّدة، ضغطت الأصابع بقوة، وفي غضون ثوانٍ، زاغ نظر لانغدون، وفقد وعيه.

فكَّر: إنَّهم يقتلونني، هنا بالقرب من قبر سان مارك.

غير أنَّ إغماءه لم يكن تاماً... بل أحسَّ أنَّ عالمه أصبح رمادياً، وأنَّ الأشكال والأصوات لم تعد واضحة.

لم يعرف لانغدون كم مضى من الوقت منذ ذلك الحين، لكنَّ العالم عاد يتَّضح أمام عينيه. كلَّ ما يستطيع قوله إنَّه في غرفة رعاية طيِّبة على متن سفينة ما. شعر من محيطه المعقَّم ورائحة الكحول أنه عاش هذه الحالة مسبقاً، وكأنَّه دار دورة كاملة واستيقظ كما حدث في الليلة الماضية على سرير مستشفى غريب، مع ذكريات مشوشة.

فكَّر بسيينا، وتذكَّر عينيها البنيتين اللطيفتين اللتين راحتا تنظران إليه والندم والخوف يملأنهما. تمنَّى أن تكون قد هربت وتمكَّنت من الخروج من البندقيَّة بأمان.

كان لانغدون قد أخبرها أنَّهما في البلد الخاطئ بعدما أدرك مكان قبر إنريكو داندولو. فالموزيون الغامض المذكور في القصيدة لم يكن في البندقية... بل على مسافة بعيدة جداً. تماماً كما حدَّر نصَّ دانتي، كان المعنى الفعلي مخبأً "تحت حجاب أبيات غامضة جداً".

كان لانغدون ينوي شرح كل شيء لسيينا بعد هربهما من القبو، لكن لم تتسَّ له الفرصة.
هربت قبل أن تعرف أنني فشلت.

شعر بتشنج في معدته.

الطاعون ما زال موجوداً... على مسافة بعيدة.

شعر خارج الغرفة بوقع خطى عالية، فالتفت ليجد رجلاً يرتدي ملابس سوداء يدخل الغرفة. كان الجندي نفسه مقتول العضلات الذي سمره على أرض القبو. وجد عينيه باردتين كالجليد، فتراجع إلى الوراء عند اقترابه، لكن لم يكن يستطيع الفرار إلى أي مكان. بإمكان هؤلاء الناس فعل ما يشاءون بي.

سأله لانغدون بتحدٍ واضح: "أين أنا؟".

"على متن يخت راسي على شاطئ البندقية".

رمى لانغدون الميدالية المعلقة على زِي الرجل، والتي كانت تظهر عليها كرة أرضية محاطة بالأحرف ECDC. لم يسبق للانغدون أن رأى هذا الاختصار.

قال الجندي: "تريد منك معلومات، وليس لدينا وقت كافٍ".

"ولماذا تعتقدون أنني سأخبركم بأي شيء؟ لقد أوشكتكم على قتلتي".

"كلاً، لقد استخدمنا تقنية تثبيت من الجودو تدعى شيم وازر، ولم نقصد إيذاءك".

"لقد أطلقتم النار عليّ هذا الصباح!". كان يذكر بوضوح صوت الرصاصة التي أصابت دراجة سيينا. "أوشكت الرصاصة أن تستقر في عمودي الفقري!".

ضاقت عينا الرجل: "لو أردت أن أصيب عمودك الفقري لفعلت. لقد أطلقت رصاصة واحدة في محاولة لإصابة إطار الدراجة الخلفي؛ لأتمكن من إيقافك. فقد تلقيت أوامر للاتصال بك ومعرفة سبب سلوكك الغريب".

وقبل أن يتمكن لانغدون من استيعاب كلامه، دخل جنديان آخران واقتربا من سريره.

كانت تسير بينهما امرأة.

شعر وكأنه يرى شبحاً أتى من عالم آخر.

عرفها لانغدون فوراً. إنها المرأة التي كان يراها وهو يهذي. كانت جميلة، ذات شعر فضّي ملول وتضع حول عنقها سلسلة تتكلى منها تيممة زرقاء من اللزورد. لقد سبق له أن رآها أمام بحر من الجثث، لذلك استغرق بعض الوقت ليصدق أنها تقف أمامه بلحمها ودمها.

ابتسمت المرأة عندما وصلت إليه، وقالت: "بروفيسور لانغدون، الحمد لله أنك بخير". جلست وفحصت نبضه. "عرفت أنك مصاب بفقدان ذاكرة، هل تذكرني؟".

تأمل لانغدون المرأة لبعض الوقت. "راودتني... أحلام عنك، مع أنني لا أذكر أننا التقينا". مالت المرأة نحوه، وبدأ على وجهها التعاطف. "اسمي هو إليزابيث سينسكي. أنا مديرة منظمة الصحة العالمية، وقد جندتك لمساعدتي على العثور على -".

قال لانغدون: "وباء، صنعه بيرتراند زوبريست".

هزّت سينسكي رأسها، وبدأ عليها الارتياح. "هل تذكرت؟".
"كلاً، بل استيقظت في أحد المستشفيات مع مسلاط صغير غريب، وروى كنت فيها
تقولين لي: من يبحث بجد. وهذا ما كنت أحاول فعله عندما حاول هؤلاء الرجال قتلي". وأشار
لانغدون إلى الجنود.
حاول الرجل ذو العضلات المفتولة أن يردّ عليه، لكنّ إليزابيث سينسكي أسكتته بحركة من
يدها.

قالت بلطف: "بروفيسور، لا شكّ لديّ أنّك مرتبك جدّاً. وبصفتي الشخص الذي ورّطك في
كلّ ذلك، فإنني أشعر بالأسف الشديد بسبب كلّ ما جرى، وأحمد الله على سلامتك".
أجاب لانغدون: "سلامتي! أنا أسير على متن هذه السفينة!". وأنت كذلك!
هزّت المرأة رأسها بتفهّم. "أخشى أنّه بسبب فقدانك ذاكرتك، فإنّ الكثير ممّا سأشرحه لك
سيسبّب لك الاستغراب. غير أنّ الوقت قصير، والكثير من الناس يحتاجون إلى مساعدتك".
تردّدت سينسكي، غير واثقة ممّا إذا كان يتحمّن عليها أن تتابع. بدأت قائلة: "أولاً، عليك
أن تفهم أنّ العميل برودر وفريقه لم يحاولوا إيذاءك إطلاقاً، بل كانوا قد تلقّوا أوامر مباشرة
بإعادة الاتصال بك بأيّ طريقة ممكنة".
"إعادة الاتصال؟! لا أفهم -".

"بروفيسور، أصغِ إليّ رجاء. أعدك بإيضاح كلّ شيء".
استرخى لانغدون على سريره، ودخلت أفكاره دوامة، في حين واصلت سينسكي
حديثها.

"ينتمي العميل برودر ورجاله إلى شعبة المراقبة والدعم، التابعة للمركز الأوروبي للوقاية
من الأمراض ومكافحتها".

نظر لانغدون إلى الميداليات المعلّقة على بذلاتهم. الوقاية من الأمراض ومكافحتها؟!
تابعت: "مجموعتهم متخصصة في كشف خطر الأمراض المعدية واحتوائها. إنهم أساساً
فريق الأسلحة والتكتيكات الخاص لتخفيف المخاطر الصحية الحادّة وواسعة النطاق. وكنت أُملي
الوحيد في تحديد المرض الذي اخترعه زوبريست، لذلك عندما اختفيت، كلّفت فريق المراقبة
والدعم بإيجادك... لقد استدعيتهم إلى فلورنسا لتقديم المساعدة لي".
دُهِش لانغدون. "أقولين إنّ هؤلاء الجنود يعملون لحسابك؟".

أومأت برأسها. "بإعارة من المركز الأوروبي. في الليلة الفائتة، عندما اختفيت وتوقّفت عن
الاتصال، ظننا أنّ مكروهاً قد أصابك. لكن، هذا الصباح، اكتشف فريقنا التقني أنّك دخلت
حساب بريدك الإلكتروني في جامعة هارفرد، فعرّفنا أنّك على قيد الحياة. وحتىّ تلك اللحظة،
كان تفسيرنا الوحيد لسلوكك الغريب هو أنّك أصبحت تعمل لحسابهم... وأنّه ربّما عُرض عليك
مبلغ كبير من المال لكي تجد الوباء من أجل شخص آخر".
هزّ لانغدون رأسه قائلاً: "هذا غير معقول!".

صحيح. هذا سيناريو غير محتمل، لكنه كان التفسير المنطقي الوحيد. ونظراً إلى خطورة الوضع، لم نشأ المخاطرة. بالطبع، لم نتخيل قط أنك تعاني من فقدان الذاكرة. لذلك، عندما عرف الفريق التقني أنك دخلت بريدك الإلكتروني، تعقبنا عنوان بروتوكول الإنترنت، وعثرنا على الشقة في فلورنسا وتوجهنا إليها. لكذلك هربت على متن دراجة مع تلك المرأة، مما ضاعف من شكوكنا بأنك تعمل لحساب جهة أخرى".

فوجئ لانغدون. "لكننا مررنا بجانبكم! رأيتمك جالسة على المقعد الخلفي لسيارة فان سوداء، ومحاطة بالجنود. اعتقدت أنك أسيرة لديهم. بدا عليك أنك تهذين، وكأنك مخدرة".

فوجئت د. سينسكي. "رأيتنا؟! أنت محق... كانوا يعطونني دواء". صممت ثم أضافت: "لكن، لأنني أمرتهم بذلك".

عندئذ، شعر لانغدون بارتباك تام. هي طلبت منهم تخديرها!!

قالت سينسكي: "ربما كنت لا تذكر ذلك، لكن عندما حطت طائرة C-130 في فلورنسا، عانيت من نوبة تُعرف باسم دوار الوضعة الانتيابي، وهي حالة تصيب الأذن الوسطى، وقد عانيت منها في الماضي. إنها مؤقتة وليست خطيرة، لكنها تسبب للمريض الدوار والغثيان، حيث يعجز عن النهوض من السرير. عادة، ألزم الفراش وأعاني من الغثيان الحاد، لكننا حالياً نواجه مشكلة بسبب زوبريست، لذلك وصفت لنفسي حقناً من الميتوكلوبراميد تعطى كل ساعة لمنع التقيؤ. للدواء أثر جانبي قوي يتمثل في الشعور بالنعاس الشديد، غير أنه ساعدني على إدارة العمليات عبر الهاتف من المقعد الخلفي لسيارة الفان. أراد فريق الدعم والمساعدة اصطحابي إلى مستشفى، لكنني منعتهم من ذلك إلى أن تتم مهمة استرجاعك. لحسن الحظ، زال الدوار أخيراً في أثناء الرحلة إلى البندقية".

تمدد لانغدون على سريريه بعصبية. كنت أمرب طوال اليوم من منظمة الصحة العالمية، أي الأشخاص أنفسهم الذين جندوني في الأساس.

أعلنت سينسكي بالحاح: "علينا التركيز الآن، بروفييسور. هل لديك أي فكرة عن مكان وباء زوبريست؟". حثت إليه بترقب كبير. "الوقت ضيق جداً".

أراد لانغدون أن يقول لها إنه بعيد جداً، لكن شيئاً ما استوقفه. نظر إلى برودر؛ الرجل الذي أطلق عليه النار هذا الصباح وأوشك أن يخنقه بعد ساعات. بالنسبة إلى لانغدون، كانت الحقائق تتبدل على نحو سريع جداً، حيث إنه لم يعد يعرف من عليه أن يصدق.

مالت سينسكي نحوه، ونظرت إليه بحدة أكبر. "لدينا انطباع بأن المرض هنا في البندقية، أليس كذلك؟ أخبرنا عن مكانه لكي أرسل فريقاً إلى اليايسة".

تردد لانغدون.

قال برودر بنفاد صبر: "سيدي! من الواضح أنك تعرف شيئاً... أخبرنا أين هو! فأنت لا تفهم ما الذي يحدث".

التفتت سينسكي إلى الرجل غاضبة. "عميل برودر، هذا يكفي". ثم التفتت مجدداً إلى لانغدون وتحدثت معه بلطف. "نظراً إلى ما مررت به، أنا أفهم تماماً الارتباك الذي تشعر به، وترددك في الوثوق بنا". صممت قليلاً وحدقت إلى عينيه. "لكنّ وقتنا ضيق، وأنا أطلب منك أن تتق بي".

سأل صوت جديد: "هل يستطيع لانغدون الوقوف؟".

وقف عند الباب رجل قصير القامة، وأنيق المظهر، ذو بشرة سمراء داكنة. تأمل لانغدون بهدوء، لكنّ هذا الأخير رأى الخطر في نظراته.

أومأت سينسكي للانغدون لكي يقف. "بروفيسور، هذا رجل أفضل ألا أتعاون معه، لكنّ الوضع خطير على نحو لم يترك لي أي خيار آخر".

نهض لانغدون متردداً، ثم وقف واستغرق بعض الوقت ليستعيد توازنه.

قال الرجل وهو يتّجه نحو الباب: "اتبعني، ثمة ما أريد أن أريك إياه".

وقف لانغدون في مكانه وسأله: "من أنت؟".

توقّف الرجل، وانقبضت أصابعه. "الأسماء ليست مهمة. يمكنك مناداتي العميد. أنا أدير منظمة... ويوسفني القول إنها أخطأت في مساعدة بيرتراند زوبريست على تحقيق أهدافه. أنا أحاول الآن تصحيح ذلك الخطأ قبل فوات الأوان".

سأله لانغدون: "ماذا ستريني؟".

رمق الرجل لانغدون بنظرة حادة. "سأريك شيئاً لن يترك لديك أدنى شك في أننا جميعاً في الخندق نفسه".

الفصل 78

تبع لانغدون الرجل في مائة من الأروقة الضيقة تحت سقف اليخت، مع د. سينسكي والجنود الذين مشوا خلفه في صف واحد. عندما اقتربت المجموعة من أحد السلالم، تمنى لانغدون أن يصعدوا إلى ضوء النهار، إلا أنهم نزلوا إلى مستوى أعظم في السفينة. عندما أصبحوا في أحشاء اليخت، قادهم العميد عبر مجموعة من الحجرات الزجاجية، بعضها ذو زجاج شفاف، والبعض الآخر محجوب. وكان في كل حجرة عدد من الموظفين الذين يعملون بجديّة على الحواسيب الإلكترونية أو يتحدثون عبر الهواتف من دون أن تسمع أصواتهم بفضل عازل للصوت. من لاحظ منهم مرور المجموعة، بدا عليهم القلق لرؤية غرباء في هذا الجزء من السفينة. غير أن الرجل الأسمر أوما لهم مطمئناً وتابع طريقه.

تساءل لانغدون عن ماهية المكان وهم يعبرون سلسلة أخرى من الحجرات. أخيراً، وصل مضيفهم إلى قاعة اجتماعات كبيرة ودخلوا جميعاً. ضغط الرجل على زر وحُجب الزجاج فجأة. فوجئ لانغدون الذي لم يسبق له أن رأى شيئاً كهذا. أخيراً، سأل لانغدون: "أين نحن؟".

"هذه سفينتي، المينداسيوم".

"مينداسيوم؟! أهي المرادف اللاتيني لكلمة بسودولوجوس، أي إله الخداع؟".

فوجئ الرجل. "قليلون هم من يعرفون ذلك".

فكر لانغدون: لا يمكن اعتبارها تسمية نبيلة. فالمينداسيوم هو الإله الذي يسود كل السودولوجوي؛ أي الشياطين المتخصصة في التزوير، والكذب، والافتراء.

أخرج الرجل شريحة ذاكرة حمراء صغيرة ووضعها في كمبيوتر موصول بشاشة إلكترونية كبيرة مسطحة. أضاعت الشاشة في حين خفت إضاءة المصابيح فوق رؤوسهم.

في ذلك الصمت، سمع لانغدون خرير مياه. ظن في البداية أنه آت من خارج السفينة، ثم أدرك أن الصوت ينتهي إليه من مكبرات الصوت الموصولة بالشاشة. ظهرت ببطء صورة جدار كهف رطب، ينبعث ضوء متموج مائل إلى الاحمرار.

قال مضيفهم: "هذا الفيلم من إعداد بيرتراند زوبريست الذي طلب مني نشره غداً".

شاهد لانغدون الفيلم الغريب وهو عاجز عن التصديق... كهف يحتوي على بحيرة... غاصت فيها الكاميرا... ووصلت إلى القعر المكسو بالطمي، إلى أن ظهرت لوحة كُتبت عليها: في هذا المكان، وفي هذا التاريخ، تغير العالم إلى الأبد.

كانت اللوحة موقّعة باسم بيرتراند زوبريست.

وكان التاريخ هو يوم غد.

يا إلهي! التفت لانغدون إلى سينسكي في ظلام الغرفة، لكنّها كانت تحدّق إلى الأرض بشرود، ويبدو أنّه سبق لها أن شاهدت الفيلم ولم تعد قادرة على مشاهدته مجدداً.
مالت الكاميرا الآن إلى اليسار، ودُهل لانغدون عندما رأى تحت سطح الماء فقاعة، هي عبارة عن كيس شفاف من النايلون يحتوي على سائل جيلاتيني بني مائل إلى الاصفرار يتمايل في القعر. بدا الكيس الرقيق مثبّثاً بالأرض لكي لا يرتفع إلى السطح.
تأمل لانغدون الكيس وهو يتساءل عن ماهيته. رأى محتوياته تتموّج ببطء...

فجأة، حبس أنفاسه. وباء زوبريست.

قالت سينسكي: "أوقف الفيلم".

تجمّدت الصورة، وبدا الكيس أشبه بغيمة من السائل معلقة تحت الماء.
تابعت قائلة: "أعتقد أنك تعرف ما هذا. لكن السؤال إلى متى سيصمد ذلك الكيس". أشارت إلى علامة صغيرة على الكيس الشفاف وقالت: "مع الأسف، تخبرنا هذه العلامة عن المادة التي صنع منها الكيس. هل تستطيع قراءتها؟".

حدّق لانغدون جيداً إلى الكلمة التي بدت أنّها تشير إلى العلامة التجارية: سوليوبلون.

قالت سينسكي: "إنّه أكبر مصنع للأكياس القابلة للذوبان في الماء".

شعر لانغدون بتشنّج في معدته: "هل تعنين أنّ هذا الكيس... ينوب؟!".

هزّت سينسكي رأسها بكآبة: "لقد اتصلنا بالمصنّع وعلمنا منه مع الأسف أنّهم يصنّعون عشرات الدرجات المختلفة من هذه الأكياس التي يستغرق ذوبانها بين عشر دقائق إلى عشرة أسابيع؛ اعتماداً على الدرجة. وتعتمد وتيرة الذوبان أيضاً على نوع المياه وحرارتها، لكن لا شك لدينا في أنّ زوبريست أخذ هذه العوامل في الحسبان". صمتت ثم أضافت: "ونحن نظنّ أنّ هذا الكيس سينوب بحلول -".

قاطعها العميد: "يوم غد. غداً هو التاريخ الذي حدّده زوبريست على روزنامتي، وهو أيضاً التاريخ المذكور على اللوحة".

جلس لانغدون عاجزاً عن الكلام

قالت سينسكي: "دعه يشاهد الباقي".

عادت الصورة إلى الحياة، وأظهرت الكاميرا المياه المتوهّجة وظلام الكهف. لم يكن لدى لانغدون أدنى شكّ في أنّ هذا هو المكان المذكور في القصيدة. البحيرة التي لا تعكس النجوم.
كان المشهد يذكرّ بصور من جحيم دانتي... كنهر كوسيتوس الذي يتدفّق عبر كهوف العالم السفلي.

أيّاً يكن المكان الذي تقع فيه هذه البحيرة، فإنّ مياهها موجودة داخل جدران شديدة الانحدار، ومكسوة بالطحالب؛ ممّا دفع لانغدون إلى الاعتقاد أنّها من صنع الإنسان. شعر أيضاً أنّ الكاميرا لم

تظهر سوى زاوية صغيرة من ذلك المكان الواسع، وهي فكرة دعمها وجود ظلال عمودية باهتة جداً على الجدار. كانت الظلال شبيهة بالأعمدة التي تفصل بينها مسافات متساوية. إنَّ سقف هذا الكهف مدعّم بالأعمدة.

هذه البحيرة ليست في كهف، بل في قاعة ضخمة.

اهبط إلى أعماق القصر الفارق...

قبل أن يتمكّن من قول أيّ كلمة، تحوّل انتباهه إلى ظلّ جديد ظهر على الجدار... إلى شكل بشري ذي أنف طويل معقوف.

آه، يا إلهي...

بدأ الظلّ يتحدّث، بكلمات ممّوءة، ويهمس بإيقاع شعري مخيف.

"أنا خلاصكم. أنا الظلّ."

خلال الدقائق التالية، شاهد لانغدون أفضع فيلم رآه في حياته. من الواضح أنّه هذان عبقرى مجنون، ومناجاة من بيرتراند زوبريست الذي يظهر في مظهر طبيب طاعون. كان مليئاً بإشارات إلى جحيم دانتي، ويحمل رسالة واضحة جداً: إنّ النموّ السكاني يخرج عن السيطرة ويهدّد بقاء الجنس البشري وتوازنه.

على الشاشة، أعلن الصوت قائلاً:

"إن جلسنا مكتوفي الأيدي فإنّنا نرخب بجحيم دانتي... منكمشين، ومتضوّرين جوعاً، ومتخبّطين في الخطيئة. لذلك، تحرّكت بجرأة. سينتفض البعض مذعوراً، لكنّ الخلاص لا يأتي من دون ثمن. يوماً ما، سيفهم العالم قيمة تضحيّتي."

أجفل لانغدون عندما ظهر زوبريست نفسه متكرّراً بزيّ طبيب طاعون، ثمّ خلع قناعه. حتّى لانغدون إلى الوجه الكئيب والعينين الخضراوين، وأدرك أنّه يرى أخيراً وجه الرجل الذي سبّب هذه الأزمة. في تلك اللحظة، بدأ زوبريست يعبر عن حبه لشخص أسماء مصدر إلهامه.

"إنّني تركت المستقبل بين يديك الحنونين. لقد انتهى عملي هنا وحانت الساعة لأصعد إلى الأعلى... وأعانق النجوم."

مع انتهاء الشريط، عرف لانغدون أنّ كلمات زوبريست الأخيرة تشبه كثيراً الأبيات الأخيرة من *إنفيرنو* دانتي.

في ظلام قاعة الاجتماعات، أدرك أنّ كلّ لحظات الخوف التي عاناها اليوم تجسّدت في حقيقة مخيفة واحدة.

لقد أصبح لبيترزاند زوبريست وجه... وصوت.

أضيت الغرفة مجدداً، ورأى لانغدون كلّ الأعين مركّزة عليه بترقب.

كانت تعابير وجه إليزابيث سينسكي جامدة وهي تقف وتداعب تميّتها بتوتّر. "بروفيسور، من الواضح أنّ وقتنا ضيق جداً. النّبا السعيد الوحيد هو أنّه لم يتمّ حتّى الآن اكتشاف أيّ حالات مرضية، لذلك نحن نفترض أنّ الكيس ما زال سليماً. غير أنّنا لا ندري أين يجب أن نبحث عنه. علينا إبطال هذا الخطر باحتواء الكيس قبل نوبانه. لذلك، لا بدّ من أن نعرف مكانه فوراً".

وقف العميل برودر وحدّق إلى لانغدون بتركيز. "نحن نفترض أنّك أتيت إلى البندقية لأنّك عرفت أنّ زوبريست قد خبأ وياه هنا".

حدّق لانغدون إلى الوجوه المحيطة به التي سيطر عليها الخوف. كان الجميع ينتظرون أعجوبة؛ حيث تمنّى لو أنّ لديه أخباراً أفضل ليقدّمها إليهم.

أعلن قائلاً: "نحن في البلد الخاطئ. ما تبحثون عنه موجود على بعد ألف ميل تقريباً من هنا". ارتجّت أحشاء لانغدون مع محرّكات المينداسيوم التي راحت تعمل بأقصى سرعتها معيدة إيّاهم إلى مطار البندقية. على متنها، دارت حركة محمومة. اندفع العميد وهو يصيح بالأوامر لطاقمه، فيما تناولت سينسكي هاتفها واتصلت بطاقم طائرة C-130 التابعة لمنظمة الصحة العالمية، وطلبت منهم الاستعداد للإقلاع من مطار البندقية بأسرع وقت ممكن. أمّا العميل برودر فجلس أمام الحواسيب المحمولة محاولاً التنسيق مع فريق دولي في المدينة التي يقصدونها. *إنّنا بعيدين جداً.*

عندما عاد العميد إلى قاعة الاجتماعات، سأل برودر: "هل من معلومات من سلطات البندقية؟".

هزّ برودر رأسه ناعياً. "لا أثر لها. إنهم يبحثون عنها، لكنّ سبيّنا بروكس قد اختفت".

فوجئ لانغدون. هل يبحثون عن سبيّنا؟

أنهت سينسكي مكالمتها الهاتفية وانضمت إلى الحديث. "ألم يتمّ العثور عليها؟".

أجابها العميد بالنفي. "إن وافقتم، اعتقد أنّ منظمة الصحة العالمية ستسمح باستخدام القوة عند الضرورة لإحضارها".

قفز لانغدون واقفاً. "لماذا؟! لا علاقة لسبيّنا بروكس بأيّ من ذلك؟!"

نظر العميد إلى لانغدون وقال: "بروفيسور، ثمة أمور لا تعرفها عن الأنسة بروكس".

الفصل 79

راحت سيبينا تمشي مسرعة بين السياح على جسر رياتو، ثم أخذت تركض متجهة إلى الغرب على طول ممشي فوندامنتا فين كاستيلو المواجه للقناة.
لقد أمسكوا بروبرت.

ما زالت ترى عينيهِ الياستين وهما تحدقان إليها بينما كان الجنود يسحبونه عبر المنور إلى القبو. لم يكن لديها أدنى شك في أن الذين أمسكو. به سرعان ما سيفنعونه، بطريقة أو بأخرى، بكشف كل ما عرفه.

إننا في البلد الخاطيء.

لكن ما أزعجها أكثر هو أنهم لن يتردّوا في كشف حقيقة الوضع للانغدون.
أنا آسفة روبرت.

آسفة على كل شيء.

كن واثقاً أنه لم يكن لدي خيار آخر.

الغريب أن سيبينا اشتاقت إليه منذ الآن. هنا، وسط حشود البندقية، شعرت بوحدة مألوفة.
لقد رافقها إحساس الوحدة منذ الطفولة.

كانت سيبينا تتميز بذكاء استثنائي، لذلك أمضت شبابها وهي تشعر أنها غريبة في أرض غريبة... وكأنها كائن فضائي مسجون في عالم غير عالمه. حاولت أن تكون صداقات، لكن أبناء جيلها كانوا منغمسين في تقاهات لا تثير اهتمامها. حاولت أن تحترم من هم أكبر سناً منها، لكن معظم الراشدين بدوا بالنسبة إليها أطفالاً كباراً يفتقرون إلى أبسط المبادئ لفهم العالم من حولهم، ولا يملكون أي فضول أو اهتمام به.

لم أشعر يوماً أنني جزء من شيء ما.

وهكذا، تعلّمت سيبينا بروكس كيف تصبح شبحاً. تعلّمت كيف تكون حرياء، وممثلة، ووجهاً عادياً بين الوجوه. ولا شك لديها في أن شغفها القديم بالتمثيل على المسرح نشأ من حلمها في أن تصبح شخصاً آخر؛ شخصاً طبيعياً.

ساعدتها دورها في مسرحية شيكسبير، حلم ليلة صيف، على الإحساس بأنها جزء من شيء ما. كما أن الممثلين الأكبر سناً دعموها بتواضع. غير أن فرحتها كانت قصيرة، وتبخرت في اللحظة التي غادرت فيها المسرح في ليلة الافتتاح وواجهت الحشود الإعلامية المدهوشة، في حين تسلّل زملاؤها بهدوء من الباب الخلفي.

اصبحوا يكرهونتي هم أيضاً.

في سنّ السابعة، قرأت سيبّا ما فيه الكفاية لتعرف أنّها مصابة باكتئاب عميق. وعندما أخبرت والديها، بدا عليهما الذهول كعادتهما إزاء غرابة ابنتهما. ومع ذلك، قاما بإرسالها إلى طبيب نفسي، فطرح عليها الكثير من الأسئلة التي سبق لها أن طرحتها على نفسها، ثم وصف لها مزيجاً من الأميتريبتيلين والكلورديازيبوكسيد.

شعرت سيبّا بالغضب، فقزت قائلة: "أميتريبتيلين؟! أريد أن أكون أكثر سعادة وليس جنة حية!".

ظلّ الطبيب النفسي هادئاً أمام نوبة غضبها، وعرض عليها اقتراحاً آخر. "سيبّا، إن كنت تفضّلين عدم استخدام الأدوية، يمكننا أن نجرب مقارنة مختلفة. يبدو أنّك عالقة في حلقة مفرغة من التفكير بنفسك وعدم انتماذك إلى العالم".

أجابت سيبّا: "هذا صحيح. أحاول أن أتوقّف عن ذلك، لكنني لا أستطيع!".

ابتسم بهدوء. "هذا طبيعي. فمن المستحيل جسدياً على العقل البشري عدم التفكير بشيء. وذلك لأنّ الأرواح تتوق إلى العاطفة، وتستمرّ بالبحث عما يغذي تلك العاطفة، سواء أكان جيداً أم سيئاً. ومشكلتك أنّك تعطّين عقلك الغذاء الخاطئ".

لم يسبق لسيبّا أن سمعت أحداً يتكلم عن العقل بهذه العبارات الميكانيكية، الأمر الذي أثار اهتمامها على الفور. "وكيف أعطيه غذاءً مختلفاً؟".

قال: "عليك تحويل تركيزك الفكري. أنت حالياً تفكرين بنفسك، وتتساءلين عن سبب عدم انسجامك مع العالم من حولك... وهذا ليس مناسباً لك".

أجابته مجدداً: "هذا صحيح، لكنني أحاول حلّ المشكلة. أحاول الانسجام، ولا يمكنني أن أحلّ هذه المشكلة إن لم أفكر بها".

ضحك مجيئاً: "أعتقد أنّ التفكير بالمشكلة... هو مشكلتك". واقترح عليها الطبيب أن تحاول تحويل تركيزها عن نفسها ومشاكلها الخاصة... والاهتمام بالعالم من حولها... ويمشاكله. عندئذٍ تغبّر كلّ شيء.

حوّلت طاقتها من الشعور بالأسف على نفسها إلى الشعور بالأسف على الآخرين. فأصبحت تقوم بأعمال خيرية، وتساعد المحتاجين والمشرّدين، وتقرأ الكتب للعميان. وما فاجأها أنّ الناس لم يلاحظوا اختلافاً، بل فرحوا باهتمامها بهم.

عملت سيبّا بجهد أكبر كلّ أسبوع، ولم تتمكن من النوم بسهولة لأنّها أدركت أنّ الكثير من الناس يحتاجون إلى مساعدتها.

كان زملاؤها يقولون لها: "سيبّا، تمهّلي! لا يمكنك إنقاذ العالم!".

يا له من كلام فظيع!

خلال عملها في الخدمة العامة، تعرّفت على أعضاء في مجموعة خيرية محلية، دعوها للانضمام إليهم في رحلة لمدة شهر إلى الفيليبين، فاستغلّت الفرصة على الفور.

تخيلت أنهم سيقومون بإطعام صيادين أو مزارعين فقراء في الأرياف التي قرأت أنها تمتاز بجمال جيولوجي فريد؛ ببهارها وسهولها الخلابية. لذلك، عندما استقرت المجموعة بين حشود الناس في مدينة مانيلاً ذات الكثافة السكانية الأعلى في العالم، صُغقت سينيّا. لم يسبق لها أن رأت هذه الدرجة من الفقر.

كيف يمكن لشخص واحد أن يحدث فرقاً؟

مقابل كلّ شخص تطعمه سينيّا، كان ثمة مئات الأشخاص الآخرين الذين يحدّقون إليها بأعين يائسة. كانت مانيلاً تعاني من ازدحام سير يمتدّ ستّ ساعات، ومن نسبة خائفة من التلوث، كما تمارس فيها تجارة الجنس على نحو فظيع، ومعظم العاملين فيها هم أساساً من الأطفال، والكثيرون منهم باعهم أهلهم على أمل أن يجدوا على الأقلّ من يطعمهم.

وسط هذه الفوضى المتمثلة في دعاة الأطفال، والمتسولين، والنشالين وجدت سينيّا نفسها مشلولة فجأة. لم تر حولها سوى بشرٍ تسيرهم نزعة البقاء البدائية. فعندما تواجه الكائنات البشرية اليأس... تتحوّل إلى حيوانات.

عندئذ، عاد إليها كلّ إحباطها، وفهمت أنّ الجنس البشري يترنّح على شفير الهاوية.

قالت لنفسها: لقد كنت مخطئة. لا يمكنني إنقاذ العالم.

شعرت بتوتر كبير، وراحت تركض في شوارع المدينة بين الناس، وتدفعهم من طريقها بحثاً عن هواء نظيف.

شعرت أنّ الأجساد البشرية تخنقني!

بينما كانت تركض، أحسّت أنّ الأعين تتركّز عليها مجدّداً. لم أعد أنسجم مع الناس. كانت طويلة القامة، وفاتحة البشرة، ذات شعر أشقر مسرّج على شكل ذيل حصان يتأرجح خلفها. فحدّق إليها الرجال وكأنّها عارية.

عندما تعبت أخيراً، لم تعرف كم ركضت أو إلى أين وصلت. مسحت الدموع عن عينيها، ووجدت نفسها في حي فقير جدّاً، منازل مصنوعة من الصفائح المعدنية وورق الكرتون المكوّم فوق بعضه بعضاً. خيم على المكان صراخ الأطفال والروائح الكريهة.

لقد دخلت أبواب الجحيم.

قال صوت خلفها: "توريستا، ما عكانو؟". كم؟

استدارت فرأت ثلاثة رجال يقتربون منها ولعابهم يسيل كالذئاب. عرفت فوراً أنّها في خطر، وحاولت التراجع، لكنهم أحاطوا بها مثل حيوانات مفترسة.

صاحت طالبة النجدة، لكنّ أحداً لم يكثرث. رأت على بعد مسافة قصيرة امرأة عجوزاً جالسة على إطار سيارة وهي تقشر بصلة متعفّنة بسكين صدئة. غير أنّ المرأة لم يرف لها جفن عندما بدأت سينيّا تصرخ.

حين أمسك بها الرجال وجزّوها إلى داخل كوخ صغير، عرفت تماماً ما الذي سيجري، لذلك استبدّ بها خوف رهيب. قاومت بكلّ ما أوتيت من قوّة، لكنهم كانوا أقوى منها، فنبّثوها على فراش قديم منسّخ.

مزّقوا ثيابها، وعندما صرخت، وضعوا في فمها قميصها الممزّق، حيث أوشكت على الاختناق. بعد ذلك، مدّدوها على بطنها والتصق وجهها في السرير المتعفن.

على الرغم من كلّ شكوكها ومعتقداتها السابقة، وجدت نفسها تدعو... تدعو من قلبها. *أرجوك يا إلهي، أنقذني.*

سمعت وهي تدعو الرجال يضحكون وهم يجردونها من ملابسها. ثمّ اقترب منها أحدهم، وراح العرق يقطر على ظهرها.

فكرت: أنا عذراء، أمّا ما سيحدث لي؟

أخيراً، وعندما اعتقدت أنّ أمرها قد انتهى، ابتعد عنها الرجل وتحول الضحك إلى صراخ غضب وخوف. فجأة، شعرت أنّ العرق الذي كان يقطر على ظهرها أصبح يتدفّق... ويلوّث الفراش ببقع حمراء.

عندما استدارت سبيّناً لترى ما يجري، رأت المرأة العجوز تحمل بيدها البصلة والسكين الصدئة، وتقف قرب مهاجمها الذي ينزف بشدّة من ظهره.

رمقت المرأة الرجلين الآخرين بنظرة غضب، ولوّحت بسكينها الدامية في الهواء؛ إلى أن هرب الرجال الثلاثة.

من دون التوقّؤ بأيّ كلمة، ساعدت المرأة العجوز سبيّناً على جمع ملابسها وارتدائها.

همست سبيّناً وهي تبكي: *"سلامات. شكراً لك."*

فأشارت المرأة إلى أذنّها، بقصد القول إنّها صماء.

فجمعت سبيّناً كلّها معاً وأغمضت عينيها، ثمّ أحنّت رأسها في حركة احترام. وعندما فتحت عينيها، كانت المرأة قد اختفت.

هكذا، غادرت سبيّناً الفليبيين على الفور، من دون أن تودّع بقية أعضاء المجموعة. لم تخبر أحداً بما جرى معها. أملّت أن يساعدها تجاهل الحادثة على نسيانها، لكنّ الوضع ازداد سوءاً. أمضت أشهراً وهي تعاني من الكوابيس، ولم تعد تشعر بالأمان في أيّ مكان. تدرّبت على الفنون الحربية، ومع أنّها أتقنت بسرعة مبادئ ديم ماك، إلّا أنّها ظلّت تشعر أنّها في خطر.

عاد إليها اكتئابها مضاعفاً، وتوقّفت عن النوم تماماً. كلّما سرّحت شعرها، لاحظت أنّ خصلاً كبيرة منه تتساقط يوماً بعد يوم. وبعد أسابيع، أصبحت شبه صلعاء. شخّصت حالتها بنفسها، وعرفت أنّها مصابة بتساقط الشعر الناتج عن التوتر، والذي لا علاج له سوى بعلاج التوتر. كلّما نظرت إلى نفسها على صفحة المرأة، رأت رأسها الأصلع، وشعرت بنبضها يتسارع. *أبدو مثل امرأة عجوز!*

أخيراً، لم يعد أمامها خيار سوى حلاقة شعرها. على الأقل، لن تبدو عجوزاً، بل ستبدو مريضة بكلّ بساطة. تجنّباً لذلك، قامت بشراء شعر مستعار على شكل ذيل حصان، وهكذا أحسّت أنّها عادت تشبه نفسها مجدداً.

لكنّ سيبينا بروكس تغيّرت في داخلها.

أصبحت بضاعة متضرّرة.

وفي محاولة يائسة لتخطّي تلك التجربة، سافرت إلى أميركا، ودرست الطبّ. لطالما كان لديها ميل إلى الطبّ، وأملت أن يساعدها ذلك على الإحساس بأنّها ذات فائدة... أنّها تقوم بشيء على الأقلّ لتخفيف المعاناة في هذا العالم.

على الرغم من ساعات الدراسة الطويلة، كانت الدراسة سهلة بالنسبة إليها. وبينما كان أصدقاؤها يدرسون، كانت تقوم بالتمثيل بدوام جزئيّ لكسب بعض المال. لم تمثّل في مسرحيات شيكسبير بالطبع، لكنّ مواهبها اللغوية وقدرتها على الحفظ جعلت التمثيل بالنسبة إليها ملجأ تنسى فيه من تكون... وتصبح شخصاً آخر.

أيّ شخص.

حاولت سيبينا الهرب من نفسها منذ أن أصبحت قادرة على الكلام. في طفولتها، تخلّت عن اسمها الأساسي، فيليسيّتي، واعتمدت اسمها الثاني، سيبينا. فاسم فيليسيّتي يعني "محظوظة"، وكانت تعرف أنّها ليست كذلك.

ذكّرت نفسها: لا تركزِ على مشاكلك الخاصّة، بل على مشاكل العالم.

نوبة الذعر التي أصابتها في شوارع مانيلاً المكتظة جعلتها تهتمّ بالزيادة السكانية في العالم. وهكذا، تعرّفت على كتابات بيرتراند زويريست، وهو مهندس جيني قدّم نظريات تقدّمية جداً بشأن سكان العالم.

أدركت أنّه عبقرى وقرأت عنه الكثير. لم يسبق لسيبينا أن شعرت بذلك حيال أيّ شخص آخر، وكلّما قرأت عن زويريست، أحسّت أنّها تتعرّف على توأم روحها. ذكرتها مقالته "لا يمكنك إنقاذ العالم" بما كان يقوله لها الناس عندما كانت طفلة... غير أنّ زويريست كان يعتقد العكس تماماً.

كتب زويريست: يمكنك إنقاذ العالم. إن لم يكن أنت من ينقذه فمن سيفعل؟ وإن لم يكن

الآن فمتى؟

درست سيبينا معادلات زويريست الرياضية بعناية، واطّلعت على توقّعاته التي تنذر بكارثة عظيمة وبانهيار وشيك للأجناس. كانت تحبّ التوقّعات على مستوى عالٍ، لكنّها شعرت بتوتر متعاطف وهي ترى المستقبل بأكمله أمامها... كما تتوقّعه الرياضيات... على نحو بديهي... وحتمي.

لماذا لا يرى أحد ذلك؟

ومع أنّ هذه الفكرة أخافتها، إلّا أنّها أصبحت مهووسة بزويريست، تشاهد أفلامه ومحاضراته، وتقرأ كلّ ما يكتبه. وعندما سمعت أنّه سيلقي محاضرة في الولايات المتّحدة، عرفت أنّ عليها الذهاب لرؤيته. وفي تلك الليلة، تغيّر عالمها بكامله.

أضاعت وجهها ابتسامة وهي تستعيد مجدداً تلك الأهمية الساحرة التي تذكرتها جيداً قبل ساعات وهي جالسة في القطار مع لانغدون وفيريس.
شيكاجو. العاصفة الثلجية.

يناير، قبل ست سنوات... لكن، يبدو الأمر كما لو أنّ اللقاء كان بالأمس. كنت أمشي بين الثلوج في شارع ماغنيفيسانت مايل الذي تعصف فيه رياح عاتية. على الرغم من البرد، قلت في سري إن شيئاً لن يثبتي عن هدفي. هذه الليلة هي فرصتي لسماع بيرتراند زوبريست يتحدث... شخصياً.

كنت قد قرأت كل ما كتبه الرجل، وشعرت بالسعادة لأنني أملك إحدى البطاقات الخمسمائة التي طبعت لهذه المناسبة. عندما وصلت، شعرت بالذعر لدى رؤيتي القاعة شبه خالية. هل ألقي الخطاب بسبب سوء الأحوال الجوية؟ أخيراً وصل.

دخل بقامته الفارعة ووقف على المسرح. نظر إلى القاعة الخالية التي لم يكن فيها سوى عشرة تقريباً من معجبيه؛ الأمر الذي أشعرنى بالخجل.
هذا هو بيرتراند زوبريست!

مرت لحظة صمت طويلة وهو يحدق إلينا بجدية.
فجأة، ومن دون سابق إنذار، انفجر ضاحكاً ولمعت عيناه الخضراوان وقال: "فلتذهب هذه القاعة الخالية إلى الجحيم. فننقي قريب، لنذهب إلى هناك".

ضحك الموجودون وتوجهنا إلى الفندق المجاور. اجتمعنا هناك وطلب الشراب. اتحفنا زوبريست بقصص عن أبحاثه، وصعود نجمه، وأفكاره حول مستقبل الهندسة الجينية. ثم انتقل إلى الحديث عن موضوع شغفه مؤخراً، ألا وهو الفلسفة ما وراء الإنسانية.

قال زوبريست: "أعتقد أنّ الفلسفة ما وراء الإنسانية هي أملنا الوحيد للبقاء طويل الأمد". ثم شدّ ياقة قميصه ليظهر للجميع وشماً على كتفه "H+". "كما ترون، أنا ملتزم بها تماماً".

لم أتخيل أن يكون "عقري علم الوراثة" شخصاً كاريزماتياً وجذاباً إلى هذا الحد. كلما نظرت إليه، أشعلت في عيناه الخضراوان إحساساً غير متوقع... جاذبية عميقة.
مع انقضاء الليل، تفرقت المجموعة، واستأذن الحاضرون للعودة إلى الواقع. وبحلول منتصف الليل، أصبحنا بمفردنا أنا وبيرتراند زوبريست.

قلت له وقد أثر الشراب في تركيزي: "شكراً لك على هذه الليلة. أنت أستاذ رائع".
ابتسم ومال نحوي فتلامست ساقلنا: "هذا الغزل قد يقودك إلى أي مكان".
من الواضح أن الغزل لم يكن ملائماً. لكن، كانت ليلة جليدية في فندق خالٍ، وبدا وكأن العالم بأسره قد توقف.

قال زوبريست: "ما رأيك؟ هل نتناول كأساً في غرفتي؟".
تسمرت من المفاجأة، وعرفت أنني أبداً كغزال فاجأته أضواء سيارة.

شعرت باحمرار وجهي، وكافحت لأخفي انفعالاتي التي تراوحت بين الإحراج، والإثارة، والخوف. قلت: "في الواقع، بصراحة، لم يسبق لي أن كنت مع أي رجل".
ابتسم زوبريست واقترب أكثر: "لا أعرف ما الذي كان يؤخرك، لكن أود أن أكون الأول".
في تلك اللحظة، تلاشت كل مخاوف الطفولة المكبوتة... تبخرت في تلوج الليل.
ثم أصبحت بين ذراعيه.
همس قائلاً: "استرخي سييئاً". وتعرفت معه على أحاسيس لم أتخيل وجودها.
شعرت معه أن كل شيء في هذا العالم صحيح، وعرفت أن حياتي أصبح لها هدف.
لقد وجدت الحب.
وسأتيه إلى أي مكان.

الفصل 80

على متن الميند/سيوم، تمسك لانغدون بالدرازين الخشبي المصقول، وحاول تثبيت قدميه المرتجفتين والنقاط أنفاسه. كان الهواء قد أصبح أكثر برودة، وعرف من هدير الطائرات التجارية المنخفضة أنهم اقتربوا من مطار البندقية.

على إخبارك ببعض الأمور عن الأنسة بروكس.

وقف العميد ود. سينسكي بجانبه بصمت، وأعطياه بعض الوقت لاستجماع أفكاره. ما عرفه لانغدون في الأسفل أريكه وأزعجه إلى حد أن سينسكي أخرجه إلى السطح لاستنشاق الهواء العليل. على الرغم من هواء البحر، لم يشعر لانغدون بالصفاء الذهني. اكتفى بالتحديق إلى الأثر الذي يتركه البخت في الماء، محاولاً فهم ما سمعه للتو.

بحسب العميد، كانت سيبينا بروكس وبيتراند زوبريست عشيقين منذ مدة طويلة، وقد عملا معاً في حركة سرية تدعى الحركة ما وراء الإنسانية. كان اسمها فيليستي سيبينا بروكس، وتحمل أيضاً الاسم الشيفري FS-2080... المكوّن من الأحرف الأولى من اسمها والعام الذي ستبلغ فيه عامها المائة.

كلّ هذا غير منطقي!

قال العميد: "عرفت سيبينا بروكس من مصدر آخر، ووثقت بها. لذلك عندما أنت إليّ في العام الماضي وطلبت منّي التعرف على زيون ثري وافقت. تبين لي أن ذلك الزيون هو بيتراند زوبريست الذي أراد أن أوفر له مكاناً آمناً يعمل فيه على تحفته. افترضت أنه يطور تكنولوجيا جديدة، ولا يرغب في أن يتعرّض للقرصنة... أو يجري بحثاً جينياً متطوراً يتعارض مع الأنظمة الأخلاقية لمنظمة الصحة العالمية... لم أطرح عليه أي أسئلة، لكن صدّقني، لم يخطر لي يوماً أنه يخترع... وباء".

اكتفى لانغدون بهزّ رأسه بشرود... وحيرة.

تابع العميد: كان زوبريست من هواة دانتي، لذلك اختار فلورنسا للاختباء فيها. أمّنت له منظّمتي كلّ ما يحتاج إليه؛ من مختبر سرّي، ومسكن، وقلّوات اتّصال آمنة، كما أمّنت له شخصاً يحضر له الطعام وكلّ احتياجاته؛ بدءاً من الأمن ووصولاً إلى شراء الطعام والمعدّات. لم يستخدم زوبريست بطاقاته الائتمانية مطلقاً، ولم يظهر علناً على الإطلاق، لذلك كان من المستحيل تعقبه. حتّى إنّنا زودناه بطرق للتخفي، وبأسماء مزيفة، ووثائق مزوّرة للسفر من دون أن يتعرف عليه أحد. وهذا ما فعله على ما يبدو عندما خبأ الكيس القابل للذوبان".

تهددت سينسكي ولم تخفِ انزعاجها: "كانت منظمة الصحة العالمية تحاول إيجاداه طوال العام الفائت، لكنه بدا كما لو أنه قد اختفى عن وجه الأرض".

قال العميد: "حتى إنه اختفى وابتعد عن سيبينا".

نظر إليه لانغدون، وقال بصعوبة: "عفواً! ظننت أنك قلت إنهما حبيبان".

"كانا كذلك، لكنه قطع علاقته بها فجأة عندما اختبأ. ومع أن سيبينا هي التي أرسلته إلينا، إلا أن اتفاقنا كان مع زوبريست نفسه، وتضمن الاختفاء عن العالم بأسره، بمن في ذلك سيبينا. ويبدو أنه أرسل لها رسالة وداع كشف فيها أنه يعاني من مرض عضال وسيموت خلال عام تقريباً، ولا يريد أن تراه فيما صحته تتدهور".

زوبريست تخلى عن سيبينا؟

قال العميد: "حاولت سيبينا الاتصال بي للحصول عن معلومات عنه، لكنني رفضت الرد عليها. فأنا مضطرٌ لاحترام رغبات الزبون".

تابعت سينسكي: "منذ أسبوعين، دخل زوبريست أحد مصارف فلورنسا واستأجر خزانة من دون أن يكشف عن اسمه. بعد خروجه، عرف فريق المراقبة لدينا أن برنامج التعرف على الوجوه التابع للمصرف قد تعرّف على بيرتراند زوبريست الذي كان متكرراً حينها. طار فريقنا إلى فلورنسا، واستغرق أسبوعاً لإيجاد الخزانة التي كانت فارغة، لكننا وجدنا فيها دليلاً على أنه اخترع وياًً شديد العدوى، وخبأه في مكان آخر".

سكنت سينسكي، ثم أضافت: "كنا يائسين للعثور عليه. في الصباح التالي، وقبل شروق الشمس، وجدناه يمشي على ضفة نهر آرنو، فطاردناه على الفور. عندها هرب إلى برج باديا، ورمى نفسه من فوقه".

أضاف العميد: "ربما كان قد خطط للقيام بذلك على كل حال، فقد كان مقتنعاً أنه لن يعيش طويلاً".

قالت سينسكي: "كما تبين لنا، كانت سيبينا تبحث عنه أيضاً. اكتشفت بطريقة ما أننا في فلورنسا، فتبعنا تحركاتنا ظناً منها أننا عثرنا عليه. لكن مع الأسف، كانت موجودة عندما قفز زوبريست من البرج، وأظن أن رؤيتها حبيبها وأستاذها ينتحر سببت لها صدمة شديدة".

عجز لانغدون عن استيعاب كل ذلك. فالشخص الوحيد الذي وثق به في هذه القضية كان سيبينا، وها هما يخبرانه أنها ليست الشخص الذي تدعيه. لم يستطع تصديق أن سيبينا أيدت زوبريست في سعيه إلى اختراع الوباء.

أم أنها فعلت؟

كانت قد سألت: هل تقدم على قتل نصف سكان العالم اليوم لإنقاذ جنسنا من الانقراض؟

أحسن لانغدون بقشعريرة.

قالت سينسكي: "عندما مات زوبريست، استخدمت نفوذي لفتح الخزانة، فوجدت فيها رسالة موجهة إلي... بالإضافة إلى ذلك الجهاز الصغير الغريب".

قال لانغدون: "المسلاط".

"بالضبط. وقال في رسالته إنه يريد أن أكون أول من يذهب إلى نقطة الانطلاق التي لن يجدها أحد من دون أن يتبع خارطة الجحيم التي وضعها بنفسه".

تذكر لانغدون لوحة بوتيتشيلي المعدلة التي عرضها المسلاط الصغير.

قال العميد: "كان زوبريست قد طلب مني تسليم د. سينسكي محتويات الخزانة، لكن ليس قبل صباح غد. لذلك، عندما استلمت المحتويات قبل الأوان، أخذنا نلاحقها لاستعادتها وتنفيذ مشيئة زبوننا".

قالت سينسكي: "رأيت أنني لن أتمكن من فهم الخارطة في الوقت المناسب، لذلك طلبت مساعدتك. هل تذكر الآن شيئاً من ذلك؟".

هز لانغدون رأسه ناعياً.

"سافرنا إلى فلورنسا سراً، وهناك أخذت موعداً من شخص يمكنه تقديم المساعدة".

إغناسيو بوزوني.

"الليلة الماضية تم اختفياً، فاعتقدنا أن شيئاً ما قد حدث".

قال العميد: "في الواقع، حدث شيء ما بالفعل. ففي محاولة منا لاستعادة المسلاط، أرسلت خلفكما عميلة تدعى فايينثا، تعقبك من المطار ثم فقدت أثرك في بياتزا ديلا سينيوريا". عبس مضيقاً: "فقدانها أثرك كان خطأ فادحاً، وقد تجرأت فايينثا على إلقاء اللوم على طائر".

"المعذرة؟".

"هديل حمامة. على حد قولها، كانت في موقع ممتاز، تراقبك من كوة مظلمة عندما مرت مجموعة من السياح. قالت إن هديل حمامة سمع فجأة من نافذة فوق رأسها، الأمر الذي دفع السياح إلى التوقف وحجبك عن نظرها. وعندما تمكنت من التسلل إلى الزقاق مجدداً، كنت قد اختفيت". هز رأسه باشمئزاز. "على كل حال، فقدت أثرك لعدة ساعات. أخيراً، عثرت عليك مجدداً، وكنت حينها برفقة رجل آخر".

فكر لانغدون: إغناسيو. لا بد أننا كنا نغادر القصر حاملين القناع.

تبعكما إلى بياتزا ديلا سينيوريا، لكنكما رأيتهما على ما يبدو، وقرّرنا الهرب منها باتجاهين مختلفين".

وجد لانغدون ذلك منطقياً. لهذا السبب هرب إغناسيو وخبأ القناع في المعمودية قبل أن تباعه نوبة قلبية.

قال العميد: "تم ارتكبت فايينثا خطأ رهيباً".

"هل أطلقت النار علي؟".

"كلا، بل كشفت عن نفسها قبل الأوان. استجوبتك قبل أن تعرف شيئاً. أردنا أن نعرف إن كنت قد فككت شيفرة الخارطة أو أخبرت د. سينسكي بما تريد معرفته. لكنك رفضت قول أي شيء. قلت إنك تفضل الموت على ذلك".

كنت أبحث عن طاعون فتأكد! لا بد أنني ظننتكم مرتزقة تسعون إلى الحصول على سلاح بيولوجي!

فجأة، أبطأ اليخت من سرعته مع اقترابه من رصيف التحميل التابع للمطار. على مسافة منهم، رأى لانغدون طائرة النقل C-130 وهي تتزود بالوقود. كان هيكل الطائرة يحمل اسم منظمة الصحة العالمية.

في تلك اللحظة وصل العميل برودر، وبدأ متجهماً. "عرفت للتو أن فريق الدعم المؤهل الوحيد المتوفر خلال الساعات الخمس القادمة هو فريقنا، ما يعني أننا سنكون بمفردنا".

قالت سينسكي: "ألم تتمكن من التنسيق مع السلطات المحلية؟".

أجاب برودر بتعب واضح: "ليس بعد. بما أننا لا نملك موقعاً محدداً حتى الآن، لا يمكنهم فعل شيء. بالإضافة إلى أن عملية الاحتواء تتجاوز خبرتهم، وقد يتسببون بضرر أكبر".

همست سينسكي وهي تهز رأسها بعباراة أساسية تشكل أحد مبادئ الأخلاقيات الطبية: "أولاً، لا تتسبب بالأذى".

قال برودر: "ولم نعرف شيئاً بعد عن سيبينا بروكس". نظر إلى العميد وسأله: "هل تعلم إن كان لديها معارف في البندقية يمكنهم مساعدتها؟".

أجاب: "لا يفاجئني ذلك. فزوبريست لديه أتباع في كل مكان، وبحسب معرفتي بها، ستستخدم كل الموارد المتاحة لتنفيذ الأوامر التي تلقاها".

قالت سينسكي: "لا يمكن السماح لها بالخروج من البندقية، لأن وضع الكيس القابل للذوبان غير معروف. فمن شأنه أن ينفجر عند أي لمسة ويفرغ محتوياته في الماء". ساد الصمت مع اتضاح خطورة الوضع.

قال لانغدون: "أخشى أن سيبينا تعرف المكان الذي نتوجه إليه، إنها تعرف أين يقع الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة".

سألته سينسكي بقلق: "ماذا؟! فهمت أنك لم تجد الفرصة لإخبارها! قلت إن كل ما أخبرتها به هو أنكم في البلد الخاطئ!".

قال لانغدون: "هذا صحيح، لكنها تعرف أننا نبحث عن قبر إنريكو داندولو، ولن يلزمها سوى إجراء بحث بسيط على الإنترنت. وعندما تجد القبر... لن يكون الكيس بعيداً عن متناولها. فالقصيدة توصي باتباع خريز المياه إلى القصر الغارق".

قال برودر: "تبدأ!". وخرج مسرعاً.

قال العميد: "لن تهزمنا أبداً، سنسبقها".

أجابته سينسكي: "لست واثقة من ذلك، فوسيلة النقل التي نستخدمها بطيئة، ويبدو أن سيبينا لا تفتقر إلى الموارد".

ما إن رسا المينداسيوم، حتى وجد لانغدون نفسه يَحْتَق إلى الطائرة التي تنتظرهم. بالكاد بدت قادرة على الطيران، كما أنها من دون نوافذ. أيعقل أن أكون قد سافرت على متن هذا الشيء من قبل؟! لم يتذكر شيئاً على الإطلاق.

فجأة، شعر لانغدون بالغثيان، ولم يعرف ما إذا كان السبب هو تمايل اليخت أو فكرة السفر على متن الطائرة المغلقة. فقال سينسكي: "لست واثقاً من أنني أستطيع السفر". قالت له: "أنت بخير. لكنّ نهارك كان صعباً، وبالطبع، دخلت السموم جسديك". "السموم؟! عمّ تتحدثين؟".

أشاحت سينسكي بنظرها. من الواضح أنها باحت بأكثر مما كانت تريد النوح به. "بروفيسور، لقد عرفت أنّ وضعك الصحي أكثر تعقيداً بقليل من مجرّد إصابة في الرأس". شعر لانغدون بموجة من الخوف تجتاحه وهو يتخيّل صدر فيريس الأسود عندما انهار على أرض البازيليك. "ما مشكلتي؟".

ترددت سينسكي. "قلنصعد الطائرة أولاً".

شرق كنيسة فراري الجميلة، يقع مشغل ببيترو لون التاريخية، والشعر المستعار، والأكسسوارات في البندقية مسرح على شكل ذيل حصان وهي تلهث وكأنها ركض ونظرت إليه بعينيها البنيتين اللياستين.

قالت: "أودّ التحدّث مع جورجيو فينشي".

قال العامل في سرّه: كلّنا نوّد ذلك، لكن لا يستطيع كان جورجيو فينشي يعمل من خلف الكواليس، مسبق. فنظراً إلى ثروته الفاحشة ونفوذه الواسع، كان به شغفه بالوحدة. ولهذا، كان يتناول الطعام بمفرده، ويسافر السياح في البندقية. لم يكن من الناس الذين يحبّون الرف أجاها الحارس مبتسماً: "أنا آسف، لكنّ السيّد مساعدتك؟".

"جورجيو هنا. إنّهُ موجود في الطابق الأعلى، ا ولديّ حالة طارئة".

بدا على المرأة إلحاح واضح. إنّها تدّعي أنّها صد تناولت المرأة ورقة وقلماً عن الطاولة وكتبت سلسا قالت: "أعطه هذه، بسرعة أرجوك. ليس لديّ منس أخذ الموظّف الورقة إلى الأعلى ووضعها أم الخياطة.

همس: "سينيوري، ثمة من ترغب في رؤيتك. تقول مدّ الرجل يده وتناول الورقة من دون أن يتوقّف فجأة، توقفت الآلة.

أمره قائلاً: "أرسلها فوراً". ثمّ مزّق الورقة إلى قطع

الفصل 82

واصلت طائرة C-130 الضخمة صعودها متجهة إلى الجنوب الشرقي، فوق البحر الأدرياتيكي. وعلى متنها، شعر روبرت لانغدون بالارتباك والحيرة، وخنقه غياب النوافذ. قالت له سينسكي قبل قليل: وضعك الصحي أكثر تعقيداً بقليل من مجرد إصابة في الرأس.

تسارع نبضه وهو يفكر في ما يمكن أن تخبره به، إلا أنها كانت مشغولة بمناقشة استراتيجيات الاحتواء مع فريق المراقبة والدعم، فيما كان برودر يتحدث عبر الهاتف مع وكالات حكومية عن سينًا بروكس محاولاً إيجادها. سينًا...

ما زال لانغدون يحاول أن يصدق أنها متورطة في كل هذا. مع ارتفاع الطائرة في الجو، أتى الرجل الذي يسمي نفسه العميد وجلس أمام لانغدون. "طلبت مني د. سينسكي أن... أوضح لك حالتك".

فوجئ لانغدون، وشعر بالخوف مما يمكن أن يقوله له هذا الرجل. قال العميد: "كما سبق وقلت، بدأ كل شيء عندما كشفت فاييننا نفسها لك قبل الأوان. لم نكن نعرف كم أحرزت من تقدم لصالح د. سينسكي، أو مقدار المعلومات التي أخبرتها إياها. خفنا أن تعرف سينسكي بمكان ذلك الشيء قبل الوقت المحدد، وأن تصادره أو تدمره. لذلك، أردنا أن تعمل لصالحنا... لكن مع الأسف، كشفنا أوراقنا قبل الأوان... وفقدت تفكك بنا". قال لانغدون غاضباً: "أطلقتكم النار علي!".

"بل وضعنا خطة لجعلك تثق بنا". شعر لانغدون بالضيق. "كيف تجعلون شخصاً ما يثق بكم... بعد خطفه واستجوابه؟". بدا على الرجل عدم الارتياح. "بروفيسور، هل سمعت بمجموعة جديدة من الأدوية تعرف باسم بينزوديازيبين؟". هز رأسه ناعياً.

"إنها سلالة من الأدوية التي تستعمل لأغراض متعددة، منها علاج التوتر بعد الصدمات. كما تعرف، عندما يعاني شخص ما من صدمة عنيفة، كحادث سيارة أو اعتداء جنسي، من شأن الذكريات طويلة الأمد أن تسبب له أذى كبيراً. باستخدام هذه العقاقير، أصبح بإمكان علماء الأعصاب علاج التوتر الناجم عن الصدمات قبل حدوثه".

أصغى إليه لانغدون صامتاً، من دون أن يفهم إلى أين سيؤدي هذا الحديث.
تابع العميد: "عندما تتكون ذكريات جديدة، تخزن تلك الأحداث في الذاكرة قصيرة الأمد
لمدة ثمان وأربعين ساعة، قبل أن تنتقل إلى الذاكرة بعيدة الأمد. وباستخدام خلطات جديدة من
البينزوديازيبين، يستطيع المرء بسهولة إنعاش الذاكرة قصيرة الأمد... وإلغاء محتوياتها قبل أن
تتحول تلك الذكريات الجديدة إلى ذكريات طويلة الأمد".

حقّق لانغدون إلى الرجل قصير القامة بعدم تصديق. "هل جعلتني أفقد ذاكرتي؟".
تتهّد العميد محرّجاً. "أخشى ذلك... بالوسائل الكيميائية. إنها آمنة جداً، لكنها تمسح
محتويات الذاكرة قصيرة الأمد". صمت مضيقاً: "عندما غبت عن الوعي، تمتت بشيء عن
الطاعون، وافترضنا أن ذلك ناتج عن رؤيتك صور المسلاط. لم نتخيل مطلقاً أن يكون
زوبريست قد اخترع وباء حقيقياً. كما أنك كنت تردّد جملة فهمناها على أنها اعتذار: آسف جداً.
آسف جداً".

فاساري. لا بدّ أن ذلك كان كلّ ما عرفه عن المسلاط حتى ذلك الوقت. تشيركا تروفا.
"لكن... ظننت أنني فقدت ذاكرتي نتيجة الإصابة في رأسي. شخص ما أطلق النار عليّ".
هرّز العميد رأسه نافياً. "لم يطلق عليك أحد النار، بروفيسور. لم تتعرّض لإصابة في
رأسك".

"ماذا؟!". وامتنكت يد لانغدون تلقائياً إلى الجرح المتورّم في رأسه. "ما هذا إذاً؟". أبعد شعره
لكي يظهر المنطقة الحليقة من رأسه.
"إنها جزء من الوهم. صنعنا شقاً صغيراً في فروة رأسك ثمّ أغلقناه بالقطب. كان يجب أن
تصدّق أنك تعرّضت للاعتداء".

هذا الجرح ليس بسبب رصاصة!؟

قال العميد: "عندما استيقظت، أردنا أن نعتقد أنّ هناك من يريد قتلك... وأنت في خطر".
صاح لانغدون: "ثمّة من يريد قتلي؟". التفت إليه كلّ من كان على متن الطائرة. "لقد رأيت
الطبيب في المستشفى - د. ماركوني - يقتل أمامي بدم بارد!".
قال العميد: "هذا ما رأيته، لكن هذا ليس ما جرى. فايينثا تعمل لحسابي. وهي موهوبة في
هذا النوع من العمل".

سأله لانغدون: "أتعني القتل؟".

أجاب بهدوء: "كلا، بل أدعاء القتل".

حقّق لانغدون إلى الرجل مطوّلاً، وتذكّر الطبيب الذي انهار على الأرض، وسال الدم من
صدره بلحيته البيضاء وحاجبيه الكثرين.

"كان مسدس فايينثا محشواً بالمفرقات التي تفجّر عند إطلاقها سائلاً بلون الدم على
صدر د. ماركوني. إنّه بخير بالمناسبة".

أغمض لانغدون عينيه مصعوقاً. "وماذا عن... غرفة المستشفى؟".

أجابه: "كانت عبارة عن مسرح مرتجل. بروفيسور، أعرف أنه من الصعب عليك استيعاب كل ذلك. كنّا نعمل بسرعة، ولم تكن بكامل وعيك، لذلك لم تكن مضطرين إلى إتقان كل شيء. عندما استيقظت، رأيت ما أردنا أن نراه؛ مستشفى، وبضعة ممثلين، ومشهد هجوم فاشلاً".

كان لانغدون على وشك الانهيار.

قال العميد: "هذا ما تفعله شركتي. نحن ماهرون في صناعة الأوهام".

سأله لانغدون وهو يفرك عينيه: "وماذا عن سيبينا؟".

"لقد اخترت العمل معها. فالأولوية كانت حماية مشروع الزيون من د. سينسكي، وكنّا أنا وسيبينا نشارك تلك الرغبة. لكي تكسب سيبينا ثقتك، أنقذتك من القاتل، وساعدتك على الهرب إلى زقاق خلفي. كان التاكسي المنتظر في الأسفل تابعاً لنا، ومزوداً هو أيضاً بمفرقة يمكن التحكم بها عن بعد على الزجاج الخلفي لتوليد التأثير النهائي وأنتما تهربان. اصطحبك التاكسي إلى شقة جهّزناها على عجل".

شقة سيبينا البسيطة. فهم لانغدون الآن لماذا بدت الشقة وكأنها أنثت بمفروشات مستعملة. كما فهم كيف صدف أن "جار" سيبينا يملك ملابس تناسبه تماماً. كان كل شيء منبراً.

حتى الاتصال باليانس من صديقة سيبينا في المستشفى كان مزيفاً. سيبينا، أنا دانيكوف!

قال العميد: "عندما اتصلت بالفضلية، استخدمت رقماً أعطتك إياه سيبينا. وقد أوصلك بالميند/سيوم".

"ألم أتصل بالفضلية؟!"

"كلّاً، لم تفعل".

قال له موظف الفضلية المزيف: ابق مكانك، سأرسل إليك شخصاً ما على الفور. وعندما ظهرت فايينثا، رأتها سيبينا في الشارع وقامت بربط الأمور ببعضها. روبرت، حكومتك تحاول قتلك! لا يمكنك الاتصال بالسلطات! أملك الوحيد معرفة الرسالة التي يحملها المسلط.

لقد نجح العميد ومنظمته الغامضة، أيّاً تكن ماهيتها، بجعل لانغدون يتوقف عن العمل لحساب سينسكي ويعمل لحسابهم. كانت المسرحية متقنة.

لقد تلاعبت بي سيبينا تماماً. أحرزته هذه الفكرة أكثر مما أغضبته، فقد صار مولعاً بها بعد ذلك الوقت القصير الذي أمضياه معاً. لكن السؤال الذي أزعجه هو كيف يمكن لروح ذكية ودافئة مثل سيبينا أن تقتنع إلى هذا الحدّ بحلّ زوبريست الجنوني للكثافة السكانية.

كانت سيبينا قد قالت له: يمكنني التأكيد من دون أدنى شك أنه بغياب تغيير جذري، فإنّ نهاية جنسنا قادمة... فالرياضيات غير قابلة للجنل.

سأل لانغدون وهو يتذكر إعلانات شيكسبير وقصاصات الجرائد التي تتحدث عن نكائنها

الخارق: "وماذا عن المقالات عن سيبينا؟".

أجاب العميد: "حقيقية. فأفضل الأكاذيب تشتمل على أكبر قدر ممكن من الواقع. لم يكن لدينا الوقت الكافي لترتيب كل شيء، لذلك كان كمبيوتر سيبينا وأوراقها الشخصية الحقيقية هي كل ما نملك. لم يكن يجدر بك رؤيتها إلا إن شككت بهوية سيبينا".
قال لانغدون: "ولا استخدام الكمبيوتر الخاص بها".

"أجل، تلك هي اللحظة التي فقدنا فيها زمام الأمور. لم تتوقع سيبينا قط أن يعثر فريق سينسكي على شقتها. لذلك عندما وصل الجنود، دُعرت واضطرت إلى الارتجال. هربت معك على الدراجة النارية، وحاولت مواصلة الكذبة. وعندما فشلت المهمة بأكملها، لم يعد لدي خيار سوى التنصل من فايينثا. إلا أن هذه الأخيرة خالفت البروتوكول واستمرت بملاحقتك.

قال لانغدون: "لقد أوشكت على قتلي". وروى للعميد ما جرى في قصر فيكيو، عندما شهرت فايينثا مسدسها ووجهته إلى صدر لانغدون. هذا لن يؤلم سوى للحظة واحدة... لكنه خياره الوحيد. بعد ذلك ظهرت سيبينا ودفعتها من على الدرابزين، فسقطت فايينثا ميتة.

تتهاد العميد بصوت مسموع، وفكر في ما قاله لانغدون للتو. "أشك في أن فايينثا كانت تكن تنوي قتلك... فمسدسها لم يكن يحتوي سوى على مفرقات. كان أملها الوحيد لاستعادة وظيفتها هو استعادة السيطرة عليك. ربما اعتقدت أنها إن أطلقت عليك المفرقات، فستجعلك تفهم أنها ليست قاتلة وأنت ضحية كذبة".

صمت العميد مفكراً، ثم تابع يقول: "لا أعرف ما إذا كانت سيبينا قد أرادت قتلها فعلاً أم حاولت منعها من إطلاق النار. فقد بدأت أدرك أنني لا أعرف سيبينا بروكس".

وافق لانغدون قائلاً في سره: "ولا أنا. مع أنه عندما يتذكر نظرة الصدمة والندم على وجه المرأة الشابة، يشعر أن ما فعلته بالعميلة كان غلطة.

شعر لانغدون بوحدة رهيبة، فالتفت إلى النافذة، وتاق إلى النظر إلى العالم في الأسفل، لكنه لم يز سوى جدار الطائرة.

علي الخروج من هنا.

سأله العميد بقلق: "هل أنت بخير؟".

"كلاً، على الإطلاق".

قال العميد في سره: سيعيش. فهو يحاول استيعاب واقع الجديد.

بدا البروفيسور الأميركي كمن انتزع عن الأرض بفعل إعصار، ثم دار في الهواء، وألقي على أرض غريبة.

نادراً ما يكتشف ضحايا الكونسورتيوم حقيقة الأحداث المدبرة التي شهدها، وعندما يفعلون، لا يكون العميد حاضراً لرؤية نتائج الصدمة. واليوم، بالإضافة إلى إحساسه بالذنب تجاه لانغدون، يشعر الرجل بمسؤوليته عن الأزمة الحالية.

لقد قبلت الزبون الخاطيء، بيرتراند زوبريست.

ووقفت بالشخص الخاطيء، سيبينا بروكس.

الآن بطير العميد إلى عين العاصفة، إلى مركز ما قد يكون طاعوناً قاتلاً قد يهز العالم بأكمله. وإن خرج حياً من كلّ ذلك، فلن يحتمل الكونسورتيوم النتائج، بل سيواجه اتهامات وتحقيقات لا نهاية لها.
أهذه هي نهايتي؟

الفصل 83

احتاج لانغدون إلى تنشق الهواء، وشعر أن الطائرة تطبق على أنفاسه.
راح رأسه يعصف بأسئلة لا أجوبة لها... ومعظمها عن سيبثا.
الغريب أنه افتقد إليها.

كانت تمثل عليّ وتستغلني.

ترك العميد من دون قول شيء، وتوجّه إلى مقدمة الطائرة. كان باب قمرة القيادة مفتوحاً،
فأنعشه الضوء الطبيعي. وقف عند الباب، من دون أن يراه الطيارون، وترك نور الشمس يغمر
وجهه بالندفء. شعر أنّ الفضاء المفتوح أمامه نعمة من السماء، فقد بدت السماء الزرقاء
الصافية مسالمة ودائمة...

لا شيء يدوم. ذكر نفسه بذلك وهو ما زال يكافح لتقبل احتمال وقوع الكارثة
الوشيجة.

فاجأه صوت مألوف خلفه. "بروفيسور؟".

استدار لانغدون، وأجفل. رأى أمامه د. فيريس. آخر مرّة رأى فيها الرجل كان ممتدّاً على
الأرض في بازيليك سان مارك، غير قادر على التنفّس. وها هو الآن يقف في الطائرة متكئاً
على الجدار. كان يضع على رأسه قبعة بايسبول وقد دهن وجهه بمرطّب وردي اللون. رأى
صدره مضطّداً، وكان تنفّسه سطحياً. إن كان فيريس مصاباً بالطاعون، فلا يبدو أنّ أحداً يهتم
بالتقاط العدوى منه.

قال لانغدون وهو يحدّق إليه: "أنت على قيد الحياة؟".

هزّ فيريس رأسه متعباً. "تقريباً".

شعر لانغدون أنّ سلوك الرجل قد تغيّر تماماً، إذ يبدو أكثر استرخاءً.

قال لانغدون: "لكن ظننت... في الواقع... لم أعد أعرف بماذا أفكر".

ابتسم فيريس بتعاطف. "لقد سمعت الكثير من الأكاذيب اليوم، لذلك جئت أعتذر.
كما أصبحت تعرف، أنا لا أعمل لصالح منظمة الصحة العالمية، ولم أحضر من
كامبريدج".

هزّ لانغدون رأسه، ولم يعد يفاجئه أي شيء. "أنت تعمل لصالح العميد".

"صحيح. أرسلني لتقديم المساعدة الميدانية العاجلة لك ولسيبثا... للفرار من فريق المراقبة

والدعم".

قال لانغدون وهو يتذكر كيف ظهر فيريس في المعمودية، وأقنع لانغدون أنه موظف في منظمة الصحة العالمية، كما سهل لهما الانتقال من فلورنسا والفرار من فريق سينسكي: "إذاً أعتقد أنك قمت بعملك على أكمل وجه. من الواضح أنك لست طبيياً".

هرّ الرجل رأسه ناهياً. "كلا، لكنني أديت هذا الدور اليوم. كانت مهمتي تتمثل في حماية سيبينا والاستمرار بالكذبة إلى أن تكتشف إلى أين يشير المسلاط. فقد كان العميد ينوي إيجاد تحفة زوبريست وحمايتها من سينسكي".

قال لانغدون الذي ما زال يشعر بالفضول حيال الطفح الجلدي الذي يعاني منه فيريس ونزيفه الداخلي: "ألم تكن تعرف أنه وباء؟".

"بالطبع لا! عندما ذكرت الوباء، اعتقدت أن الأمر مجرد كذبة أخبرتك إياها سيبينا، فجارتكما. اصطحبتكما إلى القطار المتوجّه إلى البندقية... ثم تغير كل شيء فجأة".
"وكيف ذلك؟".

"شاهد العميد فيلم زوبريست الغريب".

هذا كافي لقلب الموازين. "فأدرك أنّ زوبريست مجنون".

"بالضبط. فهم العميد فجأة ما تورّط به الكونسورتيوم، وشعر بالرعب. فطلب التحدّث فوراً مع أكثر من يعرف زوبريست، أي FS-2080، ليرى ما إذا كانت تعرف ما فعله زوبريست".
"FS-2080؟".

"آسف، أقصد سيبينا بروكس. هذا هو الاسم الشيفري الذي اختارته لهذه العملية. يبدو أنها تقنية تستخدمها الحركة ما وراء الإنسانية. ولم يكن العميد قادراً على الوصول إلى سيبينا سوى من خلالي".

قال لانغدون: "تلك هي المكالمات الهاتفية التي تلقّيتها في القطار، حين ادّعت أنّ أمك مريضة".

"بالطبع. لم أكن أستطيع التحدّث مع العميد أمامكم. أخبرني عن الفيلم، فشعرت بالذعر. كان يأمل أن تكون سيبينا قد تعرّضت للخداع هي أيضاً، لكن عندما أخبرته أنّكما تتحدّثان عن الأوبئة طوال الوقت، ولا تتويان التخلّي عن المهمة، عرف أنّ سيبينا وزوبريست متواطئان. عندئذ، أصبحت عدوّتنا. طلب مني إخباره عن مكاننا في البندقية... وقال إنه سيرسل فريقاً لاعتقالها. أو شكّ العميل برودر على القبض عليها في بازيليك سان مارك... لكنّها تمكّنت من الفرار".

حدّق لانغدون إلى الأرض بشرود. ما زال يرى عيني سيبينا الجميلتين وهما تحدّقان إليه قبل فرارها.

أنا آسفة روبرت، آسفة على كلّ شيء.

قال الرجل: "إنها قوية. لم ترها على الأرجح وهي تهاجمني في البازيليك".
"تهاجمك؟".

لم أعرف ما الذي أصابني. أظن أنها حركة من الفنون القتالية. وبما أنني كنت أساساً مصاباً في تلك المنطقة، شعرت بألم مبرح. استغرقت خمس دقائق لاستعادة أنفاسي. في ذلك الوقت، كانت سيبينا قد اصطحبتك إلى الشرفة قبل أن يكشف أي من الشهود ما حدث". تذكر لانغدون المرأة الإيطالية العجوز التي صاحت في وجه سيبينا، "لاي كولبيتو آل بيتو!" وقامت بحركة عنيفة على صدرها.

في ذلك الوقت أجابتها سيبينا: لا يمكنني! فالتفتس الاصطناعي سيقتله! انظري إلى صدره! استرجع لانغدون المشهد في ذهنه، وأدرك كيف تصرفَت سيبينا بروكس بسرعة. لقد قامت بكذاء بترجمة كلام المرأة الإيطالية على نحو خاطئ. فالمرأة لم تكن تقترح الضغط على صدره... بل كانت تقول لها: لقد لكمته على صدره! في غمرة الفوضى، لم يلاحظ لانغدون ذلك. ابتسم فيريس قائلاً: "ربما سمعت أن سيبينا بروكس ذكية جداً". هز لانغدون رأسه موافقاً. لقد سمعت.

"أحضرنى رجال سينسكي إلى الميند/سيوم وقاموا بمعالجتي. طلب مني العميد تقديم الدعم لأنني الشخص الوحيد الذي أمضى اليوم وقتاً مع سيبينا غيرك". هز لانغدون رأسه وقد عاد انتباهه إلى الطفح الجلدي، وسأله: "هذا يعني أن الطفح الجلدي، وإصابة صدرك ليسا نتيجة...". "الطاعون؟". ضحك فيريس وهز رأسه نافياً. "لا أعرف ما إذا كانوا قد أخبروك بعد، لكنني أدت اليوم دور طبيين". "المعذرة؟".

"عندما ظهرت في المعمودية، قلت لي إنني أبداً مألوفاً لك". "بالفعل، ربما عيناك. وقلت لي إن سبب هذا يرجع إلى أنك من أحضرني من كامبريدج... وأصبحت أعرف أن هذا ليس صحيحاً...". "بدوت لك مألوفاً لأننا التقينا، لكن ليس في كامبريدج". تأمل الرجل لانغدون. "في الواقع، كنت أول رجل رأيته عندما استيقظت في المستشفى هذا الصباح". تخيل لانغدون غرفة المستشفى الصغيرة الممتعة. كان يشعر حينها بالدوار ولا يرى بوضوح، وكان واثقاً أن أول رجل رآه عندما استيقظ طبيب أكبر سناً ذو وجه شاحب، وحاجبين كثين، ولحية رمادية، ولا يتحدث سوى الإيطالية. قال لانغدون: "كلاً. د. د. ماركوني كان أول شخص رأيته عندما -". قاطعه الرجل قائلاً بايطالية ممتازة: "سكوزي بروفيسوري، ألا تتذكرني؟". أحنى ظهره مثل رجل عجوز، ومزّر أصابعه على حاجبين خياليين ولحية رمادية غير موجودة. "سونو إيل دوتور ماركوني".

ذهل لانغدون. "د. د. ماركوني كان... أنت؟".

"لهذا السبب بدت عيناى مألوفتين. لم يسبق لي أن وضعت لحية مزيفة وحاجبين مزيفين، ولم أكن أعرف أنني أعاني من التحسس تجاه المادة اللاصقة. أنا واثق أنكما دُعرتما عندما رأيتماني... لا سيما وأنكما كنتما متخوفين من احتمال وجود وباء".

قال الرجل مشيراً إلى الضمادات المحيطة بصدرة: "وما زاد الأمور سوءاً أن المفرقة التي أطلقتها عليّ فايينثا أصابتي من زاوية خاطئة؛ الأمر الذي سبّب لي كسراً في أحد أضلاعي. لهذا السبب كنت أعاني من صعوبة في التنفس طوال النهار".

وأنا الذي ظننت أنك مصاب بالطاعون.

تتهّد الرجل. "في الواقع، أظنّ أن الوقت قد حان لكي أجلس". ثم أضاف وهو ينصرف: "يبدو أنني لن أتركك بمفردك على أي حال".

التفت لاتفغدون فرأى د. سينسكي متّجهة نحوه، وشعرها الفضّي الطويل يتدلّى خلف ظهرها. "بروفيسور، كنت أبحث عنك".

كانت مديرة منظمة الصحة العالمية منهكة، لكنّ لاتفغدون لمح وميض أمل في عينيها. يبدو أنّها وجبت شيئاً.

قالت سينسكي عندما وصلت إليه: "أنا أسفة لأنني تركتك. كنّا ننسّق ونقوم ببعض الأبحاث". أشارت إلى باب القمرة المفتوح. "أرى أنك حصلت على بعض نور الشمس".

هزّ لاتفغدون كتفيه. "طائرتك بحاجة إلى نوافذ".

ابتسمت له بتعاطف. "بالحديث عن الضوء، أتمنى أن يكون العميد قد ألقى بعضاً منه على الأحداث الأخيرة".

"أجل، مع أنّ التفاصيل لا تدعو إلى السرور".

"أنت محقّ". ثم نظرت حولها للتأكد من أنّهما بمفردهما، قبل أن تضيف هامسة: "تق بي، ستكون نتائج ذلك خطيرة عليه وعلى منظمته. سوف أحرص على ذلك. لكن في هذه اللحظة، علينا التركيز على تحديد مكان ذلك الكيس قبل ذوبانه وانتشار الوباء".

أو قبل وصول سيبنا ومساعدته على النويان.

"أريد التحدّث معك عن المبنى الذي يحتوي على قبر داندولو".

كان لاتفغدون يتخيّل البناء المهيب منذ أن اكتشف أمره. موزيون الحكمة المقدّسة.

قالت سينسكي: "عرفت للتوّ أمراً مثيراً للاهتمام. فقد اتصلنا بمؤرخ محلي. لم يعرف سبب سؤالنا عن قبر داندولو بالطبع، لكنني سألته عما إذا كان يعرف ما يوجد تحت القبر، واحزر ما قاله". ابتسمت مضيفة: "مياه".

فوجئ لاتفغدون: "حقاً؟".

"أجل. يبدو أنّ الطوابق السفلية من المبنى مغمورة بالمياه. فعلى مرّ القرون، ارتفع مستوى الماء تحت المبنى، وغمر على الأقلّ الطابقين السفليين. قال إن هناك العديد من الجيوب الهوائية والأماكن نصف المغمورة بالمياه هناك".

يا إلهي. تذكر لا تغدو فيلم زوبريست والكهف المضاء الذي رأى على جدرانہ المكسوة
بالبطاليل ظلال أعمدة. "إنها قاعة غارقة".
"بالضبط".

"لكن... كيف وصل زوبريست إلى هناك؟".
"هذا هو الجزء المذهل. لن تصدق ما الذي عرفناه".

في تلك اللحظة، على بعد أقل من ميل من ساحل البنديقية، وعلى جزيرة ليدو، انطلقت
طائرة سيسنا سيتايشن مونتاغ من مدرج مطار نيتشيلي وارتفعت في سماء الليل.
لم يكن صاحبها، مصمم الأزياء المعروف جورجيو فينشي على متنها، لكنه أعطى طياره
أوامر باصطحاب المسافرة الجميلة إلى حيث ترغب.

الفصل 84

خيم الليل على العاصمة البيزنطية القديمة.
على شاطئ بحر مرمرة، أضاعت أنوار المساجد والمنارات السماء. حان وقت العشاء،
وكانت مكبرات الصوت في المدينة تصدح بالأذان.
لا إله إلا الله.

وفي حين حثّ المؤمنون خطاهم متجهين إلى المساجد، تابع الآخرون في المدينة حياتهم.
جلس طلاب الجامعات يحتسون الشراب، وعقد رجال الأعمال الصفقات، في حين نادى الباعة
على توابلهم وسجاداتهم، وراقب السياح كل ذلك بإعجاب.
كان ذلك العالم عالماً مقسوماً؛ مدينة تتنازعها قوى متعارضة؛ دينية وعلمانية، قديمة
وحديثة، شرقية وغربية. كانت هذه هي المدينة التي تشكّل ملتقى أوروبا وآسيا فعلياً، وجسراً بين
العالم القديم والعالم الأقدم.
إسطنبول.

لم تعد تلك المدينة عاصمة تركيا، غير أنها كانت عبر العصور مركز ثلاث إمبراطوريات
مختلفة: البيزنطية، والرومانية، والعثمانية. لهذا السبب، تُعتبر من الأماكن الأكثر تنوعاً على
وجه الأرض. فمن قصر توكياي، إلى المسجد الأزرق، إلى قصر الأبراج السبعة، تزخر هذه
المدينة بالحكايات الفلكلورية عن المعارك والأمجاد والهزائم.
الليلة، عالياً في السماء فوق الناس المحتشدين في المدينة، كانت طائرة C-130 تحلق
متجهة إلى مطار أتاتورك. على متنها، جلس لانغدون على مقعد خلف الطيارين، وراح يحدّق
عبر النافذة باسترخاء.

كان يشعر بشيء من الارتياح بعدما تناول الطعام ونام لمدة ساعة كان يأمل الحاجة إليها.
الآن، رأى إلى يمينه أضواء إسطنبول التي بدت من الأعلى شبه جزيرة متلاصقة في ظلام
بحر مرمرة. كان هذا هو الجزء الأوروبي الذي يفصله عن الجزء الآسيوي شريط متعرج ومظلم.
مضيق البوسفور.

للوهلة الأولى، يبدو مضيق البوسفور وكأنه جرح عميق يقسم إسطنبول إلى نصفين. لكن
في الواقع، يعرف لانغدون أنّ ذلك المضيق يشكّل شريان حياة التجارة في إسطنبول. فبالإضافة
إلى منحه المدينة شاطئين عوضاً عن شاطئ واحد، يتيح البوسفور مرور السفن من البحر
الأبيض المتوسط إلى البحر الأسود، ويجعل المدينة محطة بين عالمين.

مع هبوط الطائرة عبر طبقة من الضباب، أخذ لانغدون يبحث بعينه عن المبنى الذي أتوا من أجله.

موقع قبر إنريكو داندولو.

كما تبين، لم يُدفن إنريكو داندولو - دوج البندقية الخائن - في البندقية، بل في قلب المدينة التي فتحها عام 1202... أي المدينة الممتدة تحتهم. لقد دُفنت رفات داندولو في أجمل بناء في المدينة، بناء بقي حتى هذا اليوم جوهرة تاج المنطقة. آيا صوفيا.

بنيت آيا صوفيا في الأساس عام 360 م، وظلّت كاتدرائية أرثوذكسية شرقية حتى عام 1204، عندما قام إنريكو داندولو خلال الحملة الصليبية الرابعة بالاستيلاء على المدينة وتحويلها إلى كنيسة كاثوليكية. لاحقاً، في القرن الخامس عشر، وبعد فتح القسطنطينية على يد السلطان محمد الفاتح تحولت إلى مسجد، وبقيت دار عبادة إسلامية حتى عام 1935؛ عندما تمت علمنة المبنى وتحوّل إلى متحف.

فكر لانغدون: الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة.

لم تكن آيا صوفيا مزخرفة ببلاط ذهبي أكثر من سان مارك فحسب، بل يعني اسمها حرفياً "الحكمة المقدسة".

تخيّل لانغدون المبنى المهيّب، وفكر أنّه في مكان ما تحته، في بحيرة مظلمة يوجد كيس يتموّج تحت الماء، ويذوب ببطء، استعداداً لتحرير محتوياته. تمنّى لانغدون ألا يكون الأوان قد فات.

كانت سينسكي قد أخبرته في وقت سابق، وهي تشير إليه ليتبعها إلى مكان عملها: "إنّ الطوابق السفلية من المبنى مغمورة بالماء. ولن تصدّق ما اكتشفناه للتوّ. هل سبق لك أن سمعت عن فيلم وثائقي لمخرج يدعى غوكسيل غولينسوي؟". هزّ لانغدون رأسه نافياً.

"اكتشفت هذا الفيلم في أثناء البحث عن آيا صوفيا. لقد أعدّه غولينسوي عن المبنى قبل بضع سنوات".

"ثمّة عشرات الأفلام عن آيا صوفيا".

أجابت عندما وصلا إلى مكان العمل: "أجل، لكنّها ليست كهذا". أدارت الكمبيوتر المحمول نحوه مضيئة: "اقرأ".

جلس لانغدون أمام الشاشة، وقرأ المقالة التي كانت تضمّ مصادر عدّة، وتناقش أحدث أفلام غولينسوي: في أعماق آيا صوفيا.

عندما بدأ لانغدون يقرأ، أدرك فوراً سبب حماسة سينسكي. فالكلمتان الأوليان شكّلتا مفاجأة بالنسبة إليه. الغوص؟

قالت سينسكي: "أعلم. اقرأ وحسب".

الغوص تحت آيا صوفيا: عثر المخرج غوكسيل غولينسوي وفريق الغوص الاستكشافي على أحواض بعيدة مغمورة بالماء على عمق مئات الأقدام تحت هذا المبنى التاريخي السياحي.

واكتشفوا أثناء ذلك الكثير من العجائب المعمارية، بما فيها قبور لأطفال ترجع إلى 800 عام، فضلاً عن أنفاق مغمورة بالماء تربط بين آيا صوفيا، وقصر توبكايي، وقصر تكفور، والملحقات تحت الأرضية لسجون أنيماس.

يشرح غولينسوي: "أعتقد أنّ ما يوجد تحت آيا صوفيا أكثر إثارة بكثير ممّا هو فوق السطح". ووصف كيف استلهم فكرة الفيلم بعدما رأى صورة قديمة لباحثين يفحصون أساسات آيا صوفيا على متن زورق، ويجذّون بالقرب من جدار كبير مغمور بالماء جزئياً.

قالت سينسكي: "من الواضح أنّك عثرت على المبنى الصحيح! ويبدو أنّ المكان يحتوي على جيوب هوائية ضخمة يمكن الوصول إلى الكثير منها من دون غطس... الأمر الذي يفسر ما رأيناه في فيلم زوبريست".

وقف العميل برودر خلفهما يتأمل الشاشة. "يبدو أنّ الممرات المائية تحت المبنى تمتد إلى مناطق مختلفة، ما يعني أنّه من المستحيل منع محتويات الكيس من الانتشار في حال تسربها".

قال لانغدون: "المحتويات... هل لديك فكرة عن ماهيتها؟ أعني بالضبط. أعلم أنّنا نتعامل مع مرض، لكن -".

قال برودر: "يشير تحليلنا للفيلم إلى أنّ المحتويات بيولوجية أكثر من كونها كيميائية، أي إنّها كائن حي. بسبب حجم الكيس الصغير، نفترض أنّ المادة معدية جداً ولديها القدرة على التكاثر عند تحريرها؛ سواء أتمّ ذلك عبر الماء أو الهواء. لسنا واثقين بعد، لكنّ الاحتمالين واردان".

قالت سينسكي: "نحن الآن نجمع معلومات عن حرارة طبقة المياه في المنطقة، ونحاول تقييم أنواع المواد المعدية التي يمكن أن تعيش في تلك الأماكن تحت الأرض. غير أنّ زوبريست كان يتمتع بموهبة استثنائية، ومن المحتمل أن يكون قد أعدّ مرضاً ذا مزايا فريدة. وأعتقد أنّه اختار هذا الموقع لسبب ما".

هرّ برودر رأسه مستسلماً وأعطى بسرعة تقييمه لآلية نشر المرض، أي الكيس القابل للذوبان، والتي بدأوا يفهمون مدى الذكاء الذي تتطوي عليه تدريجياً. فيتعلق الكيس تحت الأرض وتحت الماء، أوجد زوبريست بيئة حضانة ثابتة على نحو استثنائي، تمتاز بحرارة مياه

مستقرة، وغياب أشعة الشمس، هذا فضلاً عن العازل الحركي والخصوصية التامة. وباختيار الكيس المناسب، ترك زويريست الوياء لينضج لمدة معينة قبل أن يتحرر في الوقت المحدد. حتى لو لم يعد زويريست إلى الموقع مطلقاً.

هبوط الطائرة أعاد لانغدون إلى الواقع. خفف الطيارون من سرعة الطائرة بسرعة، ثم قادوها إلى حظيرة طائرات بعيدة، وأوقفوها هناك.

توقع لانغدون رؤية جيش من موظفي منظمة الصحة العالمية بالملابس الواقية من المواد الخطرة. إلا أنه لم يكن بانتظارهم سوى سائق فان أبيض كبير يحمل إشارة صليب أحمر.

الصليب الأحمر هنا؟ نظر لانغدون مجدداً، ثم أدرك أن ثمة كياناً آخر يستخدم إشارة الصليب الأحمر، وهو السفارة السويسرية.

فكّ حزامه واقترب من سينسكي في الوقت الذي كان الجميع يستعدون فيه للترجل من الطائرة. سألها لانغدون: "أين الجميع؟ أين فريق منظمة الصحة العالمية؟ والسلطات التركية؟ هل سبقونا إلى آيا صوفيا؟".

نظرت إليه سينسكي بارتباك. "في الواقع، قررنا عدم إبلاغ السلطات المحلية تجنباً لانتشار الذعر بين الناس، لا سيما وأنّ أفضل أعضاء فريق الدعم والمراقبة موجودون معنا".

بالفعل، رأى لانغدون برودر وفريقه في الجوار يجهزون حقائب سوداء تحتوي على المعدات اللازمة كافة؛ من الملابس البيولوجية، إلى أجهزة التنفس، ومعدات الكشف الإلكترونية. رفع برودر حقيبته على كتفه واقترب منهما قائلاً: "سننطلق. سندخل المبنى، ونبحث عن قبر داندولو حتى نجده، ثم ستصغي إلى خرير المياه كما تشير القصيدة، وعندئذ سنقيم الوضع أنا وفريقي ونقرر ما إذا كان يجدر بنا الاتصال بالسلطات للحصول على الدعم".

رأى لانغدون منذ الآن مشاكل في الخطّة. "تعلق آيا صوفيا أبوابها عند مغيب الشمس، وبالتالي لا يمكننا الدخول من دون إذن السلطات المحلية".

قالت سينسكي: "لقد تدبّرنا هذا الأمر. فمعارفي في السفارة السويسرية قاموا بالاتصال بالقيّم على متحف آيا صوفيا وطلبوا منه السماح لنا بالقيام بزيارة خاصة عند وصولنا، فوافق على ذلك".

كاد لانغدون أن ينفجر ضاحكاً. "زيارة خاصة لمديرة منظمة الصحة العالمية وجيش من الجنود الذين يرتدون الملابس الواقية؟! ألا تعتقدين أنّ هذا الأمر سيثير الاستغراب؟".

قالت سينسكي: "سيبقى فريق المراقبة والدعم في السيارة، في حين سندخل أنا وأنت وبرودر لتقييم الوضع. ولمعلوماتك، الزيارة الخاصة ليست لي بل لك أنت".

"أستميحك عذراً؟!"

"أخبرني القيّم على المتحف أنّ أستاذاً أميركياً شهيراً أتى مع فريق أبحاث لكتابة مقالة عن رموز آيا صوفيا، لكنّ الطائرة تأخرت خمس ساعات. وبما أنّه سيغادر مع فريقه غداً، فإنّنا نأمل -".

قال لانغدون: "حسناً، فهمت".

"سيرسل المتحف موظفاً لاستقبالنا شخصياً. وتبين أنه يهوى مؤلفاتك عن الفن الإسلامي".
ابتسمت سينسكي متعبة، وحاولت أن تبدو متفائلة. "أكدوا لنا أنك تستطيع الوصول إلى أي مكان في المبنى".

قال برودر: "والأهم أننا سنكون بمفردنا".

الفصل 85

حق لانغدون بشرود من نافذة الفان أثناء مروره على الطريق البحري السريع الذي يربط مطار أتاتورك بوسط إسطنبول. كان الموظفون السويسريون قد سهّلوا مرورهم عبر الجمارك، وهكذا انطلقت المجموعة من المطار خلال دقائق.

طلبت سينسكي من العميد وفيريس البقاء على متن طائرة C-130 مع عدد من موظفي منظمة الصحة العالمية ومواصلة البحث عن سيبينا بروكس.

ومع أن أحداً لم يصدق فعلاً أن سيبينا ستتمكن من الوصول إلى إسطنبول في الوقت المناسب، إلا أنهم تخوّفوا من احتمال قيامها بالاتصال بأحد أتباع زوبريست في تركيا وطلب مساعدته لتنفيذ خطة زوبريست قبل تدخل فريق سينسكي.

هل يمكن حقاً أن ترتكب سيبينا جريمة قتل جماعي؟ ما زال لانغدون يرفض تقبل كل ما حدث. كان هذا يؤلمه، لكنه مجبر على قبول الحقيقة. أنت لم تعرفها، يا روبرت. لقد تلاعبت بك.

بدأ مطر خفيف بالانهمار على المدينة، وشعر لانغدون فجأة بالتعب وهو يصغي إلى صوت المساحات. إلى يمينه، في بحر مرمر، رأى أضواء يخوت فخمة وسفن كبيرة تدخل ميناء المدينة وتخرج منه. على طول الواجهة البحرية، ارتفعت المنارات المضاءة أمام المساجد المقببة التي تذكر أن الدين مترسخ في إسطنبول؛ حتى لو كانت مدينة حديثة وعلمانية.

لطالما اعتقد لانغدون أن هذه الرحلة على الطريق السريع الممتد مسافة عشرة أميال واحدة من أجمل الرحلات في أوروبا. إذ يشكّل هذا الطريق مثلاً رائعاً على اجتماع القديم والحديث في إسطنبول؛ فهو يمزّج على طول جزء من جدار القسطنطينية الذي بُني قبل ستة عشر قرناً من ولادة الرجل الذي تحمل هذه الجادة اسمه، جون ف. كينيدي. كان ذلك الرئيس الأمريكي من أكبر المعجبين برؤية كمال أتاتورك لجمهورية تركية تنبثق من رماد إمبراطورية منهار.

تطلّ جادة كينيدي على مشاهد رائعة للبحر، وتمزج بين بساطين جميلة وحدائق تاريخية، لتعبر ميناء نيكابي، وتشقّ طريقها بين حدود المدينة ومضيق البوسفور، ثم تتجه شمالاً حول القرن الذهبي. هناك، عالياً فوق المدينة، يقبع قصر توكابي؛ معقل العثمانيين. بتلك الإطلالة الاستراتيجية على مضيق البوسفور، يعتبر القصر مفضلاً لدى السياح الذين يزورونه لتأمل المناظر الطبيعية ومجموعة الكنوز العثمانية الهائلة التي تتضمن عباءة وسيفاً يقال إنهما يخصان النبي محمد (ص) نفسه.

عرف لانغدون أنهم لن يصلوا إلى ذلك المكان وهو يتخيل مقصدهم؛ أي آيا صوفيا التي تقع خارج وسط المدينة على مسافة غير بعيدة.

عندما تركوا جادة كينيدي ودخلوا شوارع المدينة المكتظة، حذق لانغدون إلى حشود الناس على الطرقات والأرصفة، وشعر أن أحاديث ذلك اليوم تلاحقه.

الانفجار السكاني.

الطاعون.

طموحات زوبريست الملتوية.

ومع أنه فهم تماماً إلى أين تتوجّه بعثة المراقبة والدعم، إلا أنه لم يستوعب الأمر سوى الآن. نحن نذهبون إلى نقطة الانطلاق. تخيل الكيس الذي يذوب ببطء، والذي يحتوي على السائل البني المصفّر، وتساءل عن كيفية توزّطه بكل هذا.

كانت القصيدة الغريبة التي اكتشفها هو وسيينّا على باطن قناع دانتي هي التي قادته إلى هنا، إلى إسطنبول. أرسل لانغدون فريق الدعم والمراقبة إلى آيا صوفيا، وعرف أن مهمة كبيرة تنتظرهم.

اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة،

وضّع أذنًا صاغية على الأرض،

لتسمع خرير المياه.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...

فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،

مغموراً بمياه حمراء كالدم...

مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم.

شعر لانغدون مجدداً بالانزعاج عندما أدرك أن الأنشودة الأخيرة من إنفيرنو دانتي تنتهي بمشهد مشابه تقريباً. فبعد هبوط طويل عبر العالم السفلي، يصل دانتي وفيرجيل إلى قاع الجحيم. هناك لا يجدان مخرجاً، لكنّهما يسمعان خرير المياه تحتهما، فيتبعان الجدول الذي يجري بين الشقوق... ليصلا أخيراً إلى برّ الأمان.

من الواضح أن هذا المشهد هو الذي ألهم زوبريست لتأليف قصيدته، مع أنه يبدو في هذه الحالة أن زوبريست قلب كل شيء رأساً على عقب. سيتبع لانغدون والآخرين صوت خرير المياه، لكن خلافاً لدانتي، لن يخرجوا من الجحيم... بل سيدخلونه.

مع مرور القان في شوارع إسطنبول الضيقة وأحيائها المكتظة، بدأ لانغدون يفهم المنطق العجيب الذي دفع زوبريست إلى اختيار إسطنبول كمركز لويائه.

هنا يلتقي الشرق بالغرب.

إنها تقاطع طرق العالم.

عانت إسطنبول من الأوبئة مرّات عديدة في تاريخها، وخسرت أعداداً هائلة من سكّانها. في الواقع، خلال المرحلة الأخيرة من الموت الأسود، سمّيت هذه المدينة معقل الطاعون في الإمبراطورية، وقيل إنّ المرض كان يقتل أكثر من عشرة آلاف شخص كلّ يوم. وتصور عدّة لوحات عثمانية شهيرة سكان المدينة وهم يحفرون الأرض لدفن أكوام من الجثث في الحقول المجاورة لتقسيم.

تمنّى لانغدون أن يكون كارل ماكس قد أخطأ حين قال: "التاريخ يعيد نفسه". في الشوارع الممطرة، مرّ أشخاص منشغلون بأعمالهم المسائية. رأى امرأة تركية جميلة تنادي أطفالها لتناول العشاء، ورجلين عجوزين يحتسيان القهوة في أحد مقاهي الرصيف، وزوجين أنيقين يمشيان يداً بيد تحت مظلة، ورجلاً يترجّل من الحافلة ويركض حاملاً صندوق الكمنجة تحت سترته وقد تأخر عن إحدى الحفلات كما يبدو.

وجد لانغدون نفسه يتأمل وجوه الناس ويحاول أن يتخيل تفاصيل حياة كلّ منهم. الجماهير مؤلفة من أفراد.

أغمض عينيه، وأبعد وجهه عن النافذة، وطرد الأفكار السوداء من رأسه. لكنّ الضرر كان قد وقع بالفعل؛ ففي ظلام عقله، تراعت له صورة غير مرغوب فيها، مشهد من انتصار الموت لبروغل، وهو عبارة عن منظر شنيع للطاعون، والبؤس، والعذاب في مدينة ساحلية. انعطف الفان إلى اليمين، إلى جادة تورون، وللحظة اعتقد لانغدون أنّهم وصلوا إلى مقصدهم. ظهر إلى يساره في الضباب مسجد عظيم. لكنّه لم يكن آيا صوفيا.

سرعان ما أدرك أنّه المسجد الأزرق عندما رأى البناء المؤلف من ستّة طوابق، ومآذنه المبنية على شكل أقلام رصاص، بشرفاتها العديدة. كان لانغدون قد قرأ مرّة أنّ الجمال الخرافي لمآذن المسجد الأزرق كان مصدر إلهام قصر سنديلا في عالم ديزني. يستمدّ المسجد الأزرق اسمه من بحر البلاط الأزرق الذي يزيّن جدرانه الداخلية.

عرف لانغدون أنّهم اقتربوا مع تقدّم الفان الذي انعطف إلى جادة كاباساكال، وعبر الساحة الواسعة في حديقة السلطان أحمد التي تقع بين المسجد الأزرق وآيا صوفيا وتشتهر بإطلالتها على المعلمين.

حقّق لانغدون عبر الزجاج الأمامي المبلّل بماء المطر وهو يبحث في الأفق عن آيا صوفيا، لكنّ المطر وأضواء السيارات جعلت الرؤية صعبة. والأسوأ من ذلك أنّ حركة السير في الجادة بدا أنّها توقفت.

لم ير لانغدون أمامهم سوى صفّ من أضواء السيارات المتوقفة. أعلن السائق: "ثمة حدث ما، حفلة موسيقية حسبما اعتقد. ربّما كانت متابعة الطريق سيراً على الأقدام أسرع".

سألته سينسكي: "كم نبعد؟".

"ما عليكم سوى عبور الحديقة، يتطلب اجتيازها ثلاث دقائق".

أومات سينسكي لبرودر، ثم التفتت إلى فريق المراقبة والدعم. "ابقوا في القان، واقتربوا من المبنى قدر الإمكان. سيتصل بكم العميل برودر قريباً".

وهكذا، تَجَلَّ كلٌّ من برودر ولانغدون وسينسكي من القان، وتابعوا طريقهم سيراً على الأقدام في الحديقة.

وفرت أشجار حديقة السلطان أحمد بأغصانها الوارفة مظلة من الأمطار المتزايدة مع تقدم المجموعة عبرها. كانت الطرقات مليئة باللافتات التي توجه السياح إلى مختلف معالم الحديقة، كالمسلة المصرية من الأقصر، وعمود الثعبان من معبد أبولو في ديلفي، وعمود مليون الذي كان يشكل في الماضي "نقطة الصفر" التي تقاس منها كل المسافات في الإمبراطورية البيزنطية.

أخيراً، خرجوا من بين الأشجار ووصلوا إلى حوض دائري يقع في وسط الحديقة. وقف لانغدون ونظر شرقاً.

آيا صوفيا.

بدت أقرب إلى جبل منها... إلى مبنى.

كان البناء الضخم يلمع بفعل المطر، وبدا مدينة بحد ذاته. ارتفعت قبته المركزية التي كانت عريضة ومطعمة باللون الفضي فوق مجموعة من القباب الأخرى. حددت زواياها الأربع أربع منارات، تحتوي كل منها على شرفة واحدة ومستدقة فضية، وارتفعت فوق زوايا المبنى، بعيداً عن القبة المركزية؛ حيث بدت وكأنها لا تنتمي إلى بناء واحد.

توقف سينسكي وبرودر مندهشين وارتفعت أنظارهما إلى الأعلى... في حين حاولا استيعاب ضخامة المبنى.

قال برودر غير مصتق: "يا إلهي، هل سنفتش... هذا؟".

الفصل 86

شعر العميد أنه أسير وهو يذرع أرض الطائرة المتوقفة على أرض المدرج. لقد وافق على المجيء إلى إسطنبول لمساعدة سينسكي على إيجاد حلٍّ للأزمة قبل خروجها عن السيطرة تماماً.

لم يرغب عن بال العميد أن التعاون مع سينسكي قد يخفف من انعكاسات تورطه في هذه الأزمة. لكنَّ سينسكي تحتجزني الآن.

ما إن هبطت الطائرة في مطار أتاتورك، حتَّى غادرتها سينسكي مع فريقها وأمرت العميد والعدد القليل من موظفيه بالبقاء على متنها.

حاول العميد الخروج لتتشقَّ الهواء، لكنَّ الطيارين منعه وذكَّروه أن د. سينسكي طلبت بقاء الجميع في الطائرة.

لم يستسغ العميد ذلك، فجلس يفكر في مستقبله الغامض.

كان معتاداً منذ مدة طويلة على أن يكون هو السيّد، والسلطة العليا، لكنه وجد نفسه فجأة مجرداً من كل نفوذه.

زوبريست، سبيّنا، سينسكي.

كلّهم تحنّوه... وتلاعبوا به.

وها هو الآن محتجز على متن طائرة نقل من دون نوافذ، حيث بدأ يتساءل عما إذا كان قد خسر حسن حظّه... وعما إذا كانت هذه الحالة التي وصل إليها نتيجة حياة عاشها في الخداع.

أنا أكسب رزقي بالكنب.

وأزود الناس بالمعلومات الخاطئة.

لم يكن العميد الشخص الوحيد في العالم الذي يبيع الأكاذيب، إلا أنه جعل نفسه السمكة الكبرى في الحوض. كانت الأسماك الأخرى بالنسبة إليه من فصيلة أخرى في الأساس، ويكره التشبّه بها.

تتوفر على شبكة الإنترنت شركات وشبكات وهمية صنعت ثروات في مختلف أنحاء العالم من خلال توفيرها طريقة للزوجات لخيانة أزواجهنّ من دون أن يُكشف أمرهنّ. كانت تلك المنظمات - البارة في صناعة الأكاذيب - تعد بإيقاف الزمن لمدة وجيزة لكي يتمكن زبائنهنّ من الفرار من الأزواج أو الزوجات أو الأطفال، كما تزيّف عقود أعمال، ومواعيد أطباء، وحتى

حفلات زفاف، وكلها تتضمن دعوات هاتفية، ومنشورات، وتذاكر سفر، ونماذج حجز في الفنادق، وحتى أرقام هواتف خاصة ترن في الشركة الوهمية، ويرد عليها أشخاص يدعي كل منهم أنه عامل الاستعلامات أو الشخص المقصود.

غير أن العميد لم يضع وقته قط في مثل تلك التفاهات، ولم يستلم سوى عمليات خداع على نطاق واسع، وقدم خدماته لمن يستطيع دفع ملايين الدولارات من أجل الحصول على أفضل النتائج؛ من حكومات، ومؤسسات كبرى، وأشخاص مهمين فاحشي الثراء.

لكي يحقق أولئك الزبائن أهدافهم، كانوا يجدون في متناولهم أصول الكونسورتيوم كافة، وموظفيه، وخبرته، وإبداعه. لكن الأهم من كل ذلك أنهم كانوا يحصلون على الإنكار، أي التأكيد على أنه أيًا تكن الكذبة التي لفتت لادعم عملية الخداع، فلن يُذكر اسمهم.

سواء أكان الهدف دعم سوق بورصة، أو تبرير حرب، أو الفوز في انتخابات، أو استئراج إرهابي للخروج من مخبئه، فإن سماسة السلطة في العالم يعتمدون على معلومات مضللة هائلة للمساعدة على خداع الرأي العام.

لطالما جرت الأمور كذلك.

في ستينيات القرن الماضي، أسس الروس شبكة تجسس وهمية كاملة. أعطت معلومات استخبارية مزيفة اعترضها البريطانيون لسنوات. وفي عام 1947، قامت القوات الجوية الأميركية بتصنيع خدعة متقنة لتحويل الانتباه عن تحطم طائرة سرية في روسويل، في نيو ميكسيكو. ومؤخراً، تم دفع العالم إلى الاعتقاد أن العراق يملك أسلحة الدمار الشامل.

لمدة ثلاثة عقود تقريباً، ساعد العميد أشخاصاً نافذين على حماية سلطتهم والحفاظ عليها ومضاعفاتها. ومع أنه حرص على اختيار الأعمال التي تُعرض عليه، إلا أنه خشي دائماً من أن يخطئ يوماً في اختيار الزبون.

وها قد أتى ذلك اليوم.

فيُنظر العميد، كل انهيار يرجع إلى لحظة واحدة؛ لقاء صدفة، أو قرار خاطئ، أو نظرة في غير محلها.

في حالته، ترجع تلك اللحظة إلى عشرة أعوام مضت تقريباً؛ عندما وافق على توظيف طالبة طب تبحث عن عمل يوفر لها المال. كانت تلك الطالبة هي سيبينا بروكس، وسرعان ما تحولت بفضل مواهبها الفذة إلى عميل أساسي في الكونسورتيوم.

فهمت سيبينا فوراً طريقة عمل المنظمة، وشعر العميد أنها معتادة هي نفسها على حفظ الأسرار.

عملت لديه مدة عامين تقريباً، وكسبت مبلغاً كبيراً من المال ساعداً على دفع أقساط الجامعة. فجأة، أعلنت أنها ترغب في التوقف. وقالت إنها تريد أن تنقذ العالم، ولا يمكنها فعل ذلك هنا.

لكنها عادت بعد عشر سنوات تقريباً، وأحضرت زبوناً فاحش الثراء.

بيرتراند زويريست.

ارتجف العميد عند تذكر ذلك.

ذلك هو خطأ سيبينا.

لقد شاركت في مخططات زويريست منذ البداية.

في الجوار، أصبح النقاش حامياً بين المجتمعين إلى طاولة الاجتماعات على متن الطائرة، حيث كان موظفو منظمة الصحة العالمية يتحدثون ويتجادلون عبر الهاتف.

صاح أحدهم: "سيبينا بروكس؟! هل أنت واثق؟". ثم أضاف بعدما أصغى قليلاً: "حسناً،

أعطني التفاصيل. سأنتظر".

غطى الساعة وقال لزملائه: "يبدو أن سيبينا بروكس قد غادرت إيطاليا بعدنا بوقت

قصير".

توتر كل الحاضرين.

قالت إحدى الموظفات: "لقد راقبنا المطار، والجسور، ومحطة القطار...".

أجابها: "مطار نيتشيلي، في الليدو".

هزت المرأة رأسها. "هذا مستحيل. إن مطار نيتشيلي صغير جداً، ولا تنطلق منه أي

رحلات، ولا يستقبل سوى جولات محلية بالطائرات المروحية -".

"يبدو أن سيبينا بروكس قد تمكنت من الوصول إلى طائرة خاصة متوقفة في نيتشيلي. ما

زالوا يبحثون في الأمر". أعاد السماع إلى أذنه مجدداً. "أجل، أنا معك. ماذا لديك؟". وفيما كان

يصغي إلى المعلومات، راحت كتفاه تتخفضان تدريجياً إلى أن جلس على أحد المقاعد. "قهمت،

شكراً". وأنهى المكالمة.

حدق إليه زملاؤه بترقب.

قال وهو يفرك عينيه: "توجهت طائرة سيبينا إلى تركيا".

قال أحدهم: "إذا اتصل بمركز قيادة النقل الجوي الأوروبي، واطلب منهم تحويل مسار

الطائرة".

"هذا غير ممكن. لقد هبطت الطائرة قبل اثنتي عشرة دقيقة في مطار هيزارفن الخاص،

على بعد خمسة عشر ميلاً من هنا. وقد غادرتها سيبينا بروكس".

الفصل 87

كان المطر يتساقط الآن على القبة القديمة لآيا صوفيا. ظلت لألف عام تقريباً أكبر كنيسة في العالم. وحتى هذا اليوم، من الصعب تخيل بناء أكبر منها. عندما رآها لانغدون مجدداً، تذكر أنه عند انتهاء بناء آيا صوفيا، تراجع الإمبراطور جوستينيان وأعلن بفخر: "لقد تفوقت عليك يا سليمان!". تقدمت سينسكي وبرودر نحو المبنى الضخم الذي بدا كما لو كان يزداد حجماً كلما اقتربوا منه.

اصطفت في الأروقة طلقات المدافع التي استخدمتها قوات محمد الفاتح؛ للتذكير أن تاريخ هذا المبنى كان مليئاً بالعنف لأنه تم الاستيلاء عليه مرات عديدة، وتغيير أغراضه خدمة للاحتياجات الروحية للقوى المنتصرة.

لدى اقترابهم من الواجهة الجنوبية، نظر لانغدون إلى اليمين، إلى القيب الثلاث البارزة من المبنى، والتي تبدو كما لو أنها زوائد. كانت تلك هي أضرحة السلاطين، وأحدهم هو مراد الثالث الذي قيل إنه أنجب أكثر من مائة طفل.

رنّ الهاتف المحمول، فردّ عليه برودر باقتضاب: "هل من أخبار؟". أصغى إلى التقرير، ثم هز رأسه من دون تصديق: "كيف حصل ذلك؟". تنهد مضيقاً: "حسناً، أبقني على اطلاع. نحن على وشك الدخول". ثم أنهى الاتصال. سألته سينسكي: "ما الأمر؟".

قال وهو ينظر حوله: "انتبها، يبدو أن سيبينا بروكس أصبحت في إسطنبول". فوجئ لانغدون لأن سيبينا تمكنت من الوصول إلى تركيا والفرار من البندقية، وهي الآن تخاطر بحياتها من أجل إنجاح خطة بيرتراند زوبريست.

بدا القلق على سينسكي أيضاً التي أخذت نفساً عميقاً وكأنها تستعدّ لطرح المزيد من الأسئلة على برودر، بيد أنها صمتت والتفتت إلى لانغدون. "أي طريق نسلك؟". أشار لانغدون إلى اليسار، حول الزاوية الجنوبية الغربية للمبنى. "نافورة الوضوء تقع هناك".

كانت نقطة اللقاء مع القيم على المتحف عند نافورة جميلة استخدمت في الماضي للوضوء قبل أداء الصلاة.

هتف شخص وهو يقترب منهم: "بروفيسور لانغدون!".

اقترب رجل تركي مبتسم من تحت قبة مثمنة الأضلاع تغطي النافورة. كان يلوح بذراعيه بحماسة قائلاً: "بروفيسور، أنا هنا!".

أسرع لانغدون والآخرين نحوه.

قال بلكنة ثقيلة: "مرحباً، اسمي ميرسات". كان صوته يفيض حماسة. كان رجلاً نحيلًا وخفيف الشعر، يضع نظارة ويرتدي بذلة رمادية. "هذا شرف كبير لي".

صافحه لانغدون قائلاً: "الشرف لي. شكراً لك على استقبالنا بهذا الشكل العاجل".
"أهلاً بكم!".

صافحته إليزابيث قائلة: "أنا إليزابيث سينسكي". ثم أشارت إلى برودر: "وهذا كريستوف برودر. نحن هنا لمساعدة البروفيسور لانغدون. أنا أسفة على تأخر الطائرة ونشكرك على استقبالك لنا".

"لا شكر على واجب. أنا جاهز لاصطحاب البروفيسور لانغدون في زيارة خاصة في أي وقت. فكتابه الذي يحمل عنوان الرموز المسيحية في العالم الإسلامي من بين الكتب المفضلة لدي في مكتبة المتحف".

تساءل لانغدون: حقاً؟ عرفت الآن المكان الوحيد في العالم الذي يحتفظ بهذا الكتاب.
"هلاً تفضلتكم". وأشار لهم ميرسات ليتبعوه.

أسرعت المجموعة عبر الباحة، وعبرت مدخل السياح المعتاد، ثم تابعت طريقها إلى ما كان في الأساس المدخل الرئيس للمبنى، والذي يمتاز بثلاث قناطر متراجعة ذات أبواب برونزية ضخمة. كان باستقبالهم حارسان مسلحان. لدى رؤيتهما ميرسات، قام الحارسان بفتح الباب. شكرهما ميرسات بإحدى عبارات الشكر التركية العديدة التي كان لانغدون يعرفها. دخلت المجموعة، وأقفل الحارسان الباب خلفهم، فتردد صوت إغلاق الباب داخل المبنى. كان لانغدون والباقيون يقفون الآن في صحن آيا صوفيا، وهو عبارة عن قاعة انتظار شائعة في الكنائس المسيحية.

توجهوا نحو باب آخر فتحه ميرسات. رأى لانغدون خلفه صحنًا آخر؛ أكبر من الأول بقليل. فتذكر أن آيا صوفيا تضم مستويين من الحماية من العالم الخارجي.

كان هذا الصحن يمتاز بقدر أكبر من الزخرفة، وكأنه يُعدّ الزائر لما ينتظره. كانت جدرانه مصنوعة من الحجر المصقول الذي توهج تحت ضوء الثريات الأنيقة. من الجهة الأخرى، رأى لانغدون أربعة أبواب، تعلوها فسيفساء رائعة أثارت إعجابه.

اقترب ميرسات من أكبر الأبواب الذي كان عبارة عن باب ضخم مكسو بالبرونز، وهمس بحماسة: "هذا باب الإمبراطور. ففي العهد البيزنطي، كان هذا الباب مخصصاً للإمبراطور وحده. وعادة، لا يدخل منه السياح، لكن هذه الليلة خاصة".

عندما وصل ميرسات إلى الباب، توقّف وهمس: "قبل أن ندخل، أود أن أعرف إن كان ثمة مكان معين ترغبون في رؤيته".

نظر الثلاثة إلى بعضهم بعضاً.
قال لانغدون: "بالطبع، ثمة الكثير لنراه. لكن إن أمكن، نرغب بداية في رؤية قبر إنريكو داندولو".

فوجئ ميرسات وظنّ أنّه أخطأ في الفهم: "المعذرة؟! أتريدون زيارة... قبر داندولو؟".
"أجل".

بنت عليه الخيبة. "لكن، سيدي... القبر عادي جداً ولا يحتوي على أي رموز. لدينا ما هو أجمل بكثير".

قال لانغدون بتعذيب: "أدرك ذلك، لكننا سنكون ممتنين لك إن أخذتنا إلى هناك".
تأمل ميرسات لانغدون مطوّلاً، ثمّ نظر إلى الأعلى، إلى القسيساء الموجودة فوق الباب مباشرة والتي كان لانغدون يتأملها بإعجاب. كانت عبارة عن صورة للمسيح ترجع إلى القرن التاسع عشر، وهي صورة أبقونية يحمل فيها المسيح العهد الجديد بيده اليسرى ويبارك بيده اليمنى.

ابتسم ميرسات، كما لو أنّ فكرة ما خطرت فجأة في باله، وبدأ يهرّج إصبعه قائلاً: "أنت رجل نكي! نكي جداً!".

قال لانغدون: "المعذرة؟".

همس ميرسات بنبرة تواطؤ: "لا تقلق بروفيسور، لن أخبر أحداً عن السبب الحقيقي لوجودك هنا".

نظرت سينسكي وبرودر إلى لانغدون باستغراب، فهزّ كتفيه من دون أن يفهم شيئاً، في حين فتح ميرسات باباً وأدخلهم منه.

الفصل 88

وصف البعض المكان بأنه ثامن العجائب في العالم، وشعر لانغدون وهو واقف هناك أنه يوافقهم تماماً.

مع دخول المجموعة القاعة المهيبة، تذكر أنّ زوار آيا صوفيا سرعان ما يقعون تحت تأثير عظمتها وضخامة مقاييسها.

كانت القاعة ضخمة جداً؛ إلى درجة أنها تنافس أعظم الكاتدرائيات في أوروبا. وكان لانغدون يعرف أنّ ضخامتها ترجع جزئياً إلى الوهم؛ وهو تأثير جانبي ناتج عن مخطط الأرض البيزنطي، مع ناووس مركزي يجعل داخل القاعة يتركز في غرفة مربعة واحدة عوضاً عن امتداده على أربع أذرع متصالة، مثل النمط المعتمد في الكاتدرائيات اللاحقة.

هذا البناء أقدم من نوتردام بسبعمئة عام.

بعد ذلك، نظر لانغدون إلى السقف؛ إلى القبة الذهبية التي تتوّج القاعة على ارتفاع يتجاوز مائة وخمسين قدماً. من مركز القبة، يمتد أربعون ضلعاً إلى الخارج مثل أشعة الشمس، وذلك في عقد دائري من أربعين نافذة مقنطرة. في ساعات النهار، ينعكس الضوء الذي يتسلّل من هذه النوافذ عدة مرات على شظايا زجاجية مضمّنة في البلاط الذهبي، مولداً "ضوءاً باطنياً" اشتهرت به آيا صوفيا.

كان لانغدون قد رأى هذا الجو الذهبي مصوراً بدقة في عمل فني واحد على يد جون سينجر سارجنت. ولا عجب أنّ الألوان التي استخدمها الفنان الأميركي في لوحته الشهيرة قد اقتصرت على ظلال لون واحد.

الذهب.

غالباً ما كانت القبة الذهبية اللامعة تسمّى "قبة السماء نفسها"، وكانت مدعّمة بأربع قناطر كبيرة، تتركز بدورها على سلسلة من أنصاف القباب والأجزاء الغائرة، وتستند هذه الدعائم على طبقة تنازلية أخرى من أنصاف القباب الأصغر حجماً؛ الأمر الذي يولّد تأثير سلسلة من الأشكال المعمارية التي تشق طريقها من السماء إلى الأرض.

امتدّت كذلك من السماء إلى الأرض - وإن بطريقة مباشرة أكثر - أسلاك طويلة؛ امتدّت من القبة مشكّلة ركيزة لبحر من الثريات اللامعة التي بدت معلقة على علو منخفض فوق الأرض، حيث يوشك الزوار ذوو القامات الطويلة على الارتطام بها. لكن هذا الوهم ناتج أيضاً عن ضخامة المكان، وذلك لأنّ الأضواء ترتفع أكثر من اثني عشر قدماً عن الأرض.

كما هو حال جميع دور العبادة العظيمة، كان حجم آيا صوفيا الهائل ذا مغزيين. الأول أنه دليل على ما يستطيع الإنسان فعله تمجيداً للخالق. والثاني أنه يشكل نوعاً من العلاج بالصدمة للمؤمنين؛ فالبناء المهيب يقرّم الدخال إليه ويمحو غروره، فيشعر بتقلص أهميته وتضاؤل كينونته الجسدية أمام بقعة واحدة في هذا الكون... ليست سوى ذرة بين يدي الخالق. نظر لانغدون إلى برودر وسينسكي اللذين كانا يحدقان إلى الأعلى، قبل أن يخفضا أنظارهما إلى الأرض.

قال برودر: "يا يسوع!"

فقال ميرسات بحماسة: "أجل، والله و"محمد" أيضاً!"

ضحك لانغدون، في حين أشار لهم الرجل إلى المذبح الأساسي الذي تعلوه فسيفساء كبيرة للمسيح، ويحيط بها قرصان كبيران يحملان كلمتي الله ومحمد بالخط العربي.

شرح ميرسات: "لتذكير الزوار بمختلف استعمالات هذا المبنى، يعرض المتحف صوراً أيقونية مسيحية ترجع إلى العهد الذي كانت فيه آيا صوفيا بازيليك، فضلاً عن تحف إسلامية من الزمن الذي كانت فيه مسجداً. ابتسم بفخر مضيقاً: "على الرغم من الاحتكاكات بين الديانتين في عالم الواقع، إلا أن رموزهما تتسجم تماماً. أعلم أنك توافقني الرأي بروفيسور".

وافقه لانغدون بإيماءة من رأسه، وتذكر أن كل الصور الأيقونية المسيحية طليت باللون الأبيض عندما أصبح البناء مسجداً. واسترجاع الرموز المسيحية إلى جانب الرموز الإسلامية شكّل تأثيراً فائتاً، لا سيما وأن أساليب كل من فئتي الديانتين متناقضة تماماً.

ففي حين تفضل التقاليد المسيحية رسم صور حرفية لرموزها الدينية، كان الإسلام يركّز على علم الخطّ والأشكال الهندسية لتمثيل جمال الكون. فبحسب التقليد الإسلامي، وحده الله هو القادر على خلق الحياة، ولا يجوز للإنسان رسم صور للحياة، سواء أكانت لله، أو الأشخاص أو حتى الحيوانات.

تذكر لانغدون كيف حاول شرح ذلك لطلّابه: "لو كان مايكل أنجلو مسلماً، لما أقدم مطلقاً على رسم الله على سقف الكنيسة السيستانية، بل لكتب اسمه وحسب. فتصوير الله يعتبر تجديفاً".

وراح يشرح لهم سبب ذلك.

"كلّ من الديانتين الإسلامية والمسيحية تركّز على الرموز، أي على الكلمة. في المسيحية، أصبحت الكلمة جسداً. لهذا، كان تصوير الكلمة في شكل بشري أمراً مقبولاً. أمّا في الإسلام، فلم تصبح الكلمة جسداً، لذلك يجب أن تبقى كلمة... فتم تصوير الرموز الدينية في كتابات".

يومذاك، أوجز أحد طلابه ذلك التاريخ المعقّد بملاحظة هامشية دقيقة ومرحة: "المسيحيون يحبون الوجوه، أمّا المسلمون فيحبّون الكلمات".

تابع ميرسات مشيراً إلى أنحاء القاعة الرائعة: "هنا أمامنا، نرى مزيجاً فريداً للمسيحية والإسلام". وأشار بسرعة إلى الانصهار بين الرموز في المحراب الضخم. في الجوار، ارتفع منبر الإمام الذي يشبه ذاك الذي تلقى من عليه العظات المسيحية. كذلك، كان البناء المجاور الذي

يشبه المنصة - على غرار منصة الجوقة المسيحية - هو في الواقع المكان الذي يقف عليه المودن ليدعو إلى الصلاة.

قال ميرسات: "المساجد والكاتدرائيات متشابهة جداً. فعادات الشرق والغرب ليست متعارضة بقدر ما قد يظن البعض!".

قال برودر بنفاد صبر: "ميرسات؟ نوذ حقاً رؤية قبر داندولو إن أمكن".

بدا على ميرسات شيء من الانزعاج، كما لو أنّ برودر يظهر عدم احترام للمبنى.

قال لانغدون: "أجل، أنا أسف، لكن وقتنا ضيق جداً".

قال ميرسات: "حسناً، لنصعد إلى الأعلى ولنزّ القبر". وأشار إلى شرفة عالية إلى اليمين.

قال لانغدون: "إلى الأعلى؟ أليس داندولو مدفوناً في القبر؟". كان لانغدون يذكر القبر،

لكنه لا ينكر موقعه بالضبط. فتخيّل مكاناً مظلماً تحت الأرض.

استغرب ميرسات السؤال: "كلّاً بروفيسور. قبر إنريكو داندولو في الطابق العلوي بكل

تأكيد".

تساءل ميرسات: ما الذي يجري هنا بالضبط؟!

عندما طلب لانغدون رؤية قبر داندولو، اعتقد أنّه يفعل ذلك للتتويه. لا أحد يرغب في

رؤية قبر داندولو. فافترض أنّ لانغدون يودّ رؤية الكنز الغامض الذي يقع مباشرة بجانب قبر

داندولو، وهو عبارة عن لوحة فسيفساء تُعتبر الأكثر غموضاً في المبنى؛ فسيفساء ديبسيس.

ظنّ أنّه يكتب شيئاً سرياً عنها. ولا شك أنّه يعرف أنّها تقع في الطابق الثاني، فلماذا فوجئ؟

إلاّ إن كان يرغب بالفعل في رؤية قبر داندولو؟

قادهم ميرسات حائراً نحو الدّرج، ومزّ من أمام إحدى أشهر جزّتين في آيا صوفيا؛ جرة

ضخمة سعة 330 غالوناً، منحوتة من قطعة رخام واحدة وترجع إلى الحقبة الهلنستية.

أنشاء صعودهم الدّرج، شعر ميرسات بشيء من الانزعاج لأنّ مرافقّي لانغدون لم يبدووا

أكاديميين على الإطلاق. بل كان أحدهما أقرب إلى جندي، بجسده العضلي، وملابسه السوداء.

أما المرأة ذات الشعر الفضّي، فشعر ميرسات أنّ ملامحها مألوفة. ربّما رآها على شاشة التلفاز.

تساءل عن سبب وجود هذه المجموعة هنا.

قال بمرح عندما صعدوا إلى الطابق الأوّل: "طابق واحد بعد وسنصل إلى قبر إنريكو

داندولو، وبالطبع - صمت ورمق لانغدون مضيقاً: إلى فسيفساء ديبسيس الشهيرة".

لكنّه لم يجد أيّ بادرة اهتمام.

من الواضح أنّ لانغدون غير مهتم إطلاقاً بالفسيفساء. يبدو أنّ كلّ تركيزه ومرافقيه منصبّ

على قبر داندولو.

الفصل 89

تقدّم ميرسات المجموعة على الدرج، ولاحظ لانغدون أنّ برودر وسينسكي كانا قلقين. بالطبع، لا يبدو الصعود إلى الطابق الثاني منطقياً. ظل لانغدون يتخيل فيلم زوبريست المصوّر تحت الأرض... والفيلم الوثائقي عن المناطق المغمورة بالمياه تحت آيا صوفيا. علينا النزول إلى الأسفل.

لكن، إن كان قبر داندولو هناك، فما عليهم سوى اتباع تعليمات زوبريست. اركع في الموزيون الذهبي للحكمة المقدسة، وضغ أنّاً صاغية على الأرض، لتسمع خرير المياه. عندما وصلوا أخيراً إلى الطابق الثاني، قادهم ميرسات إلى اليمين على طول الشرفة التي تطل على مناظر خلابة للحرم في الأسفل. مشى لانغدون في المقدمة، وحاول حصر تركيزه. عاد ميرسات يتحدّث عن القسيساء، لكنّ لانغدون كان يفكر في أمر مختلف تماماً. أخيراً، رأى هدفه.

قبر داندولو.

بدا القبر تماماً كما تذكره؛ قطعة مستطيلة من الرخام الأبيض، مدمجة في الأرضية الحجرية، ومحاطة بالدعائم والسلال. اندفع وتفحص النقش.

هنريكوس داندولو

لحق الثلاثة الآخرون بلانغدون الذي تجاوز الحاجز، ووقف أمام القبر تماماً. اعترض ميرسات بصوت عالٍ، لكنّ لانغدون لم يأبه، بل ركع وكأنه يستعد للصلاة عند قبر الدوج الخائن.

وفي خطوة روّعت ميرسات، وضع لانغدون يديه على القبر وأخفض رأسه، وعندئذ لاحظ أنّه بدا وكأنه يسجد. هذه الحركة أذهلت ميرسات الذي صمت تماماً، وخيم الهدوء على المبنى بأكمله.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً، ثم أدار رأسه إلى اليمين، ووضع أذنه اليسرى فوق القبر. شعر ببرودة الحجر تحت بشرته.

كان الصوت الذي سمعه يتردّد عبر الأرض واضحاً وضوح الشمس.

يا إلهي.

شعر كما لو أنّ خاتمة جحيم دانتي تتردّد من الأسفل.

أدار لانغدون رأسه ببطء، ونظر إلى سينسكي وبرودر.

همس: "إنّني أسمع صوت خرير المياه".

تخطّى برودر السلاسل، وركع بالقرب من لانغدون ليصغي بدوره. بعد قليل، راح يهز

رأسه هو أيضاً.

الآن، بعدما سمعا خرير المياه، بقي سؤال واحد: إلى أين يتّجه الماء؟

فجأة، تزاوجت في ذهن لانغدون صور لكهف شبه مغمور بالمياه، يسوده ضوء أحمر

مخيف... يقع في مكان ما تحتهم.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...

ف هناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي،

مغموراً بمياه حمراء كالدم...

مياه البحيرة التي لا تعكس النجوم.

عندما نهض لانغدون وعاد من فوق السلاسل، كان ميرسات يحقّق إليه باستغراب واضح.

قال لانغدون: "ميرسات، أنا أسف. كما ترى، هذا وضع غير اعتيادي. لا وقت للشرح،

لكنّ لديّ سؤالاً هاماً جداً عن هذا المبنى".

هزّ ميرسات رأسه. "تفضّل".

"يمكننا أن نسمع هنا، عند قبر داندولو، خرير جدول مياه يتدفّق تحت الأرض. نريد أن

نعرف أين يجري هذا الماء".

استغرب ميرسات. "لا أفهم. يمكن سماع جريان الماء في كلّ مكان في آيا صوفيا".

فوجئ الجميع.

قال ميرسات: "أجل، لا سيّما عندما تمطر. فمساحة أسطح آيا صوفيا تبلغ حوالي مائة

ألف قدم مربعة، وهذه الأسطح يجب أن تصرّف مياه المطر، وهو أمر غالباً ما يستغرق أياماً.

عادة، يتساقط المطر مجدداً قبل أن ينتهي التصريف. لذلك، إنّ صوت خرير المياه شائع هنا.

ربّما كنت تعرف أنّ آيا صوفيا ترتكز على كهوف تحتوي على الماء. حتى إنّه ثمة وثائقي -".

قال لانغدون: "أجل، أجل، لكن هل يذهب هذا الماء إلى مكان محدّد؟".

أجاب ميرسات: "بالطبع، يصبّ في المكان نفسه الذي تصبّ فيه كلّ المياه التي تهطل

على آيا صوفيا؛ في خزّان المدينة".

قال برودر وهو يعود من فوق السلاسل: "كلّاً. نحن لا نبحث عن خزّان، بل عن قاعة

كبيرة تحت الأرض فيها أعمدة".

أجاب ميرسات: "هذا هو بالضبط شكل خزان المدينة؛ إنه قاعة كبيرة تحت الأرض فيها أعمدة. إنها مثيرة للإعجاب في الواقع. بنيت في القرن السادس لتخزين المياه العذبة، لكنها لا تحتوي الآن سوى على أربع أقدام تقريباً من المياه، لكن -".

قاطعه برودر بصوته الذي تردد في القاعة الخالية: "وأين هو؟".

سأله ميرسات بنبرة مشوية بالخوف: "الخزان؟ على مسافة قريبة من هنا، شرق هذا المبنى، يسمى يريباتان ساراي".

تساءل لاتغدون، ساراي؟ مثل تويكابي ساراي؟ كانت اللافئات التي تشير إلى قصر تويكابي منتشرة في كل مكان في طريقهم إلى هنا. "لكن... ألا تعني كلمة ساراي قصر؟".

قال ميرسات: "بلى، اسم الخزان القديم يريباتان ساراي، ومعناه القصر الغارق".

الفصل 90

كان المطر ينهمر بغزارة عندما خرجت المجموعة من آيا صوفيا مع دليلها المربك.
فكرت سينسكي: اهبط إلى أعماق القصر الفارق.

يبدو أن خزان المدينة، يربطان ساراي، يقع على مقربة من المسجد الأزرق، نحو الشمال.
قاد ميرسات الزوار الثلاثة.

لم يكن أمام سينسكي أي خيار سوى إخباره بهوياتهم، وأنهم أتوا لتطويق أزمة صحية
محتملة داخل القصر الفارق.

قاده ميرسات عبر الحديقة المظلمة قائلاً: "من هنا!". أصبحت آيا صوفيا خلفهم الآن،
ومآذن المسجد الأزرق تلمع أمامهم.

أسرع العميل برودر إلى جانب سينسكي، وراح يتحدث عبر الهاتف مع رجاله، ويأمرهم
بملاقاته عند مدخل الخزان. قال وهو يلهث: يبدو أن زوبريست استهدف خزان المدينة. سأحتاج
إلى مخطط لجميع الأبنية الداخلة والخارجة من الخزان. سنطبق بروتوكولات العزل والاحتواء
كاملة، وسنحتاج إلى حواجز فيزيائية ومادية، مع -".

قاطعه ميرسات: "مهلاً، لقد أسأت فهمي. لم يعد الخزان يحتوي على مخزون مياه
المدينة!".

أخفض برودر الهاتف وحقق إلى الدليل: "ماذا؟".

شرح ميرسات: قديماً، كان الخزان يحتوي على الماء، لكننا نستخدم الآن الوسائل الحديثة".

توقف برودر تحت إحدى الأشجار، وحذا الجميع حذوه.

قالت سينسكي: "ميرسات، هل أنت واثق أن أحداً لم يعد يشرب من ماء الخزان؟".

قال ميرسات: "بالطبع! الماء يتجمع هناك وحسب، ثم يتسرب لاحقاً إلى داخل الأرض".

تبادل الثلاثة نظرات قلق. لم تعرف سينسكي ما إذا كان يجدر بها أن تشعر بالارتياح أم
القلق. إن لم يكن الناس يشربون هذه المياه بانتظام، فلماذا اختار زوبريست تلويثها؟

قال ميرسات: "عندما حدثنا وسائل تخزين المياه منذ عقود، لم يعد الخزان مستخدماً، بل

أصبح عبارة عن بركة كبيرة تحت الأرض، ولم يعد اليوم سوى معلم سياحي".

التفتت سينسكي إلى ميرسات. معلم سياحي! "مهلاً... هل ينزل الناس إلى الخزان؟".

"بالطبع، عدة آلاف يزورونه يومياً، فالمكان رائع. ثمة ممشى خشبية فوق الماء... ومقهى

صغير. التهوية محدودة، لذلك يكون الهواء رطباً ورائعاً، لكنه رغم ذلك مكان شعبي".

نظرت سينسكي إلى برودر، وعرفت أن العميل الخبير يفكر في الشيء نفسه؛ إن كهنأً
رطباً ومظلماً ومليناً بالمياه الراكدة هو أفضل حاضنة للأمراض. ويكتمل الكابوس بوجود مماتي
عريضة يسير عليها السياح طوال النهار، فوق سطح الماء تماماً.
أعلن برودر قائلاً: "لقد صنع وباء ينتقل عبر الهواء".
هزت سينسكي رأسها باستسلام.

صمت لانغدون، ولاحظت سينسكي أنه يحاول استيعاب حجم الأزمة.
كان الوباء الذي ينتقل عبر الهواء من بين السيناريوهات التي فكرت فيها سينسكي لبعض
الوقت، لكن عندما علمت أن الخزان يحتوي على مياه المدينة العذبة، أملت أن يكون زوبريست
قد صنع وباء ينتقل عبر المياه. فالبكتيريا التي تعيش في الماء قوية ومقاومة لعوامل الطقس،
لكنها بطيئة الانتشار.
أما الأوبئة التي تنتقل عبر الهواء، فتنتشر بسرعة.
بسرعة كبيرة.

قال برودر: "بما أنه ينتقل عبر الهواء، فهذا يعني أنه فيروس على الأرجح".
وافقته سينسكي الرأي؛ إنه فيروس. هذا هو الوباء الأسرع انتشاراً الذي يمكن أن يختاره
زوبريست.

كان نشر الوباء تحت المياه أمراً غير معتاد، لكن ثمة الكثير من أشكال الحياة التي
تمضي فترة حضانتها في السائل، ثم تنتقل إلى الهواء؛ كالبعوض، وجراثيم العفن، والبكتيريا التي
تسبب مرض المحاربيين، والسموم الفطرية، وحتى البشر. تخيلت سينسكي الفيروس وهو ينتشر
في مياه الخزان... ثم يتصاعد بخار المياه في الهواء الرطب.

كان ميرسات يحدق عبر الشارع المزدهم بقلق. تبعت سينسكي اتجاه نظراته فرأت مبنى
باللونين الأحمر والأبيض، بابه الوحيد مفتوح، وقد بدا منه درج. رأت عدداً من الناس الذين
يرتدون ملابس أنيقة ينتظرون في الخارج حاملين المظلات، في حين قام حارس بمراقبة مرور
الزوار الذين يهبطون الدرج.

هل يوجد نادي رقص في الأسفل؟!

رأت سينسكي الأحرف الذهبية على المبنى، وشعرت بضيق مفاجئ في صدرها. إن
كان هذا النادي يدعى الخزان، وبني في العام 523م، فهذا يفسر القلق الذي بدا على وجه
ميرسات.

قال: "يبدو أن القصر الغارق... يستقبل حفلة موسيقية الليلة".

ذهلت سينسكي. "حفلة موسيقية في خزان!!".

أجابها: "المكان في الداخل كبير، وغالباً ما يستعمل كمركز ثقافي".

كان برودر قد سمع ما فيه الكفاية، فانطلق باتجاه المبنى، وهو يشق طريقه بين السيارات
التي تزدهم بها جادة أليمدار. تبعه الباقون، وأخذوا يركضون في أعقابها.

عندما وصلوا إلى باب الخزان، لم يتمكنوا من الدخول بسبب وجود مجموعة من الزوار الذين ينتظرون أن يسمح لهم بالدخول لحضور الحفلة الموسيقية. ثلاث نساء يرتدين العباءات، وسائحات يمكن بيدي بعضهما، ورجل يرتدي بذلة رسمية. كانوا متجمعين عند المدخل، وهم يحاولون اتقاء المطر.

سمعت سينسكي نغمات موسيقى كلاسيكية للموسيقار بيرليوتز تتصاعد من الأسفل. لكنها أحسّت أنها لا تتسجم إطلاقاً مع شوارع إسطنبول.

لدى اقترابهم من المدخل، أحسّت بهواء دافئ يخرج من المكان؛ يهبّ من أعماق الأرض إلى خارج الكهف المغلق. لم يجلب الهواء معه إلى السطح صوت الكمنجات فحسب، بل روائح الرطوبة وجموع الناس.

جلب الهواء معه لسينسكي إحساساً عميقاً بالخوف.

خرجت مجموعة من السياح الذين كانوا يثرثرون بفرح، فسمح الحارس للمجموعة التالية بالنزول. اقترب برودر فوراً، لكنّ الحارس منعه قائلاً: "لحظة واحدة سيدي. الخزان ممتلئ. انتظر قليلاً إلى أن يخرج زائر آخر، شكراً لك".

بدا برودر جاهزاً للدخول عنوة، لكنّ سينسكي وضعت يدها على كتفه وأبعدته جانباً. قالت: "انتظر، الفريق آتٍ، ولا يمكنك تفتيش هذا المكان بمفردك". وأشارت إلى اللافتة المعلقة على الجدار بجانب الباب، مضيئة: "الخزان ضخم جداً".

كانت اللافتة تصف قاعة تحت الأرض بحجم كاتدرائية، يعادل طولها طول ملعب كرة قدم تقريباً، ويتجاوز ارتفاع سقفها مائة ألف قدم مربعة، تدعمه غابة من 336 عموداً رخامياً.

قال لانغدون وهو يقف على بعد عدة ياردات: "انظرا، لن تصدّق ذلك".

التفتت سينسكي إلى حيث أشار لانغدون إلى ملصق حفلة موسيقية معلق على الجدار. آه، يا إلهي.

كانت مديرة منظمة الصحة العالمية محقّة عندما قدّرت أنّ الموسيقى من النوع الرومنسي، لكنّ المعزوفة لم تكن من تأليف بيرليوتز، بل كانت لمؤلف رومنسي آخر هو فرانز ليزت.

الليلة، وعميقاً تحت الأرض، كانت أوركسترا إسطنبول تعزف أشهر سيمفونية للموسيقار؛ سيمفونية دانتي التي استوحاها من نزول دانتي إلى الجحيم وعودته منه.

قال لانغدون وهو يقرأ الملصق: "إنّها تُعزف هنا منذ أسبوع، وهذا حفل مجاني قّمه واهب مجهول".

أدركت سينسكي هوية ذلك الواهب. لقد استخدم زوبريست خطة عملية وحشية. فهذا الأسبوع من الحفلات الموسيقية المجانية سيغري آلاف السياح الإضافيين بالنزول إلى هذا الخزان... لتتشقّ الهواء المويء، ومن ثمّ العودة إلى منازلهم في بلدان أخرى. قال الحارس لبرودر: "سيدي، لدينا مكان لشخصين".

التفت برودر إلى سينسكي. "اتصلي بالسلطات المحلية. فنحن سنحتاج إلى دعمهم أيًا يكن ما سنجده. عند وصول أعضاء الفريق، اطلبي منهم الاتصال بي لإعطائهم آخر المعلومات. سأنزّل لأحاول العثور على ذلك الشيء".

سألته سينسكي: "هل ستزول من دون جهاز تنفس؟! ماذا لو كانت المادة قد تسربت؟".

عبس برودر، ورفع يده أمام الهواء الساخن الذي يهبّ من الداخل. "أكره قول ذلك، لكن في هذه الحالة، أعتقد أنّ كلّ من في هذه المدينة قد النقط العدوى مسبقاً".

كانت سينسكي تفكر في الأمر نفسه، لكنّها لم تجرؤ على قول ذلك أمام لانغدون وميرسات.

أضاف برودر: "بالإضافة إلى ذلك، أعرف ما الذي سيحصل للناس عندما يدخل فريقى بالملابس الواقية. سننشر الذعر بينهم".

وافقت سينسكي برودر الرأي، فهو في النهاية متخصص، وسبق له أن تواجد في ظروف مماثلة.

قال برودر: "خيارنا المنطقي الوحيد هو الافتراض أنّ الخزان ما زال آمناً، والقيام بدورنا لاحتواء الأزمة".

قالت سينسكي: "حسناً، قم بما عليك فعله".

قال لانغدون: "ثمّة مشكلة أخرى. ماذا عن سينّا؟".

سأله برودر: "ماذا عنها؟".

"أيّا تكن نواياها، فهي بارعة في اللغات، وربما كانت تتكلم التركية".
"إذا؟".

قال لانغدون: "سينّا على علم بالمعاني الرمزية في القصيدة التي تشير إلى قصر غارق. وباللغة التركية، القصر الغارق يشير حرفياً إلى...". وأشار إلى لافتة يريباتان ساراي مضيئاً: "... هنا".

وافقته سينسكي. "هذا صحيح. ربّما عرفت ذلك ولم تذهب أساساً إلى آيا صوفيا".

نظر برودر إلى الباب وهو يشتم في سرّه. "حسناً، إن كانت في الأسفل وتخطط لشقّ الكيس قبل احتوائه، فهي ربّما لم تصل إليه بعد. فالمكان كبير جداً، وهي على الأرجح لا تعرف أين تبحث. ومع كلّ هذا الازدحام، ربّما لم تتمكّن بعد من الفوص من دون أن يلاحظها أحد".

نادى الحارس برودر مجدّداً. "سيدي، هل ترغب في الدخول الآن؟".

رأى برودر مجموعة أخرى من الزوار المقترنين، فأومأ للحارس أنّه آتٍ.

قال لانغدون: "أنا آتٍ معك".

التفت إليه برودر. "هذا مستحيل".

كانت نبرة لانغدون حازمة. "أيها العميل برودر، من أسباب وجودنا في هذا الوضع أن سبيّنًا بروكس كانت تتلاعب بي طوال اليوم. وكما سبق وقلت، ربّما التقطنا العدوى أساساً. سأساعدك سواء أوافقت أم لا".
حرق إليه برودر، ثم استسلم.

ما إن دخل لانغدون وبدأ ينزل الدّرج خلف برودر حتّى شعر بالهواء الرطب يندفع نحوهما من أحشاء الخزان. حمل النسيم المشبع بالرطوبة معه نغمات سيمفونية دانتي ورائحة مألوفة ومنفرة... ناتجة عن تجمّع حشود الناس في مكان ضيق.
شعر لانغدون فجأة كما لو أنّ هناك غطاء يلفه، وأصابع يد غير مرئية تمتد من الأرض وتطبق على أنفاسه.
الموسيقى.

كان كورس الأوركسترا ينشد الآن مقطعاً معروفاً من قصيدة دانتي، مشدداً على كلّ حرف فيه.

"Lasciate ogne speranza, voi ch'entrate".

تصاعدت تلك الكلمات الست، الأشهر في إنفيرنو دانتي من أسفل الدّرج، مثل رائحة الموت.

كرر الكورس التحذير مجدداً، ترافقه الأبواق والآلات.

"Lasciate ogne speranza, voi ch'entrate".

تخلّ عن كلّ الآمال، أنت يا من تدخل إلى هنا!

الفصل 91

كان المكان مغموراً بالضوء الأحمر، ويضج بالموسيقى المستوحاة من الجحيم - عويل، وأنغام قوية، وأصوات عميقة متصاعدة من الآلات الموسيقية - والتي هزت الخزائن كالزلازل.

امتدت أرض الخزائن على مدّ النظر وكأنها رقعة زجاج داكنة، وساكنة، وملساء؛ مثل جليد أسود في بركة قطيية.

البحيرة التي لا تعكس النجوم.

ارتفعت من الماء، في صفوف مرتّبة، المنّات والمنّات من الأعمدة الدورية الضخمة التي تعلو ثلاثين قدماً لدعم السقف المقوّب. كانت الأعمدة مضاءة من الأسفل بسلسلة من المصابيح الحمراء التي جعلتها تشبه جذوع الأشجار المضاءة في الظلام.

توقف لانغدون وبرودر عند أسفل الدّرج، وراحا يتأملان الفراغ المظلم أمامهما. بدا المكان وكأنه يتوهج بضوء أحمر. وبينما كان لانغدون يتأمله، شعر أنّ تنفّسه أصبح سطحياً. كان الهواء هنا أثقل ممّا تخيل.

رأى لانغدون حشوداً بعيدة إلى اليسار. كان الحفل الموسيقي يجري عميقاً في مكان تحت الأرض، وكان الحاضرون جالسين على منصات واسعة. جلس عدّة منّات من المشاهدين في حلقات أحادية المركز تمّ ترتيبها حول الأوركسترا، في حين وقف مائة آخرون في محيطها. واتخذ المزيد من المشاهدين مواقع لهم على الممشى القريبة، متكئين على الدرابزين المتين، وهم يحدقون إلى المياه ويصفون إلى الموسيقى.

وجد لانغدون نفسه يتفحص الوجوه بحثاً عن سيبينا. لم يجد لها أثراً، بل رأى أشخاصاً يرتدون البذلات الرسمية والأثواب والعباءات، كما رأى سياحاً يرتدون السراويل القصيرة والقمصان القطنية. لقد تجمع عددٌ كبير من البشر في هذا المكان تحت الضوء القرمزي، وبدوا بالنسبة إلى لانغدون وكأنّهم في احتفال جماعي غامض.

أدرك بينه وبين نفسه أنّ سيبينا إن كانت هنا، فمن المستحيل تقريباً العثور عليها.

في تلك اللحظة، مرّ بهما رجل ضخّم الجثة، وصعد الدّرج وهو يقوّج. التفت برودر نحوه وراقبه بعناية، فأحسّ لانغدون بدغدغة خفيفة في حلقه، لكنّه كان واثقاً أنّه يتخيل.

خطا برودر على الممشى بحذر، وهو يفكر في الخيارات المتاحة أمامهما. بدا الطريق الممتد أمامه أشبه بمدخل متاهة ضخمة؛ إذ تفرّع الممشى في ثلاثة اتجاهات، وتفرّع كلّ من

تلك الممرات بدوره إلى عدة فروع؛ مشكلاً متاهة عائمة فوق الماء، تتخللها الأعمدة الممتدة إلى أعماق المبنى المظلم.

تذكر لانغدون النشيد الأول من تحفة دانتي: وجدت نفسي في غابة مظلمة، وذلك لأنني أضعت الطريق المستقيم.

حقق لانغدون إلى الماء من فوق الدرابزين. كانت بعمق أربع أقدام تقريباً، وصافية على نحو لافت. حتى إن بلاط القاع كان مرئياً، وتغطيه طبقة رقيقة من الطمي.

نظر برودر إلى الأسفل بسرعة، ثم جال بنظره في أرجاء المكان. "هل ترى شيئاً يشبه المكان الذي ظهر في فيلم زوبريست؟".

كل شيء. هذا ما فكر فيه لانغدون وهو يتأمل الجدران الرطبة المحيطة بهما. أشار إلى أبعد زاوية في الخزان، إلى أقصى اليمين، بعيداً عن منصة الأوركسترا. "أظن أنه في مكان ما هناك".

هز برودر رأسه موافقاً. "هذا ما ظننته أنا أيضاً".

أسرع الرجلان على الممشى الواسع، وسلكا الاتجاه الأيمن الذي قادهما بعيداً عن الحشد نحو أبعد مكان في القصر الغارق.

لثناء سيرهما، أدرك لانغدون أنه من السهل بالنسبة لأي كان أن يختبئ ليلاً من دون أن يراه أحد؛ وهذا ما فعله زوبريست على الأرجح لتصوير فيلمه. وبالطبع، إن كان قد قدم مجاناً هذا الأسبوع من الحفلات الموسيقية، فيمكنه ببساطة أن يطلب تمضية بعض الوقت بمفرده في الخزان.

لم تعد لذلك أي أهمية.

راح برودر يمشي بخطى أسرع، وكأنه يجاري السيمفونية التي أخذ إيقاعها يتخذ سلسلة من الأنغام منخفضة الإيقاع شيئاً فشيئاً.

نزول دانتي وفيرجيل إلى الجحيم.

تأمل لانغدون الجدران الشاهقة المكسوة بالطحالب إلى يمينهما، محاولاً مقارنتها بما رآه في فيلم زوبريست. عند كل فرع من الممشى، كانا يتجهان نحو اليمين، مبتعدين عن الحشد إلى أبعد زاوية في الكهف. نظر لانغدون إلى الخلف، ودُهل حين أدرك المسافة التي قطعها.

تقهما وهما يهرولان، وتجاوزا حفنة من الزوار الذين كانوا يتجولون في المكان. لكن، عندما وصلا إلى أعماق الكهف، أصبح المكان خالياً.

أصبح برودر ولانغدون بمفردهما.

قال برودر يائساً: "المكان كله متشابه. من أين نبدأ؟".

شعر لانغدون بالإحباط نفسه. كان يذكر الفيلم جيداً، لكنه لا يرى هنا شيئاً مميزاً رآه في الفيلم. تأمل لانغدون اللافتات المضاءة الموزعة على الممشى أمامهما. كانت إحداها تشير إلى سعة الخزان التي تبلغ واحداً وعشرين مليون غالون، في حين أشارت أخرى إلى عمود غير

مشابه لبقية الأعمدة أخذ من مبنى مجاور أثناء عملية البناء. وعرضت لافتة أخرى مخططاً لنقش قديم لم يعد موجوداً؛ عين الطائر الباكية التي تبكي على كل العبيد الذين لقوا حتفهم أثناء بناء الخزان.

غير أن لافتة كُتبت عليها كلمة واحدة استوقفت لانغدون.
سأله برودر: "ما الأمر؟".

أشار لانغدون إلى اللافتة التي تحمل إشارة سهم واسم وحش أنثى مريع.

الميدوزا <==

قرأ برودر الكلمة وهز كتفيه قائلاً: "إذاً، ماذا تعني؟".

أخذ قلب لانغدون ينبض بعنف. فقد كانت الميدوزا إحدى الأرواح المخيفة على شكل أفعى، والتي تحوّل من ينظر إليها إلى حجر، إلا أنها كانت أيضاً عضواً بارزاً بين أرواح البانثيون اليوناني التي تعيش تحت الأرض... وهي فئة خاصة معروفة بوحوش العالم السفلي.

اهبط إلى أعماق القصر الغارق...

فهناك، في الظلام، ينتظر الوحش القابع في العالم السفلي...

أدرك لانغدون أن تلك اللافتة تشير إلى الطريق، فراح يركض على الممشى الخشبي. بالكاد استطاع برودر مجاراته وهو يسلك الممشى المتعرج في الظلام، متبعاً الإشارات التي تقود إلى الميدوزا. أخيراً، وصل إلى طريق مسدود عند منصة مشاهدة بالقرب من قاعدة الجدار الأيمن للخزان.

هناك رأى أمامه مشهداً لا يصدق.

ارتفعت من الماء منحوتة ضخمة من الرخام تمثل رأس الميدوزا، شعرها المكوّن من الأفاعي. وما جعل وجودها هناك أكثر غرابة هو أن رأسها كان موضوعاً على عنقها رأساً على عقب.

أدرك لانغدون أن الرأس مقلوب بوضعية الملعونين، وتذكّر خارطة الجحيم لبوتيتشيلي، والخططين الذين كان مصيرهم المالبيلوني.

وصل برودر لاهثاً، ووقف إلى جانب لانغدون عند الدرابزين محدقاً إلى الميدوزا المقلوبة بذهول.

اشتبه لانغدون في أن هذا الرأس المنحوت - الذي يؤدي الآن دور قاعدة تدعم أحد الأعمدة - قد نهب من مكان آخر واستُخدم هنا. ولا شك في أن سبب قلب رأس الميدوزا هو

الاعتقاد بأنّ ذلك يجزّدها من قواها الشريرة. لكنّ لانغدون لم يستطع أن يبعد الأفكار المروعة التي كانت تلاحقه.

إنفيرنو دانتي، الخاتمة، مركز الأرض حيث تنقلب الجاذبية ويصبح ما هو في الأعلى في الأسفل.

داهمه حدس مخيف. نظر إلى الضباب الأحمر المحيط بالمنحوتة. كان شعر الميدوزا المكوّن من الأفاعي مغموراً بالمياه بمعظمه، لكنّ عينيها كانتا فوق السطح، تتظران إلى اليسار، عبر البحيرة.

انحنى لانغدون فوق الدرايزين بخوف، وترك نظره يتبع الاتجاه الذي ينظر إليه التمثال؛ إلى الزاوية الخالية من القصر الغارق.

فجأة، أدرك أنّ هذا هو الموقع.

إنّه نقطة الانطلاق التي حدّدها زوبريست.

الفصل 92

نزل العميل برودر في المياه العميقة بحذر. شعر بالماء البارد يتخلل ملابسه، فتقلصت عضلاته. كانت أرض الخزان زلقة تحت حذائه، لكنها ثابتة. وقف للحظة مراقباً الدوائر التي أحدثها نزول جسده وسط المياه.

للحظة لم يتنفس. نكّر نفسه أنّ عليه أن يتحرك ببطء من دون أن يتسبب باضطراب في المياه.

وقف لانغدون قرب الدرايزين وقال له: "كلّ شيء جاهز، لم يرك أحد".

التفت برودر مواجهاً رأس الميدوزا المقلوب الذي شغّ بالضوء الأحمر. بدا الوحش المقلوب أكبر حجماً عندما أصبح برودر بمستواه.

همس لانغدون: "اتّبع الاتجاه الذي ينظر إليه الميدوزا. كان زويريست مولعاً بالرمزية والعناصر المسرحية... ولن أفاجأ إن وضع تحفته مباشرة في خطّ البصر القاتل للميدوزا".

العقول العظيمة تتشابه. شعر برودر بالارتياح لأنّ لانغدون أصرّ على مرافقته. فلولاه، ما كان ليصل بهذه السرعة إلى هذا المكان البعيد.

مع تردد أنغام سيمفونية دائني بعيداً، أخرج برودر مصباحه المقاوم للماء وأنزله تحت السطح، ثمّ أضاءه. سطع شعاع تحت الماء، وأضاء أرض الخزان أمامه.

نكّر نفسه مجدداً: تمهل، ولا تسبّب أي اضطراب.

هكذا بدأ رحلته الحذرة في البحيرة بصمت. كان يتقدّم في المياه ببطء شديد، ويحرك مصباحه إلى الأمام والخلف كما لو كان كاسح ألغام مائياً.

وقف لانغدون قرب الدرايزين وهو يشعر بضيق في حلقه. كان هواء الخزان الرطب يفوح برائحة العفن ويشعره بالاختناق. مع تقدّم برودر في البحيرة، أخذ البروفيسور يطمئن نفسه بأنّ كلّ شيء سيكون على ما يرام.

لقد وصلنا في الوقت المناسب.

ما زال كلّ شيء على حاله.

بإمكان فريق برودر احتواء الأزمة.

مع ذلك، شعر لانغدون أنه على وشك فقدان أعصابه. فبسبب خوفه من الأماكن المغلقة، عرف أنه سيشعر بالتوتر هنا مهما تكن الظروف. أنا تحت سقف يزن آلاف الأطنان من التراب... لا تدعمه سوى أعمدة متداعية.

أبعد الفكرة عن ذهنه، ونظر خلفه ليتأكد من أنهما لم يلفتا نظر أحد.
لا أحد.

كان الأشخاص الوحيدون في الجوار يقفون على ممشى أخرى وينظرون بالاتجاه المعاكس؛ إلى الأوركسترا. ولم يبدو أن أحداً منهم لاحظ برودر وهو يمشي في المياه في هذه البقعة البعيدة.

نظر لانغدون مجدداً إلى برودر الذي كان مصباحه يتحرك أمامه مضيقاً الطريق. في أثناء ذلك، لاحظ لانغدون فجأة حركة إلى يساره؛ شكلاً أسود اللون خرج من الماء أمام برودر. استدار لانغدون وحدق إلى الظلام، وكأنه يتوقع رؤية وحش أسطوري يخرج من تحت الماء.

وقف برودر في مكانه بعد أن رآه هو أيضاً كما يبدو. في الزاوية البعيدة، بدا شكل أسود متموج على ارتفاع ثلاثين قدماً على الجدار. بدا الشكل مشابهاً لطبيب الطاعون الذي ظهر في فيلم زوبريست.

أخيراً، تنهد لانغدون بعدما أدرك أنه ظلّ برودر وحسب. كان الظلّ قد ظهر لدى مرور برودر من أمام مصباح مغمور في البحيرة؛ تماماً مثلما ظهر ظلّ زوبريست في الفيلم.

قال لانغدون لبرودر: "هذه هي البقعة، لقد اقتربت". هزّ برودر رأسه وواصل التقدم. مشى لانغدون على طول الدرابزين بموازاته. مع ابتعاد العميل، استرق لانغدون نظرة أخرى إلى الأوركسترا ليتأكد من أن أحداً لم ير برودر، فلم يلاحظ شيئاً.

التفت لانغدون إلى المياه مجدداً، لكنّ بريقاً خفيفاً لفت نظره على الممشى عند قدميه. نظر إلى الأسفل، فرأى بركة صغيرة من السائل الأحمر.
دماء!

كان لانغدون يقف فوقها.
هل أنا أنزف؟!

لم يشعر لانغدون بأي ألم، إلا أنه بدأ يبحث عن إصابة أو رد فعل ناتج عن سموم غير مرئية منتشرة في الهواء. تحقّق من أنفه، وأظفاره، وأذنيه.

استغرب وجود الدماء، وراح يبحث حوله ليتأكد أنه بمفرده على الممشى الخالي. نظر مجدداً إلى البقعة، ولاحظ وجود جدول صغير يتجمع عند قدميه. يبدو أن السائل الأحمر يأتي من مكان ما أمامه ويسيل على الممشى المائل.

فكر لانغدون: ثمة جريح هناك. نظر إلى برودر بسرعة، ورآه يقترب من وسط البحيرة. مشى لانغدون على الممشى بسرعة؛ متبعاً الجدول. ومع اقترابه من نهاية الممشى، أصبح خط السائل أعرض. ما الذي يجري؟ في هذه اللحظة، أدرك أنّ الجدول يتحول إلى تيار صغير. راح يهرول إلى أن وصل إلى نهاية الممشى. طريق مسدود.

في الظلام، وجد بركة كبيرة تلمع باللون الأحمر، وكأنّ شخصاً ما قد نُبح هنا. في تلك اللحظة، رأى لانغدون السائل الأحمر يسيل عن الممشى ويقطر في البحيرة، فأدرك أنّه أخطأ في تقديره. ليست نماء.

لقد اجتمعت المصابيح الحمراء، والضباب الأحمر على المماشي، وصبغت هذا السائل بلون أحمر. أنّه مجرد ماء.

عوضاً عن الشعور بالارتياح، بعث هذا الاكتشاف في نفسه خوفاً كبيراً. حلق إلى بركة الماء، وبدأ يرى آثار أقدام حوله. ثمة من خرج من الماء هنا. استدار لانغدون لمناداة برودر، لكنّه كان بعيداً، وكان صوت الموسيقى يصمّ الأذان. فجأة، شعر لانغدون بوجود شخص ما قرّبه. ليست هنا بمفردي.

بيبطة، استدار لانغدون نحو الجدار الذي ينتهي عنده الممشى. على بعد عشر أقدام، رأى شكلاً ملفوفاً بالسواد، يقطر منه الماء. وقف الشكل بلا حراك. ثم تحرك فجأة.

خرج من مخبئه، وارتفع رأسه الغامض إلى الأعلى بعد أن كان منخفضاً. أنّه شخص يرتدي عباءة سوداء.

كان لباس امرأة إسلامي تقليدي يغطي الجسد بأكمله. لكن، مع الثقات الرأس نحو لانغدون، رأى عينين داكنتين تحدقان إليه. عرفها فوراً.

فجأة، خرجت سبيلاً بروكس من مخبئها، وراحت تركض. دفعت لانغدون على الأرض، وفرت على الممشى الخشبي.

الفصل 93

في البحيرة، وقف برودر فجأة، إذ سقط ضوء المصباح على لوحة معدنية أمامه في قعر الخزان.

اقترب برودر منها بحذر بعد أن حبس أنفاسه، وحرص على عدم إحداث أي اضطراب في الماء. عبر السطح، رأى مستطيلاً أملس من التيتانيوم مثبتاً في الأرض. لوحة زوبريست.

كانت المياه صافية إلى حد أنه استطاع رؤية تاريخ الغد:

في هذا المكان، وفي هذا التاريخ،
تغير العالم إلى الأبد.

اطمأن برودر إلى أنه لا تزال لديه بضع ساعات. تذكر فيلم زوبريست، ووجه الضوء إلى يسار اللوحة بحثاً عن الكيس. عندما أضاء المصباح قعر الماء المظلم، حدّق برودر إلى هناك بارتباك. لا يوجد أي كيس.

حوّل الضوء إلى اليسار، إلى البقعة التي ظهر فيها الكيس في فيلم الفيديو؛ لكنه لم يجد شيئاً.

لكنه... كان هنا!

تشنّج فك برودر وهو يواصل بحثه، ويمرّر ضوء المصباح فوق المنطقة بأكملها. لم يجد الكيس، بل اللوحة وحسب. للحظة، تساءل برودر عما إذا كان هذا التهديد - شأنه شأن كثير من الأمور التي حدثت اليوم - مجرد وهم.

هل كانت خدعة؟!

هل أراد زوبريست أن يخيفنا وحسب؟!

أخيراً رآه.

إلى يسار اللوحة، وقع نظره على خيط مرتخ في الماء، بالكاد كان مرئياً في قعر البحيرة. بدا الخيط أشبه بدودة ميتة. كان طرفه معلقاً بقطعة صغيرة من الكيس القابل للذوبان.

حقّق برودر إلى الكيس الشفاف. كان الجزء المعلق بالخيط مثل عقدة بالون منفجر. اتضح له الحقيقة ببطء.

لقد فات الأوان.

تحيل الكيس المغمور وهو يذوب ويتمزق... ثم تنتشر محتوياته القاتلة في الماء... قبل أن تتصاعد إلى سطح البحيرة.

أطفاً مصباحه بإصبعه المرتجفة ووقف في الظلام، محاولاً استجماع أفكاره. سرعان ما تحولت تلك الأفكار إلى دعاء. كان الله في عوننا جميعاً.

في الخارج، راحت سينسكي تصيح عبر جهاز اللاسلكي وقد أصبحت في منتصف الدّرج المؤدي إلى الخزان: "أيها العميل برودر، كرّر، لم أفهم!". داهمها الهواء الدافئ الذي تصاعد باتجاه الباب المفتوح. في الخارج، وصل فريق الدعم والمراقبة، وكان أعضاؤه يستعدون خلف المبنى في محاولة لإبقاء معدّاتهم بعيدة عن الأنظار بانتظار أوامر برودر.

"... الكيس تمزق... وأفرغت... محتوياته".

ماذا؟! تمثنت سينسكي أن تكون قد أخطأت في الفهم وهي تندفع على الدّرج نحو الأسفل. أمرته قائلة عندما اقتربت من الأسفل: "أعد ما قلته!". كان صوت الموسيقى قد أصبح أعلى. تنأى إليها صوت برودر بوضوح أكبر هذه المرة. "... وأكرّر... لقد انتشرت المادة المعديّة!". اندفعت سينسكي إلى الأمام، وأوشكت على السقوط عند أسفل الدّرج. كيف يعقل هذا؟! قال برودر: "لقد ذاب الكيس، وأصبحت المحتويات في الماء!".

شعرت د. سينسكي بالعرق البارد يتصبّب منها وهي تنظر إلى محيطها وتحاول تقييم الوضع. عبر الضباب الأحمر، رأت الماء الذي تصاعدت منه مئات الأعمدة. والأهم من ذلك أنها رأت الناس. مئات الناس.

حدقت سينسكي إلى الحشد غير المدرك لما يجري، والمحتجز في فخ زوبريست تحت الأرض. أتى رد فعلها عفويّاً. "أيها العميل برودر، اصعد فوراً، سنخلي المكان حالاً". أتى رد برودر فوراً: "حتمّاً لا! أغلقوا الباب! لا تسمحوا لأحد بالخروج من هنا!". كانت إليزابيث سينسكي معتادة على أن تُنفذ أوامرها من دون مساعلة بصفتها مديرة منظمة الصحة العالمية. للحظة، ظنّت أنّها أساءت فهم العميل برودر. أغلقوا الباب؟! صاح برودر بصوت أعلى: "د. سينسكي! هل تسمعينني؟! أغلقوا الباب اللعين!".

كزّر برودر تعليماته، لكنّ ذلك لم يكن ضرورياً. إذ عرفت سينسكي أنّه محقّ. ففي وجه وياء محتمل، الاحتواء هو الحلّ الأفضل.

مدت سينسكي يدها تلقائياً وأمسكت بتيممها اللازوردية. التضحية بالقليل لإنقاذ الكثير. بتصميم كبير، رفعت اللاسلكي إلى شفّتها. "حسناً، سأعطي الأمر بإغلاق الباب". عندما كانت سينسكي على وشك الالتفات لإعطاء الأمر بإغلاق المكان، شعرت فجأة بجلبة بين الناس.

على مسافة غير بعيدة، رأت امرأة ترتدي عباءة سوداء تركض مسرعة باتجاهها، وباتجاه الباب، وهي تدفع الناس الذين يعترضون طريقها. أدركت سينسكي أنّها ملاحقة، ورأت رجلاً خلفها. فوجئت عندما عرفت أنّه لاتفون.

عادت أنظار سينسكي إلى المرأة التي كانت تقترب بسرعة وهي تصيح للناس بشيء ما بالتركية. لم تكن سينسكي تفهم اللغة التركية، لكن نظراً إلى حالة الذعر التي كانت تنشرها بين الناس، بدت كمن يصيح "حريق!" في مسرح مكتظّ. وهكذا، عمّ الذعر بين الحشود، ولم تعد المرأة ولافون وحدهما من يركض باتجاه الدّرج، بل الجميع.

التفتت سينسكي إلى موجة البشر، وبدأت تصيح لفريقها في الأعلى.
"أغلقوا الباب! أغلقوا باب الخزان حالاً!"

عندما وصل لاتفون إلى زاوية الدّرج، رأى سينسكي في الوسط وهي تصعد إلى الأعلى وتصيح طالبة إغلاق الباب. اندفعت سيبينا في أعقابها، تشق طريقها بعباءتها الثقيلة المبتلة.

ركض خلفهما، وشعر بالحشد المذعور خلفه.
صاحت سينسكي مجدداً: "أغلقوا المخرج!"

راح لاتفون يصعد الدّرج كلّ ثلاث درجات معاً ليلحق بسيبينا. رأى فوقه باب الخزان الثقيل المزدوج يُغلق ببطء شديد.

أمسكت سيبينا بسينسكي، وتمسّكت بها لتجاوزها وللوصول إلى الباب، فتعثّرت سينسكي وسقطت على ركبتيها، وارتطمت تيممها بالدرجات الإسمنتية وانكسرت إلى نصفين.

قاوم لاتفون رغبته في التوقف لمساعدة المرأة، واندفع خلف سيبينا. كانت سيبينا على بعد عدّة أقدام منه وحسب، لكنّها سبقتة إلى الباب الذي لم يكن ينغلق بسرعة كافية. وهكذا، تمكّنت سيبينا من الانزلاق بجسدها النحيل عبر الفتحة الضيقة.

غير أن عبايتها علفت بين مصراعي الباب، واستوقفتها على بعد لحظات من الحرية. حاول لانغدون الإمساك بها، فشَدَّ العباءة إلى الخلف لإيقافها، لكنّها كافحت بجنون، ووجد نفسه فجأة يمسك بين يديه كومة قماش مبتلة. أغلق الباب على القماش، وبالكاد أنقذ لانغدون يديه. غير أن العباءة العالقة بين مصراعي الباب أعاقَت إغلاقهما تماماً. رأى لانغدون عبر الشق الصغير سبيئاً بروكس وهي تسرع في الشارع، ورأسها الأصلع يلمع تحت المصابيح. كانت ترتدي سروال الجينز والقميص نفسيهما اللذين كانت ترتديهما طوال النهار. فجأة، شعر لانغدون بإحساس عارم بالخيانة. لم يدم ذلك الشعور طويلاً. فجأة، أحسّ لانغدون أنه يسحق على الباب. كانت موجة البشر قد صدمته. تعالت صيحات الرعب على الدّرج، وتحول صوت الموسيقى إلى جلبة من الأصوات المتنافرة. شعر لانغدون بضغط متزايد على ظهره، وبألم في قفصه الصدري المضغوط على الباب. فجأة، فُتِح مصراع الباب عنوة، واندفع لانغدون في الليل كما تطير الفأينة التي تسدّ زجاجة الشراب. تعثّر على الرصيف، وأوشك أن يسقط. خلفه، تدفق بحر الناس من داخل الأرض مثل النمل الهارب من وكر مسموم. سمع أعضاء الفريق أصوات الفوضى، وخرجوا من خلف المبنى. إلا أن ظهورهم بالبدلات الواقية ومعدات التنفس ضاعف فوراً ذعر الناس. التفت لانغدون وحق إلى الشارع بحثاً عن سبيئاً، غير أنه لم ير سوى السيارات والأضواء. أخيراً، لمح رأساً أصلع يلمع في الظلام ويختفي عند زاوية أحد المباني. نظر خلفه بحثاً عن أحد أعضاء الفريق أو الشرطة، لكنه لم يجد أيّاً منهم. عرف لانغدون أنه بمفرده. ومن دون تردد، انطلق خلف سبيئاً.

في الأسفل، في أعماق الخزان، وقف العميل برودر بمفرده في الماء الذي غمره حتى وسطه. كانت أصوات الفوضى تتردد في الظلام في حين شقّ السياح والموسيقيون طريقهم نحو الأعلى واختفوا على الدّرج. أدرك مرعوباً أن الباب لم يُغلق. لقد فشلت تدابير الاحتواء.

الفصل 94

لم يكن لانغدون عداءً، لكن سنوات من السباحة منحته ساقبيه القوة. وصل إلى ناصية الشارع خلال ثوانٍ واستدار، فوجد نفسه في جادة أكبر. فتش الأرصفة بنظرة سريعة.

يجب أن تكون هنا!

كان المطر قد توقف، ومن الزاوية التي يقف فيها استطاع أن يرى الشارع بإضاءته الساطعة. ما من مكان للاختباء.

مع ذلك يبدو أن شيئاً قد اختفت.

توقف لانغدون، ووضع يديه على وسطه، وراح يتأمل الشارع وهو يلهث. كانت الحركة الوحيدة التي لفتت انتباهه ناجمة عن إحدى حافلات اسطنبول الحديثة على بعد خمسين ياردة أمامه.

هل استقلت شيئاً إحدى الحافلات العامة؟

بدا الأمر خطراً جداً. هل يُعقل أن تحتجز نفسها في حافلة وهي تعرف أن الجميع يبحثون عنها؟ لكن، إن كانت تعتقد أن أحداً لم يرها، ومَرَّت الحافلة أمامها صدفة، فمن الممكن أن تغتم تلك الفرصة...

ربما.

كانت الحافلة تحمل لافتة تشير إلى مقصدها: غالاتا.

اندفع لانغدون نحو رجل عجوز يقف خارج أحد المطاعم تحت خيمة.

وقف أمامه وسأله: "المعذرة، هل تتحدث الإنكليزية؟"

قال الرجل: "بالطبع"، ويدا عليه الاستغراب بسبب لهفة لانغدون.

"هل غالاتا مكان؟"

"غالاتا! أنقصد جسر غالاتا؟ أم برج غالاتا؟ مرفأ غالاتا؟"

أشار لانغدون إلى الحافلة. "غالاتا! إلى أين تتجه الحافلة؟"

التفت الرجل إلى الحافلة وسكت للحظة، ثم أجاب: "إنها تتجه نحو جسر غالاتا. تغادر

المدينة القديمة، وتعبّر الممر المائي."

صدر أنين عن لانغدون، وحاول مجدداً البحث عن شيئاً، لكنه لم يجد لها أثراً. وبدلاً من

ذلك، سمع عويل سيارات الشرطة مع اندفاعها من أمامه باتجاه الخزان.

سأله الرجل بنبرة قلق: "ماذا يجري؟ هل كل شيء على ما يرام؟"

نظر لانغدون مجدداً إلى الحافلة وعرف أنه سيغامر؛ لكن لا خيار آخر لديه.

أجاب: "كلا سيدي، ثمة حالة طارئة وأحتاج إلى مساعدتك". ثم أشار إلى الرصيف الذي أوقف حارسٌ عنده سيارةً بينتلي فضية. "أهذه سيارتك؟".

"أجل، لكن -"

قال لانغدون: "أحتاج إلى أن تقلني. أعرف أننا لم نلتق قط، لكن كارثة حدثت، وهذه مسألة حياة أو موت".

حدّق الرجل إلى لانغدون مطوّلاً، كما لو كان يبحث عن روحه. أخيراً، هزّ رأسه وقال: "من الأفضل أن تصعد".

مع انطلاق السيارة، وجد لانغدون نفسه يتمسك بالمقعد. من الواضح أنّ الرجل خبير في القيادة، ويبدو أنه يستمتع بالتسلل من بين السيارات، للحاق بالحافلة.

اجتاز عدداً من المباني قبل أن يصبح خلف الحافلة مباشرة. انحنى لانغدون إلى الأمام، وحدّق من النافذة الأمامية. كانت الأضواء خافتة في الداخل، ولم ير سوى أشكال باهتة.

قال: "ابقِ خلف الحافلة رجاءً. هل لديك هاتف؟".

أخرج الرجل هاتفاً خلويّاً من جيبه، وأعطاه إيّاه، قبل أن يدرك لانغدون أنه لا يعرف بمن يتصل. لم يكن يملك أرقام سينسكي أو برودر، والاتصال بمكاتب منظمة الصحة العالمية في سويسرا سيستغرق وقتاً طويلاً.

سأله لانغدون: "كيف يمكنني الاتصال بالشرطة".

أجاب الرجل: "155، من أيّ مكان في إسطنبول".

اتصل لانغدون بالرقم، وانتظر. رنّ الهاتف مطوّلاً. وأخيراً، أجابه صوت مسجّل بالتركية والإنكليزية ورجاء أن ينتظر؛ نظراً إلى ضغط المكالمات. تساءل لانغدون عما إذا كان سبب الضغط هو الأزمة في الخزان.

كان القصر الغارق الآن في حالة فوضى عارمة. تخيل برودر وهو يقف في الماء، متسائلاً عما اكتشفه هناك. شعر أنه يعرف ما جرى.

لقد سبقته سبيناً إلى الماء.

أمامهما، توقفت الحافلة عند إحدى المحطات، فتوقّف سائق البنتلّي خلفها، على بعد حوالي خمسين قدماً؛ الأمر الذي منح لانغدون إمكانية رؤية الركاب وهم يصعدون وينزلون. ترجّل من الحافلة ثلاثة أشخاص فقط - كلّهم رجال - فتأمّلهم لانغدون بعناية، لا سيما وأنّه يعرف مهارة سبيناً في التنكر.

نظر إلى النافذة الخلفية التي كانت داكنة اللون، لكن بما أنّ المصابيح الداخلية كانت مضاءة بالكامل، تمكّن لانغدون من رؤية الركاب بوضوح أكبر. انحنى إلى الأمام، وقرب وجهه من زجاج السيارة الأمامي بحثاً عن سبيناً.

أرجو ألا أكون قد أخطأت في التقدير!

فجأة رآها.

في الجزء الخلفي من الحافلة، رأى كتفين نحيلتين يعلوهما رأس حليق.
هذه سبيّنا من دون شكّ.

مع انطلاق الحافلة مجدّداً، انطفأت الأضواء الداخلية. في ثانية خاطفة، رأى الرأس الأصيل يلتفت إلى الخلف قبل أن يختفي في الظلام، وينظر عبر نافذة الحافلة الخلفية.
انخفض لانغدون على مقعده. هل رأيته؟ كان سائق البنّتي قد انطلق خلف الحافلة مرّة أخرى.
انخفض الطريق الآن نزولاً باتجاه المياه، ورأى لانغدون أمامه أضواء جسر منخفض يمتد فوق الماء. بدا الجسر مزجماً بالسيارات تماماً. في الواقع، كانت المنطقة المحاذية له مكتظة بأكملها.
قال الرجل: "هذا بازار التوابل. إنّه منطقة شعبية جدّاً في الليالي الممطرة".

أشار الرجل إلى الشاطئ. هنا، ارتفع مبنى عالي جدّاً في ظلّ أحد أجمل مساجد إسطنبول؛ المسجد الجديد - إن لم يكن لانغدون مخطئاً - نظراً إلى مئذنتيه الشهيرتين. بدا بازار التوابل أكبر من معظم المراكز التجارية الأميركية، ورأى لانغدون الناس يدخلون ويخرجون من بابه الضخم الذي تعلوه قنطرة قديمة.

أعلن صوت خافت من مكان ما في السيّارة: "الو؟! أجيل دوروم! الو؟!".
نظر لانغدون إلى الهاتف في يده. الشرطة.

رفع السّاعة إلى أذنه. "نعم، الو! اسمي روبرت لانغدون. أنا أعمل مع منظمة الصّحة العالمية. لديكم أزمة في خزان المدينة، وأنا أتعب الشخص المسؤول. إنها في حافلة بالقرب من بازار التوابل، والحافلة متجهة إلى -"

قال عامل الهاتف: " لحظة واحدة سيّدي، سأصلك بالموظّف المسؤول".

"كلّاً، انتظر!". لكنّ لانغدون سمع نغمة الانتظار مجدّداً.

التفت إليه سائق البنّتي بخوف. "هل قلت أزمة في الخزان؟!".

كان لانغدون على وشك أن يشرح للسائق عندما لاحظ أن وجهه احمرّ فجأة؛ كالشيطان.
مصاييح المكايح!

التفت السائق، وتوقفت البنّتي فجأة خلف الحافلة مباشرة. أضيفت المصاييح الداخلية، ورأى لانغدون سبيّنا بوضوح تامّ. كانت واقفة عند الباب الخلفي وهي تشدّ حبل التوقّف الطارئ تكراراً، طالبة التّرجل من الحافلة.

أدرك لانغدون أنها رأيته. لا شكّ في أنّ سبيّنا رأت أيضاً الازدحام على جسر غالاتا وخشيت أن يلحق بها.

فتح بابه بسرعة، لكنّ سبيّنا كانت قد نزلت من الحافلة، وأخذت تسرع هاربة في ظلمة الليل.
فأعاد الهاتف إلى صاحبه قائلاً: "أخبر الشرطة بما جرى، واطلب منهم تطويق هذه المنطقة!"

هرّ الرجل رأسه بقلق واضح.

صاح لانغدون: "وشكراً لك! تشكّركم!".

ثمّ اندفع خلف سبيّنا التي كانت تتّجه مباشرة إلى بازار التوابل المكتظّ.

الفصل 95

يرجع تاريخ إنشاء بازار التوابل في إسطنبول إلى ثلاثمائة عام مضت، وهو واحد من أكبر الأسواق المغلقة في العالم. بني على شكل L، ويتألف المجمع الكبير من ثمانٍ وثمانين حجرة مقنطرة مقسمة إلى مئات الأكشاك، يبيع فيها التجار المحليون مجموعة مذهلة من الأطايب من مختلف أنحاء العالم؛ من توابل، وفاكهة، وأعشاب، والخلوى التركية التي تشتهر بها إسطنبول. باب البازار عبارة عن قنطرة قوطية ضخمة، ويقع عند تقاطع بازار تشينشيك وشارع تاهميس، ويقال إنه يشهد مرور أكثر من ثلاثمائة ألف زائر يومياً.

الليلة، مع اقتراب لانغدون من المدخل، شعر أنّ ثلاثمائة ألف شخص موجودون هناك بالفعل في تلك اللحظة. كان لا يزال يركض، وعيناه لا تفارقان سينيّا التي كانت على بعد عشرين ياردة منه؛ مندفعة مباشرة إلى مدخل البازار من دون توقف. وصلت سينيّا إلى الباب، واختلطت بالحشد. تسألّت بين الناس، وشقّت طريقها إلى الداخل. في اللحظة التي عبرت فيها المدخل، التفتت إلى الخلف، فرأى لانغدون في عينيها نظرة فتاة صغيرة مذعورة... ويائسة.

صاح: "سينيّا!"

لكن، سرعان ما اختفت وسط بحر من الناس.

لحق بها لانغدون بصعوبة، إلى أن رآها إلى يسار الزقاق الغربي للبازار.

رأى إلى جانبه سلالاً مليئة بالتوابل: الكاري الهندي، والزعفران الإيراني، والشاي الصيني؛ التي شكّلت بألوانها نفقاً من الأصفر، والبني، والذهبي. مع كلّ خطوة، شمّ لانغدون رائحة جديدة؛ رائحة الفطر، والجنور المزة، والزيت المسكية؛ كلّها تقوح في الهواء مع كورس من الأصوات يصمّ الأذان من مختلف لغات العالم. كانت النتيجة موجة عارمة من المحفّزات الحسية... إزاء نهر من البشر. آلاف الناس.

فجأة شعر لانغدون بالاختناق، وأوشك على فقدان وعيه، قبل أن يسيطر على نفسه، ويشقّ طريقه إلى أعماق البازار. رأى سينيّا أمامه تبعد الناس من طريقها بقوة. من الواضح أنّها مصمّمة على الوصول إلى النهاية... مهما كلفها ذلك.

للحظة، تساءل لانغدون عن سبب ملاحقته إيّاها.

هل يفعل ذلك لتحقيق العدالة؟ فنظراً إلى ما فعلته سينيّا، لا يعرف لانغدون العقاب الذي ينتظرها إن قبض عليها.

أم أنه يفعل ذلك لمنع انتشار الوباء؟ إنَّ ما حدث قد حدث.
أدرك لانغدون فجأة سبب رغبته في إيقاف سيبينا.
أريد أجوبة.

على بعد عشر ياردات، كانت سيبينا متوجّهة إلى المخرج الغربي للبازار. نظرت خلفها مرّة أخرى، وبدا عليها الخوف لدى رؤيتها لانغدون قريباً منها بهذا الشكل. وعندما التفتت مجدداً إلى الأمام، تعثّرت وسقطت.

ارتطمت سيبينا بكثف شخص ما أمامها. وعندما سقطت، مدّت يدها بحثاً عن شيء ما تتمسك به. لكنّها لم تجد سوى صندوق من الكستناء المجفّفة، فتمسّكت به يائسة، حيث سقط فوقها وتناثرت محتوياته على الأرض.

احتاج لانغدون إلى ثلاث خطوات ليصل إلى المكان الذي سقطت فيه. لكنّه لم يجد على الأرض سوى الصندوق المقلوب والكستناء. أمّا سيبينا، فلم يكن لها أي أثر.
راح صاحب المتجر يصيح بغضب.

أين ذهبت؟!

أخذ لانغدون يدور في مكانه، لكنّها اختفت. وعندما وقع نظره على المخرج الغربي على بعد خمس عشرة ياردة أمامه، عرف أنّ سقوطها لم يكن حادثاً عرضياً على الإطلاق.
راح يركض باتجاه المخرج، ووجد نفسه عند ساحة ضخمة مزدحمة بالناس أيضاً. حلق إلى الساحة باحثاً عنها من دون جدوى.

أمامه مباشرة، عند الطرف الأقصى لطريق سريع متعدّد المسارات، امتدّ جسر غلاتا فوق مياه القرن الذهبي. ارتفع إلى يمينه المسجد الجديد بمئذنتيه الجميلتين. وإلى يساره، كانت الساحة... مكتظة بالناس.

سمع أصوات أبواق سيّارات أمامه؛ باتجاه الطريق الذي يفصل بين الساحة والبحر. رأى سيبينا على بعد مائة ياردة تركض بين السيّارات المسرعة، ونقلت بصعوبة من بين شاهنتين. كانت منجّهة نحو البحر.

إلى يسار لانغدون، على شاطئ القرن الذهبي، كانت حركة السير ناشطة جداً؛ حافلات، سيّارات أجرة، مراكب.

انطلق لانغدون بسرعة عبر الساحة باتجاه الطريق السريع. وعندما وصل، قفز نحو الطريق السريع فيما كانت أضواء السيّارات المقترية لا تزال بعيدة عنه بعض الشيء، وتمكّن من عبور الطريق الأول من بين عدة طرقات سريعة متعدّدة الاتجاهات بأمان. خلال الثواني الخمس عشرة التالية، تمكّن من الانتقال من جهة إلى أخرى بين السيّارات المسرعة والأبواق الغاضبة، وهو يتقدم تارة، ويتوقّف تارة أخرى؛ إلى أن وصل أخيراً إلى شاطئ البحر المكسو بالأعشاب.

مع أنّه كان لا يزال يراها، إلّا أنّها أصبحت بعيدة عنه كثيراً. رآها تعبر موقف سيّارات الأجرة والحافلات وتتوجّه إلى حوض السفن مباشرة. هناك، رأى عدداً كبيراً من المراكب التي

تدخل وتخرج؛ بدءاً من السفن السياحية، ووصولاً إلى مراكب الأجرة، وزوارق الصيد الخاصة، والمراكب السريعة. على صفحة المياه، انعكست أضواء المدينة المشعة في الشاطئ الغربي للقرن الذهبي. عرف أنه في حال وصلت سيبينا إلى هناك، فعلى الأرجح لن يتمكن أبداً من إيجادها.

عندما وصل لانغدون أخيراً إلى الواجهة البحرية، التفت إلى اليسار، واندفع على طول الممشى الخشبي، على نحو فاجأ السياح الذين اصطقوا بانتظار أدوارهم لتناول العشاء على متن أسطول من المراكب الجميلة المزينة التي تلمع بفعل الأضواء والزخرفات الذهبية. فُكر لانغدون وهو يركض! لاس فيغاس في البوسفور.

رأى سيبينا أمامه. لم تعد تركض، بل توقفت أمام أحد المراكب الخاصة، وراحت تتكلم مع صاحبه.

لا تسمح لها بالصعود!

عندما اقترب، لاحظ أن سيبينا تمارس قدرتها على الإقناع على شاب وقف على متن مركبه مستعداً للانطلاق. كان الشاب يبتسم بتهذيب وهو يهز رأسه رافضاً، فيما واصلت سيبينا كلامها. لكن صاحب المركب رفض بحزم، واستدار مستعداً للرحيل.

مع اقتراب لانغدون أكثر، نظرت إليه سيبينا، واليأس باد على وجهها. تحتها، دارت محركات المركب، الذي أخذ يبتعد عن الرصيف شيئاً فشيئاً.

فجأة، طارت سيبينا بعد أن قفزت فوق المياه، وحطت على سطح المركب. شعر البحار بسقوطها، فالتفت غير مصدق. أطفأ محرك المركب الذي أصبح على بعد عشرين ياردة من الرصيف، وراح يصيح غاضباً، ويقترب من الراكبة غير المرغوب فيها.

مع اقتراب الشاب، ابتعدت سيبينا جانباً، ثم أمسكت بمعصمه، واستغلت اندفاعه لإلقائه في البحر. بعد لحظات، عام الرجل على سطح الماء، وهو يمطرها بسيل من الشتائم التركية.

لم يبد أي اهتمام على سيبينا التي شغلت محرك المركب، وتقدمت به إلى الأمام.

وقف لانغدون على الرصيف محاولاً التقاط أنفاسه وهو يشاهد المركب المبتعد والمتحول إلى ظل في الليل. نظر إلى الأفق، وعرف أن سيبينا أصبحت قادرة على الوصول إلى الشواطئ البعيدة، ليس هذا فحسب، بل أيضاً إلى شبكة لا حدود لها من الممرات المائية التي تمتد من البحر الأسود إلى البحر الأبيض المتوسط.

لقد رحلت.

بجواره، خرج صاحب المركب من الماء، ثم انطلق مسرعاً للاتصال بالشرطة.

شعر لانغدون بوحدة غريبة وهو يشاهد مصابيح المركب المسروق تختفي عن ناظره شيئاً فشيئاً. كذلك، كان صوت المحرك يبتعد أيضاً.

فجأة، اختفى الصوت تماماً.

تسأل لانغدون عما إذا كانت قد أطفأت المحرك.

لاحظ أن مصابيح المركب لم تعد تثبت، بل صارت تتأرجح بخفة في مكانها بفعل الأمواج. لسبب ما، توقفت سبيتا.

هل نفذ منها الوقود؟

أصغى جيداً، وتمكّن من سماع هدير المحرك الخفيف.

إن كان الوقود قد نفذ، فما الذي تفعله إذا؟

انتظر لانغدون.

مرت عشر ثوانٍ، خمس عشرة ثانية، ثلاثون ثانية.

فجأة، عاد المحرك للعمل بشيء من التردد في البداية، ومن ثم بحزم أكبر. دُهل لانغدون

وهو يرى المركب يستدير متجهاً نحوه مجدداً.

إنها عائدة.

مع اقتراب المركب، رأى لانغدون سبيتا تقف أمام الدفة، محدقة إلى الأمام بشرود. على

بعد ثلاثين ياردة، خففت السرعة، وأعاد المركب بأمان إلى الرصيف الذي غادرته للتو. بعد

ذلك أطفأت المحرك.

خيم الصمت.

وقف لانغدون أمامها غير مصدق.

لم تنظر إليه، بل دفنت وجهها بين يديها وراحت ترتجف وتبكي. أخيراً، نظرت إلى

لانغدون بعينين مغرورتين بالدموع.

"روبرت، لم أعد أستطيع الهرب. لم يعد لدي مكان أذهب إليه".

الفصل 96

لقد تسرب .

وقفت سينسكي عند أسفل الدرج المؤدي إلى الخزان، وحذقت إلى الكهف الخالي. شعرت بضيق في صدرها بسبب جهاز التنفس الذي كانت تضعه. مع أنها تعرضت للفيروس على الأرجح، إلا أنها شعرت بالارتياح في البذلة الواقية وهي تدخل مع الفريق إلى ذلك المكان الكئيب. كانوا يرتدون بذلات بيضاء ويضعون خوذاً عازلة، حيث بدوا أشبه بفريق من رواد الفضاء في سفينة فضائية غريبة.

عرفت سينسكي أن مئات الناس في الأعلى يشعرون بالذعر، وأن الكثيرين منهم خضعوا للعلاج بسبب الإصابات التي نتجت عن تزامهم. حتى إن بعضهم غادروا المنطقة بأكملها. فشعرت أنها محظوظة لأنها خرجت من هذه الحادثة برضّة في ساقها وتميمة مكسورة.

ثمّة عدوى واحدة تنتشر أسرع من الفيروس، ألا وهي الخوف.

كان الباب في الأعلى قد أوصد تماماً، وأصبح تحت حراسة السلطات المحلية. توقعت سينسكي حدوث نزاع حول السلطة مع وصول الشرطة المحلية، لكنّ هذا الاحتمال زال تماماً عندما رأى عناصر الشرطة فريق المراقبة والدعم مزوّدين بمعدّات الوقاية، وسمعوا تحذيرات سينسكي من احتمال وجود وباء.

حذقت مديرة منظّمة الصحة العالمية إلى غابة الأعمدة وفكرت: إننا بمفردنا، لا أحد يرغب

في النزول إلى هنا.

خلفها، رأت عميلين يفرشان رقعة بوليبوريثان ضخمة على أسفل الدرج ويتبّانها على الجدار بواسطة الحرارة، في حين وجد آخران مساحة مفتوحة على أحد المماشي الخشبية، وبدأ بتثبيت مجموعة من المعدّات الإلكترونية، وكأنّهما يستعدّان لتحليل مسرح جريمة.

فكرت سينسكي: هذا بالضبط ما هو عليه هذا المكان؛ إنه مسرح جريمة.

تذكّرت المرأة ذات العباءة السوداء التي فرّت من الخزان. لا شكّ في أنها سيّناً بروكس التي خاطرت بحياتها من أجل إحباط جهودهم لاحتواء الوباء. أتت إلى هنا وشغّت الكيس...

لحق لانغدون بسيّناً في ليل المدينة، ولم تعرف سينسكي بعد ما حلّ بهما.

أتمنّى أن يكون بروفيسور لانغدون بخير.

وقف العميل برودر على الممشى الخشبي، محتقاً بشروء إلى رأس الميدوزا المقلوب، ومتسائلاً عن الخطوة التالية.

بصفته عميلاً في فريق المراقبة والدعم، كان مدرباً على التفكير على المستوى الكوني الشامل، ووضع الهموم الأخلاقية أو الشخصية المباشرة جانباً؛ للتركيز على إنقاذ أكبر عدد ممكن من الأرواح على المدى البعيد. لذلك، لم يفكر بالخطر الذي يهدد حياته حتى هذه اللحظة. وتخ نفسه على تورطه بهذه المخاطرة، لكنه عرف أنه لم يكن يملك الخيار. كان عليها إجراء تقييم فوري.

أجبر نفسه على التفكير في مهمته الحالية؛ أي تنفيذ الخطّة ب. لسوء الحظ، في ظلّ أزمة الاحتواء، كانت الخطّة ب هي نفسها دائماً: توسيع الشعاع. فمكافحة الأمراض المعدية غالباً ما تشبه عملية إطفاء حريق في غابة: في بعض الأحيان عليك أن تتراجع وتخسر المعركة، على أمل الانتصار في الحرب.

في تلك المرحلة، لم يكن برودر قد ينس بعد من إمكانية الاحتواء الكامل. فعلى الأرجح، مرّقت سبيناً الكيس قبل لحظات قليلة من هستيريا الهرب الجماعي. في تلك الحالة، حتى لو غادر مئات الأشخاص مسرح الكارثة، إلا أنهم كانوا على مسافة بعيدة من المصدر، حيث إنهم لم يلتقطوا العدوى بعد.

وحدهما سبيناً ولاغندون كانوا موجودين في نقطة الانطلاق، وهما الآن في مكان ما في المدينة.

كان برودر يفكر في أمر آخر شكّل ثغرة في تسلسل الأحداث؛ فهو لم يجد أثراً للكيس في الماء. لكن، إن كانت سبيناً قد شقّته بركله أو تمزيقه، فلا بد أن يجد بقاياه في المكان. غير أنه لم يجد شيئاً، كلّ آثاره اختفت. ومن غير المحتمل أن تكون سبيناً قد حملته معها؛ لأنه أصبح الآن هشاً جداً.

أين اختفى إذاً؟

شعر أنّ ثمة حلقة مفقودة، لكنه ركّز على استراتيجية احتواء جديدة تستلزم الإجابة عن سؤال حيوي.

ما هو مدى انتشار الوباء حالياً؟

هذا ما ستجيب عنه أجهزة كشف الفيروس المحمولة التي وزّعها أعضاء فريقه على المماشي على مسافات متباعدة من البحيرة. تستخدم هذه الأجهزة المعروفة بوحدة PCR ما يسمى تفاعل البوليميراز المتسلسل، لكشف وجود أيّ عدوى فيروسية.

تحلّى العميل بالأمل. فمع غياب أيّ حركة في المياه، ونظراً إلى مرور وقت وجيز وحسب، كان واثقاً أنّ الأجهزة ستكشف عن منطقة عدوى ضيقة نسبياً، وسيقومون باحتوائها بالمواد الكيميائية المناسبة وبتقنية الامتصاص.

نادى أحد التقنيين بواسطة مكبر للصوت: "هل أنتم جاهزون؟".

أشار العملاء الموزعون في أنحاء الخزان بالإيجاب.
أمرهم التقني: "ابدأوا بتحليل العينات".
انحنى المحللون وبدأوا بتشغيل أجهزتهم الفردية. أخذ كل جهاز يحلل عينة من نقطة
مختلفة على مسافات متباعدة من لوحة زوبريست المغمورة.
خيم الصمت على الخزان، وراح الجميع يتضرعون إلى الله لكي لا تومض سوى الأضواء
الخضراء.
ثم بدأت النتائج تظهر.
بدأت الآلة الأكثر قرباً من برودر تومض بضوء أحمر، فتوترت عضلاته، ونظر إلى الآلة
التالية.
هي الأخرى كانت تومض بالأحمر.
كلّ.
ترددت الهمسات في أرجاء الكهف. رأى برودر مرعوباً كيف راحت الأجهزة تومض باللون
الأحمر الواحد تلو الآخر.
يا إلهي... كان بحر الأضواء الحمراء يرسم صورة واضحة.
كان شعاع العدوى كبيراً.
الفيروس منتشر في الخزان بأكمله.

الفصل 97

حدّق لانغدون إلى سيبينا بروكس التي كانت تبكي أمام دفة المركب، وحاول أن يفهم ما جرى للتوّ.

نظرت إليه بعينين دامعتين وهي تقول: "أنا واثقة أنك تكرهني".
"أكرهك؟! أنا لا أعرف شيئاً عنك! فكلّ ما فعلته هو الكذب عليّ!".
قالت بصوت خافت: "أعرف، أنا آسفة، كنت أحاول فعل الصواب".
"بنشر الوباء؟!".

"كلا روبرت، أنت لا تفهم".

أجابها: "بل أفهم. أفهم أنك خضت في المياه لشقّ الكيس القابل للذوبان! أردت تحرير فيروس زوبريست قبل احتوائه".

بدا الارتباك في عيني سيبينا. "الكيس القابل للذوبان! لا أعرف عما تتحدّث. روبرت، لقد ذهبت إلى هناك للحؤول دون انتشار فيروس بيرتراند... لسرقته وإخفائه إلى الأبد... لكي لا يتمكن أحد من تحليله، حتّى سينسكي والمنظمة".

"سرقته! لماذا تريد إخفائه عن منظمة الصحة؟".

أخذت سيبينا نفساً طويلاً ثم قالت: "ثمّة أمور كثيرة لا تعرفها، لكن الأوان فات الآن. لقد تأخرنا كثيراً يا روبرت. لم نحصل على أيّ فرصة".

"بلى، حصلنا فرصة! لم يكن الفيروس سيتحرّر قبل يوم غد! هذا هو التاريخ الذي اختاره زوبريست، ولو لم تنزلي إلى الماء—"

صاحت سيبينا: "روبرت، أنا لم أحرّر الوباء! عندما نزلت إلى الماء كنت أحاول إيجاد، لكن الأوان فات. لم يعد يوجد شيء هناك".

قال لانغدون: "لا أصدّقك".

"أعرف، ولا أؤمك". ومدّت يدها إلى جيبتها وأخرجت منشوراً رطباً، وقمّته للانغدون مضيفة: "لكنّ هذا قد يساعد، وجده قبل أن أنزل إلى البحيرة".

تناول الورقة وفتحها. كانت تتضمن برنامج الحفلة الممتدّ على سبعة أيام.

قالت: "انظر إلى التواريخ".

قرأ لانغدون التواريخ تكراراً. لسبب ما، اعتقد أنّ هذه الليلة كانت ليلة الافتتاح، وأوّل حفلة من الحفلات السبع التي تهدف إلى إغراء الناس بدخول الخزان المويء. لكنّ هذا المنشور يروي قصة مختلفة.

سألها لانغدون: "الليلة هي ليلة الختام! الأوركسترا تعرف منذ أسبوع!؟".
هزت سينيّا رأسها: "فوجئت مثلك. لقد انتشر الوباء يا روبرت. مضى أسبوع على ذلك".
قال: "هذا غير ممكن. غداً هو التاريخ. صنع زويريست لوحة نقش عليها تاريخ الغد".
"أجل، رأيتها في الماء".

"إذا أنت تعرفين أنه حدّد تاريخ الغد".

تتهدّت سينيّا قائلة: "روبرت، أنا أعرف بيرتراند جيداً؛ أكثر ممّا اعترفت لك به. لقد كان عالماً. أصبحت الآن أعرف أنّ التاريخ المدوّن على اللوحة ليس تاريخ إطلاق الوباء، بل تاريخ شيء آخر؛ شيء أكثر أهمية بالنسبة إلى تحقيقه هدفه".
"وما هو؟".

"إنّه تاريخ الإشباع العالمي، أي تاريخ انتشار الفيروس في أنحاء العالم كافة... وانتقال العدوى إلى جميع الناس".

شعر لانغدون بالذعر بسبب تلك الفكرة، لكنه مع ذلك اشتبه في أنّها تكذب. إذ كانت قصتها تحتوي على ثغرة كبيرة، وقد أثبتت سينيّا براعتها في الكذب.

حدّق إليها وقال: "ثمّة مشكلة واحدة سينيّا. إن كان الوباء قد سبق له أن انتشر في جميع أنحاء العالم، فلماذا لم يمرض أحد حتّى الآن؟".

نظرت بعيداً، غير قادرة على احتمال نظراته.

"إن كان هذا الوباء قد تسرّب منذ أسبوع، فلماذا لم يمت أحد؟".

التفتت إليه مجدداً ببطء. "لأنّ... توقفت الكلمات في حلقها. "بيرتراند لم يصنع وباء".
وامتلأت عيناها بالدموع مجدداً: "بل شيئاً أكثر خطورة بكثير".

الفصل 98

على الرغم من الأوكسيجين الذي عبر في جهاز التنفس، شعرت إليزابيث سينسكي بالدوار. مرّت خمس دقائق منذ أن كشفت الأجهزة النقاب عن الحقيقة المرعبة.

لقد اختفت فرصة الاحتواء منذ مدة طويلة.

من الواضح أنّ الكيس ذاب في الأسبوع الماضي، على الأرجح في ليلة الافتتاح التي علمت سينسكي أنّها كانت منذ سبعة أيام. ولم تختفِ البقايا القليلة من الكيس لأنها غلّقت بمادة لاصقة لتثبيت الكيس بالخيط.

لقد تسرّبت العدوى منذ أسبوع.

الآن، وبغياض أيّ إمكانية لعزل الفيروس، انكبّ العملاء على تحليل العينات في المختبر المؤقت الذي أقيم في الخزان. حتّى تلك اللحظة، لم تتوصّل الأجهزة سوى إلى حقيقة مؤكّدة واحدة لم تقاها أحداً.

أصبح الفيروس الآن منتشرًا في الهواء.

يبدو أنّ محتويات الكيس قد عامت على السطح، وانتقلت ذرات الفيروس إلى الهواء. عرفت سينسكي أنّه لن يستغرق وقتاً طويلاً لينتشر؛ لا سيّما في مكان مغلق.

خلاقاً للبكتيريا أو العدوى الكيميائية، ينتشر الفيروس بين الناس بسرعة مذهلة. فالفيروسات طفيليات بسلوكها، تدخل جسد الكائن الحي وتعلق على الخلية المضيفة في عملية تسمى الامتزاز أو الامتصاص الكيميائي. بعد ذلك، تقوم بحقن الحمض النووي أو الحمض الريبي النووي الخاص بها في تلك الخلية، وتجند الخلية التي اجتاحتها، ثمّ تجبرها على استنساخ الفيروس عدّة مرّات. وعندما يصبح عدد النسخ كافياً، تقوم جزيئات الفيروس الجديدة بقتل الخلية واختراق جدارها، ثمّ تسرع للعثور على خلايا جديدة مضيفة تهاجمها، وهكذا تتكرر العملية.

بعد ذلك، يزفر المصاب بالعدوى أو يعطس، مرسلًا رذاذًا تنفسيًا من جسده، فتبقى هذه الذرات معلقة في الهواء إلى أن يتشققها مضيفون آخرون للفيروس، وهكذا تبدأ العملية مجدّداً.

فكّرت سينسكي وهي تتذكّر الرسوم البيانية التي عرضها عليها زوبريست، والتي توضح الانفجار السكاني: هذا هو النمو الأسّي. يستخدم زوبريست النمو المتسارع للفيروسات لمكافحة النمو المتسارع للسكان.

غير أنّ السؤال الملحّ الآن هو ما سيكون عليه سلوك الفيروس.

بعبارة أخرى: كيف سيهاجم ضحيته؟

يعمل فيروس إيبولا على إضعاف قدرة الدم على التخثر، مما يؤدي إلى نزيف متواصل. ويتسبب فيروس هانتا بفشل رئوي، في حين تؤدي مجموعة كاملة من الفيروسات المعروفة باسم الفيروسات الورمية إلى الإصابة بمرض السرطان. أما فيروس نقص المناعة البشرية فيهاجم الجهاز المناعي، مسبباً مرض الأيدز. ولا يخفى على أحد في المجتمع الطبي أنه لو كان فيروس نقص المناعة البشرية ينتقل في الهواء، لأدى ذلك إلى انقراض الجنس البشري بكامله.

إذاً، ما الذي يسببه فيروس زويريست؟

أيّاً تكن أعراضه، من الواضح أنها تستغرق وقتاً للظهور... فالمستشفيات المجاورة لم تبلغ حتى الآن عن مرضى يعانون من أعراض غير عادية.

ذهبت سينسكي إلى المختبر طلباً لإجابات عن تساؤلاتها. رأت برودر واقفاً قرب الدرج، بعد أن وجد إشارة هاتفية ضعيفة. كان يتحدث مع شخص ما بصوت منخفض. أسرعته إليه، ووصلت في الوقت الذي كان ينهي فيه مكالمته.

تراوحت ملامح برودر بين عدم التصديق والرعب وهو يقول: "حسناً، فهمت. مجدداً، أشدّ على سريّة هذه المعلومات. لا أريد أن يراها أحد غيرك في هذه المرحلة. اتصل بي عندما تعرف المزيد، شكراً". ثمّ أنهى الاتصال.

سألته سينسكي: "ماذا يجري؟".

أخذ برودر نفساً بطيناً. "تحدّثت للتوّ مع صديق لي، إنه عالم فيروسات في مركز مكافحة الأمراض في أتلانتا".

قالت سينسكي: "هل أبلغت المركز من دون إذن؟".

أجابها: "اضطرت إلى ذلك. الشخص الذي اتصلت به سيكتّم على الموضوع، فنحن بحاجة إلى معلومات أفضل من تلك التي سيوفرها لنا هذا المختبر".

نظرت سينسكي إلى العملاء الذين يأخذون عينات من الماء ويحلّلونها بواسطة الأجهزة الإلكترونية المحمولة. إنه محقّ.

تابع برودر: "ذلك العالم موجود في مختبر للأحياء المجهرية مجهّز بالكامل، وقد أكّد لي وجود فيروس معدٍ للغاية، ولم يسبق له أن رآه".

قاطعته سينسكي: "مهلاً، كيف أرسلت له عيّنة بهذه السرعة؟".

أجابها برودر بتوتر: "لم أفعل. لقد أجرى تحليلاً لدمه".

استغرقت سينسكي لحظة واحدة لاستيعاب معنى هذا الكلام.

الفيروس منتشر في مختلف أنحاء العالم.

الفصل 99

مشى لانغدون ببطء، كما لو كان في كابوس حي. ما هو الشيء الأخطر من الوياء؟ لم تقل سيبينا شيئاً منذ أن غادرت المركب وأشارت إلى لانغدون ليتبعها بعيداً عن حوض السفن، على طريق هادئ مرصوف بالحصى؛ بعيداً عن المياه وأعين الناس. كانت سيبينا قد ترفقت عن البكاء، لكن لانغدون شعر بانفعالات عديدة تعصف داخلها. سمع صفارات الإنذار تتطلق بعيداً، لكن لا يبدو أن سيبينا قد لاحظتها. كانت تحقّق إلى الأرض بشروء، وهي تسمع وقع خطواتهما المنتظمة على الحصى.

دخلا حديقة صغيرة، وقافته سيبينا نحو مجموعة كثيفة من الأشجار عزّلتها عن العالم. جلسا على مقعد يطلّ على الماء. على الشاطئ المقابل، تلالاً برج غالاتا فوق المباني السكنية الهادئة المنتشرة على سفح التلّ. بدا العالم مسالماً جداً من هنا، ومختلفاً جداً عما يجري في الخزان. توقع لانغدون أن تكون سينسكي وأعضاء فريقها قد أدركوا أنهم وصلوا لإيقاف الوياء متأخرين. بجانبه، حدّقت سيبينا إلى البحر. قالت: "ليس لديّ وقت كافٍ روبرت. قريباً ستجدي السلطات. لكن، عليّ أولاً أن أخبرك بالحقيقة... كاملة". هزّ لانغدون رأسه بصمت.

مسحت سيبينا دموعها، والتفتت نحوه. قالت: "كان بيرتراند زويريست... حبيّ الأول، ثم أصبح أستاذي".

قال لانغدون: "سبق لي أن عرفت ذلك سيبينا". فوجئت، لكنها تابعت حديثها، وكأنها تخشى أن تفقد شجاعتها. "كنت في سنّ يافعة، فسحرتني أفكاره. كان بيرتراند مثلي، يعتقد أنّ الجنس البشري على شفير الانهيار... وأنّ نهاية مرعبة وشيكة جداً تنتظرنا، لكنّ أحداً لا يجرؤ على تقبل ذلك". لم يتفوّه لانغدون بكلمة.

"قضيت طفولتي بأكملها وأنا أرغب في إنقاذ العالم. لكنني لم أكن أسمع سوى عبارة واحدة: لا يمكنك إنقاذ العالم، لذلك لا تضخّي بسعادتك وأنت تحاولين القيام بذلك". سكنت، وقاومت دموعها قبل أن تتابع: "ثمّ التقيت بيرتراند الذي كان رجلاً وسيماً ولامعاً، لا يعتقد أنّ إنقاذ العالم أمر ممكن فحسب... بل يعتبر ذلك واجباً أخلاقياً. عرّفني على دائرة كاملة من الأشخاص الذين يفكّرون بالطريقة نفسها، ويتمتعون بالذكاء وبقدرات ذهنية هائلة... إنهم أشخاص قادرين فعلاً على تغيير المستقبل. للمرة الأولى في حياتي، لم أعد حينها أشعر أنني وحيدة روبرت".

ابتسم لانغدون بلطف، وشعر بالآلم الذي يشوب صوتها.

تابعت سيبينا بصوت يزداد انفعالاً: "لقد عانيت من أمور فظيعة في حياتي؛ أمور كان من الصعب عليّ تجاوزها..." أشاحت بنظرها ومزّرت يدها المرتجفة على رأسها، قبل أن تسيطر على نفسها وتلتفت إليه مجدداً. "ربما لهذا السبب، إنّ الشيء الوحيد الذي ساعدني على الاستمرار هو اعتقادي أننا قادرون على أن نكون أفضل... على اتخاذ إجراء لتجنب مستقبل كارثي".

سألها لانغدون: "وهل هذا ما يعتقد بيرتراند أيضاً؟".

"بالأكيد. كان لدى بيرتراند أمل لا حدود له في الجنس البشري. كان يعتقد أننا نعيش على شفير عصر متآلق لما بعد البشرية، وهي حقبة تحوّل حقيقي. كان لديه عقل مستقبلي، وعينان تريان على مدى بعيد؛ على نحو يعجز عنه كثيرون. لقد فهم القوى الهائلة للتكنولوجيا، واعتقد أنه بعد بضعة أجيال، سيصبح جنسنا مخلوقاً مختلفاً تماماً؛ محسناً جينياً ليكون أكثر صحةً وذكاءً وقوةً وتعاطفاً. لكن المشكلة الوحيدة هي أننا لن نعيش بما فيه الكفاية لتحقيق ذلك".

قال لانغدون: "بسبب الانفجار السكاني...".

مزّرت رأسها موافقة. "كارثة مالتوس. كان بيرتراند يقول لي إنه يشعر وكأنه سان جورج الذي يحاول ذبح وحش من العالم السفلي".

لم يفهم لانغدون. "هل يقصد الميدوزا؟".

"مجازياً، أجل. الميدوزا وفئة كاملة من كائنات العالم السفلي التي تعيش تحت الأرض لأنها على صلة مباشرة بأمنا الأرض. على الصعيد الرمزي، غالباً ما ترمز وحوش العالم السفلي إلى—" "الخصوبة"، وفوجئ لانغدون لأن هذا الأمر لم يخطر له مسبقاً. الخصوبة. السكان.

قالت سيبينا: "أجل، الخصوبة. استخدم بيرتراند عبارة وحش العالم السفلي للإشارة إلى التهديد الذي يترصّ بخصوبتنا. وصف تكاثرنا بأنه وحش يلوح في الأفق... وحش علينا احتواؤه على الفور، قبل أن يقضي علينا كلنا".

أدرك لانغدون؛ رجولتنا تهددنا. إنها الوحش الذي يترصّ بنا. "وكيف حارب بيرتراند هذا الوحش؟".

قالت بنبرة دفاعية: "افهم أرجوك، هذه المشاكل لا يسهل حلّها. فالانتقاء يكون دائماً عملية فوضوية. الرجل الذي يقطع ساق طفل في الثالثة من عمره مجرم رهيب... لكن، إن كان ذلك الرجل طبيباً يحاول إنقاذ حياة الطفل المصاب بالغرغرينا... فعندها يختلف الأمر. في بعض الأحيان، يكون الخيار هو أحلى المزيّن. وأعتقد أنّ بيرتراند كان لديه هدف نبيل... لكن وسائله..." ونظرت بعيداً، وهي على وشك الانهيار.

همس لانغدون بلطف: "سيبينا، أريد أن أفهم كلّ هذا. أريد أن تشرح لي ما فعله بيرتراند. ما الذي نشره في العالم؟".

نظرت إليه سيبينا، وبدا في عينيها البتّيتين خوف واضح. همست: "لقد أطلق فيروساً؛ نوعاً محدداً جداً من الفيروسات في الواقع".

حبس لانغدون أنفاسه. "أخبريني عنه".

"ابتكر بيرتراند شيئاً يُعرف باسم ناقل فيروسى. إنه فيروس مصمم لإدخال معلومات جينية إلى الخلية التى يهاجمها". سكنت لتسمح له باستيعاب الفكرة. "عوضاً عن قتل الخلية المضيفة... يقوم الفيروس الناقل... بإدخال حمض نووي محدد مسبقاً إلى تلك الخلية، حيث يعزل جينوم الخلية".

كافح لانغدون ليفهم معنى كلامها. هذا الفيروس يعزل حمضنا النووي؟

تابعت سينيّا: "تتمثل طبيعة هذا الفيروس الغادر في أن أحداً منا لن يعرف أنه مصاب به. وذلك لأنه لا يسبب المرض ولا يولد أعراضاً واضحة تشير إلى تغير سماتنا الوراثية".

شعر لانغدون بالدم يتدفق في عروقه. "وما التغيير الذى يحدثه؟".

أغمضت سينيّا عينيها للحظة، ثم همست: "روبرت، عندما تسرب هذا الفيروس إلى مياه الخزان بدأت سلسلة من التفاعلات. كل من نزل إلى هناك وتنشق الهواء أصيب بالفيروس. أصبح مريضاً له... وتواطأ من دون أن يعرف لنقل الفيروس إلى الآخرين؛ مسبباً انتشاراً متسارعاً للمرض الذى امتد ليصل إلى جميع أنحاء الكرة الأرضية الآن، وانتشر كالنار في الهشيم. الآن، أصبح جميع سكان الكرة الأرضية حاملين للفيروس، أنت، أنا... الجميع".

نهض لانغدون عن مقعده، وبدأ يمشي أمامها بعصبية. كرر سؤاله: "وما الذى يفعله بنا؟". صممت سينيّا لمدة طويلة. "الفيروس يجعل الجسد البشرى... عقيماً. لقد ابتكر بيرتراند

وباء عقم".

صُفق لانغدون. فيروس يسبب لنا العقم! عرف أنه ثمة فيروسات يمكن أن تسبب العقم، لكنه لم يتخيل وجود فيروس ينتقل عبر الهواء ويستطيع فعل ذلك من خلال التعديل وراثياً... بدت له هذه الفكرة وكأنها تنتمي إلى عالم آخر؛ مستقبل غريب ومزير.

قالت سينيّا: "غالباً ما حلم بيرتراند بوجود فيروس كهذا، لكنني لم أتخيل أن يحاول اختراعه... أو أن ينجح في ذلك. عندما وصلتني رسالته وعلمت بما قام به، صُدمت. حاولت يائسة ثنيه عن فعل ذلك، والتوسل إليه لتدمير اختراعه، لكنني وصلت متأخرة".

قال لانغدون بعد أن تمكّن من الكلام أخيراً: "مهلاً، إن كان الفيروس يسبب العقم لجميع الناس فلن تكون هناك أجيال جديدة، وسيبدأ الجنس البشرى بالانقراض... على الفور".

أجابته: "هذا صحيح. لكن الانقراض ليس هدف بيرتراند، بل العكس تماماً. لذلك ابتكر فيروساً يعمل بشكل عشوائي. فعلى الرغم من توطن فيروس إنفيرنو في الحمض النووي لدى جميع البشر، وانتقاله من جيل إلى جيل، إلا أنه لن يكون ناشطاً سوى لدى نسبة من السكان. بكلمات أخرى، كل من على هذه الأرض يحملون الفيروس الآن، لكنه لن يسبب العقم سوى لجزء تم اختياره عشوائياً".

سألها لانغدون وهو لا يصدق: "أي جزء؟".

كما تعلم، كان بيرتراند يركّز كثيراً على الموت الأسود؛ الطاعون الذى قتل من دون تمييز ثلث سكان أوروبا. برأيه، الطبيعة تعرف كيف تطهر نفسها. عندما أجرى بيرتراند حساباته على

العقم، دُهِش عندما اكتشف أن معدل وفيات الطاعون - أي واحد من ثلاثة - هو النسبة المطلوبة تماماً لبدء غريلة السكان بمعدل يمكن التحكم به".

فكر لانغدون في سرّه: هذا وحشي.

"خفض الموت الأسود عدد السكان، ومهد الطريق أمام عصر النهضة. وبيتراند ابتكر فيروس إنفيريونو كحافز معاصر للتجدد العالمي؛ إنه موت أسود ما وراء إنساني، والفرق هو أن المصابين بالمرض لن يموتوا، بل سيصبحون عُقماء بكل بساطة. إن انتشار فيروس بيتراند كما يتوقع له أن يفعل، فيصاب ثلث سكان العالم بالعقم... وسيظلون عُقماء طوال حياتهم. وهكذا، سيكون الأثر مماثلاً للجينة المنحسرة... التي تنتقل إلى الأبناء لكنها لا تمارس تأثيرها سوى على نسبة صغيرة منهم".

ارتجفت يدا سيبينا وهي تتابع: "في رسالة بيتراند لي، بدا فخوراً بنفسه وهو يقول إنه يعتبر إنفيريونو حلاً أنيقاً وإنسانياً جداً للمشكلة". دمعت عينها مجدداً، فمسحتها وتابعت: "مقارنةً بأعراض الموت الأسود، أقر أن هذه المقاربة تنسجم بشيء من التعاطف. فالمستشفيات لن تكتظ بالمرضى والمحتضرين، ولن تتعفن الجثث في الشوارع، ولن يحزن الأحياء على فراق أحبائهم. كل ما سيحدث هو أن الناس سيتوقعون عن إنجاب الكثير من الأطفال. سيشهد كوكبنا انخفاضاً مطرداً في نسبة الولادات؛ إلى أن تبدأ أعدادنا بالانخفاض". صممت ثم أضافت: "سيكون الأثر أكبر من أثر الطاعون الذي اقتصر على خفض أعدادنا لمدة وجيزة؛ مؤدياً إلى انخفاض مؤقت في مخطط الزيادة السكانية. مع إنفيريونو، ابتكر بيتراند حلاً طويلاً الأمد؛ حلاً دائماً... حلاً ما وراء إنساني. كان مهندساً جينياً للسلالة الجرثومية. لقد حل المشكلة من جذورها".

همس لانغدون: "هذا إرهاب جيني... إنه يغيّر ما نحن عليه وما كنا عليه من الجذور".

لم ير بيتراند الأمور على هذا النحو. فقد حلم بإصلاح العيب القاتل في التطور البشري... ألا وهو كون جنسنا كثير التوالد ببساطة. نحن كائنات - على الرغم من نكاتها - لا نعرف كيف نسيطر على أعدادها. فعلى الرغم من موانع الحمل المجانية، والتعليم، والبرامج الحكومية، ما زلنا ننجب الأطفال... سواء أشئنا أم أبينا. هل نعرف أن مركز مكافحة الأمراض أعلن للتو أن نصف حالات الحمل في الولايات المتحدة غير مخطط لها؟ وفي الدول التي ما زالت في طور النمو، يتجاوز هذا الرقم 70 بالمائة؟!

سبق للانغدون أن رأى هذه الإحصائيات، لكنه لم يبدأ بفهم مضامينها سوى الآن. إذ يبدو البشر مثل أرانب أدخلت إلى إحدى جزر المحيط الهادئ، وسمح لها بالتكاثر من دون حسيب ولا رقيب إلى أن استنفدت نظامها البيئي وانقرضت.

لقد أعاد زوبريست تصميم جنسنا... حاول إنقاذنا عبر تحويلنا إلى بشر أقل خصوبة.

أخذ لانغدون نفساً عميقاً وحدث إلى اليوسفور. شعر أنه يتأرجح مثل الزوارق التي تبحر بعيداً. كانت صفارات الإنذار تقترب؛ آتية باتجاه الرصيف، فأحس أن الوقت ينفد.

قالت سيبينا: "أفزع ما في الأمر ليس العقم الذي يسببه إنغيرنو بل قدرته على فعل ذلك. فالناقل الفيروسي الذي ينتقل عبر الهواء يشكّل قفزة نوعية عبر الزمن. لقد نقلنا زوبريست فجأة من عصور الظلام في مجال الهندسة الجينية، وأطلقنا في المستقبل مباشرة. فقد فتحت عملية التطور، ومنح الجنس البشري القدرة على إعادة تعريف نوعنا. لقد خرج الجنّي من الققم، ومن المستحيل إعادته. صنع بيرتراند مفاتيح تعديل العرق البشري... وإن وقعت هذه المفاتيح في الأيدي الخاطئة، كان الله في عوننا. لم يكن ينبغي ابتكار هذه التكنولوجيا من الأساس. لذلك، عندما قرأت رسالة بيرتراند التي شرح لي فيها كيف حقق أهدافه، قمت بإحراقها، ثم قررت العثور على الفيروس وتدمير كل أثر له".

قال لانغدون بصوت مشوب بالغضب: "لا أفهم، إن كنت تريدان تدمير الفيروس، فلماذا لم تتعاوني مع د. سينسكي ومنظمة الصحة العالمية؟ كان عليك الاتصال بمركز مكافحة الأمراض أو بخبير ما".

"هل أنت جاذ؟! الوكالات الحكومية هي آخر الكيانات التي يجب أن تضع يدها على هذه التكنولوجيا! فكّر في الأمر، روبرت. في التاريخ البشري، كلّ تكنولوجيا متطورة اكتشفها العلم تحولت إلى سلاح؛ بدءاً من النار، ووصولاً إلى القوة النووية، وكانت دائماً بين أيادي الحكومات. ما مصدر أسلحتنا البيولوجية برأيك؟ لقد نتجت عن أبحاث أجريت في منظمات مثل منظمة الصحة العالمية ومركز مكافحة الأمراض. وتكنولوجيا بيرتراند - أي الفيروس الوبائي المستخدم كناقل جيني - أقوى سلاح ابتكر على وجه الأرض. فهو يمهد الطريق لفظائع لا يمكن تخيلها، بما في ذلك الأسلحة البيولوجية المستهدفة. تخيل وباء بهاجم فقط الأشخاص الذين يحتوي رمزهم الجيني على علامات عرقية معينة. إنه يتيح إمكانية التطهير العرقي على المستوى الجيني!".

"أنا أتفهم مخاوفك سيبينا. لكن، ألا يمكن استخدام هذه التكنولوجيا لأهداف خيرة أيضاً؟ ليس هذا الاكتشاف عظيماً بالنسبة إلى الطبّ الجيني؟ ألا يشكل طريقة جديدة لإعطاء تلقّيات عالمية مثلاً؟".

"ربّما، لكن مع الأسف، تعلّمت أن أتوقّع الأسوأ ممّن يملكون السلطة".

من بعيد، سمع لانغدون صوت طائرة مروحية تحلق في الهواء. نظر عبر الأشجار إلى الخلف، باتجاه بازار التوابل، ورأى مصابيح طائرة تحوم فوق التلّ متوجّهة نحو حوض السفن. بدا التوتر على سيبينا التي قالت وهي تقف وتنتظر نحو الغرب باتجاه جسر أتايتورك: "عليّ الذهاب. أعتقد أنني أستطيع عبور الجسر سيراً على الأقدام، ومن هناك، سأذهب إلى -"

قال بحزم: "لن أسمح لك بالرحيل سيبينا".

"روبرت، عدت لأنني شعرت أنني أدين لك بتفسير. وما قد حصلت عليه".

"كلّاً، بل عدت لأنك كنت تهربين طوال حياتك، وأدركت أخيراً أن الهرب لم يعد يفيد".

بدت سيبينا وكأنّها تتقلّص أمامه. سألته وهي تشاهد الطائرة المروحية تمرّ فوق الماء: "وهل لدي خيار آخر؟ سيزجون بي في السجن إن عثروا عليّ".

"أنت لم تفعل شيئا خاطئاً سيبينا. لست أنت من صنع هذا الفيروس... ولست من أطلقه".
"صحيح. لكنني بذلت ما في وسعي لمنع منظمة الصحة العالمية من إيجاده. إن لم ينتهِ
بي الأمر في سجن تركي، فسأواجه محكمة دولية بتهمة الإرهاب البيولوجي".
مع اقتراب مدير الطائرة، نظر لانغدون إلى الرصيف. كانت الطائرة تحوم هناك، مسلطة
أضواء مصابيحها على الزوارق.

شعر أن سيبينا جاهزة للانطلاق في أي لحظة.
قال لانغدون بنبرة لطيفة: "أصغي إليّ رجاء، أنا أعرف أنك عانيت الكثير، وأنت خائفة،
لكن فكري بالصورة الكبيرة. بيرتراند هو من صنع هذا الوباء، وأنت حاولت إيقافه".
"لكنني فشلت".

"صحيح، والآن انتشر الفيروس. سيحتاج المجتمعان العلمي والطبي إلى فهم كل شيء
عنه، وأنت الشخص الوحيد المؤهل لفعل ذلك. ربما كانت ثمة طريقة لإبطاله... أو للاستعداد
لمواجهته". وجه إليها لانغدون نظرات حادة مضيقاً: "سبينا، العالم يحتاج إلى معرفة ما تعرفينه،
ولا يمكنك الاختفاء ببساطة".

كان جسد سيبينا النحيل يرتعش، كما لو أن الحزن وعدم اليقين يهتدان بالانفجار بداخلها.
"روبرت، أنا... لا أعرف ماذا يجب أن أفعل. حتى إنني لم أعد أعرف من أكون. انظر إليّ".
ووضعت يدها على رأسها الأصلع. "لقد تحولت إلى وحش. كيف يمكنني أن أواجهه-"
تقدّم منها روبرت وأحاطها بذراعيه. شعر بجسدها يرتجف، كما شعر بضعفها. همس
بصوت منخفض: "سبينا، لن أسمح لك بالهرب. عليك أن تبدئي عاجلاً أم آجلاً بالوثوق
بشخص ما".

أخذت تتنحب قائلة: "لا أستطيع... لم أعد أعرف كيف أفعل ذلك".
احتضنها بقوة أكبر. "ابدئي بخطوات صغيرة. ثقي بي".

الفصل 100

أجفل العميد عندما سمع قعقة معدنية قوية خارج طائرة C-130. في الخارج، كان أحدهم يطرق بمسدس على باب الطائرة طالباً الدخول.

أمرهم الطيار وهو يتجه نحو الباب: "ابقيا جالسين على مقاعدكما، إنهم رجال الشرطة التركية. لقد توقفوا للتو خارج الطائرة".

تبادل العميد وفيريس نظرة سريعة.

شعر العميد من سيل الاتصالات المذعورة بين موظفي منظمة الصحة العالمية على الطائرة أن مهمة الاحتواء قد فشلت. لقد نفذ زوبريست خطته، وشركتي هي التي سمحت له بذلك.

في الخارج، صاح صوت أمر باللغة التركية.

وقف العميد وأمر الطيار قائلاً: "لا تفتح الباب!".

وقف الطيار وحنق إلى العميد. "لكن، لماذا؟".

أجاب: "منظمة الصحة العالمية منظمة إغاثة دولية، وهذه الطائرة تعتبر بمثابة أرض ذات سيادة!".

هز الطيار رأسه نافياً. "سيدي، هذه الطائرة متوقفة في مطار تركي، وإلى أن تغادر الأجواء التركية ينبغي لها أن تخضع لقوانين هذا البلد". بعد ذلك، توجه الطيار إلى باب الطائرة وفتحه.

ظهر رجلان يرتديان الزي الرسمي وحقاً إلى الداخل. لم يظهر في نظراتهما الجادة أي أثر للتهاون. سأل أحدهما ولكنه ثقيلة: "من هو قبطان هذه الطائرة؟".

أجاب الطيار: "أنا".

أعطى الضابط الطيار ورقتين. "هاتان مذكرتا اعتقال. يجب أن يأتي هذان المسافران معنا".

نظر الطيار إلى الورقتين، ثم التفت إلى العميد وفيريس.

قال العميد للطيار: "اتصل بدكتور سينسكي، نحن في مهمة دولية عاجلة".

نظر أحد الضابطين إلى العميد وقال ساخراً: "د. إليزابيث سينسكي؟! مديرة منظمة الصحة العالمية؟ هي التي أمرت باعقالكما".

أجاب العميد: "هذا مستحيل. لقد أتينا أنا والسيد فيريس إلى تركيا لمساعدة د. سينسكي".

قال الضابط الثاني: "إذاً، لقد أحسنتما فعلاً. اتصلت بنا د. سينسكي، وأبلغتنا أنكما متواطئان في مؤامرة إرهابية بيولوجية على الأراضي التركية". ثم أخرج الأصفاة مضيقاً:

"سنأتيان معنا إلى مركز الشرطة للاستجواب".

صاح العميد: "أريد محامياً".

بعد ثلاثين ثانية، وجد نفسه هو وفيريس مكبلّين بالأصفاد، وقد تمّ اقتيادهما إلى خارج الطائرة، ودفعهما للجلوس على المقعد الخلفي لسيارة سيدان سوداء. انطلقت السيارة على المدرج مبتعدة، ومتجهة نحو زاوية بعيدة من المطار. وهناك توقفت عند سياج سبق لها أن اخترقته عندما دخلت أرض المطار. ما إن عبرت السيارة من فتحة في السياج، حتّى انطلقت عبر مساحة مخصّصة لآليات المطار المخزّبة وتوقفت قرب مبنى قديم للخدمة.

ترجّل الضابطان من السيارة وراقبا المنطقة. وعندما اطمانا إلى أنّ أحداً لا يتبعهم، خلعا زيّ الشرطة ورميا الثياب جانباً، ثمّ ساعدا فيريس والعميد على الترجّل من السيارة، ونزعا الأصفاد من أيديهما.

أخذ العميد يفرك معصميه، وأدرك أنّ السجن لا يناسبه.

قال أحد العميلين مشيراً إلى فان أبيض مركون في الجوار: "مفاتيح السيارة موجودة تحت الدواسة. ثمة حقيبة على المقعد الخلفي تحتوي على كلّ ما طلبته؛ فيها وثائق سفر، ومبالغ نقدية، وهواتف مسبقة الدفع، وملابس، فضلاً عن بعض الأغراض الأخرى التي رأينا أنكما قد تحتاجان إليها".

قال العميد: "شكراً لكما، أنتما ممتازان".

"إنّنا مديّان جيّداً وحسب سيّدي".

بعد ذلك، ركب الرجلان التركيّان في سيّارة سيدان السوداء ورحلا.

ما كانت سينسكي لتسمح لي بالذهاب مطلقاً. هذا ما فكّر فيه العميد واستعدّ له في أثناء رحلته إلى إسطنبول. لذا، أرسل رسالة إلكترونية إلى الفرع المحليّ للكونسورتيوم، وأشار إلى أنّه قد يحتاج هو وفيريس إلى المساعدة على الفرار. سأله فيريس: "هل تظنّ أنّها ستلحق بنا؟".

هزّ العميد رأسه قائلاً: "سينسكي؟ بالتأكيد. مع أنّي أظنّ أنّها منشغلة بأمور أخرى في هذه اللحظة".

صعد الرجلان إلى الفان الأبيض، وبحث العميد بين محتويات الحقيبة للاطمئنان إلى وجود الوثائق المطلوبة. أخرج قبعة بايسبول ووضعها على رأسه، ثمّ وجد زجاجة شراب صغيرة. هذان الشابان رائعان فعلاً.

رمى العميد زجاجة الشراب، وفكّر في الانتظار حتّى الغد. لكنّه تنكّر كيس زوبريست، وتساءل عمّا سيكون عليه الغد.

لقد خرقتُ قاعدتي الأساسية، ووشيتُ بعميلي.

شعر العميد بالضياح وهو يفكر في أنّ الأيام القادمة ستطغى عليها أخبار كارثة أدّى فيها دوراً هاماً جداً. ما كان لهذا الأمر أن يحدث لولاى.

للمرّة الأولى في حياته، لم يعد يجد أنّ الجهل مبدأ أساسى. فتح غطاء الزجاجاة وهو يفكّر:

استمتع، فأتيامك معبودة على أي حال.

أخذ العميد جرعة كبيرة من الشراب.

فجأة، أضاعت الظلام مصابيح زرقاء، وأحاطت بهما سيارتا الشرطة من كل حذب

وصوب.

نظر العميد حوله مذعوراً... ثم جلس كالتمثال.

لا مفتر منهم.

مع اقتراب ضباط الشرطة التركية من الفان شاهرين أسلحتهم، أخذ العميد جرعة أخيرة من

شرابه، ثم رفع يديه فوق رأسه.

هذه المرة، عرف تماماً أن ضباط الشرطة ليسوا من رجاله.

الفصل 101

يقع مقر السفارة السويسرية في وان ليفينت بلازا، في ناطحة سحاب عصرية للغاية. ويشكل المبنى المقر بواجهته الزجاجية الزرقاء بناءً مستقبلي الطراز في أفق المدينة القديمة. مرّت ساعة تقريباً على مغادرة سينسكي للخزان لتتخذ من مكاتب السفارة السويسرية مقراً مؤقتاً لها. انتشرت في الصحف المحلية تقارير عن موجة الذعر التي عمّت الخزان في ليلة الختام لسيمفونية دانتي. لم تُذكر أي تفاصيل بعد، لكنّ وجود فريق طبي دولي يرتدي البدلات الواقية أدّى إلى الكثير من التكهنات كثيرة.

حققت سينسكي من النافذة إلى أضواء المدينة، وشعرت بوحدة بالغة. مدّت يدها تلقائياً إلى عنقها باحثة عن تميمتها، لكنها لم تجدها. كانت الآن موضوعة على مكتبها وقد انقسمت إلى نصفين.

أنهت مديرة منظمة الصحة العالمية للتوّ تنسيق سلسلة من الاجتماعات الطارئة التي ستعقد في جنيف في الساعات المقبلة. كان عدد من الوكالات في طريقه إلى هناك الآن، وخطّطت سينسكي للسفر إلى هناك خلال وقت قصير من أجل إطلاعهم بنفسها على تفاصيل ما جرى. لحسن الحظ، قام أحد الموظفين الليليين بإحضار كوب كبير من القهوة التركية لها، وسرعان ما أتت عليه. أطلّ شاب من باب مكتبها المفتوح. "سينتي، لقد أتى روبرت لانغدون لرؤيتك". "شكراً، أدخله من فضلك".

كان لانغدون قد اتصل بها قبل عشرين دقيقة، وأخبرها أنّ سيينا قد هربت منه على متن قارب في البحر. هذا ما قالته أيضاً السلطات التي ما زالت تلاحقها حتى الآن، لكنّ من دون جدوى. دخل لانغدون، لكنها بالكاد عرفته. كانت ملابسه متسخة، وشعره مشعثاً، وعيناه متعبتين وغائرتين.

وقفت سينسكي وسألته: "بروفيسور، هل أنت بخير؟".

ابتسم لانغدون مجيباً: "عشت ليالي أفضل".

أشارت إلى أحد المقاعد قائلة: "اجلس من فضلك".

جلس وقال من دون مقدمات: "تسرّب ويا زوبريست منذ أسبوع حسبما أعتقد".

هزت رأسها. "أجل، توصلنا إلى هذا الاستنتاج. لم تسجّل أعراض حتى الآن، لكننا أخذنا عينات وبدأنا بإجراء فحوصات مكثفة عليها. مع الأسف، سنحتاج إلى أيام أو أسابيع لفهم ماهية هذا الفيروس... وما قد يسببه للبشر".

قال لانغدون: "إنه فيروس ناقل".

فوجئت سينسكي، إذ لم تتوقع أن يعرف هذه العبارة أساساً. "المعززة؟".
"ابتكر زوبريست فيروساً ينتقل عبر الهواء، إنه فيروس قادر على تعديل الحمض النووي البشري".

وقفت فجأة، وسقط كرسيها في أثناء ذلك. "مستحيل! ما الذي يدفعك إلى هذا الاعتقاد؟".

أجابها بهدوء: "سيبناً هي التي أخبرتني بذلك، منذ نصف ساعة".

استندت سينسكي بيديها على المكتب، وحنقت إلى لانغدون بضيق. "ألم تهرب؟".

"بالطبع فعلت. كانت حرة على متن مركب في البحر، وكان من السهل بالنسبة إليها أن تختفي إلى الأبد. لكنها فكرت، وعادت بملء إرادتها. سيبناً تريد المساعدة لحل هذه المشكلة".
ضحكت سينسكي قائلة: "اعذرنى، لكنني لا أميل إلى الوثوق بالأسسة بروكس، لا سيما عندما تدعي أمراً كهذا".

قال لانغدون بحزم: "أنا أصدقها. وإن كانت تدعي أن هذا فيروس ناقل، فمن الأفضل أخذ كلامها على محمل الجد".

شعرت سينسكي بالإثناك فجأة، وكافحت لتحليل كلام لانغدون. ذهبت نحو النافذة، وحنقت إلى المدينة. فيروس ناقل يعكّل الحمض النووي؟ على الرغم من استحالة الفكرة وفضاعتها، إلا أنها أقرت أنها تتطوي على شيء من المنطق. ففي النهاية، كان زوبريست مهندساً جينياً، ويعرف تماماً أن أقل تعديل في جينة واحدة سيترك أثراً كارثية على الجسم؛ كالإصابة بالسرطان، أو فشل عضوي، أو اضطرابات في الدم. حتى إن مرض التوكس الليفي البغيض، الذي يغرق ضحيته بالوسائل المخاطي، ناجم عن تعديل ضئيل جداً في جينة منظّمة على الكروموزوم السابع.

بدأ المتخصصون الآن بعلاج هذه الأمراض الوراثية بفيروسات ناقلة بدائية يتم حقنها في جسم المريض مباشرة. وتتم برمجة هذه الفيروسات غير المعدية للانتقال في جسم المريض وإدخال حمض نووي بديل يعكّل الأجزاء المتضررة. غير أن هذا العلم الجديد - على غرار كل العلوم - يشتمل على جانب مظلم. فمن شأن نتائج الفيروس الناقل أن تكون إيجابية أو مدمرة... بحسب نوايا المهندس. إن تمت برمجة أحد الفيروسات على نحو خبيث لإدخال حمض نووي متضرر إلى الخلايا السليمة، فستكون النتائج مدمرة. علاوة على ذلك، إن صُمم ذلك الفيروس ليكون معدياً ولينتقل عبر الهواء...

ارتعشت سينسكي عندما خطرت لها هذه الفكرة. أي فظاعة حلم بها زوبريست؟ كيف خطط لخفض أعداد البشر؟

عرفت أن التوصل إلى إجابة سيستغرق أسابيع. فالشفرة البشرية الوراثية عبارة عن متاهة لا حدود لها من التعديلات الكيميائية، وتفتيشها بأكملها للعثور على تعديل معين قام به زوبريست سيكون كالبحث عن إبرة في كومة قش... حتى من دون أن نعرف في أي مكان على هذا الكوكب تقع تلك الكومة.

قال لانغدون بصوته العميق: "إليزابيث؟".

التفتت سينسكي ونظرت إليه.

سألها بهدوء: "هل سمعتي؟ أردت سينيّا تكمير هذا الفيروس؛ مثلك تماماً".
"أنا حقّاً أشكّ في ذلك".

تتهّد لانغدون ووقف قائلاً: "أظنّ أنّه يتوجّب عليك أن تصغي إليّ. قبل موت زوبريست بوقت قصير، كتب رسالة لسينيّا، وشرح لها فيها ما فعله. أخبرها بما سيسببه هذا الفيروس... وكيف سيهاجمنا... وكيف سيحقّق غاياته".

جمدّت سينسكي. ثمّة رسالة!؟

"عندما قرأت سينيّا وصف زوبريست لما فعله، شعرت بالرعب. أردت إيقافه، واعتبرت أنّ هذا الفيروس خطير، ولا يجب أن يصل إليه أحد، بما في ذلك منظّمة الصحة العالمية. ألا تفهمين؟ كانت سينيّا تحاول تكمير الفيروس... وليس إطلاقه".

سألته سينسكي: "هل قلت إنّ ثمّة رسالة؟ مع تفاصيل؟".

"هذا ما قالته سينيّا، أجل".

"نحتاج إلى تلك الرسالة! فالفاصيل ستوفّر علينا أشهراً من البحث لفهم هذا الشيء وكيفية التعامل معه".

هزّ لانغدون رأسه. "أنت لم تفهمي. عندما قرأت سينيّا رسالة زوبريست، ذعرت وأحرقتها فوراً. أردت أن تضمن عدم-"

ضربت سينسكي بيدها على المكتب، وصاحت غاضبة: "دمّرت الشيء الوحيد الذي يمكن أن يساعدنا على مواجهة هذه الأزمة! وتطلب منّي الوثوق بها!"

"أنا أفهم أنّني أطلب الكثير نظراً إلى أفعالها. لكن، عوضاً عن إبعادها قد يكون من الأفضل أن نتذكّر أنّ سينيّا تتمتع بقدرات عقلية خارقة؛ بما في ذلك قدرتها على الحفظ. ماذا لو كانت تستطيع إعادة كتابة رسالة زوبريست من أجل مساعدتك؟"

هزت سينسكي رأسها قائلة: "حسناً بروفيسور. في هذه الحالة، ماذا تقترح؟".

أشار إلى فنانجان قهوتها الفارغ. "أقترح أن تطلبي لي فنانجاناً من القهوة... وتصغي إليّ شرط سينيّا الوحيد".

تسارع نبض سينسكي، ونظرت إلى الهاتف. "هل تعرف كيفية الاتصال بها؟".

"أجل".

"أخبرني، ماذا تطلب؟".

أخبرها لانغدون، فصمتت وفكرت في العرض.

قال لانغدون: "أظنّ أنّ هذا هو الشيء المناسب وفي النهاية، ما الذي ستخسرينه؟".

أعطته سينسكي الهاتف. "إن كان ما نقوله صحيحاً، فأنا أعطيك وعداً بذلك. اتّصل بها رجاءً".

فوجئت سينسكي عندما تجاهل لانغدون الهاتف. وعوضاً عن الاتصال، نهض وخرج من المكتب قائلاً إنه سيعود للتو. لحقت به سينسكي باستغراب، ورأته وهو يتوجه إلى قاعة الانتظار، ويفتح باباً زجاجياً، ثم يتوجه نحو المصعد. للحظة ظننت أنه راحل، لكنه عوضاً عن طلب المصعد، ذهب إلى حمام السيدات.

بعد بضعة لحظات، عاد مع امرأة بدت في أوائل عقدها الثالث. احتاجت سينسكي إلى لحظات طويلة لتقبل أن المرأة هذه هي فعلاً سيبينا بروكس. فالمرأة الجميلة ذات الشعر الأشقر التي رأتها خلال النهار تبدلت تماماً. إذ أصبحت صلعاء.

عندما دخلا مكتبها، جلسا أمامها بصمت. قالت سيبينا بسرعة: "سامحيني، أعرف أن لدينا الكثير لنتناقش حوله، لكنني أرجو أن تسمح لي أولاً بقول شيء هام".

لاحظت سينسكي الحزن في صوتها. "بالطبع".

تابعت بصوت ضعيف: "سيدتي، أنت مديرة منظمة الصحة العالمية، وتعرفين أكثر من أي شخص آخر أننا جنس على شفير الانهيار... وذلك لأن نمونا خرج عن السيطرة. حاول زوبريست لسنوات عديدة مناقشة هذا الواقع مع أشخاص نافذين بمن فيهم حضرتك. قام بزيارة منظمات عديدة اعتقد أنها قادرة على إحداث تغيير، مثل معهد ورنلواش، ونادي روما، ومجلس العلاقات الخارجية... لكنه لم يجد قط شخصاً تجرأ على مناقشة حل فعلي. جميعكم رددتم بخطط لتتقيف الناس عن وسائل منع الحمل، والحواجز الضريبية للأسر الأصغر حجماً، وحتى بالحديث عن استعمار القمر! لذلك لا عجب أن يفقد بيرتراند صوابه".

حدقت إليها سينسكي من دون أن يبدو عليها أي رد فعل.

أخذت سيبينا نفساً عميقاً: "د. سينسكي، لقد أتى بيرتراند إليك شخصياً، وتوسل إليك للإقرار أننا أمام أزمة داهمة... ورجاك للتحاور معه. لكنك عوضاً عن الإصغاء إلى أفكاره، اعتبرته مجنوناً، وأدرجت اسمه على لائحة المراقبة، ونفيتة تحت الأرض". سيطر الانفعال على صوت سيبينا. "مات بيرتراند وحيداً، لأن أشخاصاً مثلك رفضوا فتح أذهانهم بما فيه الكفاية للإقرار أن الظروف الكارثية التي نعيشها تستلزم في الواقع حلاً غير مريح. كل ما فعله زوبريست هو قول الحقيقة... لذلك أصبح منبوذاً". مسحت سيبينا دموعها، ونظرت إلى سينسكي. "صدقيني، أنا أعرف معنى الوحدة... فأسوأ أشكال الوحدة هو العزلة التي تنجم عن سوء الفهم. بإمكان هذا الشعور أن يجعل الناس يفقدون إحساسهم بالواقع".

خيم الصمت.

همست: "هذا كل ما أردت قوله".

تأملتها سينسكي مطولاً، ثم جلست وقالت بهدوء: "آنسة بروكس، أنت محقة. ربما لم أصغ من قبل... ووضعت نراعيها على المكتب ونظرت مباشرة إلى سيبينا. لكنني سأصغي إليك الآن".

الفصل 102

دَقَّت الساعة الواحدة صباحاً في بهو القنصلية السويسرية منذ مدّة طويلة.
امتلاً دفتر الملاحظات الصغير على مكتب سينسكي بالنصوص، والأسئلة، والرسوم
البيانية المكتوبة بخط اليد. لم تصدر عن مديرة منظّمة الصحة العالمية أي كلمة أو حركة لأكثر
من خمس دقائق، بل وقفت أمام النافذة وحذقت إلى سماء الليل.
خلفها، جلس لانغدون وسيينا ينتظران وهما يرتشفان قهوتهما التركية التي ملأت رائحتها
الغرفة.

كان الصوت الوحيد المسموع صادراً عن أزيز المصابيح في السقف.
شعرت سيينا بقلبها ينبض وهي تتساءل عما تفكر فيه سينسكي بعدما سمعت الحقيقة
الفجّة كاملة. فيروس بيرتراند هو وباء عقم. سيصاب ثلث سكان العالم بالعقم.
خلال الحديث، راقبت سيينا انفعالات سينسكي المتتالية التي كانت ملموسة على الرغم من
تحفظها. بدت عليها أولاً الصدمة عندما تقبلت أنّ زوبريست قد صنع بالفعل فيروساً ناقلاً ينتقل
عبر الهواء. ثمّ ظهر أمل عابر عندما أخبرتها أنّه لا يهدف إلى قتل الناس. بعد ذلك... خيم
الربّ ببطء على ملامحها عندما اتّضحت لها الحقيقة، وأدركت أنّ أعداداً هائلة من سكان
الأرض سيصابون بالعقم. من الواضح أنّ ما كشفته لها عن الفيروس الذي يهاجم خصوبة
البشر أثر فيها على صعيد شخصي.
بالنسبة إلى سيينا، شعرت بالارتياح بعد أن باحت بكل شيء عن رسالة بيرتراند. لم يعد
لدي أسرار.

قال لانغدون: "إليزابيث؟".

خرجت سينسكي من أفكارها ببطء. التفتت إليهما قائلة: "سيينا، ستساعدنا معلوماتك على
وضع خطة للتعامل مع هذه الأزمة. أنا أقدر صراحتك. فكما تعلمين، نمت مناقشة الفيروسات
اليوانية الناقلة على صعيد نظري؛ كطريقة لتلقيح شرائح كبيرة من السكان، لكن الجميع يعتقدون
أنّ هذه التكنولوجيا تحتاج إلى سنوات عديدة لتتطوّر".

عادت سينسكي إلى مكتبها وجلست.

هزّت رأسها وتابعت: "أعذريني، لكن كلّ هذا يبدو لي حالياً وكأنّه خيال علمي".

فكرت سيينا: هذا غير مستغرب. فكّل قفزة نوعية في الطبّ بدت على هذا النحو؛ البيئيين،
والتخدير، والأشعة السينية، والمرة الأولى التي نظر فيها البشر عبر المجهر ورأوا خلية تنقسم.

حدّثت سينسكي إلى ملاحظاتها، ثمّ أضافت: "عندما أصل إلى جنيف بعد ساعات، سأواجه عاصفة من الأسئلة. وسيكون السؤال الأول من دون شكّ هو ما إذا كانت ثمة طريقة لإبطال الفيروس".

وجدت سينيّا أنّها محقة.

تابعت سينسكي: "أعتقد أن الحلّ الأول يتمثّل في تحليل الفيروس وفهمه جيداً، ومن ثمّ محاولة هندسة سلالة أخرى منه؛ سلالة نعيد برمجتها لإعادة حمضنا النووي إلى ما كان عليه سابقاً". لم يبد على سينسكي التفاؤل وهي تنظر إلى سينيّا. "لا أعرف بعد ما إذا كان من الممكن صنع فيروس مضادّ. لكن، من الناحية النظرية، أحبّ أن أعرف رأيك في ذلك".

رأيت؟ نظرت سينيّا إلى لاندغون تلقائياً، فهزّ البروفيسور رأسه باعثاً إليها برسالة واضحة جداً: بما أنّك وصلت إلى هذه النقطة، عبّري عن رأيك، وقولي الحقيقة كما تريها.

التفتت سينيّا إلى سينسكي وتحدّثت بصوت واضح وقوي. "سينّي، لقد عشت في عالم الهندسة الجينية مع بيرتراند لسنوات عديدة. كما تعلمين، الجينوم البشري بنية حسّاسة للغاية... مثل بيت من بطاقات الورق. كلّما أدخلنا عليه تعديلات تضاعفت احتمالات تعديل البطاقة الخاطئة والتسبّب بانهيار البنية بأكملها. باعقادي، إنّ محاولة إبطال ما فعله زويريست تنطوي على خطر كبير. لقد كان بيرتراند يتمتّع بموهبة ورؤية استثنائية، كما كان متقنماً على زملائه بسنوات. وحالياً، لست واثقة أنّه ثمة من يمكن أن ننقّ به إلى حدّ تركه يعبث بالجينوم البشري على أمل إصلاحه. وحتى لو صنعتم شيئاً وظننتم أنّه قد ينجح، فإنّ تجربته تشتمل على خطر نقل عدوى جديدة إلى السكان". فوجئت سينسكي إلى حدّ ما بما سمعته، وقالت: "هذا صحيح تماماً، لكن ثمة مسألة أهمّ. ربما كنّا لا نرغب في إبطاله".

كلامها صدم سينيّا. "المعذرة؟!".

"أنسة بروكس، ربّما كنت أختلف مع بيرتراند في وسائله، لكنّ تقييمه للحالة التي وصل إليها العالم دقيق، فكوكبنا يواجه أزمة سكانية خطيرة. وإبطال ما فعله يعيدنا إلى نقطة البداية من دون خطة بديلة...".

لا بدّ أنّ صدمة سينيّا كانت واضحة، لأنّ سينسكي ضحكت بتعب وأضافت: "هذا ليس ما توقّعت سماعه منّي، أليس كذلك؟".

هزّت سينيّا رأسها نافية. "أظنّ أنّني لم أعد واثقة ممّا يجب عليّ أن أتوقّعه".

"إذا، ربّما سأفاجئك مجدّداً. فكما سبق وذكرت، سيجتمع قادة الوكالات الصحية من مختلف أنحاء العالم في جنيف خلال ساعات لمناقشة هذه الأزمة، وإعداد خطة عمل. لم يسبق أن نظّم اجتماع بهذه الأهمية خلال سنوات عملي في المنظمة". ونظرت إلى الطليبية الشابة مضيفة: "سينيّا، أودّ أن تكوني حاضرة في ذلك الاجتماع".

فوجئت سينيّا: "ماذا؟ أنا لست مهندسة جينية، وسبق لي أن أخبرتك بكلّ ما أعرفه". وأشارت إلى دفتر ملاحظاتها. "كلّ ما لديّ موجود هنا في ملاحظاتك".

تدخل لانغدون قائلاً: "هذا غير صحيح. سيينا، أي جدال مجد حول هذا الفيروس يحتاج إلى سياق. يجب على د. سينسكي وفريقها وضع إطار أخلاقي لتقييم تدابيرهم تجاه هذه الأزمة. ومن الواضح أنها تعتقد أن لديك موقفاً فريداً تضيفينه إلى ذلك الحوار".

"لا أظن أن الإطار الأخلاقي الذي سأقدمه سيعجب منظمة الصحة العالمية".

أجابها: "كلاً على الأرجح، وهذا سبب إضافي لذهابك. أنت واحدة من مجموعة جديدة من المفكرين، ولديك رأي مخالف. لذلك يمكنك مساعدتهم على فهم عقلية أشخاص من أمثال بيرتراند، عقلية علماء لامعين لديهم قناعات قوية، ويقومون بالمبادرة بأنفسهم".

"لم يكن بيرتراند الأول".

قالت سينسكي: "كلاً، ولن يكون الأخير. كل شهر، تكشف منظمة الصحة العالمية النقاب عن مختبرات يعمل فيها العلماء في مناطق رمانية من العلم؛ بدءاً من التلاعب بالخلايا الجذعية البشرية، إلى إنتاج مخلوقات وهمية... أجناس هجينة غير موجودة في الطبيعة. هذه الأمور مخيفة، فالعلم يتقدم بسرعة متجاوزاً كل الخطوط الحمراء".

وافقتها سيينا. فمؤخراً، قام عالمان فيروسيان محترمان هما فوشيه وكواوكا، باختراع فيروس H5N1 متحول. على الرغم من أن نية الباحثين كانت أكاديمية بحثية، إلا أن اختراعهما الجديد يمتاز بقدرات أثارت قلق أخصائيي الأمن البيولوجي، وولدت جدالاً حامياً على الإنترنت.

قالت سينسكي: "أخشى أن يزداد الوضع سوءاً مع مرور الزمن، فنحن نبتكر تكنولوجيات جديدة لا يمكن تخيلها".

أضافت سيينا: "وفلسفات جديدة أيضاً. فالحركة ما وراء الإنسانية على وشك الخروج من الظل إلى العلن. ومن مبادئها الأساسية أن البشر لديهم واجب أخلاقي يفرض عليهم المشاركة في العملية التطورية... واستخدام التكنولوجيات الجديدة من أجل تقدم الجنس البشري، وولادة كائنات بشرية أفضل وأكثر صحة وقوة ونقاء. قريباً، سيصبح كل شيء ممكناً".

"ألا تظنين أن هذه المعتقدات تتعارض مع عملية التطور".

أجابتها سيينا من دون تردد: "كلاً. لقد تطور البشر تدريجياً خلال العصور، واكتشفوا تكنولوجيات جديدة، فبدأوا بحفّ أعواد الخشب على بعضها لإشعال النار، ثم طوروا الزراعة لتأمين الغذاء، واخترعوا لقاحات لمكافحة الأمراض، وما هم الآن يصنعون أدوات جينية للمساعدة على هندسة أجسادنا، لكي نتمكن من البقاء في عالم متغير. أعتقد أن الهندسة الجينية ليست سوى خطوة أخرى في طريق التطور البشري الطويل".

صمتت سينسكي وهي تفكر في كلامها. "إذاً برأيك، علينا استقبال هذه الأدوات بأنزع

مفتوحة؟".

"إن لم نفعل، فإننا لا نستحق الحياة؛ تماماً مثل إنسان الكهف الذي يتجمد من البرد خوفاً من إشعال النار".

تردّد صدى هذه العبارة في الغرفة لمدة طويلة قبل أن يتمكّن أحد من الكلام. كان لانغدون هو من كسر جدار الصمت. "لا أقصد أن أبدو قديم الطراز، لكنني نشأت على نظريات داروين، ولا يمكنني سوى أن أتساءل عن الحكمة في محاولة تسريع عملية التطور الطبيعية".

قالت سيبينا: "روبرت، الهندسة الجينية ليست تسريعاً للعملية التطورية، بل إنها تشكّل المسار الطبيعي للأحداث! ما تتساءل هو أنّ التطور هو الذي صنع بيرتراند زوبريست. فتقوّه الفكري ليس سوى نتاج العملية التي وصفها داروين... التطور عبر الزمن. واكتشافات بيرتراند النادرة في مجال علم الوراثة لم تهبط عليه فجأة... بل نتجت عن سنوات من التقدّم الفكري البشري".

غرق لانغدون في الصمت، وهو يفكر على ما يبدو. تابعت: "بصفتك مطلعاً على نظرية داروين، أنت تعرف أنّ الطبيعة وجدت دوماً طريقة لخفض أعداد سكان العالم؛ كالأرئثة والمجاعات والفيضانات. لكن، دعني أطرح عليك هذا السؤال: أليس من الممكن أن تكون الطبيعة قد وجدت أسلوباً مختلفاً هذه المرة؟ فعوضاً عن إرسال كوارث فظيعة وأشكال مختلفة من البؤس... ربما صنعت الطبيعة - من خلال عملية التطور - عالمياً اخترع طريقة مختلفة لخفض أعدادنا مع مرور الوقت؛ من دون أوبئة، ومن دون موت، بل مجرد جنس بشري أكثر تناعماً مع بيئته".

قاطعتها سينسكي: "سيبينا، لقد تأخرنا. علينا الذهاب. لكن، أولاً أريد منك إيضاح أمر أخير. قلت عدّة مرات هذه الليلة إن زوبريست لم يكن شريراً... وإنه يحبّ الجنس البشري، وكلّ ما في الأمر أنّه يتوقّ إلى إنقاذنا من الهلاك، إلى حدّ أنّه أباح لنفسه اتّخاذ مثل هذه التدابير الجذرية". هزّت سيبينا رأسها، وردّدت جملة المنظّر السياسي الفلورنسي الشهير ماركيافيلي: "الغاية تبرّر الوسيلة".

"أخبريني إذاً، هل تعتقدين حقّاً أنّ الغاية تبرّر الوسيلة؟ هل تظنّين أنّ هدف بيرتراند كان سامياً ويبرّر إطلاقه هذا الفيروس؟".

خيم صمت متوتّر على الغرفة.

انحنّت سيبينا على المكتب، وأجابت بنبرة جادة: "د. سينسكي، كما سبق وقلت لك، أعتقد أنّ أفعال بيرتراند كانت متهوّرة وخطرة للغاية. ولو تمكّنت، لأوقفته على الفور. يجب أن تصدّقيني".

مدّت سينسكي يديها، وأمسكت بيدي سيبينا بلطف. "أنا أصدّقك سيبينا. أنا أصدّق كلّ كلمة قلتها".

الفصل 103

في مطار أتاتورك، كان الهواء قارساً قبيل الفجر. خيم ضباب خفيف فوق المكان، ولف المدرج حول المهيبط الخاص.

وصل كل من لانغدون وسيينا وسينسكي بالسيارة، واستقبلهم في الخارج فريق من منظمة الصحة العالمية.

قال الرجل الذي استقبل الثلاثة في مبنى متواضع: "نحن جاهزون عندما تأمرين سيدتي".

سألته سينسكي: "وماذا عن الترتيبات الخاصة بالسيد لانغدون؟" "طائرة خاصة إلى فلورنسا، ووثائق السفر المؤقتة الخاصة به أصبحت على متن الطائرة".

هزت سينسكي رأسها باستحسان. "وماذا عن المسألة الأخرى التي ناقشناها؟" "إنها قيد التنفيذ. سيتم شحن الطرد بأسرع وقت ممكن".

شكرت سينسكي الرجل الذي خرج وتوجه عبر المدرج إلى الطائرة، ثم التفتت إلى لانغدون قائلة: "هل أنت واثق أنك لا ترغب في الانضمام إلينا؟". ابتسمت بتعب وأرجعت شعرها القضي الطويل إلى الخلف.

أجابها مازحاً: "نظراً إلى الوضع، لست واثقاً مَـيـاً يمكن أن يقدمه أستاذ في الفنون".

قالت سينسكي: "لقد قنمت الكثير، أكثر مما تظن. ليس أقله..." وأشارت إلى سيينا، لكن الشابة لم تعد معهما، بل كانت تقف على بعد عشرين ياردة أمام نافذة كبيرة، وتحقق إلى طائرة C-130 المنتظرة في الخارج، وقد غرقت في أفكارها.

قال لانغدون بصوت خافت: "أشكرك على الوثوق بها. فأنا أشعر أنها افتقدت إلى ذلك في حياتها".

"أعتقد أننا سنتعلم أنا وسيينا بروكس الكثير من بعضنا". ثم مدت يدها مودعة: "بالوفيق، بروفيسور".

صافحها لانغدون. "شكراً، أتمنى لكما حظاً موفقاً في جنيف". "سنحتاج إلى ذلك"، ثم أشارت إلى سيينا: "سأعطيكما بضع دقائق بمفردكما. أرسلها عندما تصبح جاهزاً".

فيما كانت سينسكي متجهة إلى المدرج، مدت يدها بشرود إلى جيبها وأخرجت نصفي التيممة المكسورة، ثم ضغطت عليهما.

ناداها لانغدون من خلفها: "لا تتخلي عن صولجان أسكليبيوس ذلك، يمكن إصلاحه".
أجابته ملوحة بيدها: "شكراً، أمل أن يكون إصلاح كل شيء ممكناً".

وقفت سينا بمفردها أمام النافذة، محدقة إلى أضواء المدرج الذي بدا معتماً في الضباب تحت السحب المتراكمة. فوق برج مراقبة بعيد، رفرق العلم التركي بفخر، بلونه الأحمر الذي يحمل رمزي الهلال والنجمة. أتران من آثار الإمبراطورية العثمانية ما زال موجودين بفخر في العالم المعاصر.

قال صوت عميق من خلفها: "أعطي ليرة تركية لمعرفة أفكارك".

لم تلتفت سينا. "تمة عاصفة قادمة".

أجابها لانغدون بصوت خافت: "أعرف".

بعد لحظات، التفتت سينا نحوه. "كما أنني أتمنى لو ترافقنا إلى جنيف".

أجابها: "هذا لطف منك، لكنك ستكونين مشغولة بالحديث عن المستقبل، وآخر ما

تحتاجين إليه هو أستاذ جامعة قديم الطراز".

نظرت إليه باستغراب. "أنت تعتقد أنك كبير في السن بالنسبة إليّ، أليس كذلك؟"

انفجر ضاحكاً. "سينا، أنا حتماً كبير بالنسبة إليك!".

شعرت بالإحراج وهي تقف أمامه. "حسناً، على الأقل أنت تعرف أين تجدني". رفعت

كتفيها مضيفة: "أعني... إن رغبت في رؤيتي مجدداً".

ابتسم قائلاً: "سيسرني ذلك".

أحسّت أن معنوياتها قد ارتفعت بعض الشيء، لكن الصمت خيم عليهما مطولاً، ولم يعرف

أي منهما كيف يودّع الآخر.

فجأة، شعرت سينا وهي تحدق إلى البروفيسور الأميركي بعاطفة قوية ومفاجئة. فوقفت

على رؤوس أصابعها، وعانقته. وعندما ابتعدت، كانت عيناها مبللتين بالدموع. همست: "سأفتدك إليك".

ابتسم لانغدون وأحاطها بذراعيه: "وأنا أيضاً".

بقيا على هذه الحال للحظات لم يرغب في أن تنتهي. أخيراً، قال لانغدون: "تمة مثل قديم..."

غالباً ما ينسب إلى دانتي نفسه... "وصمت هنيهة ثم قال: "تذكر الليلة... لأنها بداية الخلود".

قالت وقد بدأت دموعها تسيل على وجهها: "شكراً لك روبرت. أخيراً، أصبحت أشعر أن

لدي هدفاً".

ضمّهما لانغدون إليه بقوة أكبر. "قلت دائماً إنك ترغبين في إنقاذ العالم سييئاً. قد تكون هذه فرصتك".

ابتسمت واستدارت مبتعدة. مشيت بمفردها نحو الطائرة، وفكرت في كلّ ما جرى... وفي كلّ ما قد يجري في المستقبل.

كرّرت بينها وبين نفسها: تنكّري الليلة... لأنها بداية الخلود.

صعدت سييئاً إلى الطائرة، وتمنّيت أن يكون دانتي محقاً.

الفصل 104

انخفضت شمس بعد الظهيرة فوق بياترا ديل دوومو، وأضاءت برج دجوتو الأبيض، ملقية ظلالاً طويلة على كاتدرائية سانتا ماريا ديل فيوري الرائعة في فلورنسا.

كانت جنازة إغناسيو بوزوني قد بدأت للتو عندما دخل لانغدون الكاتدرائية وجلس على أحد المقاعد. شعر بالسرور لأن جنازة بوزوني تقام في هذا المكان الذي يتجاوز الزمن، والذي اهتم به إغناسيو لسنوات عديدة.

على الرغم من واجهة الكاتدرائية التي تنبض بالحياة، كان داخلها صارماً وخالياً وكنياً. مع ذلك، بدت الكاتدرائية اليوم كما لو كانت في احتفال. من جميع أنحاء إيطاليا، توافد المسؤولون الحكوميون، والأصدقاء، والزملاء من عالم الفن إلى الكاتدرائية لتذكر ذلك الرجل المرح الذي أطلقوا عليه بحب لقب *إيل دوومينو*.

أفادت وسائل الإعلام أن بوزوني قد توفي وهو يقوم بأكثر شيء، يحب القيام به؛ أي التتره ليلاً حول الدوومو.

كانت أجواء الجنازة استثنائية، إذ تخللتها تعليقات مرحة من الأصدقاء وأفراد الأسرة. فأشار أحد الزملاء إلى أن حب بوزوني لفن عصر النهضة لا يجاريه - باعترافه الخاص - سوى حبه للسباغيتي بولونيزي ويونيو الكاراميل.

بعد انتهاء المراسم، اختلط المعزّون وراحوا يروون أحداثاً من حياة إغناسيو، في حين تجول لانغدون داخل الدوومو، وهو يتأمل التحف الفنية التي أحبها إغناسيو كثيراً... لوحة فاساري الممتدة تحت القبة، ونوافذ دونالديلو وغيبيرتي الملونة، وساعة أوتشيلو، والفسيفساء التي تزين الأرض والتي غالباً ما يغفلها الزائرون.

بعد قليل، وجد نفسه أمام وجه مألوف، وجه دانتي أليغييري. ظهر الشاعر العظيم في الجدارية الأسطورية لميكيلينو، واقفاً أمام جبل المطهر، حاملاً بين يديه تحفته الكوميديا الإلهية.

تساءل لانغدون رغماً عنه عما كان من الممكن أن يفكر فيه دانتي لو علم بتأثير قصيدته الملحمية في العالم بعد قرون من الزمن، في مستقبل ما كان الشاعر الفلورنسي نفسه من الممكن أن يتخيله.

تذكر آراء الفلاسفة الإغريق الأوائل في الشهرة. لقد وجد الحياة الدائمة. فما دام اسمك يُذكر، فلن تموت أبداً.

عاد في بداية المساء إلى فندق برونييسكي الفخم عبر ساحة سانت إليزابيثا. وعندما وصل إلى غرفته، سرَّ لوصول الطرد الكبير الذي كان بانتظاره.
وصل الطرد الذي طلبته من سينسكي.

أسرع لانغدون يقصّ الشريط اللاصق ويخرج محتويات الصندوق الثمينة التي اطمأن لدى رؤيته إيّاها مغلفة بعناية وبطريقة آمنة.

غير أنّ لانغدون فوجئ باحتواء الصندوق على أشياء إضافية. إذ يبدو أنّ إليزابيث سينسكي قد استخدمت نفوذها لاستعادة عدد أكبر من الأغراض التي طلبها. كان الصندوق يحتوي على ملابسها الخاصة؛ أي قميصه، والسروال الكاكي، وسترة هاريس تويد، كلّها نظيفة ومكوية بعناية. حتّى إنّ حذاءه كان هناك، نظيفاً وملمّعاً. وجد أيضاً محفظته في الصندوق. غير أنّ غرضاً أخيراً فاجأ لانغدون ودفعه إلى الضحك. كان ردّ فعله ناتجاً عن الراحة التي غمرته لاستعادته... لا سيّما وأنّه يعني له الكثير.
ساعة ميكي ماوس.

وضع لانغدون الساعة على معصمه فوراً. إحساسه بالحزام الجلدي البالي على بشرته أشعره بالأمان على نحو غريب. ويعد أن ارتدى ملابسه، وانتقل حذاءه شعر أنّه استعاد مظهره الحقيقي. خرج لانغدون من الفندق، وحمل الرزمة الحساسة في كيس من أكياس الفندق، بعدما اقترضه من عامل الاستقبال. كان المساء دافئاً على نحو غير اعتيادي، حيث ضاعف من الطابع الخيالي لنزهته في شارع فيا داي كالتسايلي، نحو برج قصر فيكيو الوحيد. عندما وصل، تحقّق لدى مكتب الأمن من ورود اسمه على لائحة الأشخاص الذين يفترض بهم مقابلة مارتا ألفاريز. توجّه إلى قاعة الخمسمائة التي كانت لا تزال تعجّ بالسائح. وصل في الوقت المحدّد، وتوقّع رؤية مارتا عند المدخل، لكنّها لم تكن هناك.
سأل أحد الموظفين بالإيطالية.

"المعذرة، أين أجد مارتا ألفاريز؟"

ابتسم الموظف ابتسامة عريضة. "سينيور/ألفاريز؟! ليست هنا! أنجبت طفلة! كاتالينا! إنها جميلة جداً!"

فرح لانغدون بالخبر السعيد. "آه... كم هذا جميل! ستوبينلو!"

ابتعد الموظف، فتساءل لانغدون عما يفترض به فعله بما يحمله.

سرعان ما اتخذ قراره، فاجتاز القاعة المزخّمة، ومرّ تحت جدارية فاساري متّجهاً إلى متحف القصر، ومحاولاً البقاء بعيداً عن أعين الحراس.

أخيراً، وصل إلى خارج حجرة/نيتيو الضيقة. كان الممرّ مظلماً ومغلقاً بحاجز، مع لافتة كتب عليها: كيزو/مغلق.

نظر لانغدون حوله بعناية، ثمّ تسلّل عبر الحاجز إلى المكان المظلم. مدّ يده داخل الكيس، وأخرج الرزمة، ثمّ نزع عنها الغلاف الواقي. كان القناع الجصّي لا يزال في الكيس

الأصلي الذي أخذ فيه، بعدما تمت استعادته - بطلب من لانغدون - من خزائن محطة القطار في البندقية. بدا القناع بحالة ممتازة، باستثناء شيء واحد؛ قصيدة أضيفت إلى باطنه بشكل لولبي أنيق.

نظر لانغدون إلى خزانة العرض القديمة. بما أن واجهة قناع دانتي هي المعروضة... فإن أحدًا لن يلاحظ الفرق.

أخرج القناع من الكيس، ثم علّقه على الوتد المخصص له بحذر شديد. سقط القناع في مكانه، في إطاره المخملي الأحمر المألوف.

أغلق لانغدون الخزانة، ووقف للحظة متأملًا وجه دانتي الشاحب الذي بدا أقرب إلى شبح في الغرفة المظلمة. ها قد عدت أخيرًا.

وقبل أن يغادر الغرفة، نزع لانغدون الحاجز واللافتة عن الباب. عندما وصل إلى القاعة، توقف للتحدث مع موظفة شابة.

قال لها: "سينيورينا، عليكم إضاءة المصابيح فوق قناع دانتي، فمن الصعب جدًا رؤيته في الظلام".

قالت الشابة: "أسفة، لكن الغرفة مغلقة. قناع دانتي لم يعد هناك".

تظاهر لانغدون بالدهشة. "هذا غريب! كنت أتأمله للتو".

بدا الارتباك على وجه الموظفة التي اندفعت إلى الأعلى، في حين تسأل لانغدون من المتحف بهدوء.

خاتمة

على ارتفاع أربعة وثلاثين ألف قدم فوق خليج بيسكاي المظلم، انطلقت طائرة أليتايا المتجهة إلى بوسطن غريباً تحت ضوء القمر.

على متنها، جلس روبرت لانغدون حاملاً بين يديه نسخة ورقية عن الكوميديا الإلهية. كان إيقاع القصيدة المقترن بهدير محركات الطائرة قد أدخله في حالة أشبه بالتنويم المغناطيسي. شعر أن كلمات دانتي تتدفق من الصفحة، وتتردد في قلبه كما لو أنها قد كتبت له خصيصاً في هذه اللحظة.

تذكر أن قصيدة دانتي ليست عن بؤس الجحيم، بل عن قوة الروح البشرية وقدرتها على مواجهة التحديات، مهما بلغت صعوبتها.

في الخارج، ارتفع البدر ساطعاً في السماء، ومنافساً بجماله كل الأجسام السماوية الأخرى. حنق لانغدون إلى الفضاء، تائهاً في أفكاره حول كل ما جرى في الأيام القليلة الماضية. *أحلك الأماكن في الجحيم هي لأولئك الذين يحافظون على حيادهم في الأزمات الأخلاقية.* لم يتضح له معنى هذه الجملة إلى هذا الحد قبل الآن: عند الشدائد، التراخي هو الخطيئة الكبرى.

عرف لانغدون أنه ارتكب هذه الخطيئة هو نفسه؛ شأنه شأن ملايين الناس. فحين يتعلق الأمر بظروف هذا العالم، أصبح الإنكار وباء مستحلاً. وقد تعهد لانغدون لنفسه بعدم نسيان ذلك أبداً.

مع تقدم الطائرة غريباً، فكر لانغدون في المرأتين الشجاعتين الموجودتين الآن في جنيف، لتواجه المستقبل ببسالة، وتعالجا تعقيدات هذا العالم المتغير.

خارج النافذة، ظهرت السحب في الأفق، متقدمة ببطء في السماء، إلى أن مرّت أمام القمر وحجبت ضوءه الجميل.

استرخى لانغدون على مقعده، وشعر أن الوقت قد حان للنوم. أطفالاً المصباح فوق رأسه، ونظر إلى الفضاء للمرة الأخيرة. في الخارج، أسدل ليل جديد ستاره على عالم مختلف، وأصبحت السماء بساطاً مزداناً بالنجوم.

عن الكاتب

دان براون هو مؤلف *سيفرة دافينشي*؛ إحدى الروايات الأكثر انتشاراً في العالم، فضلاً عن الكتب الأكثر مبيعاً؛ *الرمز المفقود*، *ملائكة وشياطين*، *حقيقة الخديعة*، *الحصن الرقمي*. يعيش في نيو إنغلند مع زوجته.

بعد رواية شيفرة دافينشي، أصبح دان براون مؤلفاً عالمياً للروايات الأكثر مبيعاً. فهو يدمج بشكل رائع الشيفرات، والرموز، والفن، والتاريخ في روايات مثيرة تأسر مئات ملايين الأشخاص حول العالم. في هذه الرواية الجديدة، الجحيم، يصطحب دان براون قراءه إلى قلب إيطاليا... ويقودهم عبر مشاهد مستوحاة من ملحمة دافني، أو الكوميديا الإلهية، وهي واحدة من أهم الأعمال الأدبية الكلاسيكية وأكثرها ترويعاً في التاريخ.

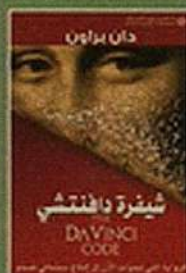
يفتح روبرت لانغدون، بروفيسور علم الرموز في جامعة هارفرد، عينيه في منتصف الليل متأثراً من جرح في الرأس، ليكتشف أنه راقد في المستشفى لا يستطيع أن يتذكر ما حدث معه خلال الساعات الست والثلاثين الأخيرة أو مصدر ذلك الشيء الرهيب الذي اكتشفه الأطباء بين أمتعته.

إثر هذا تدبّ الفوضى في عالم لانغدون ويضطر للهروب في مدينة فلورنسا برفقة شابة لطيفة تدعى سيبينا بروكس، التي تمكنت من إنقاذ حياته بفعل تصرفاتها الذكية، ليتبين له أن بحوزته مجموعة من الرموز الخطرة التي ابتدعها عالم فذ.

تتسارع الأحداث عبر مواقع أثرية شهيرة، مثل قصر فيكيو، ويكتشف لانغدون وبروكس شبكة من السرايب القديمة، فضلاً عن نموذج علمي جديد ومخيف، من شأنه أن يُستخدم إما لتحسين نوعية الحياة على الأرض... أو تدميرها.

على هذه الخلفية، يصارع لانغدون خصماً رهيباً بينما يتشبه بلغز يأخذه إلى عالم الفنون الكلاسيكية والممرات السرية والعلوم المستقبلية، محاولاً اكتشاف الأجوبة ومعرفة مَنْ هو الجدير بثقته... قبل الانهيار الكبير.

صدر للمؤلف أيضاً:



ISBN 978-614-01-0899-8



9 786140 108998



جميع حقوق النشر محفوظة على الإنترنت
في مكتبة نيل وهنريز كوم
www.nwf.com



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com



تصميم الغلاف: سامح خلف